كتاب قضايا عربية

في الوحدة العربية وقضايا المجتمع العربي

حرية الثقافة العربية

هجرة الكفاءات العربية


Bibliotheca Alexandrina
0138178

حرية الثقافة العربية

هجرة الكفاءات العربية

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع: عمان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الأولى

١٩٩٣

كتاب قضايا عربية
في الوحدة العربية وقضايا المجتمع العربي

حرية الثقافة العربية

هجرة الكفاءات العربية



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina



المحتويات

حرية الثقافة العربية

هجرة الكفايات العربية

■ نقد الكتب

■ مناقشات

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

تقدم : أعمال الريحاني العربية الكاملة

المجلد	الموضوع	اسم الكتاب
الأول	الرحلات	ملوك العرب
الثاني	الرحلات	المغرب الاقصى
		نور الاندلس
الثالث	الرحلات	قلب لبنان
الرابع	رحلات	قلب العراق
	وتاريخ	فيصل الاول
الخامس	تاريخ	تاريخ نجد الحديث
السادس	تاريخ	النكبات
	ومقالات أولى	نبذة في الثورة الفرنسية
		شذرات من عهد الصبا
السابع	مقالات اجتماعية	الريحانيات
	وفلسفية	القوميات
الثامن	مقالات سياسية	التطرف والاصلاح
		وصيتي
		أدب وفن
التاسع	نقد ادبي	وجوه شرقية وغربية
	ومقالات أدبية	أنتم الشعراء
	وشعر منثور	قصتي مع مي
		هتاف الاودية
		زنبقة الغور ــ وفاء
العاشر	الرواية والمسرح	الزمان عبد الحميد ــ
	والقول	بنور للزارعين
		المحالفة الثلاثية ــ
الحادي عشر	القصة	خارج الحريم
		المكاري والكاهن ــ
		سجل التوبة
الثاني عشر	الرسائل	أدبية وسياسية وعائلية

الادب واشكالية الثورة العربية

انطون المقدسي

مسؤول التاليف والترجمة والنشر في وزارة الثقافة والارشاد (دمشق) ، صدر له العديد من الدراسات في الفكر والفلسفة والادب .

كانت* الخصومة بين القديم والحديث التي اشترك فيها طه حسين وسجل بعضا من وقائعها[1] أول مواجهة صريحة ومعلنة في عصرنا بين التراث والتحديث أو اذا شئت بين ماضينا والانفتاح على الحضارة المستحدثة ، مجابهة باهتة . فيما يبدو لنا اليوم بعد مرور نصف قرن ونيف عليها . اذ أنها دارت في حلقة ضيقة من الـ كتاب سرعان ما طواها الزمن وسبقها التطور . ولكن من كان يظن في حينه أن الخصومة ذاتها التي اقتصرت في النصف الثاني من القرن السابع عشر على كتاب وشعراء فرنسيين كانت المؤشر الاول لازمة في الوجدان الاوروبي أفضت الى عصر الانوار[2] فالثورة الفرنسية ؟ فالادب الجدير بهذا الاسم استشرافي ، وصراعاته كثيرا ما تكون تعبيرا مسبقا عن ، أو اشارة ، إيماءة الى ظاهرة او الى مشكلة ستتكشف عن ابعادها في مستقبل قريب . فاذ يعلن ابو نواس

عاج الشقي على طلل يسائله
وعجت اسأل عن خمارة البلد

يدعو العرب الى الانتقال ، مرة ولكل مرة من البادية التي أخذت تستحيل أطلالا الى المدنية التي اخذت تناديهم وتفرض ذاتها عليهم .

قد تبدو لنا اليوم خصومة الرافعي مع سلامة موسى وشكيب ارسلان مع خليل سكاكيني ،

*** طرح مؤتمر الادباء العرب الذي انعقد في دمشق ــ الاسبوع الاخير من تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٧٩ ــ طرح على المؤتمرين موضوعا عاما هو . دور الادب في مواجهة التحديات الراهنة . وفصله في موضوعات فرعية . اولها . اشكالية دور الادب العربي الثوري . ومن ثم هذا الدور في الشعر والقصة والمسرح وموضوعات اخرى ملحقة . وقد لاحظت وانا اقرا بعضا من البحوث المقدمة ان بالامكان اغناءها بالكشف عن ابعاد جديدة قد تكون مضمرة فيها . والذي ستوقفني بالدرجة الاولى هو كلمة (اشكال) فالمفهوم هذا بحاجة الى التمييز بينه وبين مفهوم اخر ملازم له هو (المشكلة) . كما انه من الضروري تعيين موقع الاشكال في المشكلة المعالجة . ولقد ادخلت على العنوان المقترح تبديلا بسيطا لاشير الى ان الاشكال في الثورة اكثر مما هو في الادب . وفي الوجود اكثر مما هو في الثورة . لا ادري ما اذا كانت هذه الدراسة استطاعت ان تجيب عن الاسئلة التي طرحتها على ذاتي وانا اقرا البحوث وبعدها . ولكني أعتقد بانها تنبه الى بعض ابعاد السؤال المطروح .**

(١) راجع حديث الاربعاء . الجزء الثالث صفحة ٥٨٢ وما يلي من طبعة دار الكتاب اللبناني .

(٢) راجع كتابي بول هزار **ازمة الوجدان الاوروبي** في مجلد واحد و **فكر القرن الثامن عشر** في ثلاثة مجلدات نشر بوافان بباريس . والاول مترجم الى اللغة العربية .

وغيرهم باهتة بالقياس الى الحركة التي قادها أبو نواس[٣] . اذ إن هذه كانت في الواقع صراعا بين نمطين من الوجود ، أو إذا شئت بين حضارتين ، حضارة البادية وحضارة المدينة . أما تلك فاقتصرت فيما يبدو من كلام طه حسين ، على التجديد والتقليد في اللغة واتسعت فصارت مشاحنات حول مسألة ما تزال حتى اليوم تغيب وتظهر في دنيا العرب ، وهي مسألة ما إذا كان تعلم اللغات الأجنبية واقتباس بعض المعاني والأساليب عنها مضرا بالسليقة العربية أم لا . وطه حسين هو الذي نبه الناس ، فيما يبدو ، الى أن الخصومة الأدبية وجه من وجوه خصومة حضارية تشمل ابعاد الوجود الاجتماعي كلها .

واليوم بوسعنا ان نرى بأوسع وأدق مما كان يرى طه حسين إذ إن نصف القرن ونيف الذي يفصل بيننا وبين تلك الخصومة الادبية كشف لنا عن حقيقتها وهي انها البادرة الاولى لمواجهة ما برحت تتسع وتتعمق يوما اثر يوم ، هي المواجهة بين شخصيتنا التاريخية كما تبلورت وترسخت خلال خمسة عشر قرنا ونيف وبين الواقع الحضاري المستجد الذي يستدعينا بالحاح وعنف متزايدين ، لا بل انه ينفذ الى حنايا وأركان هذه الشخصية ليجعل منها شيئا غير الذي ألفه أجدادنا وأورثونا إياه . فالخصومة لم تعد ما كانت عليه في أواسط العشرينات من هذا القرن ، أو في القرن الثاني للهجرة ، أي صراعا بين فريقين على الأصالة والحداثة ، أو على أيهما أعلى شأنا وأجدر بالتبني : ماضي الجماعة أم حاضرها ، بل انه اليوم صراع قائم في صميم وجودنا على كافة الابعاد والمستويات الاقتصادية منها والثقافية ، السياسية والاجتماعية ، وبالتالي في الافراد والفئات ، بنسب تتفاوت تبعا للبيئة والتربية والمؤثرات والمصادفات والطبع ، وما شاكل من عوامل لا يدري صاحبها نفسه كيف تختاره ويختارها ، او كيف يؤلف بينها .

فالصراع وجودي ، كلي اذا شئت اذ انه اختيار مصير .

الواقع ان الخصومة بين القديم والحديث حاضرة بشكل أو بآخر في كافة العصور ولدى كافة الأمم والشعوب كما يلاحظ طه حسين ، بعد كثيرين ، في المقالات المذكورة . وبالفعل فنحن نجدها في بعض من اقدم النصوص التي وصلتنا ، ومنها على سبيل المثال الالياذة حيث يعيب الشيخ الحكيم نسطور على ابطال الاغريق وهم يحاصرون طروادة ضعف رجولتهم بالقياس الى ما كانت عليه قوة الرجال في زمانه . اذ ان هذه الخصومة مرتبطة بحركة التاريخ حيث المستحدث او الحاضر ـ ايا كان نوعه واية كانت قيمته ـ يدفع بحركة تلقائية ما قبله الى الماضي البعيد ليجعل منه مقابلا ينقذه وقد يرفضه والعكس صحيح . فالقديم ليس كذلك الا بالقياس الى جديد ، والعكس ايضا صحيح . والاثنان إذا متكاملان ويندرجان في سياق حضارة معينة أو مرحلة تاريخية واحدة ذات سمات عامة مشتركة تؤلف بين تعارضاتها . فصراعاتها هي الدليل الى حركتها ، وهذه الحركة اما الى الوراء او الى الامام ، وكثيرا ما لا يستطيع الشاهد عليها معرفة ما اذا كانت حقا الى الامام او الى الوراء .

ولكن ما بالك اذا فقد الارتباط بين الطرفين المتقابلين المتعارضين فكل منهما يجهل الاخر ، بالاحرى يصر على تجاهله ؟ فالحداثة ـ وهي ما تزال في الطريق الى ذاتها ، والمجتمع الحديث ما يزال في الطريق الى توازنه، وكل شيء يشير الى ان الطريق شاقة وطويلة ـ الحداثة هذه تريد ان ترمي في الظلمات البرانية كل ما سبقها ، لا في الادب وحسب بل وعمليا في النظم السياسية والاجتماعية

---

(٣) راجع الجزء الثاني من حديث الاربعاء في الطبعة ذاتها صفحة ٢٢٢ وما يلي .

وفي التنظيم الاقتصادي وكانها تبني من الصفر او لا على مثال* . اما القديم – ويقال عنه عندئذ انه كلاسيكي – فيقدم ذاته على انه الاصل ، الحقيقة ، الصحيح ، وبكلمة مختصرة الطريق المستقيمة وما خرج عن سنته فهو مارق ، مرضي شاذ ، وفي كل الاحوال طارىء يجب ان يزول وسيزول لا محالة .

هذا النفي المتبادل نلاحظه في كافة المنعطفات الحضارية الكبرى او الاساسيه حيث الانسان يكتشف خطا جديدا يحدد مسار التاريخ لقرون ، ومنه على سبيل المثال المنعطف الذي تكون مع الفلسفة الاغريقية عندما انتشرت في العالم ، ومعها انتشرت المعقوليه المنطقية – او العقلانية إذا شئت – وما يلزم عنها من نتائج في كافة ابعاد الوجود الانساني على الخصوص في وجهيه الاجتماعي والثقافي . فقد ادت في العالمين العربي والغربي الى خصومات وصراعات وثورات ثقافية معها تكونت الثقافات التي تلتها كلها . ومنها عندنا معركة القرن الخامس للهجرة بين الفلسفة (ويمثلها اذ ذاك ابن رشد) والكلام(وعلى راس ممثليه الغزالي) . انها معركة لم نعرها حتى الان ما تستحقه من اهمية فندرسها بدقة ، مع انها في الطليعة من معاركنا الثقافية وقد تكون اخطرها شانا . اذ ان النصر الذي سجله فيها الغزالي حدد الملامح الكبرى للشخصية العربية في ابعادها الحضارية والاجتماعية والثقافية(واحيانا بلورها نهائيا) كما انه رسم للعقل العربي خطا قلما حاد عنه حتى الان .

وفي اعتقادي اننا نخوض اليوم معركه من مقياسها بدات لربع قرن خلا ونيف . والان تتضح معالمها اكثر فاكثر ؛ وقد تفيض عنها مدى وخطورة ، وقد يكون خطرها على مستقبلنا اكبر اذ ان ثقافات العالم المصنع تحاصرنا من الجهات الاربع في زمن افقدنا بعد قرون من الانحسار والقوقعة قدرتنا الكاملة على المبادهة او مناعتنا ، فردود فعلنا قلما تكون ملائمة ، متوازنة او محكمة . لا بل هي في اغلب الحالات احد امرين لا ندري ايهما اسوأ . اما ان تصدر عن القديم النفسي ، تقصد اللاشعور الجماعي الذي هو مركب انفعالات متراكمة . واما انها تقليد اعمى لنموذج لم يوضع لعالمنا ولتاريخنا ونحن عاجزون عن تعديله بالشكل المناسب .

لقد تكاثرت الانتفاضات الشعبية والحركات الثورية ايضا منذ ربع قرن ونيف بحيث كادت تعم الوطن العربي كله . ولكن ما ان تحقق النصر الاول والمباشر على العدو فتطرده حتى يضعها قصورنا النظري في موقف التردد امام الخيارات الصعبة : فهي ، بسبب من هذا تؤكد بوثوقية مطلقة الشعارات التي تلخص اهدافها وتنساها او بالاحرى تضطر لتعليقها عندما تصطدم بالواقع المعقد .

والحق ان العربي حائر في صميمه امام الحضارة الحديثة اذ انها تقنعه ، وجوديا ، موضوعيا امام خطين لا يعرف كيف يؤلف بينهما ، ولا يدري ايهما يختار شخصيته التاريخية التي ما تزال حية ، قوية ، ضاغطة من جانب وفي الجانب الاخر الحضارة التكنولوجية التي تلاشي . بوسائلها الهائلة الفوارق الشخصية والقومية وغيرها لانها لا تاريخية ولا زمنية ما تزال حتى الان السيادة فيها للمغفل . وتلك هي اشكالية الوجود العربي نقرؤها في الادب وفي الثورة المنتصرة . وفي اي بعد شئت من ابعاد وجودنا .

---

* ولقد تكاثرت بالفعل عناوين الكتب التي تشير الى هذه البدايه المطلقه . اشير منها على سبيل المثال الى اثنين نشرتهما وزارة الثقافه في دمشق **التنمية صفر و الكتابة في درجة الصفر** . وهذا الاخير هو فعلا نقطه بدايه لنمط من تصور الكتابة. معه وبعده . ومثل هذه التيارات كثيرة في الكتب التي تنشر منذ سنوات قليلة.

ولا تظنن ان الغلبة دوماللحديث، كما يرى طه حسين[٤] وكثيرون غيره . وحجتهم ان الانسان ابن زمانه وعليه ، شاء ام ابى ، ان ياخذ بمستلزماته . فقد يكون الانسان طليعة المحدثين في الوسائل والادوات التي يستخدم او في التشريعات التي يعتمد والبنى التي ينشيء ، كما قد يرتدي احدث الازياء ويدرس في اكثر المعاهد تقدما وتقدمية ، ومع ذلك فهو من القديم الاعتق اذ انـه يرد كل ما حصل وعمل الى صورة هي عنده الاقوى والارسخ وبالتالي الاصح اقصد صورة الماضي . وهذا سرعان ما يتبدى في منطقه ، وعلى الخصوص في استجابته للاحداث او في موقفه من المفاجيء والطاريء . فحداثته قشرة رقيقة تتلاشى عند اول صدمة . وبالفعل فقد تشاد البنى الاجتماعية على اكمل تشريعات العمل ، والمؤسسات الاقتصادية يبنيها متخصصون مشهود لهم . ولكن قد تدار بعقلية قبلية واحيانا اقطاعية او ابوية ، تفسد اكثر مما تصلح لانها تستبقي العلائق بين افراد المنظمة المعنية على ما كانت عليه اي شخصية ناظمها القرابة والعلائق الفردية . وكذلك الانتماءات فهي ذاتية ضابطها الشرف على المنظمة ، وبهذا تزيدها سوءا اذ تفقدها الحد الادنى من الترفع الذي كان يتسم به الراسمالي او الملاك الاقطاعي ، وتضيف اليها تعقيدات البيروقراطية المستجدة وشكلياتها .

وكذلك الايديولوجيات فقد تكون في شعاراتها ومنطوقها مفرطة في طليعيتها ، مترمتة في يساريتها ، ومع ذلك فسرعان ما تفقد قدرتها على تحريك الجماهير اذ انها صيغت بعبارات انفعالية ــ صوفية اكاد اقول سحرية وبعقل خطابي ــ تقريري ارسلها في المطلق بحيث افرغها من مضمونها التحليلي التربوي وتحولت الى كلمات جوفاء .

قد يكون القصدّ في كل هذا غير ما ذكرت . فالقائد السياسي يستهدف رفع الشعب الى مستوى القيادة ، والمصلح الاجتماعي التحديث ، والمنظر الموضوعية الخ . ولكن المسالة ليست بالنسبة الينا مسألة نوايا ، بل مسالة لقاء بين حضارتين ، بين شخصيتين اجتماعيتين ، كل منهما تكونت بمعزل عن الاخرى ، وعلى العقل الذي يستهدف التبديل فهم كل منهما بذاتها ولذاتها ليتبين السبيل الى لقاء ممكن بينهما وعلى اي مستوى وضمن اية حدود يمكن ان يتم . وعندها تبدأ الثورة وتستقيم مسيرتها . وهذا الفهم قد يسبق اليه فكر الاديب فكر المفكرين . ان الحضارات والثقافات والوحدات الاجتماعيةدوما في تفاعل.والاقوى هو الذي يشد الاضعف اليه ويمثله ويبنيه في كيانه.والشواهد على ذلك كثيرة في تاريخنا الثقافي . فابو نواس ، على سبيل المثال ، تزعم في الشعر العربي حركة تحديث ارادها في الحقيقة تجديدا لنمط حياة العربي ولذوقه . ولم يكن هو الاول ولا الاخير في عصر اللقاء بين الحضارة العربية الوافدة من البادية على المدينة وبين الحضارة الشرقية التي تجمعت وتبلورت في بلاد فارس وحواضرها الكبرى مما استثار صراعا بين رؤيتين للوجود ، بين نمطين من الحياة ، بين خلقين بين سياستين . . . ويتركز في الشعر حول البادية والحضر . ويتصور الانسان للوهلة الاولى ان الغلبة ستكون للنمط الثاني على الاول لان العرب الفاتحين انفسهم كانوا ينتقلون اذ ذاك (بهذا الانتقال الذي لم ينته بعد) من البادية الى الحضر . ولكن ما ان يمضـي قرن حتى تصبح الثقافة الشرقية وجها من اوجه الثقافة العربية ويمتزجان الى حد صار معه المستعربون (ومنهم جوته مثلا) عاجزين عن التمييز بينهما . ونحن العرب كذلك في اغلب الحالات .

كما ان النواسي نفسه صار في حياته حلقة من حلقات تطور الشعر العربي . اقصد الشعر

---

(٤) راجع مقالات طه حسين في حديث الاربعاء ، الطبعة المذكورة.

الجاهلي الذي تحضر وبقي جاهليا . فالسهولة في الاداء والرقة في العواطف والليونة في الذوق والصور والموضوعات المدنية المترفة ، كلها وغيرها مما استجد لم تنزع عن شعرنا طابعه الجاهلي اقصد ايقاع البادية وعنجهية ابنائها وموقف اهلها من الموجودات وحتى احيانا نظرتها السحرية الى الكون والبشر .

وعندما انحسرت البادية لم يتبدل اي شيء . وجل ما في الامر ان الشعر تردى فصار خطابة ! او صار صناعة بعد ان كان طبعا كما كانت العرب تقول.

وربما ان صراع افلاطون مع ملحمتي هوميروس بعد ابلغ في الكشف عن قدرة الشخصية القديمة على الصمود في وجه المستجد وامتصاصه او التآلف معه ، فمؤلف الجمهورية ــ الذي صمم على ان يحل في بلاد الاغريق التربية العلمية (يعني الفلسفية) محل التربية الادبية لان الاولى تقوم على الحقيقة ، والثانية على اساطير ووسائل سحرية ــ وجه لهوميروس نقدا منهجيا قد لا تجد له مثيلا في التاريخ بجرأته واحكامه ، وخاض لاجل ذلك مع ايزوقراطس (وهو واحد من اشهر معلمي ونقاد عصره) معركة قسمت على ما يبدو الرأي العام والمثقفين في اثينا الى فريقين واستمرت زمنا بين المدرستين[٥] . وكان بجانب افلاطون اكاديميته التي ما برحت طوال قرون بعد وفاة المعلم تخرج العلماء والقادة السياسيين والمثقفين ممن اخذوا باسباب فكره عملا ونظرا . ومع ذلك بقي هوميروس معلم الاغريق حتى زالوا من الوجود ، يقرؤونه ويعلقون عليه ويحفظون تراثه زادا لحياتهم الثقافية واحيانا الدينية وغيرها . لا بل ان افلاطون الشاعر صار جزءا لا يتجزأ من التراث الاغريقي الذي هو تراث هوميري . اما افلاطون الفيلسوف فهو مع تلميذه ارسطو، النواة الاولى لفكر العصور الحديثة والمعقولية التي وضع اسسها الاولى هذان الفيلسوفان في وجهيها الديالكتيكي والتحليلي : وهي ما نسميه اليوم المعقولية الكلاسيكية .

والواقع ان الحداثة شخصية حضارية مستجدة هي حصيلة ما سبقها وفي الموقف ذاته نقض كلي له . ولهذا فهي حيث نشأت وتوطدت في صراع عنيف مع ماضيها .

فما بالك اذا كانت حدثا مفاجئا ، كما هي عليه الحال لدى الامم غير المصنعة ونحن منها ؟ انها عندئذ تحرض في الجماعة كل منهما تنفي الاخرى بعنف متزايد الانكفاء على الذات من جهة والهرب منها من جهة اخرى : تأكيد القديم واعتبار المستحدث مجرد وسيلة من جهة او من جهة اخرى اعتبار القديم مما ولى وانقضى دونما رجعة . وارادة تبني الحديث هو كما هو وبدون تردد . والحركتان متواجدتان في صميم الجماعة العربية وفي نفسية كل فرد من افرادها ولكن بنسب متفاوتة . ذلك ان للحداثة سحرها الخاص حلو المذاق لمن يعانيها ، فهي تشدك اليها ، تجذبك ، تستهويك فلا سبيل لك الى دفعها ، وفي الوقت ذاته ترفضك ، ترميك جانبا ، تشعرك كل دقيقة انك لست ابنا شرعيا لها وانها لن تتبناك ابدا .

والحداثة الى ذلك ، كانت بمثابة صدمة قوية اصابت على حين غرة الجماعات القديمة . وكان على هذه ، كل منها ان توحد صفوفها كي تصمد في معركة هي المصيرية حقا ، وما عداها ملحق بها . ومن المؤسف ان الذي حصل هو العكس اذ ان الحداثة عرت الماضي واستفزت بسبب من هذا

---

(٥) هنري مارو ، **تاريخ التربية في العصور القديمة** نشر سوي بباريس الطبعة الثالثة ، الفصلان السادس والسابع من القسم الاول .

الصراعات القديمة وما رافقها من احقاد دفينة هي في حقيقتها شحنات متراكمة من الانفعالات المكبوتة تنتظر الشرارة التي تؤذن بانفلات الرقابة كي تتفجر .

وخلاصة القول ان الصراع بين شخصيتين حضاريتين تقابلتا على غير موعد . تواجدتا قبل ان تتعارفا ، وكل منهما يمثلها فريق هو منظمة او حزب او مؤسسة او طبقة ، وهما في الوقت ذاته حاضرتان لدى الجميع افرادا وجماعات ، وان تفاوتت نسبة الحضور .

وسيستمر الصراع زمنا طويلا ، اذ لا يستطيع اي فريق حسمه لصالحه بسبب مما تقدم . فالجماعة مترددة في صميمها في امر الصراع بتردد مستقل عن ارادة المريدين ، فهو محنة الجماعات القديمة وامتحان قدرتها على الصمود والتمثل والتاليف .

لقد لوحظ ان الثورات تصبح محافظة عندما يتوطد النصر لها اذ ان عليها ان تحتفظ بمكتسباتها وان تستعيد في الوقت ذاته التراث الذي انبثقت منه . اما في الجماعات القديمة فيبدو لي ان الحركات الثورية تقف حائرة بعد نصرها الاول وكانها ــ وهذا ما هو واقع ــ تبحث عن الارض الصلبة التي ستضع عليها قدمها لتقدم على الخطوة الثانية . هذه الحيرة تمليها المرحلة التاريخية او الوضع الحضاري . وفيها الاشكالية تقرؤها في التنظيم الاجتماعي . في السياسة . في الاقتصاد . . . وفي الادب .**ولكن اذا كان بوسع الفرد ان ينتظر واذا كانت الجماعة صبورة فان حركة التاريخ لا تقف وقد تمشي وتخلف وراءها الحيارى والمترددين .**

ثمة نتيجتان تترتبان على ما تقدم **الاولى** هي ان التقدم ليس وحيد الخط بحيث تنتقل بيسر من نقطة الى اخرى تليها احسن منها ، اذ ان حركة التاريخ متعددة الاتجاهات . فالحاضر ، حيث يتم العمل الاصلاحي او الثوري وحيث يكتب الكاتب هذا الحاضر هو نقطة تقاطع لخطوط كثيرة الارادة ، العقل . ارادة الانسان العاقل ملزمة باختيار خط منها وتجميع الخطوط الاخرى حوله في تاليف جديد هو بذور المستقبل . فالماضي الحي ، اذا كان حقا حيا ، ليس وراءنا بل هو امامنا يستدعينا . وهذا ما يعرفه او يحسه الكاتب والمفكر والشاعر (وكل من هؤلاء شاعر على طريقته وضمن حدوده) اكثر من السياسي والمصلح الاجتماعي او الثوري . اذ ان ايا من هؤلاء يلغي الخطوط كلها لحساب واحد منها ، على الشعب ان يتبناه ويسير عليه . اما الشاعر فيستبقي الخطوط كلها ليؤلف عالما فريدا في نوعه وهو في الوقت ذاته حيث تتعرف الى ذاتك باحسن مما تتعرف اليها في عالمك اليومي ، فهو لا يعكس العالم ولا يؤلف عكسه ، بل يقول شيئا هو غيره واياه .

الثانية هي ان القديم والحديث ليسا كيانين قائمين كل منهما بذاته ، او في المطلق . وعلينا ان نختار احدهما وندين الثاني بادانة تلغيه كما يوهم الادب السياسي عندما يستحيل بيانات دعائية . اذ الموجود ــ الذي هو جملة علائقية ــ لا يوجد الا في علاقتنا معه او في القصد الذي نتوجه به اليه . فلا يوجد نموذج للتحديث نعلنه علميا وندعو اليه كما توهم الكتابات التقدمية احيانا ، وانما التحديث هو في قدرة الجماعة على غرس الجديد في القديم بحيث ينبت كل منهما الاخر . كما انه بالمقابل لا يوجد نموذج اول او اصيل هو الاكمل وعلينا ان نعود اليه او نستعيده في اقرب صورة اليه ، اذ الاصل في سلسلة الحيوات التي عاشها خلال الفاصل الزمني الذي يباعد باستمرار بيننا وبينه : وكثيرا ما ناخذ ما تعلمناه من تفسير وممارسة والفناه بحكم التكرار والعادة على انه حقيقتنا او طبيعتنا ، وما حاد عنه فهو شذوذ يجب ان يشجب ويستبعد .

اقول بشكل اخر قد يكون ادق : ان الانسان يقرأ دوما وجوده . اقصد يعيشه ويفسره . يفسره ليعيشه . واذ يعيشه يفسره . وقد تكون القراءة مبدعة فهي تخرج . وقد تكون محاكاة فهي رجعة ولو كانت نسخا لاكثر الانظمة تقدما . وتلك هي الثورة ، وتلك هو الشعر : إبداع وجود .

الاشكالية ، اذا كنا نعني حقا ما نقول . هي مشكلة لا نعرف لها حلا . سؤال لا جواب عنه . واسميها احراجا عندما تضع الجماعة امام خطين . كل منهما يشدها اليه بقوة . مما يجعلها تتردد . وجوديا[٦] في معرفة ايهما تسلك . وإشكال الثورة العربية . اشكال الادب العربي الثوري في الوجود العربي او في ما ينطوي عليه هذا الوجود من اتجاهات وخطوط متعارضة تتقاطع فيه . فثمة افقيا الصراعات القطرية والطبقية والطائفية . الصراعات الاقتصادية والسياسية والثقافية وغيرها ، وعموديا الصراع الحضاري بين الشخصية الاولى . الشخصية ــ النموذج او الام حيث حقيقة الجماعة ووحدتها التاريخية . وبين الحضارة التكنولوجية التي تنفي كل خصوصية قومية ، وهي في الوقت ذاته مستقبلنا ومستقبل البشرية . اقله المستقبل القريب . وبالفعل فاذ تسيطر الالة تصهر البشر افرادا وجماعات في بوتقة واحدة لتعيد صياغتهم على صورتها ومثالها ثم تصنفهم في زمرتين كبيرتين : اسيادها وخدمها[٧] . منتجين ومستهلكين . مستعمرين ومستعمرين ، مستغلين ومستغلين . وتلك ، على ما يبدو طبقية القرن الواحد والعشرين . فالالة تنصاع لمن يبتدعها او يسهم في ابتداعها او يسير في هذا الخط . اما المستهلك امـــا الذي يطلب المتعة وعدته ثروته لا عقله فهي تردده الى منزلة التابع . وقد تجعل وجوده سديما قبل ان تزيله من الوجود .

اقول عن هذا الخيار انه وجودي لانه ليس مفاضلة بين شيئين او حدين مفروضين عليك ، بل هو اختيار ما اختيرلك ، وما اختيرلك هو ما انت عليه ، اقصد الهوية القومية وحضارة الالة ، وهذه نفي لتلك بل قد تكون ، فيما اذا اخذت بنتائجها القصوى ، نفيا للهوية الشخصية او نفيا للانسان . وقد كان وما يزال على الانسان ان يصمد للانساني ويؤنسنه . والخيار الوجودي يلاحقك اين واني ذهبت ، تراه امامك يتحدى كل حركة من حركاتك ، وان تستجيب ، وعليك ان تتساءل كل مرة تستجيب : اهو ابن البادية او وليد الحضارة الحديثة الذي يستجيب ؟ واعتقد اننا سنتردد كثيرا في الجواب اذا كنا مخلصين لموقعنا من سلم الحضارة . فبعضنا يبدل خطه على فجاة دون سبب واضح كان ينتقل بين عشية وضحاها من اليمين الى اليسار ، او العكس من الحماس المفرط للجديد الاجد الى التقوقع على القديم الاقدم ، والبعض الاخر وهم الاكثرية ــ يعيشون الخطين معا ، فالفرد يسلم امره مرغما للخط الاكثر الحاحا ساعة يلح .

ومتى صممنا ، وجوديا ، كجماعة ، على الخيار نكون قد بدأنا سلوك الطريق من التخلف الى الحداثة . فالذي يتجاوز الاحراج هو حركة التاريخ إذا كان الشعب من مقياسها : واذ تعجز فثمة الثورة اذا كان ثمة ثوار . اذ ان الثورة تبديل لخط سير التاريخ ، فمن تصدى لها وقصر عنها ردته الى « ارذل العمر » .

والثورة بعد ، وإن كانت تفاجيء العالم ــ وقد تفاجيء الثوار انفسهم ــ فهي حصيلة اعداد

---

(٦) بمعنى انطولوجي.
(٧) التمييز هذا لفرانسوا بيرو ، وهو يردده في أغلب كتاباته منذ عشر او خمس عشرة سنة .

طويل . فمشكلة الامة العربية ـ اشكالها ـ انها وجدت ذاتها امام الثورة وكأن هذه هي التي سعت اليها ، او كان التاريخ اقحمنا في الوضع الاحراجي وتحدانا . الثورة او الفناء . ولم يكن بمقدورنا الا ان نقبل ، إذ الحياة لا تختار الموت الا لحياة افضل واكمل . قبلنا وعتنا كبرياء التاريخ وعنجهية ابن البادية وقدرته على الارتجال . قبلنا ولم يكن لنا خيار في مكان المعركة او زمانها . فحيث ارادها العدو اردناها بجرأة واقدام . وهكذا صارت الثورة ثورات وحيث تتجزأ الثورة يتحول الشعب على المدى البعيد الى شعوب والمصلحة الى مصالح والتاريخ الى تواريخ والثقافة الى ثقافات ، وبالنتيجه تستحيل الامة امما . والامم صراعات والتواريخ خصوصيات .

وعند الخطر الداهم تعلق القبائل الخصومات ، تعلن الهدنة وترضى باضعف الايمان اقصد التضامن والى ان يفتح الله علينا . تلكم هو المنحدر الذي تنزلق عليه الشعوب غير المصنعة عند يقظتها ، في اتجاهه يدفع الاجنبي عسى يكون هو المصير .

والالة بعد ، حيث حلت ، تفكك التاريخ ، تعريه ، تدفع الدفين فيه او المكبوت الى السطح ، اقصد الخصومات الاولى التي ترافق اعتياديا نشوء الشعوب والامم وتترسب في الذاكرة انفعالات يحتاج التاريخ المعاش الى زمن طويل لامتصاصها . وهذه يحرضها الاجنبي ، يستفزها ليجعل الجماعة تستقر فيها زمنا فتتفتت الى ما شاء الله : وهي بدورهاتتقمص الصراعات الراهنة وتعطيها دفعا عاطفيا جديدا ، يذكي منها التقدمي والرجعي . وادهى ما يصيب ثورات العالم غير المصنع ، الحرب الاهلية ، ما ان تهدأ هنا حتى تستثار هناك .

فعلى الثورة العربية اذا ان تبني من الصفر ، تبني الاقتصاد والثقافة ، السياسة والادب . . . تبني الوحدة ، تبني ذاتها عندما يكون الانسان الثوري يعمل وهو يتطلع الى المستقبل القريب والبعيد . اذ انها ليست حدثا محدودا زمنا . انها ولادة وجود .

والادب بعد من ابعاد هذا الوجود . هو حيث الوجود الانساني يعي ذاته وهو يتلمس طريقه اليها والى عالمه ، ويريدها ، يحبها حتى عندما لا يرى فيها وفي عالمه الا الوجه اللاجميل . والابداع الادبي من العودة الى البدايات ، فالموجود في نضارته الاولى . اما الثورة فترى في الادب قوة من جملة القوى الاخرى التي يجب عليها ان توضع في خدمتها ، انها قوة التحريض والترويض ، قوة الاعلام التي تكون الرأي العام وتوجهه ، فالخطابة هي الجنس الادبي الاقرب الى ذوق الثوار . اذ انها ذات مفعول مباشر في الجماهير . والخطيب المتميز هو الذي يعرف كيف يستخدم البرهنة المنطقية بحيث يستثير انفعالات الجماهير وهو يوهمهم انه يحلل ليستخلص النتائج من المقدمات : او هو الذي يقوم ويقيم اذ يحلل ويشرح ويبسط . فالعقل في خدمة العواطف ، والناس يجب ان يكونوا احد زمرتين . أهل الميمنة واهل الميسرة ، اعداء الثورة واصدقاؤها ، مع الشعب او ضده ، الخ . . والثالث مرفوع .

والثوري الاصيل ، كسان جوست ولينين ، هو الذي يحاذي عنده حكم القيمة حكم الوجود ، او هو حيث يتحد الذاتي بالموضوعي فتمة الكلية . وبالفعل فان بعضا من نصوص كبار الثوريين على درجة من العمق بحيث نشعر ونحن نقرؤها اليوم انها كتبت لنا ولابنائنا لا لأسلافنا . وفي الوقت ذاته فان هذه النصوص تقدم لنا صورة حية اخاذة عن كافة ابعاد الوضع الاجتماعي ـ التاريخي يوم كتابتها ، وهي على درجة من الصدق والدقة تجعلها تحتفظ حتى اليوم ولزمن طويل برونقها الاول بحيث يمكن ان تصنف مع النصوص الكلاسيكية . ويبدو من بعض نصوص الثورة الفرنسية وعصر

الانوار ان بعضا من مشكلاتنا اليوم ظهرت بوادرها الاولى اذ ذاك .

واذ تترك الثورة نقطة اللاعودة تريد ذاتها والجماعة التي تقودها ذاتا واحدة ارادة وعقلا ونطقا ، وتسعى بكافة الوسائل ومنها العنف ـ لتحقيق هذا الغرض . فالاراء الخاصة مشبوهة والاجتهادات مرزولة والخلافات تصفى للتو ولو استلزم ذلك قتل الخصم . ومن المعلوم ان الثورة عنيفة على اعداء الداخل عنفها على العدو الخارجي واكثر ، وكثيرا ما تتصدى للاول وتزيحه لكي تتفرغ للثاني . فالاديب عليه ان يؤجل مبادهاته والمفكر تفسيراته والمعلق تعليقاته سواء بسواء مع الانسان العادي فكل منهم جندي من جنود الثورة والجندي ينفذ ولا يناقش .

وباختصار ، على الفعاليات في الظرف الحرج ، ان تذوب في واحد هو الفعل الثوري ، والحريات في واحدة ، حرية الثورة ، وهذه تستخدم كل فعل ، كل حرية ، كل سلوك ، الخ . . كما تشاء وانى تشاء وفقا للمصلحة الثورية . فالكتابة الثورية ، كما يلاحظ رولان برت ، أكاديمية[٨] ، محافظة . وبالفعل فان الثورة تؤثر استخدام البنى المألوفة ، لا بل انها غالبا ما تلجأ الى الصيغ والقوالب الجاهزة من جهة لانها الاقرب منالا من الشعب ، ومن جهة اخرى لان القيادات ، ايا كانت ، تخشى تعدد الجبهات وتدين بشدة المغامرات الفردية ومحاولات التشرذم . فاذ نادى رئيس اكاديمية اللغة في الاتحاد السوفياتي بضرورة تعديل اللغة الروسية لتتوافق ، من حيث هي بنية فوقية ، مع التبدلات الجذرية التي طرأت على البنية التحتية او الاقتصاد نهره ستالين وسخر منه : فلغة بوشكين هي لغة بوشكين ولا يمكن للمرء ان يتصور كيف سيجري تبديلها ، كما قال . واضطر لدعم حجته ان يضع اللغة في بنية خاصة لا هي فوقية ولا تحتية . وكان هذا اول خروج اساسي على المادية التاريخية . فالذي ينقذ الادب الثوري هو الدم المراق على حد تعبير رولان برت[٩] .

والحق ان الثورة الادبية غير الثورة الاجتماعية . ما من شك في انهما متكاملتان على المدى البعيد اذ انهما تنطلقان من موقع واحد هو الامة التي تفجر وجودها الداكن لتجعل من حاضرها وماضيها مستقبلا . ولكن من العسير وقد يكون من المتنع ان تقعا في زمن واحد اقله لان كلا منهما تعالج مادة خاصة بها . الثانية ، الوجود المشترك من حيث هو جملة علائق سياسية واقتصادية واجتماعية : الاولى ، الوجود الانساني من حيث هو تعبير او جملة علائق دالة . صحيح ان العلائق الاجتماعية هي علائق لغوية لأن الغرض منها هو التواصل بين الناس ، والعكس صحيح لذلك ، اذ لا يمكننا أن نتصور اللغة بمعزل عن الجماعة الانسانية ، وصحيح أيضا أن كلا منهما يستهدف ، في جملة ما يستهدفه ، تبديل البنى القديمة والقوالب المكرورة الجامدة بأخرى حديثة تتوافق مع مستلزمات حضارة العمل والتقنية . الا أن بين اللغة والموجودات فارقا كان أرسطو أول من لاحظه وشدد عليه : وهو فارق لا يتجاوز لانه انطولوجي . وهذا الفارق هو الذي يريد الثوري أن يلغيه ، ويعتقد الأديب الواقعي انه ألغاه فأدبه صورة أمينة للواقع .

وهذا مصدر سوء تفاهم مستمر عبر القرون بين الأديب والسلطة ، ثورية كانت أم غير ثورية ، بينه وبين النظريين أو اصحاب الايديولوجيات ، اذ ان الاديب يرى في فنه كما يمارسه ابداعا حرا لوجود حر حتى ولو كان التزاما بقضايا الشعب في حين ان الفريق الثاني لا يمكنه ان يرى في الأدب الا

(٨) الكتابة في درجة الصفر ، صفحة ٢٢ من الطبعة الفرنسية ، نشر مجموعة وساطات بباريس ، وصفحة ٢٧ من الطبعة العربية ، ترجمة نعيم حمصي ونشر وزارة الثقافة بدمشق .
(٩) رولان برت ، المرجع المذكور صفحة ٢٩ من النص الفرنسي و ٢٧ من النص العربي .

وجها من اوجهه او في الحد الاقصى بوق من ابواقه، ولهذا فان لكل من الاديب والثوري تصوره للفعل الثوري هذا يراه تبديلا حاسما ، عنيفا وسريعا بالسرعة الممكنة ، للانسان في وجوده الاجتماعي وانطلاقا من هذا الوجود . وهو يركز فعله بسبب من هذا على البنى (سواء السياسية منها والاقتصادية ، الاجتماعية والثقافية) لاعتقاده – وهذا صحيح أن الانسان يتكيف مع الاطر التي يعيش ضمنها . اما ذاك – الاديب – فيراه تبديلا للانسان في وجوده ، في ذاتيته ، او في جوهره اذا شئت . ويبدو لي أن أدب الحداثة يستطيل الى الماهية ويدعي انه سيجعلها على غير ما هي عليه . وهذا التبديل لا ينجز بين عشية وضحاها ، فالتحولات الادبية التي تبدو لنا – أو لأصحابها – مفاجئة هي في الحقيقة حصيلة اعداد وتخمر طويلين . اذ الادب تربية أو انشاء للانسان ، فرداً وجماعة ، وكل عمل من هذا النوع طويل الامد .والتربية الادبية تتناول بالدرجة الاولى الحساسية ، اقصد مقاربة الانسان للموجودات ، اناسا وأشياء ، موقفه منها ، موقفه بينها وتعامله معها ، ثم تدريجيا تستطيل فتطال من جهة الغريزة او الجذور البيولوجية – الانفعالية للانسان ومن جهة أخرى الذاكرة التي هي فسحة النص وحيث هي زمانه وتاريخيته ، او حيث يستحيل الماضي باستمرار مستقبلا لدى الامم الحية .

وهذا يؤدي الى خلاف أساسي في طريقة العمل . فالقائد الثوري يطلب من الجماعة التي يقودها أن تكون في الظرف الحرج على الخصوص ، صوتا واحداً وصفا واحداً كي تضمن لذاتها النصر . أما الاديب فلا يمكنه ، مهما كانت درجة التزامه بأهداف الثورة ، الا ان يكون صوتا فرداً وفريداً في نوعه ، لا بل لا أن يكون عالما قائما بذاته في كل نص من نصوصه ، وأن يقرأ على أنه كذلك . وهو بسبب من هذا ، يحتقر الناقد ، ويحقد عليه عندما يحشره في زمرة واحدة مع كثيرين ، على الخصوص اذا كان يسوي بين الجميع . وكل أديب يرى في ذاته وفي أدبه ثورة هي الثورة .

والحق أن النصوص الكبرى كجلجامش والالياذة ، تؤلف كل منها عالما كاملا مستقلا في تاريخه وفسحته ومعانيه . وتلك معجزة الاديب الكبير انه يطبع مرحلته بطابعه وأن عالمه في الوقت ذاته هو تجسيد لمعاني الوجود الكبرى التي بها يستقيم وجود كل منا في سياق حياته اليومية . فتحديث اللغة العربية بحيث تستجيب للحداثة فتوضع فيها مرة أخرى مؤلفات تضاهي السابقة ، هو على المدى البعيد الوجه الأخطر شأنا لثورتنا فيما يبدو لي . اذ ان ما نتوقعه منه ليس تجاوز قرون من الانحسار وحسب ، بل سد الثغرة الكبيرة التي تفصل بيننا وبين الحضارة العالمية أو بالأحرى الانتقال من القديم الاقدم الى الحديث الأحدث .

وهذا هو موضوع رهان الثورة – وجوهرها اذا شئت – في كافة أبعاد الوجود الانساني . الا أن اللغة في نقطة المحور من هذه الثورة اذ انها ليست وسيطا حياديا بين الانسان وعالمه ، بل انها توجد بوجود هذا العالم وترافقه في كل تطوراته وتكويناته فلا يمكن الفصل بينهما أو تصورهما الواحد دون الآخر الا اللهم بالصورة المجردة أو العقلية التي هي للتحليل ، كما أن الذات الانسانية لا توجد حقاً لذاتها ولعالمها الا عندما تعبر عن نفسها أو تتجسد .

وللتحديث هذا أوجه كثيرة أهمها ، فيما يبدو لي ، الانتقال من الكلام الى الكتابة أو من السمعي الى المرئي ، أو من القديم الى الحديث . هذا الانتقال ليس بالأمر السهل. فالجماعة لا تتخلى طواعية عن ارث خمسة عشر قرنا كله تقريبا اودعته لغتها كما يعز على الاديب أن يدخل أي تعديل على جمالية هي جملة معان ومواقف وعادات وطقوس ، بالتربية والاستمرار ألفها فأصبحت عنده النموذج الأكمل

لفن الكلام : والجماعة بالمقابل لا تغفر للأديب أي خروج عن نمط من القول تقدسه لانه يعبر عن شخصيتها الارسخ وفيه تتعرف الى ذاتها . ومع ذلك فتلك خطوة لا بد منها اذا كنا نريد ان نعيش في الحاضر .

وقديما اذ رأى أفلاطون أن الفلسفة أدركت الطريق المسدودة مع الايليائيين خلفاء برمنيدس اعلن قائلا . « لننحر أبانا برمنيدس ... »[١٠] فكان في الوقت ذاته أكثر خلفاء أبي الفلسفة امانة له . فاللغة العربية وجدت كلامية وما تزال كذلك في عصر الكتابة . وهذا دليل على صمود العرب ، ويجب ألا يكون الدليل على جمودهم .

واللغات الكلامية هي لغات الجماعات قبل شيوع الكتابة حيث الانتماء للزعيم ، والتعليم تلقين والتواصل بين الافراد مباشر ، شخصي ، وفي الرتب الاجتماعية سلطوي اذ القول يستمد سلطانه من موقع القائل ومن سلطة الاجداد الذين ينطق بلسانهم . واللغات الكلامية أجمل من اللغات الكتابية وأكبر وقعا في النفس اذ ان الصوت حي اما الكلمة المكتوبة فميتة والصورة التي قد ترافقها ساكنة . والواقع انه ، لما كانت النصوص المكتوبة قليلة وغير قابلة للتداول فالقراءة لم تكن شائعة ، وعلى المعلم والمتعلم أن يعتمد كل منهما على ذاكرته ويجب ان يكون القول عبارات وجيزة (خير الكلام ما قل ودل) محكمة البناء ، قوية الجرس واضحة الايقاع لترسخ في الذاكرة بسهولة ، ومشبعة بالمعاني والصور لتقول كل ما يجب أن تقوله بكلمات معدودة .

أضف ان فنون اللغة كانت أعلى الفنون ، على الخصوص عند العرب الاوائل حيث فنون التصوير والنحت والعمارة والنقش كانت نادرة وحيث كان التحليل العقلي حدسيا يتكثف في كلم كل كلمة منه حكمة مأثورة ، فالقول قول الشاعر وهذا بمنزلة نبي ، شخصه مرهوب ، ويحاط بعد وفاته في كثير من الحالات بهالة قدسية : وأيضا قول الخطيب يستثير الجماعة في الحالات الحرجة ويوجهها ، فهو بمنزلة الزعيم ، وأخيرا القائد السياسي يكون الجماعة ، ويقول الحرب والسلم، فكل كلمة من كلماته تاريخ . هذه الأقوال كانت كل منها خلاصة خبرة الاجيال وقد تختصر رؤية للوجود في عبارات فيتناقلها ، لهذا ، الاحفاد عن الأجداد ، ويلقنونها اولادهم ، وكانوا يجدون متعة لا تعادلها أية متعة أخرى في حفظها واعادتها ، وهي بدورها تجعل من كل فرد صورة طبق الأصل عن الجماعة . بهذا كانت تتكون شخصية الامة ، على حساب المصالح وبقية النفعيات .

واخيرا فان التصور الاول للوجود الذي استدعى القول ، وكل منهما ملازم للآخر ، لم يكن حصيلة تحليل ، فهذه عملية متأخرة ، ولا تلبية لحاجة فهذه يسعى اليها المرء غريزيا . واذا عبر عنها همسها ، تمتمها ، بل اوحى بهذا التصور جمال الكون ، عظمته ، أسراره وحرضه . السؤال الذي ما يزال في خلفية كل قول أو سلوك انساني ، أقصد السؤال عن المصير : فأول كلام الانسان شعر هو في حقيقته بحث عما وراء الكون ، عما بعد الحياة . فاللغات القديمة ، بسبب من هذا ، لا تموت ، بل تصبح تراثا . والاوروبيون يتعلمون فن الادب بدراسة الاغريقية واللاتينية ، الى جانب اللغات القومية ، ونحن نتعلمه بدراسة خير ما وضع في لغة ، هي ماضينا وحاضرنا وبواسطتها وضمن فسحتها نكون المستقبل الذي نريد أن نكونه . ولكن اللغة الشعرية لا تنوب مناب اللغة التحليلية التي انتقلت من العلم الى الادب : واللغة الكلامية ـ بتعبير أعم ـ لا تقول ، لا يمكنها ان تقول الحضارة

---

(١٠) **حوار السفسطائي**، ترجمة الاب فؤاد جرجي بربارة ونشر وزارة الثقافة بدمشق .

التكنولوجية ؟ اذ ان هذه تقوم في حركتها الأساسية على تشييء الموجودات . بشراً وأشياء ، ومن ثم تفكيكها وتحويلها الى رموز ومعادلات ، رسوم اختزالية وخطوط بيانية تمكن الانسان ــ مبدئيا ! ايـا كان ــ من الاحاطة بهذه الموجودات والسيطرة عليها لاستخراج الطاقة الكامنة فيها واستخدامها أو باعادة تركيبها وفق النموذج المقرر في الخطة . الـخ . وان الآلة التي هي وسيلة الحضارة التكنولوجية ونقطة انطلاقها ، سوى المعادلات والخطوط المذكورة وقد حققت في الحديد والصلب فهي رسم اختزالي لجسم ، او وجود مصطنع أصم ، بدون تاريخ ، لا غاية له بذاته وهو معروض امامك ليتحداك . ومع ذلك فالسيادة اليوم ، ولأشعار اخر ، للآلة . ولهذا يأخذ أحيانا فن الحداثة في كافة اشكاله واجناسه . شكل ألغاز ــ وبمعنى ما تعويذات وطلسمات ــ وكأنه وجد لازاحة ثقل الآلة عن كاهل الانسان أو لفك سحرها ، او اذا شئت لتسلية البشر واعادة شيء من الانسانية اليهم .

فأدب الحداثة وفنونها كتابة مقابل كتابة . ولا أرى من وظيفة للصوت البشري في هذا الادب سوى الوظيفة الاعلامية . وللكتابة أدبها ، لا بل انها حلت محل الأدب الذي مضى زمانه وانقضى في نظر الكثيرين من مفكري الحداثة وكتابها[11] . وربما أن الفرق الأساسي بين الأدب والكتابة ــ وهو الفرق الذي يعنينا نحن العرب ــ هو ان الادب يستلزم ذاتا تتحدث ، والذات تنطلق من الذاكرة ، ومنها يستمد القائل سلطانه . أما الكتابة فأدب يريد ذاته دون ذاكرة وتاريخ دون ذات تقول : فالنص ينتج ذاته وهو موجود وجوده في موضوعه .

وتلكم هو اشكال الأدب العربي اليوم انه ينزع عند بعض من كبار ممثليه ــ وبذاته في اعتقادي ــ نحو فنون الكتابة استجابة للراهن . وفي الوقت ذاته ثمة شعور من الأعماق كابح ، يجعل البعض الآخر من ممثلي أدبنا يرون في ذلك بدعة ، تشويها للتراث واحيانا كفراً وخيانة . فانتقاء الأديب العربي احراجي . ولكن اذا كان من اليسير على الانسان ان يبدل بين عشية وضحاها زيه او الآلة التي يستعمل ... أو أن يعيد النظر في الأطر الكبرى لوجوده الاجتماعي والفردي ، فلا يمكنه بمثل هذه السهولة تبديل خط سار عليه التاريخ حوالي خمسة عشر قرنا بآخر هو نقيضه ونقضه .

وليس من قبيل الصدفة أن مثقفين كثراً يرون اليوم ما كان يراه مفكرونا في القرن الرابع للهجرة ، وهو أن لغتنا أقرب اللغات الى الطبيعة لأن اصواتها مستمدة من اصوات الطبيعة ، فهي وحدها طبيعية ولغات المعمورة اصطلاحية أو بدون جذور[12] . فهذا الاعتقاد دليل على أن العربي اتحد بلغته الى حد الانصهار بحيث لم يعد بوسعه أن يقيم بينه وبينها فسحة تمكنه من تحليلها ونقدها واعادة النظر فيها . وبتعبير اخر فان اللغة العربية ليست عند العربي بعداً من ابعاد وجوده ، بل هي هذا الوجود . وكل انسان ، فردا وجماعة ، يرى عفويا وجوده طبيعيا لانه لا يستطيع أن يتصور ذاته غير موجود .

ونحن ننسى أن الوجود الجماعي تاريخي ، في حين ان الوجود الفردي ماهوي ، والهوية الفردية مواضعة صارت طبيعية ، فهي تتطور بتطور العصور . والهوية الفردية ثابتة فكل تبديل فيها مرض عقلي غير قابل للشفاء .

---

(١١) المفكر الاول للكتابة هو ـ فيما اعلم ـ جاك دريدا ، شرع لها في كتابه المعروف **علم الكتابة** نشر دار مينوي . باريس . ومن الكتاب الذين رأوا فيها بديلا عن الادب رولان برت وفيليب سولير وغيرهما كثيرون .

(١٢) ما يزال زكي الارسوزي اكبر ممثل لهذا الخط في القرن العشرين . لانه دعم حجته بفلسفة تعبر عن فكره باصح مما تعبر عنه لغوياته . راجع المجلدين الاول والثاني من مؤلفاته الكاملة نشر دمشق .

ومع ذلك فالمثقف العربي يشعر اليوم أن صفحة من تاريخنا قد طويت أو أن شيئا ما في وجودنا قد تبدل نهائيا . وبالفعل فقط خطا شعرنا ـ وبالتالي ذوقنا ـ خطوة لا عودة عليها او عنها . ويكفي المرء أن يعود الى نصوص ما قبل ربع او نصف قرن ليتأكد من أننا نبتعد بسرعة عن الماضي القريب والبعيد . والذي بدأ يتجدد صميميا هو العلاقة التي يقيمها كل منا مع ذاته ومع الآخر والاشياء . وبالتالي رؤيتنا للعالم وتعاملنا معه . وقد كانت المبادهة في هذا التجدد الى شعر الحداثة العربية بدون شك . وقد يكون اخطر انجاز حققه حتى الآن هو انه بدأ ينقذ ذوقنا من البلاغة الخطابية الموروثة عن عصر الانحسار وقد كادت ان تنزع عن لغتنا كل شاعريتها .

الا أن التجدد الكلي يحتاج الى أجيال وأيضا الى تبدل في الوجود الجماعي برمته . فلا يكفي الجماعة أن تستخدم أحدث التقنيات حتى تنتمي الى الحضارة التكنولوجية ولا يمكن لنظام قول ، القائل فيه طوال خمسة عشر قرنا ، هو الذات الشخصية تنوب مناب الجماعة وتتحدث باسمها ، لا يمكنه بارادة مريد أن يتحول الى قول الاشياء ، كما يريد مفكرو الحداثة وكتابها[١٣] . ويبدو لي ان أدونيس هو الذي حقق عندنا في هذا المجال الخطوة الاكثر تقدما اذ أنه ركز شعره الحديث على جسدية الموجودات . واذ يمعن في تعميق هذه الرؤية يجعل من الجسد سلسلة استحالاته الكيميائية بكيمياء لغزية ـ سحرية اشبه شيء بما كان عليه هذا العلم في القرون الوسطى[١٤] . ولكن بقايا الاحيانية التي ورثتها العصور الوسطى عما قبلها بكثير ما تزال في خلفية الذهن العربي ومضمرة في مفرداته ، فأدونيس يوظفها شعريا اذ يجسم ويجسد الاشياء والعناصر والمفاهيم ويطلب منها أن تقف ، تتحرك ، تتواصل ، تتحد ، تفترق : فالمقطوعة الشعرية مسرح دمى .

سيري ، أيتها الحقول ، بخطوات من القشوات
اخلع قميصك أيها الجبل/ ...

او

اجلس ، أيها الموت ، في مكان اخر ولنتبادل وجهينا
اسميك الجسد ، وتناديك

أو .

تسقط السماء مطرا بحجم اللوز
اصعد ايها التراب
جسده سلم
جسده مهرجان اسفنج

اصعد
أيها الطين
واشهد للمطر ....[١٥]

الا أن أنا الشاعر الشخصية واضحة بين الأسطر وأحيانا فيها بشكل صارخ ، وكذلك موقفه من التاريخ والمجتمع العربيين : وهو يستخدم شاعريته لادانتها ... وتحديثها . الا اني أتساءل شخصيا ما اذا كان يمكن أن تصبح توجها نحو الحداثة ، وأعتقد أن الجواب عن هذا السؤال لا يمكن أن يكون بالايجاب .

(١٣) شعر فرنسيس بونج على سبيل المثال ، وقد كان يريده حديث الاشياء كل منها عن ذاتها او عن شيئيته .
(١٤) هذا الخط واضح في العديد من مقطوعات مجموعه **كتاب التحولات والهجرة في اقاليم الليل والنهار** وفي بعض مقطوعات **المسرح والمرايا** . وايضا في المجموعة الاخيرة **مفرد بصيغة الجمع** على الخصوص في القسم الرابع **سيمياء** والمجموعات الثلاث نشر دار العودة بيروت .
(١٥) **مفرد بصيغة الجمع** الصفحات على التوالي ٢٤٢ ـ ٢٢٢ ـ ٢٧٧ .

ان الثورة الادبية والثورة الاجتماعية ـ السياسية متكاملتان ، لا في الحدوث ، بل في الوجود : وكل منهما تحتاج ، على الخصوص عندنا ، الـى اناس بمقياس التاريخ ذكاء وهمة ، وانكاراً للذات ، اذ ان عليهم أن يبنوا ، من الصفر ، من جهة الجماعة بكافة أبعادها ، ومن جهة أخرى الفكر والادب المناسبين لها ، في حين أن الصعوبات التي تعترض عملية البناء هذه من حجم يضع تذليلها في حدود الممتنع : فالنصر لا يتأتى الا لجماعة وطنت نفسها على الصمود والانشاء ، مهما ارتفع الثمن لأن موضوع الرهان الوجود ، والوجود بمستوى النصف الثاني من القرن العشرين وما يلي .

اذكر من هذه الصعوبات ثلاثا اعتقد انها الأصعب تذليلا . الاول ، كوننا في منطقة لا تذعن فيها السياسة الدولية لأي تبديل جذري الا اذا أرغمها الشعب عليه : الثاني كوننا نعيش عصراً عم فيه المجتمع الاستهلاكي وجعل كل انسان يعتقد لا شعورياً ان الحياة الهينة اللينة هي الجنة وغيرها النار : الثالث هو أن خمسة عشر قرنا من الاستمرار في خط أدبي ـ فكري ، مترابط الحلقات رسخ لدى الاديب هذا الاعتقاد وهو أن ثمة نموذجا للتعبير البليغ والصحيح هو المعيار وعليه أن يحتذيه كي يكون في الوقت ذاته مبينا وواقعيا .

فالعربي مثالي بمثالية مجردة (يمكن أن تحشر مع اليمين الافلاطوني) حتى عندما يعلن العكس اذ ان مفاهيمه المادية أو الواقعية أطر فارغة رصيدها شحنة انفعالية سرعان ما تنفد وتسقط في الفراغ . فهي عاجزة عن تعبئة الشعب وخلو من أية قيمة اجرائية . والتضخم الكلامي أوخم عاقبة من التضخم النقدي اذ ان هذا مما يمكن تلافي شروره وقد يكون نتيجة خطة مدروسة ، أما ذاك فهو الدليل الأصح والأقوى على الذهن المتخلف .

والواقع أن الظرف التاريخي الذي وضع فيه التراث وتكونت فيه لغة التراث ونمت وتتطورت ، بدأ يتبدل بسرعة منذ القرن السادس عشر تقريبا وتم الانعطاف نحو الحداثة في أواسط هذا القرن . وها هي الأجيال التي تتكون اليوم على مقاعد الدراسة ـ يكونها الاعلام والمجتمع الاستهلاكي واستخدام التقنيات الحديثة وموسيقى الجاز .... وفي نهاية اللائحة المدرسة بكافة درجاتها ـ ها هي تشعرنا بالتباعد المتزايد بيننا وبين التراث، اذ انها لا تتعرف الى ذاتها فيه فهي حيادية حياله وحيال البيان الذي كنا نطرب له حتى ولو كان صاحبه مصطفى صادق الرافعي عندما كنا على مقاعد الدراسة : ولا يبعث في نفوس أفرادها سوى السأم ، ويزيد في السأم الاسلوب الهجين الذي يستخدم لتقديمه .

هذا الداء اذا استمر فسوف يستفحل واذا استفحل فسيفتت الوجود العربي أكثر مما تفتته صراعات السياسيين وجشع الجشعين اذ انه يلاشي على المدى البعيد الركيزة ـ الأم للوحدة ، وبذلك يجعل القطيعة بيننا وبين ماضينا البعيد والقريب أمراً منجزاً . وعندها تتحول اللغة بنتيجة التقوقع السياسي والاقتصادي الى لغات ، ويتحقق حلم الانعزاليين من كافة الألوان . وكم وكم من ثقافات كبيرة كالاغريقية مثلا تفككت وزالت من الوجود مع الزمن بسبب من غياب سلطة موحدة . والفعل الثقافي واحد بالنتيجة هو الفعل السياسي .

ثمة حقيقة يجب ان يفهمها المتزمتون من انصار القديم وهي أن التراث ليس موجوداً قائماً بذاته ـ هو كما هو ـ من الأزل الى الابد نحفظه ونحافظ عليه بعناية وورع كما نحفظ ونحافظ على المجوهرات الثمينة التي تركها لنا أجدادنا الاعزاء ، تذكراً . فهذا الموقف يدفع بالتراث الى المتاحف

والارشيف حيث يصبح حقا من مخلفات الماضي . وانما التراث رصيد ، وجوده في قدرتنا على توظيفه وتثميره ، وهو ــ وجود التراث ــ متناسب مع هذه القدرة . واذ يوظف نجده امامنا لانه ، عندها ، يقول المستقبل الذي هو الحداثة . **فالتحديث هو الثورة ، لا ضد التراث ، بل في التراث ، أي في شخصيتنا القومية . والثورة ليست اختيارية ، وانما الخيار بين الوجود واللاوجود .**

والواقع أن التحديث فر من ذاته على الجنس الادبي الذي كان وما يزال الاكثر تقدما عندنا ، أقصد الشعر الخالص ، فلم يعد يوضع موضع تساءل ونقاش عند الشعراء الشباب جلهم ، ان لم يكن كلهم ، بل ان كلا منهم يجهد ليستنبط الصيغ الكلامية المناسبة لرؤيته الشخصية : وهذه واحدة عندهم وفي أغلب الثورات اقصد الصراع العنيف بين قوى الماضي التي تعرف أنها الاقوى لانها شخصيتنا التاريخية ــ الاجتماعية وقوى المستقبل التي يفرضها وجودنا في النصف الثاني من القرن العشرين . والذي يجعل من الثورة العربية عملا طويل الامد هو أنها تقع في مرحلة انتقالية ، وفي المراحل الانتقالية تختلط القوى وتضيع معالمها . فالثورة ليست دوما حيث يظنون .

وبهذا المعنى فان الشعر ليس ترفا والادب لم يوجد لتزجية الوقت ، وانما هما والفكر مقياس قدرة الجماعة على تحسس ذاتها ، موقعها ، طاقتها، افاقها ، ورؤيتها لكل ذلك . والرواية بداية التجدد ، كما أن النظر بداية العمل وقاعدته ومعقوليته . وانما السؤال عن التحديث هو سؤال نقدي وبالدرجة الاولى فلسفي لانه يتناول الماهية (ما هو ؟) أي الوجود في جملة علائقه مع ذاته ومع شروط وجوده ومدى استجابته لهذه الشروط . والجواب عن هذه الأسئلة يتجاوز حدود بحثي هذا .

●

ليس التحديث بدون شك ، في الصور والمجازات والكتابات ... المبتكرة التي كان ــ وما يزال ــ الشعراء والادباء ، يتبارون في ابتكارها ، كل منهم للتدليل على عبقريته فيما يزعمون ، فهي من مؤشرات التطور في كل زمان وكل مكان . وهي كل ما يملك الشاعر التقليدي من وسائل :

وليس ايضا في الاغناء الذاتي للكلمات والعبارات ، وهو يتم باضافة دلالات جديدة الى كلمات معناها محدد قاموسيا ، فهذه عملية عفوية يفرضها التطور ، وهي تتناسب مع درجة مسايرة فكر جماعة ما لهذا التطور .

ثمة وسائل اخرى هي أيضا كلاسيكية كالسابقة لانها استخدمت في الماضي ومازال، منها استنباط كلمات جديدة بالنحت والاشتقاق والاصطلاح ، وايضا استنباط عبارات جديدة بتبديل مواقع الكلمات في العبارة ، تسبيقا وتأخيرا ، كأن تضع الفاعل قبل الفعل ، وبهذا تتبدل في العبارة نقطة المحور فيتبدل المعنى ، وأخيرا ــ لا آخرا ــ التعريب بالمعنى القديم أي تبني كلمة أجنبية وتعديل طريق التلفظ بها بحيث تبدو وكأنها عربية الأصل ، وهكذا ....

أيكون التحديث في الاجناس الادبية المستجدة كالمسرحية والرواية والقصة القصيرة والمحاولة الفكرية عندنا ؟ هذا وجه هام من أوجه الموضوع ، اذ ان الاجناس أطر عامة للتفكير والتعبير تنظم فنون القول شأنها شأن البنى الاجتماعية التي تنظم القوى الاجتماعية وتوجهها . وعلى صعيدها يتم التلاقي بين القارىء والكاتب في الأدب وبين الفرد والحاكم في الحياة الاجتماعية . ولهذا تتبدل بتبدل العصور والمراحل أو تتجدد . فالبخلاء وألف ليلة وليلة والاغاني وغيرها من روائع فن السرد ، ومع ذلك

فلا يخطر ببال قصاص أو روائي عربي (ولا يمكنه) التأليف على غرارها لأن الفاصل الحضاري بيننا وبينها كبير جداً .

صحيح أن بعضا من أرباب الحداثة وضعوها هذه في رفض الاجناس او دمجها في النص الذي اتسع مفهومه بحيث صار من مقولات الفكر المعاصر حتى ليكاد يحل محل مفهوم الكتاب[١٦] . وكثير منهم من أجادوا هذا الدمج ، اذكر منهم على سبيل المثال رولان برت في كتابه الاخير[١٧] . فهو كتاب ممتع وعميق ، وفي الوقت ذاته يصعب تصنيفه اذ انك تتساءل وأنت تقرؤه أهو تحليل لنفسية المحب والمحبين أم وصف لها أم استعادة لنصوص قديمة ؟ انه كل ذلك في آن . الا ان الاجناس تبدلت ، كل منها في بنيته الداخلية ، أو علائقه الذاتية ، وبقيت وقد يزول بعضها ويحل محله جنس آخر ، فمثلا تريستان وايزولت وتآليف الن روب غرييه ، وتآليف دوستويفسكي كلها وغيرها نصنفها في جنس واحد الرواية ؛ ويعسر عليك في الوقت ذاته ان تجد القاسم المشترك بينها ، ذلك أن الاجناس الادبية ليست أطراً فارغة أو حيادية بل هي ، كالبنية أو الصورة ، تستدعي مضمونها ولا توجد بدونه كما أنه لا يوجد بدونها[١٨] .

والحقيقة أن الاسئلة التي طرحت والتي يمكن للمرء أن يضيف اليها ، لا يجاب عنها قبليا . فما نقوله عن الحداثة نستخلصه من قدرتنا على ملاحظة كل منا ضمن حدود قدرته على الملاحظة ، كما أنه لا يجاب عنها نظريا لأن المبدع يبدع لا على مثال . فالخطوة الاولى في اتجاه التجديد ـ على الخصوص ، اذا كنا نريده جذريا ـ سلبية، تقوم على ازاحة المستبقات الايديولوجية وغيرها ورفض النماذج مهما علا شأنها وتعليق الماضي ذاته وملاشاة الاطر المألوفة والتعابير الجاهزة والافكار السائدة ، الخ ؛ تلي مباشرة الخطوة الايجابية وهي التوجه الى الاشياء ذاتها بسذاجة الاطفال وبراءتهم . وهذا هدف عسير المنال ، العبقري وحده ، سياسيا كان أم مفكراً أم شاعراً ، أم عالما ، قادر على مقاربته . وفيه سر الابداع ، والعبقري وحده بوسعه أن يخترق الجدار الكثيف الذي تقيمه الاعراف الموروثة والاحكام المسبقة والكلمات أو الشعارات الرائجة وغيرها ستاراً مظلما يحجب عنا الواقع الذي هو في متناولنا مع ذلك . والاتصال المباشر بالواقع ، وهو كلية السياسة والشعر والعلم والفلسفة ، يحتاج الى هداية ، كان أول من أدرك اهميتها أفلاطون ، وأشار في اسطورة الكهف ، الى الثمن الذي قد يتقاضاه المجتمع من المبدع كي يحققها ، ألا وهو حياته .

وتلك هي الثورة الادبية وغير الأدبية . ابداع وجود . وكل ابداع موقعه الدهشة ، كما يرى أفلاطون أيضا . ويقصد تجلي الواقع ـ هو كما هو ـ للمبدع على فجأة واذا شئت تملك الواقع للمبدع بحيث يراه من الداخل ويرينا اياه على غير ما هو في حياتنا العادية . والرؤية هذه أول التبديل او الثورة . فاذا كنا نعني ما نقول عندما نقول اننا في وضع ثوري فالمطلوب من الثائر ، ايا كان مجاله ، هو أن يبني مجتمعا أدبه كاقتصاده وسياسته تقارب على الأقل ، انجازات الحداثة ، العلمية منها والتكنولوجية ، الفنية والأدبية .

فالسؤال الذي على المفكر العربي أن يطرحه على ذاته ، أين نحن من هذا ؟ أين نحن من هذا

---

(١٦) راجع على سبيل المثال مقالات فيليب سولرز في كتاب **نظرية مجموعية** ، نشر سوي بباريس .
(١٧) **شذرات مقتطعة من قول الحب** .
(١٨) راجع كتاب زفتن فودوروف . **اجناس القول** نشر سوي بباريس على الخصوص الفصل الثالث من القسم الأول بعنوان اصل الاجناس وقد افدت من ملاحظات المؤلف وان كنت لم أتقيد بها كليا .

القرن وقد شارف على نهايته . أنقاربه أم ما نزال بعيدين عنه ، أم نبتعد ونحن نعتقد أننا نقاربه . وفي أول كل ثورة سؤال .

لقد حذت الحداثة الادبية حذو العلم الحديث ففجرت مثله موجوداتها كلها وما تزال . المفردات والمفاهيم والصور ، والقواعد والأعراف اللغوية والشعرية ، اللغة وأنماط الأداء ، الايديولوجيات والفلسفات : فجرت الأجناس شكلا (الصورة) ومحتوى (العلائق الذاتية) . فجرت الترابط المنطقي المتعارف عليه ، فجرت تاريخ هذه الموجودات ، وخلفتها بدون ذاكرة ، خلعت عن المقدس منها قدسيته ، فهي أشياء ، مكشوفة كالأشياء وبوسعك أن تردها الى عناصر ، ان تتلاعب بها وتعيد رسمها ، تركيبها ، ترتيبها وفقا للخطة . وتلك هي الكتابة . صناعة . والكلام طبيعة . وربما أن تطور اللغة كان دوماً في الانتقال من الصناعي الى الطبيعي ـ وكان هذا التفجير منطقياً . اذ ان التبديل الجذري للأشياء في علائقها اقتضى تبديل علائق الكلمة الذي يقولها طالما أن كلا منها مرتبط بالآخر . وهذا كسب كبير لأنه كشف في الموجودات عن أبعاد ومستويات وامكانات تفوق كل خيال ، وجعل كافة العلائق والاقترانات والانتقالات والمقاربات والروابط جائزة.فالتصور مجرد ، وهو ككل تصور مجرد (الهندسات اللاأقليدية) يمكن أن يحقق على ارض الواقع في مادة وبمادة أولية بسيطة هي اللون والخط والرمز . وكل القراءات بالمقابل جائزة . بهذا اتسع عالم الادب ـ عالم الانسان ـ وصار لأول مرة يستطيل بحيث يشف عن لا متناهيه . الا انه فقد كل نقطة استناد في الواقع ، كل محور ثابت ، وانشاؤه لا يفترض قبلياً أي معيار مطلق ، ولا أية ذات تنشئه : ولهذا يقال عنه انه انتاج ، انتاج ذاتي اذا شئت كما يقال توالد ذاتي .

لنلاحظ مثلا أن الانا ـ أنا المتكلم أو الأنا الشخصية ـ التي كانت في نقطة المحور من القصيدة الكلاسيكية والتي كانت تتضخم فتصبح أحيانا محور العالم عند المتنبي ، صارت عند محمود درويش الآخير او الثاني شبيهة لحد ما بعدسة كاميرا في البحث عن صورة الموجود . تارة هنا وطورا هناك ، تسجل مواجهة ، جانبيا ، عن قرب ، عن بعد ، من فوق ، من تحت ... وقد تسجل يوما من احد زوايا اللاشعور المتعددة ، ألا أن هذه الأنا ليست ـ ولا يمكن أن تكون ـ حيادية بحيث تصير متحولا بين متحولات أخرى في جملة القصيدة العلائقية بحيث يأخذ الشعر شكلا موضوعيا كما يريد رولان برت عند كلامه عن شعر الحداثة[١٩] طالما أن الثورة العربية هي ثورة وجود كما قلت ، او ثورة استعادة الاسم والهوية باستعادة الأرض عند محمود درويش ، واستعادة التاريخ عند ادونيس . فالعلاقة الاشكالية ـ انطولوجيا ـ هي بين الأنا وحيث يجب أن يتجسد . هذه العلاقة انفصامية عند محمود درويش .

ما بيني وبين اسمي بلاد
حين سميت البلاد فقدت أسمائي
وحين مررت باسمي
لم اجد شكل البلاد[٢٠]

أما عند أدونيس فهي علاقة رفض . ولا أدري أيهما أمر الانفصام أم الرفض . على أية حال فان الثورة العربية في وضعها الراهن لا توحي بأكثر من هذا . والحق أن محمود درويش لم يبدل

---

(١٩) الكتابة في درجة الصفر الصفحة ٤٦ من الطبعة الفرنسية و ٥٥ من الطبعة العربية .
(٢٠) صفحة ٤٢٢ من ديوان محمود درويش المجلد الثاني نشر دار العودة في بيروت .

موضوعه فهو دوماً علاقة الفدائي بالأرض المحتلة . الا انه بدل موقع الأنا من هذه العلاقة. فبعد أن كان يتكلم باسم ثورة الفداء ، بعد ان كان يتكلم كالشاعر الكلاسيكي واقفا على منبر ، تقمص دور الفدائي ، لا ليرثيه كما يبدو للوهلة الأولى عند قراءة مجموعاته الأخيرة ، بل ليبحث عن ضائع معلق في نقطة ضائعة بين الوجود واللاوجود .

وادونيس كذلك لم يبدل السؤال الذي يخترق تأليفه كله وهو . ما موقعي في تاريخ بلادي وما موقفي منه . الا انه تدريجيا جسد هذا التاريخ واخذ يشرحه ويفككه عسى أن تلوح في الافق معالم أرض وسماء جديدتين . وأنا الشاعر ، على صورة التاريخ الذي يرفض دوماً في البحث عن مفقود قد يكون مفقوداً الى الابد هو الأمل بالاستعادة .

فالثابت في ثورة الشعر هو الانا التي بدلت مواقعها ومواقفها ولم تبدل هدفها ألا وهو البحث عن ذاتها التي اتحدت بالذات القومية . والذي تبدل في الحقيقة جذرياً هو دور الشاعر ، فقد تجاوز بلاط الملوك والامراء الذي قيدته به قرون من التبعية وهو يحاول استعادة الدور القيادي الذي كان له في الجاهلية ، وربما الدور الذي حدده ريمبو للشاعر عند ظهور بوادر الحداثة الاولى . أقصد دور الرائي ، نبي العصور الحديثة .

ألخص . لم تأخذ الثورات العربية المعاصرة حتى اليوم شكلا شعبياً الا عندما كانت تصديا للمحتل الدخيل ، اذ ان الاحتلال ــ اية كانت مدته أو ذريعته ــ يبعث في الشعب شعوراً شبه صوفي بان أرض الاجداد قد دنست ، فالجهاد المقدس واجب . والنتيجة في مثل هذا الوضع النفسي ــ وهي الاستقلال ــ مضمونة ، فما من شعب يثور من اجل قضية عادلة الا ويربح المعركة .

أما عندما تنتقل الثورة الى مرحلة بناء المجتمع الجديد ــ وهو على الغالب مجتمع اشتراكي ــ فتتعثر وكثيراً ما تراوح مكانها لأنها ليست مزودة بأية صورة تحليلية عن بنية واقعها الشعبي ، صورة لها من الدقة ما يجعل الشعب يتعرف فيها الى ذاته والى مشكلاته بحيث يتبناها ويعمل مخلصا من اجل تحقيقها . والواقع أن الفكر العربي الثوري لا ينطوي ، في مجمل كتاباته المسهبة احيانا ، الا على مجموعة مفاهيم عامة ، جلها مقتبس من هنا وهناك ، فهي صالحة لكل زمان ومكان . ولا تصلح لاي زمان ومكان . انها خلو من أية قيمة اجرائية لا من حيث صلاحها لرصد الواقع وتحليله ، ولا من حيث استخدامها لتعبئة الجماهير وزجها في معركة البناء والتنمية .

فليست الثورة بحاجة الى أدب يفسر ، على ضوء هذه المجردات ، أحداث الحرب والسلم وبقية وقائع التاريخ المعاصر ــ وأحيانا القديم ــ ليبرهن على استمرار الثورة وعلى معقوليتها الكلية وتماسكها مع ذاتها ، فهذه وظيفة الاعلام . واذا وجد أدب من هذا النوع فهو ، في أحسن الحالات ، مسعف للاعلام ، وقد يكون نيلا من نيوله . ويقول أعم فان الثورة ليست بحاجة الى جماعة ، أفرادها كجوقة الكورس الشرقي ، يرددون بصوت واحد الكلام ذاته : وانما عليها أن تكون بعد الاستقلال ، على الخصوص في البلدان المتخلفة ، جماعة متضامنة عضويا بحيث ان كل فرد يؤدي مهمة تكمل مهمة الآخر . وهذا الانسان لا تكونه الا ثقافة حرة متعددة الابعاد ، على ارض الواقع النظري والعملي ، وتقول المستقبل الذي هو أفق الثورة وخلاصة ايديولوجيتها . وهذه الثقافة ، الادب بعد من ابعادها ، لا بل قد يكون نواتها الصلبة لانه وحده يستطيع أن يستولي على الانسان بكليته في حساسيته ، أي في جذور وجوده النفسية ــ البيولوجية حيث تتحقق قدراته النفسية والعقلية .

أقول هذا لأن العربي ، أكان من القادة أم من السوقة ، ما يزال يقارب المفاهيم الأكثر طليعية والآلات الأكثر تطوراً بعقلية قبلية في قيمها وحركتها ، عقلية تركزت حتى في عضويته ، فهي تطبع بطابعها سلوكه وكافة علائقه مع البشر ، وهي في أساس صراعات الأقطار بعضها مع البعض الاخر كما انها تشهد الصراعات الطبقية وغيرها وتدرجها في سياق الماضوي .
هذه الحساسية هي التي تحتاج الى اعـادة نظـر او الى اعـادة تكويـن كي تقوم الثقافة ، كي تقوم اعادة بناء الانسان على اساس متين : بمثل هذا تتمكن الثورة من أداء مهمتها الأهم ألا وهي نقل الانسان العربي من القديم الاقدم الى الحديث الأحدث .

ان تحديث الأدب هو تحديث الثقافة والانسان . فالتجاور في الجماعة العربية بين النصف الثاني من القرن العشرين وبين جاهلية تردت فاستحالت عامية هو الاشكال الاحراجي في الآدب والثورة والوجود العربي . والثورة ، كل الثورة في ابداع ، وجود آخر يرده الى حيث يجب ان يكون ويتخطاه . وهذه الثورة هي التي تعيد الشاعرية الى الادب والفكر والانسان . الادب اذ تعيد اليه مع الحرية عفويته المبدعة : الفكر اذ تعصمه من شطط المحاكاة وهوس الافكار الثابتة : والانسان اذ تنقذه من شحه : ان الثورة في جانبها المشرق عطاء وفداء .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

صدر حديثاً

* ألم الكتابة عن أحزان المنفى	الأعرج واسيني
* مدام حرب (رواية)	افنان القاسم
* في الجهود المسرحية	د . عبد الرحمن ياغي
* شكسبير معاصرنا	جبرا ابراهيم جبرا
* روح الموسيقى	سمير الحاج شاهين
* دفاعاً عن الاغنية العربية	الياس سحاب
* مأزق اسرائيل	حسن طواليه

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

تقدم أعمال الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا
النقدية والشعرية المؤلفة والمترجمة

صدر منها

١ ــ ينابيع الرؤيا
٢ ــ الرحلة الثامنة
٣ ــ الحرية والطوفان
٤ ــ أدونيس أو تموز
٥ ــ النار والجوهر
٦ ــ ما قبل الفلسفة
٧ ــ هاملت
٨ ــ مأساة الملك لير
٩ ــ قلعة اكسل
١٠ ــ آفــاق الفن

يصدر قريبا

١ ــ شكسبير معاصرنا
٢ ــ الاسطورة والرمز
٣ ــ لوعة الشمس
٤ ــ تموز في المدينة
٥ ــ المدار المغلق
٦ ــ ماكبث
٧ ــ عطيل
٨ ــ الاديب وصناعته

الرواية العربية وأزمة الحرية

احمد محمد عطية

كاتب وناقد عربي من مصر .
اصدر ١٢ كتابا في الادب والنقد
في القاهرة ودمشق وبيروت وطرابلس .

الرواية أداة فنية للوعي يمكن بواسطتها رصد وضع الأمة وتجسيد أزماتها العامة من خلال شخصياتها الروائية الفردية . ومن هنا تصبح الرواية طاقة سياسية هامة في التعبير عن روح الأمة وأزماتها وطموحاتها . وقد سلطت الرواية العربية هذه الأداة لبث الوعي بالأزمة الحادة التي تواجه الحرية السياسية في وطننا العربي ، من خلال رصدها لواقع تلك الأزمة وتجسيدها في أزمات أبطالها العامة والخاصة . ولا شك أن صدور عدد كبير من الروايات العربية المخصصة لتصوير ونقد أزمة الحرية في وطننا العربي ، من خلال شخصياتها المحاصرة والمطاردة والمعذبة والواقعة في أسر السجن والاعتقال ، يعبر عن جسامة هذه الأزمة في حياتنا السياسية الراهنة ، وعن آمالها وطموحاتها في تجاوز هذه الازمة الحادة وتحقيق حرية الإنسان العربي وحقه في تشكيل حياته ومجتمعه ووطنه ، ومناقشة سياسته بصراحة وديمقراطية ودون قهر فكري أو مادي . فأدانت الرواية العربية أساليب القهر السياسي من خلال تصويرها وإبرازها لواقع القمع والإضطهاد والتعذيب السياسي الذي يسيطر على الحياة السياسية العربية ويحد من حرية الانسان العربي ويعتدي على حقوقه الإنسانية العامة والخاصة ، ويمنعه من تناول أمور مجتمعه ووطنه بحرية وديمقراطية . فالرواية العربية ترفض القهر السياسي والإرهاب الفكري والتعذيب المادي والمعنوي ، وتنطلق من هذا الرفض الفني المصور لأزمة الحرية الى المناداة بالحرية والتطلع الى تجاوز هذا الواقع المدان الى مستقبل أفضل ، أكثر إشراقا وحرية وعدالة . وسننتقي في هذه الدراسة بعض النماذج المعبرة عن اتجاهات الرواية العربية في تناولها لأزمة الحرية .

تقع أحداث روايتي « العين ذات الجفن المعدنية » و « جناحان للريح » للدكتور شريف حتاتة ، في النصف الثاني من الأربعينات ، في تلك السنوات الملتهبة بالحركة الوطنية المصرية والنضال الوطني والاجتماعي . وتصور الروايتان أزمة الحرية في تلك الحقبة التاريخية الهامة السابقة على ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من خلال تطور أزمة بطلها الطبيب والسياسي والثوري المحترف « الدكتور عزيز » . فالبطل واحد والموضوع واحد وكذلك الشخصيات والأحداث ، فهي اذن رواية من جزئين وليس روايتين .

في رواية « العين ذات الجفن المعدنية » يقبع بطلها السجين « الدكتور عزيز » وحيدا يراجع

نفسه ويستدعي الذكريات ويعيد النظر في حياته وماضيه السياسي ، ينساب تيار الوعي ليمزج الذكريات والأزمنة والأمكنة التي كونت شخصية البطل ، بصور معاناته الواقعية لتجربة السجن بعد اعتقاله في الفجر مع زوجته ليفترقا كل في سجن وزنزانة انفرادية ، وهو عالم أليف ومعتاد ومعاناته متوقعة في كل لحظة لدى بطل الرواية المطارد أبدا . فيتقطع الزمن والمكان في الرواية ويتعددان مع تنقل الروائي بين الأزمنة والأمكنة عاملا على اثراء المشهد الروائي ومضاعفة عمقه واتساعه . ويرتد الزمن ليغترف من ماضي بطل الرواية ، وهو الشخصية المحورية التي استقطبت اهتمام الروائي لانها رواية أقرب الى السيرة الذاتية وهذا أوقعها تحت تأثير تجربة الروائي نفسه في الاعتقال والسجن وجعل سيرته الذاتية وتجاربه الوفيرة تسيطر على عالم الرواية فلا تخضع للانتقاء وتنطق شخصياته بما يريده هو فلا يدع لها حرية الحركة والاختيار ، بل ان كل شيء يأتي في الذاكرة يسجله الروائي بدقة وتطويل ودون اعتبار لمدى فعاليته في تنمية الشخصية أو تطوير الأحداث أو تعميق المضمون . مما حول تيار الوعي الى نوع من فوضى الذكريات . بينما استهدف تيار الوعي في الرواية الحديثة تنظيم وتخطيط فوضى التداعي والتذكر . فليس تيار الوعي تصوير الفوضى اللاوعي ، ولكنه تنظيم لهذه الفوضى وتوجيه لها بحيث توسع من آفاق الفن الروائي وتصور « ثنائية الحياة الذهنية وفيضها » وتقدم « أكثر من موضوع واحد ، أو أكثر من زمن واحد ، في وقت واحد » كما يقول هربرت همفري في كتابه « تيار الوعي في الرواية الحديثة »[1] فتيار الوعي يستهدف التصوير الداخلي لأعماق الشخصية ومشاعرها الدفينة وليس التصوير الخارجي للشخصية والأشياء كما فعل الروائي شريف حتاتة « العين ذات الجفن المعدنية » و « جناحان للريح » .

والروائي مولع بالوصف التفصيلي الخارجي للأشياء والأشخاص والأماكن والتصوير الفوتوغرافي الالي البطيء كروايات القرن التاسع عشر ، والوصف التقريري الذي يستهدف ذكر كل شيء ويبطيء من حركة الرواية ويصيب بنائها بالتورم والترهل ويعرقل السياق الروائي ونمو الشخصية وتطورها . فنحن نتابع تفاصيل حياة البطل وذكريات طفولته وصباه وشبابه ، من خلال تيار الوعي والتذكر والسرد والمونولوج الداخلي وبواسطة بعض الصور والمشاهد ذات الدلالة في تكوين شخصية البطل وتطوره ، غير انه كثيرا ما يفلت زمام تيار الوعي والمونولوج الداخلي فينقلب الى ثرثرة ووصف خارجي للأشياء والناس والبيوت والأماكن وتعليقات مباشرة لا صلة لها بالرواية أو بسيرة بطله وذكرياته . وهكذا يفكك تيار الوعي تماسك لوحة الزمن والمكان ، وتفتت التفاصيل الدقيقة الصغيرة والأوصاف الخارجية الثانوية للأشياء بنية الرواية وتحيلها الى مشاهد وذكريات وتعليقات متناثرة مفككة غير مترابطة لافتقادها للتشابك والتعقد والتضافر ونسبية العلاقات بين الشخصيات وموقعها في المعمار الروائي .

يسير خط التطور في الرواية خطوة الى الأمام ، لنرى حياة بطلها في السجن ومشاعره وأفكاره ، ثم يرتد خطوة الى الخلف لنتابع تكون البطل السياسي والفكري والثوري . هكذا تتقدم الرواية وتتأخر ، توغل في الزمن الحاضر فتصور حياة البطل في السجن ووقائع تعذيبه وتهديده وصور التحدي والصمود ، ثم ترتد الى الزمن الماضي لتصور تطور شخصيته وعوامل تكوينه . فتمتزج صور الحياة والذكريات الماضية بحركة الرواية الحاضرة وتقدمها مع يوميات السجن والعذاب والتحدي والمقاومة .

---

(١) روبرت همفري ، **تيار الوعي في الرواية الحديثة** ، الترجمة العربية للدكتور محمود الربيعي دار المعارف ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢٤ ، ١٥٣ ، ١٦١ .

وتتابع تفاصيل الاجتماعات والأفكار والكتابات التي تشكل عمله الثوري في سبيل التحرر الوطني من الاستعمار البريطاني واقامة الجمهورية وتحقيق العدالة الاجتماعية ، من خلال علاقاته بزملائه ، كما نرقب أيضا حياته الأسرية والشخصية ، ويأتينا هذا كله في تصوير فوتوغرافي بطيء وتسجيل حرفي ووصف خارجي لكل شيء ، من ملامح الأشخاص الى ملابسهم وأمراضهم ومن بناء البيوت وتأثيثها الى الحقول والقرى والمقاهي ، بتطويل وحشو زائدين عن مقتضى البناء الروائي .

وكان الأجدر بالروائي أن يكتفي بتداعي الصور الواقعية والتعبيرية المعبرة عن انعكاس تجارب السجن والمطاردة في صياغته الفنية البديعة ، وان يستغني عن الكثير من التفاصيل الواقعية الدقيقة التي بدت أشبه بثرثرة زائدة ، في محاولته الجمع بين التأريخ للحركة الوطنية المصرية ، في النصف الثاني من الأربعينات ، وتسجيل تجربة الروائي في العمل الثوري . فقد سردت الرواية ، في ارتداداتها للماضي ، بتسجيلية تأريخية ، وقائع الصراع السياسي الذي خاضته الحركة الوطنية المصرية ، بقيادة اللجنة التنفيذية العليا للطلبة والعمال ، مع البوليس والحكم الملكي الاستعماري ، خلال ذروة تصاعد النضال الوطني في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وصورت الرواية وحشية الصدام مع الشرطة وخاصة في عملية فتح « كوبري عباس » (الجيزة الان) والقاء الطلبة في مياه النيل بعد ضربهم بوحشية . ونتيجة لاضطراب البناء الروائي بين الواقعية والتقليدية ، الأقرب الى الفوتوغرافية والتسجيلية والتأريخية ، يشغل الروائي صفحات مطولة في السرد والوصف والتأريخ والتسجيل لأحداث الحركة الوطنية المصرية ، فيسجل البيانات والخطب والمواقف والتصريحات والأحداث المعروفة عن تلك الحقبة التاريخية ، بأسلوب المؤرخ وتحقيق الكاتب الصحفي ، مما أضعف من تماسك الرواية .

ولعل أجمل ما في الرواية هو تعبيرها عن أزمة الحرية من خلال تجسيد أزمة بطلها . فتصور الرواية مشاعر البطل وضعفه ووحدته في داخل الزنزانة الانفرادية ورعبه واحساسه بالوحشة والمراقبة وانتهاك سجانيه لكل حياته وجوسهم داخل أعماقه وخصوصياته ، في تصوير يجمع بين الواقعية والتعبيرية ، بين دقة الواقع وخيال الحلم :

منذ الان لم تعد عاداته ، وحياته الخاصة ، ملكا له ، فحركاته ، وسكناته ، ونومه ، ويقظته ، وكل التفاصيل الصغيرة المرتبطة بشخصه ، والتي يخفيها الانسان أحيانا حتى على زوجته ، أصبحت تحت الفحص الدقيق المستمر من العيون الساهرة ، العيون التي تدرس ، وتزن ، وتقدر ، وتريد أن تصل الى الأعماق الحقيقية بل وان أمكن ، الى الخواطر الدفينة المستترة ، العيون التي تبحث عن النقطة ، عن الثغرة ، التي يمكن النفاذ اليها ، والتي تفتح الطريق أمام الغزو ليأتي بعده الانهيار ... انبعثت من مكان في أسفل جمجمته ومضات منتظمة ، بطيئة ، منذرة ، مثل كرات معدنية تنطلق من ثنايا المخ . ورأى عيونا سوداء صغيرة كثيرة تحملق فيه ، وتحيط به ، وتحاصره . سيطر عليه شعور باليأس القاتم ، وبالوحدة التي لا حدود لها ، وبالخوف الأعمى الذي لا يعرف العقل ، بالخطر يزحف عليه شيئا فشيئا ، كمن يدور في فراغ مظلم ليست له بداية ولا نهاية »[٢] .

ورغم معاناته وضعفه فان البطل يتماسك ، في مواجهة أول تحقيق بالسجن ، عندما حذره المحقق من أنه يفقد حياته وحريته الى الأبد ويقضي عمره مقابل أحلام لن تتحقق ، وأنه فرد في مواجهة الدولة ، وأن الدولة أقوى من كل المتمردين والرافضين ، وانها تعرف عنه كل شيء من قراءاته الى صداقاته الى أدق خصوصياته وأعمق أعماقه ولكنه يصمد في مواجهة كل هذا :

---

(٢) د. شريف حتاتة . العين ذات الجفن المعدنية ، دار الطليعة بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢١ .

« ـ يا عزيز نعرف عنكم كل شيء . ولا فائدة من صمتك . نعرف مثلا أنك مريض » .

ـ مريض !؟

ـ نعم مريض . ألست تشكو من دمل في الشرج .

أحس عزيز كأن سيفا مدببا من النار اخترق جبهته ، ودارت به الدنيا في سباق جنوني ، كأن موكبا من الوجوه الساخرة تمر أمامه على شاشة مسرعة . دمل في الشرج !! ... كيف عرف الرجل ما لا يعرفه أحد سواه ؟ .. ليس الان وقت التفكير في هذا . المهم هو ان يهدأ . بذل جهدا عنيفا لكي تتوقف راسه عن الدوران ، وشعر بحبات العرق تنبت فوق جبهته ، وبشيء كالغثيان الخفيف في معدته ، ثم هدأ كل شيء »[٣] .

هكذا أخذت صور الاستنطاق والتعذيب تترى وتتابع في الرواية ، مع صور المعاناة الجسدية والروحية للبطل السجين الموثق بالسلاسل وحيدا في زنزانته ، وهي أكثر الصور الواقعية حساسية وايحاء في الرواية . ويتماسك البطل ويقاوم كل تلك القسوة والبشاعة : « حتى الان رغم كل شي ء ، رغم الجدران ، ورغم السلاسل ، ورغم الحصار المدروس بدقة ، المدروس في صمته وفي ظلامه ، وفي عزلته التامة المطلقة ، في الايحاء بأنه يقف وحده أمام قوة باطشة لا ترحم ، قد تضرب غدا ، او بعد غد ، أو بعد دقائق ، ورغم اللعب على وتر الخوف ، رغم كل هذا ما زال هو المنتصر ، ما زال هو الأقوى » [٤] .

ويتكرر التحقيق مع بطل الرواية ، في محاورات قصيرة مشحونة بالتوتر ، يقدم من خلالها الروائي المعلومات عن بطله . فنعرف أنه مطارد وأن له عدة أسماء حركية وأنه يجيب محققه بذكاء مراوغ ، فينكر ان له مقرا أو بيتا أو أن له صلة بالأوراق المنسوبة اليه ، ولكنه يعترف بتغييره اسمه لأنه مطارد . فيسأله المحقق :

« ـ ولماذا أنت مطارد ؟

ـ لا ادري ، كل ما أعرفه أنني مطارد ، وعندما أبحث عن السبب لا أجد تفسيرا يقبله عقلي .

ـ ألا تعرف لماذا ؟

لا أعرف . أتنقل من زنزانة الى زنزانة ومن سجن الى سجن . وعندما أخرج تتبعني عيونكم ، ويحاصرني رجالكم »[٥] .

هكذا تتكشف حقائق جديدة عن بطل الرواية ، المطارد دائما ، مع كل تقدم في حركة الرواية الى الأمام . كما تنير حركة التراجع والارتداد ماضي البطل وتزودنا بمعلومات أخرى عن حياته وعلاقاته ودراساته وأسرته ، فتبدو الحركتان في ايقاع هندسي منتظم .

يفكر البطل ، في الزمن الحاضر ، وقد طال به السجن ، أنه مقدم على سجن طويل أو الموت ، وأنهم تجاوزوا الحدود المقبولة لتحدي السلطة . فالبطل المحاصر يداوم التفكير في أزمته ويتأرجح بين التوتر والصمت والضعف والعجز ، وبين تهديده بالموت وتمنيته بالحرية :

---

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠ و ٣١ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٣٢ ، ٣٣ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

« طوال الساعات ، والأسابيع ، والأشهر الماضية أحاطت به العيون تترقب نهايته كحيوان جريح سقط في المصيدة ، وزحفت عليه جيوش البق تغرس خراطيمها الدقيقة في جلده ، وجثمت على أنفاسه روائح العفن ، والبول المتراكم وحاصرته الوعود الناعمة تغري بالحرية . وحاصرته أيضا سلاسل الحديد ، وقضبان النافذة ، والأبواب المغلقة ، وانتظار المصير المجهول ، وقلق اللحظة المقبلة ، والأصوات الهامسة يسمعها أو يتخيلها تدبر شيئا في الخفاء ...[٦] » .

ويظل البطل المحاصر في زنزانته الانفرادية متأرجحا بين الترهيب والتهديد بالحكم بالاعدام والترغيب والتلويح بالافراج عنه . وعندما فشل المحقق في الصاق أية جريمة به ، عاودوا تعذيبه محاولين استخراج الاعترافات منه . وتصور الرواية بشاعة التعذيب الدامي بالكرباج ، ولكن البطل يتماسك بقوة بطولية خارقة ، رغم هلاكه وذوبان لحمه ودمه :

« تكلم سنقتلك ... أين عماد ؟ ... أين عماد ؟ .... ولكنه لا يسمع ماذا يقولون ، ولا يدري ماذا يفعلون به الان . اليد الغليظة ترتفع وتنخفض ، والكرباج ينزل على اللحم العاري الذي لا يحس بشيء . تملكته نشوة غريبة ، كالسكران يسبح في عالمه الخاص ، ويطل على الناس عبر الغيوم ، من ذلك المكان البعيد المدفون في قاع المخ[٧] » .

ويفكر البطل أثناء تعذيبه بأنه مجنون في نظر العالم لأنه يريد تغييره وتحقيق الحرية والعدالة الاجتماعية والمساواة لكل البشر . فأزمة البطل لا تتمثل في أزمة الحرية السياسية وحدها ولكنها واردة أيضا في أزمته مع الناس الذين يفكر ويعمل ويتعذب من أجلهم ، ومع ذلك يرفضونه ويسخرون منه . وانه يمضي في تصميم وعناد وتحد مؤمنا بطريقه الطويل الممتد عبر الكتب والمظاهرات والاجتماعات واللقاءات والمصادمات مع أجهزة السلطة ورجالها ، وأيضا عبر الوعي باستحالة علاج مرضاه الفقراء علاجا فرديا دون علاج المجتمع كله ، وفكر طويلا :

« ما هو الأهم . الطب أم السياسة ؟ العلاج أم القضاء على الفقر ؟ » وحسم الامر بانضمامه الى تنظيم سياسي ، اختار العمل السياسي المحترف . وبهذا تختتم صفحات رواية « العين ذات الجفن المعدنية » . لتتواصل أزمة البطل مع الحرية على صفحات الجزء الثاني المتمم لروايته ، والرواية الثانية « جناحان للريح » .

في روايته الثانية « جناحان للريح » يواصل الروائي د. شريف حتاتة استخدام تيار الوعي ليضـيء ماضي شخصية بطل الرواية « الدكتور عزيز » السياسي المطارد ، ويعرض خط تطوره في طريق احتراف العمل السياسي والمبررات الموضوعية التي قادته الى طريق التحدي والحصار والعذاب والقهر وافتقاد الحرية . بينما يعمل المونولوج الداخلي والسرد الروائي على التقدم بأحداث الرواية شوطا بعد شوط . فنعرف كيف وصل الى نقطة فاصلة تحتم عليه ان يختار بين وظيفته الامنة المريحة كطبيب وبين النضال السياسي في سبيل تحقيق الحرية والعدالة الاجتماعية ، وذلك بعد ان فشل في المواءمة والاقتناع بالجمع بين عملي الطبيب والسياسي . نطالع هذا كله من خلال تدفق تيار الوعي والمونولوج الداخلي والمقتطفات المختارة من حواره مع بعض زملائه في النضال السياسي ، ومن الصور المتناقضة والمتنافرة التي تعرضها الرواية لعمله ومرضاه الفقراء في المستشفى ، ولبيته الوثير ووظيفته الامنة ، ثم لنوعيات بائسة من حياة الكادحين ونضالهم الحديدي في سبيل مستقبل أفضل . وهكذا أدار البطل ظهره لحياته الامنة ووهب عمره للنضال والعمل السياسي المحترف . فدخل عالما جديدا وحياة جديدة ، دعامتها الصراع بين قوة القهر والقمع وعدالة المبـادىء والعمل من أجل مستقبل أفضل . وتكشفت من خلال هذا الصراع الرهيب أزمة الحرية في وطننا العربي .

---

(٦) المصدر السابق ص ١٣٥ ، ١٣٦ .
(٧) المصدر السابق ص ١٧٨ .

وتتابع صور العمل السياسي الذي تفرغ له بطل الرواية الثوري المحترف ، بعد أن غادر القاهرة والحياة الناعمة الامنة وأقام في أطراف مدينة طنطا الريفية ، يكتب البيانات الثورية ويدقها على آلته الكاتبة ليوزعها ، متنقلا بين القرى والمدن الصغيرة والحقول والمصانع ، وليلتقي بالعمال والفلاحين ويبث مفاهيمه الثورية ويكتسب عطفهم الأنساني والسياسي ومشاركتهم الايجابية من أجل توزيع الأرض على زارعيها ورد حقوق العمال وعائدات كدهم وعرقهم اليهم . وتتابع الرواية كل هذا من خلال تقديم صور ومشاهد وتفاصيل حياته الصعبة أثناء قيامه بنشر الوعي بين الفلاحين والعمال الفقراء المرضى .

كما تصور الرواية في مشاهد واقعية وصور تعبيرية دقائق حياة البطل المطارد والمحاصر وحياته ومقابلاته في الظلام وانعكاساتها في روحه ومخيلته ومجرى حياته . فتأتينا صور المطاردة في واقعية واضحة وكابوسية غامضة ، من خلال تدفق تيار الوعي في ذهن البطل الوحيد المحاصر في زنزانته ، حيث يقل الكلام ويسود الصمت . فنحلق مع البطل في تأملاته وذكرياته وخيالاته وكوابيسه طوال رحلته الى الأعماق النفسية والذهنية لشخصيته : « كان هاربا في تلك الأيام ، لا يمكث في مكان واحد أكثر من يومين أو ثلاثة ، ولا في مدينة واحدة أكثر من شهر .. » ، « الان يسير في الظلام خلف دائرة الضوء تتأرجح على الأرض أمامه ، يرى بصعوبة . شي ء من عشى الليل .. قصر النظر منذ الصغر .. لا يحب الظلام في هذه الحياة لأنه لا يرى جيدا .. يخاف أحيانا أن ينقضوا عليه دون أن يراهم .. الأيدي التي تمسك بذراعيك من الجانبين فتعرف أنك وقعت[8] » . في حواره مع حارسه تتكشف أفكاره ومحتوى نضاله من أجل الحرية ، الذي صوره في شكل حلم انساني عظيم يخلق القدرة على تحدي « الأنظمة التي تسحق الانسان » وتجاوزها في سبيل تحقيق الحرية .

وعلى طريق التحدي والمطاردة والسجن والاعتقال تنمو شخصية البطل وتكتسب الخبرات عبر صعاب معاناة أزمة الحرية السياسية التي صارت تغمر كل أنواع الحريات العامة والخاصة . وتبرز الرواية صور التحدي والتماسك التي يعمل من خلالها بطل الرواية على الاحتفاظ بتوازنه في مجابهة جبروت القهر وقوة الأجهزة المضادة التي وصفها بأنها « سلسلة طويلة من اللحظات سارت به خطوة بعد خطوة الى اللحظة الحاسمة التي يشعر فيها أنه فقد جسمه ، ليجد نفسه . أنه استغنى عن كل شيء ، ليعيش كما يريد هو لا كما يريد الاخرون . ان حياته ينبغي ان يصنع منها شيئا لا يفنى عندما يفني هو ، شيئا يؤمن به ، وينسى من أجله كل شيء آخر[9] » . وأخذ يعدد ثمن المغامرة بالعمل السياسي المحترف : « الجوع .. والمطاردة .. البعد عن البيت المريح .. والأهل » وايقاف الدراسة الطبية المتخصصة التي قطعها الاعتقال المبكر وفرق بينه وبين والديه وبخاصة أمه التي كانت تخاف عليه من « رجال يأتون في الفجر » . وفي الجانب الاخر العمل من أجل تجاوز رتابة الحياة الظالمة وصنع مستقبل أفضل ينتهي فيه « عذاب الانسان في بلدنا » وتتحقق له حرياته السياسية والاجتماعية والشخصية . وفي السجن تتواصل أزمة الحرية وتكتمل حلقاتها بحرمانه من كل حقوقه الانسانية ، حتى قراءة الصحف والطعام المغذي والضوء والنظافة والاستحمام ، أصبح هذا كله لا ينال الا بالعذاب ومعاناة الاضراب عن الطعام ، الذي تصوره الرواية من خلال مواقف الشخصيات المتفاوتة

---

(٨) د. شريف حتاتة ، جناحان للريح ، دار الطليعة بيروت ١٩٧٤ ، ص ١٥ و ١٧ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

بين الصلابة واللين والتراجع ، وكذلك مواقف سلطات السجن المتأرجحة بين التعنت والارهاب والقهر والملاينة والتسليم بتحقيق المطالب الانسانية المشروعة لبطل الرواية وزملائه المعتقلين .

وقد برع الروائي في تصوير وطأة السجن على حياة بطله وشخصيته وجسمه وروحه ، في صور تفصيلية بالغة الصدق والايحاء ، من خلال تتابع مشاهد الرواية وفقراتها وتنقلاتها بين الأزمنة والأمكنة المختلفة . غير أن حرص الروائي على تسجيل تفاصيل حياة السجن جرفه الى حشو روايته بتفاصيل وحكايات وشخصيات ثانوية غير ضرورية لموضوع الرواية أو منمية لأحداثها أو مؤثرة في اتمام بنائها ، بل انها على العكس عرقلت هذه الأحداث وأضعفت من تماسك البناء الروائي . ويتمثل هذا في القصص الفرعية للسجناء غير السياسيين وتفاصيل جرائمهم والمعاملة غير الانسانية لهم في السجن . وهي حكايات مطولة تشغل صفحات كثيرة من الرواية ولا تتصل بمضمونها أو بشكلها ، وكان الأجدى أن يكتفي الروائي بتصويره الفني الصادق والمعبر عن حياة السجن من خلال انطباعها في شخصية البطل وجسمه وروحه وفكره . وكيف تطورت روحه من صلابة التحدي الى اللامبالاة ازاء الحياة القائمة البليدة المكررة التي تؤدي به الى الاستكانة والضعف .

وعندما تخف حركة الارتدادات الى الماضي يسير الزمن الى التوحد وتكتمل صورة البطل في الماضي ، يأخذ الروائي في تصوير وقائع حياة السجن ، والصدامات بين البطل وزملائه من ناحية وبين السجانين وسلطات السجن من ناحية أخرى ، وتطورات مواقف البطل السجين حتى خروجه الى مستشفى خارجي . ويتبع الروائي في ذلك ايقاع التنقل بين الأماكن والأوقات الزمنية المتقاربة بدلا من التنقل بين الأزمنة المتباعدة . وركز الروائي على معاناة بطله السجين ، رغم سعادته النسبية في حجرته النظيفة بالمستشفى ، من وقوعه تحت مراقبة دائمة طوال الليل والنهار تجعل حريته الجديدة عبثا وعبئا ثقيلا : « كان ينجح لساعات طويلة في نسيان الرجال الثلاثة وملابسهم السوداء ، وبنادقهم الطويلة ، والمسدس الراقد في جراب من الجلد يرتديه الضابط في زهو ملموس . ولكن كان يكفي سماع سعال خافت ، أو صوت كعب بندقية يحتك بالارض ، أو تثاؤب ثقيل ، أو رؤية بوز الحذاء الغليظ يبرز من خلف الباب ، أو يد تمسك بطرف النافذة ، او نظرة عين تصطدم بعينه ثم تهرب في شـيء من الارتباك ، كان يكفي أي شـيء من هذا ليتذكر ان حريته الجديدة ليست الا وهما . ولكنه كان يخفي كل ذلك ويتظاهر بانه لا يحس بوجودهم .. »[١٠] وقال بان باب الزنزانة المغلق اكثر رحمة من هذه الرقابة الدائمة التي تنتهك حريته الشخصية وأدق خصوصياته . فنوبات الحراسة تتبدل ثلاث مرات في اليوم والرقابة الحذرة تحاصره بلا توان أو رحمة . غير ان العلاقات الانسانية بين البطل وحراسه لا تلبث أن تخفف من وطأة الرقابة والحصار المفروضين عليه . وتزيد الالفة الانسانية بينهم على طمأنينة حراسه ، وتهيـيء له مهنته كطبيب فرص الحركة في المستشفى ومزاولة خبرته المهنية .

وهنا تتصاعد الرواية نحو ذروتها الدرامية في اعداد البطل للهروب من المستشفى ، حتى يتفوق على سجانيه الكبار في لعبة التحدي والصراع . وفي هذا الجزء الأخير من الرواية تتوتر حركة الأحداث ، ويسرع نبض السرد ، وتتغلب الصور الحركية وتقل التعليقات المباشرة وتتشابك علاقات البطل بالشخصيات الثانوية الموجودة في المستشفى كالحراس والأطباء والمترددين عليه لزيارته . وقد لخص البطل ضرورة الخلاص من أزمة حريته واحتمال سجنه الأبدي في كلمات الحوار مع زميله الطبيب علاء قائلا :

---

(١٠) المصادر السابق ، ص ١١٢ .

« ـ لا أعرف كم من السنين سأبقى هكذا معتقلا . وأضيق احيانا من الاستسلام لهذا المصير » .

ـ أليست هناك نهاية للحكم الذي صدر ضدك ؟

ـ هناك نهاية على الورق « ولكن بعد انتهاء المدة كثيرا ما نعتقل ؟ »(١١)

ولكن هروب البطل لم ينجه من العودة الى السجن والاعتقال في دورة لا تنتهي حيث « يسقط الليل الأسود فوق رؤوسهم حاملا معه ذلك السكون المطلق الذي يشبه الفناء ، كانوا يتكورون تحت الأغطية الناحلة ، كالجنين في بطن أمه ، باحثين عن الدفء ، وينسجون على عالم من نسيج الخيال ، كدودة القز تنسج خيوطا من الحرير حول نفسها » .(١٢) بهذه الكلمات يختتم الروائي الدكتور شريف حتاتة روايته « ألعين ذات الجفن المعدنية » و « جناحان للريح » مشيرا الى تكرار تجربة السجن والاعتقال ، مجسدا أزمة الحرية في بلادنا العربية ، وموماً الى استمراريتها .

« الأشجار .. واغتيال مرزوق » رواية كبيرة للدكتور عبد الرحمن منيف ، تقع في قسمين ، ولكل قسم منهما بطله . بطل القسم الأول « الياس نخلة » ، بطل شعبي غير مسيس ، يمثل أحد وجهي أزمة الحرية لدى الانسان العربي المعاصر ، اما الوجه الآخر للأزمة فلبطل القسم الثاني « منصور عبد السلام ، السياسي الهارب من أزمة الحرية في وطنه » . تبدأ الرواية برحيل بطلها السياسي « منصور عبد السلام » مديرا ظهره لمعاناته في المطاردة والحصار والمراقبة والاضطهاد والقهر السياسي وتأزم الحرية طوال عشرين عاما من عمره . فيرحل أخيرا بعد أن أمضى بضع سنوات أخرى في استخراج أوراق الموافقة على سفره الى الخارج من بين الأضابير والتقارير والأجهزة والعيون المراقبة : « جواز السفر لا يعني هذه الوثيقة الصغيرة التي بين يديك . تخطىء كثيرا اذا تصورت الأمر هكذا ! والملفات الكبيرة ؟ والتقارير ؟ حتى المختار كان يستطيع أن يمنعك من السفر ... يتابعونك طوال النهار . يتابعونك طوال الليل . يجلسون أينما جلست ، يستمعون ، ينظرون . وعندما تنام لا يكون عملهم قد انتهى ، يجب أن يرفع التقرير في نفس الليلة » .(١٣) فان رحيل البطل عن الوطن يتخلق عبر معاناة أزمة الحرية ، ويستهدف الانعتاق من نير الحصار المطبق على حريته وروحه وجسده ايضا . لذا فانه يقرر عدم العودة الى الوطن مهما لاقى من صعاب .

ونعرف من المونولوج الداخلي للبطل ، وتيار الوعي والمقتطفات الممتزجة بالسرد الروائي والأزمنة المتقطعة والمتداخلة في فصول الرواية ، ان البطل مدرس للتاريخ المعاصر بالجامعة ، وانه مسافر الى باريس هربا من دوامة الحصار ، والاحباط والفصل والبطالة ، للعمل بوظيفة مترجم بالآثار . وهكذا يهرب من التاريخ المعاصر الى التاريخ القديم . ويرينا مونولوجه الداخلي كيف ضاقت به سبل الحرية والعمل والحياة كلها في الوطن ، حتى صار الوطن هو « العيون القاسية التي ينصهر منها الحقد والرصاص وكلمات السخرية ؟ الوطن ان يجوع الانسان ؟ ان يتيه في الشوارع يبحث عن عمل ووراءه المخبرون » .(١٤)

وعبر التذكر وتيار الوعي ، تتكشف أزمة البطل وتجسد أزمة الحرية في وطننا العربي . فنعرف

---

(١١) المصدر السابق ، ص ١٤٥ .
(١٢) المصدر السابق ،ص ١٤٩ .
(١٣) د. عبد الرحمن منيف ، **الاشجار .. واغتيال مرزوق** ، دار العودة بيروت ١٩٧٣ ، ص ١٤.
(١٤) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

أنه تم فصله من الجامعة بأوامر عليا لأسباب سياسية ، وأنه حاول عبثا أن يفهم او يلجأ الى حماية الجامعة له من الفصل والتشرد دون جريمة محددة ، ولكنه وجد الأمر قاطعا وصارما وواجب التنفيذ . وهكذا صار البطل مجرما سياسيا بدون جريمة وأصبح الكل يتهرب منه . ومن خلال تدفق تيار الوعي تتبدى حالة البطل المعنوية البائسة في محاولاته للخروج من دائرة الحصار والفصل والاتهام السياسي غير المحدد المعلق في رقبته .

وفي رحلته بالقطار الراحل صوب الحدود مفارقا الوطن الى غير رجعة . يلتقي « منصور عبد السلام » ، البطل السياسي ، بقرينه « الياس نخلة » ، البطل الشعبي المهرب المحاصر والمهدد في أمنه وحياته أيضا بسبب صراعه مع السلطة ورفضه لقيم المال والمنفعة ، التي تلتهم قيم الانسان الأصيلة وحبه النبيل للحياة والزرع والأشجار ، وتحاول انتزاع جذوره من أرضه ووطنه . لذا فهو هارب من دروب الحياة الضيقة ، ومن انهيار القيم الانسانية واستبدلها بقيم غير انسانية .

وتتجاوز أحاديث البطل السياسي « منصور عبد السلام » والبطل الشعبي « الياس نخلة » ، وتتدفق سيرته مع ذكرياته بينما هما يتحاوران . فنتابع واقع الحصار المادي والنفسي لمنصور عبد السلام عندما يتخلل الماضي الحاضر . وتقفز الرؤية الواقعية والتعبيرية في شكل أحلام يقظة وكوابيس تهبط على خيال البطل وذاكرته ، فيتذكر استحالة النوم ومطاردات الأشرار وأحكام الرقابة ، حتى ليتصورها موجودة في كل شخص حوله ، ويتساءل ضميره : « لماذا خلق الناس وكل واحد يراقب الآخر ؟ » .

وتتداخل أحاديث « منصور عبد السلام » ، البطل السياسي الهارب من حصار الرقابة والمطاردة والفصل ، مع أحاديث المهرب « الياس نخلة » ، وذكرياته الرمزية المصاغة بتفاصيل واقعية ، عن رفضه لبيع أشجاره أو قطعها أو استبدالها بزراعات جديدة ، ودفعه الى المقامرة عليها حتى خسرها كلها . ومن ثم هجره لبلده وهروبه الى الجبال يقطع الطرق ويصطدم بالناس والسلطة . فكلا البطلين هارب من بلده ، رافض لأسلوب الحياة فيها ، ومرفوض منها ايضا .

يتحول القسم الأول من الرواية الى السيرة الخاصة ببطله الشعبي « الياس نخلة » ومحاولاته الواقعية والرمزية للخروج من دائرة الحصار في البلد الذي يقطع الأشجار ويحاصره في رزقه ويدفعه للبطالة ويمنع أواصر الحياة . فنرى محاولاته للخروج من أزمته وتقلباته في مهن شتى ، بغية تحقيق ذاته الانسانية في الحياة بطرق شريفة ، وسعيه الدائب من أجل الحب والاستقرار وتكوين أسرة . غير أن الحصار يحيط به من كل جانب ، ويتهدده الاحباط والفشل والرفض : « في المدينة عملت صانعا عند دهان ، ثم عاملا للبناء . كان حظي في هذين العملين مثل حظي في الفرن . أعمل يوما وأتعطل أياما . جعت في المدينة الكبيرة . تعبت وأنا أدور ، صدتني الوجوه القاسية التي لا تعرف رائحة الأشجار ولا تعطف على الغرباء . فكرت أن أعود للطيبة مرة أخرى ، ولكن الكراهية الصفراء التي رأيتها في وجوه أهلها صدتني بسرعة »[١٥] . وحتى عندما أعاده الحنين الى بلدته « الطيبة » وجد الأشباح تطارده واضطر للهرب مرة اخرى » : « لم تمض أربعة شهور حتى كنت اركض في الظلام هاربا من الطيبة . كنت أتصور أن أشباحا ورائي تطاردني وان خيطا من نار يمتد بين يدي هذه ورفع يده قليلا ، يشير الى الجرح ، وبين لعنة سوداء خلقت في الطيبة . وبدات أركض وأركض خارجا من الطيبة نحو الفلاة ،

---

(١٥) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

والأشباح تسد في وجهي الطريق وخيط من النار يمتد بين يدي هذه ، والبلدة الملعونة »[١٦] .

هذا الانسان الشعبي البسيط ، المغترب المطارد المهان المحبط المهدد في رزقه وعمله وكرامته وحياته : التي رمز لها الروائي بالأشجار المغتالة ، هو أحد وجهي أزمة الحرية في القسم الأول من رواية الدكتور عبد الرحمن منيف . أما بطله السياسي « منصور عبد السلام » ، المثقف المطارد المحبط ، فيمثل الوجه الآخر من أزمة الحرية ، وهو ما سنركز عليه لأنه الأقرب الى مفهوم هذه الدراسة . لان القسم الأول من الرواية حشي حشوا بكثير من القصص والحكايات والاحاديث الفرعية والشخصيات الثانوية الزائدة عن مقتضى البناء الروائي ، التي جعلت خيط الرواية الرئيسي يتوارى ويستقطع تحت ركامها ويتحول من الكشف عن ماضي « الياس نخلة » وأزمته ومأساته الى سيرة وتاريخ مدينته « الطيبة » واهلها وقيمهم وصراعاتهم ومشكلاتهم ، بسرد تقريري وتطويل غير مبرر أو مطلوب . ولأنها تغمر المغزى العميق لاغتيال الأشجار ، لانتزاع « الياس نخلة » الانسان المحاصر من جذوره ، من أرضه وزرعه وشجره ووطنه وقيمه ووجوده وذاته وحريته ، وتسبب في اغترابه ووحدته وهروبه من جريمة لم يرتكبها ومن اتهامات تظل معلقة برقبته ، هو المذنب البريء والمجرم بدون جريمة ، في عالم يضمر له العداء ويطارده اينما ذهب . كما هو الحال مع قرينه السياسي « منصور عبد السلام » .

وعندما يفترق القرينان بعد ان جمعتهما « الخيبة » ، وينفصل الوجهان « الياس نخلة » « الانسان المعذب بالأشجار والحب ورجال الجمارك » و « منصور عبد السلام » السياسي المثقف الهارب الى الخارج بحثا عن عمل جديد تتحقق فيه حريته وذاته ، لدى نقطة الحدود الفاصلة بين الوطن والعالم ، عندئذ يبدأ القسم الثاني من الرواية في تصوير أزمة الحرية السياسية التي جسدها « منصور عبد السلام » .

يبدأ تيار الوعي تصوير ماضي « منصور عبد السلام » مع مزجه بأزمته في الحاضر . فنتعرف الى البطل الثوري في ذروة نشاطه السياسي واجتماعاته ولقاءاته وثقته التي لا حدود لها في انتصار الثورة والقضاء على الخونة بعد النزول الى الارض ومواصلة العمل الثوري السري . وتبدو أزمة الثوري « منصور عبد السلام » في هزيمة كل أفكاره وطموحاته الثورية التي لم يتحقق سوى عكسها بفصله من عمله وبطالته .

وبعد الفصل والتشرد جاء دور الحصار في داخل الوطن ومنعه من السفر الى الخارج وتهديد كل من يمد له يد المساعدة والمعاونة على الخروج بيد الدولة الطويلة الباطشة . فقد « كانوا يريدون ان يدفنوه وهو حي بعد ان سرح من العمل » .

ويقارن « منصور عبد السلام » فشله بفشل قرينه « الياس نخلة » . ويجد انه خيبة كاملة ، وانه لم يحقق أي شيء سوى العمل للهروب من الوطن لمجرد مواصلة الحياة ، بعد اليأس الكامل من التاريخ والثورة والعمل على تغيير العالم .

يمزج الروائي بين الزمنين الماضي والحاضر ، بين الذكريات الماضية ووقائع رحلة الخلاص الجديدة . فنرى أزمة الحرية تستمر داخل الحصار المفروض عليه بالرقابة وأسئلة رجال الأمن والجوازات وعبودية الأوراق والأختام التي نالها بعد سنوات من عذاب الجري وراءها ، وفي التفتيش

---

(١٦) المصدر السابق . ص ٧١ و ٧٢ .

الدقيق في أوراقه وحقيبته الوحيدة وكتبه القليلة ، في رحلة الهروب ، وفي رغبته بتدمير العالم والبلد الذي كان كل ما فيه للأغنياء وليس للفقراء سوى العذاب والموت . وتتدفق أفكاره لتمثل ذروة أزمته ويأسه عندما يسأله مفتش الجمارك يجيب لسانه اجابة مقتضبة بينما يفيض تيار وعيه بمعالم أزمته :

ـ أتصرح بشيء للجمارك ؟

ـ أصرح بأنني غير موجود . لقد مت منذ زمن طويل . وقد اشترك ثلاثة بدفني ! «[١٧] .

يواصل المفتش أسئلته التحقيقية عن عمله الأصلي والغرض من السفر وعن كتبه وأفكاره . انهم يفتشون روحه وماضيه ومستقبله ، فالحصار مطبق عليه حتى في رحلة الخلاص هذه . ويردد مونولوجه الداخلي اجابات بالغة الدلالة ، تعبر عن مدى عمق أزمة الحرية التي تجسدها شخصية الياس منصور عبد السلام ، ردا على اسئلة المفتش عن الغرض من السفر قائلا : « أذهب لأصلب في سهول مغبرة من أجل لقمة الخبز . بعد ان أصبحت عزيزة علي في الوطن. اتباع اليوغا يذهبون من اجل ان يجلسوا براحة على المسامير والأسياخ المحمية! . مرة أخرى أصرح بأنني غير موجود . ميت . غبت عن الوجود منذ فترة طويلة ، بقصد ان أخرج على الناس بدعوة جديدة ، ولكن اخطأت كثيرا لانى لم أجد مغارة ، ولم أجد شيئا أقوله للناس «[١٨] .

هذه هي ذروة الازمة التي تجسدها أفكار منصور عبد السلام . وعلى هذا النحو تستمر اجاباته ، من خلال المونولوج الداخلي ، على الاسئلة التي تطارده عن رحلته ورؤيته التعبيرية المأساوية للانسان والعالم والأشياء . فجواز السفر اختامه « سوداء كليل المرعوبين» و « الانسان أضعف المخلوقات ، اكثرها تعاسة ، اكثرها تحسبا للأخطار الصغيرة » . فقد تهاوت مقاومته وصلابته وثقته وشجاعته . وأصبح ، بسبب أزمته . انسانا ضعيفا منهارا يتمنى تدمير نفسه بدلا من تدمير العالم أو تغييره ، لذا هو يفكر : « لقد تحطم شيء في داخلك ، تحول الى رماد هش وحقير ، ولا يمكن ان تتماسك وتعود رجلا مثل باقي الرجال ![١٩] فقد تحول من انسان الى جثة « تفتش عن قبر » ورفض كل القيم التي عاش من اجلها وتعذب بسببها وقطع جسوره بكل العالم ، ولم يعد قبره سوى الخمر . لذا أنكر معرفته بالياس نخلة لدى اول سؤال عنه من المفتش ، تخلى عنه ببساطة ايثارا للسلامة ، لاحظ هنا دلالة الأسماء « الياس نخلة » ضحية اقتلاع الأشجار ، و « منصور عبد السلام » .. فقد سقط وسلم ورفع الرايات البيضاء ازاء الحصار الرهيب الذي يطبق عليه من كل جانب : « سوف تستسلم يا منصور للراتب ، للوظيفة ، للعرق ، وحتى للكلاب وانت تقدم لها العظام . ستقول لها : اقدم لك احترامي الشديد المقرون بالوفاء ! الخوف الذي نما في داخلك ذات يوم ، لم يعد بذرة صغيرة ، أصبح شبحا يلاحقك في كل وقت ، صرت الآن تتوهم . وتلتذ وانت تقول للآخرين : رأيت اليوم اثنين يرابطان عند البيت ، كانا يتظاهران انهما ينظران الى جهة ثانية ، ولكن ما كدت اخرج حتى تبعاني ظلا ورائي اكثر من ثلاث ساعات . حاولت ان اضللهما .. وفي النهاية ركبت الباص ، وأفلت منهما .. ولما رجعت الى البيت بعد العصر وجدتهما ! » [٢٠] فقد تحول هو الانسان العادي البسيط العاطل الحالم الى رجل بالغ الخطورة في تقارير الشرطة .

---

(١٧) المصدر السابق ، ص ١٤٦ .
(١٨) المصدر السابق ، ص ١٤٨ .
(١٩) المصدر السابق ، ص ١٥٣ .
(٢٠) المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

هكذا يمتزج الحلم بالواقع والماضي بالحاضر والحوار الواعي بتيار الوعي وأعماق الذهن . ويغترف الروائي من ماضي شخصية منصور عبد السلام كل عوامل أزمته التي قادت الى انكساره الداخلي وتحطيم روحه ، هو الانسان العادي الذي يتميز بأنه يدافع بشراسة عن عالمه الداخلي وحريته . فتكالبت عليه الطعنات وأدمته الجراح حتى انهار كل تماسكه ووجوده الانساني ، وتحول الى جثة تفتش عن قبر ، عن مهرب .

ويعرض الروائي شريط حياة بطله من خلال صور ومشاهد منتقاة من طفولته الى شبابه ، من حبه للكتب الى اكتشافه لعالم السياسة ، الذي مات أبوه من أجله ، والمظاهرات والاعتقال والسجن ، من حب التاريخ الى دراسته وتدريسه والوعي بالتاريخ المعاصر وفهم الواقع ورفضه وعدم التعلق بمكاسب الوظيفة او الرضوخ لها. ومن خلال ذلك نتابع المآسي السياسية العربية، من مؤامرات الاستعمار والصهيونية الى شرور الملكية والحكام الاقطاعيين المتعاونين مع الاستعمار ، ونمو البطل وسط المظاهرات والاعتقالات والانتفاضات وحروب المقاومة والتحرير ، ثم الاحباطات والخيانات والتراجعات أيضا .. والبطل السياسي يتلقى ضروب التعذيب والاستنطاق حتى فسدت روحه ولم يعد سفره يمثل اي فرح او خلاص ، انه هرب لجثة ، كما فكر بينما القطار ينطلق .

أما مبررات أزمته واستلامه وهربه فترد في شكل مشاهد وصور منتقاة من سيرته . انها في قصص حبه الفاشلة مع النساء بسبب السياسة التي تسللت اليها حتى أفسدتها . فلم يستطع ان يكمل علاقة حب او يحقق زواجا او نهاية بل كلها قصص حب متقطعة وضرب لها مثلا بقصته مع « كاترين » الحسناء الأجنبية التي رفض تحقيق امنياتها بالزواج منه والعودة الى الوطن . وجاء رفضه لانهما من عالمين لا يلتقيان ، اوروبا والشرق العربي ، ولأنه مشدود الى مهمته السياسية الثورية في وطنه . لهذا صمم على قطع علاقة حب دامت أربع سنوات مع « كاترين » لمبررات سياسية ، حتى تعذر عليه الوعد بكتابة رسالة واحدة كل شهر . فقد وهب حياته للنضال السري الخطر ضد كل ما يرفضه في وطنه ، من الملوك المتوجين وغير المتوجين الى أسلوب الحياة والتقاليد والأعراف والعادات والعلاقات المتخلفة .

ومن قصص الحب التي حطمتها السياسة الى الهزيمة المرة التي تلقاها كعسكري مجند في ميادين القتال وتصويرها الزائف كانتصار ، الى التشرد بعد الفصل من وظيفته كأستاذ بالجامعة ومن ثم رفضه كزوج لخطيبته الوطنية لبطالته وفقره وتشرده . وهكذا تتدفق مبررات أزمته في صور متتابعة ومتقطعة ، مستخدما المونتاج السينمائي والقطع والفلاش باك والمونولوج الداخلي وصيغ الحلم التعبيرية والصور التفصيلية الواقعية ، مجسدا ملامح الأزمة ، في الماضي والحاضر ، التي حولته الى جثة بعد ان احترقت أحلامه وأعماله وتهاوت آماله وسقط في هوة اليأس الكامل واللامبالاة مثلما يحمل كتبه الثلاثة دون اهتمام « ملحمة جلجامش » ، « الجيل الخائب » ، « والتنقيب عن الماضي » . وهي كتب تلخص احلامه ومسيرته وتاريخه ، بعد ان منع من تدريس التاريخ المعاصر ، لأنه كشف عن التزييف في دروس التاريخ المطروحة ، وان التاريخ كله يتطلب اعادة النظر لأنه تاريخ الملوك والحكام وليس تاريخ الناس المجهولين الذين يصنعونه حقا .

هنا أخذت صور المطاردة والمراقبة تتزاحم من حوله . ويصورها الروائي بتعبيرية وشاعرية :
« وبدأ العداء الحقيقي بيني وبين كل الأشياء التي حولي . الريح دعارة الطبيعة . الشارع مزبلة . السجانون مجموعة من الديوك المخصية . البيت علبة فارغة تنبع من جدرانها الضجة والكآبة .

والمخبرون .. من هم المخبرون : القط الأسود الرابض على سور الحديقة المجاورة مخبر في جلد قط .. وبائع الحليب .. أمسكت بتلابيب بائع الحليب الأعور ، ذات صباح وقلت له : ان دققت بابي مرة ثانية ، اطعمتك للجرذان .. اذهب لا أريد ان أراك !(٢١) » واخذت الاتهامات تحاصره ايضا داخل قاعات المحاضرات حتى أخرسوه : « تحولت قاعة المحاضرات الى سجن ، سجن حقيقي ، وتحولت كلماتي الى قطع من الحديد الصدىء لم أعد أصدق أنها تصدر عني . كنت أميل بأذني لكي اسمعها ، فانكرها . لم أكذب كثيرا ولكن لم أعد أهتم بما يجب أن يقال . أصبحت ألقي المحاضرات وكأنها واجب ثقيل ، وأصبحت أرفض الاجابة على أية اسئلة ، رغم ان هذا سبب لي آلاما عضوية تفوق طاقة الانسان على الاحتمال »(٢٢) .. وحتى رضوخه لم ينجه من الفصل والتشرد ، وخابت آماله في الثورة بعد ان تحول زملاء النضال السياسي الى ملوك غير متوجين واقطاعيين جدد ولم يعد يملك الا الحلم بنهايتهم معلقين من ارجلهم ؟ !

هذه هي يوميات « الجيل الخائب » ، كما يقول « منصور عبد السلام » الذي امتدت خيبته وأزمته من فصله ورفضه سياسيا وماديا الى اغلاق كل الأبواب في وجهه فلا يسمح له بأي عمل ، بما في ذلك ترجمة الكتب ، ولا يتاح له السفر الى الخارج ولا يدخلونه السجن حتى لا يتحول الى بطل وشهيد ؟! وتستنفد أعصابه وقواه طوال السنوات الثلاث الأخيرة ، قبل ان يؤذن له بالسفر ، في مطاردة الأوراق والدوائر واجتياز الحواجز والموانع والعراقيل الأخطبوطية .

وفي رحلته بالقطار ظل الرعب يحاصره كلما ظهر رجال الشرطة . بل ان عمله بالآثار أعاده الى جو الرعب والحصار والأزمة ، عندما حذرهم ضابط الشرطة من الاتصال بالسكان المحليين أو الحديث في السياسة . وتردد يومياته في العمل بالآثار وانطباعاته عن أزمة الحرية : الرعب من المحققين ، بؤس الانسان ، القيظ ، الجوع ، السجن ، التعذيب ، البطالة ، الاضطهاد .. حتى قتل « مرزوق » ، انموذج الانسان العربي العادي المعذب المغتال في صمت . فمرزوق فجأة ، وبدون تقديم او تبرير في نهاية الرواية كرمز لأزمة الحرية والوجود الانساني في وطننا العربي : « مرزوق ليس واحدا ، مرزوق كل الناس. مرزوق شجرة ، مرزوق ينبوع ، مرزوق هو الياس نخلة الذي لا يموت »(٢٣) .

وينتهي « منصور عبد السلام » بالاندحار ، والصمت ، والكف عن الحديث في مشاكل الناس والوطن ، ليعمل صحفيا لا يرى سوى معارض الزهور ولا يتابع سوى تحركات الحكام ؟!

يبدأ « رجب » ، بطل رواية « شرق المتوسط » ، للدكتور عبد الرحمن منيف ، من حيث انتهى « منصور عبد السلام » بطل رواية « الأشجار واغتيال مرزوق » ، فيستسلم بعد خمس سنوات من السجن . يرد هذا من خلال رواية تعبيرية مكثفة شاعرية الأسلوب تنطق بالسخرية المرة من وضع الانسان العربي المأساوي في شرق المتوسط أو في الأراضي الواقعة بين البحر المتوسط والصحاري . فالمكان غير محدد اشارة الى عمومية أزمة الحرية في الشرق العربي . ويقدم عبد الرحمن منيف روايته ببعض مواد من اعلان حقوق الانسان التي تؤكد حق كل انسان في الحرية وعدم التمييز بسبب العقيدة او الرأي ، وتحرم التعذيب والاضطهاد وانتهاك الحياة الخاصة للانسان في بيته وأسرته ومراسلاته .

---

(٢١) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .
(٢٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .
(٢٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٩ .

تبدأ الرواية مع خروج البطل من السجن مصابا بروماتيزم في الدم ومستسلما منهارا راضخا بعد سنوات السجن .

« قال لي الآغا : جاءت الموافقة على اطلاق سراحك ، وغدا قبل الظهر ستكون حرا ..

لم افاجأ ، لقد قدمت الثمن الذي طلبوه كاملا ، ولم يبق الا أن أغادر السجن ..

قال : كان يجب أن تفعل هذا قبل اربع أو خمس سنين .. تأخرت كثيرا ، دفعت ثمن ذلك من صحتك »[٢٤] .

ولكنهم يطلبون المزيد ، هو يريد العلاج بالخارج لما تبقى من جسم الحيوان كما يصفه الروائي . وهم يريدون التقارير عن أخبار الطلبة والنشاط السياسي « والا خسر كل شيء .. الدنيا والآخرة » . وقال له الآمر جملة ذات مغزى « الواحد منا لا يزال يتصورك سجينا » فالسجن لعنة أبدية تطارد البطل السياسي أينما توجه ومهما تنازل وخسر روحه وتوازنه ، فانهم لا يتركونه لحاله ، بل يأسرون روحه الى الأبد . ومن هذه اللحظة نتابع حياة البطل السياسي في قبضة الأزمة ، حياة الرجل الذي مات كما وصف الروائي بطل روايته « شرق المتوسط » ، أو « الجثة التي تفتش عن قبر » كما وصف بطل روايته « الأشجار واغتيال مرزوق » .

« مات » هذا البطل السياسي في قبضة « الاغوات » المحكمة الخانقة ، ولكن ذكريات السجن والعذاب والاضطهاد لم تزل حية تتدفق عبر تيار وعيه مع وحدته وصمته وسكونه . تتداخل الذكريات وتتطابق المواقف في مقارنة بين تحديه الأول ورفضه التوقيع على أقواله في بداية سنوات السجن ، وبين رضوخه واستسلامه وتوقيعه على اعترافه في نهاية سجنه . في المرة الأولى تلقى الصفعات الدامية والبصقات ، أما في المرة الثانية فكان الرثاء والتشفي . تستعرض ذاكرته وقائع السقوط والاعترافات السابقة لزملائه المفرج عنهم ومواقف الاهانة والبذاءات التي تكيلها سلطات السجن للبقية الصامدة ، بينما هم يتساقطون مع تقدم السنوات الواحد بعد الآخر . « لم يترك الآغا شتيمة . قال كل الشتائم التي يعرفها ... لما تعب من الشتائم أجلسنا على الأرض ، وبدأ يخاطبنا بحذائه . وضع قدمه على رقبة ابراهيم من الخلف وداس بكل ثقله حتى وقف فوقه ، وترك قدمه الأخرى تهتز في الهواء . أما عزيز الذي كان في بداية الصف ، فقد دفعه بقوة فاصطدم بنائم انقلب على وجهه !»[٢٥] .

من هذا المزج الفني بين الذكريات والوقائع والأزمنة المتداخلة والمتشابكة والمعقدة ، نتابع سقوط البطل وتحولاته المأساوية أثناء فقده لروحه وقوته وتماسكه واعترافه ورضوخه . ان رعبه من السقوط والخيانة يفوق أيام الرعب والتعذيب السابقة . ويصور الروائي ضميره المعذب تصويرا داخليا عميقا ، فالأحداث الخارجية محدودة والرواية تجوس داخل نفسية البطل وذهنيته . انه يحاول تبرير سقوطه الناجح ومن خلال ذلك تصور بشاعة القهر والتعذيب داخل السجن : « لا لم أنته » المرض هو الذي قتلني ، أريد أن أستريح مؤقتا .. لم أعد قادرا . للانسان قدرة معينة على الاحتمال ثم يتلاشى .. وأنا هل ينكر أحد كم تحملت خلال السنوات الخمس ؟ من منهم تحمل مثلي ؟ أتحداهم جميعا .. قل يا عصمت ، هل تحملت أكثر مني ؟ الضرب ، السجن الانفرادي ، التعليق في السقف ، المياه الباردة أيام الشتاء ، المنع من النوم .. جميعا تحملنا .. ربما تحملت أكثر مني وأنت معلق ، قضيت يوما زائدا . هذا ليس ذنبي ، جسدي لم يعد يحتمل ، أغمي علي مرات كثيرة ، وآخر مرة لم يعد الماء البارد

---

(٢٤) د. عبد الرحمن منيف ، **شرق المتوسط** ، دار الطليعة بيروت ١٩٧٥ ، ص ٩ و ١٠ .
(٢٥) **المصدر السابق** ، ص ١٧ .

أو الصفعات كافية لايقاظي ، لانهاء حالة الاغماء التي سقطت فيها .. ماذا استطيع اذا انهار جسدي ؟ ارادتي لم تتداع ، لم تنهر في أي يوم .. تحملت أكثر منهم ، وهم يعرفون ذلك تماما »[٢٦] . ومع ذلك فقد ظل يقاوم « أموت ولا أوقع » حتى رضخ ، فلكل انسان طاقاته المحدودة في الاحتمال ازاء جبروت القهر والرعب .

هذه هي معالم أزمة الحرية في أبشع صورها التي ترد وتتابع بمهارة شاعرية وقسوة في رواية الدكتور عبد الرحمن منيف « شرق المتوسط » ، يردد البطل ، في صور ومشاهد ومقاطع بصرية وفي امكنة وازمنة مختلفة ، عوامل عذابه وسقوطه : وفاة أمه بعد اهاناتهم لها بالسجن ورؤيتها لابنها يذوي بفعل التعذيب ، فقده لحبيبته بسبب سجنه المحكوم باحدى عشرة سنة ، قصص الانهيار والاستسلام ودعوات التعقل ، والبعد عن السياسة ، والتفاهم مع مدير الشرطة ، التي تحملها اليه أخته مع كل زيارة له في السجن . تكالب آلام المرض وفشل كل علاج ...

وهكذا بدأت تراجيديا السقوط ، بعد أن اخذ يفكر باستحالة انقضاء مدة الاحدى عشرة سنة في السجن وبامكانية اعادته اليه لسنوات اخرى كما حدث مع بعض زملائه ، فطريق السجن والاعتقال والاضطهاد ممتد بلا نهاية ، بلا منطق أو مبرر . ويقارن البطل بين صور الحياة الحرة الناعمة في الخارج وصور حياة السجن الكئيبة المتمثلة في العذاب والاهانة والدوس على الكرامة البشرية والطعام المتلىء بالصراصير ، والحلم بالنوم الآمن خلف باب دون دق أو اجبار على حمل القاذورات والأوساخ .

يقول البطل لأخته « الانسان يقول انه لن يقول شيئا ، أما اذا بدأوا يضربونه ، اذا استعملوا أساليبهم ، فانه سيقرر في تلك اللحظات .. وكيف يقرر ؟ ان جسده هو الذي يقرر ، الارادة في تلك اللحظات تموت ، تخبو ، والجسد وحده هو الذي يفعل كل شيء !»[٢٧] هكذا يرضخ « رجب » ويسقط ويذهب كالميت الى بيت أخته « انيسة » فلا يشعر الا بأنه يموت في نظافة الحجرة كنظافة المستشفيات ، ولا يتنفس ولا يشعر بأية بهجة . وخلال ذلك يتذكر ويمزج الذكريات بحالته الميتة بعد الافراج .

ويتابع الروائي تصوير أزمة بطله « رجب » من خلال وجهات نظر متعددة لشخصيات الرواية ، التي تتناوب القص حول ذكريات عمله بالسياسة وسجنه واعتقاله وعذابه وتطور مرضه وتحولات حياته وعلاقاته ورؤيته المختلفة للحياة والناس والأشياء . فنرى انه لا يفكر الا في الرحيل خارج الوطن ، كما فعل « منصور عبد السلام » بطل رواية « الأشجار واغتيال مرزوق » ، ولا يريد رؤية أحد ، يتنكر لاصدقائه ، يرفض بعنف وغضب آيات الفرح والابتهاج بخروجه من السجن ، لا يأكل ولا يتذوق ، يكره الضوء والناس ، يغلق عليه حجرته ويجلس منحنيا مقهورا مسحوقا . قال وهو منحن : اتعرفين يا أنيسة ان حياة السجن أفضل ؟ هذه بعض كلماته القليلة التي تتخلل صمته ، فهو صامت ساكن غاضب مكتئب حزين معذب ، لا يأكل ولا ينام ولا يضحك ولا يبتسم ، ولا يبكي الا لدى ذكر موت أمه وعذاباتها في مواجهة سجانيه وجلاديه مقتحمين بيتها عند القبض عليه في أوقات الفجر ، وسبابهم اياها وانكارهم لوجوده بالسجن طوال اربعة شهور ، ثم القائهم لهداياها في زياراتها للسجن . وهي صور حزينة صارخة مؤثرة ، تصور ضياع السجين السياسي وافتقاده لكل حقوق الانسان . فهم ينكرون

---

(٢٦) المصدر السابق . ص ٢٤ و ٢٥ .
(٢٧) المصدر السابق . ص ٨٣ .

معرفتهم به ، وتظل الأم العجوز تدور في دوامة البحث المهلكة أياما وأسابيـع وشهورا حتى تتوصل بطرقها الخاصة الى التيقن من وجوده على قيد الحياة . ثم تتواصل صور الاهانة بضربها أمامه وسبها والقاء ما تحمله لابنها من مأكولات ولوازمه البسيطة . حتى سقطت الأم فريسة للقهر والاضطهاد وسحق الانسان .

هكذا تنساب حياة البطل وتتدفق من عدة زوايا وعبر أدوات فنية متعددة ، من خلال الرؤى المختلفة لشخصيات الرواية المتصلة به ، من خلال ذكرياتهم عنه ومواقفه السياسية والشخصية ، وأيضا من خلال مذكراته الخاصة التي كتبها قبل دخوله السجن وحفظها في دفتر يحمل أشعارا وذكريات غير سياسية ، ومع ذلك فانه يرتعد من حمل دفتر مذكراته في رحلته الى خارج الوطن أو من تركه لدى أخته خشية وقوعه في ايدي الشرطة واستعمالهم لمحتوياته في التشهير به . فحتى أدق خصوصياته التي لا تمس السياسة أو الدولة لا يتمكن البطل من الاحتفاظ بها آمنة . لأن بيته وحياته الخاصة مهددان بالانتهاك والاقتحام في كل لحظة . تلك صور منوعة أو تنويعات متعددة على لحن أزمة الحرية يعزفها الروائي عبد الرحمن منيف في روايته « شرق المتوسط » بمهارة وشاعرية وعمق ، فتزداد كثافة العمل الروائي وتتسع آفاقه وتتعمق رؤاه .

يحمل البطل عذابه داخله مع قهره وانسحاقه ويرحل من داخل السجن الى خارج الوطن ، ولكنه يظل داخل السجن النفسي ، أو كما قال رجب لأخته : « السجن يا أنيسة في داخل الانسان ، أتمنى ان لا أحمل سجني أينما ذهبت ، ان مجرد تصور هذا عذاب يدفع بالانسان الى الانتحار !(٢٨) » .

في رحلة الخلاص يرحل البطل عبر البحر المتوسط ، الفاصل بين عالم الاضطهاد والانسحاق والحرية المأزومة وعالم الحرية وحقوق الانسان ، فوق باخرة يونانية تحمل اسم « اشيلوس » . يرحل الروائي عبر المكان بعد أن رحل عبر الزمان ، فيضـيء مشهدا بانوراميا شاملا لحياة البطل ونضاله وسجنه وتعذيبه وانسحاقه ومرضه وسقوطه ، عبر الارتدادات والرجعات والومضات والاضاءات والرؤى والشخصيات والأمكنة والأزمنة المتعددة والمتنوعة ، فرحلة البطل تستهدف أرض الحرية بعد أن عانى من أزمتها الحادة في وطنه : « قالوا ان الحرية في أرض أخرى ، أبعد من اليونان ، يمكن أن يعيش فيها الانسان أيامه دون أن يوقظه عند الفجر صوت المخبرين وضربات أحذيتهم .. سأرحل الى تلك البلاد »(٢٩) .

ورحلة البطل على الباخرة اليونانية هي رحلة الخلاص والنسيان والتصالح مع النفس المخربة ، رحلة النجاة من الآسر والسجن والمطاردة والتعذيب والخروج من قوقعة الحزن والصمت والانكسار . فهل ينجح في التصالح والخلاص من ذكريات السجن والتعذيب والاستنطاق ؟! انه يحاول الخروج من هذه المحنة ، يخاطب الباخرة ، يراقب ركابها ، يحاول أن يغني معهم ، وأن يجعل الرحلة فاصلة بين حياتين . ويصور الروائي هذه المحاولة ببراعة في شكل صراع بين ذكريات السجن والتعذيب والاهانة وبين محاولات البطل معايشة جو الحرية فوق السفينة والامتزاج بالغناء المرح والغناء الحزين ، الذي يبث المهاجرون العرب عبره همومهم وأحزانهم ، وبالانخراط بصعوبة في دائرة المسافرين والراحلين . فالخروج من دائرة العذاب والاحباط والسقوط يتم بمعاناة وصعوبة .

---

(٢٨) المصدر السابق ، ص ٨٨ .
(٢٩) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

تتدفق ذكريات الألم ، القبض والتحقيق والاهانة والسباب والضرب ، وينتقل المشهد الى الباخرة وعالم البحر والمسافرين وأحاديثه مع النساء والرجال عن اللغات الأجنبية والعالم الجديد الذي يتجه اليه الآن بروحه المدمرة آملا في الخلاص والانقاذ . وتتزايد صور التعذيب وضوحا وبشاعة وقوة : « كل شيء في اشيلوس يذكر بتلك الأيام .. مددوني على طاولة ، كنت عاريا تماما ، وجهي باتجاه الارض ، ورأسي يترنح من الضربات ، لا أعرف أي عدد من السجائر اطفأوا في ظهري ، على رقبتي ، داخل أذني ، وبين اليتي . كانوا يضحكون أول الأمر ، وأنا أحاول الدفاع عن نفسي بساقي الطليقتين . رفست مرتين أو ثلاث مرات ، لما حاولت في المرة الرابعة حزموا رجلي بقوة ، وبدأوا يصرخون : أعترف ، أعترف يا ابن الزنا »[٣٠] .

هذه لمحة من صور التعذيب المتدفقة تتبعها لوحة من الحياة على السفينة : « وهذه الأغاني التي تتحدث عن القمر و البحر ، ألا تنتهي ؟ لن أسمع هذه الأغاني سأحطم الراديو دون رحمة اذا سمعتها ، لا أطيق . أمس فوق ظهر الباخرة كانوا يغنون بشكل مختلف ، كانت أفواههم وهي تصرخ بتلك الآهات ، تحمل معنى ألم الانسان ، رأيت دموعهم المتحجرة في عيونهم ، أما الأغاني التي كانوا يغنونها فانها تذكر بالعالم السفلي ، عالم الدماء والقطط »[٣١] .

هكذا تتجاوز صور الماضي والحاضر ، وتتداخل صور السجن والبحر ، وتمتزج عذابات القهر بحياة الباخرة وأغنياتها الناعمة ، وتتزاحم كلها في داخل البطل الهارب الراحل في رحلة الخلاص والنسيان والتصالح التي تبعده عن الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط ، شاطىء العذاب والحرية والازمة .

كتب « رجب » الى أخته ، رسالة « حرة » أفلتت من الرقابة ، عن اعتزامه التفرغ لكتابة رواية عن التعذيب ، وفي هذه الرسالة صرح المؤلف بنهجه الروائي . وسأنقل هنا كلماته ، بالرغم من طولها ، لأنها أفضل تصوير ووصف يعبر عن رأيه في بناء راحته . قال الروائي على لسان بطله : « كيف يجب أن تكون الرواية . أريدها أن تكون جديدة ، بكل شيء : أن يكتبها أكثر من واحد ، وفيها أكثر من مستوى ، وأن تتحدث عن أمور هامة والأفضل مزعجة .. وأخيرا أن لا يكون لها زمن » . وكتب أيضا : « وحتى لا نضيع في دوامة قد لا نخرج منها . فمن الضروري أن نحدد موضوعا ونكتب فيه . التعذيب مثلا ، كيف تتصورين الموضوع ؟ كيف يتصوره انسان من الخارج ؟ وليس أي انسان ، انسان له علاقة بشكل ما ، في مستوى ما . طبيعي يجب أن يكون للموضوع امتدادات كثيرة ومتباينة : الذكرى ، الأحاسيس ، العلاقات وغير ذلك . وطبيعي أيضا أن ننظر من زوايا مختلفة . هذه الرواية المختلفة ضرورية لكي نرى الشـيء من جميع جوانبه ، فاذا ارتبط الموضوع أيضا بالأزمان العديدة والأعمار العديدة ، اصبح شيئا جديدا »[٣٢] .

فمع كل فصل جديد من الرواية تختلف زاوية الرؤية ، وتتعدد مستوياتها ، وتتغير شخصية الراوي . فنرى الموضوع من أكثر من زاوية ، وتتنوع انطباعات الشخصيات بالأحداث ، لتقدم لوحة روائية ثرية شاملة لعالم البطل وتطوراته وعلاقاته عبر مختلف الأزمنة .

---

(٣٠) المصدر السابق ، ص ١٠٨ .
(٣١) المصدر السابق ، ص ١١٠ .
(٣٢) المصدر السابق ، ص ١٦١ و ١٦٢ .

تتابع الشرطة « رجب » بطل الرواية من خلال « حامد » زوج اخته لتشعره بأنه لم يبتعد عن أيديهم ، حتى يفهم « حامد » هذا الرجل غير السياسي انه لا يمكن « للانسان أن يعيش في هذا البلد اللعين ؟ لا أحد ينجو ، الذي يعمل في السياسة والذي لا يعمل ، الذي يحب هذا النظام والذي لا يحبه .. بلد مجنون ويجب أن يدمر »[٣٣] . وتخبرنا رسائل رجب التي يرسلها لأخته من الباخرة والموانىء والمختومة بخاتم الرقابة ، بأنه يشعر بالغربة والوحدة رغم أنه يحاول ، دون توفيق ، الامتزاج بعالم السفينة ، ولكنه يرى انها رحلة انتقال موقتة . وحين يهبط الى عالم الحرية المنشود يهوي الى المستشفى مضرجا بامراضه وآلامه الفظيعة وذكرياته الأليمة وعذابات ضميره . أما أخته وزوجها فتصبح حياتهما جحيما بسبب قرابتهما برجب ، بطل الرواية المحبط الملقى في أحد المستشفيات البعيدة عن الوطن مثخنا بجراح التعذيب الوحشي وامراض السجن الرهيبة .

هكذا تتحول المأساة العامة والأزمة الكبرى للحرية الى مأساة خاصة وأزمة خاصة بالأسرة العادية البعيدة عن عالم السياسة والتي ترفضه رفضا باتا . فنجدهم يهددون « حامد » زوج الأخت ، بالسجن ان لم يستدع « رجب » في خلال شهر ، ونعرف ضمنا انهم يتهمون البطل المريض بمعاودة النشاط السياسي وتحريك الطلبة الدارسين بالخارج وانه لا يكتب لهم التقارير . ويمسكون « رجب » من خيط زوج أخته ، الذي صار متهما خطيرا يوقع ثلاث مرات يوميا في دفتر الشرطة. ثم يوقعون به في السجن ، ويتواصل التهديد ، لا ترسل له نقودا ، استدعه للعودة ، لا بد ان يعود .. أما رجب فانه ينجو من سقطته ويرتفع على ازمته ويفكر في استثمارها للدفاع عن أزمة الحرية وعذاب السجناء السياسيين في الوطن .

هذا هو طريق الخلاص الذي حاول البطل المأزوم الخروج بواسطته من أزمته ، بان يستعمل الكلمة في كشف واقع العذاب والضياع وأزمة الحرية المفتقدة في الوطن الواقع شرق البحر المتوسط ، بكتابة رواية تحتج وتكشف وتدين التعذيب والاضطهاد والقهر ، وتحرير بيانات للجان حقوق الانسان والصليب الأحمر الدولية بجنيف عن محنة السجناء السياسيين في الوطن العربي ، محاولا انقاذهم .
وخلال ذلك يتأرجح البطل بين اليأس والرجاء ومحاولة شحذ الارادة واستعادة الثقة والقدرة على عمل شيء مفيد لقضية الحرية .

وعندما تقدم البطل لعلاج أمراضه بالمستشفى سأله طبيبه الفرنسي عن أسبابها وتاريخها أرجعها الى التعذيب الوحشي في السجن ، الذي عادت صوره تتدفق بغزارة . فعلق الطبيب قائلا « هذا واحد من شعب سجين » . ولخصت هذه العبارة رؤية الروائي لأزمة الحرية في وطننا العربي .

اما البطل فانه يتشكل عبر المعاناة الرهيبة بين محنة السقوط ورحلة الخلاص . وعبثا يوجه نداءات الخلاص من الخارج ، لأن الخطر ظل في الوطن ، وتجسد في القاء القبض على زوج اخته، حامد ، رهينة لحين عودته ويعود البطل المريض المحطم طائعا مختارا الى الوطن ليفتدي زوج اخته فيجد السجن في انتظاره ويلفظ السجن محتضرا بعد ثلاثة أيام من دخوله ليلقى به الموت في بيت اخته التي يقتادوا زوجها « حامد » مرة أخرى الى السجن كاشارة واضحة من الروائي الى استمرار أزمة الحرية في وطننا العربي .

---

(٣٣) المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

كريم الناصري ، بطل رواية الربيعي الثانية « الوشم » ، بطل بلا بطولة ، قال لمحققه وهو ينشد الخلاص من الخيبة الثورية «لم أبحث عن بطولات (دونكيشوتية) يوما»[٣٤] بطل مأساوي مثقف، من ابناء الفقراء ، جرب الخلاص بالسياسة ففشل فجرب الخلاص بالحب ـ ورواية « الوشم » ، ذات البناء الفني المحكم والأزمنة المتداخلة دون فواصل ليست الا تشريحا داخل شخصية هذا البطل الثوري الهاوي بفعل القهر وأزمة الحرية . فتيار الوعي يثير أحداث البطولة محاولة الزمن الماضي الخلاص بالثورة . أما الزمن الحاضر فيجسد لنا محاولة البطل الخلاص بالحرب بعد أن يكتشف انه وزملاءه ليسوا أبطالا ولكنهم ضعفاء يتهاوون عند أول مواجهة لهم مع جلاديهم . وتجسد الرواية مدى الاحباط الذي أصاب « كريم الناصري » من جراء وقوعه في عالم القهر ، وتؤرخ لتجربة الثوري العراقي في مرحلة اخرى من مراحل الثورة للاستعمار . وهي فترة تاريخية معروفة شهدت الانتصارات والانتكاسات ثم الارهاب الفظيع . ويؤكد كاتبان عراقيان ، قرآ الرواية وكتبا عنها ، بانها ترجمة لفترة حقيقية عاشها الثوري العراقي . قال عزيز السيد جاسم : « الوشم هي قصتنا جميعا ، كتبها الربيعي في حين لم يكتب عن انطفائها أحد سواه »[٣٥] . وكتب محمد الجزائري : « أن نكون أو لا نكون أمام حد المقصلة ، أمام العسف والتعذيب واجهاض كل آدمية الانسان أو انسانية الكائن .. ذلك هو السؤال الذي واجه الشباب من أدباء العراق ـ بخاصة ـ بعد نكسة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ م .. صحيح أن عبد الرحمن الربيعي حافظ على صدق الوقائع الى حد كبير»[٣٦] .

« كريم الناصري » بطل ثوري منتم وملتزم ، اعتقل لمدة سبعة أشهر في اصطبل قديم للخيل ، وفي المعتقل اكتشف غربته وضعفه وأخذت ذكرياته الثورية تتوالى على عقله وعلى صلابته فتفتتهما، أزاء ما رآه في المعتقل من انهيار زملائه وتهاويهم ، تهاوي النموذج البطولي للثوري ذلك الصلب الذي يفترض فيه ان يؤثر في الأحداث ويعرف ، كيف يتعامل معها « أشياء كثيرة مرت بي وانتهت عاجلة ، ورغم مرور السنين والأحداث بقي جوعي واقفا لاقامة علاقة دامية مع الأشياء ، علاقة تلوي العظام وتهرس الأعصاب كلها . في السياسة أردت ذلك ولكن تساقطهم الذليل أمامي جعلني أبصق كبرياء ، وأحتقر لحظاتي التي عشتها معهم باندفاع أصيل . جسدي ممدد الآن في هذا المعتقل المحتشد مع هؤلاء الرجال الذين يتجانسون مطلقا في ثرثرتهم وشجاراتهم اليومية التافهة ، ولست أدري كيف انضووا تحت يافطة سياسة واحدة ![٣٧] » كريم الناصري مثقف ابن لفلاح فقير نشأ موقف الرفض السياسي لديه من استيقاظ وعيه الطبقي لدى مشاهدته لوقائع الفقر والبؤس « ان جهد والدي كان لا يساوي ربع دينار في اليوم ، يحرث الأرض ويشق الترع ويحرس في الليل ، ويبرد ويجوع ويمرض ، وان استطعت أن أكون موظفا ذا دخل لا بأس به وانعم برفاه فردي ، فهذا لن يبعدني عن انتمائي لعشيرة جائعة أكلها جفاف الأرض قبل أن تحصد ما بذرته ![٣٨] » تلك كانت بداية الانتماء وكانت النهاية في المعتقل ، وفيما بين البداية والنهاية اكتشف كريم الناصري المتمرد الثوري ، انه متمرد على كل شي ء ورافض لكل شي ء ، واهم ما رفضه الشعارات والقولبة والرؤية الحزبية الضيقة . « لقد كنت أعاني وأبحث دائما . أقرأ الكتب ، وأسهم في المظاهرات والتنظيمات ، وأشرب الخمور وأحب وأرتاد دور الزنا

---

(٣٤) عبد الرحمن مجيد الربيعي ، الوشم ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٢ ص ٨٩ .
(٣٥) عزيز السيد جاسم ، شيء عن الوشم ، كلمة ختامية الحقت بالطبعة الاولى للرواية ص ٩٤ .
(٣٦) الجزائري ، الوشم رواية السقوط السياسي والاحباط ، مجلة الاداب ، عدد نوفمبر ١٩٧٢ .
(٣٧) الوشم ، ص ١٦ و ١٧ .
(٣٨) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

بلا انقطاع ، أردت ان أكون على صلة ساخنة بالحياة وأتجدد معها ، ولكنني اكتشفت أنني كنت أخسر هذه الحياة باستمرار ! [٣٩] . لقد رضخ كريم الناصري لاحساس عبثي باللاجدوى ، التمرد والتضاؤل الرفض الكامل ، واللا ايمان ، واللا بطولة .

اذ كان قد رفض كل شيء وأيقن ان سعيه للبطولة انتهى به الى التضاؤل والهزيمة والاحباط . كان كل ما يفكر فيه هو كيف ينتهي من هذه الوصمة ، من هذا الوشم ، من هذا الانتماء الثوري . « عند التحقيق قال لي أحدهم ، لقد انتهت المسألة وليس هناك مجال لبطولة بعد . وضحكت في سري من كلمة بطولة هذه فهي الأفيون الذي قادني الى هذه المواقع والأحداث الملغومة »[٤٠] .

رضخ لكل طلبات المحقق ، ودون كل الاعترافات ، وأبلغ عن كل شـيء وسأله المحقق سؤالا ذا مغزى : « هل انتهيت » فاومأ بالايجاب « فالغريق لا يخاف الطعنات » . أنظر كيف صور الروائي بدقة ومهارة نهاية طريق البطولة ومحاولة الخلاص بالثورة وبالسياسة ، كيف تضاءل كريم الناصري وهو يدون اعترافاته رضوخا لأوامر المحقق : « وتناولت الورقة والقلم وارتكنت في زاوية من الغرفة ، أسندت ظهري الى الحائط ومددت ساقي تماما كما كنت أفعل عند كتابة واجباتي المدرسية أيام الدراسة الابتدائية ، وأخذت أخطط تارة وأكتب تارة أخرى وكسرت رقابا جديدة وأمعنت في كسر رقاب أخرى . ثم ألقيت بالورقة والقلم وزفرت بقوة »[٤١] .

تلك كانت مأساة الثوري كريم الناصري ، لقد تهرأ تماما وتخلى عن قضيته السياسية وسلوكه السياسي تحت وطأة السجن والتعذيب والقهر . وفكر في طريق جديد للخلاص بالحب ، فلا شـيء مهم ، وليس بالامكان احداث أي تغيير « لن أغير العالم ولن أجعل الشمس تطلع من الغرب » .[٤٢] ان أهم ما يشغلني الآن هو : هل بالامكـان أن تكون المـرأة تعويضـا كامـلا عن الخيبة السياسية ؟[٤٣] » .

تلك كانت قضيته التالية ، فتراه في الزمن الحاضر يهرب من ماضيه ، ينكر أسمه ، فحتى عندما عمل كريم صحفيا أخذ يكتب باسم مستعار يغيره بين حين وآخر ، انه كتلة من العار ، فقد النقاء والطهارة والايمان والانتماء والالتزام . « لقد عينت محررا في احدى الصحف اضافة الى عملي في الشركة ، ولكنني كنت أكتب باسم مستعار أغيره بين وقت وآخر ، لا أريد ان أظهر أسمي الملطخ الى النور »[٤٤] . « كيف نطيق اظهار وجوهنا الصفيقة للناس ! »[٤٥] .. « انني أدور في طرق لا يعرفني فيها أحد ، وأجلس في مقاه منزوية ، أقرأ صحفا قديمة وأتابع برامج الاذاعة المرئية »[٤٦] . وفي طريقه التالية للخلاص بالحب ، يتعرف الى مجموعة من النساء والفتيات ، « مريم » زميلته ، امرأة متزوجة ولها عشيق وتريد ان تضمه الى قائمتها ، « ويسرى » أنموذج الفتاة الجميلة الطاهرة حاول ان يغسل بعلاقته بها عاره القديم وعلاقاته النسائية الأخرى الملوثة من « اسيل عمران » رفيقته الحزبية

---

(٣٩) المصدر السابق ، ص ٢٤ .
(٤٠) المصدر السابق ، ص ٨٩ .
(٤١) المصدر السابق ، ص ٩٠ .
(٤٢) المصدر السابق ، ص ٦١ .
(٤٣) المصدر السابق ، ص ١٦ .
(٤٤) المصدر السابق ، ص ١١ .
(٤٥) المصدر السابق ، ص ٧ .
(٤٦) المصدر السابق ، ص ٨ .

الثورية « السابقة » الى « مريم » النموذج الملوث مثله « ترى هل أستطيع بها أن أنقذ موقعي من الخطأ الجديد ؟ ها هي أمامي فتاة رائعة ، أصابعها عارية ، وحدهــا بكر ، لماذا لا ابدأ معها بداية جادة ؟ أغتسل منكم، من اسيل عمران، من مريم عبد الله، من العالم، من سخفي اليومي المتهرىء »؟[٤٧] جـرب كريم الناصري الجنس مع مومس فاصيب بالغثيان ، ومع راقصة في ناد ليلي . وكون علاقة نظيفة مع فتاته النقية « يسرى » التى وجد فيها فرصته الأخيرة للخلاص من كل آثار الماضي وعار الحاضر وعلاج السقوط والانكسار « بها وحدها أستطيع أن أسحق انكساري يا حسون ، وأمحو عاركم وأسطورة مريم عبد الله . وانطفاء اسيل عمران ».[٤٨] ولكن كيف يستطيع الملوث المنهار المتهرىء أن يسترد روحه وأن يجد خلاصه بالحب مع فتاته « يسرى » . لقد أيقن بعدم جدوى الحب أيضا ، فرفض « مريم » ، « شهرزاد » وأوقف علاقاته النسائية ، أما حبيبته الحقيقية ومناط آماله فقد أشفق عليها من علاقته بها ان يلوثها أو يحطمها ، فقال لها : انت انسانة رائعة وعظيمة وبقدر ما أحبك أخاف عليك من هذا الحب ولا أريدك أن تربطي حياتك بشريد مثلي مرمي على السواحل كالخشبة التي تقذف بها الأمواج من بقايا السفن الغارقة »[٤٩] .

وهكذا فشل الثوري كريم الناصري للمرة الثانية في الخلاص بالحب من أزمته ، كما فشل من قبل في طريق الخلاص بالثورة ، وهذا يذكرنا بتجربة الثوري عمر الحمزاوي بطل رواية نجيب محفوظ « الشحاذ » ، الذي كف عن الثورة وحاول الخلاص بالحب ففشل فلجأ الى التصوف . أما كريم الناصري بطل رواية الربيعي « الوشم » فقد لجأ الى السفر « لا أعرف بالضبط الى أين ، فالسفر يهمني أكثر من المكان . كلما تأزمت الأمور وتعقدت تهرب منها بحثا عن بدايات جديدة ».[٥٠]

هل هذه هي نهاية مسيرة الثوري في احدى مراحل الثورة العراقية كما صورها عبد الرحمن الربيعي في روايته الثانية القصيرة « الوشم » ، يرد الربيعي على تساؤلنا بان يحشو فم بطله الثوري السابق كريم الناصري بالأمل في معاودة التنظيم وتجميع صفوفه ومن ثم يرى في هذه العودة الثورية أمنه الحقيقي في الخلاص والابتعاث من جديد ، اذ يدور حوار بينه وبين جابر زميله الثوري الملتزم المتشبث بارضه وفكره وتنظيمه ، يسأل كريم زميله جابر عن خطواته المقبلة :

« اجاب جابر : سأبقى هنا . ان حزبنا يعيد تجميعه من جديد ولن أتخلى عنه أبدا .

ـ كل الذي أتمناه يا جابر أن تعودوا ثانية وربما أعود بعودتكم ، فأنتم التفاؤل الذي أضعناه .

ـ اؤكد لك ان هذا سيكون قريبا »[٥١] .

اعتقد بان الربيعي بوضعه هذا الختام الحزبي الزاعق قد شوه الكثير من صدق التصوير الذي اتبعه مع أنموذج كريم الناصري ، وهو أنموذج صادق وحقيقي . حقا ان الثوري الحقيقي لا يكف عن الثورة ، وهذا ما أراده الربيعي بهذا الختام الفكري لروايته « الوشم » معلقا الأمل الحقيقي على عودة التنظيم الثوري والانتماء الثوري ولكن التطور الصحيح لشخصية كريم الناصري وفراره من كل

---

(٤٧) المصدر السابق ، ص ٣١ .
(٤٨) المصدر السابق ، ص ٧١ .
(٤٩) المصدر السابق ، ص ٨٠ .
(٥٠) المصدر السابق ، ص ٨٦ .
(٥١) المصدر السابق ، ص ٨٧ .

شـيء ، الماضي الثوري والحاضر اللامبالي هذا الطريق لا يقود الى مستقبل ثوري على النمط القديم . أنظر كيف صور نجيب محفوظ مثلا تجربة « عمر الحمزاوي » بطل « الشحاذ » وانهياره وضياعه التام . واعتقد على خلاف ما ذهب الزميل الناقد محمد الجزائري بان الربيعي لم يدن هذا النموذج ولكنه أدان تجربة الثوري الحزبية ، ومن هنا أجد في الآمال المعلقة على عودة الثوري الى الانتماء الحزبي ختاما سياسيا مفروضا على الرواية لأهداف سياسية خارجة عن الرواية .

« القطار »[٥٢] رؤية سياسية كتبها صلاح حافظ ، تقدم رؤية ايديولوجية وتصويرا مختلفا لأزمة الحرية . فتصور واقعة اعتقال أربعة وخمسين رجلا ونقلهم في قطار يخوض رحلة طويلة عبر الصعيد تستغرق أربعا وعشرين ساعة يحدثون خلالها ثورة تعم القطر المصري بهتافاتهم للحرية والاستقلال والعدل الاجتماعي وضد الانجليز والاقطاع والارهاب مع شعارات ايديولوجية باتحاد العمال والفلاحين . وتدور أحداث الرواية في أواخر الأربعينات وليس في الثلاثينات كما ذكرت كلمة الغلاف التي قدمت الرواية ، في أكثر من فصل من فصولها ، أشارات الى أحداث ثورة ١٩١٩ بانها وقعت منذ ثلاثين سنة : « وانله ان جابوا عسكر البلد كله ما ينفع . دا احنا عملنا . جمهورية من ثلاثين سنة !»[٥٣] و « فلم لا يذكرون يوما لم يكونوا فيه عصاة بشكل او بآخر .. ومنذ ثلاثين عاما حصدت مشانق الانجليز منهم أكثر مما حصدت في اي مكان آخر في مصر ..»[٥٤] واستخدمت الرواية اسلوب الريبورتاج او التحقيق الصحفي . فقدمت عملا تقريريا مباشرا ينتسب بحق الى أعمال الخمسينات التي تخطتها الرواية العربية في حركة نموها وتقدمها ، اذ تميزت الرواية بالصياغة الخطابية والسرد التقريري والشخصيات المسطحة والزائدة غير الموظفة والوصف الخارجي والراوي والثرثار المطلع على كل شيء ، والاسقاط السياسي والشعارات الايديولوجية وصوت المؤلف العالي الظاهر في كل سطر وكل شخصية ، والعبارات الكليشيهية المسكوكة والتشبيهات المكررة ، واللغة العامية الداخلة في الحوار وفي تركيب الجمل والسرد أيضا .

فمن البداية نرى « القطار » ، العمل الروائي الثاني لصلاح حافظ بعد روايته الأولى « المتمردين » التي تحولت الى فيلم سينمائي ، رواية تقليدية تمثل مرحلة تجاوزتها الرواية العربية منذ زمن بعيد . فيطالعنا سرد الراوي التقليدي الذي يعرف كل شي ء فهو راو مطلع على كل الأمور ظاهرها وباطنها ، ولكل حدث تقديمه وتبريره ، وقد يضع الروائي افكاره وتنبؤاته وأوصافه وشروحه مرة على لسان الراوي عن طريق السرد ومرات عن طريق الشخصيات حتى ولو كانت هذه الشخصيات مجرد اطفال لم يكتمل نموهم ووعيهم . فهذا هو ما يصدمنا به صلاح حافظ باستهلال روايته بأوصاف خارجية لوصول قطار السجن وانطباعات الأطفال عنه وتفسيرهم له وربطهم لحادث وصول المسجونين يهتفون في القطار بهتافات آبائهم المعتصمين في مصنع الاسمنت أو اطمئنانهم لنوعية المسجونين في القطار « كان الهدير يحاصرهم من كل ناحية ، وكان جريئا ، غاضبا ، لم يسمع الأطفال شيئا يشبهه الا أيام ان رفض آباؤهم الخروج من المصنع ، وعاشوا أياما يبيتون في داخله ، بينما يحاصر اسواره من الخارج جنود كالذين يركبون هذا القطار الآن ، لقد كانت الأصوات التي تتصاعد من المصنع عندئذ تشبه هذا الهدير تماما وكانت تتردد مثله في نغمات متتابعة . قوية مألوفة كأنها كلمات وكانوا

---

(٥٢) **القطار** . تأليف صلاح حافظ . نشر وزارة الثقافة السورية في دمشق ، اغسطس (اب) ١٩٧٤ .
(٥٣) **المصدر السابق** . ص ١٩٢ .
(٥٤) **المصدر السابق** . ص ٢٠٠ .

يحاولون أحيانا أن يفهموا هذه الكلمات ، وأن يرددوها أيضا وهم يلعبون .»[٥٥] او كالزج بمسألة سياسية ، كاطلاق البوليس النار على العمال في الأزمات بين سيل أفكار امرأة بسيطة « كام بدوي » ، وهي شخصية زائدة يحشو بها المؤلف روايته ، عندما يشرح الراوي أفكارها ومخاوفها باسلوب تقرير مباشر : « والقرية على النيل . فاذا غاب بدوي فلا بد أنه غرق . والمقاهي يتشاجر فيها الناس كل لحظة ، فاذا غاب بدوي فلا بد انه أصيب وأخذه الاضعاف .. وفي أيام الأزمات يطلق البوليس النار على العمال .. فاذا غاب بدوي فلا بد ان رصاصة مزقت صدره ، وان دمه سال على أحذية الجنود مع دماء الآخرين .. وهكذا : بطريقة أو باخرى ، لا بد أن يكون بدوي قد مات ما دامت أمه لا تراه أمامها .. ربما لأنها تعودت دائما أن تفقد الأشياء المشرقة في حياتها ، وبدوي هو الشي ء المشرق الوحيد الذي بقي لها .».[٥٦]

وتقدم الرواية حقا صورة جديدة للمسجونين الثوريين ، في مواجهة أزمة الحرية ، اذ نراهم أقوياء ايقاظ متحركين وهم سجناء ، أقوى من سجانيهم ، ولكنها صورة مبالغ فيها الى حد كبير ، فهم يقودون ثلاثة الاف سجين للتمرد والاضراب عن الطعام ، « ويطالبون بأشياء كثيرة مزعجة . وكاد المدير يجن ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا ، وافق على كل ما أرادوه . وتحول السجن الى فوضى . ولم يعد أحد يدري كيف يكلم المسجونين[٥٧] » . لذا تم التخلص منهم والزج بهم في قطار يحملهم الى المنفى في أقصى الجنوب .

وفي هذا القطار يقدم المولف شخصياته المسطحة المصاغة تنفيذا لأفكاره والتي تنسج حياتها كأنها سطور مصفوفة في كتاب دعاية ثورية ، وليست شخصيات حية حرة وعميقة ومتميزة ، فالعامل بطل مناضل يتحدث في هدوء وثقة ويتصرف كقائد مسؤول مع رعية ساذجة في أول التجربة النضالية فهكذا يتصرف مع زملائه المسجونين . « وهو ينظر الى وجوههم فيراها جميعا مملوءة بالعزم والعناد ، ولكن هذا لا يخدعه . فهو يعلم أنهم ضعاف ، وخائفون . ولا يخطى ء في نظراتهم اليه أحاسيس الغرقى . ولا ينسى أنه من أجلهم يجب أن يبتسم كأنه سعيد .. وأن يراقب نفسه طوال الوقت حتى لا تفلت منه كلمة تغذي خوفهم وتطفى ء الحماس الذي تثيره المعركة في صدورهم[٥٨] » . هذا هو العامل البطل لأن كل عامل لا بد أن يصير بطلا قويا ، أما زميله المحامي السجين فهو ضعيف ومضطرب وعصبي ومتوتر لا يفكر الا في أهله فيبحث عنهم ويفكر في ضرورة الاتصال بهم ، انه قلق لدرجة الرعب . « غير أن رجلا آخر بجواره ، نحيلا .. أسمر اللون (المحامي) ، كان لا يفتأ يقاطعه في انفعال وهو يضغط شفتيه وينفخ أنفه في حركات عصبية منتظمة " كان لازم نستعد من زمان .. كان لازم عائلاتنا كلها تبقى عارفة . فيقول العامل دون ان يلتفت اليه ، ودون أن يفقد ابتسامته " معلهش . وعندئذ يجن المحامي الأسمر ، وينفجر غاضبا ..[٥٩] » .

وليست هذه هي الصورة الوحيدة للرؤية الأحادية الجانب والصياغة النمطية للشخصيات المسطحة فنحن نرى المحامي مرعوبا من الجنود بينما العامل ينام هادئا بشجاعة . وفي خارج القطار يقدم المؤلف صورة بطولية لعاملة أخرى مناضلة تقود أسر السجناء : « وكان واضحا أن محاسن هي

---

(٥٥) المصدر السابق ، ص ٩ .
(٥٦) المصدر السابق ، ص ١٨ .
(٥٧) المصدر السابق ، ص ٥٧ .
(٥٨) المصدر السابق ، ص ٥١ .
(٥٩) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

التي تقود هذا الطابور ، ولكن محاسن لم تكن مع ذلك مدرسة ، ولا حتى فتاة مثقفة ، وانما كانت مجرد عاملة مصنع للتريكو .. وكثيرا ما أثارت شغبا في المصنع ، وقادت زميلاتها الى الشارع . وكثيرا ما نامت ليلة في القسم ، وقبض عليها بتهمة التظاهر . وأصبحت تعرف كيف تأخذ وفدا الى وزارة الداخلية ، وكيف تحرج وكيل النيابة حين يحقق معها على أثر مظاهرة[٦٠] » . فالعمال وحدهم هم الأبطال . واستمرار لهذه الشخصيات النمطية المسطحة فلا بد أن يكون المسجونون أبطالا وضابط الحراسة ضعيفا لا يعرف كيف يتكلم ويرتعب من مسجونيه . ويوجد أيضا أستاذ أمريكي عميل للمخابرات الأمريكية يظهر دون مناسبة عن طريق تيار الوعي لفتاة مجهولة تظهر أيضا فجأة في شرفة تطل على القطار الذي يحمل المسجونين . وطبعا سيهاجم الأمريكي حرية الصحافة في الاتحاد السوفييتي لأنها ملك الدولة وانبرى له طالب عنيف (ملكي أكثر من الملك) يفند آراءه ويثبت العكس ، فيؤكد حرية الصحافة السوفيتية . وتحشى الرواية بمناقشة نظرية عقيمة حول الفرق بين الصحافة الأمريكية التي يملكها أفراد رأسماليون والصحافة السوفيتية التي تمتلكها هيئات ومنظمات شعبية لذا تتمتع بالحرية . وهنا لا بد أن يعجز الأستاذ الأمريكي عن الرد المقنع « فيدير وجهه » ويكشف عن وجه العميل ويسأل الطالب أسئلة بوليسية . وامتدادا لشخصيات الرواية المسطحة سنجد هذا الطالب الثوري العنيف ذا الوجه القبيح يعتقل فيطغي على كل زملائه من الطلبة ويأسر قلب زميلته اجلال التي تأخذ في التفكير على الوجه التالي : « لقد تركها حتى قبل ان تحبه ! تركها وهي على وشك أن تنسى أن أنفه أطول مما يجب ، وأن ألفاظه غير مهذبة ، وأن حياته القلقة لا يمكن أن تسعد امرأة . تركها بعد أن حول الاخرين جميعا الى أقزام أمام عينيها ، ولم يعد ممكنا أن يخفق قلبها لأحد منهم ، نعم . لقد حرمها من الحب ، من كل حب ـ هذا الرجل الذي لا يعبأ بما تدوسه قدماه[٦١] » . ويدور كل هذا الحوار الصاخب ، حول الصحافة السوفيتية والصحافة الأمريكية ، الزائد عن مقتضيات نمو الرواية وتطورها ، في رأس فتاة ظهرت مصادفة في شرفة تطل على القطار الذي يحمل المسجونين .

أنظر الى تصوير الرواية لأجهزة الأمن في هذه الصورة الكاريكاتورية التي تمثل الضعف « وعندما وقفت العربة على جانب الرصيف ، كان يحاصرها من كل ناحية صف من الجنود المسلحين ، ولم يكن يقف على الرصيف كله غير ضابطين صغيرين ، ورجل ضخم كالفيل ، يرتدي بنطلونا وقميصا ، ويبدو كممثل هزلي فاشل .. وان كان الضابطان يرمقانه بخوف ، ويتبعان دون مناقشة طرف اصبعه[٦٢] » . واستكمالاً لهذه الصورة الكاريكاتورية السطحية سنجد رجل البوليس السياسي سمينا كالفيل ومتزوجا من امرأة انجليزية ـ (ويبدو ان المؤلف تذكر ضرورة ظهور الانجليز في رواية تدور أحداثها في زمن الاستعمار وتصور النضال ضد المستعمر الانجليزي من خلال الهتافات والشعارات فحسب وليس من خلال مواقف الشخصيات وسلوكها) ، لذا فان هذا الرجل أقوى من الوزير الذي يخشاه ويكرهه ، وهو أيضا أقوى من كل الوزراء لأنه دائم وهم يذهبون : « كانت لهجته حاسمة جدا وهو ينطق الكلمات الأخيرة ، فارتبك الوزير ، ولم يدر ماذا يقول . كان في أعماقه يكره ذلك الرجل ويخشاه كما يخشى الموت . فهو متزوج من انجليزية وله علاقات واسعة ، ويقال أن المرتب الذي يقبضه من الوزارة ليس المرتب الوحيد الذي يحصل عليه ، وكثيرا ما تغيرت الحكومات ، وطار الوزراء ، واقيل كبار الموظفين وهو ثابت في منصبه لا يقتلعه شيء ..[٦٣]» . ورجل البوليس السياسي

---

(٦٠) المصدر السابق ، ص ٧٤ .
(٦١) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .
(٦٢) المصدر السابق ، ص ١٢٠ .
(٦٣) المصدر السابق ، ص ١٢٥ و ١٣٦ .

هذا لا بد أن يكون جبانا أيضا وزوجته تنغص عليه حياته وابنه طالب فاشل رسب ثلاثة اعوام ومهدد بالفصل من المدرسة : « كانت زوجته التي تعتبر مهمتها الاولى تنغيص حياته .. فقد عاش حياته كلها مجرد موظف لأنه جبان ! لأنه يخاف أن يقدم على أي شيء فيه قدر من الجرأة والمغامرة . وها هو اليوم لا يزال كما كان منذ ثلاثين عاما . مجرد موظف كبير ! شرابة خرج ، لا يستطيع أن يلحق ابنه بمدرسة ثانوية[٦٤] » ! انظر الى التناقض في شخصية رجل البوليس السياسي ، الواضح في هاتين الفقرتين . فهذا الرجل القوي المحرك الحقيقي لأجهزة الأمن والذي يخشاه الوزير لأنه أقوى من كل الوزراء وكل الموظفين ، تصوره الرواية مرة أخرى في صورة الموظف الضعيف الجبان الخامل ثم تقدمه مرة أخرى في صورة المحرك الحقيقي لسلطات الأمن ولوزير الأمن أيضا فهذه هي أفكار الوزير : « .. فعلى طول البلاد عربة تتوالى انباؤها كالبصقات على رأسه ، وفي مكتبه رجل ضخم كالفيل . رهيب كالموت . يسخر منه ويهينه دون اكتراث . وتركزت نظراته على وجه الرجل في حقد شديد . وانبثق في أعماقه صوت يتساءل : من الوزير هنا في هذه الغرفة ؟ أنا أم هو ؟[٦٥] » .

وفي هذه الرواية نرى ضابط الحراسة يتحول الى ثائر ضد مرؤوسيه في جهاز الأمن يكرههم ويحب مسجونيه السياسيين . أضف الى ذلك الملاحظات التقريرية الخطابية للراوي الذي لم يكتف بأن يثبت لنا اطلاعه على كل شيء في الزمن الماضي والحاضر لشخصياته ولكل ما يدور على وجه الأرض من نشاط بشري ، اذ لم يكتف المؤلف بحشو سرد الراوي بذلك فحسب بل امتدت سطوته الى المستقبل ليجزم لنا في تقرير صارم بأن هؤلاء الرجال هم صناع المستقبل أيضا وأنهم هم الذين سيصنعون المستقبل حتمـا « وعاد الكاتب من جديد يستعرض الرجال النائمين . لو رآهم احد هكذا لما تصور ان هؤلاء يصنعون التاريخ ، ولكنهم مع ذلك يصنعونه . وهم جميعا رجال بسطاء عمال وفلاحون . بعضهم لا يجد خبز يومه . وكثير منهم تعلم الكتابة في السجن . حتى أسماؤهم غير معروفة . وتذكر عندئذ أصحاب الأسماء اللامعة الذين عرفهم . وبهروه في وقت من الأوقات . أين هم الان ؟ كلهم فروا من المعركة[٦٦] » . وهي أفكار طيبة ولكن ليس مكانها العمل الفني ، اذ كان باستطاعة الكاتب أن يرصها في مقال حماسي مباشر ، لأنها لا تمثل جديدا سوى تبسيطها للأمور بشكل تقريري مباشر .

ويحشو المؤلف عمله بفصل زائد عن الحاجة . لتصوير عملية صلح في قرية من قرى الصعيد التي يمر بها القطار « الثوري » ليقول لنا في نهاية الفصل أن ثمة تعليمات صدرت من وزارة الداخلية بمنع السفر الى مركز القرية وأن الأهالي تحدوا الأمر . ثم يعاود الكاتب شروحه واستطراداته فيذكر ، في سرد تقريري بارد يناسب أسلوب الأبحاث دون مناسبة . مجد المصريين القدماء وحضارتهم ... الخ .

أما شخصيات الرواية المسطحة فانها أشبه بالدمى في يد المؤلف تسير حياتها وأفكارها كلها وفقا لأفكاره بل تطبيقا لفكرة أحادية تسيرها كالالات وليست لها حرية التشكل والتصرف . فكما رأينا لا بد أن يكون العامل بطلا صلبا لا يلين والمثقف خائفا قلقا ومترددا .يفكر في الهروب . وضابط البوليس السياسي جبانا وضعيفا وغبيا .. وما الى ذلك من الرؤى والصور السطحية المكررة والمعادة في الرواية . « كان العامل دائما يستطيع أن يرى الغد . وأن يقرأ تفاصيله كأنها ترتسم أمامه في كتاب مفتوح .

---

(٦٤) المصدر السابق . ص ١٢٨ و ١٢٩ .
(٦٥) المصدر السابق . ص ١٤٢ .
(٦٦) المصدر السابق . ص ١٦٥ .

وكان هذا هو ما يجذب الاخرين اليه ، ويجعلهم يشعرون الى جواره بالثقة والأمل ، ويتطلعون دائما الى ابتسامته كلما أحسوا بدبيب من الضعف يسري في صدورهم وكثيرا ما كان الكاتب يشعر بكل شيء مظلما أسود أمام عينيه . لم تكتف كلمتان مع هذا الرجل الذي جاء من كفر قرشوم لكي يتغير كل شيء وتعود الحياة تشرق من جديد »[٦٧] .

بل أن هذه الشخصيات المسطحة لا تقدم الينا من خلال سلوكها وتصرفاتها ومواقفها العملية ولكن من خلال سرد المؤلف وصياغته التقريرية المباشرة والصاخبة . فالعامل وحده هو الذي يفهم لأنه عامل وليس لأية ملامح أو خصائص ذاتية مميزة . فالشخصيات تقدم الينا حسب أوضاعها الطبقية اذ ليست لها أسماء بل هذا عامل وهذا كاتب وهذا طبيب وكلهم أغبياء لا يفهمون شيئا وضعفاء منهارون ولكن تكفي ابتسامة واحدة من العامل لتمنحهم الطمأنينة والثقة والاصرار ؟! » وبدأ القطار يغادر المحطة والكاتب لا يزال يخنقه الضيق ، والرجال من حوله يتبادلون نظرات خائبة . وفي جو العربة وجوم ، وانقباض ، وقال العامل : معلهش . كمان نص ساعة الناس تصحى ، ونبقى نشوف يا حكومة ، فأثارت كلماته نبضات خافتة من الأمل في صدور الرجال . أن الامر لن يستمر هكذا بغير شك . وسيستيقظ الناس ويتدفقون على المحطات . ولن يستطيع الجنود أن يفعلوا شيئا . وبدأت تلمع ابتسامات على بعض الشفاه »[٦٨] . اما اذا تحدث المحامي مثلا فان أحدا لا يسمعه وكلماته عديمة الفاعلية : « وقال المحامي في اصرار : احنا حانهتف في كل محطة ، حانقول كل حاجة . هم العساكر دول مش ناس ؟ مالهمش بيوت ؟ ما بيقعدوش ع القهوة ويتكلموا ؟ ولكن كلماته لم تفعل شيئا وظل الرجال يتبادلون النظرات الواضحة في صدورهم فراغ ودهشة »[٦٩] . ولكن هتاف العامل له فعل السحر « لا ارهاب للشعب » كفيل بصنع ثورة عارمة بين جموع الفلاحين فيثورون ضد الجنود ويخوضون معهم صراعا عنيفا يجتذب اليهم جماهير الناس من خارج محطة القطار ، وتثور معركة على ايقاع الهتاف المثير الساحر « لا ارهاب للشعب » : « كان الغضب يعمى عينيه ويداه تتحركان بغير ارادة على ايقاع الطبول المثيرة التي تتصاعد من نوافذ العربة : لا ارهاب للشعب . لا ارهاب للشعب ، .. كانت جموع الفلاحين التي تراجعت أول الأمر قد عادت من جديد .. ولكن زحفها كان حاقدا هذه المرة .. افقدته عصى الجنود صوابه فجاء ينتقم . وغذته حشود جديدة من الميدان الكبير وكانت هذه الحشود الجديدة لا تعرف بالضبط ماذا هناك .. ولكنها جاءت تنجد الاخرين . وجاءت أيضا لأنها فهمت أن هناك خيرا ستصيبه اذا دخلت المحطة .. والا فلماذا يضرب العساكر الذين يقتربون ؟ ان مهمة العساكر دائما هي أن يمنعوا الخير عن الناس .. وعلى الناس عندئذ أن يقاتلوا .. وهكذا اندفعت الموجة الجديدة كالطوفان .. فاكتسحت في طريقها العملاق الاسمر ، وأنقذت من بين يديه الجندي الذي كان على وشك ان يختنق . ثم اقتحمت رصيف المحطة ، وارتطمت بصف الجنود في قعقعة عنيفة عالية .. وظل الجنود يتراجعون (لا ارهاب للشعب) وكعوب البنادق تضرب دون تمييز . والناس يتساقطون وينهضون من جديد . ثم يتقدمون ويدفعون بالجنود خطوات أخرى الى الوراء .. لا ارهاب للشعب[٧٠] !! » ولكن العامل العقائدي يتنبه فجأة الى الشعار الثوري التالي فيطرحه قائلا

---

(٦٧) المصدر السابق . ص ١٨٥ .
(٦٨) المصدر السابق . ص ١٨٨ .
(٦٩) المصدر السابق . ص ١٩١ .
(٧٠) المصدر السابق . ص ٢٠٩ .

« الأرض للفلاحين » !! فاذا بأصوات الرجال تقصف كالرعد بالصيحة الجديدة ، هكذا تصفهم الرواية بمثل هذه الأوصاف ...

فهذا العامل الجبار الساحر يثير الدنيا بكلمتين وهو محشور في عربة سكة حديد مغلقة عديمة التهوية تكوم فيها أربعة وخمسون رجلا خلال أربع وعشرين ساعة طويلة ، ولكنه لا يكل ولا يتعب ولا يضعف . انما يفكر ويقلب في جعبته الايديولوجية ويلقي بالشعار تلو الشعار ، فمن « لا ارهاب للشعب » الى « الأرض للفلاحين » الى « اتحدوا اتحدوا » يمارس سحره الخلاب ويمس الجماهير بالحركة والجنون « واختلج العامل فجأة وهو يجيل بصره في الجموع ، ثم صرخ : « الأرض للفلاحين !! فاندلعت أصوات الرجال تقصف كالرعد بالصيحة الجديدة . وجن الفلاحون وهم يسمعون هذه الكلمات .. واشتد ضغطهم على الجنود الذين يقاومونهم .. وجن المأمور أيضا .. وظل الجنود يتراجعون .. والفلاحون كأنهم فقدوا عقولهم .. وتهشمت نوافذ هنا وهناك وتمزقت ثياب الكثيرين ، واختلط كل شـيء في فوضى هائلة[٧١] » . بل أن سحر العامل مس أيضا ضابط الحراسة الذي كاد أن يرقص من فرط سعادته ؟ « وكان اليوزباشي طوال هذا الوقت يتفرج من نافذته ، وفي صدره تنبض سعادة غامرة لا يكاد يطيقها .. لقد تلقن الذين في القاهرة درسا لن ينسوه ، ولا يمكن الان أن يحاسبه أحد على ما جرى في محطة القاهرة[٧٢] » . وظل العامل يقود الجماهير في كل المحطات التي يمر بها القطار بلا كلل أثار اعجاب الضابط والجنود معا . وتأخذ الكاتب حماسة الهتافات فنجد أحد ضباط الشرطة يتجه الى القطار ليلقن ركابه مزيدا من الشعارات « قولوا يسقط الخونة .. قولوا يسقط الظلم .. وظل يذهب ويجيء بخيزرانته ، والرجال تتبعه أنظارهم في دهشة . وهو في كل مرة يلقنهم هتافا جديدا يقولونه الى أن غادر القطار المحطة[٧٣] » .

وهنا يعلق الكاتب على انتصار ثوار القطار ونجاحهم في قيادة جماهير القطر المصري طولا وعرضا ، رغم أنهم محبوسون في زنزانة ضيقة ، عربة سجن ، ضيقة ، أي أنهم ينجحون في احداث ثورة جماهيرية عارمة من عربة السجن ، بينما لم يتمكنوا من أحداثها وقيادتها وهم أحرار داخل السجن . ولا تعجب فهذه ارادة المؤلف ومقتضيات خياله الواسع جدا في تصوير أزمة الحرية : « وهكذا من محطة الى اخرى » ذابت القيود . صهرتها الجموع على طوال الطريق . وتذكر الرجال كيف غادروا الليمان أمس ، فأحسوا أن أشياء كثيرة قد تغيرت منذ ذلك الوقت حولهم وفي داخلهم . وخيل اليهم أنهم الان يمشون بأقدام حرة في كل مكان ، يمشون في وقت واحد في دار السلام ، وفي طما ، وعند كوبري شبرا ، وفي محطة القاهرة . يمشون بأقدام الناس . ويتكلمون على شفاههم . وينبضون في صدورهم »[٧٤] . وتنتهي الحكاية بان يتعلم الجميع فضل العامل المبتسم دائما ، بل ويعرفون سر ابتسامته الساحرة ، « وأنه يفهم الان لماذا يبتسم العامل دائما ، ولا يبدو أنه يضيق بسجنه . انه حر لأنه يعيش في الملايين ولأن الملايين خارج القضبان لا يحبسها شيء » . وتتحول الحكاية الى فكاهة مثيرة للسخرية عندما يطل الثوار المحبوسون داخل القطار على كل رجل يقف على المحطات حتى لو كان وحيدا لابلاغه بالشعارات ومضمون الثورة « اسمع احنا ضد الاستعمار وتجار

---

(٧١) المصدر السابق ، ص ٢٠١ .
(٧٢) المصدر السابق ، ص ٢١٤ .
(٧٣) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .
(٧٤) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

الحروب »[٧٥] . فتعمل هذه الكلمات سحرها في الرجل وتخلقه من جديد » وأحس الرجال وهم يراقبونه في تلك اللحظة أنه يخلق من جديد »[٧٦] .

واستمرارا للعبة الحكاية الفكاهية عنون الكاتب الفصل الأخير من روايته بعنوان مثير كعناوين أفلام السينما : « المنتصرون » ، لم لا ونحن نرى ضابط الحراسة يعاملهم كأصدقاء ويشتري لهم قصب السكر ليتسلوا بمصه ويستمتعوا برحلتهم الثورية العظيمة التي غيرت من الضابط وأحالته الى كائن آخر » يخشى أن تكون هذه الرحلة قد غيرت مصيره ولا يدري .. واحساس عميق بأنه لن يعود نفس الرجل الذي ركب القطار منذ أربع وعشرين ساعة في فناء السجن الكبير »[٧٧] . بل لقد غيرت الرحلة من الجميع ، الجنود والفلاحين والضباط وحتى زوجاتهم أحسسن بعودة دماء الشباب الى أزواجهن وبالجملة لقد حدثت المعجزة وثار الجميع ، » وبدأ صراخ النساء يرتفع في البيوت التي حجز رجالها في المركز وتجمع الفلاحون هنا وهناك . يدمدمون ، ويهددون ، ويلعنون كل شــيء ، لقد نفذت الحكومة وعيدها . ولكنهم لم يسكتوا »[٧٨] .

ان رواية صلاح حافظ « القطار » أنموذج مجسم لرواية الاسقاط السياسي الأيديولوجية التي تضع النتائج قبل المقدمات ، فتأتي شخصياتها نمطية ورقية يستنطقها المؤلف ويملي عليها أفكاره ، وتصبح الرواية كلها تطبيقا لتخطيطات فكرية مسبقة ، فتفقد الشخصيات كل حيوية ، وينتفي الايماء والمسلك الخاص وتطور الشخصيات وتشابك علاقاتها الاجتماعية المميز للرواية الفنية ، ومن ثم تقع أمثال هذه الرواية في الوصف الخارجي والسرد التقريري والسير على طريق الشعارات والمفهوم الايديولوجي المسبق للمجتمع والشخصيات والعلاقات داخل بنية العمل الروائي . وبذلك تتحول الرواية الى كتاب من كتب الدعاية السياسية السطحية المباشرة . وكلما رأيت أمثال هذه الشخصيات الثورية في الرواية الايديولوجية العربية شعرت بنقصها وسطحيتها وضعف كاتبها ، فالشخصية الثورية في الرواية العربية الايديولوجية تلخص بكلمة أو شعار ، ذلك أنها لا تمثل الا أجزاء بسيطة من تلك الشخصية ، أنها نصف شخصية أو ربع شخصية ولكن ثراء الشخصية وتناقضاتها ونواقصها لا نراها في بعض روايات الايديولوجيين العرب ، انها شخصيات تنبت من ذاكرة رجل سياسي يكتب ذكرياته وسيرته دون وعي كامل يغنى الشخصية الانسانية ، انه يريد أن يثبت لنا أن تجربته السياسية المحدودة يحتذي ويعمم كما تفعل أنصاف الشخصيات هذه التي تمضي في حياتها وتتحرك كالدمى في مسرح العرائس ، ذلك أنها لا تتنفس بل ولا تتحرك بل تحرك بفعل دافع خارجي هو يد اللاعب أو فكر المؤلف السياسي الصارم وليس الغني لسوء الحظ ، اذ أنها لا تمثل خبرة كاتبها بالحياة بأوسع معانيها ومستهلاتها .

في روايتيه ، « تلك الرائحة » و « نجمة أغسطس » يعزف صنع الله ابراهيم لحنا واحدا رئيسيا وتأتي التنويعات مع تطوره الروائي ، فتجربة بطله الثوري واحدة في الروايتين ، فهو بطل مثقف خارج لتوه من السجن والاعتقال ، فتراه في لحظة الصدام بين الحل والواقع ، يواجه الحرية ويسقط في الفجوة العميقة بين رومانسية العمل الثوري وواقعية الحياة الآلية البليدة التي تمضي دون اعتبار

---

(٧٥) المصدر السابق ، ص ٢٢١ .
(٧٦) المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .
(٧٧) المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .
(٧٨) المصدر السابق ص ٢٢٥ .

لتضحياته . ومن هنا نرى هذا البطل وحيدا غريبا مطارد أبدا يعيش حياة موحشة في رعب دائم ، اذ يجدهم دائما في أثره واذا لم يجدهم فعلا تخيلهم تخيلا . انه شخصية منهارة تماما وضائعة . وتذكرنا بشخصيات الرواية الوجودية الضائعة وبالأخص شخصيات كامو ، ميرسو في « الغريب » ودكتور رينيه في « الطاعون » ، بل انه في بعض وجوهه أقرب الى الدكتور رينيه بطل رواية الطاعون الذي يعتبر مقاومة الطاعون عبثا بلا جدوى ولكنه يظل يقاومه بانسانيته ، ورغم نجاحه في القضاء على الطاعون يظل على ايمانه بعبث كل شيء وعدم جدواه . وفي روايته الأولى القصيرة (تلك الرائحة) (٨٠ صفحة) يشير بطلها الى رواية الطاعون في سياق حوار مع فتاته - التي وجدها قد تزوجت خلال فترة سجنه - ويدور الحوار وقد شله الرعب وأصابه باليأس والعجز الكامل روحيا وماديا وجنسيا ويدور بينهما الحوار التالي ، وهو ليس حوارا مباشرا بقدر ما هو مونولوج داخلي يأتي من خلال رؤية البطل الراوي وروايته : « قالت لي : أتخاف من الكسر ؟ وأردت أن أتكلم طول الوقت كنت أريد أن أنفتح في الكلام . وقلت لها اني أشعر بأني عجوز . نادرا ما ابتسم أو أضحك . وتكلمنا عن الكتب ، وقالت أنها كفت عن القراءة منذ مدة ، منذ جاءتها الطفلة . وسألتها . هل قرأت رواية الطاعون . وشعرت بأن شيئا كثيرا يتوقف على الاجابة ولكنها قالت : لا[79] » هذه الاشارة الذكرية من الروائي على لسان البطل العاجز عن الكلام والفعل الى رواية الطاعون وبطلها المقاوم بلا جدوى وبلا اقتناع ، وبالأهمية التي يعقدها على قراءة صديقته لتلك الرواية ، تدلنا على احساسه بأن رواية كامو تعبر تعبيرا كاملا عن موقفه بعد الخروج من السجن ورؤيته لتدفق تيار الحياة دون اعتبار لتضحيته ، وشعوره الحاد بالعبث واللاجدوى . وليست رواية « تلك الرائحة » كلها الا تعبيرا عن هذه الرؤية الوجودية ، وان يكن مصدرها الرفض الكامل لكل شيء حوله . كل ما يميز بطل صنع الله ابراهيم عن أبطال كامو أنه يظل يجتز تجربته الثورية التي انتهت بالسجن والاعتقال . ويمثل هذا الاعتقال غولا هائلا يجتث كل حيوية وايجابية البطل ويصيبه بالعجز . هذا البطل الثوري العاجز اليائس جزء لا يتجزء من عالم صنع الله ابراهيم القاتم ورؤيته الصارمة .

ويلخص بطل رواية « تلك الرائحة » المنظور الأدبي للبطل الكاتب المثقف بعد حوار أليم بينه وبين عسكري المراقبة المكلف بأخذ توقيعه في دفتر البوليس والتأكيد من تواجده بالسكن قبل غروب شمس كل يوم وكان البطل قد تأخر قليلا عن موعده اذ كان في زيارة عائلية ورأى الشمس على وشك المغيب والتقى بالعسكري على الدرج ، الذي هدده بالسجن مرة أخرى . وهنا واصل العجز بسط نفوذه على البطل فلم يعد يستطيع الكتابة وتعجب من هؤلاء الذين يرون في الأدب ترفا وزخرفا وخلقا لعالم جميل يعوض الناس عن واقعهم السيء :

« وقلت أن الشمس أوشكت على أن تختفي ويجب أن أنصرف وتركتهم وأسرعت الى المنزل وقابلت العسكري على السلم وقال : تأخرت . وأخرجت علبة السجائر . ولكنه هز رأسه وقال : من الممكن أن يقضي هذه الليلة في الحبس . وأخرجت عشرة قروش . وصحبني الى الشقة فدخلت وأحضرت الدفتر ووقع فيه وأنصرف . وخلعت ملابسي في بطء وغسلت وجهي وأعددت فنجانا من القهوة ثم رتبت المكتب ومسحت الغبار الذي تراكم فوقه . وأمسكت القلم ولكني لم أستطيع أن أكتب . وتناولت احدى المجلات . وكان بها مقال عن الأدب وما يجب أن يكتب . وقال الكاتب ان موباسان قال ان الفنان يجب أن يخلق عالما أكثر جمالا وبساطة من عالمنا . وقال ان الادب يجب أن يكون متفائلا نابضا بأجمل المشاعر . وقمت وقفا وذهبت الى النافذة وتطلعت الى نافذة الأمس . ولكنها كانت مغلقة . وعدت أجلس الى المكتب وأمسكت بالقلم .

---

(٧٩) صنع الله ابراهيم ، **تلك الرائحة** ، دار الثقافة الجديدة الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٤٠ و ٤١ .

ولكنني لم أستطع الكتابة .. وارتميت في مقعدى متعبا وأنا أحدق في الورقة بنظرة فارغة وبعد قليل قمت وذهبت الى الحمام . وغسلت جواربي وقميصى وعلقتها في النافذة . واطفأت النور بعد أن تركت باب الحجرة مفتوحا لأسمع العسكرى عندما يأتي »[٨٠]

نجد في الروايتين بطلين ثوريين رئيسيين ، بطل حقيقي واقعي موجود باسمه ومعروف لنا جميعا هو شهدي عطية ، الذي أذيعت من وقت قريب تفاصيل موته من جراء التعذيب خلال اعتقاله في أحد السجون المصرية وحكم القضاء المصري بتعويض مادي لأسرته عن موته بالضرب الوحشى الفظيع واليه اهدى الروائي روايته الثانية« نجمة اغسطس » . أما البطل الثاني فهو الراوي الذي تأتينا أحداث الروايتين من خلال رؤيته وسرده .ويصور صنع الله ابراهيم بطلية من خلال بناء روائي حديث يغترف من الماضي والحاضر ، من الوعي واللاوعي ، من الامكنة المتعددة والأزمنة المختلفة المتداخلة . وقد تقدم صنع الله ابراهيم تقدما ملحوظا منذ كتب روايته الأولى « تلك الرائحة » التي تمثل الخطوة الأولى الصحيحة في طريق تخلف روائى كبير ، اذ تدلنا روايته الثانية « نجمة أغسطس » على أن السنوات التي فصلت بين العملين اكسبت الروائي خبرة وعمقا ومزيدا من التمكن من فنه الروائي . فالرواية الأولى بسيطة قصيرة أقرب الى أن تكون قصة قصيرة مطولة ، اذ تفتقر لشمولية الرواية ورؤيتها البانورامية التي تسع الحياة والكون والشخصيات العديدة المتنوعة الرؤى والمتشابكة لتمثل امامنا بمهارة الروائي وحيدته الماكرة . بينما تمثل الثانية بحق تجربة جديدة فريدة تلجها الرواية العربية لأول مرة ، اذ أنها رواية تسجيلية تصور بناء السد العالى في أسوان ونقل معابد أبى سمبل ، وذلك بالاضافة الى ثرائها بالشخصيات المتعددة وشمولية الرؤية وتداخل التاريخ مع الأساطير والفن والسياسة والواقع والحب والفن برؤية تسع مصر كلها وتلخصها تلخيصا فنيا حاذقا جميلا ورائعا .

قال الضابط : ما هو عنوانك ؟ قلت : ليس لي عنوان وتطلع الي في دهشة : الى أين ستذهب أو أين ستقيم ؟ قلت : لا أعرف . ليس لي أحد . قال الضابط : لا أستطيع أن أتركك تذهب هكذا . قلت : لقد كنت أعيش بمفردي . قال : لابد أن نعرف مكانك لنذهب اليك كل ليلة . ليذهب معك العسكري . وهكذا خرجنا الى الشارع أنا والعسكري . وتلفت حولي في فضول . هذه اللحظة التي كنت أحلم بها دائما طوال السنوات الماضية . وفتشت في داخلي عن شعور غير عادي ، فرح أو بهجة او انفعال ما ، فلم أجد . الناس تسير وتتكلم كأنني معهم دائما ولم يحدث شيء» .[٨١]

بهذه الجمل القصيرة الحادة يفتتح صنع الله ابراهيم روايته « تلك الرائحة » وبها يلخص أزمة الحرية لدى بطلها الثوري . انه خارج لتوه من السجن ، وحيد وغريب ، حلم كثيرا بيوم الخلاص من السجن والعسكري فاذا به يكتشف بأن صلته بعالم السجن ممتدة لا تنقطع وأن خروجه الى الحرية ليس الا وهما ، فبعد سنوات أمضاها في السجن يحلم ويحلم بيوم الخروج ، ها هو ذا يخرج مصحوبا بوصمة السجن تصحبه عند أول مواجهة له مع العالم الخارجي ، وتضعه في بؤرة اللامبالاة واللاجدوى وتطرد مشاعر الفرح والاهتمام بهذا العالم وهؤلاء الناس الذين وجدهم يسيرون ويتكلمون كالمعتاد «كأنني كنت معهم دائما ولم يحدث شيء» فكانت تلك أول صدمة تفجر أزمته وتالت الصدمات بدءًا من مشاهدته للحياة والناس تسير دون مبالاة لخروجه وتضحياته مرورا بتصاعد التطلعات الاستهلاكية وانتهاء بالرائحة الكريهة تهب مع مياه المجاري التي رآها تغمر أجمل شوارع المدينة !

يصور بطل « تلك الرائحة » تجربة الثوري في عالم القهر ، من خلال بناء فني يعتمد بشكل أساسي على تيار الوعي والفلاش باك ، ويجمع الى ذلك التداخل بين الأزمنة والأمكنة والشخصيات مستخدما الجمل القصيرة ونقد المجتمع عن طريق اختيار المواقف والشخصيات المعبرة عن واقع الطبقة . أما بطل الرواية فيحدد موقفه الطبقي بأنه مثقف من أبناء الطبقة العاملة فلدى زيارته لأسرة بورجوازية بعد خروجه من السجن ، يرى في خادمة الأسرة زوجا كفؤا له قائلا « هذه طبقتي » .

---

(٨٠) **المصدر السابق** ، ص ٦٠ و ٦١ .
(٨١) **المصدر السابق** ، ص ١٥ و ١٦ .

وتأتينا الرواية دفعة واحدة دون فصول أو فواصل عن طريق سرد ورؤية بطل الرواية التقليدي الواعي بكل شـيء والمطلع على كل شـيء كما كان يفعل الراوي في الرواية التقليدية ، قبل أن يتضاءل دور الراوي في الرواية الحديثة وتتعدد الرؤى ووجهات النظر . ومع ان الرواية مهتمة بتسجيل تجربة الثوري لحظة خروجه من أسوار السجن الى عالم بلا أسوار ولا قيود أو قضبان ، الا أنها تعمد أيضا الى رصد بعض ظواهر التخلف والنظرات والتطلعات الاستهلاكية للطبقة الوسطى . ثم ترينا الرواية بوضوح أنه لا فرق بين أسوار السجن المادية وأسوار العالم الخارجي المعنوية والمطبقة على روح بطل الرواية مشكلة سجنا كبيرا .

وفي داخل هذا العالم الكابوس يتحرك بطل « تلك الرائحة » كالفأر المذعور ، تحكمه قوانين السجن ، وتحاصره عوامل الاحباط واليأس واللاجدوى فتصيبه بالعجز والشلل ، فيتحول من بطل ثوري الى انسان مذعور عاجز عن كل فعل انساني ، ويتحطم كل جوهر انساني للبطل فيعجز عن ممارسة الحب وعن مد خيوط العلاقات الانسانية مع الآخرين ، ومع انه بطل مثقف مهنته الكتابة الا انه لا يستطيع التعامل مع الثقافة اطلاعا أو ابداعا على السواء . انه يظل يستدعي ذكريات وجوده الانساني القوي قبل دخوله السجن ، فلا تلبث ان تطفو ذكريات السجن وتحاصره وقائع الحياة المريرة خارج السجن ، فيرصدها ويسجلها وينتقدها .

فمنذ اللحظة الأولى لخروج البطل . في رواية « تلك الرائحة » من السجن يكتشف زيف حلمه الرائع بيوم الافراج والخلاص من عالم الأسوار ، ذلك أنه مشدود اليه أما بفعل قيود مادية حقيقية كضرورة توقيعه في دفتر السجن عند غروب الشمس كل يوم في بيته لا يغادره كالسجن ، أو بفعل ذعره اليومي وتخيله لمطاردات يومية تلاحقه كظله وتشككه في كل من حوله . وعند أول لقاء له بالحياة الخارجية يلاحظ بأسى أن « الناس تسير وتتكلم وتتحرك كأنني كنت معهم دائما ولم يحدث شيء » . ولأنه بطل ضائع وحيد منعزل فأنه ارتد مرة أخرى الى السجن لأن لا أحد يضمنه لدى الشرطة ، حتى جاءته أخته لتقدم الضمان اللازم بعد ليلة رهيبة أمضاها في حجز قسم الشرطة مع اللصوص والمشبوهين اجهضت كل أفراحه وأحلامه . ويظل البطل أسيرا للتوقيع في دفتر العسكري مغرب كل يوم .

في الشارع كانت اولى مشاهدات البطل حادث قتل انسان رأى جثته غارقة في الدماء ملقاة على الرصيف محاطة بنسوة يولولن وامتدت هذه الرؤية الكابوسية الى عاله اليومي . ذهب لزيارة ابنة وزوجة بطله الثوري الثاني (شهدي عطية) وهنا يظهر تيار الوعي لينتقد أفكار الثوري الكلاسيكي ويصور وقائع الحياة في السجن والتعذيب الذي أدى الى موت البطل الثوري الثاني الموجود دائما في روايات صنع الله ابراهيم .

« فاذا نظرت اليه لا تعرف ما اذا كان يحقد أم يتألم . وهل يوجد انسان لا يحقد ولا يتألم ؟ من الرغبة في السيطرة ومن الضعف في مواجهة العالم . من الافتقاد للحب ومن العجز عنه . من احتقار الناس ومن الحاجة اليهم . من الاحساس بالقهر ومن ممارسة الاضطهاد . من معاناة الألم ومن الاستمتاع بايلام الآخرين . من الثقة الكاملة ومن الشعور بالفشل . من التغني بحب الناس ومن استغلالهم كقطع من الطوب تبني بها بيتك . من الاعتقاد بان الجميع يحبونك ويؤمنون بك ومن رؤيتهم يتخلون عنك .. وكان الأمر في البداية نبلا واصبح الآن لعنة . وجف النبع الذي كان يتألم للآخرين .. وعندما وقف وظهره يقطر دماء كان صامدا لا يهتز ، يستعذب قدرته على الصمود . ولكن الناس لم تعد تعبأ بهذا اليوم . فقد تغيرت روح العصر . وليس صدفة أن الكلمات التي يستخدمها قد تغير مدلولها منذ زمن وبعضها كاد يصبح بلا مدلول على الاطلاق . وكان مشتركا في اللعبة ويفهم قواعدها ويسير عليها . ولكنهم طبقوا القواعد عليه . وسالت الدموع على مقعد وحيد . وأفظع شيء ان تبدأ في البحث عن نفسك متأخرا .. وقال انه لم يحب أبدا . وهو يؤمن بانه أفضل من الآخرين .. وربما كان لا يوجد ما يمنع من ذلك وقد قدم كل شيء لديه » . « كنت أجلس بجواره في مؤخرة السيارة وهو يعرف ما سيحدث ولكنه لم يقل شيئا . وكان يردد في صوت خافت مقطعا من أغنية حب قديمة .. وعندما وصلنا كان ذلك في الفجر . وأنزلونا وجلسنا على الأرض ، وكنا نرتعد من البرد و الرهبة ، وكان هو أطولنا ، وسمعت واحدا يقول « ها هو . وأخذوا ينادون علينا ، ثم

نادوا عليه ، وكانت هذه هي آخر مرة رأيته فيها (٨٢) » .

وتستمر الرؤية الكابوسية ، ينظر البطل من النافذة فيرى « فتاة في المنزل المقابل تحتضن فتاة أخرى دخلت فتاة عوراء وبكت »(٨٣) . في البيت يلتقي بفتاته وينساب تيار الوعي ليصور ذكريات الحب الماضية ، ولكن في الحاضر يموت الحب في كيان البطل ويعجز عن ممارسة الحب ، لأن السجن حطمه أو كما فكر البطل « ولا بد انها كانت تفكر في نفس الشيء الذي أفكر فيه » هناك شيء ما ضاع وانكسر »(٨٤) . وتتوالى صور العجز الذي أصاب بطل الرواية من الجنس والحب الى مجرد القدرة على الكلام والتعبير : « وأردت أن أتكلم طول الوقت كنت أريد أن أنفتح في الكلام . وقلت لها اني أشعر باني نادرا ما أبتسم أو أضحك »(٨٥) . ومع ان البطل كانت مهنته الكتابة الا أنه يظل طوال الرواية عاجزا عن مزاولة مهنته ووسيلته الثورية الأولى : « وبقيت بمفردي أمام المكتب . وحاولت أن أكتب »(٨٦) . « وخلعت ملابسي في بطء وغسلت وجهي وأعددت فنجانا من القهوة ثم رتبت المكتب ومسحت الغبار الذي تراكم فوقه .. وأمسكت القلم .. ولكني لم أستطع أن أكتب »(٨٧) . وقمت واقفا وذهبت الى نافذة الأمس . ولكنها كانت مغلقة . وعدت أجلس الى المكتب وأمسكت بالقلم . ولكني لم أستطع الكتابة . وأغمضت عيني .. وارتميت في مقعدي متعبا وأنا أحدق في الورقة بنظرة فارغة » ، « وأدرت الترانزستور فلم أجد أغاني أو موسيقى وجعل يخروش . وجلست أحاول الكتابة »(٨٨) . ويمتد العجز والرعب الى اجهاض كل خصائص البطل المثقف فاذا كنا قد رأيناه عاجزا عن الكتابة فهو أيضا لا يستطيع القراءة ، انه يحاول دون جدوى معاودة حياته الايجابية السابقة فيفشل في كل الميادين ، الحب والكتابة والثقافة والتواصل مع الناس والزملاء : « وغادرت المنزل الى حجرتي فاضأت نورها . ووضعت الدفتر في جيبي وجلست في مقعدي وظهري الى الباب . وأمسكت بكتاب وبعد قليل قمت وأدرت المقعد بحيث يكون الباب أمامي . وعاودت القراءة . وبعد لحظة تطلعت الى الباب من فوق حافة الكتاب . وكانت الشقة غارقة في الظلام . وحاولت عبثا ان أواصل القراءة . وقمت وخرجت الى الصالة . واضأت نورها . وكانت حجرة جاري مظلمة . وانتقلت الى المطبخ فأضأت مصباحه . وعدت الى حجرتي . وأمسكت بالكتاب مرة أخرى . وطرق الباب فجأة ، وقمت لأفتح ، وتذكرت أختي وكانت تقول لي انها تشعر عندما يطرق الباب أحدا سيدخل ويضربني . وعدت الى حجرتي وحاولت أن أقرأ من جديد ولكني لم أستطع . وأخذت أتمشى في الحجرة . ووقفت في النافذة . كانت النوافذ كلها أمامي مغلقة »(٨٩) . أنظر كيف جمعت هذه الفقرة بين تصوير عجز البطل عن القراءة وقيده المشدود الى دفتر العسكري ، ورعبه الدائم من توقعه لهجوم جديد عليه ، ثم تلك الصورة الأليمة الرائعة للبطل وحيدا منعزلا في مواجهة عالم مغلق منفصل عن عالمه الكابوسي الخاص .

وهنا تزداد قسوة العالم الكابوسي أحكاما فأجمل شوارع المدينة وجدها البطل مغمورة بمياه المجاري تتصاعد منها الرائحة الكريهة التي تشير الى عفن كل شيء . بينما الأفلام في دور السينما

---

(٨٢) المصدر السابق ص ٢٢ و ٢٣ و ٥٤ و ٥٥ و ٥٦ .
(٨٣) المصدر السابق . ص ٣١
(٨٤) المصدر السابق . ص ٣٦ و ٣٧ .
(٨٥) المصدر السابق . ص ٤٠ .
(٨٦) المصدر السابق . ص ٤٥ .
(٨٧) المصدر السابق . ص ٦٠ و ٦١ .
(٨٨) المصدر السابق . ص ٦٩ .
(٨٩) المصدر السابق . ص ٨٤ و ٨٥ .

كوميدية ، ويذيع الراديو احدى حلقات مسلسل « الشبح الأسود » وفي وسط الزحام يظل البطل محتفظا باحساس المطارد « خيل الي ان أحدا يتتبعني »[٩٠] . وتموت الام الرمزية التي كانت تعرف وتقرأ وتفهم كل شـيء وترفض رؤية الطبيب والأبناء « كانت تقرأ الصحف وتتحدث في كل شـيء أحسن منا وتتنبأ بكل ما يحدث ولم تكون تثور . وقالت جدتي : حتى آخر لحظة لم تكن تود أن تراني الطبيب . أو أن تأخذ دواء ما . وأخذت تهزل شيئا فشيئا ثم امتنعت عن الطعام نهائيا . وقالت جدتي : وفي آخر يوم طلبت كوب ماء وعندما شربته سقطت ميتة . وسكتنا وقالت جدتي : حتى آخر لحظة لم تكن تود أن تراني أو تراكم »[٩١] . بهذه النهاية الفاجعة يحكم الروائي على الام (الوطن) التي لا تثور بينما هي ترى كل شـيء وتعرف كل شـيء .

أما بطل الرواية المذعور فينظر الى ساعته ليعود الى مقره قبل غروب الشمس ، راضخا للدفتر العسكري ، عاجزا عن كل فعل انساني أو ثوري محبطا محطما لكل الآمال ، داعيا الى نشر اليأس والهزيمة والاستسلام . فهو بطل كف عن الايمان بمثل عليا او مبـادىء ثورية تحركه وافتقد قوة المقاومة الانسانية ، لأنه بسقوطه لا يثير احترامنا وعطفنا اذ يفتقر لكل أواصر التعاطف الانسانية والعلاقات الاجتماعية والنضالية . فكأنه يريد أن يقول لنا أنظروا هذا هو مصير البطل الثوري المحبط .

تلك هي مسيرة البطل الثوري المثقف في رواية صنع الله ابراهيم الأولى « تلك الرائحة » . وان يكن قصد الروائي هو ادانة عالم القهر وفضحه والادلاء بشهادة واقعية عنه ، الا أن رؤيته وأدواته الفنية قادته الى عكس ما يريد لأنه بهذه الادانة قدم لنا عالم القهر في صورة الجبار الذي لا يمكن قهره وصور البطل الثوري كالفأر المذعور في مصيدة ذلك الجبار القادر على كل شـيء .

وتأتي روايته الثانية « نجمة اغسطس » على نفس الطريق ، ولكن في شكل فني متطور أشبه بالطفرة بالقياس الى روايته الأولى الاالقصيرة . اذ تلج هذه الرواية « نجمة أغسطس » مكانا جديدة وتجربة جديدة تقتحمها الرواية العربية لأول مرة وذلك بتصويرها التسجيلي لعمليتي بناء السد العالي وانقاذ آثار أبي سمبل . ويتكون لحم الرواية من وصف الأشياء لاكما قصد الى ذلك « الان روب جرييه » ، ولكن بأسلوب التحقيق الصحفي والتقارير الأكادمية التسجيلية ومن خلال رؤية البطل واحساسه بضخامة العمل في السد العالي . فالأشياء لدى جرييه لها حضورها المستقـل اذ هي بعيدة عن شخصية البطل ولا تخضع لرؤيته وانفعاله أي انها لا توظف : « ينبغي ان نحاول بناء عالم أكثر صلابة ومباشرة بدلا من عالم الدلالات (الخلقية والاجتماعية والوظيفية) . ولتفرق الأشياء والحركات التعبيرية نفسها بطريقة الحضور أولا ، وليستمر هذا الحضور بعد ذلك في احتلال الصدارة وليكن هذا الحضور فوق أي فكرة أو نظرية توضيحية تحاول حبس هذه الأشياء أو الاشارات داخل منهج قد يرجعها للعاطفة أو الاجتماع أو فرويد أو الميتافيزقيا أو غير ذلك .. لن تكون الأشياء انعكاسا غامضا لروح البطل الغامضة ، لن تكون صورة آلامه أو ظل رغباته ...»[٩٢] فجرييه لا يؤمن بأي دور اجتماعي للأدب والفن وهو ضد الالتزام بكل أنواعه بل هو ضد الشخصية وضد البطل . اذ من رأي جرييه أن رواية الشخصية قد انتهت لانتهاء دور الفرد . وهذا موقف مغاير تماما لموقف الروائي في

---

(٩٠) **المصدر السابق** . ص ٨٨ .

(٩١) **المصدر السابق** . ص ٩٢

(٩٢)جرييه . الان روب . **نحو رواية جديدة** . ترجمة مصطفى ابراهيم مصطفى . نشر دار المعارف بمصر . الطبعة الاولى القاهرة (لم تذكر السنة) ص ٢٩ و ٣٦ .

« نجمة أغسطس » لقد اتخذ صنع الله أسلوب التحقيق الصحفي واعتمد على المطبوعات والنشرات والتقارير الاعلامية الصادرة عن هيئة السد العالي وشركة المقاولين العرب ووزارة الثقافة ومركز تسجيل الآثار المصرية ... كما ذكرها تفصيليا في ختام روايتـه[٩٣] . بينما استنكر الان روب جرييه أي دور اعلامي للرواية فان الكتابة الروائية لا تهدف الى الاعلام كما تفعل النشرة الدورية[٩٤] ...

وتتميز الرواية بوفرة الشخصيات وتباينها ، وبتشابك العلاقات الاجتماعية والرؤية الشمولية ، وتداخل التاريخ بالأساطير بالفن بالسياسة بالواقع والحب بالفن والجنس بالسد ، في تصوير غريب مدهش يهدف الى رؤية مصر كلها في تلخيص فني حاذق جميل يمزج التاريخ بواقع العمل في السد العالي بالاله المعبود ، بالحكم المطلق ، بالمسجونين ، بوفاة الحاكم المطلق . وتتحقق في القسم الثالث من الرواية أهم أسس الرواية من حيث الشمولية واتساع زاوية الرؤية والتناول . وتشير مختارات الرواية الى عظمة الانجازات في بناء السد العالي في الزمن الحاضر عن طريق السرد والصور المتتالية والى ضآلة حرية الانسان عن طريق التداعي واستخدام تيار الوعي لمشاهد التعذيب البشعة . ولقد أهدى صنع الله ابراهيم روايته الى شهدي عطية الذي نجد شخصيته ماثلة في روايتي صنع الله ابراهيم كما ذكرت من قبل .

وفي هذه الرواية بطلان ثوريان، بطل حقيقي واقعي موجود باسمه ومعروف لنا جميعا هو شهدي عطية . أما البطل الثاني فهو الروائي نفسه . وهو البطل الروائي الذي تأتينا الرواية من خلال رؤيته وسرده . وقد ذكر الروائي في ختام روايته انه سبق أن قام برحلة الى موقع العمل في السد العالي وأبي سنبل ووضع عنها كتابا بالاشتراك مع زميليه كمال القلش ورؤوف مسعد بعنوان « انسان السد العالي » . وهذا الزميلان موجودان أيضا في الرواية وان يكن باضافات جديدة لشخصيتهما . وثمة بطل ثالث هو السد والصخر والآلات ومجموعات البشر ، وهو بطل ضخم يفرض وجوده فرضا عن طريق رصد المؤلف لواقع العمل في بناء السد ونقل آثار أبي سمبل . والى جوار الوصف التسجيلي لبناء السد العالي لحظة بعد أخرى تأتينا مأساة شهدي عطية في صور شتى من التعذيب والمقاومة ، بحيث يقف هذا البطل الثوري بشكل واضح كبطل أسطوري خارق . أما البطل الثوري الواقعي فهو نفس بطل صنع الله ابراهيم الأثير ، الضعيف الغريب الوحيد المذعور السلبي المتفرج . وعن طريق السرد الذكي لوقائع الحياة المختارة بعناية تشير الرواية الى أن قضيتها الأولى هي تصوير التناقض بين الانجازات العظيمة وأزمة الحرية . وكما فعل صنع الله في روايته الأولى اعتمد السرد والزمن الحاضر للبطل الثوري الراوي المنهار ، والتداعي وتيار الوعي للبطل المعذب الصامد . وسنتابع البطلين بتركيز شديد .

تركزت أزمة البطل الثوري في رواية صنع الله ابراهيم الاولى « تلك الرائحة » في مناخ الرعب والقهر الذي يحيط به فيصيبه بالعجز والاحباط واليأس والاستسلام ، بدلا من أن يدفعه الى المقاومة والالتحاق بالقواعد التنظيمية والجماهيرية . فهو بطل مثقف منفرد غير منتم الى تنظيم ولا يعبر عن علاقات جماعية ولا يتصرف وفقا لنظرية ثورية . وهو بطل منعزل وحيد ، كأبطال القصة القصيرة الذين وصفهم « فرانك اوكونور » بالمعذبين المغمورين ماديا وروحيا ومن هنا جاءت « تلك الرائحة » أقرب الى

---

(٩٣) صنع الله ابراهيم . **نجمة اغسطس** . نشر اتحاد الكتاب العرب . دمشق ١٩٧٤ . ص ٣٨٩ و ٣٩٠ .
(٩٤) **نحو رواية جديدة** . ص ١٤٢ .

القصة القصيرة منها الى الرواية . « ان الرواية ما زالت ترتبط بالفكرة التقليدية عن المجتمع المتحضر ، وعن الانسان بوصفه حيوانا يعيش في جماعة ، كما هو موجود بوضوح عند أوستن وترولوب ولكن القصة القصيرة تبقى بحكم طبيعتها النابية بعيدة عن الجماعة ، ورومانتيكية وفردية ومتأبية »[٩٥] . فبطل « تلك الرائحة » منفرد لا تربطه بالناس علاقات اجتماعية سواء في محيط العمل ـ اذ لا عمل له ـ أو في محيط الأسرة والمجتمع . وفي هذا مكمن دائه وسر انهياره وضياعه وضعفه ، انه بطل بلا بطولة اذ نراه يكف عن مزاولة العمل الثوري وعن كل عمل انساني ، ويتصرف في الحياة بسلوك المتفرج السلبي الموقن بعبث كل شيء ، الذي يعيش على هامش الحياة يجتر ذكريات السجن عن طريق تيار الوعي ويحاور نفسه بالمونولوج الداخلي اكثر مما يفعل مع الآخرين واذا خاطبهم فبجمل مبتورة وكلمات قليلة .

أما في روايته الثانية « نجمة أغسطس » فان أزمة البطل الثوري تمثلت في عزلته عن الانجازات الضخمة التي تتحقق في وقوعه في الهوة التي تفصل بين ضخامة الانجازات وأزمة الحرية ، ومع ان بطل (نجمة أغسطس) المثقف متفرج سلبي يعيش في خوف أيضا ، الا أنه يتحرك ويحاور ويمارس الحياة طولا وعرضا ويكون العديد من العلاقات الاجتماعية المتشابكة التي تعطي الرواية صفة الشمولية . فانه ليس كبطل « تلك الرائحة » ذلك الوحيد المنفرد المنعزل عن الجماعة الانسانية . ومن هنا أتيح لبطل « نجمة أغسطس » أن يتحدث مع الآخرين ، فظهر الحوار في الرواية مع تيار الوعي استخداما مقارنا في التقابل والتضاد بين وقائع التعذيب التي عاناها مع البطل الآخر الواقعي . كما استخدم تيار الوعي استخداما مقارنا في التقابل والتضاد بين وقائع التعذيب والسجن وتفاصيل العمل الجبار في بناء السد العالي ، وايضا ربط تيار الوعي بين ما يجري من انشاءات معمارية وبين فن النحت والمعمار لدى مايكل انجلو والمصريين القدماء .

بطل « نجمة اغسطس » خائف أيضا يعيش باحساس المطارد ويتنفس مناخ القهر ولكنه ليس مذعورا أو مرعوبا أو عاجزا ، انه متفرج يراقب : نقطة استقرت على قميصي ووضعت الفنجان على المائدة أصبح الرجل بجانبي وتجاوزني وواصل السير على الأفريز . جذبت نفسا عميقا من سيجارتي ثم أنهيت قهوتي . ودفعت حسابي ثم سرت على مهل في اتجاه شارع النيل « لمحت ممرا وسط صف من المباني فاتجهت اليه . وتوقفت في مدخله لحظة ريثما تطلعت خلفي . ولكنني لم أر أثرا لرفيق المقهى »[٩٦] . « وتطلع نحوي رجل في قميص وبنطلون وقف مرتكنا الى جدار المسجد . ولم يكن هناك من انسان غيره على مرمى البصر . وبدت المدينة هاجعة . مررت بمربع صغير من العشب الأخضر أرتمى فوقه فتى وفتاة أجنبيان وقد بسطا سواعدهما على مداه . وانحرفت في أحد الشوارع الجانبية المؤدية الى البلدة القديمة . تطلعت خلفي ولكنني لم ار احدا[٩٧] » .

وهو كبطل « تلك الرائحة » مثقف خارج من السجن ، وان يكن أخف قيودا من البطل الأول ، كما أنه يبدو وكأنه اعتاد تجربة السجن والعالم الخارجي ، فاصبح أكثر جرأة في التحرك وتكوين العلاقات الاجتماعية وممارسة الجنس والاطلاع والقراءة . انه بطل يعيش في صميم الحياة ، حقا انه

---

(٩٥) اوكنور ، فرانك ، ترجمة د . محمود الربيعي . نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . الطبعة الاولى القاهرة ١٩٦٩ . ص ١٦ .

(٩٦) ابراهيم . صنع الله **نجمة اغسطس** ، ص ٢٨ .

(٩٧) **المصدر السابق** ، ص ٢٧ .

بلا عمل لكن رحلته الى أسوان لمتابعة الأعمال الضخمة في بناء السد العالي ونقل آثار أبي سمبل ، هذه الرحلة الاستطلاعية خاضها باهتمام واخلاص رجل يقوم بمهمة وعمل . وقد شكلت علاقات البطل ، وصداقاته وماضيه ورحلاته ومشاهداته وثقافته ، رواية كبيرة ذات عناصر متعددة وشخصيات وفيرة متنوعة بلغ عدد صفحاتها حوالي الأربعمائة صفحة متوسطة لكنها مصفوفة بحروف صغيرة ..

لقد برعت الرواية حقا في تصوير التناقض الحاد بين روعة الانجاز الضخم ببناء السد العالي وبشاعة التعذيب وكبت الحريات عن طريق الصور المتتالية المتداخلة التي تظهر فيها المباني الضخمة وأبراج الكهرباء الصلب العالية وجنود البوليس الحربي وأكشاك المباحث العامة . ثم يغوص تيار الوعي في ماضي السجن ليصور مأساة البطل الثوري في السجن بينما الانجازات التي طالما عمل من أجلها تتم بدونه . هذه مثلا احدى صور السجن تصور في براعة وصدق اليمين بداية الدخول الى عالم السجن : « كانت المحطة قد أخليت لنا تماما ، وهبط عليها سكون شامل لا يقطعه غير صليل السلسلة الوحيدة التي تقيدنا جميعا وفحيح القاطرة التي تنتظرنا وفي مدخل البناء الذي تضيئه مصابيح باهتة كانت بضع رؤوس تتطلع بفضول ولا تجسر على الاقتراب ، وعندما حانت اللحظة أخذوا يدفعوننا بعنف والقيود تحز في أيدينا ، وصعدنا العربة المظلمة بلا مصابيح أو مقاعد ، وظللنا وقوفا طول الليل اذا أراد أحدنا أن يجلس جر الآخرين معه ووقعوا على وجوههم ، واذا أراد أن يتبول سحبهم معه الى الركن حيث يحفون به عن يمين وعن يسار ، والقطار يترك القاهرة وينطلق الى الصعيد في خط مستقيم ، ومصر تمتد من أدناها الى أقصاها من فتحات صغيرة تعترضها القضبان كما في عربات الكلاب ، والشريط الأخضر يضيق باستمرار وتزحف عليه الرمال ، وفي الفجر يرتفع قرص الشمس الأحمر كبيرا فوق خضرة نائمة ،والمنظر يتكرر دائما ، المباني الطينية ، والانوار الخافتة ، ثم المحطة بمبان متقاربة حولها ، ومقهى يحتسي الناس فيه الشاي بهدوء ودعة ، يتابعون في غير مبالاة القطار المظلم الذي لا يتوقف . ثم السجن في كل مدينة ، كتلة صفراء من الظلام بعيون متقاربة صغيرة . يقوم في نفس الاتجاه دائما ، وتدخله الشمس من نفس المكان في كل مدينة ، وتقع على جدران الزنازين في نفس الموعد ، دون ان تفلح في تبديد البرد الجاثم » .(٩٨)

وبعد هذا الفاصل من تيار الوعي الذي يصور تجربة السجن الماضية يعود الراوي الى السرد في الزمن الحاضر فيصور الأبنية الجديدة والمجمعات الأنيقة وهياكل الصلب العالية المتتابعة لأبراج الكهرباء . ثم اذا بنا نصطدم بجنود البوليس الحربي ثم لافتات تشير الى اتمام انجازات المرحلة الأولى من بناء السد العالي : « استوقفنا أحد رجال جنود البوليس الحربي ثم تركنا نمر . وبرزت أمامنا مئذنة جامع وتحتها جموع من البشر لا حصر لها . وابصرت اللوحة الشهيرة التي كانت تحدد يوما بيوم ما تبقى على التاريخ المحدد لانتهاء المرحلة الأولى . كانت اللوحة تحمل عبارات الشكر للعاملين والدعاء والتوفيق في المرحلة الثانية . وكانت الكتابة باللغتين العربية والروسية بتوقيع كل من عبد الناصر وخروشوف » . ثم يعود تيار الوعي والتداعي الى تجربة السجن فنرتد من الحاضر الى الماضي : « الصحف تصل وتقرأ خلسة ، والصورة تخاطب بناة السد ، بقي ٣٧٥ يوما على تحويل مجرى النيل ، بقي ٣٠٠ ، بقي ٢٦٠ ، وخلف السور الحجري والأسلاك الشائكة كانت الصحراء محيطة من كل الجهات ، ولكن قامته الفارعة كانت تتراءى عندها كل صباح ، مادا البصر الى أقصاه كأنما بوسعه

---

(٩٨) المصدر السابق . ص ٤٦ و ٤٧ .

أن يرى ، وقال أنه يتمنى أن يشهد ذلك اليوم ، ولكنه لم يتمكن » . وهنا ينتهي تيار الوعي من تصوير ماضي البطل الثوري في عالم القهر ، ليعود الى تصوير الحاضر ليصطدم بمكتب المباحث العامة مؤكدا استمرار مناخ القهر : « عدت أدراجي الى الطريق الرئيسي الذي تراكم التراب على جانبيه . سرت على اليمين . ومررت بمبنى صغير من طابق واحد سويت الأرض أمامه ورشت وزينت ببضع أصص من الزهور ، كانت هناك لافتة تعلو المبنى تعلن عن مكتب المباحث العامة . ابتعدت بقدمي الى وسط الطريق لأتجنب التراب المتراكم على الجانبين . ولكن سيارة مسرعة أجبرتني على العودة وسط الأتربة »[٩٩] .

تجسد المشاهد المختارة بعناية فائقة التاريخ الطويل لعالم القهر ، وتركز التناقض الرهيب بين استمراره في بلد أصبح حرا . « أمرونا بأن نقعد القرفصاء ونحني رؤوسنا حتى لا يرانا احد في الطرقات ، وفي بهيم الليل انطلق موكب اللوريات الى قلب القاهرة القديم . وهواء يناير القارص يضرب آذاننا ، وبدأ الطريق يصعد الى الأعلى . وفي الظلام ظهرت مباني القلعة شامخة تشرف علينا كما تشرف على المدينة كلها ، وقال أحد ذوي التجربة أن في القلعة معتقلا أنشأه الانجليز ولم يستخدم من أيامها ، ودخلنا واحدا بعد الآخر من فتحة صغيرة خشبية ضخمة . ولان المكان من مخلفات الاستعمار كانت فيه أسرة مريحة . وأنبأ الهواء بأننا على ارتفاع كبير ، وقال حسين أنهم أخذوه من حفل زواجه . فقال آخر انه كان سيتزوج الأسبوع القادم . ورقدنا في صفين متقابلين نتطلع الى الجدران العالية والكوات المسورة في أعلاها . ولعلها كانت القاعة التي شهدت مذبحة المماليك . عندما أتوا بالملابس الرسمية لشرب القهوة، وعندما استعدوا للخروج ليسيروا في موكب السلطان أغلقت الأبواب، وذبحوا جميعا عن بكرة ابيهم ، وفوق ممشى يشرف على ميدان المذبحة جلس محمد علي يدخن النارجيلة . وقبلها كان يتبادل الزيارات العائلية مع زعيمهم شاهين بك »[١٠٠] .

أنظر الى توفيق الروائي في الربط بين المعنى الظاهر والمعنى الباطن لهذا المشهد وتداعياته في الدلالة على وقائع الحاضر في زمن الرواية . فمعروف أن مصر شهدت انجازات ضخمة في عصر محمد علي الذي احتل الحكم بعد مذبحة القلعة المشهورة المشار اليها . وأنه استثمر سخط الشعب ضد المماليك لبناء حكمه ومجده . وتستمر هذه المطابقة والمعادلة الصعبة التي تصور أزمة البطل الثوري بين ضخامة الانجازات وضالة الحريات واستمرار عالم القهر ففي ثلاث صور متتالية يصور لنا عظمة البناء في السد العالي وبشاعة السجن وتناقضه مع الحرية والعالم الخارجي ثم تستمر مشاهد العمل في السد العالي ٧

تستمر الرواية في معمارها القائم على اختيار مشاهد من واقع العمل في السد العالي في الزمن الحاضر وصور أخرى من وقائع السجن والتعذيب في الزمن الماضي . ثم تقوم بدفعة الى الامام عندما تجمع بين اعمال السد العالي الهائلة واستمرار حملات الاعتقال والمراقبة والقهر والرعب . فالبناء يسير جنبا الى جنب مع الارهاب والمطاردة . وتستخدم الرواية بالاضافة الى ذلك وقائع التاريخ القديم والحديث والرمز البسيط والمقارنات السياسية والصراع ضد المستعمر والفرد المعبود والارهاب . وقد واصل الروائي تشييد صورة اسطورية للبطل الثوري الواقعي (شهدي عطية) القوي الصامد لكل

---

(٩٩) المصدر السابق . ص ٤٨ و ٤٩ .
(١٠٠) المصدر السابق . ص ٦٤ و ٦٥ .

التعذيب المتعلق بالأمل المقبل بالرغم من كل سيئات ومآسي الحاضر الاليم .

لقد ظل البطل الثوري الواقعي التقليدي في الرواية يحاول عبثا اثبات عدم منطقية معاداته لحكومة تقوم ببناء السد العالي ، ولكن البطل الثوري الآخر فقد ايمانه بامكانية استخدام المنطق مع « رأس جنت بالسلطة ».فبالرغم من حدوث وقائع التعذيب على أنغام الاناشيد الوطنية ظل البطل الثوري موقنا من عدالة موقفه وانسانية قضائه . أما البطل الثوري الآخر الراوي في الرواية فهو قد اكتشف عبث كل شيء ومن ثم رفض كل شيء . وتلخص الفقرة التالية موقف البطل الثوري وأزمته بين الشعارات والتطبيق بين الانجازات الهائلة والحريات المهدورة : « ... واصطدم المفتاح في قفل الباب الحديدي بعنف . وانفرج عن عدد من الحراس يحملون أحزمتهم الجلدية في أيديهم انهالوا علينا وهم يصيحون بنا أن نتجرد من ملابسنا وساقونا عرايا الى الخارج حيث اصطف عدد آخر منهم على جانبي العنبر وقد أشرعوا أحزمتهم في أيديهم ، وجعلونا نجري بين الصفين والاحزمة تنهال علينا ، ثم عادونا الى الزنازين حيث دفعنا حارس عجوز الى الركن وقلب جردل البول الذي ملأه عبد السلام فوق جسدينا وبقينا عرايا نرتعش من البرد نحاول ازالة ما علق بأجسادنا من فضلات الجردل ، ثم علا صوت الراديو بنشيد « وطني » ، أعقبته موسيقى كلاسيكية قال عبد السلام في حماسة انها لبيزيه ، وعندما اقتادونا الى المحكمة كان بعضنا مجللا بالأربطة البيضاء . وقالوا انها شاهد على ما قمنا به من العدوان على الحراس العزل ، ولم يكن هناك غير المحامين ورجال المباحث والبوليس وبعض الأمهات والزوجات الحائرات . اهتزت أرداف المدعي السمينة كما تهتز المرأة الحبلى ، وسوى وشاحه الرسمي ولعلع صوته وقد أضيف مجد جديد الى سجل أمجاده الحافل بقضايا الاحتيال والجواسيس والاخوان المسلمين . وفي الأعلى أسند الجنرال قائد الجيوش البرية خده الى راحته اليمنى مستمتعا بما يجري وخلفه مساحات شاسعة من الأراضي وتاريخ من سطوة الاقطاع ومعارك وهمية لم تطلق فيها رصاصة واحدة ، وابتسم لأطفاله الموردين في بياض نسل الأتراك الذين جاء بهم ليشهدوا نهاية ثورة العبيد ، وأسبل قاضي اليمين جفنيه على اغفاءة سريعة بدت كالتفكير العميق فمعاملات الاستيراد والتصدير تستهلك الجهد الكبير ، ولم يرفع قاضي الشمال عينه عن صديقته الملونة التي جلست في الصف الاول تشهد مدى سطوته حتى انتصب الجسد الفارع داخل القفص ، علا رأسه الذي لم تشوهه آثار الجدري عن مستوى القضبان ، وحول أسنتها التقت أصابعه الطويلة ، وكان عبثا ان راح يجادل بالمنطق ويقول انه لا يمكن أن يعادي حكومة تبني السد »[١٠١] .

يظل البطل الثوري الواقعي على تفاؤله الثوري حتى يلقى حتفه ، اما البطل الراوي فانه يعود الى ترديد عبارات عدم الجدوى والعبث مستعيرا تاريخ مايكل انجلو وصفحات حياته ومواقفه تشير الى وحدته وعزلته . كما تشير مقاطع الرواية التاريخية الى جبروت الفرعون وستالين وعبادة الفرد . أما المقاطع الحية فتذكر بوضوح ان السد العالي بني بدماء الضحايا من العمال والمهندسين ، وان البناء والمواقف الوطنية تمت بينما البطل في السجن مع زملائه يلاقون العسف والقهر .

وتؤكد الصور المتتالية والمقتطفات المنتزعة من التاريخ وكتب الفن وتجارب السجن والحياة ان كل التضحيات ذهبت هباء ، وان كل الانجازات دعمت صورة الحاكم الفرد المعبود . وبالفعل يحاصر

---

(١٠١) المصدر السابق ، ص ١٤٢ و ١٤٣ .

البطل الثوري في موقع الانجازات بالمطاردة والخوف فيضطر للهرب الى بلاد النوبة حيث تدور أعمال انقاذ معابد ابو سنبل . ولكنه يكتشف الا مهرب من المراقبة والمطاردة . ويلتقي بمعتقل فار في رحلة الفرار عبر الحدود ، غير أنه يرفض الهرب معه ويأخذ في العودة للبحث عن عمل . وهكذا جسدت رواية صنع الله ابراهيم الكبيرة « نجمة أغسطس » أزمة البطل الثوري بين ضخامة الانجازات وثورية الشعارات وضآلة الحريات واستمرار مناخ القهر . وأزمته في قيود السجن بينما المواقف الثورية والانجازات الوطنية تتم دون مشاركته ودون اعتبار لتضحياته من أجلها .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

صدر حديثاً

مؤلفات جديدة للدكتور محمد عمارة

١ ـ الاسلام والسلطة الدينية
٢ ـ الاسلام والوحدة القومية
٣ ـ التوقيفات الالهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية .
٤ ـ عمر بن عبد العزيز .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

صدر حديثا

في سلسلة رحلات ابن بطوطة (للفتيان والفتيات)

١ ـ حلم الطفولة

٢ ـ وادي جهنم

٣ ـ عندما تحققت الاحلام

٤ ـ مغامرة في بحر القلزم

٥ ـ الصحراء المهجورة

٦ ـ جبال الثلج

٧ ـ في ارض الظلمات

٨ ـ سراكنو في بلاد الروم

٩ ـ جحافل الغزو التتري

١٠ ـ عجائب بلاد الهند

اعداد : راجي عنايت

رسوم : بهجت عثمان

الاسلام والقومية العربية والعلمانية

د . محمد عماره

صدر له العديد من الكتب في الفكر القومي

والاسلامي وفي التاريخ والتراث .

عندما يكون الحديث عن الاسلام ، وموقفه من « القومية » ، عامة . ومن القومية العربية على وجه التحديد ، وموقفه ، ايضاً ، من « العلمانية » ، فلا بد من التنبه والتنبيه إلى اننا بإزاء اكثر من « إسلام » .

● فهناك « **الاسلام : الدين** » ، كما تمثل ويتمثل في **النص القرآني** الموحى به من الله سبحانه إلى الرسول محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم . وفي « **السنة التشريعية** » . التي جاءت تفصيلاً لمجمل القرآن وشرحاً لموجزه وفتاوى في قضايا الدين . وهذان المصدران هما اللذان تجسدا ، ثمرة « للاجتهاد » في « علوم الوحي » ، اي « العلوم الشرعية » .

● وهناك « **الإسلام : الحضارة** » ، كما تمثل ويتمثل في ثمرات « **العقل** » المسلم و « **تجربة** » المسلمين في مختلف مناحي الحياة الدنيا ، التي يستطيع العقل الانساني ان يدرك حسنها او قبحها ، نفعها او ضررها ، دون عجز او قصور يضطره إلى ان يستلهم فيها رأي الوحي وكلمة السماء . ولقد عرف العرب المسلمون « **إسلام الحضارة** » منذ تأسيس دولتهم الاولى . دولة المدينة ، تلك التي كانت « بيعة العقبة » عقدا تأسيسياً لها ، والتي تبلورت « مؤسساتها » ، تدريجياً ، منذ هجرة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إلى المدينة .. فلم تكن « الدولة » هدفاً من اهداف الوحي ، ولا مهمة من مهام النبوة والرسالة ، وإنما اقتضتها ضرورة حماية الدعوة الجديدة والدفاع عن الدعاة المؤمنين ضد اضطهاد المشركين ، فكان تأسيسها وتدعيمها انجازاً سياسياً وحضارياً وقومياً حفظ الدين ودافع عنه وساعد على انتشاره ، على الرغم من انه ليس جزءاً اصيلاً من النبوة والرسالة ، ولا هو اصل من اصول الدين . وفي ظل هذه « الدولة » ، وعلى مر التاريخ ، تبلورت الحضارة الاسلامية ، في المحيط العربي اولا ، ثم في محيط الشعوب التي اسلمت ولم تتعرب . وكانت « **العلوم العقلية** » وثمرات « **التجربة الانسانية** » ، من كل ما يستطيع العقل المسلم ادراك حسنه او قبحه ، نفعه او ضرره ، البناء الذي تجسدت فيه هذه الحضارة ، التي هي : « **الاسلام : الحضارة** » ، او ما نسميه : « الحضارة الاسلامية » ، وفي محيطنا العربي نؤثر ان نسميها : « الحضارة العربية الإسلامية » .

● وهناك « **الاسلام : التاريخ** » الذي عاش المسلمون في ظله بعد جمود حضارتهم وتوقفها عن

النمو والازدهار والعطاء ، وعلى وجه التحديد منذ سيطرة الجند الترك المماليك المجلوبين على مقاليد الامور في الدولة العباسية ، تلك السيطرة التي ظهرت آثارها منذ عهد الخليفة العباسي المتوكل [٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ ـ ٨٤٧ ـ ٨٦١ م] . فمنذ ذلك التاريخ تراجعت القسمات الجوهرية « **للإسلام : الدين** » ، وبرزت الزوائد والشوائب والبدع والخرافات ، وشهد المجتمع الاسلامي مرحلة اجترار الجوانب المتخلفة من تراثه الديني ، واخذ « الجامعون والململمون والمصنفون » يوجزونها في « المتون » ويفصلونها في « الحواشي والتعليقات والشروح » . وتراجعت كذلك القسمات الجوهرية « **للاسلام : الحضارة** » ، وفي مقدمتها قسمة « **العقلانية** » وقسمة « العروبة » اللتان مثلتا وجهي عملة الحضارة العربية الاسلامية في عصر العطاء والازدهار . ولقد كان وراء هذا التراجع « للإسلام الدين » و « الاسلام الحضارة » غربة السلطة العسكرية الحاكمة عن حضارة الامة ، الامر الذي انتكس بقسمة « العروبة » ، وايضاً جهلها ، بسبب من طبيعة اهتماماتها واساليب تربيتها ، كجند مماليك ، جهلها بحقيقة الاسلام . فعندما تقصر المدارك عن ان تعي الاسلام ببراهين العقل ، فلن تستطيع هذه المدارك ان تدرك ديناً جعل العقل حاكماً ، في شريعته ، حتى على النصوص والمأثورات . وبتراجع « **الاسلام الدين** » و «**الاسلام الحضارة** » عاش المسلمون عصرهم المظلم ، في ظل الحكم « المملوكي » ثم « العثماني » ، عاشوا في ظل « **الاسلام : التاريخ** » .

● واخيراً ، فإن هناك ـ وبالاحرى هنا ـ « **الاسلام : المعاصر** » ، ذلك الذي تمثل ويتمثل في حركة البعث والتجديد والنهضة التي ظهرت في القرن التاسع عشر ، وهي الحركة التي استنفرتها واستفزتها الهجمة الاستعمارية الاوربية الحديثة ، تلك التي بدأت بحملة بونابرت ١٧٩٨ م . ولقد تجسد هذا « الاسلام المعاصر » في تيار عريض ، هو تيار البعث الاسلامي ، وتميزت في محيطه الدعوات والحركات والمذاهب إلى حد ما ، حينا ، وإلى حد كبير ، في بعض الاحايين . فمن « الوهابية » إلى « السنوسية » إلى « المهدية » إلى تيار « الافغاني ـ محمد عبده » ... الخ وثمرات هذا البعث والتجديد ، إن في العقائد او في الحضارة ، هي : « **الاسلام المعاصر** » !

وإذا كان الامر كذلك ، فلا بد لنا ، كي نعي موقف الاسلام الحق من « القومية العربية » ، ومن « العلمانية » من ان نبحث عن الموقف من هاتين القضيتين لدى : « **الاسلام الدين** » و « **الاسلام الحضارة** » و « **الاسلام التاريخ** » و « **الاسلام المعاصر** » وذلك حتى لا نقع في ظلمات الغموض والتعميم .

في « **الإسلام : الدين** » : في « الاسلام الدين » ، وبصدد الموقف من « القومية العربية » ، نجد انفسنا ازاء موقفين ـ قد حسبهما البعض ويحسبهما متعارضين ، ولا نراهما كذلك ـ موقف : « **عالمية الدين** » ، وموقف : « **مكان العرب فيه** » .

١ ـ فالاسلام دين ، تاتي اصوله المتمثلة في « توحيد الالوهية » وفي الايمان « بالبعث الاخروي والجزاء » وفي « العمل الصالح » . تاتي هذه الاصول وحياً إلهياً خالصاً ، وهي قد نزلت على محمد على النحو الذي نزلت فيه على من سبقه من الانبياء والرسل الذين بعثوا إلى غير العرب من الامم والشعوب . والقرآن الكريم ، في هذه الاصول ، إنما جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل ولما سبق رسالة محمد من رسالات [ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لساناً

عربياً][1] ، وهو ـ اي القرآن ـ قد نزل [بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين][2] . فهو ، كدين ، ومن حيث اصول هذا الدين ، ليس « خصوصية عربية » ، حتى يكون قسمة من قسماتهم القومية . وإنما هو ، من هذا الجانب وفي هذه الاصول ، ذو قسمة عالمية وإنسانية ، وذو طابع عام يتعدى الامم والشعوب والقوميات والحضارات ، إنه ، في مجاله ، كالقوانين العامة التي ـ لعلميتها ـ تتعدى بصلاحيتها وتوجهها كل ما على الارض من حدود وفواصل وتقسيمات وسدود . إننا هنا بإزاء « الاسلام الدين » الذي لا يعنى « بالقومية » ، اية قومية . **لكن هذا لا يعني انه ينكرها او يناصبها العداء ، كما توهم ذلك واهمون كثيرون ! . لان عالمية الاسلام ، كدين ، لا تعني إنكاره او تنكره « للواقع » الذي يعيش فيه المسلمون . بل ولا تعني تخطيه او تجاهله لهذا الواقع المعاش .**

٢ ـ لكن هذه الشريعة الاسلامية التي نزل الوحي بها قد نزلت على محمد بن عبد الله : العربي . ومعجزة هذا الدين ، وهي القرآن الكريم ، جاءت بلسان عربي مبين بل وعلى نحو من البلاغة والاعجاز جعل محاكاتها مستعصية على بلغاء العرب ، على مر التاريخ ، كما جعل فهمها ووعيها وفقهها مستعصياً بأية لغة اخرى غير العربية . فإذا كانت ترجمة معاني القرآن مجدية في فهم بعض هذه المعاني ، فإن ترجمة نصه إلى اية لغة اخرى إنما يشوه هذا النص ويذهب بما لالفاظه من معانٍ ودلالات وايحاءاته . **فها نحن نعود فنجد « الدين العالمي » يطلب من اتباعه ، إن هم ارادوا فقه معجزته ووعيها ، ان يتعربوا . وتلك « خصوصية عربية للاسلام » لا شك فيها ولا إبهام ، رغم « عالمية الدين » .**

٣ ـ والعرب الذين ظهر فيهم الدين اولا ، والذين حملوا عبء التبشير به والدعوة إليه والدفاع عنه ، والذين اقاموا لذلك دولة وبلوروا لتلك المهمة حضارة ، هؤلاء العرب قد غدوا ، حتى بإزاء هذا « **الدين العالمي** » ، « **الطليعة** » التي اخذت على عاتقها ، بتكليف من السماء ، نشر هذا الدين . ومرة اخرى نعود فنجد انفسنا بإزاء دين عالمي ، الخطاب به موجه إلى الكافة وإلى الناس اجمعين ، عربا وغير عرب ، ولكن للعرب في دعوته مكان « **الطليعة والقيادة** » ، بحكم عروبة النبي ، وعروبة القرآن ، وبدء الدعوة إليه في المحيط العربي . وتلك ، ولا شك ، « خصوصية عربية » خصهم بها الاسلام .

٤ ـ بل إننا لواجدون في « عالمية الاسلام » ، كدين ، ما يزيد من « خصوصية العرب واختصاصهم » في هذا المجال . فإذا كانت الديانات السابقة على الاسلام قد تميزت ـ في تصوره ـ بالمحلية والاقليمية ، في إطار امة او شعب او قرية او قبيلة .. على حين تميز الاسلام وامتاز بالعالمية ، فإن موقع العرب ، « كطليعة » للدين الاسلامي ، يتعدى نطاق وطنهم وموطنهم ، إلى حيث يصبحون له « طليعة » لهذا الدين ، على نطاقه العالمي . وفي ذلك ، ولا شك ، « خصوصية للعرب » تميزهم وتمتاز بهم على الامم الاخرى ، حتى في إطار الدين .

هذا عن « **الاسلام : الدين** » و : « **العرب والعروبة** » ، باعتبارها مادة « القومية العربية » وموضوعها ولبنتها الاولى . اما عن موقف « **الاسلام : الدين** » من « العلمانية » ، فواجب قبل تبيانه

---

(١) الاحقاف : ١٢ .
(٢) البقرة : ٩٧ .

ان نحدد المراد بمصطلح « العلمانية » . والمعروف ، والشهير ايضاً ، ان مصطلح « العلمانية » ، مثله مثل مصطلح « الليبرالية » ، من المصطلحات التي وردت إلى وطننا ولغتنا ضمن ما ورد إلينا من الحضارة الغربية منذ فترة الاحتكاك العنيف معها بعد بدئها لموجة غزوها واستعمارها الحديث . وهو يعني ، بإيجاز : إدارة شئون المجتمع « بالعلم » وليس « بالدين » ، واستبعاد « الدين » من إطار « الدولة » ، اي العودة إلى المبدأ الإنجيلي : [إعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله] . « فالدين » ـ في ظل « العلمانية » ـ ينسحب من ميدان « الدولة والمجتمع » إلى حيث يقتصر على اللاهوت الذي لا تتعدى سلطاته تنظيم علاقة الإنسان بربه ، على حين يترك « للعلم » امر تنظيم شئون « المجتمع والدولة». وهنا لا بد من ملاحظة عدة امور ، نعتقد ان ملاحظتها ضرورية لادراك مدى صلاحية « العلمانية » للتعميم خارج نطاق الحضارة المسيحية الاوربية ، وتطبيقها في مجتمعنا العربي الاسلامي على وجه التحديد ، ومن ثم فهم جدوى وصلاحية موقف الاسلام من « العلمانية » :

١ ـ فالعلمانية تضع « العلم » مقابلا ، بل ونقيضاً « للدين » . وذلك لنشأتها وتبلورها في بيئة حضارية شهدت صراعاً شهيراً ومريراً بين « الدين » ، كما قدمه اللاهوت الكنسي الكاثوليكي في اوربا ، وكما تصوره الرأي الرسمي للكنيسة الكاثوليكية ، وبين « العلم » الذي تأسست على قواعده النهضة الاوربية الحديثة . وبصرف النظر عن حقيقة الموقف الجوهري للديانة المسيحية ، وعن الظلم الذي الحقته التفسيرات الكنسية برأي المسيحية الحقة في « العلم » ، فالامر الذي لا شك فيه ان عداء « الدين » « للعلم » والصراع بينهما هو خاصية « كاثوليكية ـ اوربية » ، ولا وجه للشبه بين المقدمات والملابسات التي اثمرت هذا العداء وهذا الصراع وبين واقع الاسلام وموقفه ورأي اغلب تيارات الفكر الاسلامي ومذاهبه في هذا الموضوع . **فالاسلام لا يمد نطاق علوم الوحي والشرع إلى كل الميادين ، ومن ثم فهو لا يفرض « الدين » و « الغيب » على مجالات الحياة الدنيوية ، التي ترك الفصل فيها والتفسير لعلوم « العقل والتجربة الانسانية » ، ومن ثم فلقد تآخى فيه « العلم » و « الدين » و « العقل » و « النقل » و « الحكمة » و « الشريعة » و « الدنيا » و « الآخرة » ، عن طريق تحديد الميادين لكل نمط فكري ، وإقامة التوازن بين ما عد في الحضارة « الكاثوليكية ـ الاوربية » متناقضات لا سبيل للجمع بينها ، فضلا عن التوفيق ، وعن طريق استخدامها جميعاً ، في نظرة تكاملية ، لتهذيب الانسان وتطوير حياته ، باعتبار هذا التهذيب وذلك التطوير غير ممكنين دون الاستعانة « بالاقطاب » المتعددة في ظواهر الفكر والحياة ، وليس بقطب واحد من الظاهرة الواحدة .**

٢ ـ ويؤكد اختصاص « العلمانية » بالواقع الاوربي ، ما استقرت عليه المسيحية من نظام « الكهانة والكهنوت » ، ذلك النظام الذي جعل بين الانسان العادي وبين ربه وسيطاً هو « رجل الدين » ، الامر الذي جعل هناك طبقة او فئة احتكرت « الرأي الرسمي » للدين ، بل وحق الحديث باسم السماء ! .. وتلك امور لم يعرفها الاسلام ، بل هو ينكرها ويشن عليها حرباً شعواء . صحيح إن « الواقع التاريخي الاسلامي » قد شهد تقليد المسيحية في هذه الظاهرة، فتحول بعض من «علماء» الدين الاسلامي إلى « رجال » دين ، واختاروا لانفسهم سلطان « التحليل والتحريم » ، واحتكروا لآرائهم صلاحيات الرأي الوحيد ، ومن ثم الرسمي ، للإسلام . لكن ذلك قد ظل « **واقعاً تاريخياً** » ولم يعترف به الاسلام ، ولم يتحول إلى جزء من الدين . بل ظل « واقعاً » مداناً من تيارات الفكر الاسلامي جميعها ، ولم يصبح مقبولاً إلا في إطار المذهب الشيعي وحده وهذه الحقيقة تجعل الاحتكام ، دائماً وابداً ، في علاقة « العلم » « بالدين » إلى « الفكر » الاسلامي ، الذي آخى بينهما ،

وليس إلى « رجال » الدين ، الذين ناصب بعضهم العلم شيئاً غير قليل من العداء .

٣ ـ إن مقام « العقل » ـ الذي هو اداة « العلم » ـ في الاسلام مقام لا تخطئه البصيرة ، بل ولا البصر . فمعجزته ، القرآن ، تتوجه إلى العقل ، وهو الحاكم بين ظواهر النصوص وبين البراهين العقلية إذا ما لاح التعارض بينهما . ولقد ادى ذلك إلى تأسيس الحضارة العربية الاسلامية ، وهي عقلانية في لبها وجوهرها ، على « الدين » الاسلامي ، وليس على استبعاده كما هو حال الحضارة الاوربية الحديثة ، الامر الذي جعل « الفكر الديني » للإسلام ، و « البناء الحضاري » الذي انجزه المسلمون دليلين على إنتفاء التعارض والتناقض بين « العلم » وبين « الدين » في محيط الاسلام .

٤ ـ إن كون الشريعة الاسلامية هي خاتم الشرائع السماوية للبشرية ، إنما يعني بلوغ الانسانية سن رشدها ، بما يعنيه الرشد من رفع وصاية السماء عن البشر . فلم تعد صورة البشر هي صورة الخراف الضالة التي لا غنى لها عن النبي يتلوه النبي كي يصحح لها المسار ، وإنما اصبحت صورتها صورة الانسان الذي كرمه خالقه ، وفضله حتى على الملائكة ، وسخر له كل عوامل الطبيعة والكون وظواهرهما ، وجعله الخليفة والسيد في هذه الحياة . وبما يعنيه الرشد ايضاً من الاقتصاد في « الغيب والغيبيات » ، وترك الميادين الواسعة ، والمجالات الجديدة ، والآفاق المستحدثة للعقل الانساني وللتجربة الانسانية . بل لقد اصبح للعقل الاسلامي سلطان حتى في بعض مجالات « الغيب » ، فقال الاكثرون من علماء الاسلام إن سبيل إدراك الالوهية هو العقل ، لا النصوص والمأثورات ، وصدقت جماهير المسلمين على هذا الرأي عندما جعلت من حكمها الشائعة المأثورة : « ربنا عرفوه بالعقل ! » . ورأينا الذين صنفوا العلوم ، في حضارتنا ، يضعون « العلم الالهي » في « المعقولات » ، التي لا تتبدل بتغير الحضارات والديانات ، وليس في « الشرعيات »(٣) .

٥ ـ إن « الاسلام : الدين » لم يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . اي لم يعتزل امور الدولة والمجتمع . وايضاً فهو لم يضع لدولة المسلمين النظم والقوانين والنظريات . وإنما اتخذ لنفسه موقفاً وسطاً في هذا الميدان ـ متسقاً في ذلك مع النمط الذي يتميز به في العديد من الامور ـ فلأنه الشريعة الخاتمة ، ولان امور الدولة والمجتمع والحياة في تطور مستمر ، كانت هناك استحالة في الوحي بنصوص حاكمة لتضبط واقعاً يحركه التطور باستمرار . ولأنه لم يتخير موقف « **الفصل** » بين « الدين » و « الدنيا » كان انحيازه لموقف « **التمييز** » بينهما ، فلا « **فصل** » ولا « **وحدة** » ، وإنما « **تمييز** » . فهو لم يضع « النظم » ولا « النظريات » ولا « القوانين » ـ التي تركها للعقل والتجربة ـ وإنما وضع « الفلسفة والمثل والمعايير والمقاصد والغايات » التي تحكم اطر هذه « النظريات والنظم والقوانين » فهو قد جعل « الشورى » فلسفة للنظام السياسي ، دون ان يضع نظاماً سياسياً . وجعل ملكية المال والثورة لله ، والانسان هو خليفته ونائبه ووكيله في هذا المال . وتلك هي فلسفة نظامه المالي ، الذي يتحدد ويتطور على النحو الذي يقترب بالانسان من تحقيق هذه الفلسفة . كما جعل « المصلحة » ونفى « الضرر والضرار » المعيار الذي يحكم اطر النظم والقوانين والنظريات ، على اختلاف العصور والنظم والحضارات . ومن ثم فنحن لسنا مواجهين بتلك الثنائية المتناقضة ، ولا بذلك الاستقطاب الحاد ، اللذين شهدتهما الحضارة الاوربية وواقعها ، واللذين جعلا الامور هناك : ابيض او اسود ، فقط ، والاجابة بنعم ، او لا ، فحسب . فكانت « العلمانية » ، فصل الدين عن الدولة و « الكهانة

---

(٣) التهانوي [**كشاف اصطلاحات الفنون**] جـ ١ ص ٤٦ ـ ٦٢ طبعة القاهرة ١٩٦٢ م .

والسلطة الدينية والحكم بالحق الالهي » . نحن لسنا مواجهين بتلك الثنائية ، ولا بأي من المقدمات والملابسات التي اثمرت نشأة « العلمانية » في احضان الحضارة الاوربية . وحتى عندما نواجه القلة من « علماء » الدين الاسلامي ، الذين جعلوا من انفسهم « كهنة ورجال دين » ، فإننا لا نواجههم « بالعلمانية » ، التي تعزل « الدين » عن « الدولة » ، وإنما نواجههم « بالاسلام : الدين » ، الذي ينكر الكهانة والسلطة الدينية ، والذي لم يحدد للمسلمين نظاماً معيناً للحكم ، إن في السياسة او في الاقتصاد ، والذي ـ في ذات الوقت ـ لم يدر ظهره لامور الدنيا وشئون الدولة ، وإنما وضع القواعد العامة والاطر المرنة والقوانين الكلية ، ثم اطلق للعقل والتجربة العنان ليضعا النظم والقوانين والنظريات ، وفق المصلحة وعلى ضوء هذه المثل والكليات .

« فالعلمانية » ليست سبيلنا إلى التقدم ، بل ولا حتى لمواجهة قوى التخلف . وإنما السبيل هو الوعي والفقه لحقيقة موقف « الاسلام : الدين » ، ذلك الموقف الذي ينكر « العلمانية » ، وايضاً ينكر نقيضها ، كما شهدهما الواقع الاوربي . وما الذين يختارون منا « العلمانية » او الذين يسعون إلى « الدولة الدينية » إلا مقلدون ـ بوعي او بغير وعي ـ للحضارة الغازية ، غافلون ، او متغافلون ، عن اشياء جوهرية ، هي ، بالنسبة للمصلح او الثوري العربي ، منطلقات اساسية ، ومن بينها ، بل وفي مقدمتها : حقيقة موقف « الاسلام : الدين » في هذا الموضوع .

في « الإسلام : الحضارة » :الحضارة في لغتنا وتراثنا هي ذلك الطور الارقى الذي بلغه الانسان العربي عندما تجاوز حياة البداوة ، فاستقر وتوطن ، واصبح « حاضراً » في المكان ، الامر الذي صحبه إمتلاك « قيم ونظم وعادات واعراف وافكار وعلوم » مثلت بناءه الحضاري . هذا هو مفهوم الحضارة ، ونقطة بدئها في تراثنا العربي . ففي مقابل البداوة والترحال كانت « القرية ـ والمدينة » حاضرة متحضرة [واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر][٤] . والحضارة والبداوة نمطان متمايزان بل ومتقابلان في كل الميادين ، تقريباً ، وعند المتنبي [٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ ٩١٥ ـ ٩٦٥ م] :

الناس للناس من بدو وحاضرة ... بعض لبعض وإن لم يقصدوا فعلوا

وعنده ، ايضاً ، حتى في الذوق والحس الجمالي :

ما اوجه الحضر المستحسنات به ... كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب

وإذا كان الاسلام قد ظهر في اكثر البيئات العربية تحضراً ، في مكة [ام القرى] ، فلقد ميز ، حتى في الإطار الديني ، بين البدو والحضر ، بين الاعراب والمتحضرين ، **حتى لقد كاد ان يقول قرآنه الكريم إن السمة الاساسية والغالبة هي ملاءمة « الايمان » بالاسلام للحضر والحضارة والمتحضرين** ، وانه إذا كان [من الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر][٥] فإن [الاعراب اشد كفراً ونفاقاً][٦] [ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً][٧] [وممن حولكم من الاعراب منافقون][٨]

(٤) الاعراف : ١٦٣ .
(٥) التوبة : ٩٩ .
(٦) التوبة : ٩٧ .
(٧) التوبة : ٩٨ .
(٨) التوبة : ١٠١ .

[وسيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا اموالنا واهلونا ..][9] و [قالت الاعراب : آمنا ، قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : اسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم !][10] .

وإذا كانت الهجرة من مكة إلى المدينة قد مثلت نجاة نواة الامة المؤمنة بدينها من الاضطهاد والحصار ، فلقد استمرت الدولة العربية الاسلامية ، بالمدينة ، وهي قاعدة « الاسلام : الحضارة » وباكورة إنجازات العرب المسلمين الحضارية ، استمرت في دعوة الاعراب والبدو إلى الهجرة للمدن وما حولها ، اي الهجرة إلى التحضر والحضارة ، حتى لقد اعتبرت السنة النبوية الشريفة رجوع المهاجر من المدينة إلى البداوة « ردة » ، فاستخدمت مصطلح « **الردة** » في وصف العودة عن الحضارة إلى البداوة . حتى لقد سأل الحجاج بن يوسف « سلمة بن الاكوع » ، مستنكراً : « يابن الاكوع ، ارتددت على عقبيك ؟ تعرّبت » ـ اي ارتددت اعرابياً بدوياً ؟ ! ـ فقال له سلمة : « لا . ولكن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، اذن لي في البدو »[11] . وفي حديث عبد الله بن مسعود : « ... والمرتد اعرابياً ، بعد هجرته ، ملعون على لسان محمد ، صلى الله عليه وسلم »[12] . ولذلك فلم يكن غريباً ان تكون « الدولة » العربية الاسلامية ، التي تأسست بتعاقد « بيعة العقبة » وبدأ بناؤها بالهجرة ، هي نقطة البدء في بناء الحضارة العربية الاسلامية ، وقاعدة ما نسميه : « **الاسلام : الحضارة** » .

فماذا في « **الاسلام : الحضارة** » عن « العروبة والعرب » ـ مادة القومية العربية وموضوعها ـ وعن « العلمانية » ؟ من القضايا التي انعقد عليها إجماع العلماء والباحثين **ان جوهر « الاسلام » هو** : « **التوحيد** » . ونحن نستطيع ان نقول إن ابرز « عملة » سكها الاسلام عند ظهوره في شبه الجزيرة العربية قد حمل وجهها الاول « التوحيد الديني » ، في الالوهية ، ووجهها الثاني « التوحيد القومي » في الحضارة والدولة والسياسة ، ولقد اتصل التأثير وتبادل بين الوجهين ، فساعد « التوحيد الديني » على اتساق هوية الجماعة البشرية العربية ، قومياً وسياسياً ، بعد ان كان تعدد الآلهة يجسد تمزقها القومي والسياسي ، كما اسهم التوحد القومي والسياسي ، في الدولة الجديدة ، اسهم في حفظ الدين ونشره ، الامر الذي مد في عمر التوحيد الديني حتى رفرفت اعلامه على عالم الاسلام الفسيح . فالتزامل منذ البداية ـ وليس الانفصام ، فضلا عن التناقض ـ كان طابع العلاقة بين « التوحيد الديني » و « التوحيد القومي والسياسي » في حركة الاسلام .

● فالقرآن يتحدث عن اثر التوحيد الديني في « تأليف قلوب » العرب ، بعد ان كان تمزقهم وتناحرهم قد جعلا منهم فريسة للقوى التي احاطت بهم واقتطعت الاجزاء تلو الاجزاء من وطنهم ، حتى كادت تحتويهم جميعاً : الروم البيزنطيون من الغرب ، والفرس من الشرق ، والاحباش من الجنوب [واذكروا إذ انتم مستضعفون ، تخافون ان يتخطفكم الناس ، فآواكم وايدكم بنصره][13] .

● ومع بداية البعثة النبوية حدث اول نصر للعرب على الفرس في « يوم ذي قار » ، فلم يدع

---

(9) الفتح . 11 .

(10) الحجرات . 14

(11) رواه البخاري ومسلم والنسائي .

(12) رواه النسائي واحمد بن حنبل .

(13) الانفال 26 .

النبي فرصته تمر دون ان يبشر العرب بدلالته : « اليوم اول يوم انتصف فيه العرب من العجم ، وبي نصروا »[١٤] . وعندما يحدث عمه ابا طالب عن « التوحيد الديني » يؤكد على اثره في « التوحيد القومي العربي » ، الذي سيجعل للعرب زمام قيادة الشرق ، فينتصفون وينتقمون من الذين اذلوهم كثيراً وطويلاً : الفرس ، والروم ، والاحباش . يقول : « يا عم ! الا ادعوهم إلى كلمة يقولونها ، تدين لكم بها العرب ، وتؤدي إليكم العجم الجزية . والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله ! » . وفي موطن آخر يؤكد هذه النبوءة فيقول : « إن امتي ستظهر على « الحيرة » وقصور كسرى ، وارض الشام والروم ، وقصور « صنعاء » . وبشر المسلمين بذلك ! »[١٥] .

● والله ، في عقيدة « التوحيد الديني » الاسلامية ، يتنزه عن المكان ويستعصي عن التحيز في جهة من الجهات . واينما يولي المسلم وجهه في الدعاء او الصلاة فثم وجه الله . لكن النبي وصحبه كانت قلوبهم تهفو إلى ان تصبح الكعبة ، قدس اقداس العرب منذ القدم ، ومقصد حجيجهم على مر العصور ، وفي ظل مختلف العقائد . كانت تهفو قلوبهم إلى ان تكون الكعبة هي قبلتهم في الصلاة ، فبها يتميزون عن اصحاب الديانات التي مثلت بالنسبة إليهم في الماضي فكراً غازياً يمهد الارض لنفوذ الروم والاحباش . ولقد استجاب الله لهم ، فأذن لهم بالانصراف عن التوجه إلى بيت المقدس ، واصبحت الكعبة لهم قبلة [قد نرى تقلب وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره][١٦] .

● ومنذ اللحظة الاولى لبناء الدولة العربية الاسلامية الاولى ، في المدينة ـ وهي الانجاز الاول والاعظم « للاسلام : الحضارة ـ وضح طابعها القومي للعيان . فلقد تألفت « رعيتها السياسية » من العرب المؤمنين بالدين الجديد ، مهاجرين وانصاراً ، وايضاً من اهل يثرب العرب الذين كانوا قد تدينوا باليهودية ، من قبائل : بني الحارث ، وبني ساعدة ، وبني جشم ، وبني النجار ، وبني الاوس . اي ان « الرعية السياسية » لهذه الدولة قد تكونت من العرب ، رغم اختلاف الدين ، فضمت المهاجرين والانصار ـ من المؤمنين بالإسلام ـ وضمت معهم الاجزاء التي تهودت من قبائل المدينة ، وهي على يهوديتها ، ولقد عبر الدستور السياسي لهذه الدولة ـ وهو الذي يسميه المؤرخون : « الصحيفة ـ والكتاب » ـ عبر عن هذه الحقيقة القومية عندما نص على ان « ... المؤمنون والمسلمون ، من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم : امة واحدة من دون الناس ... وإن يهود امة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم »[١٧] على حين لم يدخل في هذه الرعية السياسية اليهود العبرانيون ، من سكان الواحات الزراعية ، والذين « حالفوا » الدولة حينا ثم نقضوا عهدهم ، فكانت الحرب التي اجلتهم عن هذه الواحات .

● وفي هذه الدولة الجديدة قدم « الاسلام : الحضارة » مفهوماً للعروبة يتجاوز عصبية الجاهلية ويرفضها ، ويتجاوز النعرات العرقية وينهى عنها ، ويضع محل كل ذلك مفهوماً حضارياً ، يعتمد الفكر واللغة والعلائق القومية بين ابناء هذه الجماعة البشرية معياراً لمن هو العربي .. فيخطب

---

(٤) ابن عبد ربه [العقد الفريد] جـ ٥ ص ٢٦٢ . تحقيق : د . احمد امين ، احمد الزين ، ابراهيم الابياري . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

(١٥) ابن الاثير [الكامل في التاريخ] جـ ٢ ص ٦٧ ، ٢٤ ، ١٢٣ .

(١٦) البقرة : ١٤٤ .

(١٧) النويري [**نهاية الارب**] جـ ١٦ ص ٣٤٨ ـ ٣٥١ . طبعة دار الكتب المصرية .

الرسول ، صلى الله عليه وسلم في الناس : « ايها الناس ... **ليست العربية بأحدكم من اب ولا ام ، وإنما هي اللسان [اللغة] - ، فمن تكلم العربية فهو عربي !** »[18] .

وعندما يسأله الصحابي واثلة بن الاسقع : يا رسول الله ، امن العصبية ان يحب الرجل قومه ؟ يجيبه النبي : لا ، ولكن من العصبية ان ينصر الرجل قومه على الظلم ! »[19] . **فهذه هي عصبية الجاهلية ، القائمة على الرباط العرقي ، والتي تجعل المرء ينصر بني جلدته ، حتى ولو كانوا ظالمين ، وهي التي سماها الرسول : « دعوى الجاهلية » وقال لقومه : « دعوها ، فإنها منتنة !** »[20] . **وفي هذه الدولة ايضا تحدث الرسول عن مكان العرب ، فقال في الحديث الذي يرويه عنه علي بن ابي طالب : « لا يبغض العرب الا منافق**[21]» .

ولقد تأكدت الرابطة « الحضارية - القومية » بالاعتراف للموالي ، الذين اصبحوا عرباً باللغة والهوية ، رغم ولادتهم من اصول عرقية غير عربية ، بالاعتراف لهم بأنهم عرب ، وعلى قدم المساواة ، في العروبة ، مع العرب الاقحاح ! ذلك ان « الاسلام : الحضارة » قد جعل اللغة والتعرب والولاء للجماعة الجديدة رباطا هو والرباط العرقي والنسبي سواء بسواء ، وفي ذلك جاءت الاحاديث النبوية التي عبرت عن هذا التنظيم « الاجتماعي - القومي » الجديد ، الذي توحدت به الجماعة البشرية العربية ، رغم اختلاف اصولها العرقية « مولى القوم منهم[22] .... والولاء لحمة كلحمة النسب »[23] .. فاندمج الموالي في القبائل العربية ، او كونوا قبائل مستقلة ، وقرر لهم « الاسلام : الحضارة » كامل المساواة مع العرب الاقحاح .

● وعندما جاءت الفتوحات العربية لتمتد بحدود الدولة إلى حيث يتحرر العرب الذين اخضعهم سلطان الفرس والروم ، وقف العرب في العراق والشام ، وكذلك المصريون - ذوو الاصول السامية - مع العرب المسلمين ، رغم خلافهم الديني مع الفاتحين ، واتفاقهم في الدين مع الفرس والروم . **فأسهم الجميع - جميع العرب - في بناء الدولة العربية ، التي ظل الاسلام والمسلمون فيها اقلية لنحو قرنين من الزمان . فكانت انجازاً عربيا قومياً ، ولم تكن دولة دينية ، كما يتوهم ذلك الذين لا يعلمون** .

● وعندما بدت في الافق مظاهر الانتكاس لهذه المفاهيم القومية العربية ، التي القاها في تربة الدولة العربية « الاسلام : الحضارة » ، بفعل « العصبية القبلية » التي احياها الامويون ، وبفعل « الشعوبية » التي غذاها دهاقنة الفرس ، برزت في الساحة التيارات الفكرية العربية التي امسكت بخيط الفكر القومي ، اللاعرقي ، ثم ذهبت تسعى لبلورة فكر قومي عربي ، لا عرقي ، يؤلف بين ابناء الدولة الكبيرة في كل قومي واحد . وكان التيار العقلاني - والمعتزلة في طليعته - رائد هذا المسعى وذلك الانجاز .

والجاحظ [١٦٣ - ٢٥٥ هـ ٧٨٠ - ٨٦٩ م] - من المعتزلة - يفرد لهذا الغرض - غرض

---

(١٨) [**تهذيب تاريخ ابن عساكر**] جـ ٢ ص ١٩٨ . طبعة دمشق .
(١٩) رواه ابن ماجه وابن حنبل .
(٢٠) رواه البخاري والترمذي .
(٢١) رواه احمد بن حنبل .
(٢٢) رواه البخاري .
(٢٣) رواه ابو داود والدارمي .

التأليف القومي لعناصر الدولة ـ بعض تأليفه ، ويعلن في مقدمة احدها عن ذلك فيقول : « **وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم التي كانت مختلفة ، ولنزيد الالفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن اتفاق اسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب ، وكم مقدار الخلاف في الحسب ، فلا يغير بعضهم مغير ، ولا يفسده عدو بأباطيل مموهة وشبهات مزورة ، فإن المنافق العليم ، والعدو ذا الكيد العظيم ، قد يصور لهم الباطل في صورة الحق ، ويلبس الإضاعة في ثياب الحزم** ؟ ! »[٢٤] . فهو يتحدث عن مهمة التأليف القومي بين الجماعات المنحدرة من اصلاب متعددة ، والتي كانت تنتسب اصولها إلى حضارات مختلفة ، والتي غدت الان رعية واحدة للدولة العربية ، يتحدث عن هذه المهمة باعتبارها ضرورة يحيط بها الاعداء والمناهضون ، من اصحاب « العصبية القبلية » ومن دعاة « الشعوبية » ثم يتحدث عن الروابط التي نشأت ونمت بين رعية الدولة العربية ، والتي اخذت تمثل خيوطاً تشدهم جميعاً وتكون منهم « كلا قومياً واحداً » ، وفي مقدمتها روابط اللغة الواحدة والفكر الواحد والعادات والتقاليد والشمائل والتكوين النفسي ، ويرى انها قد غدت من المتانة بحيث فاقت وحدة النسب . **فالذين يتحدون في النسب ، مثل العرب والعبرانيين ، قد صاروا امتين ، لاختلاف السمات القومية ، على حين وحدت هذه السمات بين ذوي الاصول العرقية المختلفة ، مثل العرب العدنانيين والعرب القحطانيين** . يقول الجاحظ : « إن العرب قد جعلت إسماعيل ، وهو ابن اعجميين ، عربياً ، لان الله فتق لهاته[٢٥] بالعربية المبينة ، ثم فطره على الفصاحة ، وسلخ طباعه من طبائع العجم ، وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصياغة ، ثم حباه من طبائعهم ومنحه من اخلاقهم وشمائلهم ، وطبعه من كرمهم وانفتهم وهممهم على اكرمها . فكان احق بذلك النسب واولى بشرف ذلك الحسب . **وإن العرب لما كانت واحدة فاستووا في التربية وفي اللغة والشمائل والهمة وفي الانف والحمية ، وفي الاخلاق والسجية ، فسبكوا سبكاً واحداً ، وكان القالب واحداً ، تشابهت الاجزاء وتناسبت الاخلاط** ، وحين صار ذلك اشد تشابهاً في باب الاعم والاخص ، وفي باب الوفاق والمباينة من بعض ذوي الارحام ، جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب ، **وصارت هذه الاسباب ولادة اخرى** ، حتى تناكحوا عليها وتصاهروا من اجلها ، وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بني إسحاق ، وهو اخو إسماعيل ، وجادوا بذلك في جميع الدهر لبني قحطان ... **إن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والارحام الماسة** »[٢٦] .

فاللغة ، والطبائع ، والاخلاق والشمائل ، والولاء المتحد لهذه الروابط الجديدة الجامعة ، قد غدت قالباً واحداً ، سبكت فيه هذه الجماعة البشرية سبكاً واحداً ، حتى صارت هذه العلائق والسمات القومية « رحماماسة » ولدت منها هذه الجماعة « ولادة اخرى » ، رغم اصولها العرقية والحضارية المختلفة .

وفي « الاسلام : الحضارة » يلفت انظارنا موقف الفقهاء والمتكلمين واعلام الفكر السياسي عندما يتحدثون عن « عروبة الدولة » وسلطتها العليا ـ [الخليفة ـ الإمام] ـ كموقف « إسلامي » ، وشرط من شروط « الاسلام » . فكثيرون منهم قد اشترطوا ان يكون الخليفة والامام عربياً من قريش .

---

(٢٤) [**رسائل الجاحظ**] جـ ١ ص ٢٩ . تحقيق : عبد السلام هارون . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
(٢٥) اللهاة : جزء من اقصى سقف الفم ، مشرف على الحلق .
(٢٦) [**رسائل الجاحظ**] جـ ١ ص ٢٩ ـ ٣١ ، ١١ ـ ١٤ .

وهذا الشرط لم يظهر في الفكر السياسي الاسلامي إلا عندما بدأ تغلب الاسر الاعجمية والاتجاهات الشعوبية على الخلافة العباسية العربية ، وظهرت آثار السيطرة المملوكية التركية على الدولة ، فكان اشتراط قرشية الخليفة تعبيراً عن موقف قومي عربي ضد عجمة الدولة ، ممثلة في رأس سلطتها وقائدها الاعلى . وحتى الذين لم يشترطوا قرشية الخليفة ، اي عروبته النسبية نراهم قد اتفقوا مع غيرهم على اشتراط ان يكون الخليفة بالغاً في الفقه والعلم درجة « الاجتهاد » ، ولن يبلغ المرء مرتبة الاجتهاد ، في عرف « الاسلام : الحضارة » إلا إذا وصل في فقه القرآن العربي والسنة النبوية العربية ، وفي علوم العربية اللازمة لفقه مصادر الشريعة حدا يجعله ، بالمعايير الفكرية والثقافية والحضارية ، عربياً . **فخلف هذا الشرط ـ شرط قرشية الإمام او اجتهاده ، او هما معا ـ كان موقف « الاسلام : الحضارة » مع عروبة « الدولة » ، وضد سيطرة العجمة والشعوبية على مقاليدها .**

هكذا وقف « الاسلام : الحضارة » مع العروبة ، ومع السمات والقسمات التي اخذت تشد الجماعة البشرية العربية إلى حيث الطريق المؤدي إلى امتلاكها قسمات القومية العربية الواحدة . اما عن « العلمانية » ، فإنها لم تكن ـ بالطبع ـ مطروحة على العقل العربي الاسلامي ، ولا في ساحة فكره ، عندما كانت تتم النشأة والتبلور والازدهار للحضارة العربية الاسلامية ـ « الاسلام : الحضارة » ـ وإنما الذي طرح يومئذ هو « **طبيعة السلطة السياسية في الدولة ومؤسساتها** » ، هل هي دينية ؟ الحاكم فيها نائب عن السماء ؟ هي التي تعينه ، ليحكم بقانون إلهي لا دخل للبشر في سنه او تعديله ؟ كما لا دخل لهم في الشورى او التعيين او العزل لهذا الحاكم ؟ لان الإمامة اصل من اصول الدين . وبذلك قالت الشيعة ، وانفردت دون سائر فرق الإسلام ومذاهبه وتياراته الفكرية . ام ان هذه السلطة العليا ذات طبيعة « مدنية » ؟ والامة ـ بواسطة ممثليها ـ هي التي تختار صاحبها وتعينه وتبايعه ؟ ثم هي الرقيبة عليه والمحاسبة له ، ومن حقها ، بل ومن واجبها ، عزله ، إن خالف العهد ، وإن بالثورة ؟ وهو لا يعدو ان يكون منفذاً للقانون الذي هو ثمرة للشورى والرأي والاجتهاد والوضع البشري ، في إطار الكليات والوصايا والمثل العليا والعامة التي هي دين ووحي من السماء ؟ . لان الإمامة من الفروع المتعلقة بمصالح الدنيا ، وليست من اصول الدين ، وبذلك قالت كل فرق الاسلام غير الشيعية ، على وجه الإجمال ، مع إختلافات في بعض الجزئيات والتفصيلات . **فمضمون « العلمانية » ، إذن ، مرفوض من كل التيارات ، لان الشيعة ـ رغم اختلاف الدوافع والغايات ـ قد قالوا في هذه القضية بما قالت به الكنيسة الكاثوليكية في اوربا العصور الوسطى ، وهو القول الذي نشأت « العلمانية » لتناصبه العداء .. اما غير الشيعة من تيارات الاسلام الفكرية . فهم وإن لم يقولوا بما يساوي « الحكم بالحق الإلهي » و « وحدة » السلطتين . الدينية والزمنية . إلا انهم لم يقولوا « بفصل » الدين عن الدولة ، او استبعاده من شئون المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وإنما قالوا قولا وسطاً بين هذين الموقفين المتطرفين ، والممثلين لقطبي الظاهرة . وهذا القول الوسط الذي اختاروه قد جمعوا فيه شيئاً من هذا الطرف وشيئاً من ذاك الطرف . فكانت نظرتهم ونظريتهم في هذه القضية ـ برايناـ التعبير عن خاصية الحضارة العربية الاسلامية في الموازنة والتوازن ، ورفض التطرف الذي يمسك بطرف واحد من اطراف الظاهرة . غافلا او متغافلا عن الموقف المؤلف والموفق بين ما يحسبه البعض متناقضات لا سبيل إلى التوفيق بينها .. وهذا الموقف الوسط هو الذي نسميه : « التمييز » ، وليس « الفصل » او « الوحدة » بين « الدين » و « الدولة » . وفيه : ١ ـ**

يكون الحاكم نائباً عن الامة ووكيلا لها فيما تفوضه إليه من سلطات .. ولها عليه الرقابة والحساب والعزل ، وإن بالثورة ، عند الاخلال بشروط التفويض . ٢ ـ كما يكون ، في الاساس ، منفذاً للقانون ، الذي يضعه مجتهدوا الامة ، بالشورى والرأي والنظر ، في إطار كليات الدين ومثله العليا ووصاياه العامة . اي ان الامة ، هنا ، هي مصدر السلطات ، شريطة ان تتقيد سلطاتها بالوصايا الدينية المتمثلة في النصوص القطعية الثبوت والقطعية الدلالة ، طالما بقيت هذه النصوص محققة لمصلحة الامة العامة . ٣ ـ « فللدين » مدخل في « الدولة » ، لكنه لا يرقى إلى مستوى « الوحدة » ، كما لا ينزل إلى مستوى « الفصل » ، وإنما « التمييز » هو المصطلح الاصلح والادق للتعبير عن نوع هذه العلاقة بينهما .

ولقد زكى هذا الموقف الوسط ، الذي مثل جوهر موقف « الاسلام : الحضارة » في هذه القضية المحورية ، ان « الاسلام : الدين » لم يعترف لبشر ، بعد الرسول ، بسلطة دينية . فلقد انقضى زمن الوحي ، وبلغت الانسانية سن رشدها ، واوكلها الله إلى وكيليه عندها : الكتاب ، العقل. ومن ثم فلقد كان طبيعياً ان ترفض « العلمانية » وان يرفض نقيضها ـ « الحكم بالحق الالهي ـ ووحدة السلطتين الدينية والزمنية ـ » لان كليهما قد قام في مناخ فكري وعملي كان الاعتقاد بالكهانة والكهنوت والسلطة الدينية فيه مسلمة من المسلمات . ولذلك فإننا نستطيع ان نقول إن موقف « **الاسلام : الحضارة** » هذا ، كان هو التطبيق ـ في مجال السياسة ـ لموقف « **الاسلام** : **الدين** » الذي ينكر وجود « سلطة دينية » لبشر ـ خارج نطاق الموعظة والإرشاد ـ ، والذي لم يحدد للحكم في الدولة نظاماً ولم يضع له نظرية ولم يسن له قانوناً . كما انه لم يهمله كلية ، وإنما توسط في الامر ، فوقف عند تحديد الفلسفة والمقاصد والغايات ، التي صاغها في صورة مثل عليا ووصايا وكليات .

ونحن إذا شئنا الإشارة إلى ادلة ومعالم هذا الموقف « للإسلام : الحضارة » فإن بالاستطاعة ان نقول :

● إن صحابة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كانوا يسألونه ، في الكثير من المواقف ، التي يدلي فيها برأيه او يتخذ فيها قراره ، ذلك السؤال الشهير : « يا رسول الله ، اهو الوحي ؟ ام الراي والمشورة ؟ » فإن قال لهم : إنه الوحي ، كان السمع والطاعة وإسلام الوجه لله ، لانه « الدين » . وإن قال لهم : إنه الرأي ، كانت الشورى والاخذ والرد والنقد والتصويب ، لانها « السياسة والدنيا » .

● وان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قد نبه على ما يعنيه كون الاسلام خاتم الرسالات ، في مجال الدولة والسياسة ، فعلمنا ان طبيعة السلطة ، عند الامم السابقة ، كانت ، في الغالب ، « دينية » ، لاستمرار النبوة ، الامر الذي جعل الملك والنبوة مقترنان في اغلب الاحايين . اما بعد ختام طور النبوة والرسالة ، فإن السلطان الديني للبشر قد انطوى عن ميدان الحكم والسياسة ، يقول الرسول ، فيما يرويه عنه ابو هريرة : « إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الانبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي . وإنه لا نبي بعدي ، وإنه سيكون خلفاء »[٢٧] .

● وكذلك علمنا الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ان ما كان « دينا » فمرجعه « الوحي » والتنزيل ، لان فيه من « الغيب » ما لا تدركه العقول الإنسانية بذواتها ومع استقلالها بالنظر . اما ما

---

(٢٧) رواه البخاري وابن ماجه وابن حنبل .

كان « دنيا » ـ بما فيها « الدولة والسياسة » ـ فالمرجع فيها هو « العقل والتجربة » الانسانية ، المحكومان « بالمصلحة » في إطار كليات « الدين » ومثله ووصاياه . فهو يقول : « ما كان من امر دينكم فإلي ، وما كان من امر دنياكم فشأنكم به ، انتم اعلم به »[٢٨] .

● ولذلك جاء علماء الاصول ، الذين فقهوا السنة ووعوها ، فقسموها إلى « سنة تشريعية » ، هي التي تعلقت « بالدين » ، مثل تفسير الوحي وتفصيله ، ومثل الفتيا فيما هو دين ، وإلى « سنة غير تشريعية » ، وهي كل ما تعلق من السنة بأمور « الدنيا » ، وخاصة تصرفات الرسول كحاكم للدولة ، وكقاض بين الناس . فنحن مطالبون ـ حتى نكون متبعين للرسول ـ بالتزام « سنته التشريعية » ، لانها « دين » . **اما في « سنته غير التشريعية » ، ومنها تصرفاته في السياسة والحرب والسلم والمال والاجتماع والقضاء ، ومثلها ما شابهها من امور الدنيا ، فإن اقتداءنا به يتحقق بالتزامنا « المعيار » الذي حكم تصرفه ، صلى الله عليه وسلم ، فهو كقائد للدولة كان يحكم فيها على النحو الذي يحقق « المصلحة » للامة ، فإذا حكمنا ، كساسة ، بما يحقق « مصلحة » الامة ، كنا مقتدين بالرسول ، حتى ولو خالفت نظمنا وقوانيننا ما روى عنه في السياسة من احاديث ، لان « المصلحة » ، بطبيعها ، متغيرة ومتطورة . وهو ، كقاض ، كان يحكم بناء على « البينة » و « اليمين » ، وهذا هو « المعيار » الذي إذا التزمه القاضي المسلم كان مقتدياً بالرسول ، حتى ولو جاءت احكامه مخالفة لاقضية الرسول**[٢٩] .

ولقد انعكس هذا الموقف ـ موقف « التمييز » بين « الدين » و « الدولة » ـ لا « الفصل » ولا « الوحدة » ـ انعكس في الفكر السياسي « للإسلام : الحضارة » ، ولدى كل من عدا الشيعة من المذاهب والتيارات .

● فالمعتزلة يدافعون عنه عندما يقولون « بمدنية » السلطة السياسية ، النابعة من طبيعة مهام صاحبها ، لانه إنما يُخْتَارُ ويُنَصَّب لمصالح الدنيا ، لا لمصالح الدين « فما يأتيه الإمام ويقوم به من مصالح الدنيا ، لانه ليس فيها إلا اجتلاب نفع عاجل او دفع ضرر عاجل ، دون الثواب والعقاب . فخطؤه لا يؤدي إلى فساد في الدين ، كما لا يؤدي الخطأ في سائر ما يتعلق بالمأكل والمشرب » إلى فساد في الدين[٣٠] .

● والاشعرية يقولون به عندما يتفقون مع المعتزلة على ان الإمامة ، اي السلطة السياسية و « الدولة » والحكومة ، ليست اصلا من اصول الدين ، فهي « ليست من اصول الاعتقاد[٣١] . وليست من اصول الديانات والعقائد ، بل هي من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين[٣٢] وهي ليست من

---

(٢٨) رواه مسلم وابن ماجة وابن حنبل .

(٢٩) انظر في هذه القضية : الامام القرافي [**الإحكام في تمييز الفتاوى عن الاحكام وتصرفات القاضي والإمام**] ص ٨٦ ـ ١٠٩ تحقيق الشيخ عبد الفتاح ابو غدة . طبعة حلب سنة ١٩٦٧ م . وولي الله الدهلوي [**حجة الله البالغة**] جـ ١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ . طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

(٣٠) قاضي القضاة عبد الجبار بن احمد الهمذاني [**المغني في ابواب التوحيد والعدل**] جـ ٢٠ ق ١ ص ٧٧ . طبعة القاهرة .

(٣١) الشهرستاني [**نهاية الإقدام في علم الكلام**] ص ٤٧٨ . تحقيق . جيوم . طبعة مصورة ، بدون تاريخ .

(٣٢) عضد الدين الايجي ، والجرجاني [**شرح المواقف**] جـ ٣ ص ٢٦١ . طبعة القاهرة سنة ١٣١١ هـ .

المهمات ، وليست من فن المعقولات فيها[٣٣] . وإنما هي من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق »[٣٤] .

● والخوارج يقفون هذا الموقف ، ايضاً ، من طبيعة السلطة ، فيقولون إن « الإمامة » مستخرجة من « الرأي » ، وليست مستخرجة من الكتاب او السنة[٣٥] .

● وكذلك قالت السلفية اصحاب الحديث ، عندما ميزوا بين الشريعة ، التي هي مقاصد وغايات ، وبين السياسة الوضعية ، التي هي طرق وسبل ووسائل ، فإذا اوصلت إلى غايات العدل وحققت مصالح الامة كانت عدلا ووجب سلوكها ، رغم انها وضعية لم ينزل بها وحي من السماء . وفي ذلك يقول ابن قيم الجوزية [٦٩١ ـ ٧٥١ هـ ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠ م] : « إن **الشريعة** : مبناها واساسها على الحكم ـ [بكسر الحاء وفتح الكاف ، اي الحكمة والعلة والسبب] ـ ومصالح العباد . و**السياسة** : ما كان من الافعال بحيث يكون الناس معه اقرب إلى الصلاح وابعد عن الفساد ، **وإن لم يشرعه الرسول ولا نزل به وحي** . إن الله ارسل رسله وانزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، **فإذا ظهرت امارات الحق وقامت ادلة العدل واسفر صبحه بأي طريق فثم شرع الله ودينه ورضاه وامره . والله تعالى لم يحصر طرق العدل وادلته واماراته في نوع واحد وابطل غيره من الطرق .. بل بين ان مقصوده : إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط . فأي طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها ، والطرق اسباب ووسائل ، لا تراد لذواتها ، وإنما المراد غايتها ، التي هي المقاصد ، ولكنه نبه بما شرعه من الطرق على اسبابها وامثالها . ولا نقول إن السياسة العادلة مخالفة للشرعية الكاملة ، بل هي جزء من اجزائها وباب من ابوابها ، وتسميتها سياسة امر اصطلاحي ، فإذا كانت عدلاً فهي من الشرع** »[٣٦] .

هكذا « ميز » « الاسلام : الحضارة » بين « الدين » و « الدولة » ، فلم يقل « بالطبيعة الدينية » للسلطة السياسية ، ولا بوحدة السلطتين ، كما قال خصوم « العلمانية » ـ اللهم إلا الشيعة فإنهم وحدهم هم الذين قالوا بذلك ـ كما لم يقل « بفصل » « الدين » عن « الدولة » ـ كما قالت « العلمانية » وتقول ـ ، لانه كان بناء حضارياً نشأ وتبلور وازدهر في ظل « الاسلام : الدين » ، ذلك الذي لم يدر ظهره للحياة الدنيا ، ولم يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

في « **الإسلام : التاريخ** » :اما عندما عاشت الامة حقبة « الاسلام : التاريخ » ، تلك التي جمدت فيها حضارتها وكفت عن النمو والتطور والعطاء ، فإن الامر قد اختلف إلى حد كبير . فمنذ ظهور آثار السيطرة « العسكرية ـ المملوكية ـ التركية » في الميدان الفكري والحضاري ، عاشت الامة عصورها المظلمة ، تلك التي استمرت طوال العصر العثماني ، وحتى مطلع عصرنا الحديث . وفي هذه الحقبة لم يبق للامة من إسلام الدين او الحضارة سوى التاريخ . ويومها :

● وقفت اهتمامات « الدولة » غالباً واساساً عند الشكل والمظاهر والاوعية والقشور . فاهتمت بعمارة المساجد والمدارس وزخرفتها ، على حين كانت « العلوم » التي تدرس في هذه المدارس والفكر الذي يلقى في هذه المساجد مثقلا بالجمود والشعوذة والخرافات .

---

(٣٣) الغزالي [**الاقتصاد في الاعتقاد**] ص ١٣٤ . طبعة صبيح . القاهرة .
(٣٤) ابن خلدون [**المقدمة**] ص ١٦٨ . طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .
(٣٥) ابو حفص عمر بن جميع [**عقيدة التوحيد**] ص ٥٠٦ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ .
(٣٦) [**اعلام الموقعين**] جـ ٣ ص ٣ و جـ ٤ ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

● وانتشرت تكايا التصوف وخوانقه ، على حين انحسر التصوف الفلسفي ليفسح المكان والميدان « للطرق » الصوفية ، التي لا علاقة لها بالتصوف الحق ، والتي إمتلات بالادعياء واصحاب الحيل المقبلين على الدنيا من دروب الارتزاق .

● وفي الادب استبدلت المحسنات اللفظية والشكلية بالجوهر والمعنى الراقي والمضمون العميق .

● وفي الفكر سادت « الحرفة » وتراجع الخلق والإضافة والابداع ، فكان عصر « المدونين والمصنفين والشارحين والمعلقين واصحاب الحواشي والمتون » ، الذين اخذوا في اجترار التراث ، وكان انجازهم الاعظم هو تصنيف الموسوعات التي حفظت علوم السلف وتراثهم ، خصوصاً بعد دمار مكتبات بغداد يوم اجتاحها التتار .

في هذا المناخ ، الذي جمدت فيه الحضارة وتراجعت وكفت عن العطاء ، كانت « الدولة ـ السلطة » اعجمية او قريبة من العجمة ، غريبة عن روح الحضارة العربية الاسلامية ، او في احسن الحالات عاجزة عن الارتقاء إلى آفاق هذه الروح ، استوى في ذلك العثمانيون والمماليك . ولذلك تراجعت اهم قسمات هذه الحضارة ، وهي « العروبة » و « العقلانية » . **ولقد كانت هذه السلطة صاحبة مصلحة في تراجع قسمة « العروبة » ، لضعف الخيوط التي تربطها بها او انعدام هذه الخيوط ، لكن هذه السلطة كانت مسلمة ، فساد العصر ذلك الفكر الذي جعل رابطة الاسلام والمعتقد الديني بديلا لرابطة العروبة ، حتى كاد ان يجعلهما نقيضين . وايضاً ، فلقد ارادت هذه « السلطة ـ الدولة » ان تجعل من الاسلام ـ وهو الرابطة التي تربطها بالامة ـ سبيلا لتبرير استبدادها بالحكم وممارستها فاحش الظلم والجور في حق الجماهير ، فأضفت على سلطتها طابعاً دينياً ، حتى شاعت في العصر العبارات التي تصف السلطان بأنه : « ظل الله في الارض » و « نائبه الموكل بخلقه » و « سيفه المصلت على رقاب العباد » .**

وكان الاهتمام بعمارة المؤسسات الدينية ، مساجد ومدارس وتكايا وخوانق ـ قد جعل إقامتها وصيانتها والانفاق عليها امراً يتطلب الكثير من الاموال ، فاختصت الدولة بتلك المهام ، ثم اوقفت على هذه المؤسسات الاوقاف ، فكان ان تحول العلماء والفقهاء إلى منتفعين بريع هذه الاوقاف ، اي إلى « موظفين » لدى الدولة ، ففقدوا الاستقلال الذي كان يعينهم على النقد والاعتراض على تجاوزات الحكام ، وعرف العصر « فقهاء السلاطين » و « وعاظ الامراء » ، اولئك الذين برروا للسلطة تجاوزاتها ، ونظروا ـ او على الاقل صمتوا ـ على استبعاد قسمة العروبة او دفعها للخلف ، حتى لقد راودت الاتراك العثمانيين احلام تتريك الامة العربية . وبلغ الامر حد المأساة عندما تراجع التعليم العربي بالمدارس فغدا مطلباً للحركة القومية ظلت تطالب به في برامجها ومؤتمراتها حتى العقد الثاني من القرن العشرين . **وكذلك صمت « فقهاء السلاطين » و « وعاظ الامراء » ، بل برروا للدولة إضفاء الطابع الديني على سلطتها ، الامر الذي اقترب بهذا « الواقع » من « الواقع » الذي اقامته الكنيسة الكاثوليكية بأوربا العصور الوسطى ، رغم تناقض هذا الواقع مع الفكر الحقيقي والجوهري « للإسلام : الحضارة » و « للإسلام : الدين » . حتى لقد انفتحت امام « العلمانية » ، بواقعنا ، طرق ومسالك في العصر الحديث ، لما ظنه انصارها من تماثل في الواقع عندنا وعند الاوربيين ، في العصور الوسطى والمظلمة لكلينا ، ومن ثم تماثل طرق الخلاص من هذا الاستبداد الذي يؤيد ويبرر بقاءه باسم الدين .**

في « **الإسلام : المعاصر** » :لقد بدأت الدولة العثمانية ، في آسيا الصغرى ، قوة عسكرية مقاتلة ، فقط . وظلت تلك ميزتها الاساسية ، بل الوحيدة ، إلى زمن طويل ، ويوم فقدت هذه الميزة كانت قد فقدت كل ما لديها من رصيد . ولقد استطاع العثمانيون في عهد قوتهم ان يقضوا مضاجع اوربا بفتوحاتهم الاوربية ، كما ضموا لسلطنتهم اغلب اجزاء الوطن العربي في القرن السادس عشر الميلادي ، ولعدة قرون كانت دولتهم الجدار الذي اخر اجتياح الغرب الاستعماري الطامع للوطن العربي ، لكن هذا الجدار لم يستند إلى حضارة تدعم بنيانه وترمم ثغراته وتتعهده بالمساندة والتجديد . وزاد من خطر هذه السلبية ازدياد تجاوزات الجند ومظالمهم والفوضى التي اشاعوها في الاقاليم والولايات ، وذلك لإحساسهم بأنهم كل ما لدى « الدولة » من رصيد وإمكانات . ثم كانت محاولات « الدولة » موازنة قوة الجند بنفوذ الولاة ، وسلطة بقايا المماليك ، الامر الذي اشاع عدم الاستقرار وتضارب المصالح والاهواء في ربوع السلطنة ، فاستفحلت مظاهر التخلف والجمود الحضاري في البلاد . وزاد الطين بلة ان العثمانيين قد اتخذوا موقفاً شذوا به عن الاسر و « الدول » غير العربية التي بسطت سلطانها على العرب من قبلهم ، فتلك قد تعربت ، على تفاوت نجاحها في امتلاك القسمات العربية وارتقائها وعمقها فيها ، اما العثمانيون فلقد شذوا عن هذا السبيل عندما احتفظوا بتركيتهم ، حتى لقد احتقروا العرب والعروبة ، وراودتهم احلام تتريك الرعية ، فكان صراعهم ضد العرب وقسماتهم القومية من اعظم العوامل الداخلية التي عجلت بزوال سلطنتهم المترامية الاطراف .

ومضافاً إلى عوامل الضعف الذاتية هذه ، كان سعي اوربا الاستعمارية للإجهاز على هذه الدولة العثمانية التي تحتفظ بذلك الرمز الذي يؤرق الغرب تاريخياً ، وهو وحدة الشرق والعرب تحت اعلام الخلافة والإسلام ، ولقد تضافر هذان العاملان ، الداخلي والخارجي ، فزادا من ضعف العثمانيين حتى غدا الجدار الذي مثلوه امام اطماع الغرب مليئاً بالثغرات . ولقد كانت الامتيازات الاجنبية التي منحها السلاطين العثمانيون للبورجوازية الاوربية واحدة من صور التسلل الاستعماري إلى عالم العروبة والاسلام من ثغرات هذا الجدار . هذه الامتيازات التي منحت للبندقية سنة ١٥٢١ م ، ولفرنسا سنة ١٥٧٩ م ، ولانجلترا سنة ١٥٧٩ م ، ولهولندا سنة ١٥٩٨ م ، ولروسيا القيصرية سنة ١٧٠٠ م ، وللسويد سنة ١٧٣٧ م ، ولنابلي سنة ١٧٤٠ م ، وللدانيمارك سنة ١٧٥٦ م ، ولبروسيا سنة ١٧٦٧ م ، ولاسبانيا سنة ١٧٨٢ م ، وللولايات المتحدة الامريكية سنة ١٨٣٠ م ، ولبلجيكا سنة ١٨٣٧ م ، وللبرتغال سنة ١٨٤٣ م ، ولليونان سنة ١٨٥٤ م[٣٧] .

وعند هذا الحد من الضعف والعجز العثماني ، وامام هذا الخطر الاستعماري الذي بدأت طلائعه العسكرية ، ممثلة في حملة بونابرت سنة ١٧٩٨ م ، زحفها خلف اعلام التجارة ومصالح التجارة ،امام ذلك الضعف وهذا الخطر بدأت انتفاضة جسد الامة العربية وعقلها ، واخذت سبيلها للبحث عن الذات ، فكانت حركة يقظتها وتجددها الذاتي ، محاولة لتجاوز عوامل الضعف الداخلي والتخلف الحضاري الذي كرسه طول الليل العثماني ، ومواجهة للخطر الاستعماري الخارجي الذي مهد الطريق امام زحفه ضعف العثمانيين . هنا ، وفي هذا المنعطف التاريخي المصيري واجهت الامة العربية ذلك الموقف الذي واجهه اسلافها قبيل ظهور الاسلام ، يوم عجز الفرس ـ وهم شرقيون ـ عن قيادة الشرق في صراعه التاريخي ضد الغرب ، بزعامة الروم البيزنطيين ، فكان ان تكرس الاحتلال والقهر الحضاري والقومي الذي بدأ بانتصار الاسكندر الاكبر [٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق.م] . ويومها ، وتجاه

---

(٣٧) د . محمد عمارة [**فجر اليقظة القومية**] ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ . طبعة القاهرة ، الثانية سنة ١٩٧٥ م .

هذا الخطر الغربي ، انتزع العرب ، بالاسلام وتحت اعلامه ، زمام قيادة الشرق من الفرس ، فأزاحوا الخطر الغربي عن المنطقة بالفتح والدولة والحضارة التي بنوها ، بل وطاردوا هذا الخطر ، عبر البحر المتوسط ، في بعض مواطنه ذاتها . وفي القرن الثامن عشر الميلادي سيطرت على العالم العربي ملابسات ذات الموقف ، **فبدأ العرب سعيهم ، على طريق اليقظة والنهضة ، لانتزاع زمام قيادة الشرق من آل عثمان ، الذين عجزوا عن حماية المنطقة من الغرب الطامع ، فكانت اليقظة العربية ، وروابط العروبة ، وحركة القومية العربية الطريق الذي سلكته الامة للخروج من المأزق ، ولمواجهة الخطر ، وللتصدي للتحدي الذي فرضه عليها الاعداء ! ... وكان ذلك السباق والرهان الذي قام ، من حول دولة الرجل المريض ، بين حركة العروبة والقومية العربية وبين الغرب الاستعماري ، ايهما يسبق فيكسب الرهان .**

كانت تلك هي القضية التي حركت عوامل المقاومة في روح الامة العربية وعقلها وجسدها . ولذلك وجدنا معالمها في ثنايا كل دعوات اليقظة والتجديد والاصلاح ، مهما تغايرت الاسماء واختلفت الاقاليم والديار .

● **فالوهابية** : التي قادها مؤسسها محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ ١٧٠٠ ـ ١٧٩٢ م] .. والتي شهد الواقع العربي الاسلامي حركتها حول منتصف القرن الثامن عشر ، قد مثلت ، على جبهة العروبة ، واحدة من بواكير حركات اليقظة العربية والتصدي للعثمانيين . فهي لم تقف عند التجديد السلفي لعقائد الاسلام ـ وهو موقف معاد لنمط الفكر العثماني المثقل بالشعوذة والخرافات ـ وإنما تقدمت فأقامت دولة عربية ، وحاربت في سبيلها آل عثمان . وعلى جبهة الفكر السياسي والقومي كان تبني الوهابية لشرط « قرشية » الخليفة ، يعني تبنيها لضرورة عروبة الدولة ، اي الدعوة لإسقاط سلطنة العثمانيين . ومن هذا الباب كانت ريادة الوهابية على درب اليقظة العربية في عصرنا الحديث .

● **والسنوسية** : التي اسسها محمد بن علي السنوسي [١٢٠٢ ـ ١٢٧٦ هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩ م] في ليبيا والجزائر ومصر ، والتي خاضت الحروب الطويلة والمريرة ضد الزحف الاستعماري على إفريقيا ، شمال الصحراء وجنوبها ، قد تعدت هي الاخرى نطاق التجديد الديني ، الذي امتزجت فيه السلفية بالصوفية ، إلى حيث كانت موقفاً من مواقف اليقظة العربية ، بما مثلته من موقف غير ودي تجاه الضعف العثماني امام الغرب الاستعماري ، وتجاه سيطرة العثمانيين .

● **والمهدية** : التي اسسها بالسودان محمد احمد « المهدي » [١٢٦٠ ـ ١٣٠٢ هـ ١٨٤٤ ـ ١٨٨٥ م] قد مثلت ـ ضمن ما مثلت ـ هي الاخرى ثورة ضد الاتراك العثمانيين ، ومن ثم رافداً من روافد حركة اليقظة العربية الاسلامية الحديثة ، حتى لقد كان المهدي يقول لانصاره : إن النبي ، صلى الله عليه وسلم قد « حرضني على قتال الترك وجهادهم . فالترك لا تطهرهم المواعظ ، بل لا يطهرهم إلا السيف »[٣٨] ويدعوهم إلى مخالفة الاتراك حتى في العادات والتقاليد والسلوك والازياء[٣٩]

● وإذا كان النطاق المحلي قد حد من فعاليات حركات اليقظة هذه فحجب تأثيرها عن ان يعم

---

(٣٨) [**منشورات المهدية**] ص ٧٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ . تحقيق : د . محمد ابراهيم سليم . طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .
(٣٩) **المصدر السابق** . ص ١٦٦ .

فيتحول إلى تيار عربي اسلامي عام ، وذلك لبداوة الوهابية ، التي جعلتها غير ملائمة لما وراء « نجد » من المجتمعات العربية ذات المواريث الحضارية والتي بلغت شأوا بعيداً على درب العقلانية والفكر الفلسفي والمركب ، فلم تعد ظواهر النصوص والمأثورات بقادرة على ان تقدم لمشكلاتها الحلول .. ولاستغراق السنوسية في مناهضة التحديات التي اثقلت كاهلها حتى اعجزتها . ولاتخاذ « المهدية » من الاسطورة سبيلا الفت به وحدة شعب لم يتوحد قبل هذا التاريخ . إذا كان هذا هو الحال مع هذه الحركات الثلاث فإن الامر لم يكن كذلك مع حركة :

الجامعة الاسلامية : تلك التي قادها فيلسوف الاسلام وموقظ الشرق ومفجر ثوراته الحديثة جمال الدين الافغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٥ هـ ـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م] .. فهي قد بدأت في صورة مجابهة مع المد الاستعماري ، لا في ولاية او إقليم ، وإنما على امتداد الشرق بأكمله ، واخذت تجدد حياة الامة وتوقظها وتسلحها ، عن طريق تجديد الاسلام ، ليتحول من شعوذة وخرافة تميت روح الامة ، إلى طاقة ثورية تجابه بها الامة اعداءها ، ولقد كانت المستويات الحضارية التي بلغتها اكثر بقاع الشرق تحضراً يومئذ ، وخاصة في مصر ، من العوامل التي حددت نمط التجديد الديني الذي تميز في فكر هذا التيار ، فدعا اعلامه ■ إلى « سلفية دينية » تعود إلى المنابع الاولى والنقية والبسيطة ، متخطية ومتجاوزة البدع والخرافات التي اثقلت العقل العربي الإسلامي بالقيود والاغلال ■ وإلى استخدام العقل وبراهينه في فهم الدين وفقه نصوصه ووعي مقاصده ومراميه ■ وإلى التجدد الذاتي ، الذي يبعث من ترسانة الامة الفكرية وتراثها الحضاري خير ما يعينها على مواجهة المهام ومجابهة التحديات ■ وإلى النظر في الحضارة الغربية ، من موقع مستقل ومتميز ، لمعرفة اسرار تفوق الخصوم ، وذلك حتى نمتلك هذه الاسرار ونتمثلها ، ونستعين بها في الصراع . **فكان ان تمثل في فكر هذا التيار الطابع المتوازن الذي ذهب مثلا ونموذجاً للشخصية الحضارية لهذه الامة على مر التاريخ : سلفية في الدين ، وعقلانية في فهمه ، من باب اولى في فهم سائر امور الدنيا ، وبعث ذاتي تتألف قسماته واسلحته من كل ما يصلح للتحريك نحو المستقبل وللعطاء في تراث الامة ، ومن كل جديد ومستحدث تدعو إليه الحاجة ولا يتنافر مع الطابع الحضاري المتميز لهذه الامة ذات الميراث والتاريخ العريق .**

وعلى الرغم من عنوان [**الجامعة الاسلامية**] ـ الذي حجب عن البعض رؤية مكان « القومية العربية » في فكر هذا التيار ـ اي في « الاسلام : المعاصر » ـ إلا ان مكان الفكرة القومية العربية في حركة التجديد هذه لا يمكن ان تخطئها البصيرة ، بل ولا الابصار . فالافغاني ، رأس هذا التيار ـ وهو عربي النسب والحضارة والثقافة ـ على الرغم من ولادته ببلاد الافغان ـ هو الذي يحدد ان المعيار القومي ـ واللغة من ابرز قسماته ـ هو الذي يميز الامم بعضها عن بعض . ثم يطبق هذا المعيار على « الامة العربية » فيقول : « **إنه لا سبيل إلى تمييز امة عن اخرى إلا بلغتها . والامة العربية هي : « عرب » قبل كل دين ومذهب . وهذا الامر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل او برهان** »[٤٠] . وعندما يحاول المفكر الفرنسي « رينان » [١٨٢٣ ـ ١٨٩٢ م] نفي عروبة تراث امتنا وعروبة الاعلام الذين ابدعوا هذا التراث ، بحجة انهم مسلمون ، وليسوا عرباً ، يتصدى له الافغاني ، مدافعاً عن العروبة ، كمحتوى حضاري ، لا عرقي ، ويضرب الامثال بالجماعات البشرية التي تعربت بعد الفتح العربي « فمصر ، بينما هي هرقلية رومانية ، اصبحت ، في قليل من الزمن ،

---

(٤٠) [**الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني**] ص ٢٢٧ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . الطبعة الاولى . القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

إسلامية في الاغلب ، **عربية بالصورة المطلقة في كافة مميزات العرب ، وهكذا القول في سوريا والعراق . واصبح المسلم او المسيحي او اليهودي ، في مصر والشام والعراق ، يحافظ كل منهم قبل كل شيء على نسبته العربية ، فيقول : « عربي » ، ثم يذكر جامعته الدينية . وكذلك التركي والجركسي والارناؤوطي ، وغيرهم من العناصر ، يستعرب متى وجد او سكن في بلاد العرب ، بأقرب الاوقات ، ويمتزج في المجموع ، حتى تخال انه « عربي قح »**[٤١]

وعبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ ـ ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢ م] ـ وهو من ابرز اعلام هذا التيار ـ هو ايضا ، من ابرز رواد الفكرة العربية والقومية العربية ، الذين بشروا بالفكر القومي تحت شعار الجامعة الاسلامية ، تعبيرا عن مكان العروبة في بناء « الاسلام : الحضارة » بل و « الاسلام : الدين » ، وايضا تعبيرا عن دور « العروبة » في نهضة « الاسلام : الحضارة » وتنقية « الاسلام : الدين » [٤٢] . وكذلك كان عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ ـ ١٣٥٩ هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠ م] بالجزائر والمغرب : الحارس الذي حرس العروبة والقومية العربية ، وقاد ذلك الانجاز التاريخي القومي الذي صنعته [جمعية العلماء الجزائريين] ، الام الشرعية للثورة الجزائرية ؛ إنجاز إعادة الجزائر للقومية العربية ، بعد ان كادت تفلح بها خطة الاستعمار الفرنسي للقهر القومي والسحق الحضاري والاحتواء لها كهامش للحضارة الفرنسية عبر البحر المتوسط [٤٣] .

وفي قضية العروبة والقومية العربية كان هذا التيار مدركا لخطر الصراع بين الترك والعرب ، فسعى لحل هذا التناقض **لحساب العروبة والقومية العربية ، وذلك عن طريق تعرب الترك وتعريب الدولة العثمانية** ، والانتقال بعاصمتها من اوروبا إلى الارض العربية ، وإلى « بغداد » بالذات ـ لان القاهرة كانت يومئذ تحت الاحتلال الانجليزي ـ ولقد عرض الافغاني هذا المشروع القومي الحضاري على السلطان عبد الحميد [١٢٥٨ ـ ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ ـ ١٩١٨ م] . وكتب عنه صفحات هي اشبه ما تكون « بالوثيقة » في الفكر القومي العربي ، قال فيها : « لقد اهمل الاتراك امرا عظيما . وهو اتخاذ اللسان العربي لسانا للدولة . ولو ان الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربي لسانا رسميا ، وسعت لتعريب الاتراك لكانت في امنع قوة . ولكنها فعلت العكس ؛ إذ فكرت بتتريك العرب ، وما اسفهها سياسة واسقمه من راي . إنها لو تعربت لانتفت من بين الامتين النعرة القومية ، وزال داعي النفور والانقسام ، **وصاروا امة عربية** ، بكل ما في اللسان من معنى ، وفي الدين الاسلامي من عدل ، وفي سيرة افاضل العرب من اخلاق ، وفي مكارمهم من عادات . لو انصف الاتراك انفسهم ، واستعربوا ، واتخذوا بغداد عاصمة ، فمن كان من دول الارض اغنى منهم مملكة ؟ او اعز جانبا ؟ او امنع قوة ؟ إنني احزن كلما افتكرت بما ارتكبوه من الخطأ في عدم قبولهم اللسان العربي .. ثم ، كيف يعقل تتريك العرب ، وقد تبارت الاعاجم في الاستعراب وتسابقت ، **وكان اللسان العربي لغير المسلمين ، ولم يزل ، من اعز الجامعات واكبر المفاخر ، فالامة العربية هي : « عرب » ، قبل كل دين ومذهب** . ولقد كاشفت السلطان عبد الحميد في اكثر هذه المواضيع ، في خلوات عديدة ، ولكنه كان قليل الاحتفاء بما قلته له ... فحولت وجهي عن ما لا يمكن إلى ما يمكن ؟ ! وفيه وقاية ما بقى من املاك السلطنة في غير اوروبا » [٤٤] .

---

(٤١) **المصدر السابق** . ص . ٢٠٩ .
(٤٢) انظر تقديمنا [**لاعماله الكاملة**] ص ٣٢ ـ ٥٣ . طبعة بيروت ، الثانية ، سنة ١٩٧٥ م
(٤٣) انظر دراستنا عنه بكتابنا [**مسلمون ثوار**] ص ٢٣٥ ـ ٢٧٤ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .
(٤٤) [**الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني**] ص ٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

فكانت تلك القضية ـ الخلاف بين هذا التيار وبين العثمانيين حول العروبة ـ السبب في تحول هذا التيار من السعي لإصلاح الدولة العثمانية ، إلى العمل لإقامة كيان عربي قادر على إنقاذ عالم العروبة والاسلام من خطر الغرب الاستعماري ، الذي يتيح له ضعف العثمانيين وعجزهم واسع الفرص لالتهام الاجزاء تلو الاجزاء . **لقد ابصر هذا التيار ضرورة « العروبة والقومية العربية » ، وضرورة ان يعقد لواء قيادة الشرق وعالم الاسلام للامة العربية ، لا لاسباب آنية ومرحلية ، فقط ، تتمثل في المواجهة الحادة مع الاستعمار الغربي الحديث ، وإنما ، ايضا ، لاسباب حضارية وتاريخية ، اهلت العرب وتوهلهم لهذا الدور في المحيط الواسع الذي يشمل عالمي العروبة والاسلام .. وفي ذلك الإدراك تجلت وتتجلى عبقرية هذا التيار من تيارات « الاسلام : المعاصر » في الموقف من « القومية العربية » وحركة « الامة العربية » .**

اما موقف تيار [الجامعة الاسلامية] من « العلمانية » فلقد كان الامتداد لموقف «الاسلام : الدين » و « الاسلام : الحضارة » في هذا الموضوع . فلقد بشر اعلامه بضرورة اتخاذ الموقف المتوازن ، المعبر عن الشخصية الحضارية المتميزة للامة ، وانكروا واستنكروا موقف دعاة « التعريب » ، الذين يريدون لنهضتنا ان تبدأ من حيث انتهى الاوروبيون ، ودعوا إلى ما نسميه اليوم : « الاصالة والمعاصرة » فكتب الافغاني يقول : « **إن الظهور في مظهر القوة ، لدفع الكوارث ، إنما يلزم له التمسك ببعض الاصول التي كان عليها الاباء والاسلاف . ولا ضرورة ـ في إيجاد المنعة ـ إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الاخرى ، ولا ملجيء للشرقي ، في بدايته ؛ ان يقف موقف الاوروبي في نهايته ، بل ليس له ان يطلب ذلك** » (٤٥) .

واعلام هذا التيار ، وإن اعترفوا بوجود « سلطة زمنية » و « سلطة روحية » ، إلا انهم يجعلون « السلطة الروحية » للدين ، تتمثل وتتجسد في كل متدين به ، وليس في « رجال » لهذا الدين يتخذون لانفسهم من السلطة والسلطان مالا يشاركهم فيه الاخرون .. وكما جعلوا السيادة والرقابة للامة على رجال السلطة الزمنية ، فكذلك جعلوا لها السيادة والرقابة على كل من يسيء استخدام سلطان الدين ، ذلك لأن « إرادة الشعب ، الغير المكره ، والغير المسلوب حريته ، قولا وعملا ، هي قانون ذلك الشعب المتبع ، الذي يجب على كل حاكم ان يكون خادما له ، امينا على تنفيذه » (٤٦) . ومن منطلق « الاسلام : الدين » و « الاسلام : الحضارة » لم يروا بين السلطتين ـ « الزمنية ـ والروحية » ـ ذلك التناقض العدائي الذي كان بينهما في الواقع الاوروبي ، وهو الامر الذي اثمر تيار « العلمانية » هناك « .. فإذا سار الدين في غايته الشريفة ، حمدته السلطة الزمنية بلا شك ، وإذا سارت السلطة الزمنية في الغاية المقصودة منها ، وهي : « العدل المطلق » ، حمدتها السلطة الروحية وشكرتها بلا ريب . ولا تتنافر هاتان السلطتان إلا اذا خرجتا عن المحور اللازم لها والموضوعة لاجله » (٤٧) .

والإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م] ـ وهو في طليعة اعلام هذا التيار ـ بعد ان يقر بأن « الاسلام عقيدة وشريعة » ينكر اعتراف الاسلام بما عرف في اوروبا « بالسلطة الدينية » ـ تلك التي نشأت « العلمانية » لمقاومتها ـ **فالكاثوليكية هناك قد « جعلت**

---

(٤٥) **المصدر السابق** . ص ٥٢٣ .
(٤٦) **المصدر السابق** . ص ٣٢٣ .
(٤٧) **المصدر السابق** . ص ٣٢٤ .

اصلا من اصول المسيحية كون السلطة الحقيقية مدنية ـ سياسية ـ دينية ، في نظام واحد ، لا فصل فيه بين السلطتين » . اما الاسلام فإنه « ليس فيه سلطة دينية ، سوى سلطة الموعظة الحسنة . وهي سلطة خولها الله لكل المسلمين ، ادناهم واعلاهم . وليس للخليفة : او القاضي ، او المفتي : او شيخ الاسلام اية سلطة دينية . بل إن كل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية . فليس في الاسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه » [٤٨] . وبعبارة الكواكبي « فإنه لا يوجد في الاسلامية نفوذ ديني مطلقا في غير مسائل إقامة شعائر الدين » [٤٩] .

والامة لن تنهض « بالدولة الدينية » او « بالدولة العلمانية » ، فالموازنة بين « الديني » و « المدني » ، والمزاوجة بين « النقل » و « العقل » هي السبيل للنضهة ومواجهة الاعداء « .. ولو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه ، لرايتهم قد نهضوا ، والقرآن الكريم في إحدى اليدين ، وما قرر الاولون وما اكتشف الاخرون في اليد الاخرى ، ذلك لاخرتهم ، وهذا لدنياهم ، ولساروا يزاحمون الاوروبيين فيزحمونهم » [٥٠] كما يقول الامام محمد عبده .

وإذا كانت « الدولة القومية العربية » هي الهدف ، كما حدد عبد الرحمن الكواكبي[٥١] ، فإن تحقيق هذا الهدف لا يتصادم مع « الاسلام : الحضارة » ، بل ولا مع « الاسلام : الدين » ، لان هذا الاسلام ، وإن لم يقف بدعوته واصول عقائده عند قوم او جنس اولون ، إلا انه لم ينكر او يتنكر للواقع القومي الذي يعيشه الذين يتدينون به ، كما انه قد اتخذ ويتخذ من الكهانة والسلطة الدينية موقفا شديد الانكار وواضح العداء .فالعروبة هي السبيل لتجديد الوطن ونهضة الامة في السياسة والاجتماع والاقتصاد .. الخ . بل إنها هي السبيل إلى تجديد الاسلام ، كدين ، وإلى توحيد المسلمين ، بل وشعوب الشرق ، « لان العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية . إنهم انسب الاقوام لان يكونوا مرجعا في الدين وقدوة للمسلمين » [٥٢] .

وكما كان الحال في المشرق العربي ، كان كذلك بالمغرب ، وفي الجزائر بالذات . فعند ابن باديس و [جمعية العلماء] امتزج الاسلام بالعروبة بالوطنية . وفي الوقت الذي كان « الاسلام : الحضارة » ينهض بدوره العملاق في إحياء عروبة الجزائر وانتزاعها من براثن « الفرنسة » ، كان ابن باديس يناصب محاولة شيوخ الازهر اضفاء الصبغة الدينية على ملك مصر العداء ، ويرسل الى شيخ الازهر برقيات الاستنكار والاحتجاج [٥٣] .

هكذا ، وعلى هذا النحو ، كان موقف « الاسلام : المعاصر » ـ كما تجسد في تيار [الجامعة الاسلامية] ـ من قضيتي [القومية العربية] و [العلمانية] ، واضحا ومحددا ، لا لبس فيه ولا غموض . لكن الموجة الاستعمارية الغربية لم تقف عند مكاسبها التجارية ولم تقنع بالامتيازات التي انتزعتها من العثمانيين ، فأتبعت ذلك بالغزو العسكري الذي حقق انتصاراته ـ بعد فشل بونابرت ،

---

(٤٨) [الاعمال الكاملة للامام محمد عبده] جـ ص ١٧٥ ،جـ ص ٢٨٨ ، ٢٨٥ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة بيروت الاولى سنة ١٩٧٢ م .

(٤٩) الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ١٤٨ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت ، الثانية سنة ١٩٧٥ م .

(٥٠) [الاعمال الكاملة للامام محمد عبده] ج ٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٥١) [الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٥٢) المصدر السابق . ص ٢٥٨ .

(٥٣) [مسلمون ثوار] ص ٢٥٦ .

الفرنسي سنة ١٧٩٨ م وفريزر الانجليزي سنة ١٨٠٧ م في مصر ـ بالجزائر سنة ١٨٣٠ م وعدن سنة ١٨٣٨ م ومصر سنة ١٨٨٢ م وتونس سنة ١٨٨٣ م والسودان والمغرب سنة ١٨٩٩ موسنة١٩١٢ م وليبيا سنة ١٩١١ م وسائر اجزاء المشرق العربي اثناء وعقب الحرب العالمية الاولى . وبعد هذا الاحتلال العسكري الغربي لكل اجزاء الوطن العربي ، تقريبا ، بدأت محاولات الغرب الجادة لاحتواء العرب والمسلمين حضاريا ، فلقد تحول وطننا إلى هامش لاقتصاد الغرب ، يقدم العمالة الرخيصة والمواد الخام بالاثمان الرمزية واصبح سوقا لسلع الحضارة الغربية وادواتها ، ولقد بدأت تلك السلع والادوات تلعب دورها في تحويل الشرائح التي تسكن المدن ، وخاصة المثقفين منهم ، إلى الحياة على النمط الاوروبي ، وساندتها في ذلك الافكار والقيم الوافدة مع الغزاة المنتصرين ، وزاد من فعالية تيار « التغريب » هذا التألق والعظمة والهالة التي احاطت بالحضارة الاوروبية ذات التقدم الذي بهر الابصار والبصائر في بيئة متخلفة اخذ بنوها يقارنون هذه الحضارة وإنجازاتها الصناعية والعلمية والفكرية والفنية بالتخلف والركاكة والبؤس الفكري الذي عاشوا فيه قرونا طويلة تحت حكم المماليك والعثمانيين ... ولقد اسهمت في زيادة الدهشة والانبهار لدى الصفوة المثقفة .

١ ـ ان هذه الصفوة لم تعرف من تراثها سوى صورته « المملوكية ـ العثمانية » لان الصلة كانت قد انقطعت بتراث « الاسلام : الحضارة » منذ ان تراجعت حضارتنا عن النمو والعطاء وعشنا عصر « الاسلام : التاريخ » .

٢ ـ ان حركة الاستشراق ـ في مجملها ـ قد تعمدت بث روح الهزيمة في عقول الامة وقلوبها ، بابرازها الجانب المظلم من تراث امتنا ، وردها كل إيجابياته إلى تراث اوروبا اليوناني ، الامر الذي رسب في العقول ان امتنا لم تصنع مجدا غابرا متميزا وخاصا ، فأنى لها ان تصنع شيئا من ذلك وهي على ما هي عليه من الضعف الذي وصل بها الى حد الهزيمة امام الاوروبيين ابناء الحضارة الفريدة المنتصرة .

٣ ـ ان مراكز التبشير بحضارة الغرب ، دينية وفكرية وتعليمية ، قد سارت على درب حركة الاستشراق ، في نزع ثقة امتنا بذاتها . ولقد كانت تلك المراكز ، كما كانت حركة الاستشراق ـ إلا قليلا منهما ـ طلائع للمد الاستعماري الغربي ، نازلت عقول الامة بالاسلحة الفكرية منازلة الجيوش الاستعمارية لجيوشنا الوطنية سواء بسواء .

٤ ـ ان جامعات الغرب ومؤسساته العلمية والفكرية كانت « المصنع » الذي هيأ « الكوادر » السياسية والفكرية الوطنية التي اخذت تشارك السلطة المحتلة في إدارة مرافق البلاد .. حتى اصبحنا ندرس على يدي اعداء العروبة والاسلام كل شي ء بما في ذلك اللغة العربية وعقائد الاسلام .

فكانت الثمرة : « **تيار التغريب** » الذي علا صوته حتى انفرد بالساحة ، في المدرسة والجامعة والمنتدى والصحيفة والكتاب والديوان ، والذي اجبر التيار الديني ـ الذي وقف به الجمود عند فكرية العصر العثماني ـ على التقوقع والانزواء . **وكادت مقولة : ان تقدمنا رهن بأن نصبح غرباً في الحضارة ، وان ذلك هو الطريق لنكون شركاء للغرب بدلا من ان نظل هامشا تابعا ، كادت هذه المقولة ان تصبح مسلمة من المسلمات .**

وفيما يتعلق بموضوعنا كانت « العلمانية » واحدة من ابرز ثمار « تيار التغريب » . فالبورجوازية وطلائعها المثقفة قد تعلقت « بليبرالية » الغرب » في السياسة والاقتصاد ،

وكذلك تعلقت « بعلمانيته » وبشرت بها في ربوع البلاد . وزادها اقتناعا بالعلمانية ان صورة الاسلام عندها كانت هي صورة « الاسلام : التاريخ » ، اسلام آل عثمان ، المثقل بالشعوذة والذي غطت الخرافة جوهره الاصيل ، فهي لم تتعرف على « الاسلام : الحضارة » ، لان المستشرقين كانوا اعلم منها بالتراث . كما لم تتعرف بشكل كاف على الاسلام كما قدمته مدرسة [الجامعة الاسلامية] وتيار الافغاني - محمد عبده - الكواكبي - ابن باديس الخ .. لان إسلام هذه المدرسة كان مضطهدا من الاستعمار ، ومن تيار « التغريب » ، ومن اهل الجمود الذين لا يزالون يعيشون مع العثمانيين والمماليك في العصور الوسطى ! ... ومن هنا كان بريق « العلمانية » إذا ما قورنت « بالاسلام : التاريخ » وكان النجاح الذي حققته عندما اكتسبت لها المواقع في دوائر الفكر والسياسة ذات النفوذ والتأثير .

ولقد وجدنا التيار « الليبرالي » ، على إطلاقه يتبنى « العلمانية » ، على صورتها الغربية ، ويدعو إلى « فصل » الدين عن الدولة . ووجدنا « العلمانية » تصبح منطلقا وركيزة للعديد من الجمعيات القومية العربية التي اخذت في الظهور بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، مثل [جمعية بيروت] سنة ١٨٧٥ م و [رابطة الوطن العربي] سنة ١٩٠٤ م و [الجمعية الإصلاحية] سنة ١٩١٢ م ، و [جمعية العربية الفتاة] سنة ١٩١٢ م ، و [الجمعية القحطانية] سنة ١٩١٣ م ، و [الجمعية الاصلاحية] سنة ١٩١٣ م ، و [جمعية العهد] سنة ١٩١٤ م [٥٤] . وهي الجمعيات التي مثلت تراث حركة القومية العربية بالمشرق العربي ، والتي اورثت هذه الحركة ، ضمن ما اورثتها ، « العلمانية » كركيزة ومنطلق في العمل القومي العربي . ولقد زاد من ولاء هذه الجمعيات القومية « للعلمانية » ، بمفهومها الغربي ، الدور الطليعي الذي لعبه فيها المسيحيون القوميون العرب في لبنان وسورية ، اولئك الذين كانت لهم مع آل عثمان معارك تتعدى ابعادها البعد القومي . مضافا الى ذلك الاثر ، بل الاثار التي للفكر الغربي على عقول هؤلاء الرواد القوميين . وايضا صورة آل عثمان وإسلامهم ، وهي الصورة التي لم تكن تدع لاي مستنير خيارا ، فإما ان يتنازل عن استنارته ، وإما ان يكفر بكل ما يتعلق بالعثمانيين . وحتى الذين نهجوا نهج « الليبرالية » و « العلمانية » ، ووقف بهم فكرهم « الوطني » عند الحدود « الإقليمية » ، مثل دعاة « القومية المصرية » قد نادوا هم الاخرون « بالقومية العلمانية » ، ودعوا إلى « فصل » الدين عن الدولة ، على نحو ما فعل الغرب في نهضته . فأحمد لطفي السيد [١٨٧٢ - ١٩٦٣ م] - رائد « حزب الامة » - يعادي العروبة عداءه للجامعة الاسلامية ، ويرى فيهما احتقارا للوطن والذات ! [٥٥] . والدكتور طه حسين [١٨٨٩ - ١٩٧٤ م] يدعو لان نكون غربا ، نمنح ولاءنا لحضارة حوض البحر المتوسط ، التي هي - بداهة - حضارة اوروبا المنفردة المنتصرة ، بكل ما يعنيه ذلك من « علمانية » تفصل الدولة عن الدين ، فوحدة الدين ، ووحدة اللغة - عنده - لا تصلحان اساسا للوحدة السياسية ، ولا قواما لتكوين الدول[٥٦] ، والشيخ علي عبد الرازق [١٨٨٨ - ١٩٦٦ م] يرى في كتابه [الاسلام واصول الحكم] الرسول نبيا ، لا حاكما ، والاسلام دينا ، لا دولة . يراه إسلام المستشرقين ؟! .. وذلك رغم ما لكتابه هذا من قيمة عظيمة ، كموقف شجاع ضد الملك فواد [٥٧] .

---

(٥٤) د . محمد عمارة [**العروبة في العصر الحديث**] ص ٣١٨ - ٣٢١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

(٥٥) **المرجع السابق** . ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(٥٦) **المرجع السابق** . ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ [وتجدر الاشارة الى ان الدكتور طه حسين ، وكذلك لطفي السيد قد عادا عن بعض آرائهما هذه بعد انتصار ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م في مصر] .

(٥٧) انظر الدراسة التي قدمنا بها كتاب **الاسلام واصول الحكم** وملاحظاتنا النقدية له في طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .

وامام هذا النجاح الذي حققته « العلمانية » ، كجزء من نجاح تيار « التغريب » ، برز وتعاظم **التيار الاسلامي « الحزبي » و « المنظم »** ، والذي تمثل ، كأعظم ما تمثل ، في [جماعة الاخوان المسلمين] تلك التي اسسها ، بمصر ، الشيخ حسن البنا [١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م] على مشارف ثلاثينات القرن العشرين ، والتي اصبحت اوسع حركات وتنظيمات الاصلاح الاسلامي انتشارا بعالمي العروبة والاسلام في عصرنا الحديث . ونحن نستطيع ان نرصد في « إسلام » هذا التيار عددا من الخصائص ، منها :

١ ـ ان [الاخوان المسلمين] ، كحركة إصلاح إسلامي ، لم يكن الاسلام عندها هو إسلام اهل المؤسسات الدينية التقليدية ، اولئك الذين ظلوا واقفين عند المتون والحواشي والتعليقات والتهميشات التي اثمرها عصر المماليك والعثمانيين . بل تقدم [الاخوان] خطوات ، فتجاوزوا فهم اهل هذه المؤسسات للاسلام .

٢ ـ لكن [الاخوان المسلمين] لم يبلغوا في فهمهم للاسلام وطرحهم الحلول الاسلامية لمشكلات العصر ما بلغته حركة [الجامعة الاسلامية] التي بلور فكرها الافغاني ومحمد عبده . فعقلانية تيار [الجامعة الاسلامية] لا نجدها عند [الاخوان] ، كما لا نجد عندها الجرأة في تناول القضايا ، ولا الحسم إذا ما عرضت لهم هذه القضايا . **وربما كان في مقدمة اسباب ذلك ان [الجامعة الاسلامية] لم تكن حزبا وتنظيما ينخرط فيه « العامة » وينهض بناؤه على « الجماهير » ، وإنما كانت حركة « صفوة » فكرية في الاساس ، فلذلك عرضت للمشكلات بجرأة ، وقدمت الحلول الحاسمة ، وسلكت لذلك سبيل العقل . وهي سبيل ان لا عمت « الصفوة » فقد لا تلائم « العامة » و « الجمهور »** . وتلك قضية لا تخطئها عين الباحث في المجتمعات المتخلفة ، وفي اية مرحلة من مراحل التاريخ . وفي تراثنا امثلة تشهد لذلك ، [فالمعتزلة] ، مثلا ، كانت تقل « شعبيتهم » ويتقلص « جمهورهم » كلما زادت قسمة الفكر «الفلسفي » في بنائهم النظري . ولذلك فإننا نستطيع ان نقول : **إنه إذا كان علماء الدين في المؤسسات التقليدية قد نهضوا بوظيفة « وعاظ السلاطين » فإن دعاة [الاخوان المسلمين] قد نهضوا بوظيفة « وعاظ العامة والجماهير » ، وغاب « الفكر » ـ بمعناه الخاص ـ من ساحتيهما .**

٣ ـ وكما لم يكن [الاخوان المسلمين] على مستوى فكر حركة [الجامعة الاسلامية] ، عمقا وجراة وحسما ورقيا ، فإنهم كذلك لم يكونوا ، متواضعين ، إلى المستوى الذي وقفت عنده [الوهابية] او [السنوسية] او [المهدية] ، وذلك لنشأتهم في المجتمع المصري ، الذي بلغ في التحضر والرقي مستويات لا تلائمها افكار دعوات جاءت لتلائم البداوة والبيئآت التي لا حاجة بها الى الفكر المركب ، والتي تستطيع حل مشكلاتها بظواهر النصوص .

لقد وقف تيار [الاخوان] ، فكريا ، بين بين . فلا هو بلغ « عقلانية » تيار الافغاني ومحمد عبده ، ولا هو تدنى إلى « بداوة » محمد بن عبد الوهاب . وبحكم نشأة هذا التيار وانتشاره في حقبة تعاظم فيها خطر حركة « التغريب » على عقيدة الامة وتمايزها الحضاري ، وبحكم تخلفه عن نهج مدرسة الافغاني ومحمد عبده ، الذي لم يكن يرفض النظر في الحضارات الاخرى ، بل ولا التسلح بأسلحة الاعداء لمنازلتهم بها . فلقد رفض [الاخوان] ، مع « العلمانية » ـ التي كان من حقهم بل وواجبهم رفضها ـ رفضوا مع « العلمانية » « **التمييز** » بين الدين والدولة ، فكانوا اقرب إلى دعاة « الدولة الدينية » على الرغم من قولهم بنيابة الحاكم عن الامة ، لانهم في النهاية ، يجردون الامة من

السلطات السياسية والتشريعية ، ويتحدثون عن « قانون إلهي » جاهز . لقد غدوا ، في هذه القضية - ودون وعي - « شيعة » يقولون « بالحكم بالحق الإلهي » ، رغم انهم « سنة » ، وليسوا « بشيعة » .

وفي قضية « القومية » اتسم فكرهم بالغموض ، بل وبالتناقض . فهم يرفضون « القومية » حينما يخلطون بينها وبين « العنصرية » ، ثم يؤيدونها عندما يرون الاسلام قومية تجمع كل الشعوب التي تتدين به . وفي « العروبة » كان موقفهم متسما بالايجابية ، فهم معها ومع جامعتها ، باعتبارها الخطوة الاولى والاكبر ، على طريق الوحدة والقومية الاسلامية . وباعتبار الشعب العربي اهم شعوب الاسلام واكثرها تميزا « فالعرب هم امة الاسلام وشعبه المتميز » ، والجامعة العربية تقربنا من الوحدة العربية ، التي تقربنا بدورها من الوحدة الاسلامية (٥٨) . ويزيد تناقض موقفهم من هذه القضية غياب الفكر النظري الذي يلتزمونه حيالها ، الامر الذي جعل لهم فيها آراء تتفق تمام الاتفاق مع ما يقول به اعداؤهم الالداء . فدعاة القومية العربية عند بعضهم هم « الشعوبيون العرب » . وهذه القومية هي « اعنف حرب على الاسلام والعروبة عرفها تاريخ الاسلام القديم والحديث » (٥٩) . وعلاقة المسلم المصري بمثيله المسلم المصري مساوية تماما لعلاقته بالمسلم في اندونيسيا ونيجيريا وتركستان (٦٠) . فلا اثر ، على الاطلاق ، للقوميات وقسماتها ! ...الامر الذي جعل هذا « الفكر » الذي لم يبصر سوى رابطة العقيدة الاسلامية ، والذي غفل عن الواقع - والقومية وقسماتها وفعالياتها بعض منه - يرى في العروبة ، بالمعنى القومي ، عنصرية ، على النحو الذي رآه الدكتور لويس عوض ، في الجدل الذي ثار حول عروبة مصر سنة ١٩٧٨ م (٦١) ، على ما بين الدكتور لويس ودوافعه ومنطلقاته وبين [الاخوان المسلمين] من ود مفقود .

اما القطاع الذي قدم « فكرا » يجسد تصوره للتغيير والاصلاح الاسلامي ، في حركة [الاخوان المسلمين] وفي نظائرها فإن عداءه للقومية عموما ، ولحركة القومية العربية بالذات كان شديدا وواضحا وحاسما .

● فأبو الاعلى المودودي [١٩٠٣ - ١٩٧٩ م] يرى القومية نقيضا « للدولة الفكرية » التي تمثل دولة الاسلام ، ويراها نقيضا للإسلام قد اصبح « دينا جديدا » يتدين به المسلمون القوميون ، يحول بينهم وبين النزعة « الإنسانية » ، ولا يراها دائرة اخص من الدائرة الإسلامية ، التي هي بدورها اخص من الدائرة الانسانية ، دون لزوم التعارض والتناقض بين هذه الدوائر ، بل يرى « انه ليس لعنصر القومية حظ في إيجاد دولة الاسلام الفكرية وتركيبها » (٦٢) . كما يرى ان « القومية تعني : ان يحل الشعب منزلة الالوهية ، ولا يكون للخير والشر من مقياس إلا مصالح الشعب وحده وترقيته وإعلاء

---

(٥٨) انظر دراسة : د . عاصم الدسوقي [فكرة القومية عند الاخوان المسلمين] مجلة [**افاق عربية**] العراقية عدد اكتوبر سنة ١٩٧٧ م .

(٥٩) د . محمد رشاد خليل [دعوى مصر العربية] مجلة [**الدعوة**] عدد جمادي الاولى ١٣٩٨ هـ ابريل سنة ١٩٧٨ م .

(٦٠) د . محمد رشاد خليل [شخصية مصر التاريخية] مجلة [**الدعوة**] عدد ربيع الثاني سنة ١٣٩٨هـ مارس سنة ١٩٧٨ م .

(٦١) انظر آراء الدكتور لويس في [**السياسة الدولية**] عددي ٥٣ - يوليو سنة ١٩٧٨ م - و ٥٤ - اكتوبر سنة ١٩٧٨م .

(٦٢) المودودي [**نظرية الاسلام السياسية**] ص ٧١ ، ٧٥ طبعة بيروت - ضمن مجموعة عنوانها [نظرية الاسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور] سنة ١٩٦٩ م .

كلمته » (٦٣) ـ وهذه اهداف « قومية » يراها المودودي شركا بالله وكفرا بالاسلام .

● **وصنو المودودي** : **سيد قطب** [١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م] ـ في الفكر الذي انتهى إليه اواخر حياته ، وخاصة في كتابه [معالم الطريق] ـ يرى « القومية » بعامة ، والقومية العربية بخاصة احد الاصنام والطواغيت ، مثلها في ذلك مثل الاشتراكية والوطنية ، لا بد من تحطيمها حتى نخلص التوحيد والعبودية لله .

● **وابو الحسن الندوى** [١٩١٣ م ـ] يرى ، هو الاخر ، في القومية نبتا اوروبيا لا دينيا ، وينكر ان يكون لها مكان في فكر الاسلام وعالمه ، « فالاسلام قد قسم العالم البشري الى قسمين فقط : اولياء الله ، واولياء الشيطان » (٦٤) . ولا مكان فيه للقومية وروابطها . هكذا على الاطلاق ، ودون تمييز بين القوميات التي تذكي نضال الامم في سبيل الحق والعدل ، وتلك التي يطفح مضمونها ومحتواها بالتعصب والعدوان والاستعلاء .

● **وسعيد حوى** يخفف نقد « القومية » ، من حيث المبدأ ، ولا يرى بها او بالوطنية بأسا إذا كانت رباطا يربط الوطن وأهله بالاسلام (٦٥) . ولكنه ينتقد حركة القومية العربية وفصائلها نقدا شديدا ، ويراها مسئولة عن تمزيق المجتمع ، مفلسة في الفكر ، تحارب الاسلام في مكر وإصرار (٦٦) .

وبالطبع فإن عداء هذا القطاع من قطاعات « الاسلام : المعاصر » « للعلمانية » واضح وحاسم وشديد ، لا مهادنة فيه ولا لبس ولا غموض .

هكذا نظر الاسلام الى « العروبة » و « القومية العربية » وإلى « العلمانية » « الاسلام الدين » و « الاسلام الحضارة » و « الاسلام التاريخ » ثم « الاسلام المعاصر » . وإذا نحن شئنا تقويما يضع « الاسلام المعاصر » في مكانه الحق من الصور والابنية التي اتخذها وتجلى فيها « الاسلام » عبر تاريخه ، الذي دخل الان قرنه الخامس عشر ، فاننا نستطيع ان نقول : إن تيار [الجامعة الاسلامية] الذي اسسه جمال الدين الافغاني ومحمد عبده قد قدم اكثر تصورات العصر دقة للإسلام ، الإسلام الذي يقتحم مشكلات العصر باحثا عن حلولها . وهو في ذات الوقت الامتداد المتطور والمتجدد « للاسلام الدين » و « للإسلام الحضارة » مطبقا على مشكلات العصر ومستجيبا لها . اما تيار المؤسسات الدينية الرسمية والتقليدية ، الذي يقوده « وعاظ السلاطين والامراء » وكذلك تيار [جماعة الاخوان المسلمين] ، الذي يقوده « وعاظ العامة والجماهير » فإنه ـ على الرغم من الفروق الجوهرية بين فرعيه هذين ـ فلقد ظل الصورة العصرية « للإسلام التاريخ » ، إسلام واقع القرون التي تراجعت فيها عظمة الإسلام وتوقفت حضارته عن النمو والعطاء . ينطبق ذلك على موقف هذين التيارين من القضايا التي عرضنا لها ، وايضا على غيرها من القضايا والمشكلات .

---

(٦٣) المودودي [**واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم**] ص ١٥٢ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .
(٦٤) الندوي [**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**] ص ٢٠٤ . طبعة بيروت سنة ١٩٦٥ م .
(٦٥) سعيد حوى [**الاسلام**] ج ٢ ص ٦٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .
(٦٦) سعيد حوى [**من اجل خطوة إلى الامام على طريق الجهاد المبارك**] ص ٦٠ ـ ٦٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩

الماركسية والدين والثورة :
اطروحات عامة

د . فيصل دراج

باحث في الفلسفة والفكر والادب

الحديث بالماركسية والدين والثورة هو الحديث بعلاقة كل من الماركسية والدين بالثورة الاجتماعية . فالماركسية نظرية علمية ومقال سياسي يدعو الى الثورة . والدين مقال اخلاقي ذو اثر سياسي يطمح الى الاصلاح الاجتماعي . مقالان متمايزان لا يفصحان عن معناهما الحقيقي الا في حقل الممارسات الاجتماعية ، لان قراءة الماركسية كنظرية ، وقراءة الدين كنسق من المعايير والقيم ، لا يمكن ان تتم في النصوص المجردة بل في دور هذه النصوص في انتاج فكر وممارسة تعيد تشكيل علاقات المجتمع .

تقول الماركسية إنها نظرية الثورة الاجتماعية ، ومنهج لبناء عالم جديد وحضارة جديدة : مجتمع بلا طبقات . ويقول الكتاب الديني إنه رسول المحبة والاخوة الانسانية : مجتمع العدالة والايمان . وهكذا يبدأ القول من الواقع او من السماء ، لكنه لا يلبث ان يصل « بعد حين » إلى حقل المجتمع كي يجسّد قوله الاول ، ويستحيل الى قول سياسي . لكن القول هو برهنته وتحققه التاريخي ، وقدرته على ربط النظر والعمل فيه في علاقات المجتمع اليومية .

الوضع التاريخي للنظرية الماركسية

انتجت النظرية الماركسية ثورة في الفلسفة قبل ان تتحقق في الثورة الاجتماعية . فالماركسية غيرت وضع الفلسفة ، واستبدلت اسئلتها الاولى بأسئلة جديدة ، وفي تغيير الاسئلة انتجت الماركسية ثورتها النظرية . جعلت السؤال واقعه التاريخي ، فعملت على تغيير الواقع بعد ان غيّرت السؤال .

كانت الفلسفة في زمن ما قبل الماركسية نسق افكار مجردا ، يبدأ من الفكر ويعود اليه ، فيراكم الافكار التأملية دون ان يغادر حدود البداية الاولى او حدود « العودة » النهائية . واستمر البدء الفلسفي حتى اصبحت الفلسفة نظيرا للقول التأملي المتعالي والباحث عن اسئلة الروح والزمن واللامتناهي . اي ان هذه الفلسفة لم تكتسب مقامها « النظري » وسمتها الفكرية الا كنسق فكري مجرد مغاير للواقع ومواز له . وفي فراق الواقع وجدت الفلسفة علوها وتعاليها ، وفي البحث عن التعالي تلاشى الواقع من رحاب الفلسفة ، فاستمرت كلعبة افكار ، او كترداد للاسئلة الخالدة . واذا سحبنا القول من علياء الفلسفة التأملية الى دنيا الواقع نستطيع القول : ان الفلسفة التأملية في تاريخها فصلت

النظر عن العمل والغت معيار الحقيقة لانها جعلت في تأملها هذا المعيار قائما في دورة الافكار وفي جدل الاسئلة والاجوبة التي لا تمس الواقع .

لهذا لم يكن مستغربا ان يبدأ ماركس مساره الفلسفي الحقيقي بنقض سؤال الفلسفة الاول الذي يفصل بين حركة الفكر وحركة الواقع . يقول ماركس في اطروحته الحادية عشرة حول فيورباخ :

« لم يقم الفلاسفة الا بتأويل العالم بطرق مختلفة ، مع ان المطلوب هو تغييره » تأسس هذه الاطروحة طريقا جديدا في تعامل الفلسفة مع العالم ، وفي شكل العلاقة التي تربط بين الفكر والواقع . وفي هذه الحال فان بحث الفلسفة لا ينزع الى تغيير العالم فحسب بل ينزع ايضا الى تغيير وضع الفلسفة لانها في علاقاتها مع الواقع تقف باستمرار امام اسئلة جديدة وتبحث باستمرار عن اجابات هذه الاسئلة . وهكذا انتقلت الفلسفة من وضع الى وضع ، وفي هذا الانتقال انكسرت اسئلة الفلسفة الاولى ، واستبدلت بها اسئلة جديدة .

إذا كانت الفلسفة الاولى نسقا مغلقا من الاسئلة مكتفيا بذاته ، فإن فلسفة ماركس في حركتها الغت مفهوم النسق واستبدلته بجملة اطروحات غير مغلقة ، لان إغلاق الاسئلة يعني إسكات الواقع والغاء حركته التي ترفض في مسارها المتجدد كل ثبات او جمود . وهذا يعني ان نفي الماركسية للفلسفات الميتافيزيائية لا يتم في حقل حوار الافكار التأملي بل يتم باسم الواقع وحركته ومقاله المشخص . وانطلاقا من هذا الواقع وحركته انتجت الماركسية مفاهيمها الاساسية : اسبقية المادة على الفكر ، جدل الفكر والممارسة ، الممارسة كمعيار للحقيقة .. إن ربط الفكر بالواقع ، يجعل هذا الفكر يبحث عن اسئلة الواقع ، ويتجدد هذه الاسئلة المتجددة يتجدد وضع الفلسفة ، لان حركة الواقع هي حركة بحثها النظري من اجل العثور على اسئلة الواقع .

إذا كان تجدد الفلسفة هو حركتها في البحث عن اسئلة الواقع ، فإن هذا التجدد لا يرمي الى انجاز بناء الفلسفة واعادتها من جديد الى فضائـها المغلق بعد اعادة ترتيب علاقاته الاولى ، بل يرمي الى شيء آخر . يرمي إلى هدم الفلسفة بعد تحققها تاريخيا ، اي يهدف الى جعلها اداة صحيحة قادرة على تحويل العالم ، وفي هذا التحويل المتجدد تتحقق الفلسفة وتنتهي علما بأن كل تحقق هو نسبي بالضرورة . وتحقق الفلسفة هو تثوير العالم . ثورية الماركسية إذن هي نزوعها الماثل في بنائها النظري الى الثورة الاجتماعية . وهكذا تبدأ الماركسية بجديد القول كي تصل في مساحة التاريخ الى جديد الفعل : تبدأ من الثورة النظرية لتصل الى الثورة الاجتماعية وتعيد بناء ثورتها النظرية من جديد ، اي تتحقق في ديالكتيك النظرية والممارسة .

في ديالكتيك النظرية والممارسة تتحدد الماركسية كنظرية معرفية وكنظرية في السياسة وللسياسة ، او بشكل ادق ، إن الماركسية لم تأخذ مقامها النظري إلا كفلسفة عملية ، ذات اثر سياسي ، بل يمكن ان نقول : إن الماركسية في حقلها النظري العام انتجت وتنتج علم اصول السياسة ، اي قيادة عملية الصراع الطبقي في الممارسات الاجتماعية الشاملة ، وهي كذلك لانها في نظريتها تقوم بحل المسائل التي تطرحها باطراد السيرورة التاريخية . معنى ذلك وببساطة ان الفعل السياسي هو امتداد لفعل المعرفة ، ومسار الممارسة ليس خارجيا عن المعرفة بل قائم فيها كوحدة ديالكتيكية .

إذا اردنا ان ندفع بالسؤال الى وضوح اكثر ينبغي ان نضيف قولا جديدا الى ما سبق . وقولنا هذا يتمحور حول طبقية الماركسية ، تحزبها ، سمتها الطبقية . من اين تبدأ اجتماعيا والى ماذا ترمي اجتماعيا ايضا . تقول الماركسية إن الافكار في الممارسة تصبح قوة مادية ، لكن الممارسة اجتماعية

ابدا ، تقوم بها طبقات اجتماعية محددة . لهذا فإن الماركسية في بعدها المعرفة تتحرك كفلسفة للطبقة العاملة ، بدأت وتبدأ من الوضع التاريخي لهذه الطبقة ، كي تعطيها سلاحا نظريا - سياسيا يوصلها الى هدم العلاقات الاستغلالية في المجتمع وبناء مجتمع بلا استغلال .

وبشكل عام ، فإن الماركسية في تاريخها جاءت كإعادة تركيب لجماع المعرفة التاريخية من ناحية ، وجاءت ايضا كتعبير عن تغير جديد في التاريخ من ناحية ثانية . إنها فلسفة الطبقة العاملة التي انتجتها الثورة الراسمالية ، اي انها انتجت واعادت انتاج الفلسفة كي تجعل منها اداة تدخل معرفي وسياسي يسمح في شروط معينة بانتاج الثورة الاجتماعية .

الوضع التاريخي للدين

إذا كانت الماركسية فلسفة الطبقة العاملة والطبقات المستغلة في زمن نهوض الرأسمالية والامبريالية ، فإن الدين من حيث هو رسالة سماوية سابق لها في الزمان ومغاير لها في اكثر من دلالة . لن نقوم هنا بمقارنة المقولات والمفاهيم ، بل سنذكر فقط ببعض نقاط الاختلاف كي نعود في النهاية فنرى امكانية الفراق او التلاقي بين الماركسية والدين في حقل الممارسات الاجتماعية المشخصة .

الدين رسالة إلهية ، والماركسية معرفة بشرية ، ومن اختلاف الالهي والانساني يأخذ الدين صفة التقديس والثبات ، وتأخذ الماركسية صفة « الدنيوي » والمتغيّر . يبدأ الدين في قوله من نسقه الفكري العام الذي ينفتح وينتهي على مقولة الجوهر . والجوهر هو الكل الثابت الذي لا يخضع في كيفه الى التحوّل ، ولا يخضع في خصائصه إلى الزمان والمكان .

وإذا كانت بداية الدين هي الجوهر ، فإن هذه البداية لا تلبث ان تعيد ذاتها بأشكال اخرى خالقة سلسلة من الجواهر قائمة في الضرورة في الجوهر الاول . ومن الجوهر الالهي الخالق في السماء يولد الانسان على الارض كجوهر ، كما تولد في الوقت ذاته جملة علاقات تحكم علاقة الالهي بالانساني ، والسماوي بالارضي . وتولّد ايضا علاقة الاختلاف بين المتناهي واللامتناهي ، بين الناقص والكامل ، وعلاقة التقديس التي تحكم موقف الانسان من الاله وتعاليمه .

لما كان جوهر الالهي هو الثبات ، فإن نسق الافكار الدينية في « حركته » يظل رهينا للجوهر الاول ، يطمح الى رفع كلمة الاله ، ونشر كلمته على الارض . وانطلاقا من فكرة الجوهر الديني ، او من تأويل معين لها ، ينزع الفكر الديني بشكل عام - يستثنى من ذلك بالطبع حالات عدّة - إلى الاقتراب من الفلسفة بشكلها الاصلي ، اي ينزع الى تسكين الاسئلة ، كما ينزع الى استعادة اسئلة الفلسفة المهتمة بالروح والزمن واللاتناهي .

من جوهر التقديس والثبات نصل إلى جوهر آخر : وضع الانسان في النسق الديني . فالدين لا يرى في الانسان علاقة اجتماعية - تاريخية بل يراه كذات موزّعة بين الخير والشر . وإذا كان الخير والشر عنصرين سرمديين على سطح الارض فإن حركة الانسان في مفهومها الديني لن تكون الا صراعه الابدي مع الخير والشر . وهذا يعني ان الدين في مقاله المجرد يتعامل مع اخلاق الانسان وسلوكه المجردين دون ان يربطهما بالوضع التاريخي والاجتماعي لهذا الانسان .

إن قراءة ما سبق توصلنا الى نقطتين من نقاط التمايز بين الماركسية والدين . الماركسية تتعامل مع الواقع في حركته وتطوره ، وتدرس مستوى التطور وسمات تميّزه وخصوصيته ، اما الدين فيتعامل

مع كونية الانسان في سكونها وشكلها الذي لا يتغير ابدا ، يضاف الى ذلك ان الماركسية تلغي من مقالها معيار الاطلاقية والتجريد الكلي ، فهي ترى في الانسان علاقة اجتماعية ، وتتعامل مع هذا الانسان عبر توسطات علاقات الانتاج ومدى تطورها .

نصل بعد ذلك الى نقطة جوهرية في معناها الاجتماعي وارتباطها بمفهوم الصراع الاجتماعي . إذا كانت الماركسية تنطلق في تحليلها من شرط اجتماعي معطى اقتصاديا ، فمعنى ذلك انها تنطلق من تمايز الطبقات في هذا المجتمع واشكال صراعها . إنها تنطلق دائما من مفهوم الطبقة ، اما الدين فيعتمد ـ كما قلنا ـ مفهوم الفرد المجرد . لهذا تقول الماركسية بالصراع الطبقي في مستوياته الثلاثة الاقتصادية ، السياسية ، والايديولوجية . ترى في المجتمع طبقات متصارعة بين من يملك وسائل الانتاج والعامل لديه . بين المستغلين والمستغلين ، اي انها في قسمتها للمجتمع تعتمد العامل الاقتصادي . والعلاقة بين علاقات الانتاج والقوى المنتجة . اما الدين فإنه يستبدل صراع الطبقات، بصراع الخير والشر ، او بصراع المؤمنين وغير المؤمنين . وبالتالي فإن قسمته تأخذ موقف الانسان من الاله اساسا ، ومن التعاليم الدينية قاعدة . معنى هذا انها تقسم المجتمع الى حزبين ، حزب الله ، وحزب الضلالة .

تدفع الماركسية الانسان الى تغيير واقعه وتغيير ذاته خلال عمله على تغيير الواقع ، وتحمله على إعادة تنظيم قواه كي يحقق مشروع المساواة الانسانية في رحاب التاريخ الارضي . اما الدين فيطلب من الانسان ان يغير ذاته في ذاته ، ويطلب منه ايضا تغيير الواقع بما يتحاشى مع خير الانسان ، لكنه يقذف بمشروع الانسان الحقيقي الى السماء ، لان علاقة الانسان الجوهرية هي علاقته بربه الذي يقرر درجة الثواب او العقاب .

وكما نرى فإن المقال الماركسي في خصائصه الجوهرية هو مقال سياسي اولا ، يبدأ بالسياسة وينتهي بها كي يمهّد للثورة الاجتماعية التي تحطم كل علاقات الاستغلال بكل اشكالها . اما المقال الديني فهو مقال اخلاقي ينزع الى تغيير النفوس قبل تغيير الواقع ، اي انه مقال إصلاحي مستمر يسعى الى مجتمع الخير والعدالة دون ان يطالب بتدمير كل العلاقات الاجتماعية المسيطرة . إن اولوية القول الاخلاقي في المقال الديني تحدّ من إمكانية التحالفات الاجتماعية القادرة على تغيير بنيّة المجتمع ، لان هذه التحالفات تظل محكومة بمعيار الايمان والدفاع عن المقدّس .

وهكذا فإن طبقية الماركسية ، توصل ـ نظريا ـ الى الثورة ، ولا طبقية الدين توصل الى الاصلاح . تصف المقولات السابقة الدين في جوهره العام . دون ان تزعم انها تطبقه على كل الديانات مثل الاسلام والمسيحية فقد عرفت هذه الاديان اطوارا مختلفة في تاريخها جعلتها تعيش الثورة والاصلاح ، كما جعلتها تعيش الركود والسديم .

الافكار وصراع النزوعات

إذا كانت مصداقية الفكر لا تقوم في اتساق علاقاته انداخلية ، فمعنى ذلك ان هناك سياقا آخر يختبر هذه المصداقية . والسياق الذي يختبر الفكر فيه ذاته هو السياق الاجتماعي ، او كما نقول حقل الممارسات الاجتماعية . ففي هذه الممارسات لا يعيد الفكر إنتاج ذاته فحسب بل يكتسب ـ احيانا ـ دلالة « جديدة » لم تكن قائمة في بنيته النظرية الاولى . والسياق الاجتماعي هو جملة الطبقات التي تحدد سمته في صراعها المستمر المتعدد الابعاد ، الذي يتضمن السياسة والاقتصاد والفكر . وهذا

يعني ان الفكر في « نقائه » الشامل لا وجود له ، لانه باستمرار موضوع تأويل وشرح ونقد وتحريف . اي ان الفكر في كل اشكاله هو موضوع للصراع الطبقي ، فكل طبقة تعيد إنتاجه بالشكل الذي يخدم مصلحتها ودورها في العلاقات الاجتماعية .

صراع النزوعات ، إذن ، هو الصراع الطبقي في الفكر ، لان الفكر لا وجود له إلا في دورة الصراع الاجتماعي . وهذا يعني ان النص النظري ، ماركسيا كان ام دينيا ، لا وجود له في موضوعيته الكاملة لان موضوعيته هي موضوعية او ذاتية الطبقة التي تقرأه . وهكذا يصبح الفكر موضع صراع بين طبقتين متنازعتين : الاولى تدافع عنه ، والاخرى ترمي الى هدمه . لكن تأويل الفكر وتحميله اوجها لا يحتملها لا يتم فقط في حقل الصراع بين طبقتين ، بل يتم ايضا في حقل ذات الطبقة . فإذا رجعنا الى موضوعنا ، اي الماركسية والدين ، وطبقنا عليه اطروحة صراع النزوعات في الفكر نستطيع القول : إن هناك اكثر من ماركسية واكثر من دين ، هناك ماركسيات واديان . وإذا كان « النص حمال اوجه » فإن النص يتمدد ليصبح عدد قراءاته . لهذا استحالت « الماركسية الاولى » إلى ماركسيات متعددة سواء على صعيد النظر ام على صعيد العمل . على مستوى النظر او النظرية عرفت الماركسية تأويلات عديدة . فقد ارجعها البعض الى نص انسانوي يتابع تقاليد عصر التنوير دون ان يقلب اسئلتها ، اي جعلها فلسفة تعتمد مقولة الفرد ونزوعاته الاخلاقية . اما البعض الآخر فقد ارجع الماركسية الى حتمية اقتصادية صارمة تلغي دور الانسان من المجتمع والتاريخ . كما ناضل فريق ثالث لابقاء الماركسية في حقل تميزها النظري التاريخي وطرد منها « كل » آثار التحريف و « الهرطقة » . وإذا كان العمل مرتبطا بالنظر ، فإن الماركسية في ممارستها عاشت تحققها وعاشت ضياع هذا التحقق ايضا . عاشت ثورة اكتوبر ومأساة ستالين ، وعرفت في طريقها اللاملكي الثورة الفيتنامية ومجاز « بول بوت » في كمبوديا .

وكما تنقض بعض اشكال الممارسة « المنتسبة » إلى الماركسية دلالة الماركسية النظرية ، فإن بعض تأويلات الدين وممارساته تنقله من مستوى « التنوير » إلى مستوى « الاظلام » . لان الدين شأنه شأن كل نسق فكري لا يرى في جوهره إلا في علاقات المجتمع .

يقود ربط الدين بالمجتمع الى ربطه بالضرورة بالتاريخ ، وربطه بالتاريخ يعني دراسة اثره في التغييرات الاجتماعية ودراسة اثر هذه التغييرات في معنى الدين ووظيفته ووضعه الاجتماعي . وإذا اردنا دفع القول إلى مرتبة اكثر وضوحا نصل الى علاقة الدين بالدولة ، او إلى علاقة شكل معين من الدين بشكل معين من السلطة السياسية . وهذه العلاقة توضح ذاتها في كل مكان وزمان ، فقد كان الدين ولا يزال قادرا على التدخل في الحياة السياسية من اجل دعم نظام معين او إسقاطه . وهذا يعني اننا لا نستطيع دراسة الدين بطريقة سكونية كما لو كان « ملاذا للروح » او تيارا فكريا خارج الحياة الاجتماعية ، ودراسة الدين في التاريخ تنفي الطريقة السكونية ، وتفرض مكانها طريقة دينامية تماثل دينامية دور الدين الاجتماعي في التاريخ ، فقد عرف الدين فترات هيمنة وفترات انحسار . كان تارة شكلا مهيمنا يحدد الايديولوجية العملية والنظرية . ويفرض شكل السلطة السياسية ، وعرف اطوارا اخرى بلا دلالة . لكن دوره في هيمنته اوانحساره لم يكن يتجدد به بل بشكل الحركة الاجتماعية في زمانه ، وبالتالي فإن دور الدين في العصور الوسطى يختلف عنه في عصر النهضة وظهور البرجوازية .

إذا كان دور الدين في المجتمع والتاريخ يتحدد خلال علاقته بالدولة ، فإن دلالة الدين ودوره يتغيران وفقا لشكل الدولة ، اي وفقا لطبيعة التحالف الطبقي الذي تمثل هذه الدولة مصالحه . فعندما

يدعم الدين سلطة مستغلة قمعية فإن التأويل الديني يتدخل كي ينتج نصوصا تدعم هذه السلطة ، وعندما يدعم الدين حركة تحرر وطنية او سلطة ديمقراطية فإن التأويل الديني يجد لنفسه مكانا كي يوافق بين النص والواقع . وهنا ينبغي ان نفصل بين النص الديني واستعمالاته السياسية . نقول « ينبغي » لان النص الديني في ذاته لم يتحقق إلا في فترات قليلة في التاريخ . فالدين في مقاله العام يدعو بلا شك الى مجموع من القيم الانسانية الايجابية : التساعد والتآزر والتآخي والرحمة ... ، لكن هذا المقال الاخلاقي العام كان يغيب في استرجاع السلطة السياسية للدين ، وتسخيره من اجل مصالحها الطبقية . لهذا فإن تاريخ الدين هو تاريخ السلطة السياسية التي استرجعته ، واعادت صياغته من جديد كي يكون قادرا على تبرير ممارساتها الاجتماعية .تطرح علاقة الدين بالسلطة في التاريخ سؤالا اجاب عنه التاريخ ولا يزال . لقد كان تاريخ البشرية ، ولا يزال ، تاريخ قمع واستغلال ، وفضاء هيمنة طبقية كاسرة ، لا تتوارى إلا لتترك وراءها هيمنة من شكل جديد ، اشد استغلالا واكثر قمعا . مع ذلك لم يكن الدين غائبا ، بل كان حاضرا وفاعلا في إنتاج واعادة انتاج السلطة الطبقية . اكثر من ذلك فهذه السلطة كانت تبرر ممارساتها بالعودة الى النصوص الدينية ، وتماثل بين مصالحها وتعاليم الدين ، اي انها كانت لا ترى في الدين إلا وشاحا تخفي وراءه وجهها القمعي . إن غياب الدين وحضوره في التاريخ يقودنا إلى التأكيد على امرين :

ا ـ كانت السلطة الطبقية تستغل الشعب باسم الدين ، ومن اجل تبرير هذا الاستغلال كان المثقفون العضويون لهذه السلطة ينتجون شكلا معينا من الدين . وبسبب هذا الانتاج وفيه كان الدين يتحول الى ايديولوجيا رسمية هي ايديولوجيا الطبقة المسيطرة . اي ان الدين في شكل علاقته مع السلطة كان يفارق مقامه الاخلاقي ليصبح ايديولوجيا سلطوية .

ب ـ إن فراق السلطة الطبقية مع الشعب ، جعل هذا الشعب المستغل يفارق دين الدولة ويجد لنفسه تأويلا معينا للدين يصون نقاءه ويبعد عنه سمة التبرير . ومهما كانت علاقات التمايز والاختلاف والتماثل بين معنى الدين لدى الشعب ومعناه لدى السلطة ، فإن هذه العلاقات تشير بشكل واع او غير واع الى الصراع الطبقي في الدين والذي يعطي في النهاية دين الفقراء ودين الاغنياء .

وهكذا فإن تعددية التأويل في المقال الفكري لا تعود فحسب الى تعددية مستويات هذا المقال ، بل تعود بشكل اساسي الى صراع النزوعات ، اي الى صراع المصالح الطبقية من حيث علاقتها بهذا المقال

الممارسة معيار الحقيقة.

إذا كان اثر الفكر في الحياة الاجتماعية ، سلبا او إيجابا ، هو الذي يحدد مضمون هذا الفكر ودوره في التاريخ ، فإننا نجد انفسنا « ملزمين » بدراسة الفكر في حركته الاجتماعية . وانطلاقا من هذه الحركة ودروس تاريخها نعتمد اطروحة اساسية ونقول : الممارسة هي معيار الحقيقة .

ننطلق من هذه الاطروحة لنحاكم الاطروحة السابقة التي تقول بـ « صراع النزوعات في الفكر » اي اننا سنحاول تلمس شكل النزوعات في الدين والماركسية واشكال تحققها او قصورها . قلنا إن كلا من الدين والماركسية خاضع في حركته لحركة الصراع الطبقي فيه . هناك النص الماركسي في ذاته واشكال شرحه ، وهناك النص الديني في ذاته وتأويلاته . وهناك ايضا الممارسات الماركسية والدينية في اشكالها السياسية الصحيحة والخاطئة . ولكن هل يعني صراع النزوعات في الفكرين

تماثلهما ؟ . يكمن الجواب في شكل البناء الفكري لكل من الدين والماركسية ، وفي اشكال تحققهما الاجتماعي وتاريخ هذا التحقق .

إن التمايز النظري بين المقال الماركسي والمقال الديني والزمن التاريخي لتحقق هذين المقالين يعكس نفسه بالضرورة في اشكال التحريف في كل منهما . فتمايز المقالين هو ، إذن ، تمايز الصراع فيهما . لنر كيف يكون ذلك :

جاءت الماركسية لتتويج فاعل للمعرفة في زمانها ، فقد استلهمت في بدايتها فلسفة عصر التنوير ، واسترجعت كل اشكال الفلسفة العقلانية بعد ان اعادت صياغتها . ومن هذا التراث وخارجه رفعت الماركسية راية الانسان وحريته ، ودافعت عن القيم العقلانية ، وهاجمت كل اشكال الاظلامية واضطهاد الانسان . ومن دراسة التاريخ وفيه انتجت الماركسية نظريتها المعرفية وعلم التاريخ واستشرفت « مملكة الحرية » كنقيض « لملكة الضرورة » . وإذا كانت هذه سمات المقال الماركسي « الاول » ، فإن نضالات الطبقة العاملة المتجددة رفدت ولا تزال هذه المقال وطورته ، وجعلته يلازم في بعده المعرفي ابعاد الحركة التاريخية ، بحيث يمكن ان نقول :ان تطور النظرية الماركسية من حيث هي نظرية هو تطور الوضع العام للطبقات المستغلة في التاريخ المعاصر . انطلاقا من هذا الوضع المعرفي فإن صراع النزوعات في الماركسية لا يمكن ان ينقلها من « وضع عقلاني » إلى وضع إظلامي مناهض للانسان والتقدم . اما على المستوى التطبيقي فقد عرفت الماركسية ، ولا تزال ، إخفاقات ومآسي. لكن هذه الاخفاقات والمآسي استطاعت ، في التحديد الاخير ، دفع حركة المجتمع الى الامام . يضاف إلى ذلك عنصر هام يتمثل في الطبقة العاملة التي تلتزم بالماركسية منهجا . فهذه الطبقة في نضالها المستمر من اجل التحرر قادرة على تصحيح مسار النظرية في مستوييها النظري والعملي .

إذا رجعنا الى الدين ودرسناه في مقامه التاريخي وحدوده الفكرية نجد انه كان ولا يزال قابلا لتأويلات عديدة ، تجعل منه قوة إظلامية تبشر بالقدرية واللاعقلانية . وتعود هذه القابلية الى سببين : السبب الاول هو طول الفترة التاريخية التي استعملت فيه القوى الطبقية المستغلة الدين ، وكمية التشويهات والتحريفات التي دخلت الى جسمه النظري ، حتى اصبح بحاجة الى قراءة جديدة تعيد إليه سمته الاولى ونزوعه العام الى العدالة والمساواة . اما السبب الثاني فيعود إلى « الفلسفات الاظلامية » التي تحاول استرجاع الدين وتسخيره لاغراضها انطلاقا من فكرة الجوهر التي تحكم المقال الديني .

إن قراءة الدين الايجابية ، اي قراءة سماته الدافعة عن الحرية والتحرر ، لا يمكن ان تتم الا في الفترات التاريخية التي كان فيها الدين دينا للشعب ، ودينا سلطويا مدافعا عن الشعب ، كما هو الحال في زمن المسيحية البدائية وزمن الخلفاء الراشدين . ومنذ تلك الفترة وحتى الآن لا يزال الدين في دلالاته الانسانية العميقة يبحث عن قوى سياسية منظمة ترفع رايته . قوى ترى في الدين قوة روحية وثورة اجتماعيةتتجاوز القسمة المضللة : حزب المؤمنين وحزب الضالين .

واخيرا هل تلتقي الماركسية بالدين ؟ يقول الجواب إنهما يلتقيان ويتمايزان . يتمايزان في بنائهما وتاريخهما . ويلتقيان من وجهة نظر الثورة الاجتماعية ، اي من وجهة نظر الطموح العام لتحقيق مجتمع جديد يدافع عن الحرية والمساواة الاجتماعية .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

تقدم

سلسلة قصص تاريخ العرب والاسلام

(محمد رسول الله)

١ ــ اليتيم
٢ ــ الأمين
٣ ــ الرسول
٤ ــ المهاجر
٥ ــ الفاتح
٦ ــ الخليفة الأول . ابو بكر الصديق
٧ ــ الخليفة الثاني . عمر بن الخطاب (في جزئين)
٨ ــ عثمان بن عفان
٩ ــ علي بن ابي طالب (في جزئين)
١٠ ــ خالد بن الوليد (في جزئين)
١١ ــ الحسين بن علي
١٢ ــ ابو عبيدة بن الجراح
١٣ ــ عمرو بن العاص

اعداد : محمود سالم
رسوم : حلمي التوني

المسار الوطني الديموقراطي للتراث الثقافي اللبناني

منح الصلح

مفكر وباحث وحدوي . ومن قادة الحركة الوطنية في لبنان

ان الحرب الفعلية التي عشناها منذ ١٩٧٥ والتي لا نزال نعيشها هي في واحد من اهم اسبابها بنت رفض مدبريها للمسار الوطني والديمقراطي للثقافة في لبنان . فقد كانت اوساط لبنانية وعربية ودولية تشعر ان الثقافة في هذا البلد تتخذ اكثر فأكثر وبشكل حاسم وجهة وطنية وديمقراطية صريحة ، وان العقل اللبناني يسير نحو التوحد حول مبادئ مناقضة لمصالح ومفاهيم قائمة في لبنان والبلاد العربية . فكل ما هو غير وطني وغير ديمقراطي في الداخل وفي المحيط القومي بات مهدداً بالانهيار بفعل التحرر المنبعث بصورة اقوى فأقوى من مؤسسة ديمقراطية لبنانية تعمل بنشاط وتتقدم باستمرار فتزداد متانة في الداخل واثرا في الخارج .

لقد نشرت الثقافة الوطنية اللبنانية المشعة عبر المؤسسة الديمقراطية نهارا في لبنان كله ، وفي المنطقة العربية كلها ، فاصبح يستحيل على قوى الرجعية ان تتحرك ، وعلى قوى الطغيان ان تستفرد الناس وقوى الفساد ان تمعن . فالمعتدي على الحق في النهار مرتبك اليد ، وسارق الليل طليقها . ومسح وجه الحرية وجه كل مناضل لبناني وعربي بالسحر ، واحاط كل بندقية حق باللمعان ، وجعل من كل قضية في لبنان او اي بلد عربي قضية عربية وعالمية ، لا يمكن الحاق الهزيمة بها من غير ان يشعر كل حر انه قد هزم معها . فظهرت هكذا الطبيعة الحقيقية لوظيفة ثقافتنا الوطنية الديمقراطية في مرحلة تاريخية معينة وهي ان تنقل المبادرة داخليا وخارجيا على طول المنطقة العربية وعرضها الى يد القوى الوطنية والقومية المناضلة للتحرر والتقدم والوحدة . وكان ذلك ، بلا شك ، من اسباب الحرب ، فهذه الحرب هي ، من بعض وجوهها ، عملية انقلاب على التطور الحيوي الذي كانت تسير فيه الثقافة في لبنان .

-الا انه من الموكد ان هذه الحرب ما كانت لتتصاعد فتنتهي بان تصبح مربكة للعرب كلهم بدون استثناء لو كان هناك استيعاب من جميع العرب لحقيقة دور الفكر في لبنان ، اذ ما ضر ان ترتفع على هذه الارض اللبنانية ، المتفتحة منذ زمن بعيد لتيارات فكرية وحضارية متنوعة والمختبرة لانواع متعددة من الحياة اصوات حرة ، متقدمة او محافظة ، ثورية او ليبرالية ، تسجل على العرب تخلفا في السير او تسرعا ، تخاذلا او تهورا ، تورطا او تزمتا ، بل ما ضر ان يلعب الفكر في هذا البلد بالنسبة

للقضية العربية ككل الدور الذى تلعبه المعارضة البناءة في الدولة الديمقراطية ، اي دور المنبه للخطأ ، المذكر بالنقص ، المحذر من العثرات ، الناظر الى الموضوع من زواياه المختلفة ، المتمسك ابدا بالمقاييس الملتزم دائما بها ؟

والمخاطبة الفكرية الواعية اللبنانية والعربية لجميع اللبنانيين دون استثناء واجبة لفصل الانعزالي العفوي البريء في انعزاليته عن الانعزالي المرضي والمتامر . فبعض ابرياء نزعة الانعزال يخشى يتما في وجه امراض اجتماعية مخيفة صورت له جزءا من الواقع العربي كالتعصب والجهل والتخلف والاستبداد الفكرى . والكثير مما يبدو للوهلة الاولى انه عداء للعروبة ما هو في العمق الا اشتراطا على هذه العروبة ان تكون بريئة من نقائص لاحقة بواقع الاوضاع العربية . يقول عبد الغنى العريسي عام ١٩١٣ : « هل للعرب حق جماعة ؟ ان الجماعات في نظر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق الا اذا جمعت على رأي علماء الالمان وحدة اللغة ووحدة العنصر ، وعلى رأي علماء الطليان وحدة التاريخ ووحدة العادات وعلى مذهب ساسة الفرنسيس وحدة المطمح السياسي . فاذا نظرنا الى العرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا ان ألعرب تجمعهم وحدة لغة ووحدة عنصر ووحدة تاريخ ووحدة عادات ووحدة مطمح سياسي فحق العرب بعد هذا البيان ان يكون لهم على رأي كل علماء السياسة دون استثناء حق جماعة ، حق شعب ـ حق امة . تتساءلون عن ماهية الحق لجماعة الامة العربية فبيانا لهذا الحق اقول : اول حق لجماعة الشعوب حق الجنسية (القومية) . فنحن عرب قبل كل صبغة سياسية : حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ قرون عديدة رغما عما كان ينتابنا من حكومة الاستانة من انواع الادارات كالامتصاص السياسي او التسخير الاستعماري او الذوبان العنصري . فكل ما تذرعت به الاستانة من الوسائل لم يؤد الى غير نتيجة واحدة وهو الحرص على مكانة حق الجماعة واحياء هذا الحس الشريف النبيل حس الجنسية . فاقتفاء للماضي نقرر مناهضة كل ما يوول الى اضعاف هذه القومية والتذرع بكل ما فيه حياة لخصائص العرب وميزات العرب فنحن كتلة حية قائمة بذاتها وخاصيتها لا تدع اية قوة تمس بناء هذا الركن الركين » .

وفي الفترة نفسها التي كان فيها عبد الغني العريسي يقول هذا الكلام ، كان رفيقه في النضال وفي الحركة العربية ورفيقه في الشهادة في اخر المطاف محمد المحمصاني يضع اطروحة في باريس عن الحركة الصهيونية ، ويكتب مقالات تسعا في جريدة الكرمل في حيفا ستخرج قريبا في كتاب يمثل الى جانب كتابات نجيب عازوري ونجيب نصار الوعي المبكر على الخطر الصهيوني . هذا النمط من الهموم والمواقف ، تحت الشعار الكبير الذى وضعه المؤتمر العربي في باريس يومذاك « وهو مقارنة خطر الاحتلال او الاضمحلال » الاحتلال الغربي الذى يهيء نفسه لوراثة الدولة العثمانية ، والاضمحلال الذى يهدد بذوبان الشخصية القومية داخل هذه الدولة ، هذا النمط مثل الخط الوطني والديمقراطي العريض الذى تحركت ضمنه طلائع المثقفين اللبنانيين .

كان هناك بين المثقفين جميعا سواء في الوطن ام في المهاجر من يؤكد على مقارنة الاحتلال الغربي ولو بالتساهل مع الدولة العثمانية واكثرية هؤلاء من المسلمين وكان هناك من يفعل العكس فيؤكد على الشخصية القومية ولو ببعض التنازلات امام احتلال غربي لا يزال في عالم الغيب (وكان اكثر هؤلاء من المسيحيين) . غير ان المقياس لم يكن عائما بالكامل ، فالذاهب الى حد التسليم بالاحتلال والذاهب الى حد التسليم بالاضمحلال كانا معتبرين خارج الحركة الوطنية العربية ، كائنة ما كانت مبرراتهما . وقد تشكل للجبل ، نتيجة لتوالي الفتن الطائفية المفتعلة منذ ١٨٤٠ ، بأيد اجنبية ، ونتيجة للتركيز

الثقافي الاجنبي والديني ، ونتيجة لوضع متصرفية جبل لبنان الخاص شعور حاد بذاتية مستقلة عن المحيط . ولهذا كان التعاطي الوطني شبه الدائم مع شعور الذاتية هذا هو عدم الاصرار على اشراط الولاء القومي العربي المسبق داخل فئة معينة ، اذا كان التهيب من اعتناق هذا الولاء لا يرافقه اسناد الى الاجنبي او تآمر على العربي او تنكر للثقافة الوطنية . فها هنا يكفي للصفة الوطنية الامانة للاستقلال ، والصدق في مكافحة اي شكل من اشكال التبعية والاستعمار . اما شعار كل من هو على يميني فهو صديقي ما دام مستعدا لمحاربة العرب ، ولو كان هو المستعمر ، بل ولو كان هو اسرائيلي فانه اشعار انحراف لا تجوز هوادة في واجب الحرب عليه .

لا بد من القول ان التخوف في جبل لبنان من ذوبان الذاتية كان ينحصر على الغالب في السياسة فقط ، ويتخذ بصورة عامة صفة الرفض لاشكال الاندماج السياسي في المحيط الواسع ، ولم يكن يتجاوز ذلك ثباتا الى الثقافة العربية ، بل على العكس كان الجبلي يعوض عن هذا الموقف السياسي باستغراق في اللغة العربية لم نعرف شيئا منه ايام الدولة العثمانية الا في جبل عامل الذى نجا وحده من المرور في فترة الانحطاط التاريخية للغة والاداب العربية . وابرز النماذج على الفصل بين العروبة والعربية في الجبل يوسف السودا المعروف بأنه الحركي الالمع والمنظر الاول للتخوف السياسي من المحيط المسلم ، وقد قال عنه بشارة الخوري في مذاكرته « حقائق لبنانية » ، انه كان في مصر قبل الحرب العالمية الاولى رأس مجموعة العاملين لاستقلال لبنان استقلالا ناجزا ، والمفارقة هي ان هذا الرجل مات في اوائل السبعينات في الثمانين من عمره وهو يؤلف كتابا في تبسيط النحو . وقبله الف البطريرك الاسبق عريضة مؤلفا في اللغة بين فيه على ان اللغة العربية هي ام اللغات قاطبة .

وكالاثنين في حب العربية كان امين نخلة الذى يقول في تأبين اديب عراقي كبير « مساكين جماعة الجغرافيين واهل التخطيط حين يكون امرهم مع هذه العربية ، يصورون الحدود والخطوط وهي تجاوز الصور ، ويارب كلمة من الشعر يهتف بها قائلها في بلدة غامضة من ارض العرب فهي تتخطى الصحاري ، وتثب الجبال وتتطاير الى الفراتين الى ما وراء النهر ، الى الجزيرة ، الى النيل ، الى عدوة افريقيا ، الى الساحل الشرقي من المتوسط ، لا يحول دونها حد ولا حجاز». ثم يضيف : اقول : ولا حد لبنان . ويقول امين نخلة في مكان اخر «محمد نغمة لا كلمة ، لفرط ما مسحت على شفاه الخلائق . فمن لم تأخذه بالاسلام اخذته بالعروبة ومن لم تأخذه بالعروبة اخذته بالعربية » .

لقد كان التحدي التاريخي منذ مطلع نهضتنا وما يزال هو في التوفيق بين الافادة من علم العالم المتقدم ، ومدنيته ، وقدرته على المساعدة في عملية التحديث ، ومن جهة ثانية مقاومة شتى صور الاحتلال الثقافي واشكاله من تسلط وتدخل وهيمنة وثقافة استعمارية .

قال المعلم بطرس البستاني : « اننا نرى ان العلوم والفنون الاجنبية المبنية على مبادي حقيقية قادمة الينا من كل فج عميق ، وما مكث فيه الافرنج السنين العديدة يمكن العرب ان يكتسبوه من اقرب زمان مع غاية الاتقان والاحكام . فالعلوم اذن قد اكملت دورتها بوصولها الى العرب عن طريق الاسكندرية واسلامبول والهند وبيروت . وكما ان الافرنج لم يستخفوا باداب العرب في ايام جهلهم لاجل مجرد كونها منسوبة الى العرب ، كذلك لا يليق بالعرب ان يستخفوا بعلوم الافرنج لاجل مجرد كونهاافرنجية » [١] .

---

١ ـ محمد الطباخ ، **اعلام اللبنانيين في نهضة الاداب العربية** (بيروت ١٩٤٨) ص ١١٨ و ١١٩

فقبول حضارة الغرب لم يفصل عند هذا الرائد الكبير عن الاعتزاز بالشخصية القومية العربية نرى ذلك في محيط المحيط ، في دائرة معارفه وفي جريدة نفير سوريا التي حمل فيها ايام ١٨٦٠ على الاقتتال الطائفي ، وفي المدرسة الوطنية التي انشأها واستقبل فيها طلابا من مختلف البلدان العربية ومن مختلف الاديان والمذاهب ، وفي الجمعية العلمية السورية التي ضمته واليازجي الكبير صنوه في الروح الوطني العربي وزميله المتفوق في الادب واللغة .

ومن نوادر القرى اللبنانية عن نشأة المدارس ان الدكتور كورنيليوس فانديك المبشر البروتستانتي صديق البستاني كان يغمز من قناة اليسوعيين بالقول انه اذا فتح مدرسة واحدة فقد ضمن فتح مدرستين ، باعتبار ان اليسوعيين سيلحقون به وينشئون الى جانبه مدرسة اخرى . ولكن الواقع ان فانديك كان يفتح ثلاث مدارس لا مدرستين . فقد اوجد المسلمون مدارسهم ايضا تحت تأثير تنبههم للنشاط التبشيري ، انشأوا مدارس المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت وصيدا وكلية التربية والتعليم في طرابلس وفيما بعد مدرسة الشيخ احمد عباس الشهيرة. ولا شك ان عبد القادر القباني صاحب ثمرات الفنون هو احد بناة الرد الاسلامي على النشاط الثقافي الغربي .

اما الشيخ محمد رشيد رضا ، القلموني اللبناني بحدود لبنان بعد عام ١٩٢٠ فقد كان واحدا من رواد مسلمين اربعة انفقوا اعمارهم يجيبون عن سؤال طرحوه على انفسهم وهو لماذا تأخر المسلمون وتقدم سواهم وهذا السؤال يشمل مسيحيي اوروبا ونصارى الشرق على حد سواء . فالافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وشكيب ارسلان شركاء في هذا الهم . الا ان صاحب المنار كان الاكثر انتاجا في الاجابة وفي الدل على الطريق . في رأي السيد ان الحكام الفاسدين حملوا المسلمين على تناسي الشورى بتشجيعهم على التخلي عن التوحيد ، والاسلام الحقيقي يقوم على القول بالتوحيد وعلى الشورى [٢] . ويدعو السيد الى بعث المدنية الاسلامية بالعودة الى القران ، وتجنب الوهم بان مجرد الاخذ بالتقدم التقني كاف [٣] .

ويعتبر السيد ان ميزة الاسلام الاولى هي السعي . والجهد الايجابي هو جوهر الاسلام وهذا هو معنى كلمة الجهاد في مفهومها الاعم[٤] . وميزة الاسلام الثانية هي انه انشأ مع التاريخ جماعة واحدة تجمعها وحدة الدين والشريعة والمساواة وتبادل الحقوق والواجبات كما تجمعها ايضا روابط طبيعية ، وبالاخص رابطة اللغة واللغة هي العربية[٥] . والاسلام الحق ، كما يعتقد ، هو اسلام الجيل الاول الذى عرف النبي[٦] وكان الشيخ يؤمن بان الوحدة بين السنة والشيعة ضرورة ماسة [٧] . ويميز بين افعال العبادة والافعال الخلقية . ويعطي الامة الاسلامية في الثانية ، اي في مجموع العلاقات البشرية ، صلاحية التشريع انطلاقا من مبدأ المصلحة [٨] .

ولم ينطلق رشيد رضا في نظرته الى الغرب من الاعجاب كما نرى عند بطرس البستاني مثلا ، بل

---

٢ ـ **المنار** ، عدد ٩ (١٩١٣ ـ ١٩١٤) ص ٦٨ الخ .
٣ ـ شكيب ارسلان ، **لماذا تأخر المسلمون** ، ص ٨٢ .
٤ ـ **نفس المصدر** ص ١٩ .
٥ ـ رشيد رضا ، **الوحي المحمدي** ، ص ٢٢٥ .
٦ ـ **القرآن** ، سورة ، آية ٩ ، ورشيد رضا ، **محاولات المصلح والمقلد** ص ٥٨ .
٧ ـ رشيدرضا ، **السنة والشيعة** ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .
٨ ـ رشيد رضا ، **الخلافة** ، ص ٩٠ .

من الضرورة ، فمن الضروري ان يتحدى الاسلام العالم الجديد وان يقبل بالمدنية الجديدة بالمقدار الكافي لاستعادة قوته[٩]. ولا بد للشرائع في رأيه من ان تتغير تغيراً كبيراً لم يسبق له مثيل . وهذا التغير المقصود يجب ان لا يقتصر على تعديل المذاهب الاربعة[١٠]. ويرسم رشيد رضا في كتاباته خطوط النظام الشرعى الجديد، ويفارق في بعض فتاويه الموقف التقليدي . في ما يخص الجهاد ، يفرق بين الحرب التي تستهدف نشر الاسلام ، وتلك التي تستهدف الدفاع عنه . فالثانية مشروعة والاولى غير مشروعة الا فى حالة تعذر نشر الاسلام سلما [١١] . اما في الاقتصاد ـ فالشريعة الاسلامية في نظره تحرم الربى . وهو يسأل هل يمكن ان يقال ان مقتضى شرع هذا الدين ان يكون اهله فقراء وان يكون ما به قيام معاشهم وعزة امتهم ودولتهم في ايدى الطامعين فيهم من الامم الاخرى[١٢] .

على ان رشيد رضا الطرابلسي القلموني ، وهو المصلح الاسلامي بالدرجة الاولى كان في عمله السياسي مؤمنا بالقومية العربية ، بل مناضلا في سبيلها . ولا يتجلى ذلك في تأكيده على صورة الاسلام العربية الاولى في الجزيرة فحسب ، ولا في تطلعه الى الجزيرة بانتظار دور اسلامي ، ولا في اعتباره العربية هي لغة المسلمين الطبيعية والوحيدة بل خصوصا في ايمانه بوجود امة عربية ذات وجود قومي كما نرى في كتاباته وكما نعرف من تاريخه السياسي الحافل . وقد كان عدوا للاستعمار . وله موقف في اب اغسطس ١٩١٩ من الاتحاد السوفياتي يدافع فيه عن هذا الاتحاد وعن حكم الاكثرية العاملة ويهاجم المفتي المصري الذي فوضه الانكليز بالحرب على البلشفية .

واذا كان منار رشيد رضا قد شكل مدرسة فكرية فان مقتطف يعقوب صروف وفارس نمر وهلال جرجي زيدان (وكلهم لبنانيون جبليون من خريجي الكلية البروتستانتية السورية) ، قد شكلا مدرسة فكرية اخرى تبشر بان العلم هو اساس المدنية ، وان الخلقية الاجتماعية هي اساس القوة الاجتماعية . وان الوطنية يجب ان تعلو على كل رابطة اجتماعية ، ومنها الدينية .

وقد حمل افذاذ كالشميل وفرح انطون وسواهما الراية التي حملها بطرس البستاني من قبلهم ، ورفعوها الى اعلى ، واعتبر الشميل العلم ديانة جديدة مهمتها الصراع مع الاديان القديمة ، ولهذه الديانة الجديدة مستلزمات اجتماعية وسياسية . فالعلوم الطبيعية هي اساس العلوم الانسانية . ولا تستمد الشرائع السليمة الا من العلوم الانسانية الصحيحة .[١٣] .

ولم تكن المؤسسات والقوانين عند الشميل معصومة بمقدار ما فيها من خير عام [١٤] . ويجب ان تتغير بالتدرج . وفي بعض الحالات لا بد من الثورة . لكن الاصلاحات التي تنجح انما هي التي تنبثق عن تغير في الارادة العامة وتستهدف الخير العام [١٥] . ولا يمكن الاتفاق على ماهية هذا الحق اذا لم تتوفر الحرية ، ولا سيما حرية الفكر . ففي الاستبداد يسيطر عضو من اعضاء المجتمع على الاخرين

---

٩ ـ رشيد رضا ، **الخلافة** ، ص ٩٨ .
١٠ ـ **المنار** ، عدد ١٠ (١٩٠٧ ـ ١٩٠٨) ، ص ٢٢٤ .
١١ ـ رشيد رضا ، **محاولات المصلح والمقلد** ، ص ٨٤ .
١٢ ـ رشيد رضا ، **الخلافة** ، ص ٩٨ .
١٣ ـ شبلي شميل ، **فلسفة النشوء والارتقاء** ، ص ١٠ .
١٤ ـ شبلي شميل ، ص ٥٧ .
١٥ ـ شبلي شميل ، **مجموعة** ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

ويضع مصلحته فوق مصلحتهم [16] . كذلك لا تكون ارادة عامة بدون وحدة اجتماعية تقوم عليها ، مما يقتضي فصل الدين عن الحياة السياسية[17] . ولا يحاول الشميل الاستعاضة عن التضامن الديني بالتضامن القومي بل يهاجم التعصب القومي ، ويبشر بانتصار الوطنية العالمية[18] .

ويقول الشميل بالاشتراكية ، ويفهم بها تدخل الدولة لتحقيق التقدم الاجتماعي والتعاون في سبل الخير العام ، وايجاد عمل للقادرين ، وتأمين المساواة في الاجور وتحسين الصحة العامة ، واكثر من ذلك تهديم المؤسسات الموجودة في بعض القطاعات لبناء جامعة حقيقية تدرس فيها العلوم ومدرسة تقنية بدلا من مدرسة الحقوق ، ومحاكم محلية بسيطة ، ومؤسسات عامة لتوزيع المياه ومدارس ابتدائية في كل قرية وحي وصحف لائقة لتنوير الرأي العام [19] . الا ان اهم ما قام به شميل واثار من حوله الجدل ليس خطه السياسي العملي ولا المنهاج الذى وضعه للحزب الاشتراكي في مصر ، وانما الافكار التقدمية والعلمية التي بثها ، وبصورة خاصة فلسفته المادية وقضية الداروينية ، وتطبيقاتها التي حركت الفكر عند الطلائع المثقفة في لبنان واعطتها وجهة جديدة .

وكان جبران خليل جبران في المهجر الاميركي الشمالي ومعه رفاق في الرابطة القلمية منهم اللبناني والسوري على حد سواء يمثل اطلالة جديدة كل الجدة والتعبير بحرية غير مألوفة من قبل ، وخاطب الناس عبر لغة لم تكن لغة ادباء عصره . « لكم لغتكم ولي لغتي » : « لكم منها القواميس والمعجمات والمطولات ولي منها ما غربلته الاذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مأنوس وتتداوله السنة الناس في افراحهم واحزانهم . لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق ولي من لغتي نظرة في عين المغلوب ودمعة في جفن المشتاق وابتسامة على ثغر المؤمن واشارة في يد السموح الحكيم .. لكم منها الفصيح دون الركيك والبليغ دون المبتذل ، ولي منها ما يتمتمه المستوحش ، وما يغص به المتوجع وما يلثغ به المأخوذ - وكله فصيح وبليغ . لكم منها القلائد الفضية ولي منها قطر الندى ورجع الصدى وتلاعب النسيم باوراق الحور والصفصاف ... لكم منها الترصيع والتنزيل والتنميق وكل ما وراء هذه البلهوانيات من التلفيق ، ولي منها كلام اذا قـ ل رفع السامع الى ما وراء الكلام ، واذا كتب بسط امام القارى فسحات في الاثير لا يحدها البيان »

ولم يعرف الادب الانساني الا نادرا كاتبا كجبران حمل لواء التمرد على الاوضاع ، وكان قاطعا في موقفه من الاقطاع وشتى انواع الاستعباد . ففي مقاله «حفار القبور» ، في العواصف يقول : « اتبعت الاجيال من ضفاف الكنج الى شاطي الفرات الى مصب النيل الى جبل سينا الى ساحات اثينا الى كنائس روما الى ازقة القسطنطينية الى بنايات لندن فرأيت العبودية تسير بكل مكان في موكب العظمة والجلال والناس ينحرون الفتيان والعذارى على مذابحها ويدعونها الها ، ثم يسكبون الخمور والطيوب على قدميها ويدعونها ملكا ، ثم يحرقون البخور امام تماثيلها ويدعونها نبيأ ، ثم يخرون ساجدين لها ويدعونها شريعة ، ثم يتحاربون من اجلها ويدعونها وطنية ، ثم يجدون ويجاهدون في سبيلها ويدعونها مالا وتجارة » [20].

---

١٦ - فلسفة النشوء والارتقاء ، ص ٤٠ .
١٧ - شبلي شميل ، **فلسفة النشوء والارتقاء** ، ص ٨١ .
١٨ - شبلي شميل ، **مجموعة** ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .
١٩ - شبلي شميل ، **مجموعة** ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .
٢٠ - محيي الدين رضا ، **بلاغة العرب في القرن العشرين** (١٩٢٤) .

وعلى الرغم من ان جبران اقرب الى ان يصنف رافضا كما تفهمه شبيبة العالم اليوم من ان يكون ثوريا سياسيا ، فانه قد ايد الثورة العربية ، ويقول في رسالة الى ماری هسكل مورخة في ٢٩/ ٦ / ١٩١٦[٢١] : ان الثورة العربية هي حقا امر مدهش لا يعرف احد خارج البلاد العربية الى اي حد قد نجحت واي شوط ستصل . لكن حصول الحركة هو امر عظيم جبار ، امر حلمت به وعملت لاجله خلال السنوات العشر الاخيرة .

وقد علق رشيد رضا على مواكب جبران بالقول انه معري هذا العصر،بينما قال عنه لويس شيخو في المشرق ليست هذه مواكب وانما هي عناكب .

ونادى جبران بالتعليم الوطني [٢٢]يقول : لا يعم انتشار اللغة في المدارس العالية وغير العالية حتى تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنية مجردة ، ولن تعلم بها جميع العلوم حتى تنتقل المدارس من ايدي الجمعيات الخيرية واللجان الطائفية والبعثات الدينية الى ايدي الحكومات المحلية ... « سوف يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية ، وتعلم بها جميع العلوم فتتوحد ميولنا السياسية وتتبلور منازعنا القومية » .

وامين الريحاني هو الصوت اللبناني الاخر في دعوة الحرية ومقارعة الظلم مواز لجبران في نواح ، ومتفرد عنه في ثوريته الاكثر تسيساً ، وحركية . من موقع اللبناني كامل اللبنانية والعربي كامل العروبة ، طلب امين الريحاني لوطنه ولامته وللشرق . « متى تحولين وجهك نحو الشرق ايتها الحرية ؟ ايتأتى المستقبل للحرية بجانب الاهرام ؟ اممكن ان نرى لك مثيلا في بحر الروم ؟ ايتها الحرية متى تدورين مع البدر حول الارض لتنيري ظلمات الشعوب المقيدة والامم المستعبدة » . ثم يخاطب البواخر من على جسر بروكلن فيقول « خذى معك ولو زجاجة صغيرة من هذا الماء المقدس ورشي سواحل مصر وسوريا وفلسطين والاناضول . والى كل جزيرة تمرين بها وكل بلاد تقصدينها وكل شعب تحيى سواريك قباب كنائسه ومآذن جوامعه ، احملي سلام هذه الالهة التي تنير طريقك في الخروج من العالم الجديد » . ولكن الحرية في امريكا التي هو معجب بها مكبلة بالقيود ، يقول : «قد حررنا العبيد واطلقنا الحرية لكل امرىءفقيرا كان او غنيا . ولكن العبودية الجديدة تتلبس مظاهر مختلفة واثوابا جديدة .. قد تغيرت القيود وتنوعت السلاسل واستبدل النخاسون بغيرهم . تعددت الاسباب والموت واحد . ان في الولايات المتحدة من العبوديات انواعا واشكالا . فهناك العبودية في المناجم والعبودية في حقول النفط والعبودية في معامل الانسجة وفي عالم العمل على الاطلاق . متى ياترى يتحرر الانسان حقا وتشمل السعادة والراحة كل اسرة بشرية ؟ » [٢٣] .

ويتساءل الريحاني عن فضائل تمدننا الحديث [٢٤] : هل هي في الحكومات الملكية او الجمهورية التي لا تزال شرائعها تميز بين القوي والضعيف والغني والفقير ؟ هل هي في المحاكم التي افسد فيها المال ضمير القضاة ؟ هل هي في الشركات الاحتكارية التي لا تنمي خيرات الارض الا لتخزينها وتضاعف اثمانها ، هل هي في التشريع الذى لا يطبق الا بقوة السلاح ؟ هل هي في الجهل الذي لم يزل يحارب الحرية بترس الخرافة بعد ان تكسر سيف الاضطهاد ؟ هل هي في ادوات الحرب التي تتكاثر

---

٢١ ـ توفيق صايغ ، **اضواء جديدة على جبران** ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .
٢٢ ـ خليل احمد خليل ، **المحتوى السياسي لفكر جبران** ، ص ٧ ـ ٧١ .
٢٣ ـ امين الريحاني ، **الريحانيات** ، ج ١ ، ص ١٣٤ .
٢٤ ـ امين الريحاني ، **الريحانيات** ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

وتتنوع كلما وقعت حرب جديدة في العالم ؟ هل هي في الحروب التي تشهرها الدول الاوروبية على شعوب امنة ضعيفة من اجل شركة تجارية او حزب سياسي ؟ .. ما هي فضائل هذا التمدن المؤسس على المادة والطمع والاستئثار ؟ التمدن الذى يسن ارباب المال شرائعه فيطبقها سماسرة البورص واصحاب المعامل وينشرها وزراء الحربية بالمدافع والمدرعات .

ان الريحاني ينتقد رضى الشرق عن ذاته ، كما ينتقد رضى الغربي عن ذاته على حد سواء : انا الشرق عندي فلسفات وعندي ديانات ، فمن يبيعني بها مدافع وطيارات . ؟ ويقول الريحاني بالثورة ، انها التي تأتي في اوانها وبالوسائل المناسبة لها . يقول اننا «جربنا الريشة والقلم فكنا فيهما مقلدين جربنا القياس والميزان فكنا فيهما عابثين . لجأنا في مصر وفي الاستانة الى الرصاص . وفي الهند الى الديناميت فكنا فيهما مجرمين جربنا الثورة السلمية فكنا مخطئين . جربنا السيف والمدفع فكنا فيهما ضالين مضلين . والحق يقال ان سلاح الثورة عندنا لم ينضج »[٢٥] . وتبقى للريحاني المتعلق تعلقا مطلقا بالحرية والثورة المقدرة العجيبة على رؤية الواقع والتعامل معه . فكتابه ملوك العرب هو افعل كتاب في تعريف العرب بالعرب ولا يعادله في طرح المدى العربي كله امام الاجيال الا روايات جرجي زيدان التي طرحت امامها المدى التاريخي للامة العربية وهذان الاثران فعلا في تحضير الحس القومي العربي في الشرق اكثر مما فعل اي اثر اخر .

ولم يكن الريحاني مهاجرا بالمعنى الكامل . وكان ينظر الى نفسه على انه يعبر عن لبنان الحقيقي ، عن قلب لبنان ، وقد نقله الانتداب الفرنسي على اثر خطبة هاجمه بها في نادي التضامن الادبي ذي الفعل المذكور في حياة لبنان الثقافية والسياسية . والقى خطبة عنوانها « انتم الشعراء » تركت اثرا في الاوساط الفكرية والادبية . وكان الريحاني يحمل مفهوما للشعر اقرب الى مفهوم الشعراء المهجرين في الولايات المتحدة ، حيث لا تنفصل العاطفة عن النظرة الفكرية المستنيرة كما عند ابي ماضي .

وفي اميركا الجنوبية كان ادباء العصبة الاندلسية وابرزهم رشيد سليم الخوري من المعبرين اصدق تعبير عن روح مقاومة الانتداب وشعره كان من عوامل التحريض الفعالة ضد الاجنبي ، بينما كان شعر فوزي معلوف اشبه بشعر المهجرين الشماليين في محتواه واسلوبه . وكان شعر شفيق المعلوف من روح البيئتين معا .

لقد صنع اللبنانيون جزءا كبيرا من تراثهم الثقافي في ستة مهاجر . المهجر الاميركي الشمالي وسمته الرئيسية الثورة على القيود ورفض التقليد والروح الانسانية (ويمثله جبران والريحاني) . والمهجر الاميركي الجنوبي والسمة الرئيسية فيه هي التجند للقضية الوطنية والقومية ومحاربة الانتداب والاستعمار (يمثله رشيد سليم الخوري) . والمهجر المصري وسمته الانكباب على العلم وبعث التراث وانشاء المؤسسات الصحفية . (ويمثله رشيد رضا وشبلي الشميل) . والمهجر الاستمبولي والسمة الرئيسية فيه تأسيس الجمعيات بما يصون الشخصية القومية . والمهجر الفرنسي والسمة الرئيسية فيه الاهتمام بالفكر السياسي والمؤسسة السياسية وبالاشكال الدستورية للبنان والبلاد العربية (ويمثلها عبد الغني العريسي) . والمهجر العراقي الايراني الذي كان يتوجه اليه طلبة العلم الجنوبيون وسمته الاهتمام بالتراث والفكر الديني والتمرد على الظلم . ولعل هذا المهجر الاخير هو المهمل من الباحثين والاقدم من ايام بهاء الدين العاملي الى بعض الكتاب اللبنانيين التقدميين البارزين

---

٢٥ ـ امين الريحاني ، **القوميات** ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

اليوم مرورا بالسيد محسن الامين وغيره .

وقد يصلح هذا التقسيم لتوسع المختصين في باب الدراسة لينابيع الثقافة في لبنان وطبائعها وبحث نتاج هذه المهاجر على اساس المشابهة والمفارقة والتقسيم . فالى حد بعيد تمثل هذه المهاجر كما تبين من بعض الرموز التي اخترناها لا المؤثرات التي تعرض لها المهاجرون فحسب ، والتفاعلات التي عاشوها ، بل تمثل كذلك المؤثرات التي تعرض لها المقيم اللبناني ، فهي على العموم العوامل الفاعلة نفسها في ثقافة لبنان كشعب ووطن .

ولقد لعبت جمعيات المهاجر والوطن دورا بارزا منذ اوائل النهضة العربية . بل انها كانت احدى القوى الرئيسية التي قامت عليها النهضة شأنها شأن المدارس الحديثة والمطابع والصحف . وفي الثلاثينات انتشرت ظاهرة الاحزاب السياسية بعد ان كانت قليلة العدد ونشأ بعضها على مفاهيم علمية واجتماعية عصرية ، واشتدت الحركة العقائدية واصبحت من منابع التوجيه والتأثير في الثقافة الوطنية .

وبدأت الروح الجامعية بين المثقفين تفرض مشاركتها المتصاعدة في هذه الثقافة ، واصدر قسطنطين زريق كتابه « الوعي القومي » وظهرت دراسات انيس الخوري المقدسي ، واخذ مع الايام بالتراكم انتاج الاساتذة الجامعيين هذا الرافد الثمين في الحياة العامة ، على ما نرى اليوم في انتاج اساتذة الجامعتين اللبنانية والعربية . وقاوم العديد من الاساتذة والمربين ، كعمر فروخ وزكي النقاش ، عملية الغرض الثقافي ، بمواقف ودراسات ادبية وتاريخية .

وقد تحررت الثقافة نتيجة هذه العوامل من التوجه نحو السلطة والتبعية للنفوذ والاقطاع ، وأصبحت اكثر شعبية في محتواها ووسائل تعبيرها . وفي صحف بيروت ومطابعها ومدارسها وجامعاتها وجمعياتها واحزابها اتصل العقل العربي بالعقل العربي وتقاربت اللهجات القطرية واقتربت اللغة العربية الجامعة والمشتركة والشعبية من الولادة على انقاض التحجر اللغوي وخصوصا على انقاض المحاولة لاعتماد اللغة العامية . بل ان لبنان نفسه بدأ يتحول منذ الخمسينات الى مهجر في محيطه العربي ، ينتج فيه مفكرو هذا المحيط وادباؤه وشعراؤها جزءاً من انتاجهم وينشرون فيه اعمالهم ، والفضل في ذلك لا يعود الى الحرية الفكرية فيه وجهد المؤسسات الثقافية الناشطة ، وانما يعود الى طبيعة مناخ ثقافي سقته الروافد المتعددة وخلقته عمليتا التلقي والمقاومة خلقا حسنا .

وباختصار ، انفتح لبنان على العالم ، فكسب دورا في بلاد العرب ، واصبح الوطن الثاني لكل مثقف عربي .

وكان مثل الريحاني في كمال جبليته وكمال عروبته معا مارون عبود ، المربي الاديب صاحب الاسلوب الفذ في النظرة والاداء . عبر عن ذاته دائما بعمق وفن ولكنه وجد نفسه ، على الاخص في صقر لبنان كتابه الرائع عن احمد فارس الشدياق ، فقد قدم للعرب شدياقين لا شدياقاً واحداً. ذاك الذى كان في القرن التاسع عشر جسر العبور الى التراث وافكار العصر والفن التعبيري واللغة المحررة لاول مرة من الجمود والتحجر ، رجل الحرية العنيد المناضل ، وهذا الذي اكمل بعد عشرات السنين تراث التحرر اياه ، بدقة علمية وكبرياء وطنية وانسانية وروح نقدية ساخرة نادرة المثال ، واذا كان الريحاني قد تشارك وجرجي زيدان الرحلة الى قلب العرب ، فان مارون عبود فتح مع الريحاني ، وربما اكثر منه ، قلب لبنان ، المحب للحرية والعدل .

وكان مارون عبود ، فوق ذلك ، شريك الريحاني في الدعوة المبكرة الى مفهوم ما للالتزام في الادب ، فخطبة الريحاني ، انتم الشعراء ، القيت في الجامعة الوطنية في عاليه والى جانبه مارون عبود دعامته في معركة الالتزام عندما وقف بشارة الخوري محتجا على كلام الريحاني معتبرا الكلام هجوما سافرا على الشعر والشعراء . فانفجرت في ذلك الوقت على صفحات « النداء » الوطنية قديما وحديثا لا حديثا فقط ، فدخل عبود الى جانب الريحاني في المعركة ودخل ابو شبكة والياس زخريا وصلاح لبكي وفؤاد سليمان الى جانب بشارة الخوري كشاعر ليست دموع الشعراء بضاعته الوحيدة ، وانما هو كذلك ، بل قبل ذلك ، شاعر وطني لبناني وعربي عنى الاستقلال والعروبة وفلسطين .

ويأتي عمر فاخوري في المسار الوطني والديمقراطي اللبناني ابنا متجددا لتراث وطني وديمقراطي عريق لمدينة بيروت ، يشاركه فيه عمر اخر عبقري هو شاعر الشعب عمر الزعني منحدرين من مدرسة الشيخ احمد عباس الازهري ، ومفيد الشهيدين عبد الغني العريسي وفؤاد حنتش والاتحاد العثماني للشهيد الشيخ احمد طبارة والكوثر لبشير رمضان ، والحقيقة لكمال عباس . وقد كان فاخوري رفيقا لمنشئي صحف بيروت المناضلة ضد الانتداب الفرنسي والتمييز الطائفي اللاديمقراطي ، كالنداء وبيروت والسيار والامالي والايمان والمعرض والطليعة وصوت الشعب والنهضة وغيرها من الصحف المستندة في نضالها من اجل الحرية الى عراقة وطنية اصلية في شارع بيروت ووعي عميق عند مثقفيها .

وكانت عرفان الشيخ احمد عارف الزين في صيدا تمثل باستمرار الصمود المعنوي لمنطقة جبل عامل العربية الصادقة العروبة ، وكان كتابها مؤثرين ، بالعلم والتحرر ونبرة الصدق ، في دنيا العرب كلها .

فعمر فاخوري هو ، في الحقيقة ، ناطق باسم الحس السليم في الوطنية والسياسة المنتشر عند مثقفي بيروت في زمانه . وهو عرف كيف يكسو ببرودة الفن هذا الحس السليم «لقد اتى علينا في لبنان ، وبين الطائفة والاخرى ، او بين ابناء دين وابناء الدين الاخر . كالحدود التي تفصل وطنا عن وطن : كدنا نحتاج الى جوازات سفر بين الطوائف والاديان ... ونحن على يقين من ان نظاما سياسيا ديمقراطيا صحيحا كفيل بان يمحو تلك الحدود الوهمية المخجلة والموذية ككثير من الاوهام . ولا خسارة في ذلك على احد ، اللهم الا على نفر قليل من المستثمرين الكسالى . واظن ان هولاء ليس يهمنا شأنهم . نحن بحاجة الى ما يؤلف ويجمع لا الى ما يفرق ويقطع : ان الوطنية تؤلف وتجمع. ان النظام السياسي الديمقراطي الصحيح يؤلف ويجمع . ان التقدم الاجتماعي يؤلف ويجمع . ليس بكاف ، كلما رأينا البيت يحترق ان نهب جميعا لاخماد النار . يجب ان تمنع اسباب الحريق ، وان نبعد عن البيت المحرقين . لنقل صراحة : لا يمكن ان يكون لبنان وطنا مسيحيا ، ولا وطنا اسلاميا .. لا يمكن ان يكون وطنا لاى دين من الاديان ، او مذهب من المذاهب .. لا يصح ان يكون لبنان الا وطنا لجميع اللبنانيين على السواء . فلينظر اللبنانيون ، ثم لينظروا ، بأى وجه يهمهم ان يطلع وطنهم على الدنيا من ظلمة هذه الحرب (يقصد الحرب العالمية الثانية) . ان اللبنانيين أنفسهم هم الذين يصورون ذلك الوجه ويرسخون ملامحه وشيأته» . اما يوسف ابراهيم يزبك فابرز بصماته على الثقافة الوطنية والديمقراطية كتابه « النفط مستعبد الشعوب » وتحقيقه عن طانيوس شاهين ، ومقالات له اخرى تميزت في زمانها بالوعي على القضية الاجتماعية . كما تجلت في قصص توفيق عواد روح انسانية عميقة وتحسس بالظلم والقهر الاجتماعي الذي عاناه اللبنانيون في حقبة سوداء من تاريخهم .

والواقع ان الثقافة الوطنية الديموقراطية كانت هي الغالبة في الثقافة اللبنانية منذ مطلع هذا القرن ، بل حتى ايام الانتداب الفرنسي حيث تحولت فرنسا الدولة التي كانت دائما قوية في لبنان الى حاكمة . ففي المواقف من ثورة الحسين في مكة الى حكم الملك فيصل في دمشق ، الى موقعة ميسلون ، الى ثورة جبل الدروز ، وقد كان الامير الشاعر عادل ارسلان من قادتها ، الى الموقف من الحكم الانتدابي والدستور والاحتكارات الاقتصادية ، الى الموقف من حركات التحرر في البلاد العربية ، كثورة فلسطين ، وفي العالم الثالث كحرب الحبشة مع ايطاليا ، الى الموقف من الاستقلال عام ١٩٤٣ ، ومن ألجلاء ومن القضية الديموقراطية بمختلف وجوهها واشكالها وبينها حرية التشكل في احزاب ومن التمييز بين الفئات والمناطق ، ومن محاولات الاصلاح الداخلي في الادارة ومن الوعي الثوري لقضايا الطلاب والعمال والمزارعين ومن مشاكل الجامعات والتعليم ومن العلمانية واخيرا وخاصة من الثورة الفلسطينية في جميع هذه المواقف كانت الثقافة الوطنية هي صاحبة الصوت الاعلى في لبنان .

واذا كان عمر فاخوري قد مثل ، كما اسلفنا ، الحس السليم في تناول المشكلة اللبنانية ، فان رئيف خوري مثل على التأكيد على النظرة الثقافية الاقرب الى النظرة الوطنية الديمقراطية في وقتنا الحاضر ، فمع رئيف خوري نكون فعلا قد وصلنا الى مشارف مرحلة نحن فيها الان . فقد كتب مئات المقالات والدراسات والخطب منذ كتابه حقوق الانسان ، عام ١٩٣٧ حتى وفاته ١٩٦٨ . وتميز بنزعته العربية وصدقه في العمل للدولة الديموقراطية المستقلة ، ووعيه الاساس الاقتصادي والاجتماعي للاستعمار ، وحربه على الفاشية في الداخل والخارج وتأكيده على الدور الفذ للثقافة في معركة الحرية والتقدم . وبين المع معالم انتاجه فهمه العميق للحركة الصهيونية وولاؤه لقضية الربط بين الفكر الديموقراطي واليساري والوحدة العربية .

اننا نعيش بلا شك في لبنان جديد ، ولبنان الجديد هذا يكاد يكون قد ولد في منتصف الستينات . والتحديات الفكرية والثقافية قائمة على انواعها ، وهي تهيب بالفكر الوطني والقومي في لبنان ان يخلق نظرية من قلب فكر الثورة العربية وهذه النظرة هي الوليد وهي الام معا لطريق التقدم الحقيقي والمستمر .

ان ابغض ما يسمع اللبناني والعربي اليوم في لبنان تصوير التكامل الثقافي في لبنان بانه تعددية حضارية . فهو يدل على عداء اصحابه للثقافة والوطن جميعا . إن ثقافتنا الواحدة ليست موجودة فحسب ، ولكنها الآن عنوان وجود المواطن ، ولقد جاء وقت كان فيه كل شي ء مدمرا ما عدا شعور الوطن حيثما وجد ، بالكيان المعنوي الواحد الذي ثبتته في نفسه الثقافة الوطنية . وكتاب لبنان بشكل خاص ، وكتاب العرب بشكل عام بتعزيزهم ثقافة لبنان الوطنية يعززونه ، ويعززون عروبته المساوية قديما وحديثا لوجوده .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

صدر حديثاً :

مؤلفات الكاتب الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوي

- دراسات في الفلسفة الوجودية
- فلسفتا الدين والتربية عند كنت
- من تاريخ الالحاد في الاسلام .
- تاريخ العالم
- هيجل - حياته
- شلنج
- تاريخ أوروسيوس
  (ترجمة عربية عن اللاتينية في القرن الرابع عشر)
- في الشعر الاوروبي المعاصر
- مختار الحكم ومحاسن الكلم
- جيته - الديوان الشرقي للمؤلف الغربي
- مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا (في جزئين)

معوقات انتاج المطبوعة العربية ونشرها

د . زهير حطب

استاذ محاضر في معهد العلوم الاجتماعية بالجامعة اللبنانية

منذ البداية انطلقت دراسة واقع انتاج ونشر المطبوعات العربية من فكرة تركزية هي ان الواقع المشار اليه هو حصيلة تشابك عدة مستويات في آن معا : **المستوى الاول** : ويتضمن مرحلة تحقيق المطبوعة وانجازها . وهذا يعني تضافر عدة حلقات واكتمالها وهي : حلقة جمع المعلومات والتحرير ؛ حلقة الرقابة ، حلقة الطباعة والاخراج **والمستوى الثاني** : يتحدد بتوزيع المطبوعة وتداولها ، اي رحلتها من مستودعات الصحيفة الى مكتبات التوزيع **والمستوى الثالث** : ويتحدد بأشكال تقبل جمهور القراء للمطبوعة ، وبكل ما يتعلق بالاواليات الذاتية التي يخضع لها .

ويهمنا منذ البداية ان نشير الى ان وضع دراسة تتناول المستويات الثلاثة المذكورة يتطلب توافر مجموعة واسعة من المواد ، كأعداد المطبوعات الصادرة في الدول العربية ، والاحصاءات المتعلقة بها ، وقوانين وانظمة الرقابة ، وانماط المؤسسات بشركات التوزيع ، واشكال عملها ، والاقنية التي تمر المطبوعة عبرها . وقد حاولنا ان نجمع كافة هذه المعطيات ، ولكننا اصطدمنا بغياب شبه كامل لتوافرها ، مما اضطررنا لرسم خطة للعمل تقضي بجمع ما يمكن جمعه من المعلومات التي تتعلق بالمستويين الاول والثاني ، وترك المستوى الثالث لمعالجة لاحقة لا سيما وانه يستوجب اجراء دراسة ميدانية واسعة تتوجه الى عينة من جمهور القراء انفسهم .

قر الرأي منذ البداية ايضا ، ان مشروع الدراسة ومخططها لا يمكن تنفيذهما بالاسلوب التقليدي ، اي بأسلوب البحث الفردي ، وان العمل الفريقي ، هو وحده القادر على الاستجابة لمقتضيات وشروط البحث الاكاديمية . وعلى هذا الاساس تم تشكيل فريق للبحث متعدد الاختصاصات[1] من مسؤول اختصاصي بالدراسات الاجتماعية الاستقصائية الاحصائية ، وآخر اختصاصي بعلم النفس الاجتماعي ، وثالث اختصاصي بالقضايا الحقوقية والقانونية ، وضم الفريق

---

(١) مسؤلو الدراسة : د . زهير حطب ، استاذ في معهد العلوم الاجتماعية ـ الجامعة اللبنانية : د . عباس مكي ، استاذ في كليه الاداب ـ الجامعة اللبنانية ـ قسم علم النفس : د . محمد سهيل بوجي ، محاضر في كلية الحقوق والعلوم السياسية والاقتصادية ـ الجامعة اللبنانية .

ايضا مجموعة من المساعدين[٢] الذي عنوا بجمع المعلومات من مصادرها .

واتفق اعضاء الفريق على اتخاذ الفرضيتين التاليتين كمنطلق للبحث يحددان مساره ، ويشكلان الاطار العام الذي سيتم ضمنه التحرك والاستقصاء .

الفرضية الاولى : توزيع المطبوعة العربية ضعيف ومحدود بسبب طبيعة المواد التي تتضمنها من جهة ، وضعف الاجهزة الفنية والتقنية التي تتولى عمليات التوزيع والنشر من جهة اخرى . ويستتبع هذه الفرضية وينجم عنها عدة تساؤلات :

١ ـ ما هي طبيعة المواد التي تتضمنها المطبوعات العربية ؟ واستطرادا هل كل المواد الاعلامية التي تنشرها الدوريات العربية تتصف بنفس المواصفات ؟ وما هي المواصفات او السمات الغالبة على المطبوعة العربية ، والتي تعطيها طابعها العام ؟ واخيرا ما هو دور وعلاقة هذه المواصفات بحدود السوق الاستهلاكية ، سوق مطالعة الدوريات العربية ، ؟ وهل من تأثير مباشر للسمات المذكورة على حجم السوق ، وزيادة عدد جمهور القراء للمطبوعة العربية ؟

٢ ـ ما هي طبيعة بنية مؤسسات وشركات التوزيع ، العامة ، والخاصة ، العاملة في الاقطار العربية ؟ ما هي اقنية التوزيع المعتمدة لديها ؟ حدود وشبكة التوزيع والعوامل التي تتحكم بامتداداتها اقليميا ومحليا ؟ والرسائل والتجهيزات المستخدمة عند التوزيع ، هل تفي بالحاجات وتلبي الطلبات على خدماتها ؟ ام انها عاجزة عن هذه التلبية الموجودة اصلا ، ناهيك بعجزها عن تغطيتها لكافة المناطق في القطر نفسه ؟ فهل اليها تعود محدودية توزيع المطبوعة وسوقها الضيق ؟

الفرضية الثانية : الرقابة بكافة اشكالها ومصادرها تعيق عمليات توزيع المطبوعات ، والاتصال والايصال الاعلاميين ، في الاقطار العربية ، بل انها توثر بصورة غير مباشرة على مستوى المطبوعة العربية وتعطيها طابعا معينا ، وترسم لها حدودا واضحة ، لا تستطيع تخطيها ولو توفرت لديها حول ما بقي خارج الحدود معطيات اعلامية ، ومواد اساسية للاتصال والايصال الجماهيري .

التساؤلات التي تطرح في هذا المجال متعددة ومتنوعة اهمها : ما هي اشكال الرقابة ، المعمول بها في الاقطار العربية ؟ ما هو تنظيم اجهزة الرقابة الموكول اليها هذه المهمة ؟ ما هي حدود الرقابة والمواد التي تشملها الرقابة ؟ وما هي حدود المساحة التي تبقى للمحرر ، للكاتب ، للصحافي ، كي ينشط ضمنها ويتحرك ويحرك ؟ واذا تخطى البعض هذه الحدود المقدسة سياسيا واجتماعيا ، ماذا يحصل ؟ ما هي انواع الزواجر ، واساليب الردع المعتمدة من قبل المجتمع لضمان احترام القواعد المنصوص عليها ؟ او المرسومة بموجب العرف .

تتصف التساؤلات المطروحة بالاتساع والشمول والدقة ، وهي تتجاوز احيانا الحدود المقدسة ، التي يسمح بالتحرك ضمنها ، فيكف اذا شملتها الدراسة والاستقصاء كمسببات ؟ لذلك وجدنا ان اسلوب جمع المعلومات بواسطة استمارة مقننة قد لا يكون الاسلوب الناجح والملائم لهذه الدراسة . ومع ذلك ، نعتقد ان الاستمارة المقننة قد تزودنا ببعض المعطيات التي لا تتوفر من اي مصدر آخر . واستقر الرأي اخيرا ان نلجأ الى استعمال عدة اساليب اكاديمية في جمع المعلومات والحصول عليها :

---

(٢) المساعدون هم السادة : حسان حطب ، ماجستير في التجارة والمحاسبة ؛ نبيل سليمان ، مجاز في علم الاجتماع ؛ مصطفى اللداوي ، مجاز في التاريخ ؛ وليد زهر الدين ، صحافي ومجاز في علم الاجتماع .

● **اجراء مقابلات** خاصة مع بعض مصادر المعلومات ، في دوائر المراقبة ، او شركات التوزيع ، او ادارات المؤسسات الصحفية ، تدور محاور الاسئلة فيها حول مواضيع البحث ، وتكون حرة غير موجهة بمرشد للمقابلة . فقد ثبت لدينا ان الاسئلة الجاهزة تنفر المقابل وتجعله يتصور نفسه مسبقا ، في وضعية لا يرضاها ، خصوصا اذا دار النقاش « والاستجواب » حول قضايا حساسة كالتي تتناولها الدراسة .

● **استعمال استمارة** خاصة مقننة عند التوجه لشركات التوزيع ، وادارات المؤسسات الصحفية ، وتضمينها اسئلة تقنية بحتة .

● **اعتماد طريقة تحليل محتوى** الدوريات والمطبوعات (الصحف والمجلات والنشرات) للحكم ، ليس من خلال مواقف المسؤولين عن المؤسسات وآرائهم ، بل من خلال ما يسمح لهم بالحديث عنه ، اي ما تتضمنه المطبوعة فعلا من مواد تتوجه الى جمهور القراء .

● بالاضافة الى **الملاحظة العلمية المباشرة** لحقول وميادين الدوريات العربية ، في محاولة لضبط المتغيرات الحقيقية والواقعية ومقارنتها مع ما تتضمنه الدوريات فعلا .

● **تحليل النصوص التنظيمية ومواد القوانين** السارية المفعول ، للوصول الى البت في التساؤلات المطروحة على ضوء الواقع القانوني ، وليس على ضوء « تصريحات المسؤولين » وتقديمهم لانشطة اجهزتهم .

ان تضافر هذه الاساليب العلمية يوصل برأينا ، الى طرح صورة متكاملة عن واقع المطبوعة العربية ، ويمكن ان يساهم في فهم حقيقة « ضيق السوق الاستهلاكي » للمطبوعات ولمحدودية توزيعها والطلب عليها .

واعتمدنا في اختيارنا للاقطار التي شملتها الدراسة ، على مقاييس واعتبارات محددة هي : مدى مساهمة اجهزة الاعلام في القطر في القيام بعمليات الاتصال الجماهيري ، دونما نظر الى نوعية وطبيعة مضمون مواد هذه العمليات ، طبيعة الانظمة السياسية السائدة ، وهي تدخل في توجيه مباشر للاعلام ام لا ؟ تمثيل القطاعين العام والخاص تبعا لادوارهما في الاتصال الجماهيري ؛ نمط التوجيه الاعلامي لجمهور القراء .

على هذا الاساس تم اختيار كل من جمهورية مصر العربية ، الجمهورية اللبنانية ، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ، امارة دولة الكويت ، الجمهورية العراقية ، الجمهورية العربية السورية .

ففي مصر وسورية والعراق وليبيا ، الاعلام هو من مهمات القطاع العام وحده ، ويترك للقطاع الخاص ، خصوصا اذا اعتبرنا النقابات المهنية والحرفية والاتحادات ، كتنظيمات واجهزة تابعة لهذا القطاع ، مهمات محددة محصورة للاعلام ضمن نطاق نشاطاتها . وفي هذه الاقطار تتنوع الاشكال المعتمدة لتوجيه الاعلام بتنوع النظرة الى الاعلام اصلا في كل قطر من هذه الاقطار . اما في لبنان والكويت فدور القطاع الخاص المسيطر تقريبا على وسائل الاتصال الجماهيري يجعلنا لا نستطيع تجاوز تجربة هذين القطرين في مجال الاعلام والاتصال بجمهور المواطنين من القراء .

بعد هذا العرض السريع لمنهجية الدراسة وتقنياتها وحدودها النظرية والجغرافية نستعرض لاهم النتائج التي توصلت اليها بشكل مكثف يحدد الاجابات على التساؤلات التي طرحتها الفرضيات الاساسية ومن ثم نتناول بالتفصيل دور واثر الرقابات العربية على عمليات نشر وتبادل المطبوعة العربية .

اولا : ملخص مكثف للنتائج

ذكرنا ان فرضيات البحث الاساسية انطلقت من مستويين : الاول يتناول البحث عن طبيعة معوقات توزيع المطبوعات فيما بين الاقطار العربية : هل تعود الى طبيعة المواد التي تتضمنها من حيث الجودة والعمق والابداع ، ام ان بعض المؤسسات التي تتعاطى توزيعها هي التي تحكم على السوق العربية وتجعلها محصورة وضيقة ، لانها تقوم على اسس حرفية ، ويتم فيها تبادل علاقات تتسم بطابع ما قبل الراسمالية وبتعبير آخر ، هل تعود هذه المعوقات الى ذاتية المطبوعات ، ام الى موضوعية بنى المؤسسات ؟

اما على المستوى الثاني : فقد انطلقنا من تصور اهمية الدور الذي تلعبه الرقابة كتجسيد ملحوظ لممارسة سلطة اجهزة الدولة على وسائل الاتصال الجماهيري والنتائج التي تترتب على ذلك في احد اتجاهين : تنمية الوعي الاجتماعي عند الجماهير ودفعها للمشاركة في عمليات التقدم والتطور الاجتماعيين : طمس حقيقة التخلف ، واعاقة كل عملية توعية بهدف المحافظة على التوازن المؤقت القائم .

عمليا ، اجرى اعضاء الفريق ٥٩ مقابلة مع المسؤولين عن المجلات المتنوعة في البلدان التي غطتها الدراسة . وفيما يلي جدول يبين نوعية اهتمامات المطبوعات العربية التي تناولتها الدراسة موزعة حسب البلدان التي تصدر فيها :

القطر	ثقافة عامة	سياسية	تسلية	اطفال	متخصصة ونقابية	دينية	نسائية	المجموع
مصر	١	٢	١	١	٣	١	١	١٠
سورية	٢	—	١	—	٦	١	١	١١
العراق	٤	١	٢	٢	٣	—	—	١٢
ليبيا	١	٢	٢	١				٦
لبنان	٢	٢	١	١	٢	١	١	١٠
الكويت	١	٣	٢	—	٢	١	١	١٠
المجموع	١١	١٠	٩	٥	١٦	٤	٤	٥٩

اتضح عبر مسار الدراسة ، ان ما يبدو من محدودية توزيع المطبوعات العربية ، لا يعود في الواقع الى مضامين هذه المطبوعات ، فلقد درسنا اوضاع المؤسسات التي تصدر عنها من مختلف الجوانب ، وحللنا المواضيع التي تصدر فيها بشكل منهجي ونوعي ، وتوصلنا الى اكتشاف دوريات متخصصة لا تقل مستوى عن مثيلاتها الصادرة في الدول المتقدمة . اما بالنسبة للمطبوعات ذات التوجه العام ، من مجلات وصحف ، فانها تغطي مجمل حاجات واهتمامات سوق المطالعة العربية على تنوع ميادينها وانشطتها : السياسة المقننة ، الاجتماعيات ، الفكريات ، الفن والادب والرياضة ، والاعلانات والدعاية على انواعها .

والواقع ، ان سوق المطالعة العربية (سوق المجلات والصحف) ، تتصف بالشمول والتنوع ولا تتطلب اكثر من التغطية السريعة لمجالاتها المذكورة . وعلى هذا ، فان المستوى المتواضع للمجلات والصحف التي حللناها ، يعود الى طبيعة السوق ذاتها اكثر من ضيق الامكانات المادية الموضوعة في خدمتها . وبالتالي فان طبيعة المؤسسات الصحفية التي تصدر هذه المطبوعات يمكنها ان تلبي عدديا كافة الحاجات الظاهرة في السوق . (الطلب على الحاجات المختصة تؤمنها المجلات المتخصصة والعلمية ، والطلب على الحاجات العامة تؤمنها الصحف والمجلات العامة) ..

ورغم ان المؤسسات العامة والشركات الخاصة المهتمة بالتوزيع ، متهمة بتقصير واضح لانها لا تسعى ولا تخطط ولا تعمل على استثارة الحاجات والضرورات الكامنة عرضا وطلبا (سوق المطالعة ، ومواد المطالعة) ، الا ان لها من طواعية بنيتها وامكاناتها المادية القدرة الكامنة على تلبية كافة تلك المتطلبات اذا توافر لها شرطان اساسيان : اولا الفكر المخطط والمعقلن للحاجات والتقنيات ، فيستشرف الاحتياجات الآنية ويتصور التقنيات التي يمكن ان تساهم في تلبيتها ؛ وثانيا ، اتساع صدر الرقابة ، اقليميا وقوميا ، امام النشاط والانتاج الفكري المخطط والمعقلن عن طريق تسهيل عمليات نقله لايصاله والانباء عنه محليا وعربيا ، وعالميا. هذه المرونة في ممارسة الرقابة تعتبر بدون شك مؤشرا اساسيا على وعي النظام السياسي للاهمية القصوى لوسائل الاتصال الجماهيرية في رفع المستوى الفكري وتنمية الحس النقدي الايجابي عند الشعوب العربية .

ففي الوضع الراهن ، تبين لنا ان سلطة الرقابة هي التي تحدد في النهاية وبشكل اساسي حجم سوق التوزيع وتشكل بذلك المعيق الاول في وجه انتشار وتبادل المطبوعات العربية من جهة ، وتعطي لمضمون المطبوعة توجهاتها . وبالتالي فان العلاقة القائمة ما بين مادة المطبوعة والرقابة من جهة ، وحجم التوزيع في البلدان غير المغلقة في وجهه من جهة اخرى هي علاقة جدلية . فنوعية المطبوعة ستبقى محكومة بالاتجاهات التوفيقية لاداراتها المسؤولة على حساب الوعي العربي العام طالما ان سلطات الرقابة لن تفتح الابواب بوجهها .

ثانيا : الرقابات العربية والنشر

من المتوافق عليه اجتماعيا ان القوانين والانظمة تسن مبدئيا لتنظيم العلاقات او النواحي المتعلقة بالحقوق المتبادلة للافراد والجماعات وان وظيفتها اجرائية على الغالب . وفيما يتعلق بالقوانين الخاصة بالمطبوعات فهي « نظريا » ينبغي ان تنظم امور نشر مطبوعة ما وتحديد الشروط القانونية المطلوبة لذلك كما ينبغي ان تهتم بوضع الاطر التي لا يسمح بتجاوزها في عمليتي التوزيع والتداول فلا يمكن والحالة هذه ان تفرض قوانين المطبوعات قيودات صارمة ورقابة دائمة على الفكر وانتاجه ونشره

والا كان في ذلك قضاء على حرية ابداء الرأي والتعبير والمعرفة التي كفلتها المبادىء والمواثيق العالمية لحقوق الانسان .

انطلاقا من هذه المقدمات ما هي طبيعة الرقابات العربية واوضاع الاجهزة التي تشرف عليها وهل تلتزم بمبادئ الاعلان العالمي لحقوق الانسان وبالتالي الى اي مدى تشكل هذه الرقابات عوائق امام انتشار وتوزيع المطبوعة العربية في غير البلد الذي اصدرها ؟

ومن المعلوم ان المطبوعات في الدول العربية تصدر اما عن القطاع العام حين تكون الصحافة مؤممة ، واما عن القطاع الخاص . يتحدد على ضوء هذا الواقع شكل الرقابة المفروضة على المواد التي ستنشر في المطبوعة . فهناك : الرقابة الذاتية ، والرقابة المؤسسية ، والرقابة الرسمية .

ا ـ **الرقابة الذاتية** : هي عبارة عن العملية التي يقوم بها الكاتب عندما يرغب في تناول موضوع ما حيث يعمد الى تقنين الموضوع الذي ينوي بحثه ويقارن ابعاده مع حدود التشريع السائد في البلد الذي يعيش فيه ، او يفكر في النشر ضمن حدوده ، وفي البلدان التي قد يكون للمطبوعة فيها مجال للترويج . فالواقع ان معظم الدول العربية تعمد الى ربط حرية الكتابة والنشر بالمصلحة العليا للبلاد ، الامر الذي يتسبب باشاعة جو من الحذر والتردد لدى الكاتب والمؤلف والناشر يحملهم على ممارسة نوع من الرقابة الذاتية على اعمالهم قبل ان تقوم الدوائر المختصة بممارسة عملية الرقابة القانونية اي التدقيق بطبيعة الصلة بين مضامين ما يكتب ، واتجاهات ما يعرف بالمصلحة الوطنية العليا للبلاد . ان الكاتب يمر بمرحلتين من الرقابة الذاتية على افكاره وآرائه . فهو اولا ينظر في طبيعة الموضوع الذي ينوي معالجته فان وجده متآلفا مع الاوضاع السياسية السائدة او وجده ذا طابع ادبي ، او فكاهي ، او ترفيهي ، او عام لا يمت للسياسة بصلة ، او كانت الفكرة اجتماعية مجردة ، او ثقافية ، او علمية ، قام بصياغة عمله وعرضه على من يقبل نشره وتوزيعه . وقد يضطر الكاتب ، امام المواضيع المعيوشة والمهمة ان يصرف النظر عن اثارتها فيتخلى عن لعب دوره كهمزة للوصل بين افراد المجتمع والاحداث التي تجري فيه . وغالبا ما يحجم الكتاب عن الخوض في الموضوعات السياسية الا اذا كانت كتاباتهم تصب في اتجاه الفكر السياسي المعتمد في الدولة او الدول التي ستوزع فيها المطبوعة المتضمنة للمقال . وكذلك قد يمتنعون عن معالجة القضايا ذات الصبغة الاجتماعية او الدينية لا سيما اذا كانت الدولة تواجه كل خروج او محاولة للخروج عن الاطر التقليدية المحافظة .

وتبدأ المرحلة الثانية من الرقابة الذاتية عندما يقرر الكاتب المباشرة بالكتابة فيتوقف عند كل فكرة ، فيدقق في مضمونها ويقدر ابعادها على ضوء النظام السياسي السائد وادواته من النصوص والقوانين ليعرف ما اذا كان « مقص الرقيب » سيطالها ، او ان دائرة الرقابة ستمنع نشرها ، او هل متلاحقة بتهمة المساس بالمصلحة العامة ، او تعكير الامن ، او تهديد الكيان ، او افساد الافكار . فيكتب ما يكتب آخذا بالاعتبار كل هذه المعطيات .

ب ـ **الرقابة المؤسسية** : بعد ان يمر الكاتب بمرحلتي الرقابة الذاتية يدفع بنتيجة عمله الى صاحب المؤسسة الصحفية ، او الى مديرها المسؤول ليحصل على الموافقة لانزالها في المطبوعة . هذه الموافقة تكون حصيلة عملية مراقبة دقيقة جديدة يجريها هذا الاخير فهو يقوم عادة بتقليب المقال او الدراسة وتقدير طبيعة مضمونها كما ينظر في كافة افكارها وكذلك بالنتائج التي يمكن ان يؤدي النشر اليها ويقارن بين مضمون المخطوطة وبين قواعد القانون والانظمة المرعية الاجراء ، فاذا رأى ان هناك

بعض المقاطع او حتى الكلمات التي تزعج الرقيب الرسمي ، او تزعجه شخصيا طلب اعادة النظر فيها ، او يمتنع عن الموافقة على نشرها .

ان هذا الشكل من الرقابة تجريه دار النشر العامة ودار النشر الخاصة على السواء . فرئيس التحرير المسؤول في المؤسسة الصحفية العامة هو بطبيعة الحال عين السلطة لانه معين من قبلها للقيام بهذه الوظيفة اصلا ، فهو يبالغ نتيجة لذلك في فرض رقابته الخاصة على كل ما يتناول السلطة من قريب او من بعيد ، فيحافظ على استمرارية رضاها عليه ، واستمراره في منصبه . اما رئيس التحرير المسؤول في المؤسسة الصحفية الخاصة فهو يعلم ان هناك رقابة على المطبوعات تفرض حدودا للكتابة في بعض المواضيع وحظراً في مواضيع اخرى . فيمارس نتيجة لذلك رقابة لا تقل صرامة عن تلك التي تمارس في القطاع العام مخافة ان يثير تهاونه حفيظة الرقيب الرسمي او الاجهزة الاخرى فيعرض مصالحه للخطر او للعرقلة عن طريق التقنين عليه في الحصول على الورق التي تحتفظ الدولة بحق توزيعه اصلا على المؤسسات الصحفية الخاصة في بعض الدول العربية التي ما زالت تفسح في المجال امام القطاع الخاص في ميدان الصحافة ، او عن طريق تأخير السماح له باستيراد بعض الآلات التي تحتاجها مؤسسته .

قد نجد احيانا الكاتب الذي لا ترهبه او تعيقه كل هذه الاجراءات ، الا انه يصطدم بعقبة ايجاد الدار التي تقبل بتحمل المسؤولية معه ، او بالمغامرة بعرض المخطوطة على دوائر الرقابة للحصول على ترخيص بطبعها او توزيعها . وقد يقال بأن القانون لا يمنع الكتابة ، فالمرء حر في كتابة ما يشاء ، ولكن القانون يمنع نشر ما يكتب ولا يتساهل مع المخالف ، ولو كانت المخالفة فكرية ، فهو يعاقب عليها كبقية الجرائم سواء بسواء . نحن اذن امام عملية رقابة مسبقة يجدر ابرازها . فعندما تصل المقالة او الدراسة المعدة للنشر الى الرقيب الرسمي تكون قد خضعت الى عمليات تصفية طويلة ، وغربلة عسيرة مسبقة .

ان هذه العملية المثلثة الوجوه التي يقوم بها الكاتب والادارة ثم اجهزة الدولة ، لا تتم من اجل التوصل الى افضل الافكار واعمقها والى احسن المقالات واجدرها بالنشر ، بل غالبا الى عدم قول وكتابة ونشر ما كان يجب ان يقال ويكتب وينشر . فالفكرة الجنينية تراقب منذ بروزها وحتى كتابتها ثم يأتي دور الرقيب الرسمي .

ج ـ **الرقابة الرسمية** : ان اغلب التشريعات في الاقطار العربية ـ باستثناء لبنان في الظروف العادية ـ تفرض رقابة دائمة على النشر انطلاقا من فكرتين اساسيتين : فكرة الوقاية وفكرة الردع[٣] . فكرة الوقاية تؤدي المنع وفكرة الردع تحمل على التحريم . وقد ادى ذلك في اغلب الاقطار العربية الى اتساع نطاق الوقاية في التشريع حتى امتد الى فرض رقابة على المطبوعة قبل صدورها بل قبل طبعها احيانا . وغني عن القول ان المخالفة تؤدي الى الضبط والحجز واحيانا الى التوقيف ذلك ان فكرة الردع تسيطر على التشريع العربي الى حد يجد فيه القانون ان يجرم الرأي وصاحبه اذا طالا السلطة بالنقد .

واستنادا الى كل هذه المنطلقات نجد ان الرقيب الرسمي العربي يدور ضمن دائرة ضيقة تجعله

---

(٣) انظر جمال الدين العطيفي ، **حرية الصحافة وفق تشريعات جمهورية مصر العربية** ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٤٢ .

يحرم الدخول اليها على كل من يناقش مسلماته . هذا الواقع القانوني يساهم بتقوقع المطبوعة العربية ويجعلها « محصورة الاهتمامات بقضايا فيها ومنها ولها اي تتوجه كليا الى مواطن ما داخل حدود البلد الذي تصدر فيه . فتشعر عبر موادها السياسية والثقافية والاقتصادية بأنها تراهن كليا على ناس مدينتها ومدن بلدها ، كأن لا وجود للعرب الآخرين . طبعا انهم في الشعارات غير انهم غائبون حيث الشعارات تأخذ ملامح الاحداث المعيوشة .. كأن العالم العربي يبدأ في هذه العاصمة وينتهي حيث حدود نظامها[٤] » .

تتولى وزارة الاعلام في الدولة عادة مهمة الرقابة على المطبوعات . والسبب في ذلك ان المراقبة انشأت اصلا لمراقبة الصحف والدوريات . وتقوم الوزارة بهذه المهمة بواسطة دائرة متخصصة بالرقابة يتوزع العمل فيها مجموعات من اللجان التي تنظر في امر المطبوعة وتعطي حكمها بشأنها .

ففي لبنان مثلا تمارس دائرة المطبوعات في وزارة الاعلام مهمة الرقابة اللاحقة ويكون القرار للوزير ، هذا في الاحوال العادية حيث تفرض فيها الرقابة بموجب قانون صريح . اما في الاحوال الاستثنائية التي يفرض فيها القانون الرقابة المسبقة على كافة المطبوعات فتناط بالمديرية العامة للامن العام . وفي الكويت ، تتولى دائرة المطبوعات والنشر في وزارة الاعلام امر الرقابة على المطبوعات الصادرة فيه او المستوردة من الخارج ، ويكون لوزير الاعلام واحيانا لمجلس الوزراء ـ خاصة بالنسبة لفرض بعض العقوبات على الصحف ـ امر البت في القرار النهائي . اما في العراق تتولى هيئة رسمية تابعة لوزارة الاعلام مهمة الرقابة على كافة المطبوعات . وهذه الهيئة هي الدار الوطنية للنشر والتوزيع والاعلان . وفي سورية تخضع المطبوعات السياسية ، سواء اكانت صادرة عن دور نشر تابعة للقطاع العام او عن دور نشر خاصة ، لرقابة مديرية الرقابة في وزارة الاعلام . اما بقية انواع المطبوعات ، فتخضع الصادرة منها عن مؤسسات القطاع العام الى رقابة اتحاد الكتاب السوريين ، اما تلك الصادرة عن دور النشر الخاصة فتخضع لمديرية التأليف والترجمة في وزارة الاعلام .

اما الرقابة على المطبوعات في مصر ، فهي في ظاهرها رقابة ذاتية تمارسها مؤسسات النشر التابعة لقطاع العام ، ولكنها في واقع الامر رقابة رسمية مجبرة لصالح مستشار النشر او رئيس التحرير في المؤسسة من جهة ولدوريات الرقابة على المطابع من جهة ثانية . ففي المؤسسات الصحفية العامة التابعة للاتحاد الاشتراكي ، تسمي الحكومة مستشارا للنشر في مجلس ادارة كل منها ، يكون عمليا ممثل السلطة . فهو الذي يكلف « لجنة النشر » فيها الاطلاع على الاعمال المعروضة واعطاء الحكم بشأن نشرها بالنسبة للكتب . والدور نفسه يلعبه رئيس التحرير المعين بالنسبة لنشر المقالات والاخبار في الصحف . ومن جهة ثانية هناك دائرة للرقابة تابعة لوزارة الداخلية تسير دوريات تقوم بزيارات مفاجئة على المطابع لتتأكد من عدم قيامها بطباعة مطبوعات غير مرخصة ، فتتخذ الاجراءات القانونية والسياسية بحق الطابع المخالف .

ولكن كيف تتصرف هذه الاجهزة تجاه المطبوعات عموما ، والمطبوعات المستوردة من الاقطار العربية الاخرى على وجه الخصوص ؟ لن نتناول في عرضنا السريع هذا ، امر الرقابة على المطبوعات الصادرة في البلد نفسه . انما يهمنا ان ندرس التدابير المفروضة والمتخذة حيال المطبوعات المستوردة ،

---

(٤) راجع جريدة **النهار** البيروتية الصادرة بتاريخ ٧٨/٨/٢٤ ص ٧ .

على اعتبار انها هي صاحبة التأثير على عمليات تبادل وتوزيع الدوريات فيما بين الاقطار العربية .

ما يلفت النظر في التشريعات العربية ، انها جميعها ، لا تميز بين المطبوعات الصادرة في دول اجنبية وبين المطبوعات الصادرة في الاقطار العربية الاخرى . فجميع المطبوعات والمؤلفات والاخبار الصادرة خارج حدود الدولة المستوردة هي اجنبية ، سواء اصدرت في قطر شقيق او في بلد حليف او في دولة مناهضة ، فالجميع سواء امام انظمة المراقبة .

وتتصف سلطة الرقابة بالنسبة للمطبوعات الخارجية بأنها « نظريا » اوسع نطاقا من سلطتها بالنسبة للمطبوعات المحلية ، فهي لا تحتاج لصدور قانون يعلن حالة الطوارئ ، او يعطي السلطة صلاحيات استثنائية كي تمارسها ، فالرقابة على المطبوعة الاجنبية هي القاعدة ، بعكس الرقابة الداخلية التي يفترض ان تكون استثنائية ومحدودة وضيقة .

ويتفاوت دور هيئات الرقابة على المطبوعات الخارجية من منح اجازة لدخول المطبوعة المستوردة من قبل موزع مستورد ، وبين حصرها حق هذا الاستيراد بمؤسسات رسمية .

وعلى خلاف ما كان عليه الامر بالنسبة للمطبوعات المنشورة في لبنان ، حيث لا توجد رقابة مسبقة ، فان وزارة الاعلام تتولى مراقبة المطبوعات المستوردة من الخارج . ويشارك الوزارة ، دوائر الامن العام ، كما هو الحال اليوم ، عندما تعطى الحكومة الصلاحية الاستثنائية بالرقابة على المطبوعات . وعليه فقد نصت المادة الثامنة من مذكرة الخدمة الصادرة عن المدير العام للامن العام تنفيذا للمرسوم الاشتراعي ٧٧/١ المتعلق بفرض رقابة على المطبوعات انه « يقتضي ايداع المديرية العامة للامن العام خمس نسخ عن اية مطبوعة او منشورة ينوي ادخالها الى لبنان لتجري مراقبتها ومنحها الترخيص المطلوب » . وتقوم دار الصحيفة او دار النشر باستيراد المطبوعات التي تشاء ، وتعرضها على وزارة الاعلام ، ولكن عمليا لا تتم المراقبة الا في حالات فرضها استثنائيا بموجب القانون . فاذا وجدت هذه الهيئات ان المطبوعة المستوردة فيها مخالفة لاحكام المادة ٥٠ المذكورة احالت الامر الى وزير الاعلام لاتخاذ قرار المنع . ذلك ان قرار منع ادخال مطبوعة مستوردة لا يتخذ الا من قبل الوزير المختص ، اي وزير الاعلام . اما في الحالات التي تنشأ فيها الرقابة على المطبوعات فتكون الصلاحية لمدير الامن العام .

وفي الكويت ، تنص المادة ٣٧ من قانون المطبوعات على انه « يجوز ، محافظة على النظام العام او الآداب العامة ، او حرمة الاديان ، منع تداول مطبوعات واردة من الخارج . ويكون هذا المنع بقرار يصدر من رئيس دائرة المطبوعات والنشر » . فالرقابة اذن ، في الكويت ، رقابة مسبقة ، فيما يتعلق باستيراد المطبوعات والجدير بالذكر ان الرقابة تمارس في الكويت على المطبوعات المستوردة والمصدرة . والرقابة تكون شديدة عادة بالنسبة للمطبوعات السياسية المستوردة . ويتولى هذه الرقابة جهاز خاص تابع لوزارة الاعلام .

وفي العراق ، تتولى هيئة عامة ، هي « الدار الوطنية للنشر والتوزيع والاعلان » مسؤولية استيراد المطبوعات ، وتقوم لجنة مؤلفة من هذه الدار بمراقبة المطبوعات المستوردة ، وكذلك هناك لجان في مراكز البريد لمراقبة المطبوعات الآتية من الخارج . وقد سمح العراق منذ مدة لاصحاب المكتبات الخاصة بالاستيراد ولكن بعد الموافقة المسبقة من قبل هيئة الرقابة .

وفي سورية ايضا ، هناك رقابة مسبقة على استيراد المطبوعات من الخارج ، ويبدو ان هيئات الرقابة والهيئات العامة ـ الدار الوطنية ـ المسؤولة عن الاستيراد لا تشجع المطبوعات الصادرة في الخارج ، عربية كانت هذه الكتب او اجنبية . والمادة ١٣ من قانون المطبوعات السوري تنص « على كل وراق او متعهد يستورد المطبوعات الدورية الاجنبية ان يودع نسختين عن كل مطبوعة الى المديرية العامة للدعاية والانباء قبل توزيعها في السوق » واضافت المادة ١٤ من القانون ذاته على انه : « لرئيس مجلس الوزراء بناء على اقتراح وزير الداخلية او المدير العام للدعاية والانباء ان يمنع دخول او تداول المطبوعات الخارجية اذا تبين انها تمس السيادة الوطنية او تخل بالامن او تتنافى مع الآداب العامة . يبقى ان نشير الى انه في وجود قوانين الطوارىء وحالة الحرب تعطل اغلب احكام هذه النصوص .

اما في جمهورية مصر العربية ، فقد اعطت المادة ٩ من قانون المطبوعات المصري لمجلس الوزراء الحق في ان يمنع اي مطبوع صادر في الخارج سواء اكان هذا المطبوع دوريا ام غير دوري من الدخول الى البلاد او التداول فيها متى كان هذا المنع لازما للمحافظة على النظام العام او على الآداب العامة والاديان[٥] . وتخضع قرارات السلطة الادارية بمنع تداول المطبوعات لرقابة القضاء الاداري الذي له ان يلغي قرار المنع اذا تبين انه لا يتضمن ما يهدد النظام العام او ما يمس الدين او الآداب . وقد كان الرقيب العام في مصر قد اصدر عام (١٩٦٤) قرارا برقم ١ حظر فيه « على جميع اصحاب دور النشر ودور التأليف والمكتبات والهيئات والاشخاص ان يحرزوا بأية صفة كانت ، او يعرضوا او يتداولوا اي نوع من الكتب او المطبوعات او المخطوطات او الصور بجميع انواعها ، او الصحف او الجرائد او المجلات التي ترد من الخارج او ترسل للخارج بأي طريق كان ، قبل عرضها على الرقابة لتراقب وتراجع ويصدر بها تصريح كتابي يسلم لصاحب الشأن ، وعليه ان يحتفظ به لتقديمه للسلطات المختصة كلما دعا الحال .

معايير الرقابة

اذا اعتبرنا ان المبدأ هو حرية التعبير والمعرفة والفكر والثقافة ، وان حماية هذا المبدأ تحتاج الى احكام عامة ، ينص عليها قانون المطبوعات ، غايتها وضع حدود ممارسة هذه الحرية دون القضاء عليها ، واذا قبلنا جدلا انه في بعض الظروف من الممكن فرض رقابة مانعة رادعة ، فذلك يفترض ، كما بالنسبة لكل استثناء وكل قيد على الحريات ان يحدد اطار هذه الرقابة بصورة ضيقة ، وان تحدد معايير ممارستها بصورة دقيقة واضحة ، وذلك منعا لكل تعسف ، وقطعا لكل استبداد . فما هي المعايير المعتمدة في التشريعات العربية لفرض الرقابة وممارستها . وهل ان النصوص القانونية حددت بشكل قاطع تلك المعايير ام ان فيها من الثغرات والتعابير العمومية ما يصعب معه معرفة ما اذا كان هناك فعلا معايير قانونية على الرقيب ان يتقيد بها . ثم ، ما هو المعيار الحقيقي والواقعي الذي تعتمده دوائر الرقابة في منعها نشر او توزيع مطبوعة ما؟

١ ـ **المعايير القانونية للرقابة** : ان مطالعة النصوص القانونية والتنظيمية المتعلقة بالرقابة على المطبوعات في الاقطار العربية تظهر لنا استحالة تحديد معايير او معيار قانوني واضح وقاطع ، نستطيع اللجوء اليه لمعرفة ما اذا كانت الدوائر الحكومية والرسمية المولجة امر الرقابة تمارس صلاحياتها ضمن حدود القانون واحكامه ، دونما تعد على الحريات او تعسف في استعمال السلطة .

---

(٥) العطيفي ، سبق ذكره ، ص ١١٩ .

تجدر الملاحظة اولا ، ان بعض الاقطار لا تضع احكاما منظمة مفصلة لعمل الرقابة . فالرقابة تنشأ انطلاقا من مبدأ يقضي بضرورة وجودها حفاظا على النظام والحكم ، وتحكمها قواعد الممارسة والتكامل . وحتى في الاقطار التي لا يجوز فيها فرض الرقابة على المطبوعات الا بموجب نص تشريعي خاص وصريح ، كما في لبنان مثلا . فانه يصعب تحديد المعايير القاطعة لممارستها . والصعوبة في التحديد تكون اشد ، عندما نعلم ان قوانين الرقابة وانظمتها ، تهتم اساسا ، بالرقابة على الصحف ، ولا تتناول الا عرض الشؤون المتعلقة بالمطبوعات الاخرى .

ونظرة الى التشريع اللبناني نجد ان قانون المطبوعات يعاقب ، بموجب عملية رقابة لاحقة تمارسها وزارة الاعلام ، على نشر بعض المطبوعات التي يجدها مخالفة للمعايير المحددة بهذا القانون ، وهذه المعايير هي : الامن ، الشعور القومي ، الآداب العامة ، الطائفية . يعود طبعا للنيابة العامة ان تقول ، ولمحكمة المطبوعات ان تقضي، فيما اذا كانت المطبوعة تشكل تعكيراً للامن او مسا بالشعور القومي ، او ما يتنافى والآداب العامة ، او يثير النعرات الطائفية .

ان النص [٦] في لبنان عدد حصرا معايير الرقابة . ولكن ضمن هذه المعايير ، هل نستطيع ان نعرف ما هي القاعدة المتبعة من قبل الرقيب للقول ان هذه المطبوعة فيها ما يثير النعرات الطائفية او يحرض الشعب ، او يدعو الى الاقتتال او يسيء الى الاخلاق العامة . الكلمة الفصل هي لغرفة الرقابة الخاصة ولمدير عام الامن العام . فدوائر الرقابة تتمتع في هذا المجال اذن بسلطة استثنائية ، غير مقيدة في تطبيقها لهذه المعايير وفقا للمادة الاولى من المرسوم الاشتراعي رقم ٧٧/١ التي تنص على ان يعود لمديرية الامن العام « ان تلغي كليا او جزئيا ما هو معد للنشر ، كما لها ان تمنع صدور النشرة المعروضة على الرقابة اذ رأت داعيا لذلك » .

وحالة التشريع اللبناني افضل بكثير من حالة التشريع في بقية الاقطار العربية . في لبنان ما زالت الرقابة هي الاستثناء ، ولم تفرض الا مرات ثلاث منذ الاستقلال ، وعندما تفرض ، تسعى النصوص لتحديد معاييرها . اما في بقية الاقطار العربية ، فالنصوص احيانا غير موجودة ، وان وجدت فان المعايير غير محددة .

في الكويت مثلا ، نعلم ان قانون المطبوعات يحظر نشر ما من شأنه ان يخدش الآداب العامة او يمس كرامة الاشخاص او حرياتهم الشخصية ، او افشاء الاسرار ، او التهديد او ما من شأنه التأثير في قيمة العملة الوطنية او بلبلة الافكار عن الوضع الاقتصادي . لكن هذه معايير عامة . اما بالنسبة للرقابة على المطبوعات فلا معايير محددة اذ يعود الامر الى الرقيب ويختلف المعيار باختلاف الموضوع .

في العراق على المطبوعات ان تعمل ضمن الهدف العام للثورة والحزب ، وضمن اطارهما وان تدعو الى الاشتراكية والقومية والتقدمية . ويعود للرقيب ان يقول متى تقع المطبوعة خارج اطار المبادىء المعلنة للثورة والحزب ، ومتى لا تدعو الى الاشتراكية والقومية والتقدمية . لكن لا توجد نصوص واضحة تحدد كيفية ممارسة دوائر الرقابة صلاحيتها وحقها ان تحذف ما تشاء او تلغي ما تريد .

---

(٦) راجع مذكرة الخدمة رقم ٢ بتاريخ ٧٧/١/٣ الصادرة عن مدير عام الامن العام ، المادة الرابعة حيث تحدد معايير الرقابة .

وفي سورية ، ايضا ، لا نصوص واضحة ومحددة ، فالاعتبارات المعتمدة من قبل دوائر الرقابة في وزارة الاعلام ولجان اتحاد الكتاب هي الاعتبارات الاخلاقية والدينية والسياسية . اما السؤال عن « كيف ولماذا » فيبقى بلا جواب . لان السلطة استنسابية واحيانا مطلقة .

وفي مصر ، حيث الدستور يحظر فرض الرقابة على المطبوعات الا في حالة الحرب او عند اعلان الطوارىء لا يجوز لهذه الرقابة ان تصل كما يؤكد الدكتور جمال الدين العطيفي[7]«الى غير ما يتصل بالسلامة العامة او اغراض الامن القومي . فلا يجوز ان تمارس لدرء النقد عن الاجهزة المسؤولة او عن الاشخاص ذوي الصفة العامة او حتى لحماية غايات اخرى غير السلامة والامن القومي ، مثل حماية النظام العام او امن الحكومة » . الا ان الوضع في مصر اخطر منه في غيرها . السلطات تعلن رسميا انه لا وجود للرقابة على المطبوعات ولكن على العكس يتبين لنا ان هناك ، وفي الاحوال العادية ، رقابة ، ورقابة مشددة ، لذلك فبالنسبة للمعايير المعتمدة ، فانها تبقى ظرفية وشخصية ، لا يحدها نص ولا توضعها قاعدة . وقانون المطبوعات لا يتناول بالحظر الا المطبوعات المثيرة للشهوات والمخلة بالنظام العام والسلامة وبالآداب العامة .

ب ـ **المعيار الحقيقي للرقابة** : يبرز من خلال كل ما عرضناه الدور المعيق الذي تلعبه الاجراءات القانونية والرقابية في وجه نشر وتداول وتبادل المطبوعة العربية . فمجموعة المعاملات الطويلة والمعقدة المطلوب القيام بها ليس سوى حواجز تعرقل حركة تبادل الافكار والاخبار . وهذه الحواجز بدورها تجسد عائقا من نوع آخر هو العائق السياسي . مثلا نجد بلدين عربيين متجاورين تنقل بينهما الافكار والناس بحرية ، او حتى تسهلان حصول مثل هذه الحركة ، فمن الخليج الى المغرب تطالعنا ثنائيات من الاقطار العربية المتخاصمة ، حيث يستمر بينها الخلاف حول قضايا متباينة : فمن خلاف على الحدود ، الى خلاف ايديولوجي ، الى خلاف منشأه تعارض انظمة الحكم او الاتجاهات السياسية للحكام . كل ذلك يشكل ظروفا مؤاتية ، وحججا لتبرير الضيق على حركة المطبوعات وتبادلها ، وعلى الرقابات الصارمة المفروضة ، بحيث يستحيل دخول مطبوعة عربية الى قطر عربي اذا لم تكن مواقفها منتمية الى النهج السياسي للسطة القائمة فيه .

فاذا انتفى المعيار القانوني في ممارسة الرقابة على المطبوعات فان المعيار الواقعي والفعلي لم ينتف ، وهو بديهي . ذلك ان المعيار الحقيقي الذي تعتمده دوائر الرقابة للحكم في مصير المطبوعة هو المعيار السياسي .

ونلخص هذا المعيار بالقول : ان كل ما يكتب او ينشر ويكون مخالفا لارادة الهيئة الحاكمة القائمة ، او لا يتمشى مع سياستها او يجرؤ على انتقادها او انتقاد الاوضاع السائدة في ظل نظامها يقع تحت مقصلة الرقابة . هذا المعيار الواقعي قد يغلف بمعيار قانوني ، وهو النص القائل بمنع ومعاقبة كل ما من شأنه ان يمس النظام ، او السلامة العامة للبلاد ، او يحرض على الثورات ، او الفتن .

نستنتج ان ممارسة الرقابة على هذا النحو يؤدي الى طمس حقيقة التخلف وميادينه لتعذر القدرة على توجيه الانتقاد ، كما يؤدي الى اعاقة كل عمليات الاتصال والتوعية بين العرب بالنسبة لحقائق وواقع الاقطار العربية الاخرى . فيساهم هذا الامر في تعزيز التجزئة والتباعد العربيين على المستويين الشعبي والنفسي كما على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

---

(٧) السالف الذكر ـ ص ٢٧ .

تمثل « العربية المعاصرة »
للحاجات والابداعات الجديدة

د . عفيف دمشقية

استاذ اللغة العربية في كلية الاداب
والعلوم الانسانية في الجامعة اللبنانية

لا بد قبل الحديث عن تمثل « العربية المعاصرة » للحاجات والابداعات الجديدة من الاتفاق على ما اذا كان هناك « عربية معاصرة » ، خلافا لما يظنه اصحاب « النقاء اللغوي » من ان العربي ما يزال يستخدم للكتابة في اواخر القرن العشرين لغة اجداده الاولين ، مستندين في وهمهم الى امور اشهرها :

١ ـ فضل العربية وكمالها المطلق بازاء لغات الارض جميعا ، لانها لغة القرآن والسنة ، وهما كل الدين .

٢ ـ دور القرآن في حفظها ونقائها والحؤول دون ان تصاب بما اصيبت به « اللاتينية » مثلا من انحلال وموت وانقراض .

٣ ـ رسم حدودها وقواعدها وضوابطها على يد السلف الصالح بما لا يترك مجالا لمستزيد .

٤ ـ بقاؤها على الزمن بعد ان زالت لغات كثيرة ، وعلى رأسها « اللاتينية » التي كانت لغة الكتابة والفكر والادب في فرنسا وايطاليا ورومانيا واسبانيا والبرتغال ، فانقرضت بعد ان اشتد عود لهجات هذه البلاد المحلية التي كانت مقصورة على المحادثة وتصريف شؤون الحياة اليومية ، وبعد ان وضحت دلالاتها وطرق استعمالها ، وتم لها تأدية الحقائق العلمية والادبية ، بينما استعصت الفصحى العربية على العاميات السائدة في شتى اصقاع العالم العربي ، على الرغم من الدعوات الشعوبية التي لا تفتر لاحلال تلك العاميات محل اللغة النموذجية المشتركة بين ابناء العروبة .

وقبل الافصاح عما اذا كان هناك « عربية معاصرة » ، نبادر الى القول بأنه ليس لباحث ان يتعامى عن فضل القرآن في حفظ العربية . ولا عن دور اللغويين العرب في رسم حدودها وقواعدها وضوابطها ومقاييسها . لكنه لا يستطيع ان يتعامى كذلك عن حقيقة علمية هي ان اللغة ، اية لغة ، تتمرد دائما على الجمود في قوالب ، مهما اجاد ابناؤها في وضع معجماتها ، وتحديد الفاظها ومدلولاتها ، وضبط قواعدها واصواتها ، ومهما اجهدوا انفسهم في اتقان تعليمها للاطفال قراءة وكتابة

ونطقا ، وفي وضع طريقة ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون بهذا الصدد[1] . كما لا يستطيع ان يتعامى عن حقيقة اخرى هي انه لو بحث باحث عن تحقيق الكمال في اللغة لما عثر عليه في اي مكان . ذلك ان الكمال مثل اعلى ينشد باستمرار ولا يعثر عليه قط[2] .

واما استعصاء العربية الفصحى على جميع العاميات العربية فأمر يختلف تماما عن امر « اللاتينية » وقضاء العاميات الفرنسية والايطالية والاسبانية الخ ... الخ ... عليها . ذلك ان العاميات السائدة في اقطار العالم العربي اليوملييست« لغات » او « لغيات » محلية مختلفة في اصولها كل الاختلاف عن العربية الفصحى ، كما كانت حال العاميات المذكورة اعلاه مع « اللاتينية » . فاذا كان في العاميات العربية بعض المفردات التي لا تمت الى العربية الفصحى بصلة ، فهي لا تعدو ان تكون جزءا ضئيلا بالنسبة الى الكلّ ذي الاصول العربية الصريحة ، مفردات وصيغا وطرق تعبير ، حتى وان غابت عن هذا الكلّ قواعد الاعراب وعلاماته من ناحية ، وطرأت تغييرات شتى على اصوات بعض الحروف فيه من ناحية اخرى . فهاتان الظاهرتان لا تخرجان على المألوف من سنن التطور الذي لا محيد عنه في كل لغة .

وبعد ، هل هناك « عربية معاصرة » ؟ لقد دلت الدراسات الرصينة على ان لغة عربية « حديثة » بدأت بالتكون مع اطلالة « الصحافة » على الوطن العربي في اوائل القرن الماضي . ولعل ابرز معالم « الحداثة » في تلك اللغة :

● تسرب عدد من طرق التعبير الاجنبية الى العربية[3] . عبر الصحافة والمترجمات التي نهضت بالجزء الاكبر منها « مدرسة الالسن » التي انشأها في مصر رفاعة الطهطاوي (المتوفى عام ١٨٧٣ م) .

● ما ابتدعته قرائح الكتاب والادباء من مشتقات ومنحوتات كان الهدف منها أن تحل محل المقترضات العجلى من اللغات الاجنبية المترجم عنها[4] .

● « تغير طريقة الكتابة تبعا لتغير طريقة التفكير : من تقصير الجمل ، وفصل العبارات، واستخدام صيغ جديدة لاداء معان جديدة . والتجوز بكثير من المفردات لاصابة ما لا تطوله بأصل الوضع اللغوي[5] ، ما دام اللفظ الجديد او الاسلوب الجديد « ليس من شأنهما ان يفسدا اصلا من اصول اللغة او يخرجا بها عن طريقها المألوفة »[6] .

واذا كانت هذه اللغة العربية « الحديثة » التي ولدت مع بدايات القرن الماضي وترعرت ونمت في اوائل هذا القرن تحفل بألفاظ لم يعد لمدلولاتها الاصلية وجود الا في بطون المعجمات ، وفي اذهان نفر

---

١) الدكتور علي عبد الواحد وافي ـ **علم اللغة** ـ القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٢٨

٢) J. Vendryes- **Le Langage**, Paris. 1968. P 269.

٣) الدكتور مصطفى جواد ـ **المباحث اللغوية في العراق** . القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٤ .

٤) Ch. Pellat- **Introduction à l'Arabe Moderne**,Paris. 1970. P IV.

٥) عمر الدسوقي ـ **في الادب الحديث** ـ القاهرة . ١٩٧٠، ج ١ ص ٢٥٦ .

٦) طه حسين ـ **حديث الاربعاء** ـ القاهرة (بلا تاريخ) ، ج ١ ص ٢٢٣ .

ضئيل من المتخصصين بالتراث ، لانه اصبح لها مدلولات جديدة في حوافظ المعاصرين اللغوية (مثال ذلك : برّر عمله ، بمعنى ذكر من الاسباب ما يبيحه ، بينما معناها في اصل الوضع زكّاه وطهّره . وصوّت ، بمعنى اقترع واعطى صوته في الانتخاب ، وهي في الاصل مبالغة في « صات » ، اي اخرج صوتا . واضرب ، بمعنى توقّف عن العمل احتجاجا على امر ما ، ومعناها في اصل الوضع اقام ولم يبرح ، الخ ...) ، وتحفل كذلك بضروب من التعابير المقترضة من اللغات الاجنبية (مثال ذلك : ذرّ الرماد في العيون ، والاصطياد في الماء العكر ، ولعب دورا ، الخ ...) ، يمر بها القارئ العربي اليوم فلا يكاد يخطر بباله انها ليست من صميم لغته ، نقول : اذا كانت تلك اللغة « الحديثة » تحفل بهذا كله ، فان المسيرة لم تتوقف ، وما زالت مستمرة مع امثال (التقزيم ، والتحجيم ، والاسقاط ، والبنى الفوقية والتحتية ، وتطبيع العلاقات ، الخ ...) ، وامثال (وضعه في الصورة ، واعطاه الضوء الاخضر ، وسعى لاحتوائه ، الخ ...) .

اضف الى ذلك عناية الكتاب والباحثين العرب اليوم بتسخير وسائل الابلاغية لخدمة ما يبدعون ، كالاهتمام بعنصر من عناصر العبارة وابرازه بمختلف الطرق من تقديم وتأخير او تكرار والحاح ، الخ ... وكاللجوء الى استغلال القيم التي تستدعي الى الاذهان ذكريات او عبرا ، او تثير مخزونات كانت كامنة في الحافظة او في اللاوعي ، وغير ذلك من الامور التي يتوسلها الفنان الحق لابلاغ المخاطب ما يريد بأيسر السبل والطفها وآكدها[7] .

يتضح من كل ما تقدم ان في الوطن العربي اليوم « عربية معاصرة » ، وان انكار وجودها ضرب من المكابرة لا طائل تحته ، او هو ضرب من جهل لا يليق بانسان مثقف ، فكيف بمثقف يحيا في القرن العشرين ؟!!

ننتقل بعد هذه المقدمة الى لب الموضوع : « تمثّل العربية المعاصرة للحاجات والابداعات الجديدة »، فنقول انه لما كان اوسع من ان نفي به عجالة ، فقد رأينا ان نقصر البحث على اربع نقاط هي : الوطن العربي كيان خاص له مشكلاته وهمومه وآماله وطموحاته : « العربية المعاصرة » قادرة على الوفاء بحاجاته : هو جزء من عالم اكبر له خصائصه ، ويكاد يجدّ فيه جديد كل يوم : محاولته لتمثّل ابداعات الحضارة العالمية ، ودور « العربية المعاصرة » في هذه المحاولة .

لا شك ان الوطن العربي اليوم في مخاض : بحث عن الذات ، ثورة على التخلف والجهل ، سعي للاعتماد على النفس في اكتشاف الخيرات وتوظيف الامكانات ، أمل وعمل لتحرير الارض المغتصبة ؛ نهضة جديدة ومزيد من الرقي الفكري والثقافي ، دأب متواصل للحاق بركب الحضارة المعاصرة ... انه اذن في حركة مستمرة ، والحركة حياة .

ولما كانت اللغة مؤسسة بشرية ترقى برقي ابنائها ، وتحيا بحياتهم ، وتتطور بتطورهم ، ولما كانت اداتهم الحضارية الوحيدة للتعبير عن همومهم وآلامهم ، والعمل على تحقيق آمالهم وطموحاتهم ، فلا غرو اذن ان تستجيب « العربية المعاصرة » لحاجاتهم وتعمل على تمثّلها كخير ما يكون التمثّل .

---

٧) لا بد من الاشارة هنا الى انه دبّ الى العربية المعاصرة ، ولا سيما في النصوص الصحفية والاعلامية ، كثير من الفوضى في مجال نظام تركيب الكلام ، نتيجة للاسراف في استخدام الابلاغية من جهة ، وللجهل بخصائص العربية في ميدان الابلاغية من جهة ثانية .

فلقد قدم المفكرون الطليعيون من شعراء وقصاصين ومسرحيين ونقاد وباحثين بين يدي العربية حياة نابضة بالفعل ، فما لبثت هي ان تلونت بها بأزهى الالوان ، وراحت تزفها بدورها الى الجماهير العربية العريضة اصداء لما يعتلج في صدور ابنائها من مقومات الحياة .

ولا داعي على ما نظن للاغراق في تأكيد هذا الامر ، لان الادب والكتابة ، شعرا كانا او نثرا ، ابداع . ولا يكون الابداع الا ذاتيا ، ولا يتم الا « في اللغة » ، اللغة التي تفكر داخل ذات المبدع فتصوغ ابداعه كأحسن ما يكون الصوغ ، وتفكر خارج ذاته فتبلغ المخاطبين ذاك الابداع كأحسن ما يكون التبليغ .

واذا حدث ان شعر انسان بقصور لغته عن اداء ما يريد ، فمعنى ذلك انه هو القاصر عن بلوغ مستوى الابداع ، وان عليه بدل ان يصب جام غضبه على « اللغة » ، ان يحتشم وينسحب من الميدان ، لان العلة كامنة في ذات نفسه لا فيها . ففي اللغة نوع من « ما ورائية خفية » تحدد فكر الناطقين بها وتوجهه وترسم له قدره . انها ليست مجرد نظام لساني مهمته تجسيد الافكار والآراء ، بل هي نظام لصقل تلك الافكار والآراء ، ومنهج لارشاد نشاط الفرد الذهني ، وتحليل انطباعاته وتوليف ما في اعماق ذاته[٨] . كما ان فيها من الطواعية ما يجعلها تستجيب لحياة كل جيل وحاجاته . ذلك انها ارث للجماعة يعاد تأسيسه ويستكمل بشكل من الاشكال ، وبدرجات متفاوتة ، في كل جيل ، وحسب تبدل صورة العالم الماثلة لاذهان الناطقين باللغة[٩] .

وليست عربيتنا بدعا من غيرها من اللغات ، وفينا لحسن الحظ مفكرون ومبدعون قادرون على اعادة تشكيلها واستكمال نواقصها كلما دعت الحاجة . وهذا هو الحاصل اليوم بالضبط ، وهو ما سوف يحصل على الدوام ، طالما ان الامة العربية قد آلت على نفسها أن تنفض غبار الجهل والتخلف ، وان تكون لها مكانتها المرموقة تحت الشمس .

بقي الشق الثاني من الموضوع ، وهو انه لما كان الوطن العربي جزءا من عالم اكبر ، وكان يجدّ في هذا العالم جديد كل يوم تقريبا ، وكان لزاما على العرب ان يسايروا ركب الحضارة المعاصرة استجابة لطموحاتهم في القضاء قضاء مبرما على تخلفهم ، فانه ينبغي ان يقفوا اليوم موقف اسلافهم بالامس ، يوم احتكوا بحضارات لم يكن لهم بها عهد في مهدهم الاول . فلقد ساعدت الاسلاف ديناميكيتهم ورجاحة عقولهم على التصرف التصرّفَ الحكيم المفترض في كل امة راقية : اقترضوا من لغات غيرهم دونما اي شعور بالنقص ، وعرّبوا المقترض واشتقّوا منه ، ابتدعوا الفاظا جديدة بكل الوسائل التي تتيحها اللغة ، من ارتجال ، واشتقاق ، ونحت ، وتوسع في الدلالات للحصول على معان جديدة ، استنبطوا اساليب تعبير تلائم الاغراض المستجدة ، وباختصار تمثّلوا بـ « لغتهم الجديدة » الثقافات والحضارات الجديدة ، بل اضافوا اليها بعد التمثّل الكثير الكثير بلغتهم الجديدة هذه .

وانه لمن حسن طالع العرب ان يثبتوا اليوم انهم ، وان فقدوا بعض مقوّمات حضارتهم الغابرة ، بل ربما الكثير منها ، بفعل ظروف القهر والتسلط ، وسياسة التجهيل والافقار واشاعة الامية ، فانهم لم

---

٨) Selected Writings of Benjamin Lee Worf, New YorKand London, 1956. P 212

٩) راجع في هذا الصدد W. V. Wartburg et S. ULmann, Problèmes et Méthodes de la Linguistique, Paris, 1969. PP 252-253.

يفقدوا قط حيويتهم الاصيلة التي ما زالت تأخذ بيدهم كما اخذت بيد اسلافهم من قبلهم ، فيقبلون على مكتشفات العالم ومبتدعاته يتمثلونها بلغتهم « المعاصرة » ، علوما وضعية ، وتكنولوجيا ، وعلوما انسانية ، مقترضين من لغات المكتشفين ما لا مقابل له ، او ما لم يجدوا له بعد مقابلا في عربيتهم ، ناحتين ومشتقين من اصول لغتهم ما يمكن نحته واشتقاقه ، مؤدين بأكبر قدر ممكن من الامانة معطيات الحضارة الجديدة ، ريثما يتمّ لعربيتهم ان تتمثل تلك المعطيات وكأنها من نتاجهم ، او ريثما يقدّر لهم ان يضيفوا الى الحصيلة معطيات من ابداع قرائحهم .

واذا كان هناك من ملاحظة في هذا الصدد ، فهي انه في خضمّ هذه الحمى من سرعة الاكتشاف ، وفي هذا التعجّل القسري للحاق بركب الحضارة المعاصرة ، لا بدّ ان تحدث بعض السقطات وترتكب بعض الهفوات . وتتجلى هذه السقطات والهفوات اكثر ما تتجلى في مجال تركيب الكلام . ان لكل لغة خصائصها في نظام تركيب الكلام ، ولا يجوز التساهل تحت اي ستار في ان يفسد نظام الكلام العربي ، لان في فساده استغلاقا للفهم بدلا من وضوحه ، وبلبلة للاذهان عوضا عن تنويرها ، كما انه قد يفضي الى سوء الامانة ـ غير المقصود طبعا ـ في نقل الحقائق كما ارادها صاغتها .

ولا ريب في ان على قادة الفكر في الوطن العربي اليوم ان يدركوا هذا الواقع تمام الادراك ، فيمضوا في طريقهم غير هيّابين ولا آبهين للعدسات المكبرة التي يسلطها المتزمتون على كل مستجد في العربية من المفردات والصيغ ، للحكم على صلاحه او عدمه . فاللغة وحدها هي المرجع الصالح لذلك ، ولها حاميتها التي تمنع غير المرغوب فيه من دخول حرمها ، وتسمح للخيّر بالدخول . لكن عليهم في الوقت نفسه ان يحولوا دون اختلال نظام التركيب ، وان يسارعوا اذا حدث شيء منه ـ وقد يحدث نتيجة لبعض الظروف ، وعلى راسها ظرف التعجّل ـ الى اصلاحه ، ويعملوا ما في وسعهم لمنع تكراره .

بقي ان نقول ان « العربية المعاصرة » بخير ما دام ابناؤها بخير ، وانه لا خوف عليها ولا هي تحزن ، حتى من الدعوات الشعوبية المغرضة حول قصورها وعجزها . ذلك ان هذه الدعوات لا تعدو ان تكون « اسقاطا » لقصور دعاتها وعجزهم عن ان يفكروا بها . لانها هي لا تفكر فيهم بعد ان جاهروا بعدم انتمائهم اليها والى الناطقين بها . وقد يكون هؤلاء الشعوبيون احرارا في ان « يبدعوا » على هواهم ، وباللغة التي يظنونها قادرة على اداء « ابداعهم » ، لكن ما ليس لهم اية حرية فيه ، فهو ان يفتروا على « العربية » وينعتوها بالجمود والضعف ، ماداموا قد ارادوا ان يكونوا « غرباء » عنها ، مع اصرارهم في الوقت عينه على التطفل عليها !.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

تقدم

سلسلة روايات تاريخ الاسلام للفتيان والفتيات

تاليف : جورجي زيدان

١ ـ فتح الاندلس (الجزء الاول)

٢ ـ فتح الاندلس (الجزء الثاني)

٣ ـ ١٧ رمضان

٤ ـ فتاة القيروان

٥ ـ صلاح الدين الأيوبي

٦ ـ المملوك الشارد

٧ ـ عذراء قريش

٨ ـ الحجاج بن يوسف

٩ ـ عبد الرحمن الناصر

١٠ ـ فتاة غسان

اعداد : محمود سالم
رسوم : حلمي التوني

التوازن في تدفق الأنباء
ودوره في التعاون العربي ـ الأوربي

سجاد الغازي
الامين العام المساعد لاتحاد الصحفيين العرب

في البدء كانت الكلمة . وكانت اداة الكتابة الاولى ، وخلفت الكتابة اشياء مكتملة . ثم جاءت الطباعة واكثرت من عددها الى غير ما حد وخلدتها . وهكذا أمكن للمفكر ان ينتصر على المكان والزمان والموت . ومع انتشار الطباعة تعززت وسائل الاعلام بأداة لا تزال من أقوى وسائل الاعلام ، ألا وهي الصحافة التي لعبت ولا تزال دورا رئيسيا في التأثير والتوجيه والتثقيف والتوعية حتى سميت بالسلطة الرابعة . وبظهور الصحف ازداد تأثير الاعلام ودوره ضخامة واتساعا . وقال في ذلك هارولد ادامز اينس الاقتصادي الكندي الذي أصبح من علماء الاعلام « ان وسائل الاعلام الموجودة في المجتمع تؤثر تأثيرا قويا في أشكال التنظيم الاجتماعي وفي أنواع التجمعات الانسانية التي يمكن ان تنشأ في اية حقبة ، ولما كانت هذه الاشكال من التجمع ليست مستقلة عن معرفة الناس بانفسهم وبغيرهم ، **فان التحكم في هذه الاتصالات يتضمن التحكم في كل من الشعور والتنظيم الاجتماعي** » . كما اعتبرت وسائل الاعلام اداة قوية للضبط الاجتماعي ونراعا للنظام الحاكم في المجتمع . » فالمجتمع نظام كبير يتكون من أنظمة فرعية عديدة منها النظام الاعلامي والديني والتعليمي والسياسي الخ .. ويعكس النظام الاعلامي جميع تلك الأنظمة ، كما أنه يؤثر فيها أيضا . اذا طرأ تغيير على النظام السياسي مثلا ، سينعكس هذا التغيير على النظام الاعلامي ، كذلك يشكل النظام الاعلامي قوة كبيرة على التغييرات في النظام الاجتماعي او النظام التعليمي مثلا .

واعتبر النظام الاعلامي نظاما مفتوحا ، طالما هناك تفاعل بينه وبين البيئة المحيطة به سواء كانت البيئة الداخلية او الخارجية او الدولية . كما أن هذا النظام له قدرة على التكيف مع الظروف الجديدة التي قد تطرأ عليه ، لانه يسمح برجع صدى متدفق وكبير . ومن هنا فكل نظام يلائم البيئة التي ينبع منها والتي يعمل معها فيها . فان وسائل الاعلام لا تعمل في فراغ ، بل تتأثر وتؤثر في البيئة التي نشأت فيها ؛ فنظم الاعلام ظهرت وترعرعت وتغيرت واختفت في بعض الاحيان نتيجة عوامل تاريخية وسياسية وجغرافية واقتصادية وثقافية . فهناك تفاعل مستمر بين هذه الوسائل والبيئة المحيطة بها ، أي أن هناك ارتباط وثيق بين مدخلات ومخرجات أي نظام من أنظمة الاعلام ، وحيوية النظام الاعلامي ، أي نظام أو ديناميكيته في قدرته على تغيير المدخلات الى مخرجات تناسب البيئة . ومن هنا فان ظروف شعوب وبلدان عدم الانحياز والعالم الثالث مهيأة لان تقرر نظاما اعلاميا جديدا .

ان مؤتمرات البلدان النامية تطرح قضية النزاع ما بين الشمال والجنوب ، ما بين الدول الصناعية والدول المتخلفة ، وهي قضية التخلف والتقدم ، والاختلال بين الندرة والوفرة ، بين الفقر والغنى . وانعكس هذا الاختلال في التوازن بين الشمال و الجنوب أو بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية ، على النظام الاعلامي الدولي الحالي أيضا ، حيث يتميز بعمق اختلال التوازن في حقل الاعلام .

ان تطور الدول يقاس اما بانتاجها للصلب والحديد ، واما باستهلاكها لورق الصحف وأصبح تقدم وتطور الحضارات والمجتمعات يقاس بمقدار استهلاكها لورق الصحف وقدرة المواطن في الحصول على الانباء .

هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، هناك مشكلة المواصلات المادية ومشكلة المواصلات الفكرية . مشكلة المواصلات المادية التي تسمى في التنمية البناء التحتي ، أنه لا يمكن بناء حضارة او مجتمع متطور ، دون آن نبني الوسائل المادية للمواصلات ، بما في ذلك خطوط الطيران والاتصال الهاتفي والبرق . أما عن المواصلات الفكرية فان أغلب المعلومات تصل الينا عن طريق وكالات اجنبية . ونحن نحس كأقطار نامية عربية أنها غير موجودة وأنها كانت فيما مضى أسهل على الرغم من صعوبة الانتقال لان المواصلات الفكرية في العصر الاسلامي كانت عبر القرآن والحديث والسنة والفقهاء ومراكز الاشعاع الفكري كانت المساجد او الكنائس . أما اليوم فان البلدان المتطورة تسيطر على قنوات الاعلام من وكالات انباء أو اذاعة وتلفزيون أو أفلام ومجلات أو مراكز معلومات الخ .. اضافة الى احتكارها للتكنولوجيا .

ففي الوقت الذي يمثل حجم سكان البلدان النامية أكثر من ثلثي سكان العالم ، فان وكالات الانباء الخمس الكبرى في العالم هي التي تسيطر على قنوات الاعلام ويكون نصيب العالم ٨٠٪ مما تبثه ونصيب الثلثين من سكان العالم هو ٢٠٪ مع تشويه صورة الانسان في هذه البلدان النامية فمعظم ما يسمح بتمريره من أخبار هذه البلدان ضمن مساحة الـ ٢٠٪ هو لغرض الاساءة .

ومن هنا نشأت فكرة اعادة النظر في النظام العالمي الحالي للاعلام بما يحقق العدالة ومصالح هذا القطاع الواسع من البشر الذي يكون ثلثي سكان المعمورة . على أن الشعوب النامية والعالم الثالث حين تطالب بهذه العدالة فانها لا تتجاوز التمسك بالحقوق التي أعلنها على رؤوس الاشهاد المجتمع الدولي المعاصر ضمن نصوص ذات شأن مثل الفصل (١٩) من الاعلان الحالي لحقوق الانسان والفصل (١٩) من الميثاق المتعلق بالحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية واللوائح الملائمة التي صادقت عليها الجمعية العمومية للأمم المتحدة . ان دول العالم الثالث والشعوب النامية من حقها أن تحمي نفسها وهي تعيش محاددة للنظم الاخرى ، وهذا مما يتيح لوسائل اعلامها أن تؤثر عليها . فان الخلافات الايدلوجية بين النظم الاشتراكية والرأسمالية قد ازدادت ، لكون دول المنظومة الاشتراكية قد تطورت اقتصاديا وعسكريا بحيث لم يعد من السهل مهاجمتها ، ولهذا فان القوى الامبريالية والنظم الرأسمالية تحاول مهاجمتنا أيدلوجيا من أجل التأثير على تفكير الفرد المواطن في بلدان العالم الثالث .

ولكي نتبين هذا الاختلال في التوازن بين الشمال والجنوب أو بين الدول المتقدمة والدول النامية نورد الأرقام التالية للمقارنة من احصائيات عام ١٩٧٠ .

الراديو : هناك ٦٥٢مليون جهاز في العالم ، أي بمعدل ٢٣٢ جهازا لكل ألف نسمة . ففي أوربا ٢٨٠ جهازا لكل ألف نسمة . وفي الاتحاد السوفياتي ٤٠٠ جهاز لكل ألف نسمة . الولايات المتحدة ١٥٠٠ جهاز لكل ألف نسمة . أي راديو ونصف لكل فرد . وفي أفريقيا كلها ٤٥ جهازا لكل ألف نسمة . وأمريكا اللاتينية ١٦٧ جهازا لكل ألف نسمة . وجنوب آسيا ما عدا الصين واليابان ٣٣ جهازا لكل ألف نسمة . وفي مصر ٤ ملايين ونصف المليون جهاز ، أي ١٣٢ جهازا لكل ألف نسمة .

التلفزيون : يوجد في العالم ٢١٥ مليون جهاز تلفزيون أي بمعدل ٨٩ جهازا لكل ألف نسمة . ففي الاتحاد السوفياتي ٣٠ مليون جهاز أي بمعدل ١٢٨ جهازا لكل ألف نسمة . وأمريكا الجنوبية ١٥ مليون جهاز بمعدل ٥٤ جهازا لكل ألف نسمة . وأفريقيا ١,١ مليون جهاز بمعدل ٣,٢ جهاز لكل ألف نسمة . ومصر فيها نصف مليون جهاز بمعدل ٥٠ جهازا لكل ألف نسمة . والكويت ١٤٠ جهازا لكل ألف نسمة . ولبنان ١١١ جهازا لكل ألف نسمة . والعراق ٣٧ جهازا لكل ألف نسمة . وسورية ١٩ جهازا لكل ألف نسمة . واليمن الديمقراطية ١٧ جهازا لكل ألف نسمة .

وفي اخر احصائية تضمنها التقرير المرحلي للجنة الدولية لدراسة مشكلات الاعلام في المجتمع الحديث الصادر في تموز /يوليو ١٩٧٨ أوضح أن عدد اجهزة الراديو في العالم قد وصلت الى المليار جهاز ، أي بمعدل جهاز لكل أربعة اشخاص من السكان . وفي البلاد المتقدمة يقدر عدد الأجهزة بأكثر من جهاز للشخص الواحد ، بينما تنخفض هذه النسبة الى جهاز واحد لكل ثمانية عشر شخصا في أفريقيا ولكل ثلاثة عشر شخصا في اسيا . بل أن عدد أجهزة الراديو في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها (مثلا) أكثر من عددها في مجموع الدول النامية . ويبلغ رقم صادرات الولايات المتحدة السنوية من الافلام والمسلسلات التلفزيونية ٢٠٠ مليون دولار .

ومن بين البلاد التي تستأثر بالجانب الأكبر من الارسال الاذاعي الدولي تأتي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وتليها جمهورية الصين الشعبية فجمهورية المانيا الاتحادية فالمملكة المتحدة البريطانية وجمهورية مصر العربية . أما التلفزيون فقد أشار هذا التقرير الى أن عدد أجهزة الاستقبال في العالم قد تضاعف حتى بلغ ٢٦٦ مليون جهاز بمعدل ١١٧ جهازا لكل ألف نسمة . ففي أمريكا الشمالية يوجد جهاز واحد لكل شخصين وفي اوربا والاتحاد السوفياتي جهاز واحد لكل أربعة أشخاص . وفي أمريكا اللاتينية جهاز واحد لكل اثني عشر شخصا . وفي البلاد العربية واسيا جهاز واحد لكل أربعين شخصا . وأخيرا في أفريقيا جهاز واحد لكل ٥٠٠ شخص .

وتصرف البلدان المتقدمة قرابة ٩٠٪ من الامكانات التي توفرها رقعة الذبذبات الاذاعية وبعضها تبث من محطات نصبت في البلدان النامية بينما لا تملك البلدان النامية وسائل الدفاع ضد الاذاعات الأجنبية ويكون في الغالب من العسير عليها مزاحمتها . كما أن ٤٥٪ من البلدان النامية محرومة من البث التلفزيوني . ويزداد هذا الاختلال في التوازن فداحة من جراء بث كثير من البرامج في هذه البلدان مما تنجزه البلدان المتقدمة .

وكالات الانباء : وكالات الانباء الرئيسية التي تستحوذ على القدر الاكبر من بث الأخبار وتملك امكانات ضخمة تغطي العالم كله هي وكالات فرانس بريس (الفرنسية) والاسوشيتد بريس واليونا يتدبريس (الامريكيتان) ورويتر (البريطانية) وتاس (السوفيتية) . ولهذه الوكالات الخمس الكبرى أكثر من ٥٠٠ مكتب يعمل فيها ٤٢١٩ مراسلا في زهاء ١١٦ بلدا وتبث كل واحدة منها يوميا

بمعدل مليون ونصف المليون من الكلمات . وفي اخر احصائية دولية تشير الى ان هذه الوكالات تنقل أكثر من ٣٢ مليون كلمة بينما قرابة ثلث البلدان النامية ليس لها وكالة انباء قومية خاصة بها .

وفي أكثر من ١٠٠ دولة توجد وكالات انباء وطنية لتغطية أخبارها أو تمتد نتيجة بعض الاتفاقيات الى بعض الاقطار المحيطة بها . هذا عدا الوكالات المتخصصة . وقد تكاثرت الوكالات المحلية منذ السنوات العشر الآخيرة . مجمع وكالات انباء دول عدم الانحياز ـ تأسس سنة ١٩٧٥ ويضم حوالي ٤٠ وكالة تتبادل المواد بواسطة ١٢ وكالة تشكل مراكز اعادة التوزيع : هيئة انتربريس ـ أسست عام ١٩٦٤ في أمريكا اللاتينية وتقدم خدمات مماثلة : وكالة الأنباء الكاريبية ـ أسست عام ١٩٧٥ من ثلاث عشرة دولة في منطقة الكاريبي بالتعاون مع اليونسكو ورويتر وتضم ١٧ جهازا ٠ وهناك اتحاد وكالات الانباء الأفريقية واتحاد وكالات الأنباء العربية :

وهناك حوالي ٣٥ دولة ليست لديها وكالة انباء . وهذا ، هو الحال في ١٨ دولة من أفريقيا و ٧ دول في أمريكا اللاتينية .

الصحافة اليومية : في العالم ٧٦٨٠صحيفة يومية تطبع ٢٦٥ مليون نسخة أي بمعدل ١٣٠ نسخة لكل ألف شخص . أمريكا الشمالية فيها ١٨٨٠ صحيفة تطبع ٦٧ مليون نسخة في اليوم أي بمعدل ٢٩٥ نسخة لكل ألف شخص : أوربا فيها ١٨٠٠ صحيفة تطبع ١١٩ مليون نسخة أي بمعدل ٢٥٩ نسخة لكل ألف شخص : الاتحاد السوفيتي ٦٣٦ صحيفة تطبع ٧٧ مليون نسخة أي ٣٢١ نسخة لكل ألف شخص : الاوقيانوس ١١٤ صحيفة تطبع ٥,٦ مليون نسخة أي ٢٩٦ نسخة لكل ألف شخص : شرق اسيا و (اليابان) ٢٦٠ صحيفة تطبع ٥٧ مليون نسخة أي ٢٤١ نسخة لكل ألف شخص : جنوب شرق اسيا ١٦٠٠ صحيفة تطبع ١٧ مليون نسخة أي ١٦ نسخة لكل ألف شخص : الولايات المتحدة ١٧٧٢ صحيفة تطبع ٦٢ مليون نسخة أي ٣٠٢ نسخة لكل ألف شخص : السويد ١١٤ صحيفة تطبع ٤,٥ مليون نسخة أي ٥٢٤ نسخة لكل ألف شخص : بريطانيا ١١٠ صحف تطبع ٢٦ مليون نسخة أي ٤٦٣ نسخة لكل ألف شخص : مصر ١٥ صحيفة تطبع ٧٧٥ ألف نسخة أي ٢٢ نسخة لكل ألف شخص : لبنان ٥٢ صحيفة تطبع ١٨٠ ألف نسخة أي ٧٧ نسخة لكل ألف شخص : الجزائر ٤ صحف تطبع ١٨٥ ألف نسخة أي ١٤ نسخة لكل ألف شخص : المغرب ١٤ صحيفة تطبع ٢٤٢ ألف نسخة أي ١٦ نسخة لكل ألف شخص : الكويت ٥ صحف تطبع ١٢١ألف نسخة أي١٠٠نسخة لكل ألف شخص : السعودية ٥ صحف تطبع ٦٠ ألف نسخة أي ١٠ نسخ لكل ألف شخص : اليمن الجنوبية ٦ صحف تطبع ٥٦ ألف نسخة أي ١٠ نسخ لكل ألف شخص . أي ان النسبة في الوطن العربي هي ٢٠ نسخة لكل ألف شخص .

الدوريات : بريطانيا ١٢٢٢ دورية تطبع ٤٠,٥ مليون أي ٦٦٨ نسخة لكل ألف شخص . فرنسا ٩٤٠ مطبوع دوري يطبع ٢٦,٥ مليون نسخة أي ٥٢٥ نسخة لكل ألف شخص : الولايات المتحدة ١٠١٠٩ مطبوع تطبع ٨٠ مليون نسخة أي ٤٠١ نسخة لكل ألف شخص : الاتحاد السوفيتي ٨٠٥٥ مطبوع تطبع ٦٠ مليون نسخة أي ٢٤٢ نسخة لكل ألف شخص : السويد ٥٢ مليون مطبوع تطبع نصف مليون نسخة بمعدل ٤٦ نسخة لكل ألف شخص : مصر ٢٨ مطبوع تطبع ٦٠٠ ألف نسخة بمعدل ١٩ نسخة لكل ألف شخص : الجزائر ٦ دوريات تطبع ١٢٠ الف نسخة أي ١٠ نسخ لكل ألف شخص : المغرب ٦ دوريات تطبع ٢٥٠ ألف نسخة أي ١٨ نسخة لكل ألف شخص : الكويت ٩ دوريات تطبع ٤٤ ألف نسخة أي ٤٠ نسخة لكل ألف شخص : السعودية ٥ دوريات تطبع ٢٨ ألف

نسخة اي ٥ نسخ لكل الف شخص ، اي يوزع في الوطن العربي ٢٠ نسخة لكل الف شخص . وهناك بعض الدول الافريقية لا تملك مطبعة اصلا ولا تصدر بها صحيفة . واغلب ما ينشر في افريقيا من مجلات يطبع في باريس على وجه التحديد ومن هنا يكون تأثير الثقافة الفرنسية على المطبوعات داخل افريقيا واضحا . اما الاتحاد الدولي للصحافة الدورية فقد حدد عدد المجلات الدورية التي طبعت خلال عام ١٩٧٥ بـ ٤١٠ الاف تقريبا وان نفقات الطباعة والتوزيع ترتفع بارتفاع عدد النسخ وان الدوريات ذات الكميات المتوسطة في الطبع هي الاكثر قدرة على البقاء وهذا ما يفسر اندثار عدد كبير من المجلات الدورية ذات الكميات الكبيرة المطبوعة خلال العشرين سنة الاخيرة .

الكتب : وهي اولى وسائل الاعلام الجماهيرية ، فانه يوجد سنوياً في الاسواق اكثر من ٥٩٠ الف كتاب طبعت منها حوالي ٨ مليارات نسخة وتأتي كتب الجيب في المقدمة من حيث رواج سوقها . ونسبة انتاج الكتب في البلاد المتقدمة هي ٨٣.١ ونسبة السكان ٣٥.٦ ، بينما انتاج الكتب في البلاد النامية هو ١٦.١ بينما نسبة سكانها هي ٦٤.٤ .

الورق : وقد قيل قديما أن الورق خزانة المعرفة فما هي استهلاكاته ؟ الولايات المتحدة ٩ مليون طن ويخص الفرد ٤٢,٦ كيلوغرام سنويا . السويد ٣٥ مليون طن ويخص الفرد ٤٢ كيلو غراما سنويا . بريطانيا ١,٥٥ مليون طن ويخص الفرد ٢٨ كيلوغراما سنويا . الاتحاد السوفيتي مليون طن ويخص الفرد ٤ كيلوغرامات سنويا. مصر ٣٢ ألف طن ويخص الفرد كيلوغراما واحداً سنويا. لبنان ٤٤٠ طن ويخص الفرد ١,٦ كيلوغرام سنويا . الجزائر ٤ آلاف طن ويخص الفرد ٠,٢ كيلوغرام سنويا . المغرب ٢٦٠٠ طن ويخص الفرد ٠,٢ كيلوغرام سنويا . السعودية ١٥٠٠ طن ويخص الفرد ٠,٢ كيلوغرام سنويا . اليمن الجنوبية ١٠٠ طن ويخص الفرد ٠,٠٨ كيلوغرام سنويا . وسيزداد استهلاك ورق الصحف من ٢٥,٦ مليون طن في عام ١٩٧٦ الى ٣٤,٧ مليون طن في عام ١٩٨٥ .

ان عدد البلدان المنتجة للورق في العالم لا يتجاوز ٣٦ بلدا ، ستة منها فقط تصدر جزءا كبيرا من انتاجها ، وليس هناك اليوم اية دولة أفريقية منتجة للورق عدا مصر ، رغم ان المواد الأولية من اخشاب الغابات والقصب متوفر جدا في القارة . وتستهلك البلاد المتقدمة من الورق تسعة أضعاف استهلاك بلاد العالم الثالث مجتمعة ، علما بأن هذه الدول تصدر ٥٥٪ من المواد الأولية اللازمة لصناعة الورق .

الخارطة الاعلامية للوطن العربي بين عامي ١٩٧٣ ـ ١٩٧٥

محطات الارسال الاذاعي : ١٩٨ محطة رئيسية واضافية موزعة على ١٥ قطرا عربيا فقط بما فيها منطقة الصحراء الغربية .

محطات الارسال التلفزيونية : هناك ٢٥٦ جهازا للارسال التلفزيوني يملكها ١٢ قطرا فقط . مصر ٢٨ محطة ارسال تلفزيوني : الجزائر ١٧ : السعودية ١٢ : لبنان ١١ : الصحراء ٨ : الكويت ٨ : اليمن الجنوبية ٧ : الأردن ٦ : العراق ٥ : السودان ٤ : قطر ٤ :

الجرائد اليومية : في الوطن العربي ١٢٦ صحيفة يومية تطبع مليوني نسخة موزعة كما يلي . لبنان ٢٧ صحيفة والسودان ٢٢ ومصر ١٤ والمغرب ١١ والسعودية ٧ والكويت ٦ وليبيا ٦ واليمن الشمالي ٦ والعراق ٥ وسورية ٥ وتونس ٤ والجزائر ٤ والأردن ٤ واليمن الجنوبية ٢ والصومال ٢ .

مجرد مستهلكين : هذا الوضع جعل معظم البلدان النامية مجرد مستهلكين لاعلام يباع كما نبتاع مختلف البضائع كما تنظر اليه الأقطار الصناعية المتقدمة ، رغم أن الاعلام هو حاجة ومنفعة اجتماعية وثمرة ثقافية . وتمارس تلك الأقطار هذه الهيمنة عن طريق السيطرة على تنقل الاعلام من جانب وكالات الأنباء كما أوضحنا وعن طريق احتكار التكنولوجيا ، كما سنوضح ذلك ، وزاد في أبراز معالم هذه الهيمنة الاتصالات عن طريق الاقمار الصناعية الواقعة برمتها تحت سيطرة التجمعات الدولية الكبرى

الصادرات من السلع الثقافية في العالم ٪

السلعة	صادرات الدول المتقدمة عام ١٩٧٤	صادرات الدول النامية عام ١٩٧٤
مواد مطبوعة	٩٢,٨٥	٧,١٥
كتب مطبوعة	٩١,٥١	٨,٤١
اجهزة استقبال التلفزيون	٩٤,٧٨	٥,٢٢
اجهزة استقبال الراديو	٩٤,٧٠	٥,٣٠
اجهزة تسجيل صوتية	٧٨,٢٢	٢١,٧٨
مواد تصوير سينمائية	٩٨,٢٢	١,٦٨
افلام سينمائية محمضة	٧٦,٧٢	٢٢,٢٧

استخدام الفضاء : ان ظهور الأقمار الصناعية قد أدى الى تفاقم اختلال التوازن حيث خططت الاجهزة بحيث تحول دون تمكن الدول النامية من بث اخبارها خارج حدودها ، حيث ان محطاتها الأرضية تلتقط البرامج التلفزيونية التي تنتجها الدول المصنعة دون امكانية البث في اتجاه هذه الدول . اضافة الى أن أجور المواصلات لمسافة معينة في البلدان النامية هي أبهظ من أجور نفس المسافة في البلدان الغنية . وأن أجور المواصلات من الاقطار المتقدمة الى النامية هي أقل منها لو كانت بالعكس .هذا اضافة الى الغبن او التعسف الذي يصيب الدول النامية من جراء استعمال الفضاء الخارجي واستغلاله للأقمار الصناعية في الاتصالات فلا بد من أن ينظم ذلك بما يضمن حق كل البشرية في فضاء كرتها الارضية ، بعد أن أصبح ذلك يعطي مردودات مالية عالية لقاء البث أو الاتصال عبر الاقمار الصناعية .

ان توزيـــع رقعة الذبذات واستغلالها مورد طبيعي عالمي وتستأثر بهذا الحق الدول المتقدمة فقط . ولا بد للدول النامية من الحصول على توزيع عادل لرقعة الذبذبات التي تستغل الدول المتقدمة ٩٠٪ من امكاناتها . رغم ان مساحة البلدان النامية تفوق بكثير مساحة البلدان المتقدمة ولكنها لا تتصرف الا بعدد قليل من القنوات . كما أن كثافة قوة البث في الكيلومتر المربع في الدول النامية لا تساوي الا ربع ما هي عليه في الدول المتطورة .

وكذلك الامر بالنسبة لتوزيع المطبوعات التي تتمتع حسب الاتفاقيات الدولية بتخفيض بنسبة ٥٠٪ من الأجور ، اما الارساليات عن طريق الجو للصحف باعتبارها ادوات اعلامية وتثقيفية فانها تتمتع بالتعريفة الدنيا .. ان المستفيد الاكثر من هذه الامتيازات ليس الدول النامية لأن كميات

المطبوع لها وبالأخص الموزع خارجها أقل بكثير مما يطبع في الدول المتقدمة ويوزع خارجها .

التباين المفجع : وفي آخر احصائية تضمنها التقرير المرحلي للجنة الدولية لدراسة مشكلات الاعلام الذي صدر في تموز/يوليو ١٩٧٨ حقائق مذهلة ومفجعة في ان واحد جديرة بأن تكون موضوع تمعن وعناية واهتمام من قبل باحثيناوجاء فيه . ان عدد نسخ الصحف في العالم يوميا يزيد على الأربعمائة مليون نسخة وهذا يمثل تزايدا يبلغ ٢٠٪ في عشر سنوات . وقد ازداد المعدل العالمي لعدد النسخ فبلغ ١٣٠ نسخة لكل ١٠٠٠ شخص بعد أن كان ١٠٤ نسخة . ويبلغ عدد الصحف اليومية حوالي ٨٠٠٠ صحيفة ، وعلى الصعيد الوطني فان السويد واليابان يملكان أعلى رقم من النسخ في اليوم وهو ٦٠٠ نسخة لكل ١٠٠٠ شخص ، وأما على الصعيد الاقليمي فان الاتحاد السوفيتي يأتي في المرتبة الأولى بالنسبة لعدد النسخ وهو ٣٩٦ نسخة لكل ١٠٠٠ شخص . والولايات المتحدة الأمريكية من حيث عدد الصحف هو ١٩٣٥ صحيفة وأن عددا من هذه الصحف ومجموعات الصحف أو المجلات المستقلة تملك في نفس الوقت حوالي ١٥٠ محطة راديو و ١٩٠ محطة تلفزيون . ولم تدخل في هذه الاحصائيات الصين وكوريا الديمقراطية وفيتنام حيث أن اخر المعلومات المتوفرة والتي لم تنته مهمتها بعد ان شبكات الاعلام الموجودة حاليا تشبه الى حد كبير الشبكات التي كانت موجودة تحت نظام الاستعمار وتتأثر بالروابط الاقتصادية التي لا تزال باقية وبالصلات الثقافية واللغوية . ونتج عن ذلك نزعة الى سير تداول الاعلام باتجاه واحد من الشمال الى الجنوب والى السهولة دون تبادل الاخبار فيما بين الدول النامية . فاذا كان هناك سيل من الانباء على المحور شرق — غرب بين أمريكا الشمالية وأوربا ، وبين البلدان الاشتراكية والدول الغربية ، فان التدفق ذا الاتجاه الواحد من الشمال الى الجنوب لا يمكن ان يشكل تبادلا بسبب انعدام التوازن . ان النمط الحالي لتداول المعلومات له تأثير أكبر على البلاد التي ليس لديها اليوم مرافق اعلامية يعتد بها . ويعتبر سير الاعلام في اتجاه واحد ، أحد النواقص التي يشعر بها الكثير وتبرر المطالب الحالية الرامية الى تحرير نظم الاعلام من وضع التبعية .

ان الاعلام حق انساني وهو ملك الانسانية جمعاء فلا يجوز تعطيله لا من الاشخاص ولا الجماعات . لانه وظيفة اجتماعية لها ارتباط بالمجموعات البشرية والثقافات والاتجاهات المختلفة للحضارة الانسانية . ومن حق شعب أن يكون في وضع يمكنه من اختيار اعلام يساير ومعطياته الخاصة ، ولا يمكن أن يكون الاعلام اقطاعا لمن يملك وسائل تقنية ومالية تمكنه من الهيمنة على وسائله . وكما ان في النظام الاقتصادي في العالم عدم وجود عدالة في التوزيع ، حيث أن دخل البلدان النامية التي يعيش فيها ٧٩٪ من مجموع سكان العالم لا يمثل حاليا سوى ٢٠٪ من الدخل العالمي ، وأن معدل الدخل السنوي للفرد في البلدان المصنعة يبلغ حاليا ٢٤٠٠ دولار في حين لا يتجاوز ١٨٠ دولارا في البلدان النامية ، حيث يعيش ثلاثة أرباع سكان المعمورة ونصيب البلدان النامية من التجارة الدولية تدهور من ٣٢٪ عام ١٩٥٠ الى ١٧٪ في عام ١٩٧١ . بينما نمت ديون بلدان العالم الثالث فارتفعت الى ٢٢٣ مليار دولار في ١٩٧٧ . مما دعا بلدان عدم الانحياز لأن تطالب بنظام اقتصادي عالمي جديد يقوم على العدل ، كذلك في النظام الاعلامي الحالي اختلال في التوازن .

ان هذه الحقائق التي عبرت الارقام والمقارنات السالفة عن الكثير من جوانبها ، كانت وراء انبثاق بعض صيغ التنسيق الاقليمية في المجالات الاعلامية ، كالاتحادات الأفريقية والاسيوية والأمريكية الجنوبية والعربية للاذاعات ووكالات الأنباء . كما كان وراء ندوات الحوار العربي الأوربي

على شتى الاصعدة التي شهدتها مختلف المجالات . كما انبثق على صعيد بلدان عدم الانحياز المجلس الحكومي لتنسيق الاعلام ولجنة التنسيق لمجمع وكالات الانباء ولجنة التعاون بين الاذاعات ولجنة الخبراء في ميدان المواصلات السلكية واللاسلكية . ان الدور الذي يلقيه على أجهزة الاعلام تطوير التعاون العربي الاوربي يتطلب من باحثينا معالجة اختلال التوازن في مسار الاعلام وهو الذي فرض تحركا اعلاميا لبلدان عدم الانحياز قد يؤدي في النهاية الى نظام اعلامي عالمي جديد . ان مثل هذا التنسيق الاعلامي المطلوب لا بد وأن يستند الى قاعدة شعبية تتكون من المنظمات الصحفية لايجاد ارضية صالحة لمعالجة مثل هذه التناقضات وصهرها كلما أمكن الى ذلك سبيلا من خلال نقاط الالتقاء والمحاور التي تشكل عاملا مشتركا بينها وهو ما حرصت هذه الورقة على أن تطرحه أو تثير مكامنه وصولا الى تجميع هذه العوامل لتكون منطلقا لتوحيد المواقف ووجهات النظر .

وأمام كل هذه الحقائق التي استعرضناها وفي الظروف التي تعيشها الاقطار النامية ودول العالم الثالث ومنها الاقطار العربية لم تعد التنظيمات الصحفية مجرد منظمات نقابية تجمع شمل العاملين لتعبر عن مصالحهم بل ألقى ذلك عليها مهاما أساسية ومسؤوليات ضخمة من خلال هذه المعطيات الجديدة وهي مهام ينبغي أن تسير بشكل متواز ومتوازن مع التأثير المتعاظم للاعلام في ظل تطوره التكنولوجي على المجتمع الحديث ، وهو ما نسميه (ثورة الاعلام) . لا سيما وأن هناك الكثير من بلاد العالم الثالث والدول النامية بالذات ما زالت تجاهد في خلق نظرية جديدة أو في اقرار وضع جديد للصحافة . كما أن أهمية العمل النقابي او دور النقابة في حرية الصحافة لا يقتصر على الجانب الاجتماعي من النشاط النقابي ولكن أهميته هو في حماية الصحفي العامل والدفاع عن حرية انشاء النقابات وحرية النشاط النقابي وهي مسألة نص عليها اعلان حقوق الانسان عام ١٩٤٥ واتفاقيات العمل الدولية عام ١٩٤٨ فهناك بين دول العالم الثالث من تحفظت على بيان حقوق الانسان سنة ١٩٤٥ لانها لا تؤمن بانشاء النقابات ودول اخرى تسميها جمعيات أي جمعيات علمية كما كانت في فرنسا أيام الملكية .

اننا في العالم الثالث مقبلون على ما يسمى بثورة المعلومات باكتشاف الراديو والتلفزيون والترانسستر وحرب الاذاعات والتنافس على انشائها وزيادة ساعات الارسال وانشاء الصحف . كل هذا أنشأ ما نسميه (ثورة الاعلام) .

وستؤدي هذه الثورة الى ما نسميه ظهور حق المواطن في المعلومات الذي يجعل حرية الصحافة تشمل التحرر من ضغط ملكية الرأسمالية المحتكر والتحرر من ضغط الاعلانات والكتابة الحرة دون رقابة مسبقة و في ظل قانون انساني متطور يفرق بين مخالفات النشر وجرائم القانون العام والتحرر من احتكار المعلومات .

لقد اتخذنا نحن الصحفيون العرب في اتحاد الصحفيين العرب شعار (الحرية والمسؤولية) لأن الصحافة من غير حرية ومن غير دفاع عن هذه الحرية تصبح مجرد قصاصات من ورق لا قيمة لها . والحرية من غير مسؤولية ومن غير علم أيضا قد تصبح خللا لأهم قضايا الانسان . ان ظاهرة انعدام الحرية الصحفية المسؤولة لا تزال تشكل اسوأ مخلفات التخلف الذي ورثته من عهود الاستعمار والاستغلال والقهر . وكما أن الحرية لا تقتصر على توفير التشريعات الضامنة لها ما لم يكن التطبيق محققا لمضمون هذه التشريعات ، كذلك يوجد لهذه الحرية جانبان اخران لا بد من توفرهما لكي تكون حرية حقيقية متكاملة ، هذان الجانبان هما الحرية الاجتماعية بحيث يضمن الصحفي الحق في رزقه

وعمله ومستقبله . ثم واجب الصحفي بأن يكون أكثر اداء وأكثر علما .. فالحرية اذن تتكون من ثلاثة عناصر أساسية واحدة يضعها المجتمع من خلال القرار أي التشريع والثانية من خلال توفير الحرية الاجتماعية والثالثة يضعها الفرد نفسه من خلال قدرته على الاداء والوصول الى مستوى أفضل . فلا تستطيع سلطة أن تستبد بمتعلم بنفس القدر الذي تستبد به في جاهل . فالمجتمع المثقف القادر على حسن الاداء في الأعمال الموكولة له يصعب التحكم فيه . من هنا يأتي حسن الاداء والتدريب المستمر ومتابعة البحوث المختلفة في مجال تخصص كل صحفي بصرف النظر عن السن والدرجة التي يشغلها والشهرة التي يحققها ، مهمة أساسية .

ويمكن ان نجمل نقاط الاثارة والنقاش سواء كانت بالاختلاف عليها أو الالتقاء عندها بالمحاور المشتركة الأساسية التالية .

أ ـ المحور المهني أو التدريبي : فعندما تطالب الدول النامية بحرية تدفق الانباء بما يضمن لها المبادلة والوصول الى الشمال ومعالجة الخلل في التوازن يجب ان تتحول من مجرد بلدان مستهلكة لمادة الاعلام الى بلدان قادرة على انتاج اعلامها بجودة واجادة مع اشعار كامل المجموعة الدولية بهذا التطوير لتكون جديرة بأن تبادر الى الاتصال بكل المستويات ، وهذا الأمر يعيد الى الأذهان التأكيد على موضوع تنمية القدرة الذاتية والتنمية البشرية والتدريب والتأهيل ودورهما في تحقيق هذا الهدف وبموضوعية بعيدا عن الغرور .

ان الصحافة أصبحت اليوم صناعة ثقيلة بمطابعها ومبانيها وحجم ما تطبعه كما أنها صناعة دقيقة في آن واحد بدخول الالكترون وتحري الدقة في الصنعة والصياغة والنفوذ الى العقول وهذا مما يتطلب التركيز على الاهتمام بالتعليم والتدريب الصحفي ولا ينبغي ان ينظر الى قوة تكنولوجيا الاعلام في المجتمع الحديث كموجة عالية عاتية و نما كنهر عظيم يغذي الأرض التي يلمسها متبعا خطوط التضاريس الحالية ، ولكنه يمهد الطريق للتغيير على مدى طويل وقد يجد أحيانا بقعة تكون فيها الأرض رخوة ومهيأة وهناك يشق مجرى جديدا وأحيانا يكتسح أمامه جزءاً من الأرض مما يعطي مجرى النهر شكلا جديدا . ومعاهد الاعلام ومراكز التدريب هي المجال الذي يبلور مواهب الاعلاميين وقد شهد عالم الشمال هذه المعاهد منذ منتصف القرن التاسع عشر سواء كان ذلك في أوربا أو أمريكا . ولمحة خاطفة على خارطة هذه المعاهد نجد أرقاما مذهلة على الكم والكيف وعلى سبيل المثال نذكر ان جمعية مدارس الصحافة في الولايات المتحدة ضمت عام ١٩٤٩ من المدارس والمعاهد الصحفية ٣٥ مدرسة أما المجلس الامريكي لتعليم الصحافة الذي تكون سنة ١٩٤٤ لمنح الاعتراف لشهادات كليات الصحافة فقد ضم ٥٠٠ كلية للصحافة . أما في الاتحاد السوفيتي فهناك ١٢ معهدا للصحافة عام ١٩٥٠ . أما على صعيد بلدان العالم الثالث فنكتفي بذكر خارطة هذه المعاهد في الوطن العربي كمثال . اذ يبلغ عدد معاهد وأقسام وكليات الاعلام على المستوى الأكاديمي ١٢ أما معاهد التدريب فعددها ٥ في الوطن العربي . ومعظم هذه المعاهد والاقسام حديثة عهد وتأسست في الستينات . وأقدمها وأرسخها كلية الاعلام في جامعة القاهرة التي بدأت في الثلاثينات كمعهد للتحرير والترجمة والصحافة حتى تطور الى كلية ليغذي أقسام الصحافة الأخرى في الوطن العربي حيث تضم الان ٢٥٠٠ طالب . أما اقسام الاعلام والصحافة الأخرى فهي في جامعة عين شمس وجامعة الازهر والجامعة الأمريكية في القاهرة وفي جامعات بغداد والرياض وأم درمان وبنغازي والكويت ودمشق وتونس والجزائر والرباط والجامعة الامريكية في بيروت . أما المراكز الاعلامية المتخصصة فهي في القاهرة وبغداد ودمشق والأردن وبيروت

ولا يتعدى طلبة هذه الأقسام والمعاهد والمدارس والمراكز العشرات .

ولا بد ان تناقش لقاءات وندوات الحوار العربي الاوربي للصحفيين بالنسبة للتدريب القضايا التالية . تأهيل الكوادر الصحفية الشابة في معاهد التدريب الصحفي او عن طريق الدورات المتخصصة : دراسة أسلوب منح الزمالات التدريبية لمنتسبي المنظمات الصحفية في الدول التي لديها معاهد متخصصة بالعمل الصحفي · دراسة وسائل التمويل لتغطية نفقات هذه المعاهد والدورات أو الزمالات ، وما هي الامكانات الحكومية والنقابية في هذا الميدان : وضع صيغة للتعاون والاستفادة من أقسام ومعاهد وكليات الصحافة والاعلام في الجامعات : وضع صيغة للتعاون واستفادة صحفيي العالم الثالث من المعاهد العائدة لمنظمات صحفية او الدورات التي تقيمها بعض المنظمات الصحفية ومشاركة عدد من صحفيي دول العالم الثالث فيها : الاهتمام بالدورات المتخصصة للغات الاجنبية لتعزيز كوادر الصحف التي تحرر بلغات أجنبية لتحقيق أوسع قنوات الاتصال لقضايا بلدان العالم الثالث · تخصيص حصة للصحفيين المرشحين من نقاباتهم ومنظماتهم في الزمالات الأكاديمية التي تحصل عليها وزارات الاعلام عن طريق الاتفاقيات التي تعقدها · اجراء مسح للمعاهد الأكاديمية والمراكز التدريبية لمعرفة امكاناتها في استيعاب الصحفيين : السعي للحصول على عدد معين من المقاعد في المعاهد والاقسام والكليات الصحفية في الجامعات بالتعاون مع المنظمات والاتحادات الصحفية : يشمل تبادل الزمالات التدريبية العمل في المؤسسات الصحفية لفترات معينة : اقتراح أساليب ووسائل الدعم والتعاون مع المعهد القومي لاتحاد الصحفيين العرب ومدرسة التضامن التابعة لمنظمة الصحفيين العالمية التي ستؤسس في بغداد باشراف النقابة العراقية والمركز العربي للدراسات الاعلامية وهو أحد مشاريع صندوق الأنشطة السكانية التابع للامم المتحدة لاعداد كوادر الاعلام التنموي : وفي مجال التنسيق على صعيد التدريب والتأهيل لا بد من عقد ندوة موسعة لمعاهد الاعلام (الحكومية والنقابية) يدعى اليها ممثلون من أشهر المعاهد الاعلامية المعروفة في العالم للاستفادة من خبراتها في الدراسة التفصيلية التي تتطلبها النقاط والمؤشرات الاساسية التي ذكرناها سالفا .

ب ـ **محور الدفاع عن حرية الصحفيين :** ما زال هناك انكار لحق الصحفيين في تكوين نقابات تدافع عنهم وتناضل لتحقيق ظروف أفضل لصالحهم وضمان حاضرهم ومستقبلهم ، بل هناك انكار حتى لان يكون للنقابات الموجودة قوانين تحميهم أو عقود عمل تحميهم من التحايد والأزدواجية . واذا ما رفعت لافتة حرية الصحافة في دساتير اقطارها فان هذه اللافتات ترفع عن طريق قوانين مطبوعات أو عقوبات وفي هذا الصدد لا بد أن تتطرق اهتمامات رجال الفكر الى . تأكيد حق التنظيم النقابي للصحفيين : أغناء التشريعات بنصوص تستلهم روح ما نص عليه الاعلان العالمي لحقوق الانسان والمقررات واللوائح الأخرى الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة ولجانها فيما يخص الاعلام : القيام بمسح قانوني وتشريعي لأوضاع الصحافة والصحفيين وحصر التناقضات ما بين النصوص الدستورية وقوانين المطبوعات والقوانين الجزائية والعقوبات : القيام بمسح لأوضاع الصحفيين المعاشية والوقوف على الظروف غير الانسانية في مجال عملهم وضمان حاضرهم ومستقبلهم ، وصولا الى تحقيق مثل هذه الضمانات في الحاضر والمستقبل وفي الحقوق والواجبات : تشكيل لجنة دائمة للحريات للدفاع عن حريات الصحفيين ولا تقتصر على التقارير لابعاد الخريج عن بعض النقابات عند الدفاع عن صحفي معتقل او محتجز أو غيره ، لذلك لا بد أن تضم اضافة الى النقابيين والصحفيين عددا من الأدباء والمفكرين والفنانين والحقوقيين وغيرهم من الشخصيات العامة

المشهود لهم بالدفاع عن الحريات العامة وحرية الصحافة بوجه خاص ، لكي يكون لها على غرار لجنة رسل اشعاع أدبي وتأثير اخلاقي مع اعداد تقرير سنوي عن وضع الصحافة في كل الاقطار على غرار التقرير الذي يصدر عن معهد زيورخ عن الحريات الصحفية وانتهاكها وهي لجنة على غرار لجان أخرى للحريات الموجودة في المنظمات العربية والدولية لا سيما العمالية للدفاع عن الحريات النقابية ، وتلبي أية شكوى تردها لتقوم باستقصاء الحقائق : تأييد الاعلان الصادر عن الدورة العشرين لمؤتمر اليونسكو في باريس في اب ١٩٧٨ بشأن (المبادىء الاساسية لاسهام أجهزة الاعلام في دعم السلام والتفاهم الدولي وفي مكافحة الدعاية للحرب ومناهضة العنصرية والفصل العنصري) والتي أقرت حمايات وضمانات لممارسة العمل الصحفي ومبادىء في التزام الموضوعية وايجاد توازن جديد وتبادل أفضل في مجال تداول المعلومات ومراعاة مبادىء هذا الاعلان في الأحكام التشريعية والتنظيمية في كل بلد الخ .. : العمل على اقرار سياسة عالمية تؤدي الى حرية تبادل الانباء بين اجزاء العالم وتيسير ذلك بكل الوسائل بما يخدم مصالح شعوب البلدان النامية المغبونة في هذا الحق . العمل على اعطاء فرصة أكبر في داخل الدول نفسها لتدفق الانباء من مصادرها الى وسائل نشرها حتى تعم الفائدة ويشارك الرأي العام في سياسة بلده وفي خطط التنمية وفي تحمل المسؤوليات : ايجاد اشكال من التعاون والتنسيق بين الندوات والاجتماعات الدولية للصحافيين والانشطة التي تقوم بها المراكز الاقليمية كسبيل الى تنشيط تدفق الانباء وتوسيع النشر .

ج ـ **محور الاعلام الشعبي** : ونعني بذلك أن يقوم الصحفي بالاعلام عن قضايا بلده بنفسه أو عن طريق نقابته أو منظمته الصحفية . وهي تجربة استوحيناها بعد الافلاس الاعلامي الذي انفضح بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ وانتصار الاعلام الصهيوني في كسب الرأي العام العالمي الى جانب قضيته . فاذا كانت هناك ضرورات دبلوماسية وسياسية تجعل الاعلام الرسمي يتبع تكتيكا معينا . فعلى الاتحادات الشعبية ان تتبع تكتيكا اخر في ايضاح قضيتها الى المنظمات والاتحادات الشعبية المثيلة ومن خلال علاقات نقابية مهنية وتنظيمية . وهذا لا شك اجدى اثرا لان التنظيمات الشعبية وهي القاعدة الواسعة تتخاطب مع بعضها . وقد يخاطب الحوار الاعلامي قيما فكرية في اطار ارضية شعبية مشتركة وبمنطقه الشعبي ، بعيدا عن الروتين ومتحررا من الخط الرسمي وهذا ما نعنيه بالاعلام الشعبي عن طريق النقابات والمنظمات الشعبية صحفية كانت أو غير صحفية لخلق الجسر الاعلامي ما بين الاتحادات الاعلامية في مناطق العالم الثالث والوطن العربي ونظيراتها من المنظمات الدولية او الأوربية أو الأمريكية أو غيرها . أي أن يقوم صحفيو أو حقوقيو أو مهندسو أو محاسبو البلدان النامية بالاتصال بنظائرهم في الأقطار الأخرى لايضاح قضاياهم وتحقيق التفهم والدعم لها لا سيما ونحن نجد مثلا الاعلام الصهيوني يستند الى الاعلام الشعبي ، حيث لا وجود لوزارة للاعلام في الكيان الصهيوني في الأرض المحتلة ، لانه يعتمد بالدرجة الأولى على المنظمات غير الحكومية التي عملت علاقات مع نظائرها من المنظمات العالمية لا سيما وأن الاعلام الشعبي اكثر تأثيرا من الاعلام الحكومي دائما . وعلى سبيل المثال فاننا نستفيد من منظمة الصحفيين العالمية عندما نطلب منها المساعدة أو نشر فكرة معينة اثناء نضالنا المستمر ضد الصهيونية وكيانها فنرسل لهم بياناتنا فيذيعونها على مختلف المستويات ويهتموا بها اهتماما خاصا كما نتعاون معها في دعم قدراتنا التأهيلية بالاشتراك في الدورات التي تقيمها معاهدها بصورة دورية سنويا . وهكذا الحال مع كل المنظمات والنقابات الصديقة التي نرتبط واياها باتفاقات تعاون مشترك للتنسيق وتبادل الخبرات والتعاون وتوحيد المواقف في المؤتمرات وايضاح قضايانا المشتركة ودعمها الخ . وللبلدان النامية

تحتاج لان تصل الى أوسع مدى بين الرأي العام العالمي في شتى قاراته ومصاره .

وفيما يلي مقترحات لتطوير حرية الصحافة والاعلام العربي في العالم : تعزيز وجود المنظمات والاتحادات الصحفية العربية في المحافل الدولية والحصول لها على صفة العضو المراقب في اللجان والتنظيمات المتخصصة في الأمم المتحدة كالمجلس الاجتماعي واليونسكو وتوثيق العلاقة بهذه الأوساط العالمية : تعميق العلاقات بالنقابات والمنظمات الصحفية الصديقة وروابطها حيثما وجدت داخل المنظومة الاشتراكية أو في المعسكر الغربي ومد جسور جديدة حيثما وجدنا الى ذلك سبيلا ايصالا لقضايانا المشتركة الى أوسع وأبعد الافاق وتدعيما للتفاهم الدولي : التنسيق في المواقف لا سيما في المؤتمرات : دعم المراكز الاقليمية ذات الأهداف المشتركة مع المنظمات والاتحادات الصحفية : تشجيع عقد الاتفاقات الثنائية بين النقابات والمنظمات الصحفية : تنظيم اقامة ندوات ودورات وتبادل زمالات بصورة دورية ووفق جداول زمنية . اقامة معارض دورية للصحافة مشتركة أو متبادلة . تبادل زيارة الوفود النقابية القيادية والصحفية وفق مناهج وجداول زمنية بصورة دورية : تبادل المطبوعات بين المنظمات والاتحادات الصحفية : ان المطالبة بحق الاعلام للمواطن وللجماهير في البلدان النامية وحرية تدفق الأنباء الذي يتيح لأقطارنا أن تأخذ الحيز المتناسب مع حجمها في قنوات الاتصال والاعلام والحق في الوصول الى منابع ومصادر الأخبار خدمة للحقيقة دون مساس بالشؤون العسكرية أو ما يهدد أمن وسلامة أي شعب . ان اقرار هذا الحق في الاعلام ، لا بد ان يستتبعه حق البلدان النامية في استرجاع او استنساخ المحفوظات والوثائق التاريخية التي لا تزال في أيدي الدول الأخرى ، وعدم تقييد هذا الحق أو اسقاطه بمرور خمسين سنة . وهذه النقطة بالذات تنقلنا الى التأكيد على التنسيق بين الاتحادات والمنظمات الصحفية وأجهزة الاعلام الرسمية في ميدان التوثيق وحفظ الوثائق والمعلومات والأرشفة الصحفية الذي أصبح اليوم ذاكرة الصحفي لا سيما بعد أن دخلت العقول الالكترونية والميكروفيلم هذا الميدان : اصدار مطبوعات مشتركة .

وأخيرا فان النظام الاعلامي العالمي الجديد الذي تجري الدعوة اليه لن يكون ميثاقا أو اتفاقية او تنظيما معينا بقدر ما هو نمو طبيعي لاحتياجات مشروعة وتتكون صورته من خلال ما ستتمخض عنه هذه اللقاءات والتجارب في شتى الميادين الاعلامية وقنواته الأساسية (وكالات الأنباء ، الاذاعة التلفزيون ، الصحافة) . وعندما نشير الى فكرة النظام الاعلامي الجديد لا بد أن نؤكد على ما يلي . تقديم الصورة الحقيقية للانسان العربي للرأي العام الأوربي وطرح قضايانا بموضوعية وتوفير الفرص العادلة للتعريف بها انسجاما مع حق المواطن في الاعلام : تأمين الصناعة الورقية للبلدان النامية : لا بد من مجموعة اتفاقيات دولية ومقررات لهيئة الأمم تكون ملزمة للدول لتنظيم استعمالات الفضاء ووسائل الاتصال الأخرى بما يحقق التوازن بين الشمال والجنوب انطلاقا من حق شعوب

الدول النامية ومصالحها وحمايتها من الاستغلال وييسر لها الحصول على التكنولوجيا : لا بد من تكريس ندوة موسعة تضم ممثلين عن وسائل الاعلام كافة (من وكالات الأنباء واذاعات وتلفزيون وصحافة) رسميين ونقابيين لبحث كيفية الوصول الى تحقيق نظام اعلامي جديد . وهو أمر معقد وذو ابعاد كثيرة وليس بالسهولة التي تبدو . وذلك بالتعاون مع اليونسكو المهتمة بموضوع هذا النظام الجديد ولديها دراسات قيمة في هذا الخصوص .

الوطن العربي
واجنحة الغزو الاعلامي الجديد

ماجدة موريس

ناقدة فنية ومحررة في جريدة
« الجمهورية » القاهرية .

لم يعد هناك خلاف حول امور اصبحت من المسلمات في عالم اليوم ، بعد ان تفاقمت ، وظهر تأثيرها الخطير في السنوات الثلاثين الماضية . ومن هذه المسلمات وضوح الرؤية لما يسمى بحرية الاعلام أو « حرية التدفق الاعلامي بين دول العالم » . ذلك ان التجارب العديدة ، والشواهد المستمرة والمتدفقة أكدت ان تلك « الحرية » خرافة يتشدق بها فقط من يستفيد منها . كما اثبتت تلك التجارب ايضا ان ترك الامور على اعنتها في عالم تلك « الحرية الاعلامية » هو نوع من الانتحار البطيء للعالم الثالث في اعز ما يملك من رصيد القيم الاصلية ، والتراث المتفرد والمقومات الحضارية ، والرؤية السليمة للعلاقات الدولية .

وفي البداية ، فان وضوح الرؤية لما وصل اليه تطبيق مبدأ (حرية التدفق الاعلامي) في العالم هو السبب الأول في تراجع هيئة الأمم المتحدة عن المبدأ تدريجيا ، ومن خلال تحفظات وقيود عديدة كرست لهاجزءا كبيرامن جهودهافي السنوات العشر الأخيرة ، برغم انهاكانت حاملة الدعوة الى الحرية الاعلامية تاريخيا ، وصحيح ان مناقشة حرية الاعلام تسبق وجود الامم المتحدة ذاتها ، حيث بدأت اولا من خلال مناقشة دور الصحافة واخلاقياتها في مؤتمر دولي عقد لهذا الغرض في شيكاغو عام ١٨٩٣ ، الا ان الأمم المتحدة حملت لواء الدعوة بعد ذلك حتى تم اقرار المبدأ كحق اساسي من الحقوق الانسانية ، وحجر اساس لكل الحريات التي يتمتع بها الأعضاء في الأمم المتحدة . وتشمل هذه الحرية في نص اعلان المبدأ ، حرية جمع المعلومات ـ حرية نقلها ـ حرية نشر الأخبار في اي مكان بلا عائق (كان هذا عام ١٩٤٦) . وكان العالم وقتها يبدأ عهدا جديدا بعد الحرب العالمية الثانية ، ولذلك بدت الفكرة براقة لأعين الجميع ، خاصة وقد ساهمت الولايات المتحدة في دفعها بكل ثقلها الى جانب المنظمة الدولية ، وكان ذلك في مؤتمر المكسيك الذي انعقد لمناقشة الحرب والسلام في ذات العام ، وكانت فكرة التبادل الاعلامي تحقق املا للمجتمعين في عالم يسوده التفاهم والوئام بديلا عن الحروب الطاحنة .

ولكن ، هل تحققت تلك الامال ؟ وهل حقق المبدأ ـ التبادل الاعلامي الحر ـ اغراضه ؟ ان

احصاءات الامم المتحدة ، والمنظمات المتخصصة تظهر بوضوح الموقف الاعلامي العالمي اليوم ، في ظل المبدأ السابق .

اولا . سيطرة مجموعة من الدول المتقدمة على ٨٠٪ من حجم الأنباء المتداولة في العالم عبر كل الوسائط الاعلامية ، بينما تسيطر معظم دول العالم على ٢٠٪ فقط ، وهو وضع احتكار (١) .

ثانيا . سيطرة تلك المجموعة من الدول المتقدمة على وكالات الانباء العالمية الكبرى ، التي تملك امكانات الحركة والتقدم المادي ، والفني ، وبالتالي التحرك والنشر السريع ، بينما يفتقر ثلثا العالم النامي ، الى وكالات قومية خاصة به .

ثالثا . سيطرة الدول المتقدمة على أقمار الاتصالات الفضائية ، وبالتالي سيطرتها على امكانات البث المباشر لكل بلاد العالم الأخرى .

رابعا . سيطرة هذه المجموعة نفسها من الدول المتقدمة على ٩٠٪ من الترددات الاذاعية .

تحولت اذن (حرية التدفق الاعلامي) ، بفعل هذه الاحصاءات الموثوق بها ، الى (عدم توازن اعلامي) ، كما اطلق عليها من جانب المنظمة الدولية ، او (انعدام العدالة الاعلامية) كما يطلق عليها الاعلاميون في العالم الثالث ، وهو ما دفع بالأمم المتحدة الى التراجع التدريجي عن المبدأ الذي اقرته منذ اربعة وثلاثين عاما ، وذلك من خلال تفويض مديرها العام في ان .

« يتولى اعداد الدراسات الخاصة بجوانب الاتصالات الفضائية التي تدخل في اختصاص اليونسكو ، من أجل الوصول الى مقترحات حول الترتيبات الدولية التي ترمي الى ضمان تطوير الاتصالات الفضائية من أجل المصلحة العامة لكل الدول الأعضاء » (٢) .

وفي اجتماع ثان عقدته اليونسكو لخبراء استخدام الاتصالات الفضائية للأغراض الاذاعية (يناير ١٩٦٨) اقترح التقرير النهائي للمجتمعين عقد اجتماع يضم الخبراء الحكوميين لتحديد . أولا . « الموضوعات التي يتم الاتفاق عليها دوليا في مجالات الاتصالات الفضائية بالنظر الى الأهداف العامة لليونسكو » . وثانيا « اعداد مشروع بيان بالمبادىء التي يمكن اقرارها من الجمعية العامة وتتعلق بتوجيه الاتصالات الفضائية للأغراض السلمية ، وتحدد المبادىء التي لها اهمية خاصة بالنسبة لليونسكو ، والمتعلقة بالدعوة الى حرية تدفق المعلومات والتبادل في مجال التعليم والثقافة » .

وبعد عام وجهت عناية خاصة في اجتماع الخبراء الحكوميين ، المشار اليه في الفقرة السابقة الى .

« الحاجة الى حماية حقوق المشاهدين سواء على المستوى الفردي او المستوى الجماعي ، ومراعاة تراثهم الثقافي » .

بعدها أيدت الجمعية العامة لليونسكو في عام ١٩٧٠ فكرة اصدار بيان مبدئي حول استخدام

---

(١) حسن عماد عبد المنعم ــ دراسة ماجيستير غير منشورة مقدمة لكلية الاعلام بجامعة القاهرة ــ يوليو ١٩٧٩ ، حول (**تدفق الأفلام الأجنبية في التليفزيون والسينما في مصر ــ دراسة في تحليل المضمون**) .

(٢) (**المؤتمر الدولي للاتحادات الاذاعية حول اتصالات الفضاء**) ١٩٧٣ ، سلسلة دراسات وبحوث إذاعية يصدرها اتحاد الاذاعات العربية .

الاتصالات الفضائية ، وبرغم هجوم وانتقادات مندوبي الدول الكبرى على الفكرة ذاتها الا ان المناقشات اسفرت عن خروج البيان الى النور في أكتوبر عام ١٩٧١ .

كانت أوجه (النقد العميق) للبيان موجهة الى انه يميل الى تقييد حرية تدفق المعلومات ، وربما ادى الى فرض رقابة ، وان اي بيان بالمبادىء المرشدة هو مسألة من اختصاصات الهيئات الاذاعية نفسها . ولكن ، كان للمؤيدين لاصدار البيان ، وهم الأغلبية ، اراء اخرى حيث رأت فيه تجسيدا . أولا . لنمط التحكم الوطني من ارسال القمر الصناعي للاذاعة المباشرة ، الذي لا غنى عنه في بعض انحاء العالم :(٣) ، وثانيا . محاولة متوازنة توفر حماية للجمهور كما توفر حماية للاذاعيين ، وبناء على ضغط ممثلي الأقلية المتقدمة اضطرت اليونسكو الى تعديل النص ، وتقديم مشروع معدل في اجتماع عقد في نوفمبر ١٩٧١ للجنة الاستشارية للاتصالات الفضائية وكان النقد العنيف من نصيب المشروع المعدل ايضا ، وكان على اليونسكو ان تؤجله لاجتماع آخر في عام ١٩٧٢ .

كان الأعلان الخاص بالمبادئ المرشدة حول استخدام اتصالات الفضاء في التدفق الحر للمعلومات ، وانتشار التعليم والمزيد من التبادل الثقافي ـ كما اطلق على البيان ـ كان عقبة كؤود في رأي اتحادات الاذاعات الاوروبية والأمريكية . فماذا في هذه المبادىء الارشادية الاحدى عشر . اننا لن نذكرها جميعها ولكن تكفي المادة (١) وهي أشد المواد من حيث الصياغة حيث تنص على .

الفقرة (أ) . « استخدام الفضاء الخارجي للارسال عن طريق الاقمار بحكمة القانون الدولي » .

الفقرة (ب) . « استخدام الاذاعة الفضائية من أجل حرية تدفق المعلومات ونشر التعليم وزيادة التبادل الثقافي وستعمل الدول وكل المنظمات على احترام السيادة والمساواة للدول ، وعلى حماية حقوق الدول والوكالات الحكومية ، والهيئات غير الحكومية والافراد دون اي تمييز من اي نوع » .

وفي نفس العام ـ اكتوبر ١٩٧٢ ـ أصدرت الجمعية العامة المبدأ التالي .

« يجب على الدول التي تأخذ في اعتبارها مبدأ حرية تدفق الاعلام ان تعمل على توقيع اتفاقيات تهتم بالاذاعة عبر الأقمار الصناعية لسكان دول اخرى غير الدولة التي تبث الارسال المباشر » .

والسؤال الان . هل تغير شيء بعد هذه المبادىء الاسترشادية وتلك الضجة حول محاولة ايجاد قدر من التوازن بين افراد الاسرة الدولية ؟ ان الاجابة على السؤال يحددها ذلك الكم الهائل والمتزايد من الدراسات والكتابات التي تعرضت لهذه الأوضاع ، كما تحددها ايضا الخطوات التي ما زالت تتخذ من قبل اليونسكو في هذا المجال ، واحدثها تشكيل لجنة خاصة اصبحت تعرف باسم (لجنة ماكبرايد) (٤) ، نسبة الى رئيس الوزراء الايرلندي السابق الذي يرأسها ، والتي القى على عاتقها بحث هذه المشكلة التي أصبحت من كثرة الحديث عنها مزمنة ، ومع ذلك فان اطرافها ماضون في تكثيف نشاطاتهم ، كل بما يحقق اغراضه ، وهو ما يعد (عدم التوازن الاعلامي) او (انعدام العدالة) الى ابعاد اخرى تصبح أكثر دقة لو اطلقنا عليها (الغزو الاعلامي الجديد) .

وربما كان معنى الغزو دخيل على ما هو مفترض من اتمام عمليات الاتصال الاعلامي بطريق

---

(٣) المصدر السابق .

(٤) العدالة الاعلامية والدعوة لنظام عالمي جديد ـ مقال لمحمد سلماوي الأهرام ـ اكتوبر ١٩٧٩ .

الاتفاقات والتعاون الودي ، ولكن الحقيقة ان بث ونشر المعلومات في اتجاه واحد ، وبتكثيف متصاعد هو نوع من الغزو الجديد الذي يفرض مفاهيم سياسية وفكرية وثقافية معينة من جانب طرف الى آخر ، أي في حالتنا هذه من جانب صاحب البث الى جانب المستقبل ، ومن جانب الأقوى الى الأضعف .

وربما انخدع البعض فيما يذهب اليه بعض العلماء الغربيين في ان القنوات المفتوحة على مصراعيها بين المرسل والمستقبل في مجال الأقمار الصناعية هي نوع من التقارب العالمي الجديد في سبيل تذويب الفوارق بين الشعوب ورفع مستوى الشعوب النامية وايضا تقديم المزيد من الخدمات اليها عن طريق بث احدث اخبار الكرة الأرضية وما الى ذلك من افكار متفرعة عن نظرية مارشال ماكلوهان (٥) في تحويل العالم الى قرية اوليجية كبيرة من خلال وسائل الاتصال . وما يتبع ذلك من الاتجاه الى العالمية ونبذ التعصب والاقليمية ، وهو ما يتحقق عندما يصبح البث مباشرا من أقمار الاتصال الى المنازل .

ولكننا يجب ألا ننخدع ـ كعالم عربي وجزء من العالم النامي ـ بتلك الفكرة البراقة التي تحمل في ثناياها تأكيدا لهذا الغزو الاعلامي . ذلك ان تلك (القرية الكبيرة المسماة العالم) ستتلقى معلوماتها واعلامها من مصدر البث ، اي من نفس المصدر الذي يسيطر اليوم على مصادر الاعلام ، والامكانات الهائلة ويحتج لأي بادرة تذمر باعتبارها (قيد على التدفق الحر) .

واذا كانت تلك السيطرة أو هذا الغزو الاعلامي يحاول جاهدا مستخدما مهارته وفنونه في بث افكاره وسياساته فما الذي يحدث في حالة تطبيق نظرية ماكلوهان ؟ انه بالتأكيد سرعة حسم الصراع بين الشعوب المستقبلة ، اي الأغلبية السائرة في طريق النمو ، وبين أصحاب البث ، الاقلية الفنية لصالح حضارة تلك الأقلية . ويكفي اثباتا لذلك حصر عدد المرات التي استقبلت فيها اجهزة الارسال في العالم العربي مثلا احداثا عن طريق البث بالاقمار الصناعية ، لنرى ان ما يتعلق بالعالم العربي منها لا يكاد يتعدى نقل الشعائر الدينية في المناسبات .

ولقد أجرى اتحاد الاذاعات العربية في بداية عام ١٩٧٢ استبيانا (٦) تبين منه ان متوسط ما تذيعه اي محطة تليفزيون عربية من أخبار فيلمية عن الدول الاخرى يتردد ما بين ٣ ـ ٥ اخبار في الاسبوع ، وأن كلا منها تحتاج الى نحو ١٥ خبرا على الأقل ، فكيف يمكننا تصور هذا التدفق الذي نبتغيه للاخبار دون استخدام الاقمار الصناعية .

ان الكلمات السابقة للاستاذ محمد سعيد الصحاف المدير العام للمؤسسة العامة للاذاعة والتليفزيون بالعراق ورئيس اتحاد اذاعات الدول العربية في دورته عام ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ تؤكد على المعنى الذي اشرنا اليه ، وهو حاجة العالم العربي الى معرفة بعضه ، وهي الحاجة التي تستدعي

---

(٥) مارشال ماكلوهان ، عالم كندي في علم الاتصال الجماهيري .

(٦) مقال الاستاذ محمد سعيد الصحاف . المدير العام للاذاعة والتليفزيون العراقي ، ورئيس اتحاد الاذاعات العربية في دورة ٧١ ـ ١٩٧٢ منشور في سلسلة الدراسات والبحوث الاذاعية التي يصدرها الاتحاد .

بالضرورة استعمال الاقمار الصناعية ، ولكن لأنها ملك لهؤلاء الذين ينتمون الى العالم المتقدم ، فهي لا تستخدم لاستيفاء حاجة العالم العربي من كل النواحي .

« نحن نرجو أن تعيننا الأقمار كذلك على تغطية أخبارنا في الشبكات الدولية ، التي أعتقد أن نسبة ما تذيعه من أخبار عن الدول النامية عامة لا زالت أدنى من المستوى اللائق بكثير . اننا نعرف أن أوروبا وأمريكا معنيتان أساسا بالأحداث التي تجري في داخل كل منهما ، وبما يجري في بعضهما البعض بدرجة أقل ، وهما لا تعنيان بأخبار سوى تلك الدول التي تشاركهم الأصل الأثني ، ويتزايد هذا الاتجاه خطورة مع التيارات الانعزالية التي سادت الولايات المتحدة خاصة في بداية هذا العقد ، إلا أن منطقة مثل آسيا كما يقول سير تشارلز موزس أمين عام اتحاد الاذاعات الآسيوية ــ لا تحظى بما تحظى به القارات الأخرى ، وذلك ما لم تكن هناك حروب وفيضانات وزلازل ، ولا أعتقد أن هذا هو الموقف بالنسبة لآسيا وحدها وأنما بالنسبة لنا أيضا في الدول العربية »[٧] .

إذا كانت الكلمات السابقة لرجل مسئول في أعلى منصب إذاعي عربي تحمل الخوف من مستقبل هذه المنطقة من العالم في ضوء التطورات الجديدة في عالم الاعلام ، وهو استخدام الاقمار الصناعية ، وفي ضوء الاستخدام لهذه الأقمار من قبل مرسليها ، وما تم منه للآن تجاه العالم ، وأكد على استمرارية المنهج الاعلامي المسمى بالتدفق الحر . وإذا كان اللجوء الى استخدام تكنولوجيا الاعلام الجديدة حتميا في اتجاه عربي ــ عربي وليس غربي ــ عربي ، كما أنه يتعطل لنفس السبب وهو الخوف من تمكين الذين يملكون من رقاب الذين لا يملكون ، أو (أمركة العالم) كما يمضي البعض في التحذير **فلماذا يقف العالم العربي صامتا إزاء ما هو موجود في الحاضر من غزو إعلامي ؟** فمن الغريب حقا أن نخاف مستقبلا من أشياء نعيشها في حاضرنا حتى النخاع ، مستمرة معنا منذ بداية إرسال كل محطات التلفزيون في عالمنا العربي . اننا بالفعل قلقون تماما من أن يؤدي التهافت على الاذاعة عبر الاقمار الصناعية الى طغيان أفلام رعاة البقر ، وبرامج مثل « أحب لوسي »[٨] ، إننا لو نظرنا الى الحاضر نظرة متأنية لروعنا من مظاهر الغزو الاعلامي المتدفق على شاشاتنا كل ساعة ، والذي يتخذ من التليفزيون وسيلة مفضلة لبسط جناحيه . وهما الأخبار والبرامج . وبالتأكيد فان التليفزيون هو أكثر وسائل الاعلام تأثيرا وفعالية منذ الستينات وحتى اليوم ، باعتبار ما أدخل عليه من تطور على مشارف الثمانينات مثل البث المباشر بالأقمار الصناعية ، ومثل نظام الكابل المستخدم على نطاق واسع في بعض بلاد أوروبا وفي أمريكا ، ومثل نظام الدوائر المغلقة الذي يتزايد استخدامه يوما بعد يوم . وتعتمد تكنولوجيا التليفزيون على ثلاثة أبعاد هي . الانتاج (ومعداته مكلفة للغاية ــ خاصة الانتاج الملون)، والتوزيع (ويتوقف على ارتفاع وقوة محطة الارسال ، وكلما ارتفعت كلما ازداد انتشارها التوزيعي ، وأيضا زادت تكاليفها المادية) ، ثم الاستقبال عن طريق الأجهزة في المنازل .

إن الحديث عن تأثير التليفزيون لا يؤكده هنا إلا الأرقام التالية عن انتشاره في العالم النامي (وبينه الوطن العربي) ، وبحسب إحصاءات الأمم المتحدة لعام ١٩٧٦ نجد الأرقام التالية .

---

(٧) المصدر السابق .
(٨) المصدر السابق .

أولا . ١٤٤ دولة ومقاطعة نامية توجد بها محطات تليفزيون . وتفصيلها كما يلي . ٢٦ دولة مستقلة في أفريقيا ، ٢٩ دولة آسيوية ، ٢٥ دولة في أمريكا اللاتينية ، ٢٤ مقاطعة مستعمرة في القارات الثلاث .

ثانيا . إن عدد الأجهزة الاجمالية في الدول السابقة يبلغ ٣٩ مليون جهاز لتعداد يبلغ ٢٧٠ مليون مشاهد .

ثالثا . إن هناك حقيقتين بالنسبة لعلاقة الدول النامية بالتليفزيون . أولاهما ان نظم التليفزيون في معظم الدول النامية تعتمد في تمويلها على الدولة باعتباره ــ أي التليفزيون ــ وسيلة اعلام رسمية للدولة لبث أفكارها وآرائها وتوجيهها .. ، وبسبب آخر هو نفقات إقامة محطة تليفزيون وصعوبتها بالنسبة للرأسماليين المحليين في هذا العالم أو لرفض الدولة أي محطة تدار عن طريق (القطاع النامي) : وثانيتهما أنه من الأيسر أن تملأ الدولة النامية خريطة ارسالها عن طريق البرامج من الدول الأخرى ، فالبرنامج الذي يتكلف مائة ألف دولار مثلا يمكن شراؤه لدولة صغيرة بمعدل ٥٠٠ دولار فقط ، (الثمن يتحدد بعدد أجهزة الاستقبال الموجودة لدى الدولة المستوردة وليس بحساب لتكاليف الانتاج) ، ومن هنا فان دولا كثيرة في أفريقيا ، آسيا ، أمريكا اللاتينية لا تستطيع إنتاج برامج مستقلة أو حتى شراء برامج جيدة فتلجأ الى شراء برامج شعبية رخيصة من حيث مستواها الثقافي المنخفض من الدول المتقدمة .

ولقد أظهرت دراسة أعدها لليونسكو الباحثان تابيو فاريوز وكارل نورد تسترنج عام ١٩٧٢ ما يأتي . إن معظم برامج التليفزيون تنتجها مجموعة صغيرة من الدول الصناعية المتقدمة : وأن جزءا كبيرا من هذه البرامج تستوردها الدول الأقل تقدما : وأن ترتيب الدول المصدرة للبرامج هو . أمريكا ، بريطانيا ، فرنسا ، ألمانيا ، اليابان .

وبأرقام التدفق فانه . تصدر أمريكا سنويا ما بين ١٠٠ ــ ٢٠٠ ألف ساعة من البرامج ، وتصدر بريطانيا ٢٠ ــ ٣٠ ألف ساعة ، وفرنسا ١٥ ــ ٢٠ ألف ساعة ، وألمانيا الغربية ٥ ــ ٦ آلاف ساعة . أما أين تذهب هذا البرامج ، ولمن ، فهو ما توضحه الاحصاءات التالية عن نسبة البرامج المستوردة من الدول الخمس السابقة الى النسبة الكلية للبرامج :
جواتيمالا ٨٤٪ ، سنغافورة ٧٨٪ ، نيوزيلندا ٧٥٪ ، ماليزيا ٧١٪ ، ايسلندا ٦٧٪، شيلي ٥٥٪، إسرائيل ٥٥٪ ، زامبيا ٦٤٪ ، نيجيريا ٦٣٪ ، ايرلندا ٥٤٪ ، الدومينكان ٥٠٪ ، كندا ٤٦٪ ، بلغاريا ٤٥٪ ، أورجواي ٦٢٪ ، أستراليا ٥٧٪ ، المجر ٤٠٪ ، فنلندا ٤٥٪ ، المكسيك ٣٩٪ ، النرويج ٣٩٪ ، باكستان ٣٥٪ .

وبالنسبة لاحصائيات الوطن العربي ، كانت هناك أربعة أرقام فقط هي .
مصر ٤١٪ ، العراق ٥٢٪ ، الكويت ٥٥٪ ، اليمن ٥٧٪ .

وكنموذج تفصيلي حول تدفق البرامج الأجنبية بالتليفزيون المصري ، فان مصر تستورد سنويا ٢٥٠٠ ساعة من البرامج ، بمعدل يفوق ٤٠٪ . اكثر من ثلثيها يأتي من الولايات المتحدة الأمريكية بمعدل ١٨٠٠ ساعة سنويا ، بالاضافة الى فرنسا ثم بعض دول أوربا . ولكننا لو عرفنا أن النموذج المصري يكاد يكون متطابقا مع النماذج العربية الأخرى فيما يتعلق بتدفق البرامج الأجنبية فان

الصورة تصبح واضحة ، وهو أننا جميعا نقع تحت تأثير غزو إعلامي كاسح يتخذ من التليفزيون وسيلة ، ومن جناحيه المؤثرين . المواد الاخبارية ، والبرامج الدرامية على وجه الخصوص أدوات لبث الأفكار والقيم والثقافات المنتمية لعالم آخر ، وأيضا لبث الدعاية السياسية السوداء ضـــد نفس العالم الذي تنتمي اليه أو ضد كل ما لا ينتمي بالضرورة الى عالم الدول المسيطرة على البث .

ولنبدأ بالجناح الأول للغزو الاعلامي لعالمنا العربي ، وهو الغزو الاخباري .

يعتمد التليفزيون أساسا في نشراته الأخبارية ، وبرامجه وتحقيقاته المصورة عن الأحداث الهامة على ما يأتيه من وكالات الأنباء الكبرى ، وعلى ما تنتجه هذه الوكالات ــ أيضا ــ من أفلام وبرامج إخبارية مصورة سواء باستخدام مراسليها الموجودين في كل مكان أو بارسال بعثة خاصة لمواطن الأحداث ، ومن هنا فانه على التليفزيون في أي بلد نام أن يغطي برامجه من خلال تلك المادة التي يتلقاها بمقتضى عقود وأسعار (عالية) ، تدفعه أحيانا الى التخلي عن بعض الأحداث أو التوسع في تقديمها بسبب الامكانات . ولكن إذا حدث هذا في شكل أو حدث ما فانه على التليفزيون في البلد النامي أن يتجنبه في الحدث التالي خشية الاتهام بالتأخر ، وربما يحدث هذا برغم عدم احتياج حقيقي من قبل جماهير تلك الدولة النامية لذلك الحدث الذي تغطيه الوكالة الخارجية بتوسع ، ولكنها ــ أي الوكالات الكبرى ــ تعتمد في تغطيتها على مجموعة من القواعد غير المعلنة وأهمها . **الاهتمام بكل ما يحدث في عالمها هي ــ أمريكا وأوروبا ، وإثارة الاهتمام به بشتى الطرق حتى ولو لم يكن يستحق ؛ ــ تجاهل الأحداث الايجابية المؤثرة في حياة الشعوب النامية إلا ما يتعلق منها بظواهر فردية خارقة أو ما يشوبه أحداث مثيرة** (مثال لذلك التركيز على طرد رئيس أوغندا السابق عيدي أمين مثلا لوزيرة خارجيته السابقة متهما إياها بفضيحة أخلاقية) : **تفسير أنباء الدول النامية من خلال وكالات الانباء بطريقة تخدم مطامع الدول المتقدمة** ، (مثال لذلك موقف العرب من أزمة النفط ، ومواقف منظمة الأوبك التي استخدمت كسلاح ضد العالم النامي كله ، وكغطاء لأزمات داخلية عديدة في أمريكا وأوروبا) .

ولقد جاء وقت على بعض الدول النامية اعتقدت فيه انها يمكنها منافسة وكالات الانباء الكبرى ، ولكن جاء حائل الامكانات (حيث تبلغ تكلفة المراسل في العام حوالي ١٠٠ ألف دولار تقريبا)[٩] مانعا لأن تفعل أي دولة بمفردها هذا .. ولكنه لم يمنع بالطبع من تجمع الدول النامية لانشاء وكالة كبرى تتصف بالموضوعية وبالانصاف فيما يتعلق بنقل أخبار الأغلبية العظمى من دول العالم ، وبرغم عقبات التطـــور التكنولوجي لادارة وكالات الانباء الكبرى حاليا ، فان المشروع يمكن ان يكون بصورة تليق بالوطن العربي ، لو قدرت ذلك حكوماته .. وإلا فلتستمر الى الأبد لسيطرة وكالات الأنباء على ٨٠٪ من الأنباء عبر كل الوسائط .

ربما يضعف من تأثير المواد الاخبارية القادمة عبر وكالات الانباء الكبرى ما تتسم به من مباشرة ، وأحيانا انحياز فاضح في التغطية يبعدها عن الشكل الديمقراطي الذي تحرص على ممارسته ، وأيضا لأنها ــ نشرات الأخبار والبرامج الاخبارية والتحليلية للأحداث السياسية ــ تغدو موادا غير جذابة في نظر كثيرين من المواطنين العرب خاصة أن نسبة الأمية بينهم من أعلى النسب في

---

(٩) المصدر رقم ٤ .

العالم النامي . ولكن ماذا عن البرامج الدرامية التي تتسلل الى المشاهد في قالب شديد الجاذبية من خلال قيمته المفضلة ، وهي الحدوتة أو القصة التي تقدمها الحلقة أو البرنامج الدرامي .

ولأن المواطن في العالم العربي مثله مثل المواطن في العالم النامي ما زال متشبعا بتراث ثقافي ممتد تمثل الأقصوصة ، أو الحدوتة وحدته المعروفة ، وتؤكد على هذه الوحدة فنونه ، وخاصة السينما العربية التي ما زالت تدور في عالم الحواديت القديمة المكرسة ، وكذلك التمثيليات الاذاعية ، ولأنه يختلف عن غيره في تقبله لمواد أخرى برامجية ، تسجيلية مثلا أو وثائقية ، فانه يقبل بصورة مذهلة على ما يوافق مزاجه النفسي وهو البرامج الدرامية ، والتي يأتي صنعها على درجة هائلة من الاتقان الحرفي والفني معا بحيث تجعل المشاهد كاللاهث أمامها ، ومنبهرا بذلك العالم الذي لا يقاوم إلا من خلال إنسان غير عادي ، أو خارق أو سوبرمان من نوع جديد يقوم وحده بحل مشاكل الانسانية . ومن خلال هذا النموذج ــ الرجالي أو النسائي ــ تتسرب كل أفكار الغزو الثقافي والسياسي والفكري ، وأحيانا من خلال أقاصيص فجة تفتقد ذكاء التغطية . وعادة ما يتمتع صناع تلك البرامج بقدر كبير من المؤهلات اللازمة لتنفيذ تلك الأعمال ، ولتقديم بناء درامي محكم من خلال الشاشة الصغيرة يبدأ بخلق التوتر لدى المشاهد بعد اللحظات الأولى للبداية حتى يحتفظ باهتمامه متجددا .

ويلجأ صانع البرنامج الدرامي أيضا الى تعدد الأزمات في البرنامج الواحد حتى يقدم للمشاهد أقصى درجة من الاثارة ، وللتغلب على أختلاف ظروف المشاهدة من بلد لآخر ، ومن أسرة لأسرة ، ومن فرد لثان . كذلك تجري الاستعانة بنموذج للبطل يقود زمام المبادرة في كشف أحداث الحلقة ، ويجسد صفات بشرية ونفسية متعددة ، غير ممكنة واقعيا ولكنها مؤلفة دراميا لمداعبة مشاعر الجماهير في بلاد العالم المتلقية ، وبينها بلادنا العربية ، خاصة وأن هذا البطل يجسد أمنية انسانية غالية ، وهي أنه لا يهزم ــ عادة ــ وإنما قد ينسحب بنبل من موقف ما ، أو يتصرف بشهامة أمام أحد المآزق لمجرد التنويع . ويتصرف البطل دائما من منطلق الولاء لحماية الوطن ، وعادة ما يتم هذا من خلال وكالة المخابرات المركزية الأمريكية التي تستعين به في العمليات الصعبة التي لا يجيد انجازها غيره .. (حلقات رجل بستة ملايين دولار ــ المرأة الخارقة ــ باريس ٧٠٠٠ كنماذج لهذه النوعية التي تؤكد على تمجيد المخابرات واختراق أمن الآخرين) . وهناك اهتمام متزايد بدور رجل البوليس ، كعماد وأساس لشخصيات أبطال المسلسل ، وهو أيضا ــ في النهاية ــ لا بد وأن يصل الى الجاني ، حتى على حساب كل شيء ، وربما كان هذا الاهتمام مبررا في مجتمعات تميل الى العنف في البلاد المتقدمة ، ولكنه ينقل ذلك العنف الى البلاد النامية . وفي إحصاء لعدد المسلسلات التي عرضت بالتليفزيون المصري لمدة عام هو ١٩٧٩ نجد الآتي . ١ ــ العدد الكلي للمسلسلات الدرامية ٤٠ مسلسلا ، (توجد أيضا حلقات كارتون) : ٢ ــ ٥ أعمال تاريخية (أدوارد ومسز سمبسون ــ البارون فون ترنك ــ الجنود ــ ستدنيال ــ المهاجرون) ٣ ــ مسلسلات اجتماعية : ٤ ــ مسلسلان دعائيان . يقومان على الاشادة بخدمات فرق الانقاذ الأمريكية التي تستعين بأحدث الوسائل التكنولوجية للانقاذ : ٥ ــ مسلسلان رعاة بقر : ٦ ــ مسلسل علمي فانتازي : ٧ ــ مسلسل كوميدي خيالي : ٨ ــ مسلسل استعراضي : ٩ ــ ثلاثة مسلسلات تعتمد على الخوارق : ١ ــ تسعة عشر مسلسلا بوليسيا .

العالم من نافذة ستيف اوستن : ستيف أوستن هو البطل الخارق في مسلسل . رجل بستة ملايين دولار ، وهو المسلسل الذي اخترنا أن نقدم هنا في هذه الدراسة بعض حلقاته لأسباب هي . أنه

النموذج ، الوريث ، للأبطال القدامى في السينما الأميركية مثل ـ سوبرمان ومن قبله طرزان : وأن حلقاته تجسد كل مبادىء الغزو الاعلامي ، وخاصة الغزو السياسي بصورة تكاد تكون مستمرة ؛ وأنه المسلسل الذي اشتركت في عرضه كل شاشات التليفزيون العربية ، والذي تفاوتت مواقف العرب منه بعد فترة طويلة من عرضه ، حيث منع منذ فترة من العرض على شاشة التليفزيون السعودي ، وبعده أوقفته بلدان اخرى ، ولكنه ما زال مستمرا في ربوع عربية عديدة ، منها مصر .

وفي السطور التالية نقدم نماذج من حلقاته . وفي البداية ، فان فكرة الرجل الخارق ــ كما تحدثنا عن نفسها من خلال المسلسل ــ هي رجل أعيد تركيب أعضائه ، بعد إصابته في حادث أفقده قواه العضوية ، وتكلفت عملية تركيب اعضاء جديدة تعتمد على أحدث التطورات التقنية ستة ملايين دولار أصبح بعدها ستيف أوستن ، رجلا خارقا ، يسمع عن طريق موجات خاصة من على بعد أميال ، وينظر من خلال عدسات خاصة مسافات بعيدة ، وأيضا يحرك أجزاء جسمه لقطع الأشجار وعبور الجبال وهدم الحوائط وغيرها من الأمور الخارقة ، واعترافا بالجميل لمن أعادوا تركيبه ، يقرر أن يضع نفسه تحت أمرة المخابرات الأمريكية المركزية منفذا لعملياتها الصعبة في أي مكان ، ومن خلال أوامر رئيسه الكولونيل جولدمان !

النموذج الأول : تكتشف المخابرات الأميركية وجود شخص يماثل ستيف أوستن صنعته المخابرات الروسية وأطلقت عليه (رجل بسبعة ملايين دولار) ومهمته التجسس على قواعد الصواريخ الأميركية ، ومعرفة أسرارها . يكلف ستيف بمتابعته ، وإحباط أعماله ، وبعد جهد يتمكن من تحطيم أجهزة الرجل الروسي وشل حركته .

النموذج الثاني : يقام معرض للفن الروسي في الولايات المتحدة ، وتحمل المشرفة على المعرض (الكونتيسة السابقة بولشفيل كوير) ، رسالة سرية بها شيفرة تركيب صاروخ حلف وارسو ، ويكلف ستيف بأخذ الشيفرة التي وضعتها الكونتيسة الجاسوسة وراء لوحة مادونا أو (غادة بيزنطة) الشهيرة . وفي أثناء محاولة ستيف إخراج الشيفرة يكتشف أن اللوحة مزورة ، وبالضغط على الكونتيسة يعرف أنها باعت اللوحة الأصلية مقابل مبلغ كبير لتساعد به قومها من الروس البيض الذين هربوا بعد الثورة الروسية ، وأممت ممتلكاتهم ، ويذهب ستيف وباستخدام قوته ليعيد اللوحة الى مكانها في اللحظة الأخيرة بعد إقناع الكونتيسة بالنضال بوسائل اخرى .

النموذج الثالث : يعين ستيف مرافقا لتانيا ، بطلة فريق الأكروبات الروسي الذي يزور الولايات المتحدة ، ولا يتركها لحظة واحدة خوفا من إصابتها بسوء يسيء للعلاقات بين البلدين ، ولكنه يلاحظ أن هناك من يتعقبهما ، وفي اللحظة الأخيرة ينقذها من الموت المدبر لها أثناء ادائها حركة صعبة ، وكما ينقذها من سيارة حاولت مداهمتها في الطريق . وتقع تانيا في حب ستيف ، وتعترف له ، وتتمنى لو ظلت معه في أمريكا ، ويكتشف هو أن فريقا للجاسوسية السوفيتية في أمريكا يمارس نشاطه التخريبي من خلال مدرسة رياضية اقامها الاتحاد السوفييتي في أمريكا ، وان هذا الفريق هو الذي حاول قتلها لخلق أزمة دبلوماسية ، وبالفعل يخطف رئيس الجماعة (الروس) تانيا تمهيدا لقتلها وعندما يحاول ستيف التدخل يخدره الكس ــ المشرف على امن فرقة الأكروبات ــ ولكنه لا يمتثل ويفاجأ بألكس يذهب لارجاعها ولكنه يهاجم من رئيس الجماعة وينقذه ستيف في اللحظة الأخيرة .. كما يسرع لانقاذ تانيا . !

النموذج الرابع : بالمصادفة يتقابل ستيف مع حبيبته السابقة بربارا ، التي تزوجت من أحد علماء الفضاء . بعدها تأتيها أنباء بمصرعه ، ثم تتلقى مكالمة منه يطلب منها الذهاب اليه ، يذهب معها ستيف بدافع الشهامة وقد ساوره الشك ! يتضح أن الزوج معتقل في سفارة المجر بواسطة السفير ، ومعه عالم مجري كان يحضر مؤتمرا علميا في امريكا ، والاثنان رهن اكمال اختراع هام ، يجلس كل من ستيف والزوجة منفردين ، ولكن الرجل الخارق يكسر القضبان ليعرف انهم في السفارة يستعدون للهرب بالعلماء الى المجر ، وبفضل القوة الخارقة يكسر الخزائن ويحصل على الاختراع والخرائط ، وينقذ الدكتور زوج حبيبته وزميله المجري ، الذي يقرر البقاء في أمريكا .

النموذج الخامس : يبحث ستيف عن رجل ياباني نجا وحده من حادث تحطيم إحدى الطائرات ، ومعه قنبلة بها

شحنه متفجرات ممنوعه ، وبالرغم من عدم مسئولية الحكومة الأمريكية عنها ، إلا أنها تخشى انفجارها وأثرها المدمر .
ويستعين ستيف بياباني آخر هو (توماس) لكي يتعرف على الأول ، يصلان الى أحد الجزر اليابانية ، وهناك يصاب ستيف من جراء انفجار احد القنابل التي تملأ المنطقة منذ أيام الحرب. ويعتقد (توماس) بموته فيبلغ عنه السلطات اليابانية حيث يحتجزونه لفحصه ومعرفة أسرار تركيبه ولكنه يهرب منهم . ويعثر على الطيار الياباني الذي يحقد عليه ، ويعتقد أنه عدوه الذي يمر بلاده في الحرب ! ولكن ستيف ينقذه من محاولة الانتحار ، ويخبره بأنهم ليسوا أعداء ، ويحضر له والدته وأخاه طالبا منه العودة معهم لبلاده . يعود ستيف مع الياباني الذي انقذه للبحث عن ابن السفير الأمريكي في طوكيو ، والذي تحطمت به طائرة منذ عشر سنوات ، وكان الوحيد الذي نجا من الحادث يومها ، وفي أحدى الغابات يجدون مجموعة ذئاب وغلاما يعوي مثلهم ، تطارده الجماعة ويقبض عليه ستيف ، ويتجاوب معهم عند تدريبه على الكلام والأكل ، وأثناء العودة يفاجأون بهجوم مجموعة يابانيين يحتجزون الغلام، ويتضح أن ابشكادا الياباني هو الذي قتل والد الغلام ، وأنه رآه يقتل أباه ، لذلك كان يريد الحصول عليه بأي ثمن حتى لا يشي به ، يتمكن الرجل الخارق بالطبع من التغلب عليهم ، واسترداد الغلام .

النموذج السادس : يوفد أحد علماء المانيا الشرقية في مهمة سرية للاطلاع على تحركات سلاح الطيران الأمريكي ، وينجح في تجنيد عامل بأحد الملاهي الليلية والاستعانة به في تركيب صاروخ موجه بداخل الملهى ــ كعملية تمويه ــ ضد أهم المطارات الأمريكية ، يكتشف ستيف أوستن الخطة ، ويستعين بابنة أحد عمال الملهى في كشف موقع الصاروخ ، ويتمكن من إبطال مفعوله قبل انطلاقه ، ويقبض على العالم الالماني الشرقي ، وعلى عميله الذي جرؤ على التعامل مع الشرقيين .

النموذج السابع : جاكون عالم سوفيتي كبير يحاول الهروب هو وابنه (اليكس) الى الغرب حيث الحرية ، ويساعده على ذلك ستيف أوستن (لأنه عالم مهم يستفيد منه الغرب) وخاصة أنه يلقى الأمرين في وطنه . يشعر العسكريون الروس بنيته فيحاولون عرقلته عن طريق إجراءات أمن مشددة ، ولكن ستيف يستطيع اقتحام المكان ويأخذ جاكون خارج الحدود وبعدها يعود لاحضار الابن ، الذي كان يرفض في البداية ، ولكنه يكتشف أن جميعهم وحوش ، حتى صديقه الحارس الذي كاد يقتله وهو ذاهب لأبيه .

نلاحظ هنا ، من خلال حلقات (رجل بستة ملايين دولار) ، أنها مجرد نموذج ، وأن ما تتضمنه من أفكار موجودة في حلقات أخرى تعرض على شاشاتنا العربية ، كما تستقبلها شاشات العالم النامي ، وتستقبل معها كل مواد الغزو السياسي بالدرجة الأولى ، والموجه **لاثارة مشاعر العداء السياسي ضد الكتلة الاشتراكية بوجه خاص** حيث يبدو من خلال النماذج ما يلي .

١ ــ في النموذج الأول يصنع السوفييت رجلا مماثلا للرجل الخارق ، ويكلفونه بأكثر من تكاليف الرجل الأمريكي ولكن الاخير يتفوق عليه ويحطمه . فكرة التفوق الامريكي على السوفيتي .

٢ ــ في النموذج الثاني يبرز العداء للنظام السوفيتي من خلال نموذج الكونتيسة التي تضطر للتجسس والسرقة من أجل انقاذ قومها المساكين الذين طردوا بسبب الثورة الروسية .

٣ ــ في النموذج الثالث يسعى الروس ، الجواسيس والتحريون ، الى الاساءة لعلاقات الوفاق بين البلدان من خلال محاولة قتل بطلتهم تانيا ، وبالطبع فهم في سبيل ذلك لا يتورعون عن تحويل مركز رياضي سمح لهم باقامته في نيو أمريكا الى مركز للتجسس واعمال العنف .

٤ ــ في النموذج الرابع يوجه العداء الى دولة أخرى ، أيضا عضو في الكتلة الاشتراكية ، وهي المجر ، التي تتحول سفارتها في أمريكا ، الى مركز لأعمال منافية للقانون والعرف الدبلوماسي ، ويتحول السفير المجري الى مجرم يقتل العلماء الامريكيين والمجريين معا لارهابهم على اكمال اختراع ما .

٥ ــ وفي النموذج السادس يقوم العلماء من دول الكتلة الاشتراكية ، المانيا الشرقية على وجه التحديد هنا ، بأعمال التجسس والتخريب ، ويشوهون الحياة الآمنة السعيدة باختيارهم لمكان التخريب مدينة ملاهي أمريكية .

٦ ــ في النموذج السابع يعاني العالم الروسي في وطنه ، ويسعى الى الهروب الى الغرب ، وبينما يرفض ابنه بناء على دوافع (عاطفية) وهي نشأته في وطنه وصداقته لأحد الجنود يغير هذا الابن رأيه لأنه رأى صديقه يعترض طريق هروبه مع رجل المخابرات الامريكية المتسلل والذي لا يفتأ يردد للصبي الروسي . لنعود الى وطننا ونذهب حيث الحرية .

٧ ــ النموذج الخامس يتجه السلوك السياسي للحلقات اتجاها آخر ، حيث يبحث رجل المخابرات الامريكية عن القنبلة الممنوعة خوفا على البشرية برغم عدم مسئولية الحكومة الأمريكية عنها . وينقذ البطل الامريكي الطيار الياباني من الانتحار ، ويخبره بأن اعتقاده بأنهم أعداء ، وأن بلاده دمرت على يد الأمريكان ، وأن حقده عليه غير صحيح وغير مبرر .. وهو نوع من التضليل السياسي والتزوير العلني للتاريخ من خلال التليفزيون وقلب للحقائق الثابتة في تاريخ العالم وهو تدمير الولايات المتحدة لثلاث مدن يابانية أهمها هيروشيما باسقاط أول قنبلة نووية في تاريخ الحروب ، وبعد عداوة بين البلدين انتهت بهذا الحل الأمريكي .. **إن هذه الحلقة ــ التي قدمت في جزأين . ولمدة ١٠٠ دقيقة لتستوعب كل الأفكار السياسية المراد تسريبها الى العالم عن اليابانيين من وجهة النظر الأمريكية .**

ففي الجزء الثاني من الحلقة يعود ستيف مع الياباني الذي انقذه من الانتحار ، كما صحح له مفاهيمه الخاطئة عن الولايات المتحدة ! وبالفعل يعثر على ضالته وسط الذئاب ، وما يحمله هذا المعنى من رمز واضح ، وعندما يبدأ الطفل الضال في تعلم لغة البشر يفاجأ الرجل الخارق بهجوم (ايشكادا) الشرير الياباني ، الذي قتل والد الطفل قديما ، ويريد القضاء على طفله حديثا .. **وفي هذا الجزء الثاني من الحلقة يتعدى الأمر التضليل السياسي لحقائق التاريخ الثابتة الى قلب الأوضاع ، وتشويه الطرف الآخر** ، وهو اليابانيون ، الذين بعدما كانوا مجنياً عليهم واقعيا من خلال مأساة قنبلة هيروشيما ، يصبحون متهمين تليفزيونيا من خلال قتل الشرير (ايشكادا) للسفير الأمريكي ، ومحاولته القضاء على طفله بعد ذلك . ولعل اهمية هذا النموذج الأخير هو في هذه الدعاية المسمومة ضد اليابانيين ، الحلفاء الحاليون للأمريكيين ، ولكن هذا لا يمنع أجهزة الغزو الأمريكي الاعلامي من محاولة تغيير الماضي التاريخي الذي شهد عداواتهم ، وتشويههم من خلال العودة للماضي أيضا ، فقصة الياباني الشرير ليس لها من دلالة زمنية ، وعليها فتصبح مناسبة لكل الأوقات للتدليل على نموذج (الياباني) ، وهي نظرة عنصرية عرقية بالأساس تجاه الشعوب الصفراء .

وبالاضافة الى الدعاية السياسية السوداء ضد الكتلة المختلفة ايديولوجيا ، وضد الشعوب المختلفة العنصر ، فهناك من مظاهر الغزو الذي تعبر عنه هذه الحلقات : اسطورة التفوق الأمريكي ، وجنة الحرية الموعودة التي تبدو في الحلقة الأولى من خلال تفوق (رجل الستة ملايين) على (رجل السبعة ملايين) والسبب أن الأول أمريكي ، والآخر من الكتلة الأخرى ، وفي النموذج الثاني من خلال توصل المخابرات الأمريكية الى الأسرار العسكرية لحلف وارسو ، ومن خلال النموذج الثالث حينما تتوق البطلة الروسية الى العيش في امريكا والتمتع بالحب مع رجل المخابرات

(الجنتلمان) الذي انقذها وانقذ رئيس الأمن المرافق لها فقط . من أجل الوفاق الدولي ، واحترام الاتفاقيات بين البلدان .

وفي النموذج الرابع يتغلب رجل المخابرات على كل شيء ابتداء من قضبان سجن السفارة المجرية الى كسر الخزائن وتحرير الرهائن والعودة بتصميم الصاروخ السري ، ولا بأس من تحقيق أمنية العالم المجري في البقاء بأمريكا .

وفي النموذج السادس يتمكن من اكتشاف المؤامرة قبل وقوعها ومنع الصاروخ من الانفجار في اللحظة الأخيرة . وفي النموذج الأخير يتمكن من اختراق كل وسائل الأمن الروسية لتهريب العالم الروسي ثم اختراق الحدود من جديد والعودة بابنه .

وهناك أخيرا ذلك الانتهاك لكل قواعد الاتفاقات والمواثيق الدولية الخاصة باحترام حريات الآخرين ، دولا وأفرادا ، وذلك من خلال انتهاك (البطل الخارق) لكل حريات الآخرين ، وكل قوانين الدول الأخرى ، وكل مقدساتها من أجل (أمن أمريكا) . ففي النموذج الثاني يصبح محللا سرقة أسرار حلف وارسو من قبل المخابرات الامريكية ، وفي النموذج الرابع يقتحم ستيف سفارة أجنبية ، ويعمل بها تحطيما من أجل (حماية الحرية) وفي النموذج السابع يتسلل رجل المخابرات الامريكي الى داخل الحدود السوفيتية ويخترقها كيفما يشاء من أجل نقل العالم السوفيتي الكبير (لأنه عالم مهم يستفيد منه الغرب) ...

خاتمـــة

إن التركيز هنا على الجانب السياسي للغزو الاعلامي من قبل الدول التي تحمل لواء الدعوة الى مزيد من (حرية تدفق الاعلام بلا قيود أو ضوابط) **هو تقديم لأكثر العناصر وضوحا من عناصر هذا الغزو الذي يشمل توجيه سهامه في النواحي الثقافية ، والتراثية والحضارية أيضا إلى أغلبية نامية تتلقى ما يقدم اليها بارادة المتلقي السلبية ، ووضعيته المهيئة للانبهار بالعمل الفني المتقن الصنع ، وبالتالي يتشرب ما يقصده العمل أساسا من سهام دعائية قد تكون مضادة لهؤلاء المتلقين أنفسهـــم** (كبداية موجة من الحلقات التليفزيونية تشير الى مالكي البترول على أنهم سبب بلاء العالم وهي حلقات جديدة لم تنشر بعد على الشاشات العربية) وخطورة ذلك هنا إن تركيز هذا الخطر المباشر من خلال استمرار العرض لهذه الأعمال ، وانتفاء المقدرة على إيجاد البديل لها اما عن عجز عن الاختيار من نماذج أخرى أو عجز عن الانتاج **يهدد بتحول خطير وترســـيخ أفكار التخلف عن العالم النامي في ذهن هـــذا العالم نفسه ، كما يصل الى درجة التشبع التام لأفكار الغزو الاعلامي لدرجة التأثير على الكتاب المحليين في أفكار البرامج وأشكالها في بلدانهم**[١٠] **، ومن هنا تصبح السيطرة الثقافية مباشرة من خلال الحلقات المصدرة الى العالم النامي ، وغير مباشرة خلال الحلقات المصنوعة بأيدي أبناء العالم النامي** (ولن نتعب كثيرا . إذا حاولنا تذكر كم الأعمـــال الدرامية العربية واختيارها لموضوعات غريبة عن واقعنا العربي وقريبة

---

(١٠) دراسة إعلامية لليونسكو اجراها عام ١٩٧٢ كارل لنسترنج وتابيو فاريوس وموضوعها . **TELEVISION A ONE WAY TRAFFICE STREET.**

من واقع غريب عنا) . وهي هنا أبلغ دليل على صحة هـذه النتيجة التي توصل إليها الباحثان الدوليان بلا سابق معرفة بمضمون الأفلام والمسلسلات العربية .

والسؤال الأخير الآن . ألا من مقاوم لهذا الغزو الخطير ؟ الاجابة ، تقدمها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو العربي) من خلال عدة قرارات وتوصيات بشأن الغزو الفكري بشكل عام ، ولسنا في مجال محاسبة ولكن قد يفيدنا سماع وجهة نظر رسمية لأكبر مسئول عن الثقافة العربية .

« الغزو الفكري عن طريق الحلقات التليفزيونية ، موضوع ليس عاجلا ، واتخذنا عدة قرارات وتوصيات بشأنه بشكل عام ، ولكن الموضوع متوقف على التنفيذ . وهي في اعتقادي مسألة إمكانيات ، دولة فقيرة لا تسمح إمكانياتها بالانتاج . ولكن الرجل السوبرمان أو الخارق هذا لا يتم بسوء نية ، ولكنها مع ذلك مشكلة بلا حل ، نوع من قصور الادراك لدى خطورتها ، وهي عملية معقدة وتحتاج الى ترشيد »[11] .

---

(١١) حوار مع الدكتور محي الدين صابر ــ مدير عام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، أجرته كاتبة هذا المقال في بداية عام ١٩٧٩ ــ غير منشور .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

يصدر قريباً

من الذي سرق النار

(خطرات نقدية) تأليف : الدكتور احسان عباس

جمعها وقدم لها : الدكتورة وداد القاضي

تحقيق د . احسان عباس

صدر عن المؤسسة

ملامح يونانية في الادب العربي تأليف : د . احسان عباس

قصائد الشيرازي قدم لها د . احسان عباس

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

تقدم

من وحي كليلة ودمنة

١ ـ الحمامة الأميرة

٢ ـ الفأر الطائر

٣ ـ الغزال الشارد

٤ ـ دمنة الماكرة

٥ ـ الثور المسكين

٦ ـ الأسد المغرور

٧ ـ محاكمة دمنة

٨ ـ حرب البوم والغربان

٩ ـ القرد الذكي

١٠ ـ الثعبان المنقذ

١١ ـ الثعلب العفيف

١٢ ـ القط المظلوم

١٣ ـ عين القمر

١٤ ـ الجمل والأسد

١٥ ـ الفأر الحكيم

١٦ ـ الفيل الجبار

١٧ ـ حيلة الأرنب

١٨ ـ الشجرة تكلمت

١٩ ـ احلام الملك

٢٠ ـ الضفادع والثعبان

٢١ ـ انتقام الببغاء

٢٢ ـ مالك الحزين

٢٣ ـ كنز الهدهد

تاليف : راجي عنايت
رسوم : بهجت عثمان

الاعلام النفطي والعلاقات الدولية

فؤاد اتيّم

رئيس تحرير النشرة الاقتصادية للشرق الاوسط وواحد خبراء الاقتصاد النفطي العرب

البحث* في دور اعلام النفط والطاقة في العلاقات الدولية يستدعي قبل كل شيء التمييز بين نوعين من الصحافة . صحافة الاحتراف بما تتميز به من توزيع محدود وتركيز شديد على المعلومات الفنية والاقتصادية المتعلقة بالنفط والطاقة ، والصحافة العامة ذات التوزيع الاكبر والتغطية الاوسع . وبما ان صحافة الاحتراف تعتمد الى حد كبير على الاختصاص ، فانها لا تصل الا الى عدد محدود جدا من القراء ، معظمهم من اوساط صناعة النفط والطاقة بالذات . ويكاد توزيع جريدة الاحتراف العادية لا يزيد على بضعة الاف وان كان عدد قرائها الفعليين اكبر من ذلك في الغالب لان معظم اعدادها يتناولها اكثر من قارىء ضمن المؤسسة الواحدة. واذا ما قارنا بين صحافة الاحتراف وبين الصحف والمجلات الاسبوعية الواسعة الانتشار امكننا القول ان تأثير الاولى في الرأي العام لا يكاد يذكر . ومن هنا فاني اعتزم ان اركز ملاحظاتي حول الصحافة الغربية غير المتخصصة التي تصدر باللغة الانجليزية ــ وعلى تغطيتها المتزايدة أبدا لشؤون النفط والطاقة ــ لان الانجليزية هي اللغة الرئيسية التي ينشر فيها الاعلام النفطي وتدار بها الدبلوماسية الدولية . ولأن التعميم خطر ، تقتضي الامانة ان اشير الى ان ملاحظاتي تنطبق بالدرجة الاولى على الصحافة الامريكية ، وخاصة الصحف اليومية البارزة التي تمارس نفوذا كبيرا على الرأي العام في الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين ، كما تنطبق ولو بدرجة اقل على بعض الصحف البريطانية ذات الميول اليمينية .

وقد لفت نظري على مر السنين خط مطرد من العداء والتعصب الغربيين ضد حكومات وشعوب الاقطار العربية المنتجة للنفط . ولطالما تعمد الغرب ان يشوه سياسات وافعال الحكومات المنتجة او انه اساء فهمها في احسن الاحوال . وكانت التعليقات التي تصدر في الصحافة الغربية اما متعصبة ومفعمة بالحقد والازدراء او مهينة بل وكانت في بعض الاحيان ترفع عصا التهديد الوقح . ودأبت هذه الصحافة على ان تقدم لنا الموعظة تلو الاخرى حول فضائل اعتماد الدول بعضها على بعضها الاخر ، وحول الحاجة الى التصرف بروح المسؤولية تجاه المجتمع الدولي ، وحول مخاطر التسبب في ازمة

(*) تعتمد المقالة على محاضرة القاها الكاتب في دورة اساسيات صناعة النفط والغاز الثالثة في مقر الامانة العامة لمنظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول ، في الكويت في العام الماضي .

اقتصادية عالمية سترتد علينا عواقبها الوخيمة حتما . ولكننا في نفس الوقت الذي كانت تصدر فيه هذه المواعظ لم نلمس ادنى دليل على ان من يوجهون الينا الانتقاد ، سواء اكانوا من الحكومات ام من اهل الاعلام ، يطبقون ما يعظوننا به . فما هي يا ترى الاسباب الكامنة خلف هذا العداء والتفكير المشوش في الغرب ؟

لا شك ان قسطا كبيرا من المسؤولية في هذا الموقف العدائي الذي يتخذه الاعلام الغربي ، والرأي العام الواقع تحت نفوذه ، ضد القضايا العربية بوجه عام والمسألة النفطية بوجه خاص ، يقع على عاتق اللوبي الصهيوني العالمي المزروع في قلب النظام الانتخابي الامريكي . ومما يؤسف له ان الصهاينة كانوا دائما يكنون احتراما لفكرة الوحدة العربية اكثر مما يكنه بعضنا لها ، فلقد ادرك هؤلاء منذ زمن بعيد ان الموارد النفطية العربية والمجالات التي يمكن ان تستخدم فيها تشكل تهديدا محتملا للدولة الصهيونية في فلسطين ولمراكز القوى في اللوبي الصهيوني بالذات . ومهما يكن الشكل الذي يتخذه استخدام العرب لعائداتهم النفطية ، فان ذلك من شأنه ان يغير ولا شك من ميزان القوى بين الوطن العربي ككل وبين اسرائيل . ومن المؤكد ان التنمية الاقتصادية والتصنيع واتساع قاعدة التعليم في البلدان المنتجة للنفط وما يعقب ذلك من امال وطموحات كلها امور من شأنها ان تكبح جماح احلام اسرائيل التوسعية . كما ان تدفق المعونات العسكرية والاقتصادية من الاقطار النفطية العربية الى الاقطار الشقيقة المحاذية لاسرائيل لا يقل خطورة بالنسبة لاسرائيل . ولكن اخشى ما يخشاه الصهاينة هو ما يعطيه النفط من وزن سياسي لاصحابه . وتتحول هذه الخشية الى نوع من الجنون عندما تلوح في الافق بوادر ازمة في الطاقة تزيد من قوة المساومة لدى الدول المنتجة للنفط في الساحة العالمية . واشد كابوس يؤرق الصهاينة هو التخوف من ان تضطر الولايات المتحدة يوما للاختيار بين ما يعرف الصهاينة انه المصلحة الحقيقية لامريكا في الوطن العربي وبين التزامها الباهظ الثمن باسرائيل . واذا كان لا بد يوما من اتخاذ مثل هذا القرار فان باستطاعتنا ان نقدر سلفا ماذا ستكون النتيجة . ستتحول اسرائيل الى تايوان اخرى ، ويتم تحجيم اللوبي الصهيوني ضمن النظام السياسي في الولايات المتحدة .

هذه هي الكوابيس المرضية التي تكمن وراء النغمة المعادية للعرب في الصحافة الممالئة للصهيونية في الولايات المتحدة وغيرها ، وهي على كل حال مخاوف من شأنها ان تحقق نفسها بنفسها في المدى البعيد اذا لم تتخل اسرائيل عن طبيعتها العدوانية . وهي تفسر ايضا سبب صدور تلك البيانات غير المعقولة عن بعض اعضاء مجلس الشيوخ الامريكي وغيرهم من الشخصيات المرموقة في الولايات المتحدة المعروفة بانها تأتمر بأمر الصهاينة . وليس من قبيل الصدفة ان ضجيج التعليقات المعادية للاقطار النفطية العربية ارتفع الى نحو مثير منذ حرب ١٩٧٣ ، حين قررت هذه الاقطار ان تستعمل بصورة جدية ولاول مرة ، ما لديها من قوة نفطية مبرهنة على انها قادرة على ان تطوي صفحة الخلافات العربية وانها راغبة في استخدام ثقلها النفطي في دعم القضايا العربية . اذن ، فان الصهاينة واسرائيل ينزعجون اكثر ما ينزعجون عندما يبدي العرب عزما على العمل متحدين ، وهم ينتشون اكثر ما ينتشون عندما يسمح العرب لخلافاتهم ان تتعاظم . وما المأساة اللبنانية والاستغلال الاسرائيلي لهذه المأساة بكل ما فيه من مكر وغدر سوى نذير لجميع العرب بأن الخطر الاسرائيلي يشكل تهديدا لكل منهم .

وعندما نستعرض العداء للعرب في الصحافة الغربية يصعب علينا ان نعثر على موضوع واحد

ليس فيه للوبي الصهيوني علاقة به من قريب او بعيد . غير ان هناك موضوعات معينة تحمل دمغة اللوبي الصهيوني الواضحة ، وهي بلا ريب من صنع الايدي الصهيونية ، في حين ان موضوعات اخرى ليست من صنع يديها ولكنها لم تأل جهدا في تبنيها والترويج لها .

نناقش قبل كل شيء المجالات التي تعتبر موضوعات نموذجية تطرقها الصهيونية . الموضوع الاول يتعلق بصفة خاصة بالملكة العربية السعودية . فالسعودية نظرا لما لديها من احتياطي نفطي ضخم وقدرتها على ان تسد النقص في امدادات النفط الخام ، ونظرا لثروتها الضخمة وما يترتب على كل هذا من نفوذ سياسي ، تتعرض باستمرار لاساءات من نوع خاص يروجها الاعلام الواقع تحت التأثير الصهيوني او تروجها شخصيات امريكية بارزة تنفذ مشيئة الصهيونية عن ضرورة ان لم يكن عن اختيار . وقد اعلن فرانك تشيرش ، رئيس لجنة العلاقات بمجلس الشيوخ الامريكي ، وهي من اكثر لجان المجلس نفوذا ، « ان الوقت قد حان لابلاغ السعوديين ان العلاقة الخاصة (مع الولايات المتحدة) لا يمكن ان تسير في اتجاه واحد » على حد قوله . واتهم السعوديين بعرقلة جهود السلام في الشرق الاوسط قائلا « في الواقع ، ان السعودية تشكل خطرا على السلام اكثر مما يستعد الامريكيون للاعتراف به » . وذهب تشيرش الى حد الاقتراح بان تعيد الولايات المتحدة النظر في قرار بيع مقاتلات ف ــ ١٥ للسعودية . وما هذه المحاولة الصارخة من جانب السناتور تشيرش لتشويه سمعة السعودية الا تعبير صريح عن مخاوف اللوبي الصهيوني من ان تقرر الولايات المتحدة ، في اعقاب احداث ايران ، تعزيز اهتمامها بتنمية العلاقات مع السعودية بشكل يلحق اذى باسرائيل . ومن الواضح ان الرسالة التي كان تشيرش ينادي بها هي انه ينبغي للولايات المتحدة الا تفعل ذلك لان السعودية ، وهي التي ، حسب قوله ، تعرقل مساعي السلام في الشرق الاوسط ، ليست بالحليف الذي يمكن الركون اليه .

وثمة سناتور امريكي بارز اخر على علاقة وثيقة باللوبي الصهيوني اكثر من السناتور تشيرش وهو هنري جاكسون (سناتور ديمقراطي عن ولاية واشنطن) . وقد قال في ندوة تلفزيونية بتاريخ ١٩٧٩/٣/١١ ، وهو يتحدث بجدية مطلقة انه يتعين على مصر واسرائيل ، منفردتين او مجتمعتين ، ان ترسلا قواتهما الى حقول النفط في الخليج (يعني حقول النفط في السعودية) لضمان الدفاع عنها . وقال جاكسون ان حقول النفط نفسها ومضائق هرمز عند مدخل الخليج « لا يمكن الدفاع عنها » ، و « مفتوحة على مصراعيها » . واضاف السناتور الذي يرئس لجنة الطاقة في مجلس الشيوخ الامريكي ، وهي لجنة قوية نافذة ، ان على الولايات المتحدة « كحل اخير » ان تستعد لارسال قواتها الى حقول النفط لمساندة المصريين والاسرائيليين . ووجد لزاما عليه ان يقول ان الاسرائيليين مجهزون بشكل رائع لحفظ النظام في حقول النفط [١] .

ومن اوقح المقالات واكثرها تعاليا من بين المقالات التي ظهرت في صحف الغرب في اعقاب انتهاء اعمال المؤتمر الذي عقدته منظمة اوبك في ابو ظبي لتحديد الاسعار في كانون الاول / ديسمبر ١٩٧٨ ، مقال ظهر بالطبع في صحيفة نيويورك تايمز في ١٩٧٨/١٢/٢٠ . وهنا ايضا كانت السعودية المستهدفة بالدرجة الاولى . وقد جاء في المقال .

« لقد تحدث البيان الرسمي عن تآكل العائدات وعن التضخم العالمي ، ولكن الفحوى الفعلية التي يمكن ان نستخلصها من قرار اوبك برفع اسعار النفط بنسبة تزيد على ١٤ بالمائة في العام القادم هي شيء مختلف . فالولايات المتحدة

---

(١) ميدل ايست انترناشيونال ، مقتطفات من كلام جاكسون في عدد ١٩٧٩/٣/١٦ .

لا يمكنها ان تعتمد على علاقاتها الخاصة مع السعودية لابقاء فاتورة مستورداتها النفطية منخفضة القيمة ، فالسعوديون يسمحون لانفسهم بارسال شبابهم الى المدارس في جنوب كاليفورنيا وبارسال مليكهم الى عيادة في كليفلاند لاجراء جراحة في القلب ، ولكنهم لا يسمحون لهذه العلاقة الخاصة ان تتعارض مع الحفاظ على تدفق دولارات النفط » .

ونشر اعلان على صفحة كاملة في نيويورك تايمز (٢) في ١٩٧٩/١/١٢ وقعه اكثر من ١٧٠ جنرالا واميرالا امريكيا متقاعدا . وقد وصفه هؤلاء بانه اول انذار علني من نوعه في تاريخ الولايات المتحدة الامريكية . وجاء في هذا الاعلان الذي اتخذ شكل رسالة مفتوحة موجهة الى الرئيس كارتر « ان الروس استطاعوا دون ضجيج ان يتفوقوا علينا في القوة العسكرية ، وها هم يتحركون بهمة ونشاط كبيرين في افريقيا والشرق الاوسط واماكن اخرى » . وحث الموقعون على اعلان الرئيس كارتر على ان يدرك قيمة اسرائيل كحليف قادر على الدفاع عن نفسه ، وقالوا انه ينبغي تعزيز قوة اسرائيل تجنبا لارسال قوات امريكية الى المنطقة . واشاروا الى ان دراسة اجرتها مؤخرا هيئة حكومية امريكية حول الميزان العسكري في العالم ، توصلت الى نتيجة مفادها « انه في حال نشوب نزاع غير نووي بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة في الشرق الاوسط يمكن لاسرائيل وحدها ان تردع اي تدخل عسكري سوفياتي او ان توقفه قبل اكتماله » . وبعبارة اخرى ، اذا ارادت الولايات المتحدة في اعقاب احداث ايران ان تختار بين اسرائيل وجيرانها العرب ، فان الخيار الوحيد الذي تستطيع ان تقدم عليه هو في صالح اسرائيل .

وهناك موضوع اخر برز مؤخرا هو الطعن في طاقة السعودية كمصدر للنفط . وبعد ان « دمغ » اللوبي الصهيوني المملكة العربية السعودية بانها عائق في وجه السلام بسبب معارضتها لاتفاقيات كمب ديفيد ، يحاول هذا اللوبي ايضا ان ينتقص من القدرة الفنية لدى السعودية على توريد النفط الى الولايات المتحدة وسائر دول العالم . ومصدر هذه التهم هنا هو لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ التي يرئسها السناتور تشيرش ، والاخبار عن السعودية هنا ايضا سلبية . وقد كتب السيد س . هيرش في صحيفة نيويورك تايمز بتاريخ ١٩٧٩/٣/٦ يقول ان الوثائق المتعلقة بحالة حقول النفط في السعودية والتي قدمتها شركتان نفطيتان امريكيتان بارزتان الى لجنة تشيرش « تعزز على ما يبدو التقارير التي وضعتها الاستخبارات الامريكية من قبل والتي تفيد بان الحقول تواجه مشكلات انخفاض الضغط ، وارتفاع طبقة الماء في المكامن وتآكل المعدات » . ونقل السيد هيرش عن خبراء في شؤون الطاقة يعملون في خدمة الحكومة الامريكية، ولكنه لم يحددهم،قولهم « بان السعوديين ليست لديهم القدرة على الحفاظ على انتاج النفط على مستويات تفوق ١٠ ملايين برميل في اليوم لمدة ستة اشهر او اكثر . ويرى هؤلاء الخبراء ايضا ان السعوديين لن يتمكنوا ، على حد قول الكاتب ، من زيادة قدرتهم على الانتاج الى ١٢ مليون برميل في اليوم قبل اربع او خمس سنوات في اقل تقدير » . ويبدو ان السيد هيرش لم يقم وزنا لبيانات صدرت عن شركتين امريكيتين من شركات النفط الكبرى المعنية بالموضوع والتي جاء فيها ان « الوثائق المقدمة لا تشير الى مشاكل خطيرة في حقول السعودية » .

وهناك موضوع ذميم بوجه خاص يطفو على السطح باستمرار ويدور حوله مع الاسف لغط علني على اعلى المستويات في الحكومات الامريكية المتعاقبة ، وهو ان الولايات المتحدة قد تضطر الى التدخل عسكريا في الشرق الاوسط لضمان سلامة امدادات النفط . وقد لوح كل من الرئيسين نيكسون وفورد

(٢) اوردت صحيفة انترناشيونال هيرالد تريبيون مقتطفات منه في عددها بتاريخ ١٢ /١٩٧٩/١ .

وكبار مساعديهما بمثل هذا التدخل، كما لوح به فيما بعد السيد جيمس شليسنجر وزير الطاقة الامريكي وزميله السيد هارولد براون وزير الدفاع [٣] . اما المهندس الحقيقي لاستراتيجية الترهيب هذه فليس الا الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية السابق في الولايات المتحدة . وقد بسط اراءه في المقابلة الشهيرة التي اجرتها معه مجلة بيزنس ويك في كانون الثاني / يناير ١٩٧٥ فقال : « انا لا اقول انه لا توجد ظروف قد تستعمل فيها القوة ، ولكن هناك فرقا بين ان نستخدمها في حال الخلاف حول الاسعار او ان نستخدمها في حال وجود ضائقة فعلية تأخذ بخناق العالم الصناعي » [٤] . ولا شك ان تدخل الولايات المتحدة عسكريا في البلدان المنتجة للنفط هو احب شيء الى قلب اللوبي الصهيوني في امريكا . فانكار سيادة الدول العربية المنتجة للنفط وحقها في استخدام قوتها النفطية لدعم القضايا العربية العادلة ، سواء اكان ذلك عن طريق الترهيب او عن طريق الاحتلال الامريكي الفعلي لحقول النفط كآخر حل يلجأ اليه ، سيكون بمثابة انتصار نهائي للقضية الصهيونية . ويغض اللوبي الصهيوني النظر عن خطورة التلويح المستمر بالتدخل العسكري وعن الاذى الذي سيقع بالمصالح الامريكية في المنطقة نتيجة لذلك ، ورفض التسليم بان اللجوء اليه قد يجر الى نزاع دولي . والشيء الوحيد الذي يحظى باهتمام مهندسي دبلوماسية القوة هو ان تظل اهداف اسرائيل مصانة في المنطقة ، بصرف النظر عما تكون النتائج .

وتوحي ادارة الرئيس كارتر بانها لم تتعلم شيئا من دروس الثورة الايرانية . لقد تأكد بشكل بيّن ان تزويد ايران باحدث الاسلحة الامريكية المتطورة عجز عن التصدي لتيار النقمة الداخلية ، وبالرغم من ذلك لم تمض اسابيع قليلة من سقوط نظام الشاه حتى سمعنا السيد هارولد براون وزير الدفاع الامريكي يتغنى امام بعض الاقطار العربية واسرائيل بتفوق نوعية الاسلحة الامريكية . وتفيد الانباء ان الولايات المتحدة تقوم بانشاء اسطول خامس في المحيط الهندي لحماية طرق النفط ، وكأن توقف امدادات النفط الايراني انما كان نتيجة تدخل اجنبي في هذه الطرق .

ومن الامور الوثيقة الارتباط بهذا الموضوع التأكيد على ان حظر النفط عمل لا اخلاقي لا يجوز السكوت عنه . اما الحظر التجاري الذي فرضته الحكومة الامريكية ضد اليابان عشية عملية بيرل هاربر وكذلك الحظر ضد الصين فيما بعد فلا ينظر اليهما بنفس النظرة .

والموضوعات الاخرى التي تطرقها اسرائيل وعملاؤها داخل وخارج وسائل الاعلام وفي الكونجرس والجامعات الكبرى ، حيث يضرب النفوذ الصهيوني جذوره ، هي اكثر من ان نتناولها بالبحث هنا ، وسأكتفي بذكر بعضها بايجاز شديد .

● ان العرب انما بدأوا حرب ١٩٧٣ كحيلة توسلوها لخفض الانتاج ورفع الاسعار .

● العرب (لا منظمة اوبك) هم المسؤولون عن رفع الاسعار في اعقاب حرب تشرين الاول / اكتوبر .

● من التقديرات المضللة الحاقدة ما ظهر في مقال شهير نشر في مجلة الايكونوميست في تموز / يوليو ١٩٧٤ (وقد اشار اليه زميلي السيد ايان سيمور في مؤتمر سابق من مؤتمرات منظمة الاقطار

---

(٣) نقلت الفاينانشال تايمز تصريحه في ١٩٧٩/٢/٢٦ .

(٤) بيزنس ويك ، ١٩٧٥/١/١٣ .

العربية المصدرة للبترول) ، ويبدو ان المقال المذكور من بنات افكار احد كبار محرري الايكونومست الذي يفوق تعاطفه مع اسرائيل حدود التصور ، ويبدو في هذا المقال ان تعاطفه مع الصهيونية قد استحوذ هذه المرة على كل مشاعره وافقده اتزانه تماما . يقول الكاتب في الفقرة الاخيرة من المقال بعنوان « التخمة المقبلة في امدادات الطاقة » :

« يجب الا ينظر الى معظم ما ورد في هذا المقال على انه يحمل انباء سارة لبريطانيا . فالمدلول الرئيسي هو ان الكنز النفطي المنتظر تدفقه على بريطانيا من بحر الشمال سيأتي في وقت تكون الاسواق فيه على شفير تخمة نفطية . والمدلول الثاني هو ان مبلغ المليار جنيه استرليني الذي تنفقه بريطانيا حاليا على تطوير مناجم الفحم سيذهب هدرا ، اذ سيكون من المستغرب بالفعل ان نجد في منتصف الثمانينات مناجم للفحم تعمل باليد العاملة . والمدلول المحزن اكثر من هذا وذلك ان يأتي عيد الميلاد لعام ١٩٨٠ ويجد العالم ان الصدقة الواجبة قبل غيرها هي مد يد العون الى الدول العربية المنهارة بسبب اعتمادها على مورد وحيد هو النفط غير المطلوب ، وهي صدقة قد يأتي معظمها من اثرياء اليهود . ويبدو انه لن تذرف اي دموع حزن على هذا الواقع العربي المنتظر » .

● ليست اوبك اكثر من كارتل قديم الطراز ، ولهذا فانها مثل جميع الكارتلات الاخرى ستنهار مع بداية « التنافس » بين الدول الاعضاء على تخفيض الاسعار . وهذا النهج من التفكير هو الذي دفع البروفسور موريس ادلمان الى الاسراع في التورط في اضل نبوءة في القرن العشرين وهي « برميل النفط بدولار واحد » ، والى نشر كتابه الذي يشرح فيه هذه النظرية . ولكن ، ويا للامر المحرج ، لقد نزل الكتاب الى الاسواق في وقت كانت ترتفع فيه اسعار النفط الى اربعة اضعاف في ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ .

● وهناك اسطورة التخمة الوشيكة في امدادات الطاقة ، احتمال وتخيل رؤية مصدري النفط الجشعين يقتلون الاوزة التي تضع البيض الذهبي وذلك بالاقدام على رفع الاسعار بنسبة وسرعة كبيرتين . مما يؤدي الى الحد من الطلب على النفط والاسراع في تطوير مصادر بديلة من النفط والطاقة ومن ثم الى تخمة في امدادات الطاقة وتهافت في الاسعار .

● ومن الموضوعات التي طرحتها الصحافة الغربية مؤخرا موضوع يصور الاحتياطي النفطي الموجود في المكسيك وكأنه الدواء الشافي لكل ما تشكو منه امريكا ، مما يوحي بان الولايات المتحدة تستطيع في عاجل الوقت قبل اجله ان تستغني عن النفط العربي . ومن حسن حظ المكسيك وسائر البلدان المنتجة في العالم ان المكسيكيين قد اوضحوا انهم لن يقبلوا اي درجة من الضغط الامريكي تتعارض مع فهمهم الخاص لاولوياتهم القومية .

وما هذه سوى امثلة قليلة على الموضوعات الخبيثة التي يسهم بها اصدقاء اسرائيل في « الحوار » بين المنتجين والمستهلكين .

اود بعد هذا ان اتطرق الى الحديث عن دور وسائل الاعلام الغربي كمرآة لبعض المواقف الحكومية في الغرب . وهذه وان كانت تفتقر الى سموم التصريحات الموحى بها من الصهيونية تظل ذات اثر سيىء في سمعة ومصالح الدول المنتجة للنفط ، خاصة لان هذه التصاريح ذات صفة رسمية . ومن بين هذه المواقف التي يبدو انها تسود في الاوساط الرسمية في الغرب ما وصفه وصفا بليغا السيد نور الدين اية الحسين ، نائب رئيس سوناطراك ، في دراسة مقدمة الى نادي اكسفورد للطاقة بتاريخ ١٧ /٣/ ١٩٧٩ . واشار الاستاذ نور الدين الى « استقرار امدادات النفط » ، تلك العبارة الرائجة في الغرب ، واعتبر ان لهذه العبارة « سحرا خطرا » اذ انها تنطوي على وجود « نوع من القانون الطبيعي الذي يجري في ظله توزيع النفط توزيعا عادلا من جانب الذين يملكونه على الذين يحتاجون اليه

وبالكميات الصحيحة بالضبط مما يرضي الجميع » . وغالبا ما تتضمن البيانات الرسمية التي تصدر عن الدول المستهلكة ما يفهم منها « ان الدول المنتجة للنفط تحمل على عاتقها التزاما اخلاقيا في تلبية الطلب العالمي على النفط بسعر مقبول لدى المستهلك بصرف النظر عن المصلحة الذاتية لهذه الدول او التزاماتها تجاه الاجيال القادمة » . ولنأخذ على سبيل المثال البيان الذي اصدره البيت الابيض في اعقاب مؤتمر اوبك في ابو ظبي في كانون الاول / ديسمبر ١٩٧٨ داعيا فيه المنظمة الى « اعادة النظر » في الزيادة التي قررت ادخالها على الاسعار على اربع مراحل ، يقول البيان - ويا لعجب ما يقول نظرا لانخفاض انتاج النفط الايراني - « ان ظروف السوق لا تبرر زيادة بهذا الحجم واننا نأسف لقرار اوبك ونأمل ان يعاد النظر فيه قبل ان يسري مفعول الزيادات اللاحقة » . ويدعي البيان « ان رفع الاسعار سيعيق البرامج الرامية الى الحفاظ على الانتعاش الاقتصادي العالمي والى تخفيض معدلات التضخم » [٥] . وقد صدرت اراء مماثلة عن وزير الطاقة جيمس شليسنجر .

والمح السناتور هنري جاكسون الى ان زيادة الاسعار ستجعل العلاقة مع بلدان منظمة اوبك اكثر صعوبة ، واضاف قائلا : « ان الاستقرار في المنطقة ليس ابدا كما يجب ان يكون عليه .. وبعض هذه الدول تتطلع الينا لاتخاذ تدابير امنية » . وكان موفقا في تصريحه هذا في الجمع بين التعاون والوعيد . ويقول السيد جيدو برونر ، مفوض لجنة الطاقة في السوق الاوروبية المشتركة ، في معرض التحذير من العواقب الوخيمة التي قد تلحق بالاقتصاد الدولي انه « كان من الاسلم منطقيا انتظار التدابير الاقتصادية وتدابير الطاقة التي اتخذت في الولايات المتحدة وتلك التي اتخذت في السوق الاوروبية المشتركة لخلق نظام نقدي اوروبي حتى تفعل فعلها» قبل الاقدام على رفع اسعار النفط . وقال السيد انتوني ويدجوودبن ، وزير الطاقة في المملكة المتحدة سابقا الذي رفعت بلاده في وقت لاحق اسعار صادراتها النفطية بنسبة تزيد ٥ بالمائة عن مستوى اسعار صادرات اوبك ، ان رفع اسعار النفط العالمي « لن يكون له اثر طيب في الوظائف والتجارة او في اقتصاد المملكة المتحدة ككل » . وحتى اليابانيون الذين هبطت فاتورة مستورداتهم النفطية بالين في السنتين الماضيتين ، اعربوا في بيان صدر عن وزارة التجارة الدولية اليابانية عن « الاسف العميق » للزيادة في اسعار النفط . وجاء في البيان ايضا « ان قرار الزيادة سيكون له اثر خطير جدا في الدول النامية المستوردة للنفط وفي الاقتصاد العالمي ككل ، كان يحدث هبوط في حجم التجارة العالمية بالاضافة الى نتائج اقتصادية ونقدية سلبية اخرى » .

وهذه الملاحظة الاخيرة هي موضوع اخر من الموضوعات الرئيسية التي تلقى رواجا عظيما عند الناطقين الرسميين في الغرب . ونقصد بذلك التباكي على مصالح الدول النامية وابداء الحرص على مشاكلها . ومع انه يجب علينا ان نعترف بان اسعار النفط المرتفعة تخلق مشكلة جدية للدول النامية ، غير ان الحقيقة الثابتة هي ان المساعدات والقروض الميسرة الشروط المعطاة للدول النامية سواء عن طريق الصندوق الخاص بمنظمة اوبك او صناديق التنمية الخاصة في البلدان المنتجة او الاسهام في صندوق النقد الدولي او عن طريق المساعدات الثنائية ، قد ساعدت الى حد كبير في تخفيف وقع ارتفاع الاسعار على اقتصاديات الدول النامية . وعلى النقيض من تدفق المساعدات من الدول المنتجة للنفط الى الدول النامية ، نرى ان المساعدات من الدول الصناعية الى الدول النامية - وهي مساعدات اصغر حجما سواء بمقاييس الناتج القومي الاجمالي او المقاييس المطلقة - لم تفعل شيئا يذكر لتعويض

---

(٥) نقلت النشرة الاقتصادية للشرق الاوسط (MEES)مقتطفات منه بتاريخ ١٩٧٨/١٢/٢٥ .

الاخيرة عن ارتفاع اكلاف مستورداتها من الدول الصناعية من جراء السياسات التضخمية في هذه الدول .

والواقع ان البلدان الصناعية قد حاولت دون نجاح ، منذ عام ١٩٧٣ وحتى الان ، ان تؤلب الدول النامية غير المنتجة للنفط على منظمة اوبك طمعا في عزل هذه المنظمة وارغامها على اعادة النظر في سياساتها لتسعير النفط . هذه الاستراتيجية وضعها الدكتور كيسنجر يوم كان وزيراً للخارجية الامريكية ، ولكنها منيت بالفشل الذريع عندما اثبت مؤتمر التعاون الاقتصادي الدولي ، او حوار الشمال والجنوب كما يسمى غالبا ، ان العالم الثالث الذي تشكل الدول الاعضاء في منظمة اوبك جزءا لا يتجزأ منه هو عالم متماسك ومتلاحم .

والتأكيد على ان الزيادات في اسعار النفط كانت سبب المتاعب التضخمية التي تعّاني منها دول العالم او انها ساهمت الى حد كبير في الركود الاقتصادي الذي حدث في ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ، هو موضوع من المواضيع الذي استعارته بعض الصحف الغربية من الرسميين في الدول الصناعية ، وهو واحد من الموضوعات التي ما زالت تتناقلها الالسن . ولحسن الحظ ان عددا من خبراء الاقتصاد والاكاديميين في الغرب قد اعترفوا الان بان اقدام اوبك على زيادة سعر النفط ما كان ليثير كل هذا الجدل وهذا الاهتمام ، وما كان لينظر اليه كسبب رئيسي من اسباب التضخم والركود الاقتصادي لو لم يأت فجأة ولو لم يكن قدومه متزامنا مع وجود ازدهار اقتصادي يتميز بارتفاع معدلات التضخم وعدم الثبات والقدرة على الاستمرار ، ولو لم يأت هذا الازدهار الاقتصادي بدوره تتويجا لفورة تضخمية ايضا [٦] .

ان المسؤولين في الدول الغربية ، والصحافة التي تتناقل تصريحاتهم ، قد ارتكبوا جناية تضليل الرأي العام الغربي بطرق اخرى ، كان يغالون في تصوير حالة امدادات النفط العالمي او يقللون من شأنها ، وذلك في سبيل تبرير سياسات داخلية معينة . فهم طلعوا علينا اول الامر بموضوع التخمة النفطية التي « ستفضي بالعرب الى فقر مدقع في عام ١٩٨٠ » على حد قول مجلة الايكونوميست . ثم جاءتنا دراسة وكالة المخابرات المركزية الامريكية بما تحفل به من تقديرات موغلة في التشاؤم تنذر بنقص حاد في الطاقة في عام ١٩٨٥ . ولكنها لم تعط سوى قليل اهتمام ، او لم تعط اهتماما ابدا للاثر الذي يتركه عدم الاستقرار السياسي ـ وهذا يأتي مباشرة او غير مباشرة من السياسات الغربية ـ في توافر امدادات النفط من الشرق الاوسط . لقد نسيت دروس تشرين الاول / اكتوبر ١٩٧٣ بسرعة ، كما ان الاحداث الايرانية الاخيرة التي تسببت في صدور بعض التعليقات الغربية عن بعض الدوائر ما زالت مستغلقة على الافهام الى حد كبير . وقد صدق جيمس اكينز ، السفير الامريكي السابق في السعودية ، والرجل الواسع الاطلاع ، حين قال في محاضرة بلندن في ١٩٧٩/٢/٢٦ « لقد كتبت عن ايران سخافات كثيرة . وقد ذكرت الصحف الامريكية ولا تزال تذكر ان الايرانيين انقلبوا على الشاه لانه كان طيبا جدا وليبراليا جدا ومع حقوق المرأة وحقوق الاقليات والاصلاح الزراعي » . ولكن اكينز

---

(٦) انظر على سبيل المثال مقال غوتفريد هابرلر بعنوان « النفط ، التضخم ، الركود الاقتصادي والنظام النقدي الدولي » ، نشر في **The Journal of Energy and Development** . Spring 1976 .

اكد ان هناك مسألتين لا غير كانتا سبب الانتفاضة : « الاولى وجود الفساد وكل ما يتصل به كسوء الادارة ومشتريات السلاح وعملية التصنيع الضعيفة الزخم بشكل غير اعتيادي ، والثانية مسألة الحقوق المدنية واعمال السافاك وعشرات الالوف من الناس الذين اعتقلوا ظلما وعدوانا وقتلوا من اجل حماية الشاه » (٧) .

وثمة ظاهرة اخرى يجدر بنا سبر اغوارها عند محاولة فهم اسباب نغمة العداء المستمرة في الغرب ضد الشرقيين بوجه عام والعرب بوجه خاص ، وهي التراث الاستشراقي الذي خلفته القوى الاستعمارية او الامبريالية السابقة . وهذا هو موضوع كتاب جديد رائع بعنوان « الاستشراق » وضعه الدكتور ادوارد سعيد ، وهو عربي فلسطيني ، واستاذ اللغة الانجليزية والادب المقارن في جامعة كولومبيا . يقول الدكتور سعيد في كتابه « ان الثقافة الاوروبية اكتسبت قوة شخصية بتنصيب نفسها كوصي على الشرق » . ويصف الدكتور سعيد « الشبكة القوية من العنصرية والقوالب الثقافية الجاهزة والامبريالية السياسية والعقائدية التي تنتقص من انسانية الانسان الشرقي ، وأثر هذه الشبكة في صورة العربي او المسلم في عيون الغربيين » *

هذا التحامل الحضاري على العرب والاسلام ما زال مستمرا منذ ايام الامبراطورية العربية . وقد وصل الى ذرى جديدة في اعقاب حرب تشرين الاول / اكتوبر ١٩٧٣ وما تلاها من زيادة في اسعار النفط . فقد ادى فقدان شركات النفط الغربية سيطرتها على اسعار امدادات النفط من بلدان اوبك وعلى مقادير هذه الامدادات والبلدان التي تصدر اليها والطريقة المفاجئة التي حدث فيها ، الى اشاعة روح من الكراهية البغيضة في الغرب موجهة بالدرجة الاولى ضد الدول العربية الاعضاء في منظمة اوبك . وكان التحول الذي اعقب ذلك في قوة المساومة الاقتصادية ، والى حد ما في قوة المساومة السياسية وفي الموارد وانتقالها من الدول الصناعية ذات الجبروت الى مجموعة من الدول التي ينظر اليها انها متخلفة وغير ذات وزن سياسي ، مدعاة الى زيادة شعور الغرب بالغضب العقيم . وكانت هذه التجربة مؤثرة الى الحد الذي تسبب في سلسلة من التهديدات المتلاحقة بالتدخل العسكري كما اشرت من قبل . ولكن ما يثير الدهشة ان ايران غير العربية التي لعبت ، بشخص الشاه ، دورا بارزا في رفع اسعار النفط في اجتماع الدول الخليجية المنتجة الذي عقد في طهران عام ١٩٧٣ ، ظلت حتى عهد قريب موضع ثناء ومديح من الصحافة الغربية التي صورت ايران وكأنها رمز للاعتدال والجدارة بالثقة . وبلغ الحقد على العرب حدا دفع ايضا عددا كبيرا من رسامي الكاريكاتير الى شحذ ريشاتهم في محاولة لطمس ذلك القسط القليل من رصيد الكبرياء والاباء الذي يراه الغرب في العرب . واخذ رسامو الكاريكاتير في الصحف الغربية يطلعون علينا برسوم تصور العربي بانه انسان جشع مسرف يحاول ان يحرم العالم من النفط . ويتساءل المرء كيف كانت ستكون ردة الفعل لو ان احد رسامي الكاريكاتير الغربيين تجرأ على تصوير الاسرائيليين بالشكل الذي ينفر منه اليهود . لا شك انهم كانوا سيتهمونه بمعاداة السامية ويحملونه على نشر اعتذار .

والجشع ميزة اخرى من المزايا التي الصقها الغرب بالعرب . فالعرب ، حسب هذا الزعم هم

---

(٧) انظر نص كلمته في ملحق النشرة الاقتصادية للشرق الاوسط (MEES) ، ١٩٧٩/٢/١٢ .

(*) — يجد القارىء مراجعة لهذا الكتاب في باب نقد الكتب من هذا العدد من « قضايا عربية » .

الذين رفعوا سعر النفط ليشبعوا نهمهم ، ويوسع الغرب ان يراهن على ان الجشع الايراني التقليدي سيحمل الحكومة الثورية في طهران على انتاج اقصى ما تستطيع من النفط . يقول جيمس ايكنز متهكما « لا نجد اي دليل واضح على ان حكومة واحدة من حكومات بلدان اوبك التي تحتاج الى المال قد لجأت الى كبح الانتاج عن عمد في سبيل الحفاظ على المورد النفطي للمستقبل ، او سبيل تنظيم الامة او تطهير الروح القومية ، ولا نستطيع ان نتصور ان ايران يمكن ان تقوم بذلك » .

ولعلي لن اتمكن من الاحاطة بجميع الموضوعات المعادية للعرب التي تأتي الصحافة الغربية على ذكرها باستمرار ، ولا شك ان هذه مهمة لا يستوعبها الا كتاب . وفي الوقت نفسه ارى لزاما علي ان اذكر القارئ بما قلت من قبل وهو اننا لا يمكن ان نتهم جميع صحف الغرب وجميع مسؤولي الغرب بنشر هذه الموضوعات المعادية وهذه الصورة المؤذية . ومن لم يكن منهم معاديا ـ وهؤلاء لا يشكلون بالضرورة اقلية ـ يستحق منا الاحترام لانه نزيه ومستقيم . اما من يفترون علينا بدافع من الحقد وبدافع من التحامل او الجهل او في سبيل خدمة قضية اعدائنا فقد الحقوا ، وما زالوا يلحقون بنا ، ضررا لا حد له . غير انهم يسيئون ايضا الى انفسهم والى حكوماتهم اساءة كبيرة لانهم يعززون من خيبة الامل المتزايدة عند العرب بنظام القيم الغربي بالشكل الذي هو عليه . فالكراهية لكل ما هو غربي وخاصة لما هو امريكي سواء في ايران ما بعد الثورة او في الاقطار العربية المجاورة يكتسب زخما بسرعة رهيبة .

وليست الصحافة وحدها هي التي تخاطب باستمرار جمهورا غربيا اكثره من السذج وذوي المعلومات البسيطة حول قضايا النفط والطاقة المعقدة ، وحول مواقف وسياسات الدول المنتجة ، فهناك ايضا شبكات الراديو والتلفزيون . ان المواطن العادي في الولايات المتحدة ساذج بوجه خاص ، ولذلك فان المحصلة النهائية لهذا السيل من المواد الاعلامية الخبيثة هي غرس بذور من الكراهية والشك ضد الدول الرئيسية المزودة للنفط في العالم . وتظهر براءة الرأي العام الامريكي من خلال عجزه عن اكتشاف التناقضات العديدة الظاهرة في طريقة تعامل اللوبي الصهيوني مع مسألة اعتماد الغرب على النفط العربي . وعلى وجه الاجمال يمكن تلخيص الاستراتيجية الصهيونية بما يلي :

● التقليل من اهمية النفط وخطورة الازمة النفطية . وهذا ما يفسر كيف ان معظم الامريكيين حتى في عام ١٩٧٩ ـ كما تبين في استطلاعات الرأي العام الاخيرة ـ لا يؤمنون بوجود ازمة في الطاقة .

● وعندما تنهار هذه المزاعم حتما امام الحقائق (وهو ما قد بدأ في يومنا هذا على وجه التقريب) ، يجري التقليل من اهمية الاقطار العربية المنتجة في اطار وضع الطاقة العالمي عن طريق . (أ) الترويج للقول بان الدول المنتجة غير العربية هي الحل لمشكلة الطاقة (اندونيسيا ، الصين ، الهند الصينية ، بحر الشمال ، المكسيك ، الاسكا) ، وعن طريق (ب) التقليل من شأن الاحتياطي النفطي العربي (كما حدث مؤخرا بالنسبة للسعودية) . ان ما يرمي اليه هذا الاعلام دون ان يصرح به هو قيام سعودية جديدة ولكن غير عربية . واذا جارينا هذا المنطق حتى نهايته كانت النتيجة التي نخرج بها هي انه خير للولايات المتحدة ان تستغني عن النفط من ان تعتمد على امدادات النفط العربية .

● اعداد موقع احتياطي يمكن اللجوء اليه تحسبا لليوم الذي تعجز الدعاية فيه عن طمس الحقائق ، وذلك بالتركيز على لا عقلانية الحكومات العربية وعدم مسؤوليتها وفسادها وعلى فساد الشعوب العربية وجشعها وكسلها ، واستخدام كل الاسلحة المتوفرة بما في ذلك العنصرية المعادية للعرب (اللاسامية) والتعصب الديني الاعمى ضد الاسلام . وبكلام اصرح ، ان هذه الاستراتيجية التي ما زالت تلقى نجاحا مشهودا ، خاصة في الولايات المتحدة ، يمكن تلخيصها كما يلي : ١) « لا نريد ان نستورد النفط » . ٢) « واذا استوردنا النفط فاننا لا نريد النفط العربي » . و ٣) « ولماذا يجب ان يملك العرب كل ذلك النفط الذي نحتاج اليه ؟ » . اما كون هذه المواقف ، التي تعلن في وقت واحد تقريبا ، غير منسجمة داخليا وتتناقض بعضها مع بعض ، فهو امر قلما يلتفت اليه .

كيف كان رد فعل منظمتي اوبك واوابك على كل هذا ؟ اعتقد مخلصا ان كلا المنظمتين قد خطت خطوات كبيرة ، اذا اعتبرنا ما يتوافر لديها من موارد ، ومع ذلك فاني ارى انه لا يزال هناك الكثير الذي ينبغي فعله . ان المنشورات التي تصدرها اوبك واوابك تؤدي خدمة نافعة للدول المنتجة وكذلك الامر بالنسبة للندوات والمؤتمرات التي تنظمها المنظمتان من حين لاخر . واود في هذا الصدد ان اهنىء منظمة اوابك على شروعها بعقد ندوات متخصصة في هذا البلد او ذلك ، كالتي نظمتها في المملكة المتحدة وفرنسا واليابان ثم مؤخرا في النرويج . وهذا الاسلوب يدخل الدول المستهلكة في حوار يجري على ارضها ويؤدي الى فهم افضل للقضايا المعنية . ولا شك ان بعض البلدان الاخرى مثل الولايات المتحدة والمانيا وايطاليا يجب ان تلقى نفس الاهتمام . ان تزايد اشتراك مسؤولين من الامانة العامة لمنظمة اوبك او لمنظمة اوابك ، او مسؤولين من حكومات الدول الاعضاء ذاتها في مؤتمرات دولية حول النفط والطاقة ، هو على الاقل ضمان بان هناك من يعرض رأي الدول الموردة للنفط على جمهور اجنبي . وكلما امكن حشد المزيد من الناس للقيام بهذه المهمات كلما كان ذلك افضل . واود ان اقترح في هذا السياق ان يجري وضع برنامج داخل اوابك واوبك يرمي الى تدريب عشرات المسؤولين الشباب على هذه المهمة غير السهلة ابدا ، مهمة مخاطبة جمهرة من الخبراء الاجانب في الموضوعات النفطية وما يتصل بها . فان هذه الندوات لا تقتصر على تعريف المسؤولين الشباب في المنظمتين على افضل العقول في صناعة النفط ، سواء في الدول المنتجة او الدول المستهلكة ، بل انها تعرفهم ايضا على مندوبين من بلدانهم وتتيح فرصة التبادل الذكي للافكار والاراء في جو مريح . وفوق هذا وذاك ، ارجو ان ينجح هذا البرنامج في اجتذاب بعض الاجانب ويبعدهم عن المشاركة في ندوات مماثلة يشرف عليها اناس عرفوا بعدائهم للقضايا العربية وقضايا منظمة اوبك .

وقد تبين ان التصاريح التي يدلي بها وزراء نفط اوبك واوابك اومساعدوهم للصحف الاجنبية وشبكات الراديو والتلفزيون حول مسائل رئيسية ، ناجحة للغاية في نقل وجهات نظر حكوماتهم الى قطاع كبير من الاجانب والحكومات الاجنبية . وهذا النوع من النشاط ينبغي التوسع فيه قدر المستطاع . والزيارات التي يقوم بها وزراء من اوبك واوابك الى بلدان اجنبية ومشاركتهم في مؤتمرات اجنبية ، غالبا ما يدعون الى القاء الكلمة الرئيسية فيها ، توفر فرصا ممتازة لابداء وجهات النظر العربية وشرح سياسات حكومات وشعوب دول هاتين المنظمتين امام الاجانب . ورغم ضيق وقت المسؤولين في الدول المنتجة ، يجب ان يحاولوا الاشتراك في مثل هذه الاعمال كلما امكن ذلك .

ولدي بعض المقترحات التي قد يكون من المفيد ذكرها هنا ، وهي :

١) يمكن للدول الاعضاء في منظمة اوابك او بعض هذه الدول على الاقل ان تفكر بتعيين مسؤولين نفطيين اكفاء كملحقين بتروليين على الاقل في واشنطن وطوكيو ولندن وباريس وبون ، وتشمل مهمة هؤلاء الاتصال بحكومات البلدان المضيفة ورصد الاخبار التي تنشر في الصحافة المحلية حول صناعة النفط في بلدان هؤلاء الملحقين وفي البلدان المضيفة . كما تشمل الاتصال بالصحافة المحلية لتأمين التغطية الدقيقة للتطورات النفطية في بلدان الملحقين ، والتصرف كناطقين رسميين باسم حكوماتهم عندما يستدعي الامر ذلك ، وحضور مؤتمرات الطاقة في البلدان المضيفة ورفع التقارير عنها لحكوماتهم ، وان يعمدوا اذا امكن على اصدار نشرة اسبوعية تتضمن الاخبار النفطية في بلدانهم لتوزيعها على الصحافة المحلية .

٢) يمكن لكل من منظمتي اوبك واوابك ان تفكر بانشاء مكاتب اتصال في الولايات المتحدة واليابان واوروبا للقيام باعمال مماثلة بالنيابة عن المنظمتين .

٣) يمكن لكل من منظمتي اوبك واوابك وللدول الاعضاء منفردة ان تفكر باستخدام المساحة الاعلانية في الصحف الاجنبية ، وفي الوقت الاعلاني الذي يمكن شراؤه في شبكات التلفزيون للرد على تهجم الصحف عليها ، او لشرح وجهات نظرها حول القضايا الرئيسية او المثيرة للجدل . وبهذه الطريقة تضمن لنفسها على الاقل الوصول الى نفس الجمهور ، جمهور الملايين من الناس الذين يتعرضون بانتظام للدعاية المعادية للعرب والمعادية لاوبك . هذه المهمة باهظة الكلفة ولكنني اعتقد ان القيام بها سيكون استثمارا ذكيا له مردود كبير من حيث السمعة والتفاهم الافضل . ومن بين الصعوبات الرئيسية في هذا المسلك تحديد الموضوعات التي ينبغي ان تعالجها حكومات الدول الاعضاء منفردة والموضوعات التي ينبغي ان تعالجها المنظمتان بصورة جماعية ، وبما ان وجهات نظر الحكومات الاعضاء ليست متطابقة في جميع المسائل النفطية ، فانه من الضروري خلق اطار خاص يمكن لاوبك واوابك ان تتحركا في نطاقه بحرية .

واود ان ابدي ملاحظة ختامية لا يجوز اغفالها في بحث هذا الموضوع ، وهي ان النفط سلعة استراتيجية وقد اصبح النفط مسيسا تماما . والدول الصناعية الغربية بالذات هي اول من اكتت البعد السياسي للنفط عندما بدأت تفتيشها المحموم عن الامتيازات النفطية في الشرق الاوسط ، حتى قبل ان تحقق معظم البلدان المضيفة المعنية استقلالها الفعلي . ومع ذلك فانه خلال تاريخ صناعة النفط في الشرق الاوسط كان يردد مرارا وتكرارا على اسماع الدول المنتجة للنفط انه من غير الاخلاقي ان ينظر المنتجون الى مواردهم النفطية كسلعة سياسية ، كما كانوا يحذرون من ان مثل هذا الامر قد يعرضهم لنتائج خطيرة ، منها على سبيل المثال لا الحصر التدخل العسكري الخارجي . وقد مرت سنوات عديدة قبل ان تسود الاحوال الاقتصادية والسياسية اللازمة التي اتاحت للعرب ان يستخدموا ثقلهم النفطي بشكل فعال لاول مرة في ١٩٧٣ ــ ١٩٧٤ .

اعتقد ان هذه الدراسة قد بينت ان معظم الموضوعات العدائية التي يخوض فيها الاعلام الغربي باستمرار حول النفط العربي تحركها دوافع سياسية . كما اعتقد ان وسائل الاعلام والحكومات في الدول المستهلكة لا تكلف نفسها عناء الالتزام بقواعد السلوك التي تكثر من نصحنا بالتقيد بها . ورأيي الشخصي اننا في الوطن العربي قد افرطنا في التردد في استخدام قوتنا النفطية لدعم اهدافنا

الاقتصادية والسياسية الرئيسية ، التي هي بعد كل حساب حيوية لوجودنا . كما ارى ان القوى النفطية تعني ما هو اكثر من القدرة على فرض الحظر او خفض الامدادات . وثمة عدة مجالات يمكن للقوة النفطية العربية ان تستخدم فيها بذكاء ونجاح كبيرين بنفس الطريقة التي يستغل فيها اللوبي الصهيوني سيطرته على اعضاء بارزين في مجلس الشيوخ الامريكي ، او يحرك بها صنائعه في الصحافة لمهاجمة القضايا العربية . وبالطبع يجب ان ندرك ان الاقطار العربية المنتجة للنفط هي دول ذات سيادة ولكل منها اولوياتها الاقتصادية والسياسية ، ولكنه يتضح باستمرار اكثر من قبل ان الاقطار العربية المنتجة يجمع بينها مصير مشترك ويتهددها خطر مشترك له علاقة كبيرة بسيطرة هذه الدول على مواردها النفطية في عهد تقترب من افاقه بوادر نقص في الطاقة . وهذا الامر وحده يستدعي من جانب هذه الدول ان تحدد لنفسها مجالا من الاهتمام المشترك يمكن ان يوفر ارضية للعمل الجماعي في الدفاع عن النفس . واذا طبقنا هذا المنطق على مجال الاعلام النفطي ، واخذنا بالحسبان الاذى الذي يلحق بمنتجي النفط بسبب الحملة المعادية للعرب في الغرب ، والتي تحركها دوافع سياسية ولا ريب ، ادركنا الحاجة الى وجود نوع من الموقف السياسي الموحد . ان من واجبنا ان نكافح كي نصد من اولئك الذين يفترون علينا ويسعون الى تسميم علاقاتنا مع الدول المستهلكة ونرد كيدهم الى نحرهم . وهذا ما لا يتم الا بالعمل السياسي البارع الذي يستند الى المخزون الكبير من القوة النفطية التي بيد العرب ، المخزون الذي يعبر عن ارادتهم الجماعية في الدفاع عن انفسهم .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

تقدم

سلسلة علماء العرب للفتيان والفتيات

١ ــ ابن سينا
٢ ــ ابن الهيثم
٣ ــ الرازي
٤ ــ ابن خلدون
٥ ــ ابن بطوطة
٦ ــ الجاحظ
٧ ــ البيروني
٨ ــ الكندي
٩ ــ جابر بن حيان
١٠ ــ زرياب
١١ ــ ياقوت الحموي
١٢ ــ الكواكبي
١٣ ــ ابن الأثير
١٤ ــ الفارابي
١٥ ــ الجبرتي
١٦ ــ الشريف الادريسي

اعداد : راجي عنايت
رسوم : هبة عنايت

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

تقدم

مؤلفات وتحقيقات د . محمد عمارة

* التوفيقات الالهامية ، في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية ، والقبطية
تأليف . اللواء محمد مختار باشا
* الاعمال الكاملة للامام محمد عبده في ٩ أجزاء
* الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي في ٥ أجزاء
* الاعمال الكاملة لعلي مبارك
* الاعمال الكاملة للكواكبي
* الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني
* نظرة جديدة الى التراث
* مسلمون ثوار
* معارك العرب ضد الغزاة
* عندما اصبحت مصر عربية
* الفكرة القومية عند مصطفى كامل
* عمر بن عبد العزيز
* الاسلام والوحدة القومية

مشكلة هجرة الكفايات من بلدان المشرق العربي

د . تيسير عبد الجابر

امين عام المجلس القومي للتخطيط
ووكيل وزارة العمل في الاردن

تهدف هذه الدراسة الى البحث في هجرة الكفايات من المشرق العربي وتقصي اسبابها الكامنة ، والى وضع السياسات العملية بشأنها ، والنظر في الطرق والوسائل التي تتيح الاستفادة من خدمات اصحاب المواهب العرب القاطنين في الخارج . وقد شهدت هذه المنطقة بدرجات متفاوتة ، تقدما كبيرا في تنمية مواردها البشرية بواسطة التعليم المدرسي والتدريب وغيرها من الوسائل . غير ان النواقص الكمية والنوعية لدى الاشخاص المدربين علميا ومهنيا تشكل ، في الظروف الراهنة ، عقبة كبرى في طريق النمو في اقطار المشرق . وبالرغم من ان التدفق الخارجي للاختصاصيين يختلف في نطاقه وتأثيره من بلد الى آخر فان هجرة الكفايات من بلدان المشرق العربي قد عقدت مشكلة قلة الاختصاصيين . وبالتالي فان اهمية القيام بدراسة عن هجرة الكفايات تنبع من ادراك الاثار السيئة لهذه الهجرة على نمو هذه البلدان .

وبما ان الموارد المالية لم تعد تشكل عقبة كبيرة في وجه الجهود الانمائية التي تبذلها بلدان المنطقة[1] ، فان تخفيض هجرة الكفايات وعكس اتجاهها وتنظيم انتقال الاختصاصيين العرب بين بلدان المنطقة امور يمكنها ان تعزز نمو المنطقة في الميادين المهمة التالية : دعم الجهود الرامية الى سد الفجوة التكنولوجية بالاستفادة الى اقصى حد ممكن من نقل التكنولوجيا واختيارها وتكييفها وتطويرها : تحسين اعداد المشاريع او الخطط الانمائية ، وتحسين تقييمها ومتابعتها وتنفيذها ، زيادة فعالية الاجهزة الحكومية في قيامها بمسؤولياتها : المشاركة بصورة فعلية في عملية انشاء المؤسسات ، خاصة في البلدان الاقل نموا ؛ تعزيز البحوث المحلية ومؤسسات التدريب : المساعدة على تسريع عمليتي التصنيع والانماء الزراعي .

ان الارتفاع الشديد الذي حدث مؤخرا في زخم النمو الاقتصادي والاجتماعي في المشرق

---

(١) من المعلوم ان توزع الموارد المالية بصورة غير متساوية في المنطقة ما زال يسبب المصاعب لبعض البلدان التي لا تتاح لها كميات كافية من هذه الموارد .

العربي ، خاصة في الاقطار المصدرة للنفط ، قد احدث طلبا كبيرا على القوى البشرية من اجل القيام بتخطيط المشاريع الانمائية وتصميمها وتنفيذها وادارتها . وقد انطلقت الاقطار المصدرة للنفط ، نتيجة لتدفق الموارد المالية الضخمة اليها ، في تنفيذ خطط انمائية لا مثيل لها في الماضي ، وهي خطط تقتضي بدورها توفر القوى البشرية اللازمة للتنفيذ . ومن المتوقع ، في جميع الاقطار العربية المصدرة للنفط ، ان تكون هنالك مستويات مختلفة من النقص في القوى العاملة خلال العقد القادم . ولذا لا بد لهذه البلدان من اللجوء الى اليد العاملة الاجنبية لتنفيذ خططها الانمائية بنجاح .

ونظرا لهذه الظروف بالذات طرأت على مشكلة هجرة الكفايات في المنطقة التطورات الجديدة التالية : في حين ان مشكلة هجرة الكفايات في الخمسينات والستينات ومطلع السبعينات تتمثل خاصة في تدفق خارجي من المنطقة الى البلدان المصنعة فان التدفق الداخلي للاختصاصيين ضمن المنطقة قد اصبح مصدر قلق اكبر بكثير بالنسبة الى البلدان العربية غير المصدرة للنفط ؛ ان قلق بلدان المشرق بشأن التدفق الخارجي لمواطنيها لم يعد محصورا في الفئة الرفيعة المستوى من القوى البشرية بل شمل ايضا فئات اخرى ، خاصة القوى العاملة الماهرة وشبه الماهرة ؛ هناك تطور آخر شهدته الاقطار العربية ، وهو ازدياد تنقل اليد العاملة داخل كل بلد من البلدان . وعندما يميل هذا التنقل الى التركز حول الكفايات الرفيعة المستوى ولصالح القطاع الخاص تقلق الحكومات على كوادرها ، خاصة ان الادارات الحكومية تخضع لضغوط مستمرة لحملها على تحمل مسؤليات اوسع نطاقا .

وفي السبعينات برزت في بلدان المشرق سياسات جديدة بشأن هجرة الكفايات ، ويمكن تلخيصها على النحو التالي : وجود وعي واهتمام من جانب الحكومات والمسؤولين عن وضع السياسات المتعلقة بنزوح المواطنين ، خاصة نزوح القوى العاملة ذات المستوى الرفيع ؛ تقدير الدور التي تمثله القوى العاملة المتعلمة والمدربة في عملية النمو الاقتصادي والاجتماعي ، والتحقق من ان النقص في القوى البشرية هو من العقبات الكبرى التي تواجه عملية النمو ؛ هناك اختلاف في التركيز فيما يتعلق بنزوح القوى العاملة ذات المستوى الرفيع . فقد كان هذا النزوح باتجاه البلدان المتقدمة النمو فأصبح باتجاه سائر بلدان المنطقة ، خاصة البلدان المصدرة للنفط ؛ الحاجة الى التنسيق بين القوى العاملة الوطنية وسياسات الاستخدام ، خاصة في ضوء التنقل الواسع النطاق لليد العاملة والمعلومات شبه الشاملة عن ظروف العمل في اقطار المشرق العربي .

وبالرغم من ان هجرة القوى البشرية ظاهرة قديمة جدا فان مشكلة هجرة الكفايات لم تلق الاهتمام المناسب ، في المؤلفات الاقتصادية ، الا في الفترة الاخيرة . ونظرا لتشابك اسباب هذه المشكلة ونتائجها فقد اتبعت نهوج مختلفة في معالجتها ومنها خاصة النهج الوطني مقابل النهج الدولي ، وزاوية التدفق الخارجي مقابل زاوية العرض الفائض(٢) . وبالرغم من ان هناك ادراكا جيدا لنتائج مشكلة هجرة الكفايات فالمعلومات المتعلقة بالموضوع هي ، في كثير من الاحيان ، غير موجودة او غير مكتملة ، بحيث يتم اللجوء ، في معظم الحالات ، الى المعلومات المتوفرة لدى البلدان التي ينتقل اليها ذوو الكفايات . ان مشكلة هجرة الكفايات من البلدان النامية الى البلدان المتقدمة النمو قد لاقت ، في الاونة

---

(٢) هاري ج . جونسون ، « تنقل اليد العاملة وهجرة الكفايات » في كتاب « **الفجوة بين الامم الغنية والفقيرة** » (لندن : ماكملان ، ١٩٧٢) باشراف غوستاف رانيس ، الصفحات ٣٨٠ ـ ٣٩١ .

الاخيرة ، اهتماما عالمي النطاق . وقد اتخذت الجمعية العامة للامم المتحدة[٣] والمجلس الاقتصادي والاجتماعي[٤] عدة قرارات بهذا الشأن ، كما اتخذت الجمعية العامة للامم المتحدة مؤخرا ، في كانون الاول / ديسمبر ١٩٧٧ ، القرار ٣٢ /١٩٢ ، وقد طلبت فيه الى الامين العام « ان يقوم ، بالتعاون مع مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية ومنظمة العمل الدولية ... بدراسة معمقة لمشكلة هجرة الكفايات ، ... » وقد اولت عدة منظمات تابعة لمنظومة الامم المتحدة اهتماما خاصا بمشكلة هجرة الكفايات . فمعهد الامم المتحدة للتدريب والبحث ومؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية اجريا دراسات حول هذا الموضوع ، كما ان مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية عقد ، مؤخرا ، اجتماعا لفريق الخبراء الحكوميين المعنيين بالنقل العكسي للتكنولوجيا (جنيف ، من ٢٧ شباط / فبراير الى ٧ آذار / مارس ١٩٧٨) . كذلك نجد في بعض المنشورات الصادرة عن منظمة العمل الدولية ومنظمة الصحة العالمية اشارة خاصة الى مشكلة هجرة الكفايات ، كما ان منظمة الامم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم اهتمت بالمشكلة خلال سنوات عديدة ببعض النشاطات في هذا الميدان ومنها نشر بعض المعلومات الاحصائية ذات الصلة .

وعلى الصعيد الاقليمي قامت جامعة الدول العربية ببحث مشكلة هجرة الكفايات ، وشكلت لجنة مهمتها تقديم التوصيات بهذا الشأن . كذلك عالجت المشكلة المنظمات الاقليمية العربية ، ومنها خاصة مركز التنمية الصناعية للدول العربية ومنظمة العمل العربية كما ان عددا من المؤتمرات التي عقدت باشراف جامعة الدول العربية قد أبدت أهتمامها بالمشكلة . وكانت هجرة القوى البشرية بين البلدان العربية أحد الموضوعات التي ناقشتها الحلقة الدراسية حول تخطيط القوى البشرية والاستخدام في البلدان العربية ، التي انعقدت في بيروت بين ١٢ و٢٤ ايار / مايو ١٩٧٥ ، باشراف منظمة العمل الدولية واللجنة الاقتصادية لغربي آسيا . وسيتم في نهاية هذه السنة ، عقد مؤتمرين اقليميين في عمان والكويت لمناقشة النواحي المختلفة لمشكلة هجرة الكفايات . وعلى الصعيد الوطني ادركت البلدان العربية مشكلة هجرة الكفايات واتخذ عدد منها بعض التدابير للتقليل من النزوح ولاجتذاب مواطنيها وغيرهم من العرب القاطنين في الخارج وحملهم على الرجوع . وقد جرى تنظيم حلقات دراسية وطنية لمعالجة قضايا القوى العاملة ومنها نزوح القوى العاملة الرفيعة المستوى ، كما ان عددا من بلدان المشرق العربي اعد دراسات حول هذه المشكلة .

تستخدم هذه الدراسة المعلومات المتوافرة عن مدى هجرة الكفايات وعن دوافع الهجرة او الاقامة في الخارج بالنسبة الى مواطني المشرق العربي ، ثم تقارن النتائج مع نوع المهارات والمواهب المطلوبة في المنطقة . انها تبحث في الاسباب الكامنة وراء هجرة المهارات والمواهب الى الخارج ، ومنها عدم الاستقرار السياسي والنقص في التنمية ونقص الطاقة على الاستيعاب ، وعدم وجود سياسات ملائمة بشأن القوى البشرية والاستخدام ، والاستياء من شروط العمل والرواتب ، وعدم وجود مرافق ملائمة للبحث العلمي وصرامة الادارة العامة وفشلها في فسح المجال للابداع ، وغيرها من العوامل .

---

(٣) القرارات ٢٣٢٠ (د ـ ٢٢) المؤرخ في ١٥ كانون الاول/ديسمبر ١٩٦٧ .
و ٢٤١٧ (د ـ ٢٣) المؤرخ في ١٧ كانون الاول/ ديسمبر ١٩٦٨ .
و ٣٠١٧ (د ـ ٢٧) المؤرخ في ١٨ كانون الاول/ديسمبر ١٩٧٢ .
(٤) القراران ١٥٧٣ (د ـ ٥٠) المؤرخ في ١٩ ايار/مايو ١٩٧١ ،
و١٩٠٤ (د ـ ٥٧) المؤرخ في ١٢ آب/اغسطس ١٩٧٤ .

كذلك تحاول الدراسة تقدير الخسائر الناجمة عن ذلك ، مثل كلفة التدريب والتعليم والاثر السلبي على تحقيق الخطط الانمائية وعلى عملية النمو الاقتصادي والاجتماعي والتقدم التكنولوجي ، وخسارة منافع مباشرة اخرى ومنافع « خارجية ، الخ . وبالاضافة الى ذلك تقدر الدراسة المنافع المحققة بشكل تحاويل او استثمارات او منافع اخرى ، بالاضافة الى المنافع التي تجنيها البلدان التي يستقر فيها المهاجرون . وهناك بالاضافة الى هجرة الكفايات الى البلدان المتقدمة النمو ، خاصة الولايات المتحدة الاميركية واوروبا الغربية وكندا واستراليا ، نمط اخر من الهجرة ذات المغزى ضمن المنطقة ، وهو تدفق اليد العاملة من البلدان غير المصدرة للنفط الى البلدان المصدرة . وبالرغم من ان هذا التدفق كبير الحجم والاثر ، وانه يمثل دورا مهما في التعاون والتكامل الاقتصاديين بين البلدان العربية فقد عالجته هذه الدراسة بايجاز ، لانها دراسة تركز على هجرة الكفايات من بلدان المشرق المعنية (العراق والاردن وسوريا ولبنان) الى البلدان المتقدمة النمو . وبالرغم من ان الدراسة تشمل ايضا السياسات الوطنية فهي تركز بشكل اوسع على الاعتبارات الاقليمية . وتشمل هجرة الكفايات ، من زاوية هذه الدراسة ، الاشخاص الحائزين على شهادة جامعية والعاملين او القاطنين في الخارج او كلاهما معا . ونجد ، في دراسة هذه الهجرة ان هناك عادة تركيزا على خريجي الجامعات في الحقول العلمية والطبية والهندسية .

ولقد قمنا اثناء وضع هذه الدراسة بزيارات عديدة لبلدان المنطقة ، من اجل مناقشة مشكلة هجرة الكفايات مع المسؤولين الحكوميين ، وجمع المعلومات ذات الصلة . والبلدان التي قمنا بزيارتها هي الاردن والجمهورية العربية السورية والعراق والمملكة العربية السعـودية واليمن واليمن الديمقراطية ، حيث بحثنا في هجرة القوى البشرية الرفيعة المستوى ضمن اطار الخطة الانمائية الوطنية . وقد تم في هذا الصدد ، جمع المعلومات المتوافرة عن هجرة القوى البشرية الرفيعة المستوى ، والمواطنين الذين يدرسون في الخارج ، والاموال التي يحولها المواطنون العاملون في الخارج ، كما تم الحصول على معلومات بشأن السياسات الحكومية المتعلقة بالهجرة ، والعودة الى الوطن والاستخدام ، والاجور وغيرها من النواحي . وقد ارسل استبيان يرمي الى تحديد مختلف السياسات والتدابير التي تتبعها بلدان اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا للحد من هجرة مواطنيها من الاختصاصيين ، من جهة ، واقناع العاملين في البلاد بالبقاء فيها والقاطنين في الخارج بالعودة اليها ، من جهة اخرى . ومن الصعوبات التي واجهناها في اجراء هذه الدراسة عدم كفاية المعلومات عن هجرة الكفايات في بلدان المشرق العربي ، فضلا عن ان التقديرات المتوافرة في البلدان المتقدمة النمو التي استقر فيها المهاجرون لم تكن تقديرات مستكملة او شاملة .

مدى هجرة الكفايات

نحاول اولاً تقديم تحليل كمي لمشكلة هجرة الكفايات العربية . ويميز هذا التحليل بين نزوح الاختصاصيين العرب الى البلدان المتقدمة النمو وتنقلهم بين البلدان العربية نفسها . وينبع هذا التمييز من النتائج المختلفة لهاتين الحركتين ومن الاهمية المتعاظمة لحركة الهجرة الثانية .

من النواحي المشتركة التي تتميز بها بلدان المشرق العربي في معالجة مشكلة هجرة الكفايات عدم وجود احصاءات موثوقة عن هجرة الاختصاصيين من مواطنيها . ان الاجتماعات المعقودة على الصعيدين الوطني والاقليمي قد ادركت المشكلة بحدة وناقشتها ولكن لم يقدم بهذا الشأن اية معلومات

شاملة وموثوقة على الصعيد الوطني ، باستثناء بعض التقديرات الاجمالية والبيانات الجزئية او باستخدام منشورات احصائية صادرة عن البلدان التي يستقر فيها المهاجرون . وتعتمد هذه الدراسة ، اسوة بغيرها من الدراسات ، على تلك المصادر في تحليل مدى هجرة الكفايات في بلدان المشرق العربي . غير ان هناك تأخيرا زمنيا في المعلومات المتوافرة عن هجرة الكفايات العربية الى البلدان المتقدمة النمو . وهناك ، من جهة اخرى ، معلومات اكثر استكمالا وشمولا متوافرة عن تنقل القوى البشرية الرفيعة المستوى بين البلدان العربية .

ان مشكلة هجرة الكفايات من بلدان المشرق العربي الى البلدان المتقدمة النمو محصورة في لبنان وسورية والعراق والاردن (بما في ذلك الفلسطينيون) وفي اليمن واليمن الديمقراطية على نطاق محدود . اما البلدان المصدرة للنفط فلا تشكو من هذه المشكلة . ذلك ان لديها موارد مالية ضخمة تتيح لها اتباع خطط انمائية طموحة وشاملة ، وهي خطط تقتضي بدورها وجود عدد كبير من اصحاب الكفايات . وفضلا عن ذلك فان تنمية الموارد البشرية لهذه البلدان يتم كعملية موازية لجهود التخطيط الانمائي اكثر مما يتم كعملية سابقة لها . وكان لا بد ، في جميع البلدان العربية المصدرة للنفط ، من اللجوء الى اليد العاملة الماهرة الاجنبية ، بما في ذلك العمال الوافدون من سائر بلدان المشرق ، بغية تنفيذ المشاريع الاقتصادية وتأمين الخدمات الاجتماعية .

والبلدان المتقدمة النمو التي تجتذب الاختصاصيين العرب هي البلدان نفسها التي يهاجر اليها اصحاب الكفايات من جميع البلدان النامية ، وهي الولايات المتحدة الاميركية وكندا واوروبا الغربية ، وكذلك استراليا على نطاق محدود . والواقع ان هذه البلدان التي يستقر فيها المهاجرون هي المصدر الرئيسي للمعلومات ، خاصة الاحصاءات المتعلقة بمشكلة هجرة الكفايات .

وعندما نقارن هجرة الكفايات من بلدان المشرق العربي بمدى هجرة الكفايات من جميع البلدان النامية نجد انها تمثل نسبة مئوية منخفضة . فمجموع المهاجرين من اختصاصيي جميع البلدان النامية في الستينات وفي مطلع السبعينات قد بلغ ٢٣٠٨٢٩ شخصا ، في حين ان عدد المهاجرين من منطقة الشرق الادنى والشرق الاوسط ، وهي منطقة تشمل بلدانا اخرى بالاضافة الى بلدان المشرق العربي ، قد بلغ ١٠٤٠٤ اشخاص ، اي ما يساوي ٤,٥ ٪ من المجموع[٥] : غير ان هذا الرقم يقدر مدى هجرة الكفايات من البلدان العربية بأقل مما هو ، فعلا كما هو مبين ادناه . كذلك فان اثر هذه الهجرة على بلدان المشرق نفسها اثر ضخم ، حتى لو لم يكن هذا المدى ، بالقيمة المطلقة ، بالاتساع الذي نجده في مناطق اخرى . ان هجرة الكفايات من بلدان المشرق العربي الى الولايات المتحدة وحدها قد شملت ٤٧٧٠ من الاختصاصيين العرب ، خلال الفترة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٩ . وبلغ عدد الذين هاجروا الى كندا ٤٩٢ شخصا اي حوالي عشرة ٪ من الذين هاجروا الى الولايات المتحدة ، علما بأنه ليست هناك احصاءات متوافرة عن هجرة الكفايات الى بلدان اوروبا الغربية واستراليا .

وارتفعت هجرة الكفايات من الاردن الى الولايات المتحدة من متوسط سنوي قدره ١٥٥ شخصا في فترة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٩ الى متوسط سنوي قدره ٩٠٠ شخص في فترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤ . وسبب هذه

---

(٥) مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية ، **النقل العكسي للتكنولوجيا : ابعاده وآثاره الاقتصادية ونتائجه من حيث السياسات العامة** (جنيف TD/ B/ C.617
١٣ تشرين الاول/اوكتوبر ١٩٧٥) ، الجدول الف ـ ٢ .

الزيادة الكبيرة هو ، في الاساس ، الاحداث الداخلية التي جرت في فترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ . ولكن هذا لا يفسر كل الزيادة الحاصلة في المتوسط السنوي لهجرة الاختصاصيين الاردنيين الى الولايات المتحدة .

والواقع ان احصاءات الفترة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٩ . لهجرة الكفايات من بلدان المشرق العربي تنزع الى التقليل من مدى هجرة الكفايات من بلدان مثل سوريا ، التي بلغ عدد المهاجرين منها من اصحاب الكفايات ٨٢٨٢ شخصا خلال الفترة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٩(٦) . وعلى هذا الاساس فإن هجرة الكفايات من بلدان المشرق العربي يقدر مجموعها ٢١١٩٦ شخصا خلال الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤ ، وقد توجه منهم ١٦٤٩٦ الى الولايات المتحدة و ٤٧٠٠ الى سائر البلدان الغربية . بهذا يكون المتوسط السنوي لهجرة الاختصاصيين العرب حوالي ٤٢٤٠ شخصا . وقد جرت مقارنة هذا التقرير بمعالم اخرى متعلقة بعدد الطلاب الجامعيين . ونجد بالاستناد الى تقديرات زحلان ، ان هجرة الكفايات تقدر بعشرة الى عشرين ٪ من الطلاب المنتسبين الى جامعات موجودة خارج المنطقة وواحد ٪ من الطلاب المنتسبين الى الجامعات العربية . وبالاستناد الى هذه المعالم تقدر هجرة الكفايات من جميع البلدان العربية الى البلدان المصنعة بـ ٥٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ شخص في السنة(٧) . ان هذه الاحصاءات تتعلق بالطبع ، بجميع البلدان العربية ولكنها في الوقت نفسه تشمل فترة اواخر الستينات . فاذا طبقنا المعالم نفسها على الاحصاءات الاكثر حداثة المتعلقة ببلدان المشرق العربي ، واذا افترضنا ان عدد الطلاب من بلدان المشرق الذين يدرسون في اوروبا الغربية وكندا يساوي ، على الاقل ، عدد الذين يدرسون في الولايات المتحدة الاميركية فان المتوسط السنوي لهجرة الكفايات من بلدان المشرق يمكن تقديره بـ ١٩٦٠ + ١٠٨٦ + ١٠٨٦ = ٤١٣٢ شخصا . وهكذا يمكن تقدير هجرة الكفايات من بلدان المشرق العربي بمتوسط سنوي يبلغ اربعة آلاف اختصاصي . وقد ادت الحرب في لبنان في سنتي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ الى هجرة عدد كبير من القوى البشرية اللبنانية الرفيعة المستوى . ومع ان قسما ضئيلاً من هذه الهجرة سيصبح هجرة دائمة فالقسم الاكبر وقتي بطبيعته .

والجدير بالذكر انه يمكن اتباع نهج آخر في تقدير مدى هجرة الكفايات ، وذلك باستخدام البيانات المتعلقة باحتياطي القوى البشرية وتحركاتها . وهذا يقتضي وجود معلومات كافية عما يلي : احتياطي القوى البشرية الرفيعة المستوى في بلدان المشرق العربي خلال سنة تعتبر سنة أساس ، عدد واختصاص خريجي الجامعات الموجودة في هذه البلدان ، وعدد واختصاص مواطني البلدان نفسها الموجودين في جامعات اخرى، بيانات عن نسبة الوفيات وعن تقاعد الاختصاصيين في المشرق العربي ، انتقال هؤلاء الاختصاصيين بين بلدان المشرق ومن هذه البلدان الى سائر بلدان العالم . وفي حين يمكن تجريب هذا النهج بالنسبة الى بلد واحد ، حيث تتوافر معلومات عن القوى البشرية والسكان(٨) ، يبدو

---

(٦) القطر العربي السوري وهجرة العقول ، المهندس العربي العدد ٣٧ ، ايلول/سبتمبر ـ تشرين الاول/اكتوبر ١٩٧١

(٧) مالكوم اديسيشيا ، هجرة الكفايات من العالم العربي ، القاهرة ، كانون الاول/ديسمبر ١٩٦٩ ، صفحة ٩ .

(٨) انظر نضر الاتاسي « نمو تدفقات خريجي التعليم العالي وافاقه في عدد من البلدان العربية » ، وهي دراسة قدمت الى المؤتمر الوطني السابع لشؤون التنمية ٢٤ ـ ٢٥ تشرين الاول/اوكتوبر ١٩٧٣ ، بيروت

من الصعب اتباعه في تقدير مدى هجرة الكفايات في هذه المنطقة ، دون ان يكون هناك فرق كبير في التقدير .

ان تدفق القوى العاملة ذات المؤهلات العالية بين بلدان المشرق العربي قد تم ، في السنوات الثلاثين الاخيرة ، بتأثير انتاج النفط وتصديره من شبه الجزيرة العربية ، وما نجم عن ذلك من زخم لا مثيل له سابقا في النمو الاقتصادي والاجتماعي . وبما ان البلدان المصدرة للنفط فيها عدد قليل من السكان وبما ان مواردها البشرية هي قيد التطوير فلا بد لها من ان تعتمد ، الى حد كبير ، على القوى البشرية « المستوردة » . وهكذا فان تدفق القوى البشرية الى بلدان المشرق المصدر للنفط قد انطلق من اليمن والاردن والجمهورية العربية السورية ولبنان وعمان ومصر والسودان والصومال ، وهي من بلدان المشرق نفسها . وهناك تدفقات انطلقت ايضا من ايران وباكستان والهند ، كما ان عمالا من جنسيات مختلفة يعملون في بلدان الخليج المصدرة للنفط . ولكن السواد الاعظم من الوافدين اليها هم من البلدان المذكورة آنفا . والمقدر ان القوى العاملة الاجنبية الموجودة في بلدان الخليج المصدرة للنفط تبلغ من مليون ونصف الى مليوني عامل ، في القطاعين العام والخاص . ونجد ، من هذا المجموع ، ان الوافدين من البلدان العربية الاخرى هم حوالي ١,٢٥ المليون اختصاصي من مواطني المشرق العربي يعملون في بلدان المصدرة للنفط . ويمثل هذا العدد تقديرات للاحتياطي لسنة ١٩٧٧ ، الناجم عن تدفق القوى البشرية الرفيعة المستوى داخل منطقة المشرق العربي . ومن الواضح ان تدفق الاختصاصيين بين بلدان المشرق هو اوسع نطاقا من هجرة الكفايات من هذه البلدان الى البلدان المتقدمة النمو . غير ان هذه الدراسة تنظر الى هذا التدفق على انه تنقل احد عوامل الانتاج ، وانه يمثل بالتالي مؤشرا مهما جدا لحركة التنقل والتعاون الاقليميين . وقد ادى تدفق الاختصاصيين وغيرهم من فئات القوى العاملة ، الذي حصل مؤخرا ضمن اقطار المشرق العربي ، الى زيادة الضغط على سوق العمل في الاقطار « المصدرة » لليد العاملة . ولذلك فان هذه الاقطار تهتم اهتماما اكبر بالصعوبات الناشئة عن ذلك فيما يتعلق بالاختصاصيين والعمال المهرة ، وبضرورة رفع مستويات الاجور على فترات اقصر مما كان في الماضي .

تشير تقديرات القوى البشرية المتاحة في البلدان المصدرة للنفط ، الى وجود عجز صاف يبلغ حوالي ٧٥٠٠٠٠ عامل[٩] في الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ . ان تنفيذ الخطط الانمائية الطموحة في المنطقة يقتضي توفر القوى البشرية من مختلف المهارات والاختصاصات وهو متعلق بذلك الى حد كبير . واذا فرضنا ان النسبة المئوية للاختصاصيين وشبه الاختصاصيين تمثل حوالي ١٢ بالمئة[١٠] من المجموع فان الاقطار العربية في المشرق المنتجة للنفط ستحتاج ، في الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ ، الى ٩٠ الفاً من المهاجرين من اصحاب الكفايات العالية . وهذا يعني ان ثمة حاجة الى ١٨٠٠٠ اختصاصي في السنة الواحدة . وهكذا نجد ان هجرة الكفايات من المشرق العربي الى البلدان المتقدمة النمو (حوالى ٤٠٠٠ اختصاصي عربي) يجعل الحالة تزداد سوءاً . والواقع ان منطقة المشرق العربي تستطيع بسهولة

---

(٩) هذا تقدير متحفظ اذا اضيف الى الرقم المتعلق بالسعودية والكويت والبحرين تقديرات اجمالية عن الامارات العربية المتحدة وقطر وعمان . انظر دراسات الحالات القطرية . ج . س . بيركس و س . ا . سنكلير . **المشروع الدولي للهجرة** . ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ .

(١٠) هذه النسبة هي اعلى من النسبة المطبقة سابقا في تقدير احتياطي الاختصاصيين وذلك بسبب طبيعة المشاريع الانمائية الجاري تنفيذها والانخفاض الذي تم ، بالقيمة النسبية في القوى العاملة اليمنية الموجودة في البلدان المصدرة للنفط .

استيعاب هذا العدد من الاختصاصيين بغية تنفيذ مشاريعها الانمائية وذلك لان الحاجة هي الى ٤.٥ اضعاف المهاجرين من اصحاب الكفايات . والجدير بالملاحظة ان هجرة الكفايات تحصل في مجالات مهنية بالغة الاهمية كالهندسة والعلوم الطبيعية والطب وغيرها من المهن المتطورة التي تحتاج اليها المنطقة حاجة ماسة . وكما سيأتي فيما بعد فان على البلدان العربية ان تنسق سياساتها وان تتخذ تدابير عملية مشتركة لمكافحة هجرة الكفايات وتنظيم تدفق الاختصاصيين فيما بينها .

سياسات بلدان المشرق ازاء مشكلة هجرة الكفايات

من بين النتائج العامة التي توصلنا اليها انه لا توجد سياسة اقليمية ثابتة تتعلق بهجرة الكفايات في المشرق العربي . الا ان هناك شعوراً مشتركا لدى جميع بلدان المنطقة بان هجرة الكفايات من المنطقة الى البلدان المتقدمة تشكل خسارة لها وانه ينبغي بذل الجهود لعكس هذا الاتجاه . ويمكن تفسير فقدان السياسة الاقليمية العامة في هذا المجال على النحو التالي : حتى مطلع السبعينات ، كانت سياسة القوىٰ البشرية للبلدان العربية تقوم على الافتراض الضمني بأن القوى البشرية لا تشكل عقبة او عاملا معيقا امام عملية التنمية فيها . وكانت هناك بطالة بين خريجي الجامعات في الاردن وسوريا ولبنان ، وكانت هذه البلدان تشعر بالارتياح لان جزءا من القوى البشرية ذات المستوى العالي لديها يجري استيعابه في البلدان العربية المجاورة . ثم ان البلدان العربية لا تعاني المشكلة ذاتها بالنسبة لهجرة الكفايات فهي لذلك لا تتخذ موقفا موحدا ازاءها . ومن وجهة هذه الدراسة ، وربما من وجهات اخرى ، يمكن قسمة الاقطار العربية الى ثلاث فئات متمايزة : فئة البلدان « المحض مصدرة » للقوى البشرية الرفيعة المستوى ، كالاردن ولبنان وسوريا ، وفئة البلدان « المحض مستوردة » للقوى البشرية الرفيعة المستوى ، كالمملكة العربية السعودية والكويت وقطر والامارات العربية المتحدة ، وفئة البلدان الاقل نموا « المحض مصدرة » للقوى البشرية غير الماهرة او ذات الدرجة المتوسطة من المهارة ، كاليمن واليمن الديمقراطية . وتختلف السياسات العملية لهذه البلدان تبعا لاوضاعها الخاصة . وعليه فبينما لا توجد سياسة اقليمية لهجرة الكفايات ، توجد لدى بعض البلدان سياسات وطنية صريحة في هذا المجال .

وينبغي علينا مع ذلك الا نحمّل القول الآنف الذكر عن عدم وجود سياسة اقليمية بالنسبة الى مشكلة هجرة الكفايات اكثر مما يحتمل . فأولاً ، أعربت البلدان العربية ، في نطاق المؤسسات الاقليمية كمنظمة العمل العربية ومركز التنمية الصناعية للدول العربية والصندوق العربي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، عن اهتمامها باتخاذ بعض التدابير لخفض تدفق القوى البشرية الرفيعة المستوى الى المناطق الاخرى وبترغيب مواطنيها العاملين في البلدان المتقدمة بالعودة الى البلاد . وفوق ذلك ، عقدت اجتماعات اقليمية ووطنية في السبعينات لمناقشة مشكلة هجرة الكفايات في لبنان وسوريا والكويت . وفي شهر كانون الاول / ديسمبر ١٩٧٥ عقد اجتماع في الكويت بالتعاون مع رابطة خريجي الجامعات الاميركية العرب لمناقشة مشكلة هجرة الكفايات . وازاء عدم وجود سياسة اقليمية واضحة تجاه مشكلة هجرة الكفايات ، اعتمدت بعض البلدان العربية ، سياسات وطنية في هذا المجال . ومع هذا فان السياسات الوطنية المتعلقة بهجرة الكفايات تختلف من بلد الى آخر . ونظمت زيارات ميدانية في عام ١٩٧٥ الى غالبية بلدان المشرق العربي لمناقشة مشكلة هجرة الكفايات مع المسؤولين الحكوميين ولجمع المعلومات المتعلقة بها . والبلدان التي تمت زيارتها هي الاردن والمملكة العربية السعودية والعراق والكويت ولبنان واليمن الديمقراطية وسوريا . ومن بين المسائل التي حظيت باهتمام خاص ، مسألة

التعرف الى مختلف السياسات والتدابير التي اعتمدتها هذه الاقطار للحد من هجرة اختصاصييها الى الخارج من جهة ، ومن اجل ترغيب الاختصاصيين العاملين لديها بالبقاء فيها واولئك المقيمين في الخارج للعودة اليها . وبعد ذلك ، اعد استبيان لمعالجة هذه المسألة بشكل خاص وأرسل الى الاقطار العربية المشرقية . ويتضمن العرض التالي للسياسات الوطنية ازاء مشكلة هجرة الكفايات كل المعلومات التي جمعت خلال الزيارات ومن خلال الاجابة على الاستبيان وقراءة المواد المتصلة بهذا الموضوع .

١) **سياسة العراق ازاء مشكلة هجرة الكفايات** : من بين جميع اقطار المشرق ، اعتمد العراق في السبعينات سياسة مميزة لترغيب القوى البشرية الرفيعة المستوى للبقاء في العراق ولجعل القوى البشرية العاملة في الخارج تعود الى البلاد . لقد ظلت هجرة الكفايات مشكلة تواجه العراق طوال العشرين سنة الاخيرة او ما شابه . ومردها الى عوامل معروفة من « الدفع » و « الجذب » . ولكن احد العوامل الرئيسية هو عامل الدراسة في الخارج . لا سيما في المرحلة الجامعية الاولى .

وأثناء الحلقة الدراسية الاولى التي نظمتها وزارة التربية بشأن تخطيط السياسة التربوية ، قدمت في ٨ آذار / مارس ١٩٧٠ دراسة عن مشكلة هجرة الكفايات . وأقرت الحلقة عددا من التوصيات الهادفة الى معالجة مشكلة هجرة الكفايات نذكر منها ما يلي : توفير المناخ الملائم للاختصاصيين لتمكينهم من التفكير والعمل بحرية والابداع ؛ أن تركز الحكومة اهتمامها على جهود التنمية لتوسيع نطاق فرص العمل للاختصاصيين ؛ توفير المناخ العلمي في مؤسسات الابحاث ومرافق العمل الضرورية ؛ تحسين ظروف معيشة الاختصاصيين ، بما في ذلك دفع رواتب أعلى ؛ اصدار ما يلزم من القوانين والانظمة من اجل توفير ظروف متساوية للاختصاصيين بقطع النظر عن المؤسسة التي يعملون فيها ؛ اعتماد سياسات جديدة بشأن البعثات الدراسية والاحتفاظ بالاتصال مع الطلاب في الخارج ؛ التعاون مع البلدان العربية الاخرى في وضع الطرق الكفيلة بالحد من تدفق القوى البشرية الرفيعة المستوى الى الخارج ؛ تحسين النظام التربوي ، لا سيما على مستوى الجامعات .

وأجريت دراسة في عام ١٩٧٣ من قبل مركز الابحاث التربوية والنفسية في جامعة بغداد بعنوان « الخريجون العراقيون غير العائدين من الخارج ١٩٥٨ ـ ١٩٧٠ » ففي فترة ١٩٥٨ ـ ١٩٧٠ ، ارسل ٣٨٢٥ طالبا للدراسة في الخارج بتمويل كلي او جزئي من قبل الحكومة . ومن اصل هذا العدد تخرج ٢٦٤٣ ، ولم يعد ٣٣٥ (أي نسبة ١٢,٧٪) الى البلاد . كما غادر حوالي ألف شخص آخر العراق في ذات الفترة للدراسة في الخارج على حسابهم الخاص . وكانت نسبة الذين لم يعودوا الى البلاد بين هذه الفئة الاخيرة أعلى بكثير من الفئة الاولى . وجاء في الدراسة ان نسبة ٣٩٪ من غير العائدين درسوا في الولايات المتحدة الاميركية ، و٢٣ بالمائة في جمهورية المانيا الاتحادية . وفضلا عن ذلك ، كانت نسبة غير العائدين من الاختصاصيين في العلوم الطبيعية والتطبيقية اعلى بكثير (٨١,٢ ٪) من الاختصاصيين في العلوم الانسانية (١٨,٨ ٪) .

وسنت الحكومة العراقية القانون رقم ١٨٩ لعام ١٩٧٠ من اجل ترغيب الاختصاصيين العراقيين المقيمين في الخارج للعودة . وبالنظر لاثره المحدود ، استبدل هذا القانون بقانون أشمل

---

(١١) العراق ، وزارة التعليم ، ادارة الابحاث التربوية . **القرارات الصادرة عن الحلقة الدراسية الاولى بشأن تخطيط السياسة التربوية** ، آذار مارس ١٩٧٠ . ص . ٢٤ ـ ٢٩ .

وأسخى رقمه ١٥٤ في عام ١٩٧٤ . وينطبق القانون ١٥٤ على العراقيين والاختصاصيين العرب الاخرين والعاملين في الخارج او في العراق والذين حصلوا على الاقل على درجة ماجستير او ما يعادلها . ويتضمن هذا القانون والانظمة المتصلة به الحوافز التالية التي تقدمها الحكومة لكل عراقي تعتبره لجنة خاصة واحدا من القوى البشرية الرفيعة المستوى او المؤهلة : نفقات سفر الاختصاصي وعياله من الخارج الى بغداد ، تكاليف شحن اغراضه الشخصية وحاجياته المنزلية وادخالها بدون جمارك ، اعفاء جمركي لسيارة واحدة ، منحة راتب شهر اذا تزوج العائد في العراق بالاضافة الى سلفة على الراتب بقيمة ستة اشهر ، قطعة ارض وقرض لبناء منزل ، عدد من الحوافز الاخرى تتوقف على الاعتراف بخبراته السابقة في الخارج وأمور أخرى .

لقد اسفرت هذه الاغراءات عن نتائج مشجعة للغاية نظرا لعدد الاختصاصيين الذين عادوا بعد تطبيق قانون ١٩٧٤ . ان العدد الاجمالي للاشخاص المؤهلين او للاختصاصيين العائدين الى العراق بموجب قانون ١٥٤ لعام ١٩٧٤ بلغ في نهاية تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٥ ، ٧٠٥ اختصاصيين . ويمثل هؤلاء ثلث مجموع الاختصاصيين المقيمين في العراق والمستفيدين من ذات القانون (٢٢٧١ اختصاصيا) . وعليه ، فان هناك عددا كبيرا من العراقيين يرتقب ان يعودوا نتيجة للقانون رقم ١٥٤ . وكانت غالبية الـ ٧٠٥ اختصاصيين من المواطنين العراقيين ، ولكن عددا صغيرا منهم كانوا من مواطني البلدان العربية الاخرى . وكانت غالبية هؤلاء من الخريجين الجدد (١٩٧٤) ، ومن بينهم عدد ضئيل ممن تخرجوا قبل ١٩٧٠ . كما كانت غالبية العائدين من خريجي الجامعات الغربية واصحاب اختصاص في مجالات العلوم التي تدعو الحاجة اليها بالحاح في العراق .

وبالاضافة الى قانون ١٥٤ ، تفرض الحكومة العراقية قيودا على تدفق الاختصاصيين الى الخارج . وعلى سبيل المثال ، لا يسمح للاطباء والمهندسين بمغادرة العراق الا بعد تقديم كفالة . وقد وضع حد للدراسة قبل الجامعية في الخارج . ولا يسمح للخبراء العراقيين بالعمل لدى منظمات الامم المتحدة الا في حالات محدودة . وبالاضافة الى ذلك ، تتبع الحكومة سياسة تربوية تتوافق مع مستلزمات تنمية القوى البشرية . وعليه ، فقد تزايدت نسبة الملتحقين بالميادين الفنية والعلمية في الجامعات . وينطبق ذات الشيء على البعثات الدراسية العراقية في الخارج . ومنحت الحكومة بعض العلاوات لوظائف معينة في جهاز الخدمة المدنية .

٢)- **سياسة الأردن ازاء مشكلة هجرة الكفايات** : ازاء مشكلة هجرة الكفايات تميز اقتصاد الاردن منذ مطلع الخمسينات بتدفق كبير في القوى العاملة والاختصاصيين من الاردن الى البلدان الاخرى . واتجه هذا التدفق في معظمه نحو البلدان العربية الاخرى ، لا سيما البلدان المصدرة للنفط . وبالرغم من عدم وجود بيانات دقيقة عن عدد الإردنيين العاملين في الخارج ، يقدر عدد هؤلاء في البلدان العربية بحوالي ٢٥٠ الف شخص .

وحتى مطلع السبعينات ، تنازع صانعي السياسة في الاردن اتجاهان متعارضان بالنسبة الى موضوع هجرة الكفايات . **الاتجاه الاول** قوي ويقول بان الاردن يستطيع ، في ظل الظروف الاقتصادية والاجتماعية السائدة ، التخلي عن جزء من القوى البشرية لديه ، بما في ذلك الاختصاصيين الرفيعي المستوى . وبالنظر لكثرة عدد الفلسطينيين المهجرين في عامي ١٩٤٨ – ١٩٦٧ ، وارتفاع مستوى الالتحاق بالجامعات بين الاردنيين ، وفائض عرض الاختصاصيين (لا سيما في حقل العلوم الانسانية) على الطلب عليهم في الاردن ، تبنت الحكومة سياسة حرة بالنسبة الى

تدفق القوى البشرية الرفيعة المستوى الى الخارج . ومما يدعم هذا الاتجاه في السياسة تحويلات الاردنيين العاملين في الخارج التي بلغت ٤٢٣ مليون دولار في عام ١٩٧٦ و٤٤٥ مليون دولار في عام ١٩٧٧[١٢] . **الاتجاه الثاني** يعرب عن مخاوفه ازاء تدفق القوى البشرية الرفيعة المستوى الى الخارج . ويفرق هذا الاتجاه بين الهجرة الى البلدان العربية المصدرة للنفط وبين الهجرة الى البلدان الصناعية في أميركا الشمالية وأوروبا الغربية واوستراليا . وهو يعتبر الهجرة الى البلدان العربية عاملا ايجابيا في التعاون فيما بينها ، ويعتبر الهجرة الى البلدان المتقدمة خسارة في امكانات الاسهام بالتنمية في الاردن أو في المنطقة العربية .

ومع الانتعاش الذي شهده الاقتصاد الاردني من جراء تنفيذ خطة التنمية الثلاثية (١٩٧٣ ـ ١٩٧٥) وخطة التنمية الاقتصادية (١٩٧٦ ـ ١٩٨٠) ، وازدياد زخم التنمية في البلدان العربية المصدرة للنفط ، اصبحت هجرة الكفايات ، ولا سيما تدفق القوى العاملة الى الخارج ، مشكلة اكثر بروزا في الاردن . وقد تحقق في الاردن عدد من النشاطات التي كان لها بعض الاثر على مشكلة هجرة الكفايات . وعقدت ثلاث حلقات دراسية عن القوى البشرية في السنوات ١٩٧١ و١٩٧٢ و١٩٧٥ . وعقدت ندوة وطنية رفيعة المستوى بصدد القوى البشرية في كانون الاول / ديسمبر ١٩٧٤ ، ناقشت بين أمور اخرى مشكلة خريجي الجامعات وهجرة الكفايات . واجريت دراسات خاصة بصدد الاثار الاقتصادية للتعليم الجامعي في الاردن[١٣] . وجمعت دائرة الاحصاءات العامة البيانات عن الطلاب الاردنيين في الخارج[١٤] . ونشر جدول محدود بخريجي الجامعات من قبل مجلس البحث العلمي في الاردن في عام ١٩٧٢ . وتناول الجدول بالدرجة الاولى الخريجين الاردنيين المقيمين في الاردن ، ولم يشمل مجموع خريجي الجامعات الاردنيين الذين يعتقد بأنهم يقيمون في الخارج . وقد اظهر الجدول ان عدد الخريجين يبلغ ٦٩٤٧ ، ٩١٪ يحملون اجازة الاداب / العلوم ، ٣٪ يحملون دبلوما ، ٤,٥ ٪ يحملون الماجستير ، ١,٥ ٪ يحملون الدكتوراه .

ويقدر عدد الاردنيين العاملين في الخارج بـ (٣٠٤,١٨٢) وهو التقدير الشامل الوحيد المتوافر حاليا ، بانتظار القيام بتقدير اكثر وثوقا . وفي الوقت الحاضر تؤثر مشكلة هجرة الكفايات وتدفق الاردنيين المهرة وشبه المهرة بشكل جدي على ظروف سوق القوى العاملة في الاردن . ويشكل النقص في الاختصاصيين عقبة امام جهود التنمية الاقتصادية ، ويمارس ضغوطا قوية ومتواصلة على مستوى الاجور ، كما وان حركة التنقل الناشطة للقوى العاملة ستتبع **هدرا ملحوظا** على الصعيد الوطني . وتحت وطأة هذه الظروف ، شكلت الحكومة الاردنية في حزيران / يونيو ١٩٧٧ لجنة فنية لدراسة مشكلة هجرة الكفايات . وتألفت اللجنة من ممثلي مختلف الوزارات والمؤسسات المعنية برئاسة الامين العام للمجلس القومي للتخطيط . ورفعت هذه اللجنة تقريرها في آب/ أغسطس ١٩٧٧ وأوصت بعدد من

---

(١٢) يعتقد بان هذا الرقم هو دون قيمة التحويلات الحقيقية ، لان التحويلات لا تتم عن طريق النظام المصرفي فحسب ، بل ايضا عن طريق الصيارفة النشطين ، كما يمكن للعمال ان ينقلوا الاموال معهم لدى زيارتهم للاردن . هذا ، وتجدر الاشارة الى ان المبلغين الانفي الذكر يمثلان تحويلات كل الاردنيين العاملين في الخارج ولا يقتصر ان على القوى البشرية الرفيعة المستوى .

(١٣) أنظر دراسة تيسير عبد الجابر ، « الاثار الاقتصادية للتعليم الجامعي في الاردن » . ايلول/سبتمبر ١٩٧٤ . دراسة مقدمة الى الجمعية العلمية الملكية في الاردن .

(١٤) دائرة الاحصاءات العامة ، **الطلاب الاردنيون في المرحلة الثالثة من التعليم ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠** ، عمان ، ١٩٧١ .

التدابير التي نوردها تحت العناوين الاربعة التالية : توفير ما يلزم من الحوافز المالية وغيرها من اجل التخفيف من هجرة الكفايات من الاردن ، ويشمل ذلك الاعانات المالية وسياسة الدخل ومشاريع الاسكان وغيرها ؛ تنظيم تدفق القوى البشرية الاردنية الرفيعة المستوى الى البلدان الاخرى عن طريق عقد الاتفاقات العمالية ، وتقديم الدعم الرسمي للمستخدمين الحكوميين عن طريق التعاقد وغير ذلك ؛ زيادة عرض القوى العاملة في الاردن عن طريق المزيد من التركيز على التهريب في مختلف اشكاله ، وزيادة مشاركة المرأة في القوى العاملة ، والسماح بالعمل لبعض الوقت والاستعانة بالقوى العاملة غير الاردنية وغيرها ، القيام بصورة دورية بمسوحات ودراسات للقوى البشرية الاردنية للحصول على معلومات احصائية موثوقة . ولم توص اللجنة الفنية بأية تدابير قسرية لمنع المزيد من تدفق الاختصاصيين الاردنيين الى الخارج . ويتوافق موقفها هذا مع النظام الاقتصادي في الاردن والسياسة العامة التي تنتهجها الحكومة ازاء القوى البشرية .

وتعتزم الحكومة الاردنية توفير المزيد من الحوافز المادية وغيرها للقوى البشرية الرفيعة المستوى . وتقف الموارد المادية المحدودة عائقا امام قيام الحكومة بذلك ، لا سيما بالنظر للجهود الانمائية بمقتضى خطة التنمية الخمسية الحالية . ومع ذلك ، فقد اصدرت الحكومة قرارين تنظيميين تمنح بموجبهما العلاوات الى الموظفين الحكوميين ، بالاضافة الى منح العلاوات الفنية للاطباء والمهندسين والصيادلة والقضاة واطباء الاسنان والاطباء البيطريين والمهندسين الزراعيين والممرضات . وقد بلغ مجموع العلاوات التي خصصت ابتداء من أول كانون الثاني / يناير ١٩٧٧ ، ١٢ مليون دينار أردني في عام ١٩٧٧ . وتتراوح العلاوات الفردية بين (٢٠ و ٢٠٠) بالمائة من الراتب الاساسي ، تبعا للدرجة العلمية التي تم بلوغها ، ولميدان التخصص ولسنوات الخبرة [١٥] .

٣) ـ **سياسة سوريا ازاء مشكلة هجرة الكفايات** : لقد عانت سوريا ، شأن الاردن، من مشكلة هجرة الكفايات وتدفق مواطنيها الى الخارج على العموم منذ مطلع الخمسينات . الا انه على عكس الاردن ، يمثل تدفق القوى البشرية الرفيعة المستوى نسبة مئوية اكبر في سوريا ، كما وأن تحويلات العمال السوريين هي أدنى من تحويلات العمال الاردنيين .

وكما هي الحال في الاردن ، كان الاتجاه السائد متساهلا بعض الشيء ازاء هجرة الكفايات . ولكن الحكومة السورية سعت في وقت مبكر للتصدي لمشكلة هجرة الكفايات ، خصوصا الى البلدان غير العربية . وفي السبعينات وضعت الحكومة السورية قيودا شديدة على تدفق القوى البشرية الرفيعة المستوى الى الخارج . ومنع الاعضاء العاملون في ٢٤ مهنة مختارة من مغادرة البلاد الا باذن من الحكومة أو من نقابات العمال اذا كان الشخص يعمل في القطاع الخاص . واذا حدث أن غادر أحدهم ولم يعد ، فانه يتعرض لعقوبات اقتصادية تتناول مصادرة املاكه . ولا تقبل الاستقالات التي تقدمها القوى البشرية الرفيعة المستوى . ولكن الحكومة تقبل بمبدأ اعارة بعض المستخدمين . ولا تسلم الشهادات الى خريجي الجامعات الا بعد انقضاء عدد من السنوات[١٦] .

---

(١٥) فيما يتعلق بالتفاصيل عن أنظمة العلاوات الموحدة وانظمة العلاوات الفنية وعلاوات التخصص ، **أنظر الجريدة الرسمية** ، كانون الثاني/يناير ١٩٧٧ .

(١٦) لقد وضعت هذه النقاط اثر مناقشات أجريت مع المسؤولين الحكوميين السوريين المعنيين . أنظر أيضا القانون رقم ٤٩ لعام ١٩٧٤ .

ولا توجد احصاءات موثوقة عن تدفق السوريين الى الخارج بمن فيهم القوى البشرية الرفيعة المستوى . الا ان ما يزيد على ٣٠٠ ألف سوري كانوا يعملون في لبنان في مطلع عام ١٩٧٥ . وبموجب تعداد السكان لعام ١٩٧٥ في الكويت ، كان هناك ٤٠,٩٦٢ سوريا يقيمون في الكويت . ويتواجد الاختصاصيون السوريون ايضا في اوروبا الغربية واميركا الشمالية . وعلى سبيل المثال ، ورد في رسالة بعث بها القسم الكاثوليكي للطلاب والمتدربين الاجانب الى سوريا بتاريخ ٢٩ كانون الثاني / يناير ١٩٧٥ ، ان ٥٨٠٠ سوري يقيمون في جمهورية المانيا الاتحادية ، من أصلهم ٤٥٠٠ خريج جامعي . ويتألف عدد كبير من بين هؤلاء من الاطباء والمهندسين . وفي ذات الوقت ، كان هناك ٦٠٠ طالب سوري ملتحقين بالجامعات الالمانية .

وفي عام ١٩٧١ تشكلت لجنة لدراسة طرق ووسائل استبقاء الخبرات الفنية والعلمية في سوريا . ورفعت الدراسة الى المؤتمر الثاني للتنمية الاقتصادية الذي عقد في دمشق بين ١١ و٢٥ أيلول / سبتمبر ١٩٧١ . وتبين ان نسبة ٥٧ ٪ من القوى البشرية الرفيعة المستوى في حقل العلوم اثناء فترة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٩ لا تقيم في سوريا . وهذا يعني بالارقام ان ٨١٨٢ شخصا من ذوي الكفايات العلمية السوريين ، من اصل ما مجموعه ١٤٣٥٠ ، يقيمون في الخارج . وهذا يمثل متوسط خسارة سنوية برأس المال تبلغ ١٤٤ مليون ليرة سورية في ذات الفترة .

ويظهر من التحليل ان الاسباب المحلية الكامنة وراء هذا التدفق القوي نسبيا الى الخارج ان ظروف العمل عموما ، بما في ذلك الرواتب المنخفضة وفقدان الاستقرار السياسي ، هي العوامل الرئيسية وراء هجرة الكفايات . وفي الدراسات التي قدمت الى الحلقتين الدراسيتين اللتين عقدتا في كل من بيروت ودمشق في العامين ١٩٧٤ و١٩٧٥ ، التي تناولت بين أمور أخرى موضوع هجرة الكفايات ، لم يطرأ اي تحسين او استكمال للمعلومات الاحصائية الواردة في هذه الدراسة عن هجرة الكفايات في سوريا .

٤) **سياسة لبنان ازاء مشكلة هجرة الكفايات** : لقد كانت الهجرة احدى الخصائص الرئيسية للاقتصاد اللبناني خلال القرن الاخير او اكثر ، بالنظر لمحدودية الموارد الطبيعية لهذا البلد التي لا تفي باحتياجات سكانه الاخذين في التزايد . وكما هي الحال في البلدان العربية الاخرى ليست هناك بيانات شاملة عن تدفق القوى البشرية اللبنانية الى الخارج . وفي عام ١٩٧١ ، قدر عدد المهاجرين من أصل لبناني بين مليونين واربعة ملايين نسمة[١٧] .

لقد شكلت هجرة الكفايات من لبنان جزءا من هذا التدفق الاجمالي الى الخارج ، رغم ان جزءا كبيرا من هذه الهجرة يعود الى الدراسة في الخارج . وتجدر الاشارة الى ان هجرة الاختصاصيين اللبنانيين تتجه بشكل خاص الى البلدان المتقدمة كالولايات المتحدة وكندا وفرنسا . وتدل التقديرات المتوافرة عن تدفق القوى البشرية الرفيعة المستوى الى الخارج على ارتفاع نسبتها بالمقارنة مع عدد الاختصاصيين الموجودين في لبنان وكانوا يقدرون في ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ بـ٢٥٤٣١ اختصاصيا . وفي فترة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٦ قدر عدد المهاجرين اللبنانيين بمن فيهم الاختصاصيون والفنيون والعمال

---

(١٧) انطوان زحلان ، « هجرة الكفاءات من لبنان » . وزارة الاعلام . **الحلقة الدراسية عن هجرة الكفايات** ، بيروت ٣٠ ـ ٣١ أيار/مايو ١٩٧٢ ، ص ٢ . أنظر أيضا معهد الامم المتحدة للتدريب والبحث . **هجرة الكفايات من خمسة بلدان نامية** ، نيويورك ، ١٩٧١ ، ص ٨٣ ـ ٩٥ .

المهرة ، الذين قبلوا في الولايات المتحدة بـ ٢٢٢٩ وفي كندا بـ ٢٥٩٧ . واظهر التعداد السكاني لعام ١٩٧٥ في الكويت ان ٢٤٧٧٦ لبنانيا يقيمون في الكويت بينهم نسبة ١٦,٨ بالمائة من القوى البشرية الرفيعة المستوى .

ومع نمو الاقتصاد اللبناني حصل تدفق من الايدي العاملة اليه تضمن نسبة كبيرة من الاختصاصيين . وفي ١٩٧٣ مثلا منحت الحكومة ١٩٢٣٠ اجازة عمل لغير اللبنانيين ، من اصلها ٢٨٠٤ اجازات لقوى عاملة رفيعة المستوى[١٨] . ولم يشهد اي من البلدان العربية باستثناء البلدان المنتجة للنفط ، مثل هذا التدفق من القوى العاملة الرفيعة المستوى . ان تجربة الاقتصاد اللبناني هي تجربة فريدة من نوعها في المنطقة . ففي ظل اقتصاد السوق الكلي ، الذي غالبا ما وجه اليه النقد لكونه ليبراليا للغاية ، وتدفق رؤوس الاموال والاستثمار ، ونفسية اللبناني التجارية الطموحة ، اتبعت الحكومة اللبنانية سياسة عدم التدخل ازاء هجرة الكفايات والهجرة عموما . ولم تتخذ أية تدابير خاصة لترغيب الاختصاصيين اللبنانيين في العودة الى البلاد او لابقائهم فيها .

وقد أجهضت عملية النمو في لبنان في ١٩٧٥ مع بداية الحرب الاهلية المدمرة التي استمرت حتى تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٦ . وحدثت موجة كبيرة من الهجرة شملت الاف الاختصاصيين . وبالنظر الى عدة عوامل ، منها انعدام الاستقرار وفقدان الامن وانخفاض النشاط الاقتصادي وفقدان الثقة بالنسبة للتطورات في المستقبل ، يتجه العديد من الاختصاصيين الذين ارغموا على مغادرة البلاد للاقامة في الخارج على الاقل لعدة سنوات مقبلة . وهذا ما يؤدي الى تفاقم مشكلة هجرة الكفايات في لبنان ، لا سيما حينما ننظر الى اثر ذلك في تعزيز اتجاه الطلاب اللبنانيين الموجودين في الخارج على الاقامة في البلدان التي يدرسون فيها .

هـ) **سياسات البلدان المصدرة للنفط ازاءمشكلة هجرة الكفايات** : مع الارتفاع الاخير في مستوى الاستثمارات النفطية في المملكة العربية السعودية ودول الخليج ، استطاعت هذه البلدان توجيه قسم كبير من مداخيلها نحو التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وبدأت عملية بناء قومية شاملة . وعلى العموم ، انطلقت البلدان العربية المصدرة للنفط من مستوى تنمية منخفض في مطلع الخمسينات . وينطبق ذلك على مواردها البشرية وضعف عدد سكانها على حد سواء . وعليه ، ومع توفر الاموال من صادرات النفط ، كان على البلدان المصدرة للنفط وما يزال عليها ان تعتمد اعتمادا كبيرا على القوى البشرية « المستوردة » مع تركيز اكبر نسبيا على القوى البشرية المؤلفة من الاختصاصيين والعمال المهرة . وقد ادى ذلك الى تنشيط حركة تنقل القوى العاملة داخل المنطقة حيث هاجرت القوى العاملة من الاردن وسوريا ولبنان واليمن والعراق وبعض البلدان العربية وغير العربية الاخرى الى دول الخليج والمملكة العربية السعودية .

وكما تبين من الاجوبة على الاستبيان بشأن هجرة الكفايات ومن المناقشات مع المسؤولين في البلدان المصدرة للنفط (عولج موضوع العراق على حدة) ، لا تواجه هذه البلدان مشكلة هجرة كفايات بالنسبة الى مواطنيها . ومن الصعب ان لم يكن من المستحيل توقع حدوث مثل هذه المشكلة في هذه البلدان طالما أنها تقدم لمواطنيها الاكفاء الوظائف والمراكز الحساسة والمسؤولة ، وتدفع لهم رواتب

(١٨) مديرية الاحصاء المركزي ، كتاب الاحصاءات السنوية ، ١٩٧٣ ، ص ٩٣ .

عالية جدا تتراوح بين أربعة وعشرة أضعاف متوسط مستوى الاجور في البلدان الاخرى في المشرق العربي، مع السماح لهم، بشكل معين بتعاطي الاعمال التجارية الخاصة . الا انه من الملاحظ وجود حركة انتقال متزايدة في القوى العاملة في هذه البلدان حيث يغادر بعض الموظفين الاكفاء القطاع العام الى القطاع الخاص . وقد لوحظ هذا التطور بوضوح في الكويت ، حيث لم يعد الجهاز الحكومي قادرا بشكل ما على منافسة القطاع الخاص .

وبرغم التنوع في سياسات البلدان المصدرة للنفط ، فان السياسات التالية يمكن ان تنطبق بشكل ملائم على التدابير المتخذة في هذه البلدان بالنسبة الى القوى العاملة الرفيعة المستوى :

● تشدد هذه البلدان كثيرا على تنمية مواردها البشرية الوطنية عن طريق توسيع انظمتها التعليمية على كل المستويات ، ووضع برامج المنح الدراسية لطلابها في الجامعات العربية والاجنبية ، وانشاء جامعات وطنية ومؤسسات اخرى للتعليم العالي . ومن بين السياسات الضمنية التي تكمن وراء التركيز الخاص على تنمية القوى العاملة الوطنية الرفيعة المستوى ، الاهمية التي تعلقها هذه البلدان على قيام مواطنيها بالاشراف الفني والاداري على كل انواع الوكالات والاجهزة الحكومية .

● يتم اللجوء على نطاق واسع في البلدان المصدرة للنفط الى القوى العاملة الرفيعة المستوى « المستوردة » ومن الملاحظ ان كل بلد يتجه الى تنويع استخدامه للاختصاصيين الاجانب من عدد من البلدان العربية والاجنبية . فمثلاً تعتمد المملكة العربية السعودية والكويت (اكبر بلدين منتجين للنفط في استخدام غير الوطنيين على الاطلاق) كثيرا على القوى العاملة « المستوردة » : ٦٠,٤٪ في المملكة العربية السعودية ٩٧,٧٪ في الكويت من مجموع القوى العاملة هم من غير الوطنيين . وتنخفض هذه النسبة في فئة القوى العاملة الرفيعة المستوى الى ٣٩,٨ ٪ في المملكة العربية السعودية . وترتفع الى ٨٠,٦ ٪ في الكويت . وفي البحرين ارتفع عدد المهاجرين اليها من ٣٧٩٥٠ في ١٩٧١ الى ٥٢٢٣٧ في ١٩٧٦ ، وبلغ نسبة ٥٢ ٪ من مجموع القوى العاملة في ١٩٧٦ .

● مع ازدياد الطلب على القوى العاملة الرفيعة المستوى في البلدان المصدرة للنفط ، كما هي الحال ايضا في البلدان العربية الاخرى ، اعتمدت البلدان المصدرة للنفط سياسات اكثر تساهلا تجاه الايدي العاملة الاجنبية ، بدفعها رواتب اعلى وتأمينها في احيان كثيرة مرافق السكن وغيرها . وتشعر هذه البلدان أيضا بالحاجة الى تنسيق سياساتها في هذا المجال تحاشيا للتنافس المسبب للضرر . وقد بذلت محاولات جزئية لترغيب الاختصاصيين العرب المقيمين في البلدان الصناعية بالهجرة الى البلدان العربية المصدرة للنفط .

● تشير التقديرات المتوافرة عن عرض القوى العاملة والطلب عليها في البلدان المنتجة للنفط في عام ١٩٨٠ الى وجود نقص مقداره ٧٠٠ الف عامل من مختلف الفئات ، كالاختصاصيين والعمال المهرة وشبه المهرة . وهكذا ، ستظل حاجة البلدان المصدرة للنفط الى القوى العاملة المستوردة قائمة بل انها ستزداد مع تنفيذ خطط التنمية الحالية . وفي هذه الظروف ستواجه بلدان عربية اخرى اوضاعا اكثر صعوبة من جراء الضغوط والاغراءات بالهجرة التي تتعرض لها القوى العاملة المدربة لديها . وفي الوقت الراهن تستأثر هجرة الاختصاصيين العرب الى البلدان المتقدمة باهتمام يفوق الاهتمام بنزوح الاختصاصيين من البلدان غير المصدرة للنفط الى البلدان العربية المصدرة للنفط . وبالاضافة الى ذلك فان فرص العمل المتوافرة في المنطقة ستجتذب بعض الاختصاصيين العرب المقيمين في البلدان

المتقدمة ، الامر الذي سيساعد في الحد من نطاق هجرة الكفايات .

٦) **سياسات البلدان العربية الاقل نموا ازاء مشكلة هجرة الكفايات** : صنف اثنان من البلدان العربية المشرقية بين البلدان الاقل نموا ، باستعمال معيار الدخل المنخفض للفرد من السكان ، ونسبة الامية وانخفاض نسبة اهمية الصناعة الى الناتج القومي الاجمالي . وهذان البلدان هما اليمن واليمن الديمقراطية . ولاسباب عملية ، يستطيع المرء ايضا ان يعتبر سلطنة عمان في عداد البلدان الاقل نموا بصورة غير رسمية . وتتميز هذه البلدان ، بين امور اخرى ، بعدد ضئيل جدا من القوى العاملة الوطنية الرفيعة المستوى بالنسبة الى مجموع القوى العاملة . وهذا ما يعترف به البلدان على انه العقبة الرئيسية امام تطورهما الاقتصادي والاجتماعي . وقد بلغ مجموع عدد خريجي الجامعات العاملين مع الحكومة في اليمن في ١٩٧٤ ، ٦١٨ شخصا ،و٢٨٣ شخصا فقط اختصاصهم الرئيسي هو العلوم الطبيعية[١٩] . ومن خلال المناقشات مع المسؤولين الحكوميين في ١٩٧٥ قدر عدد خريجي الجامعات العاملين في اليمن الديمقراطية بحوالي ١٠٠٠ شخص ويفترض ان تكون التقديرات الخاصة بسلطنة عمان ادنى بكثير .

وبرغم اهتمام هذه البلدان برفع عدد اختصاصييها ، لا زال الانتساب الى الجامعات محدودا للغاية . وتقبل جامعة عدن حوالي ٦٠٠ طالب سنويا ، مقابل ٧٠٠ طالب ، من ضمنهم المستفيدون من المنح الدراسية يلتحقون بالجامعات خارج البلاد . وقد بلغ عدد الطلاب اليمنيين المنتظمين والمنتسبين في جامعة صنعاء ٧١١ طالبا في ٧٣ ـ ١٩٧٤ [٢٠] وبلغ عدد الطلاب العمانيين الذين يدرسون في الخارج ٣٧٤ طالبا فقط [٢١] .

ويواجه البلدان الاقل نموا في المنطقة تدفقا كبيرا من قوتهما العاملة الى الخارج ، قوامه من العمال وغير المهرة وشبه المهرة بالدرجة الاولى . ويتجه هذا التدفق نحو البلدان العربية المصدرة للنفط . ويهاجر بعض اليمنيين الى البلدان المتقدمة . وعلى الرغم من عدم توفر البيانات عن عدد هؤلاء المهاجرين ، فانهم يقدرون بحوالي ١.٣ مليون يمني[٢٢] ، وحوالي ٢٥٠ الف عامل من اليمن الديمقراطية . وتعمل نسبة كبيرة من القوى العاملة العمانية في دول الخليج والمملكة العربية السعودية . ورغم انخفاض العدد المطلق والمعدل النسبي للاختصاصيين الوطنيين في هذين البلدين ، فانهما يشهدان تدفقا في الاختصاصيين الى الخارج ، لاسيما من اليمن الديمقراطية ولكن هذا التدفق يتجه في معظمه نحو البلدان الاخرى في المشرق العربي .

ولوحظ أيضا ان عمان واليمن تلجآن الى القوى البشرية الاجنبية بما فيها العمال شبه المهرة ، لتلبية احتياجاتهما من القوى العاملة . ومن اصل ١٣٢ الفا من السكان الناشطين اقتصاديا العاملين في القطاع الحديث في عمان ، هناك فقط ٥٨.٥ الفا من العمانيين[٢٣] . وقد شكل الاجانب نسبة ٨٥ ٪

---

(١٩) اليمن . **كتاب الاحصاءات السنوية** . ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ، ص ١٨٨ .

(٢٠) **المرجع السابق** ، ص ١٧ .

(٢١) بيركس وسينكلر ، مشروع الهجرة الدولية . **سلطنة عمان** (الجزء الاول) ، .

(٢٢) ب . ن . غور هام . **التحدي الذي يطرحه توزع القوى العاملة في الشرق الاوسط** ، مطبوعة على الستنسل ، ١٩٧٧ .

(٢٣) بيركس وسنكلر ، **نفس المرجع السابق** ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

من العمال الاختصاصيين في القطاع الخاص في عمان في ١٩٧٤[٢٤] . وفي ١٩٧٤ ، اعطيت ٧٦٢٤ اجازة عمل للاجانب في اليمن[٢٥] . ويعتقد صانعو السياسة العامة ان عليهم اللجوء الى المزيد من العمال الاجانب من اجل الاضطلاع بخطة التنمية الراهنة .

٧) **الشعب الفلسطيني** : حوّل الاحتلال الاسرائيلي لاربعة اخماس فلسطين في عام ١٩٤٨ حوالي مليون فلسطيني عربي الى لاجئين . واسفرت حرب ١٩٦٧ عن احتلال فلسطين بكاملها بالاضافة الى اراض عربية اخرى ، وتشريد ما يزيد عن ٤٠٠ الف فلسطيني . وفي ١٩٧٤ كانت نسبة ١٨ ٪ من الفلسطينيين يعيشون في ٦٣ مخيما للاجئين في الضفة الغربية وقطاع غزة والاردن ولبنان وسوريا [٢٦] . وقدر العدد الاجمالي للفلسطينيين بـ ٣٫٣ مليونا في ١٩٧٧ ، بمن فيهم ١٫٧ مليون لاجيء مسجلين لدى وكالة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الادنى (الاونروا).

لقد ارغم الشعب الفلسطيني ، في ظروف قاسية جدا ، على الانتشار في البلدان العربية . اولا: بما ان هؤلاء حرموا من ممتلكاتهم ، فقد تركز اهتمامهم على التعليم . وتعتبر نسبة التحاق الطلاب بالجامعات الى مجموع السكان اعلى نسبة في الوطن العربي كافة . وثانيا : لقد شكل هؤلاء قسما كبيرا من تدفقات القوى البشرية داخل المنطقة وهجرة الكفايات من الوطن العربي . ويعيش حوالي ٢١٠ الاف فلسطيني في البلدان العربية المصدرة للنفطة ، و « يوجد ٢٥ الفا في الولايات المتحدة ، و٢٥ الفا آخرون في البلدان الاخرى »[٢٧] .

اسباب هجرة الكفايات

ان أسباب هجرة الكفايات واحدة بالنسبة لجميع البلدان النامية تقريبا . وينطبق ذلك ايضا على البلدان العربية . ولما كانت اسباب هجرة الكفايات من البلدان النامية الى البلدان المتقدمة ، بصفة عامة ، قد نوقشت باسهاب في المؤلفات الاقتصادية خلال العقدين الماضيين ، فسوف نعالجها باختصار في هذه الدراسة . وكما هي الحال في البلدان النامية الاخرى ، فان هناك العديد من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والادارية المعقدة والمتشابكة تدفع الى هجرة القوى البشرية الفنية والماهرة من البلدان العربية الى البلدان المتقدمة . ويمكن تقسيم هذه العوامل الى عوامل « دفع » وعوامل « جذب » . ومن بين عوامل « الدفع » التخلف الاقتصادي والاجتماعي ، وعدم وجود سياسات فعالة للقوى البشرية والعمالة ، وانخفاض المرتبات ، وعدم الاستقرار السياسي والضغط السياسي ، وفساد الهيكل الاداري ، وظروف العمل الصعبة ، ونظام التعليم السائد ، والخدمة العسكرية . ومن ناحية أخرى ، فان ارتفاع المرتبات ومستويات المعيشة ، ووجود فرص اكبر للعمالة ، وآفاق للمستقبل اكثر اشراقا ، وارتفاع درجة التطور العلمي والتقني ، الخ ، تعمل على « جذب »

---

(٢٤) **نفس المرجع السابق** ، ص ٤٦ .

(٢٥) اليمن ، **كتاب الاحصاءات السنوي** ، **نفس المرجع السابق** ، ص ١٨٢ .

(٢٦) منظمة التحرير الفلسطينية ، **التقرير السنوي الفلسطيني** ، المقدم الى مؤتمر الموئل : مؤتمر الامم المتحدة للاستيطان البشري ، ١٩٧٦ ، ص ٥٠ .

(٢٧) منظمة التحرير الفلسطينية ، **التقرير الوطني الفلسطيني** المقدم الى مؤتمر الموئل : مؤتمر الامم المتحدة للاستيطان البشري ١٩٧٦ ، ص ٣٩ .

الفنيين الى البلدان المتقدمة . وواضح ان قرار الهجرة لا يأتي نتيجة عامل واحد فقط من هذه العوامل بل نتيجة تفاعل بين بعض هذه العوامل او كلها[٢٨] . وليس كل عوامل « الدفع » موجودة في البلدان النامية ولا كل عوامل « الجذب » موجودة في البلدان المتقدمة . وعلى سبيل المثال ، فان الروابط الاسرية والمشاعر الوطنية للمرء نحو بلده تشكلان عاملي جذب قويين في البلدان العربية ، في حين ان اختلاف القيم الثقافية قد يشكل عامل « دفع » في البلدان المتقدمة . غير انه عند اتخاذ قرار الهجرة ، تتغلب عوامل « الدفع » على عوامل « الجذب » في وطن المرء والعكس بالعكس . وأخيرا ، تجدر الاشارة الى ان عوامل « الدفع » و « الجذب » وان كانت سائدة بصفة عامة ، في البلدان النامية والمتقدمة ، فهي ليست متماثلة بل تختلف من بلد لاخر ومن فترة لاخرى تبعا لمستوى التنمية في البلاد وهيكلها المؤسسي والاجتماعي وثقافتها[٢٩] .

١) **عوامل الدفع الاقتصادي** :

(أ) **التخلف** : يشكل التخلف عاملا رئيسيا يبعث على هجرة الكفايات . اذ أن الاقتصاد في بلد نام يعاني عادة من مختلف الاختناقات ، والافتقار الى التنسيق بين مختلف قطاعات الاقتصاد ، والمركزية الزائدة ، والنقص في فرص العمالة ، الخ . ويقترن التخلف الاقتصادي بتخلف اجتماعي أيضا . ويتضافر الاثنان على اشاعة الشعور بعدم الرضا بين الايدي العاملة الماهرة ، ويؤديان بها الى الاحساس باللامبالاة وبالغربة في مجتمعها ويدفعانها الى الهجرة . ومن ثم « ترتبط اسباب تدفق الموظفين المدربين الى الخارج ارتباطا وثيقا بمشكلة التنمية الاجتماعية والاقتصادية للبلاد »[٣٠] . وان كان التخلف يشكل عاملا اساسيا في تدفق الموظفين المدربين الى الخارج ، الا انه نتيجة جزئية ايضا لهذا التدفق . ذلك ان الايدي العاملة الفنية والماهرة اذ تترك وطنها انما تحرمه من القادة الذين يدفعون الى التغيير والذين يبادرون بتحريك عملية التحديث . وعلاوة على ذلك ، يكون لهجرتهم الى الخارج اثر سلبي على النظام الاكاديمي وعلى نوعية الخدمات التي يقدمها هؤلاء الاشخاص المدربون . وعلى سبيل المثال « كان لفقدان الاطباء اثر خطير على الخدمات الصحية وعلى انشاء معاهد طبية جديدة ايضا » في البلدان العربية[٣١] . وبالمثل كان لهجرة المهندسين والعلماء الى الخارج آثار سلبية خطيرة .

(ب) **البطالة والعمالة الناقصة** : قبل عام ١٩٧٣ ، كانت البطالة والعمالة الناقصة تجتاحان معظم البلدان العربية غير المصدرة للنفط . وفي الحقيقة ، « كان السبب الرئيسي للهجرة في العالم العربي هو عدم القدرة على العثور على عمل مناسب »[٣٢] . وكشفت دراسة عن خريجي كلية التجارة بجامعة حلب في سورية في اعوام ١٩٦٤ و ١٩٦٥ و ١٩٦٦ ، بصفة عامة ، ان الخريجين ظلوا عاطلين لفترة تبلغ في المتوسط ٩,٤ شهور قبل العثور على وظيفة وان حوالي ١٠ في المائة من الخريجين

---

(٢٨) معهد الامم المتحدة للتدريب والبحث ، **هجرة الكفايات من خمس بلدان نامية** (نيويورك ، الامم المتحدة ، ١٩٧١) ص ١٤ .

(٢٩) جريجوري هندرسون ، **هجرة القوى العاملة ذات المهارات العالية من البلدان النامية** . (نيويورك ، معهد الامم المتحدة للتدريب والبحث ، ١٩٧٠) .

(٣٠) معهد الامم المتحدة للتدريب والبحث ، **هجرة الكفايات من خمس بلدان نامية** ، المرجع نفسه ، ص ٩١ .

(٣١) **المصدر نفسه** ، ص ٩١ .

(٣٢) **المصدر نفسه** .

كانوا متعطلين وقت ان كان السيد سلاح يجري دراسته[٣٣] . وفي الاردن ، تصل البطالة الى اعلى مستوى بين خريجي المدارس الثانوية والجامعات ولا سيما في ميدان العلوم الانسانية[٣٤] . والحال كذلك ايضا في لبنان .

وتعد البطالة السافرة والمقنعة في البلدان العربية نتيجة للتوسع الكمي الكبير في نظام التعليم وفي عدد الخريجين ، الذي سبق التوسع في مستوى النشاط الاقتصادي . « وقد تميزت التنمية الصناعية في الشرق الاوسط ، ككل ، ببطء شديد وكانت فرص العمالة محدودة في هذا القطاع »[٣٥] . ورغم ان القطاع الزراعي هو اهم قطاع في جميع البلدان العربية غير المصدرة للنفط تقريبا ويستخدم الجزء الاكبر من القوة العاملة ، الا أنه لا يزال في مرحلة تقليدية . ومن ثم لا يستوعب سوى عدد ضئيل من الايدي العاملة الفنية والماهرة ، ويعكس ظاهرة البطالة المقنعة الى حد كبير . ويتجلى ذلك بوضوح في سورية حيث ازداد عدد العمال في القطاع الزراعي بنسبة ٤٩ ٪ بين عامي ١٩٦٠و ١٩٧٠ ، في حين هبطت قيمة الانتاج الزراعي من ١٤٠٠,٧ مليون ليرة سورية في عام ١٩٦٣ الى ١٣٧٢,٩ مليون ليرة سورية (بالاسعار الثابتة) في عام ١٩٨٠. كما نقصت المساحة الزراعية المستغلة من ٣٤٨٠ مليون هكتار في عام ١٩٦٠ الى ٣٢٩٩ مليون هكتار في عام ١٩٧٠[٣٦] .

وتتضح العمالة الناقصة والاستخدام الناقص للمهارات من كون ان ٣٥ ٪ من قوة العمل المشتغلة في الاردن من حملة الدرجات الجامعية يعملون في وظائف لا تتطلب مثل هذه الدرجات بسبب النقص في فرص العمالة المناسب[٣٧] . وان احتياج الشخص ذى المهارة العالية لقبول نوع من العمل ادنى من قدراته يسبب اضعافا شديدا للروح المعنوية .

ويعتقد بصفة عامة ان القدرة الاستيعابية المحدودة للاقطار العربية على استخدام الايدي العاملة ذات المؤهلات العالية في النشاطات الاقتصادية وغيرها ، كانت العامل الرئيسي وراء هجرة الكفايات ، ولا سيما قبل الزيادة الكبيرة في عائدات النفط في عام ١٩٧٣[٣٨] .

(ج) **انخفاض الرواتب وتفاوتها داخل القطر** : يشكل التفاوت الواسع في مستويات الرواتب بين البلدان المتقدمة والبلدان المصدرة للنفط في الوطن العربي من ناحية، والبلدان غير المصدرة للنفط من ناحية أخرى ، عاملا ضارا يدفع على هجرة الكفايات . وتفيد بعض التقديرات ان ذوي الاختصاصات العلمية والاطباء والمهندسين يتقاضون في عدد من البلدان المتقدمة عشرة امثال ما يتقاضونه في البلدان العربية والبلدان النامية الاخرى[٣٩] . فقد كان صافي الراتب الشهري لحامل درجة الليسانس في الاداب في سورية في عام ١٩٧٥ : ٤٩٠ ليرة سورية ، وصافي الراتب الشهري

---

(٣٣) شفيق سلاح ، « **البطالة المقنعة ووسائل استئصالها** » ، **ندوة حول آثار التغييرات السكانية على الاحصاءات والتخطيط** ، تموز/يوليو ـ آب/اغسطس ١٩٧٤ ، ص ٢١

(٣٤) هذه المعلومات مستقاة من احاديث من المسؤولين الحكوميين .

(٣٥) معهد الامم المتحدة للتدريب والبحث ، « **هجرة الكفايات من خمس بلدان نامية** » . المرجع نفسه ، ص ٨٩ .

(٣٦) شفيق سلاح ، **المرجع نفسه** ، ص ١٢ .

(٣٧) دائرة الاحصاءات العامة ، **مسح القوى العاملة ١٩٧٠** ، آذار/مارس ١٩٧٢ ، ص ١١٧ .

(٣٨) لمزيد من التفاصيل عن هذه الفكرة ، انظر نضر الاتاسي « استيعابية سوق العمل ونمط استخدام القوى العاملة في التخطيط » ، **المهندس العربي** ، شباط/فبراير ـ آذار/مارس ١٩٧٣ .

(٣٩) الياس زين ، **هجرة الادمغة العربية** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٩١ .

لحامل درجة الماجستير في الاداب ٥٢٥ ليرة سورية وحامل درجة الدكتوراه ٦٠٠ ليرة سورية[٤٠] . وحتى في العراق الذي هو بلد مصدر للنفط اظهرت دراسة بالعينة ان التفاوت في الرواتب يشكل العامل الرابع من حيث الترتيب من بين العوامل التي تدفع الخريجين على عدم العودة [٤١] . ويتعين أن تستند المقارنة بين مستويات الأجور الى الأجور الفعلية بغية اعطاء مؤشر صحيح للتباين في الدخل . غير ان معدل التضخم في البلدان العربية كان في السنوات الأخيرة اعلى من المعدل المتوسط في البلدان المتقدمة . والبدلات التي تقدمها الحكومات لتغطية الارتفاع في نفقات المعيشة ، منخفضة ولا تشكل تعويضا عن الزيادة الفعلية . فيتدهور مستوى معيشة الموظفين الاختصاصيين والماهرين ومن الطبيعي أن يشعروا بعدم الرضا . وليست الفجوة في الرواتب بين البلدان النامية والمتقدمة هي التي تقوم فقط بدور رئيس يدفع على الهجرة بل يلعب هذا الدور أيضا التفاوت في الرواتب داخل القطر الواحد . وفضلا عن ذلك ، فان الفوارق الكبيرة السائدة في الرواتب بين الاقطار العربية تفسر الى حد كبير تدفقات الاخصائيين من البلدان غير المصدرة للنفط الى المملكة العربية السعودية ودول الخليج .

(د) **عدم وجود سياسات فعالة للقوى البشرية والعمال** : لم يتم بعد معالجة سياسات فعالة لتخطيط القوى العاملة والعمالة بشمول وكفاية في المنطقة العربية . وهناك اختلاف كبير بين مجالات التخصص لمعظم خريجي الجامعات وبين الاحتياجات الفعلية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية . ومع العرض الزائد من خريجي الحقوق والعلوم الانسانية والنقص في الفئات الاخرى ، وخاصة ذوي الاختصاصات العلمية تتضح الحاجة الى وضع تخطيط للقوى العاملة . ذلك ان ٥٠ ـ ٦٠ ٪ من الطلبة العرب يتخرجون في الحقوق والعلوم الانسانية ، و١٠ ـ ١٤ ٪ يتخرجون في ادارة الاعمال والعلوم الاجتماعية ، و١٠ ـ ١٢ ٪ يتخرجون في التربية ، و٤ ـ ٦ ٪ في الطب ، و١٠ ٪ في الهندسة ، و٦ ٪ في العلوم الطبيعية[٤٢] . ويعتبر تخطيط القوى العاملة في الوطن العربي اداة بيانية وليس وسيلة للتأثير في العرض والطلب في مجال القوى العاملة . ذلك ان العرض الزائد من الخريجين في بعض ميادين التخصص هو نتيجة للنسبة الكبيرة من الطلبة العرب الذين يدرسون في الخارج على حسابهم الخاص دون اي اشراف حكومي . وفي الاردن ، نجد من ناحية العرض ان ٩٠ ٪ من الطلبة المقيدين في الجامعات موجودون خارج الاردن وان ٩٥ ٪ منهم يدرسون على حسابهم الخاص ولديهم الحرية في اختيار ميدان تخصصهم[٤٣] . ومن ناحية الطلب ، فان فرص العمل ليست كافية ولا مشجعة بدرجة تكفي لاجتذاب القوة البشرية المتوافرة .

(هـ) **المركزية الزائدة** : تعد المركزية الزائدة من المشاكل الرئيسية التي تواجه الوطن العربي والتي لها انعكاسات خطيرة . اذ ان مشاريع التنمية ، والمعاهد العامة والخاصة ، والجامعات ومعاهد التعليم العالي تتركز في اغلبيتها الساحقة في العواصم . وبالتالي ، فان فرص العمالة في المناطق الريفية محدودة للغاية . وقد اهملت المناطق الريفية اهمالا شبه تام في الوطن العربي . كما ان تخلفها النسبي عن المراكز الحضرية ، وافتقارها الى جميع انواع الخدمات ومراكز الترفيه ، وانخفاض مستوى

---

(٤٠) قدم الارقام مسؤولون حكوميون .

(٤١) الدكتور غانم حمدون وسالم الخميسي ، **مشكلة تخلف المبعوثين للدراسة عن العودة الى العراق بعد تخرجهم** (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠) ، نيسان/ابريل ١٩٧٣ .

(٤٢) أ . ب . زحلان ، « هجرة الكفايات العربية » ، **نشرة جمعية دراسات الشرق الاوسط** ، ١٩٧٢ ، ص ١ .

(٤٣) من احاديث مع المسؤولين الحكوميين .

المعيشة فيها ، كل ذلك يشترك في جعل القوى العاملة ذات المؤهلات العالية تمتنع عن قبول العمل هناك حتى ولو كان مناسبا . ومن ثم ، فان المرء يجد عرضا زائدا في مهن معينة في المراكز الحضرية ونقصا في هذه المهن في المناطق الريفية . حتى ان « ثلثي اطباء لبنان يقيمون في بيروت التي تضم ربع سكان لبنان فقط ، وان اللبنانيين في المناطق الاخرى في حاجة ماسة الى الاطباء وهناك هجرة كبيرة للكفايات[٤٤] . وبالتالي ، فان التحضر السريع للبلدان النامية والبلدان المتقدمة على السواء يرتبط ، فيما يبدو ، بهجرة الكفايات . وعادة ما تسبق الهجرة الى المراكز الوطنية الهجرة الى المراكز العالمية وان القيم فوق الوطنية للفنيين تنمو أول ما تنمو في المراكز الوطنية »[٤٥] .

٢) عوامل الدفع الاجتماعية والسياسية :

(أ) **عدم الاستقرار السياسي والضغط السياسي** : كان عدم الاستقرار السياسي في منطقة الشرق الاوسط عاملا هاما دفع الى هجرة الكفايات خلال الستينات . وقد ازدادت هجرة الكفايات العربية زيادة حادة منذ عام ١٩٧١ . وكان عدد خريجي الجامعات العربية المهاجرين الى الخارج في عام ١٩٦٧ اكثر من ضعف عددهم في عام ١٩٦٦ . في حين ان الهجرة المماثلة من العراق ولبنان وفلسطين والاردن وسورية ومصر الى الولايات المتحدة في عام ١٩٦٩ كانت مساوية تقريبا للتدفق الى الخارج خلال فترة السنوات الخمس من ١٩٦٢ الى ١٩٦٦ . ورغم عدم توافر ارقام حديثة عن هجرة ذوى المؤهلات العالية من اللبنانيين ، فمن المقدر انها قد ازدادت الى حد كبير منذ بداية الحرب الاهلية . وهناك اثر غير مباشر لعدم الاستقرار السياسي على هجرة الكفايات يظهر من خلال تأثيره السلبي على الاقتصاد وأثره العكسي على الانتاج والدخل والعمالة .

(ب) **العوامل الاجتماعية** : وثمة عامل هام آخر هو الصعوبة التي يصادفها الشخص ذو التعليم الاجنبي في ان يتكيف من جديد مع البيئة الاجتماعية في وطنه ومع قيم وتقاليد مجتمعه . ذلك ان الايدي العاملة ذات المؤهلات العالية ، وخاصة تلك التي تلقت تعليمها في الخارج ، لا تقبل « عدم احترام راحة المواطن ووقته وكرامته وفكره »[٤٦] ، وهو امر شائع في معظم البلدان العربية ان لم يكن كلها . وفضلا عن ذلك ، هناك عوامل اجتماعية اخرى مثل عدم مرونة نظام التنقل الاجتماعي ، وارتفاع تكاليف الزواج في البلدان العربية ، والانتماء الى جماعات اقلية . وعلى سبيل المثال ، فان « المسيحيين في الشرق الاوسط على استعداد من الناحية الثقافية لقبول الانماط الغربية وتقليدها ، ومن ثم يهاجرون الى الغرب ويستوطنون هناك بأكثر مما يفعل الشيعة »[٤٧] . ورغم أن العوامل الاجتماعية تتغير بمرور الزمن ، الا انها تتجه نحو عدم تشجيع الاخصائيين على المشاركة بشكل كامل وفعال في مجتمعات المنطقة .

---

(٤٤) جريجوري هندرسون ، **هجرة القوى البشرية ذات المهارات العالية من البلدان النامية** . المرجع نفسه ، ص ٩٢ .

(٤٥) **المصدر نفسه** .

(٤٦) أ . ب . زحلان ، « تنمية القوى العاملة العربية كعامل تكامل في العالم العربي » ، ندوة التخطيط ، المجلس الاقتصادي للجامعة العربية ، القاهرة ، كانون الثاني/يناير ١٩٧٦ ، ص ١٢ .

(٤٧) فؤاد خوري ، « دراسة مقارنة لانماط الهجرة في قريتين لبنانيتين » ، **التنظيم الاجتماعي** ٢٦ ، ٢٠٦ (١٩٦٧) .

٣) عوامل الدفع الادارية :

(أ) **الهيكل الاداري البيروقراطي** : يشكل ضعف الهيكل الاداري واحدا من الملامح الرئيسية للبلدان المتخلفة . ذلك ان معظم النظم البيروقراطية العربية قد وضعت خلال فترة الاستعمار أو شكلت على نسق النظم البيروقراطية للامبراطورية العثمانية واحتفظت بهذا النسق . وتبعا لذلك ، فانها تتميز بمركزية شديدة وتعمل بقدر كبير من الاجراءات الروتينية . « وفي حالات عديدة فان الوزير وحده هو الذي يتخذ أي اجراء مهما كان تافها »[٤٨] . ومن شأن حرمان الموظفين ذوى المؤهلات العالية من المشاركة في عملية اتخاذ القرارات ومن شعورهم بالمسؤولية ان تتجمد قدراتهم على المبادرة وافكارهم الخلاقة وان يزداد شعورهم بعدم الرضا . وفضلا عن ذلك ، فان سياسات الترقية الجامدة والقائمة على الاقدمية لا على الكفاية تشكل مصدرا آخر من مصادر الشعور بعدم الرضا . ويلاحظ وجود محسوبية في التوظيف في البلدان العربية مثلما في البلدان النامية الاخرى ، وخاصة في الجهاز الحكومي . ومن شأن هذا العامل ان يؤدي بالاخصائيين الى الشعور بالخيبة وان يدفعهم الى الهجرة .

(ب) **ظروف العمل الصعبة** : تشمل ظروف العمل الصعبة في البلاد العربية من بين ما تشمل ، عدم المساعدين الاكفاء اللازمين لدعم اعمال ذوي الاختصاصات العلمية والاخصائيين ، والافتقار الى فرص التدريب اثناء العمل ، والافتقار الى المعدات الحديثة ، والتسهيلات المحدودة للبحث . ومن الواضح ان تأثير هذه العوامل كبير على هجرة الكفايات وخاصة الاخصائيين الاكثر كفاية . ويواجه ذوو الاختصاصات العلمية والاخصائيون العرب بعدد محدود للغاية من المختبرات ومراكز البحث ، والافتقار الى المكتبات المزودة بالكتب والمراجع والمجلات العلمية الحديثة ، وقلة المجموعات أو الجمعيات العلمية ، وندرة الندوات والاجتماعات والمؤتمرات العلمية . وتؤدي « عزلة » العالم هذه عن التطورات العلمية الحديثة في وقت يشهد فيه العلم تقدما سريعا ، الى ان تصبح معارفه قديمة . وبالتالي ، يشعر الباحثون والعلماء المؤهلون بعدم الرضا ومن ثم يضطرون للهجرة .

٤) عوامل الدفع الاخرى: نظام التعليم السائد :

يلاحظ بصفة عامة ان نظام التعليم السائد في الوطن العربي لا يتمشى كلية مع احتياجات التنمية لهذا الوطن من القوى البشرية المدربة . وتبلغ نسبة الطلبة الى المدرسين في الجامعات العربية ٥٠ الى ١ ، وتفتقر هذه الجامعات الى المكتبات الغنية والى المختبرات المجهزة تجهيزاً كاملا ، ولديها نسبة عالية من خريجي العلوم الانسانية . وقد ادت الزيادة « الكمية » السريعة دون « النوعية » في التعليم ، مقرونة بعدم كفايته لتلبية الاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية للوطن العربي ، الى العمالة الناقصة والى قدر من البطالة بين خريجي الجامعات ، مما يؤدي بدوره الى الهجرة للخارج[٤٩] . ورغم ان عدد الجامعات قد ازداد بشكل ملحوظ في العقدين الاخيرين ، فلا تزال طاقتها الاستيعابية محدودة نظرا لارتفاع نسبة نمو السكان وارتفاع الطلب على التعليم[٥٠] . وقد أدت الطاقة الاستيعابية المحدودة ، وكذلك عدم مناسبة نظام التعليم ، الى زيادة عدد الطلبة الذين يدرسون في الخارج من حوالي

---

(٤٨) أ . ب . زحلان ، المرجع نفسه ، ص ١٥ .

(٤٩) م . اديستشيا ، **هجرة الكفايات من العالم العربي** (القاهرة ، كانون الاول/ديسمبر ١٩٦٩) .

(٥٠) محمد ربيع ، هجرة الكفايات العلمية . الكويت ، جامعة الكويت ، ١٩٧٧ .

١٠٠٠٠ في اوائل الخمسينات الى حوالي ٤٠٠٠٠ في عام ١٩٧١ . والغالبية العظمى من هؤلاء الطلبة يدرسون على حسابهم الخاص ، ومن ثم لديهم الحرية في اختيار مجال التخصص دون اي اشراف حكومي او توجيه حسب احتياجات بلادهم . وفضلا عن ذلك ، لا توجد اية قنوات حكومية للاتصال بالطلبة الذين يدرسون بالخارج لمساعدتهم على حل مشاكلهم أو لاطلاعهم على الفرص المتوفرة في اوطانهم . وكل هذه العوامل الى جانب ان كثيرا من الطلبة يألفون الحياة في البلدان المتقدمة ، تسفر عن ارتفاع نسبة عدم العودة بين الطلبة العرب الذين يدرسون في البلدان الغربية المتقدمة .

٥) عوامل الجذب الاقتصادية :

كلما ازداد البلد تطورا ازداد الطلب على القوى العاملة ذات المؤهلات العالية ، ولان هذه ليست متوافرة بدرجة كافية في كثير من البلدان الاخرى . ومع ارتفاع مستوى المعيشة ووجود قدر اكبر من الاستقرار السياسي ومرافق اساسية اكاديمية على نطاق اوسع ، فان آفاق المستقبل بالنسبة للفرد وابنائه تبدو مبشرة . وتبدو البلدان المتقدمة ذات قدرة اكبر على الجذب لما لديها من تسهيلات ولتوفر زملاء العمل والموظفين المعاونين والقرب من التطورات الجديدة في الميادين الفنية . وزيادة على ذلك ، فان درجة التطور العلمي والتكنولوجي ، وتوفر مراكز البحث المزودة تزويدا كاملا بأحدث المعدات والمكتبات ، وتوفر الاموال اللازمة للبحث وما يحظى به العالم وابحاثه من تقدير ، كل ذلك يوفر ظروفا أخرى ذات قدرة على الجذب .

٦) عوامل الجذب الاجتماعية والسياسية :

يتكيف الكثير من الموظفين ذوي المؤهلات العالية مع ثقافة البلدان المتقدمة ومع قيمها الاجتماعية الاكثر تحررا ، ويجدون من الصعب التكيف من جديد مع البيئة الاجتماعية في بلادهم بعد الاقامة لعدد من السنوات في البلدان المتقدمة . كذلك فان الزواج من اجنبيات يعد سببا من اسباب ارتفاع معدلات الهجرة الى الخارج . اذ ان الزوجة الاجنبية تجد من الصعب عادة الاقامة في بلدان الوطن العربي بسبب قيمها التقليدية وهيكلها الاجتماعي . وان ممارسة التفرقة ضد المتزوجين من اجنبيات ، مثل اصدار مراسيم تحظر توظيف الاشخاص من المتزوجين من اجنبيات ، تمنع هؤلاء الاشخاص من العودة الى اوطانهم . ومن ناحية اخرى ، فان الزواج من اجنبية يسهل لهؤلاء الحصول على تصاريح بالاقامة أو الجنسية في البلد المتقدم .

٧) عوامل جذب اخرى :

تلعب قوانين الهجرة في البلدان المتقدمة دورا هاما في الحث على الهجرة وفي تحديد مصير المهاجر . اذ ان قانون الهجرة للكمنولث لعام ١٩٦٢ يوضح كيف ان من الممكن استخدام تشريع لوقف تدفق المهاجرين ، في حين ان قانون الهجرة للولايات المتحدة لعام ١٩٦٥ كان له ، في المقابل ، تأثير ادى الى زيادة تدفق الاخصائيين من البلدان النامية الى الولايات المتحدة . فهو قد الغى الحصة القائمة على اساس بلد المنشأ ووضع حدا لكل بلد قدره ٢٠٠٠٠ في السنة .

وتتميز سياسات الهجرة في كندا والولايات المتحدة واستراليا والمملكة المتحدة بأنها ذات طابع انتقائي ، وهي تحبذ الاشخاص الفنيين والمهرة ، وتعكس احتياجها لهذا النوع من الموظفين . وتشجع هذه السياسة على هجرة الكفايات من البلدان النامية ، بما فيها الوطن العربي .

نتائج الهجرة الكفايات

نعرض الان النتائج الاقتصادية لهجرة الكفايات وأثرها على الاقطار العربية التي تعاني من تسرب ذوي الكفايات العالية من قواها العاملة الى بلدان أخرى . وكما فعلنا في الصفحات السابقة من هذه الدراسة ، فاننا نميز هنا بين تدفق الاخصائيين من الاقطار العربية الى البلدان المتقدمة (هجرة الكفايات) والتدفق ضمن الاقطار العربية الاخرى ، وبصفة أساسية المصدرة للنفط . وفي حين ان نهج تحليل نتائج التدفق ينطبق على كلتا الحالتين ، فان تقييم هذه النتائج لا بد ان يأخذ في الاعتبار عوامل اخرى تميل الى الاختلاف في الحالتين . ويقتصر تقييم نتائج هجرة الكفايات هنا على المكاسب والخسائر الاقتصادية الناجمة عن هذه الظاهرة . وليس معنى ذلك الاقلال من تقدير النتائج الثقافية والاجتماعية وغيرها لهجرة الكفايات . بل ان النظر في النتائج الاقتصادية يساعد في وضع تقدير كمي للمكاسب والخسائر ومن ثم يقدم صورة مفيدة لمقدارها .

ويتمشى هذا النهج مع الدراسة التي وضعها مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية بعنوان « النقل العكسي للتكنولوجيا : ابعاده ونتائجه الاقتصادية وآثاره على السياسة العامة » [٥١] . واشارت الدراسة الى ان « تقييم نتائج النقل العكسي للتكنولوجيا (هجرة الكفايات) يثير عددا من القضايا النظرية . وان البحث المستفيض في هذا المجال يتطلب تقييما للتدفقات في اطار ديناميات الهجرة ، أي اثرها على النمو ، وتخصيص الموارد ، وتوزيع الدخل ، والقدرة التكنولوجية المحلية ، وعدد كبير من النتائج الاجتماعية التي تتجاوز اعتبارات الرفاهية الاقتصادية البحتة » [٥٢] . غير ان المنهج المستخدم في هذه الدراسة له هدف محدود . وسوف ينصب التركيز فقط على المكاسب والخسائر في الدخل ، التي تشكل مجرد جزء من جملة نتائج ظاهرة هجرة الكفايات .

ويمكن للمرء ان يحلل نتائج هجرة الكفايات من حيث الاثر النوعي الذي يحدثه توفر او عدم توفر القوة البشرية العالية الكفاية على قوة الدفع الانمائية في بلد من البلدان . ويشمل هذا الاثر ، كما اشرنا سابقا ، جوانب تتعلق بالفجوة التكنولوجية ، وفعالية التخطيط ، واداء الجهاز الحكومي ، وبناء المؤسسات ، والبحث والتدريب ، والتعجيل بالتصنيع وتحديث الزراعة .

والعوامل الخاصة التي تؤخذ عادة في الاعتبار لدى تقدير النتائج الاقتصادية لهجرة الكفايات هي كما يلي[٥٣] : مكاسب وخسائر الدخل ، حيث يستخدم مصطلح « الدخل » للدلالة على القيمة المخصومة الحالية للمداخيل المتوقعة في المستقبل ؛ الوفورات او المنافع الخارجية ، المكاسب او الخسائر الرأسمالية المحتسبة ، حيث تعتبر القيمة الرأسمالية المحتسبة للمهاجر في بلد متقدم هي قيمة الرسملة لاجمالي المداخيل المتوقعة للمهاجر في بلد المهجر مصححة بالنسبة للوفورات الخارجية والمكاسب الحدية الداخلية .

وهناك دراسات اخرى تأخذ في الاعتبار التكاليف التي يتحملها البلد النامي مقابل تدريب مهاجريه الاخصائيين . وفي بعض الحالات ، تجري الاشارة الى التحويلات المالية للمهاجرين الى البلد الذي نشأوا فيه وايرادات الضريبة المتحصلة على دخولهم في البلد المضيف . وتقدم الاقسام التالية

---

(٥١) مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية ، TD/B/C.6/7 ، ١٣ تشرين الاول/أكتوبر ، ١٩٧٥ .

(٥٢) المصدر نفسه .

(٥٣) مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية ، المصدر نفسه ، الصفحات ٥٢ ـ ٣٧ .

عرضا لاهم النتائج الاقتصادية لهجرة الكفايات .

١) **كلفة التدريب** : قدرت هجرة الكفايات من المشرق العربي الى البلدان المتقدمة في صفحات سابقة من هذه الدراسة بنحو ٤٠٠٠ اخصائي سنويا . وقد امضى هؤلاء الاخصائيون من ٤ الى ٨ سنوات في التعليم الجامعي . ورغم ان هذه الدراسة تتناول فقط كلفة التدريب الجامعي ، فان هناك دراسات اخرى عن هجرة الكفايات قد تشمل ايضا السنوات الاثنتي عشرة من التعليم حتى اتمام المرحلة الثانوية(٥٤) .

ويتولى القطاعان العام والخاص تمويل الجانب الاكبر من التعليم الجامعي في البلاد العربية ، في حين يتولى الطلبة مباشرة تمويل جزء صغير منه . واذا افترضنا ان كلفة التعليم الجامعي لعام واحد تبلغ في المتوسط نحو ٥٠٠٠ دولار امريكي(٥٥) ، وان متوسط التدريب الجامعي للاخصائيين المهاجرين الى الخارج هو خمس سنوات ، فان كلفة التدريب الجامعي لهجرة الكفايات من البلاد العربية تبلغ ١٠٠ مليون دولار سنويا(٥٦) .

٢) **فقدان المنافع المباشرة** : بالنسبة للمهاجرين الافراد ، يتخذ قرار الهجرة من بلد عربي نام في ضوء عدد من عوامل « الدفع » و « الجذب » تشكل الفوارق في الدخل عاملا هاما من بينها . وتؤدي الهجرة الى كسب في الدخل بالنسبة للمهاجر ولكنها تؤدي الى خسارة في الدخل بالنسبة للبلد الذي نشأ فيه . وسوف نعرض لحساب مكاسب الدخل للبلدان المتقدمة وخسائر الدخل للبلدان العربية وذلك في مكان لاحق . والقول بأن هجرة الكفايات من البلدان النامية يمثل بالفعل عرضا زائدا في ضوء البطالة بين خريجي الجامعات في هذه البلدان ، لا ينطبق في حالة المنطقة العربية . وكما بينا من قبل ، فان البلدان العربية المصدرة للنفط تحتاج الى مهاجرين على كفاية عالية في حدود ١٨٠٠٠ سنويا .

٣) **الخسارة في الوفورات الخارجية** :ان اهم خسارة تعود على الاقطار العربية من هجرة الكفايات هي الخسارة في الوفورات الخارجية وخاصة في ضوء احتياجاتها من القوى العاملة المدربة . وتحت هذا العنوان ، يؤخذ في الاعتبار أثر هجرة الكفايات على قوة الدفع الانمائية للاقطار العربية . ومثلما هي الحال في البلدان النامية الاخرى ، فان الخسارة في الوفورات الخارجية في الاقطار العربية والناجمة عن هجرة الكفايات اعلى من المكاسب في البلدان المتقدمة المترتبة على الوفورات الخارجية(٥٧) . وتستند هذه الدراسة الى تقرير مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية في تقدير الخسائر والمكاسب العائدة من الوفورات الخارجية .

المنافع التي تحققها البلدان المضيفة : يعكس التفاوت في الدخل بالنسبة لمهاجر ما ، بين البلدان المتقدمة والنامية بموجب افتراضات معينة ، فوارق في الانتاجية الحدية للمهاجر . ذلك ان

---

(٥٤) انظر ، على سبيل المثال ، القطر العربي السوري وهجرة العقول ، **المهندس العربي** ، العدد ٣٧ ، ايلول/سبتمبر ـ تشرين الاول/اكتوبر ١٩٧١ ، الصفحات ١٧ ـ ١٩ .

(٥٥) يتميز هذا التقدير بالتحفظ في ضوء التعليم الجامعي لرعايا المشرق العربي في البلدان المتقدمة ، وارتفاع كلفة التدريب في الكليات التقنية ، والتدريب الباهظ التكاليف في الجامعات الوطنية في الاقطار المصدرة للنفط .

(٥٦) ان كلفة التدريب ليست مركبة ، كما ينبغي أن تكون ، بنسبة معينة من الفائدة . ومن ثم ، فان التقدير الوارد اعلاه يعد تقديرا بالناقص .

(٥٧) مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية ، **المرجع نفسه** ، ص ٢٥ .

الدخل الزائد الذي يتحصل عليه المهاجر في البلد المتقدم يعكس بالفعل الكسب الاضافي في دخل الفرد المهاجر او صافي الكسب في دخل الفرد. ولدى تصحيح هذا الكسب لاخذ الوفورات الخارجية والاثار الاخرى في الحسبان ، فانه يعكس صافي الكسب في الدخل لذلك البلد المتقدم والعائد من مهاجر واحد . ويحسب صافي الكسب في الدخل من هجرة الكفايات بضرب صافي الكسب في الدخل للمهاجر في مجموع تدفقات الهجرة[٥٨] . ولا تقتصر المزايا التي تحققها البلدان المتقدمة على صافي المكاسب في الدخل والوفورات الخارجية . اذ ان تدفق القوى البشرية العالية الكفاية يعمل على اثراء ما لدى البلد المتقدم من عوامل انتاج دون ان تتحمل بالضرورة كلفة التعليم والتدريب الجامعيين لمثل هذا التدفق . وتبعا لذلك ، تؤدي هجرة الكفايات الى كسب اضافي للبلد المتقدم في شكل قيمة رأسمالية محتسبة للمهاجر .

وقد قدر تقرير مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية عن « النقل العكسي للتكنولوجيا » المكاسب التي حققتهاثلاثة بلدان متقدمة ، هي الولايات المتحدة وكندا والمملكة المتحدة ، من هجرة ٢٣٠,١ الف مهاجر ذي كفاية خلال الفترة ١٩٦١ ـ ١٩٧٢ كما يلي : يبلغ صافي الكسب في الدخل ، بعد تصحيحه لاخذ الوفورات الخارجية في الحسبان ، ٤٤,٤ مليار دولار . ويمثل ذلك تحويلا كبيرا للدخل من البلدان النامية ، وخاصة في آسيا ، الى هذه البلدان المتقدمة الثلاثة ، و تبلغ القيمة الرأسمالية المحتسبة لهجرة الكفايات الى هذه البلدان الثلاثة ٥١ مليار دولار خلال الفترة ١٩٦١ ـ ١٩٧٢ .

٥) **المنافع التي تحققها بلدان المنشأ** : يطرح خفض البطالة في البلد النامي على انه مكسب لان المنتجات الحدية والاجتماعية والخاصة للعاطل تساوي صفرا . على انه « يبدو من المقبول القول بأن الانتاجية الاجتماعية الحقيقية لهؤلاء الاخصائيين العاطلين ليست صفرا ، وأنه لولا الفرصة المتاحة للهجرة لكان هناك ميل اكبر الى الهجرة من المراكز الحضرية الى المناطق الريفية حيث تكون انتاجيتهم الاجتماعية عالية حقا »[٥٩] . وبالنسبة للوطن العربي ككل ، لا توجد اية بطالة كبيرة بين الاخصائيين ، وخاصة بعد عام ١٩٧٣ . ومن ثم فانه مهما كان وزن الحجة الواردة اعلاه ، فان خفض البطالة بين الاخصائيين لا يمثل ميزة للاقطار العربية تترتب على هجرة الكفايات .
والمنفعة الثانية أو الكسب الثاني الذي يتناوله النقاش عادة على انه يترتب للبلدان النامية من هجرة الكفايات هو عائدات النقد الاجنبي من التحويلات المالية التي يمكن ان يحولها الاخصائيون من رعايا هذه البلدان من الخارج . وفي حالة الوطن العربي ، فان التحويلات المالية الخاصة من المهنيين الوطنيين المقيمين في البلدان المتقدمة ليست كبيرة . وان اي كسب من هذا المصدر لا يغير من نتيجة هذه الدراسة عن الخسائر التقديرية في الدخل والقيمة الرأسمالية المحتسبة والناجمة عن هجرة الكفايات من البلدان العربية .

وثمة كسب ثالث يمكن ان ينجم عن الهجرة العكسية سواء كانت مستحثة او طوعية . اذ ان « اثر المهاجرين العائدين ... من شأنه زيادة دخل البلدان النامية ، ومن المرجح ان تزداد امكانيتها لتوليد وفورات خارجية نتيجة للعمل والدراسة في الخارج »[٦٠] . وتعد سياسة العراق نحو حث

---

(٥٨) **المرجع نفسه** ، الصفحتان ١٨ و١٩ .
(٥٩) **المصدر نفسه** ، المرفق جيم ، ص ١٠ .
(٦٠) **المصدر نفسه** ، المرفق جيم ، الصفحتان ١١ ـ ١٢ .

الاخصائيين العراقيين وغيرهم من العرب المقيمين في البلدان المتقدمة على العودة مثلا جيدا على الهجرة العكسية المستحثة . وسوف تسفر عودة ذوي الاختصاص الى العراق عن كسب اقتصادي طالما احتفظ بهم هناك وتوفرت لهم فرص مناسبة وكافية للعمل .

٦)**التقدير الكمي لكلفة هجرة الكفايات** : عرض التحليل السابق مختلف العوامل التي تؤخذ في الاعتبار عند حساب المكاسب والخسائر الناجمة عن هجرة الكفايات . غير انه من المهم تجنب العد المزدوج لدى تقديم تقديرات كمية لهذه الاثار الاقتصادية . وعلى سبيل المثال ، جرى التمييز بين العوامل الرئيسية التالية في تقدير المكاسب او الخسائر الاقتصادية : ككلفة التدريب ؛ صافي مكاسب الدخل نتيجة للفوارق في الدخل ؛ القيمة الرأسمالية المحتسبة للمهاجرين ؛ الوفورات واي اثر مماثل . وفي الحقيقة ، هناك تداخل بين هذه العوامل . وتعادل القيمة الرأسمالية المحتسبة للمهاجر في البلد المتقدم قيمة الرسملة لاجمالي ارباحه المتوقعة في ذلك البلد بعد تصحيحها لاخذ الوفورات الخارجية والآثار المماثلة في الاعتبار. وهكذا ، تؤخذ العوامل الواردة اعلاه في الاعتبار عندما ننظر في القيمة الرأسمالية المحتسبة للمهاجر . ومن المتوقع انه كلما ارتفعت كلفة التدريب (الحقيقية) ، ازدادت القيمة الرأسمالية المحتسبة للمتدرب . لذلك يحتاج المرء لدى تقييم المكاسب والخسائر الناجمة عن هجرة الكفايات ، الى التركيز على القيمة الرأسمالية المحتسبة للمهاجرين فقط .

وكما ذكرنا من قبل ، تقدر هجرة الكفايات العربية الى البلدان المتقدمة بـ ٤٠٠٠ سنويا . وتستخدم هذه الدراسة ، في تقدير الكلفة او الخسائر التي تلحق بالوطن العربي نتيجة لهذه الهجرة للكفايات ، المنهج ذاته المستخدم في تقرير مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية عن « النقل العكسي للتكنولوجيا » . وقد وجد في هذا التقرير ان القيمة الرأسمالية المحتسبة للمهاجر تختلف من بلد لاخر ، بما في ذلك البلدان المتقدمة ذاتها ، ومن مهنة لاخرى[٦١] . واذا افترضنا ان التركيب المهني لهجرة الكفايات العربية مماثل تقريبا للتركيب المهني لمجموع هجرة الكفايات من البلدان النامية ، فمن الممكن عندئذ استخدام الارقام الواردة في تقرير مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية في تقدير خسائر البلدان العربية من هجرة الكفايات . ويقدر متوسط القيمة الرأسمالية المحتسبة للمهاجر في هذا التقرير بمبلغ ٢٢٠٣٦٧ دولاراً [٦٢] . وعليه فإن القيمة الرأسمالية المحتسبة لهجرة الكفايات العربية ، استنادا الى هذا التقدير ، تبلغ ٨٨١,٥ مليون دولار سنويا . وبعبارة اخرى ، هناك تمويل سنوي للموارد الانتاجية في شكل قوة بشرية عالية الكفاية من الوطن العربي الى البلدان المتقدمة يقدر بنحو ٨٨١,٥ مليون دولار . ومن المفهوم ان القيمة الرأسمالية المحتسبة لذوي الاختصاص اقل في المنطقة العربية منها في البلدان المتقدمة نظرا لانخفاض متوسط الدخول . غير اننا استخدمنا « السعر الاعلى » في التقدير الوارد اعلاه لخسائر المنطقة العربية . التي تعادل ـ استنادا الى التحليل السابق ـ مكاسب البلدان المتقدمة الناتجة عن تدفق الاخصائيين المواطنين لدول المنطقة العربية[٦٣] .

٧) **نتائج تدفقات الايدي العاملة ذات المؤهلات العالية فيما بين الاقطار العربية** : يمكن اعتماد المنهج ذاته المطبق في تحليل الاثار الاقتصادية لهجرة الكفايات وذلك في تقييم النتائج

---

(٦١) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٦٢) ٥٠٨٦٧ مليون دولار مقسومة على العدد الكلي للمهاجرين وهو ٢٣٠٨٢٩ . المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٦٣) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

الاقتصادية لتدفقات ذوي الاختصاص داخل الوطن العربي .

بالنسبة للبلدان الخليجية المصدرة للنفط ، فان المكاسب العائدة من هذه التدفقات تشمل عوامل مثل القيمة الرأسمالية المحتسبة للمهاجرين ، وصافي عائدات الدخل ، وأهم من ذلك كله الوفورات الخارجية . أما بالنسبة لبقية بلدان المشرق العربي ، فان الخسائر تشمل كلفة التعليم ، وفقدان المداخيل والقيمة الرأسمالية المحتسبة للمهاجرين وكذلك الوفورات الخارجة . الا ان المرء ، كما أوضحنا سابقا ، يحتاج الى التركيز فقط على نقل الموارد الانتاجية ومن ثم يأخذ في الحسبان القيمة الرأسمالية المحتسبة لهجرة الكفايات . وقد قدرنا رصيد ذوي الاختصاص العاملين في البلدان المصدرة للنفط ورعايا البلدان العربية الاخرى بنحو ١٢٥,٠٠٠ . وفضلا عن ذلك ، سوف تحتاج البلدان المصدرة للنفط الى ٩٠٠٠٠ من المهاجرين ذوي المؤهلات العالية خلال الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ .

ويلاحظ ان التفاوت في الدخل بين البلدان المصدرة للنفط والبلدان العربية الاخرى كبيرة ويمكن ان تبلغ في المتوسط المقدار ذاته للتفاوت في الدخل بين البلدان النامية والمتقدمة . وعند تصحيح فوارق الدخل هذه بالنسبة للوفورات الخارجية ، وهي اعلى في البلدان المصدرة للنفط منها في البلدان المتقدمة ، فان القيمة الرأسمالية المحتسبة للمهاجر ستعادل على الاقل متوسط القيمة الرأسمالية المحتسبة للمهاجر في البلدان المتقدمة ، اي ٢٢٠,٣٦٧ دولاراً. وتبعا لذلك ، فان مجموع القيمة الرأسمالية المحتسبة للرصيد من الاخصائيين العرب في البلدان المصدرة للنفط يقدر بمبلغ ٢٧,٥٤ مليار دولار . واذا كان لمجموع احتياجات البلدان العربية المصدرة للنفط من القوى البشرية ذات المؤهلات العالية خلال الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ ، ان يلبى بواسطة رعايا البلدان العربية الاخرى فان مجموع القيمة الرأسمالية المحتسبة سيبلغ ١٩,٨٣ مليار دولار (لـ ٩٠٠٠٠ فني) .

غير ان هناك اسسا موضوعية تبرر التمييز الوارد في هذه الدراسة بين نتائج هجرة الكفايات العربية ونتائج تدفقات ذوي الاختصاص داخل الوطن العربي .

● ان مقدار التحويلات المالية لذوي الاختصاص العاملين في البلدان المصدرة للنفط اعلى بكثير من الناحية المطلقة وكنسبة مئوية من عائدات ذوي الاختصاص المعنيين . وعلى سبيل المثال ، بلغ مجموع التحويلات المالية من الاردنيين العاملين بالخارج (وليس ذوي الاختصاص فقط) ٤٢٥ مليون دولار في عام ١٩٧٦ ، اي ضعف عائدات الصادرات من السلع في ذلك العام . كما تتلقى البلدان العربية الاخرى تحويلات مالية كبيرة ، مثل اليمن ولبنان وسورية . وبالتالي ، فان التحويلات المالية الخاصة تعمل جزئيا على تعويض خسائر هذه البلدان الناجمة عن تدفق اختصاصييها الى البلدان العربية الاخرى .

● ان الهجرة « العكسية » او الهجرة « من والى » اكثر شيوعا في حالة تدفق ذوي الاختصاص داخل الوطن العربي منها في حالة هجرة الكفايات الى البلدان المتقدمة . ويعني ذلك الاقلال من حجم التقدير الوارد اعلاه لمجموع القيمة الرأسمالية المحتسبة لذوي الاختصاص المهاجرين الى البلدان العربية المصدرة للنفط . غير ان حجم التعديل لن يكون كبيرا .

● ينبغي اعتبار تدفق ذوي الاختصاص داخل الوطن العربي بمثابة تحرك لأحد عوامل الانتاج في الاطار الاوسع للتعاون والتكامل الاقليميين في مجال الاقتصاد . ومن بين المظاهر الاخرى للتعاون التحويلات الرأسمالية من البلدان المصدرة للنفط الى البلدان العربية الاخرى على شكل قروض ومنح

واستثمارات . ولا بد ايضا من النظر في هذه التحويلات ومقدارها وتقييمها في ضوء التقدير الوارد اعلاه للعائدات من تدفقات ذوي الاختصاص فيما بين الاقطار العربية .

التوصيات

تختتم معظم الدراسات التي تتناول مشكلة هجرة الكفايات ، سواء كانت ذات طبيعة وطنية او دولية ، بتقديم بعض التوصيات بشأن هذه المشكلة . وتتجه هذه التوصيات الى الجمع بين التدابير الهادفة الى مكافحة عوامل « الدفع » و« الجذب » واقتراح سبل التعاون في تصحيح الآثار الضارة التي تتركها هجرة الكفايات في البلدان النامية . وبما ان هذه الدراسة تتناول هجرة الكفايات العربية الى البلدان المتقدمة من جهة ، وحركة انتقال الكفايات العربية بين اقطار الوطن العربي من جهة ثانية ، جرى التفريق لدى تقديم عدد من التوصيات بين ثلاثة مستويات : المستوى الوطني ، والمستوى الاقليمي ، والمستوى الدولي . وبالاضافة الى ذلك ، جرى التركيز اثناء اقتراح هذه التوصيات على تدابير محددة وليس على توصيات شاملة وعامة تتعلق عادة بعوامل مثل الاستقرار السياسي والتركيز على التطورات الاقتصادية والاجتماعية . وهذا لا يعني بالتأكيد التقليل من أهمية هذه العوامل في مواجهة مشكلة هجرة الكفايات .

١) التوصيات على المستوى الوطني :

كما تبين من الصفحات السابقة ، تبنت بلدان المشرق العربي التي تعاني من مشكلة هجرة الكفايات سياسات مختلفة لمواجهتها . والفارق الرئيسي بين هذه السياسات يتوقف على درجة القيود المفروضة على تدفق كفاياتها الى الخارج وعلى الحوافز التي تقدمها لهم لابقائهم في البلاد . وعلى هذا الاساس ، هناك نهجان يكمنان وراء اية مجموعة من التوصيات . النهج الاول (تقييدي) ، يركز على مراقبة تدفق الكفايات الوطنية والحد منها ، والنهج الثاني (تشجيعي) ، يركز على استعمال الحوافز ويدرك المصاعب الناشئة عن التنفيذ الفعال للقيود مع الابقاء في ذات الوقت على انتاجية عالية نسبيا للقوى العاملة . وتوصي هذه الدراسة باعتماد النهج الثاني باعتباره اكثر فعالية . وقد تضمن تقرير حديث العهد عن هجرة الكفايات من الاردن[٦٤]، عددا من التوصيات التي تتفق مع النهج الثاني . وقدمت هذه التوصيات تحت العناوين الفرعية التالية : توفير الحوافز المادية والمعنوية للاختصاصيين الاردنيين للبقاء في الاردن ، تنظيم تدفق الاختصاصيين الاردنيين الى الخارج مع السعي للحد من نطاق هذا التدفق ، زيادة عرض الاختصاصيين في الاردن عن طريق التدريب والتدابير الاخرى ، القيام بالدراسات الضرورية لتخطيط القوى العاملة .

وتوصلت دراسة اخرى اعدتها اللجنة السورية[٦٥] الى اربع عشرة توصية تتوافق مع التوصيات الانفة الذكر . وتتضمن هذه التوصيات : استعمال النهج العلمي في اتخاذ القرارات ، واحترام آراء الاختصاصيين والتركيز على دورهم في التنمية ، والتقيد بالاقدمية والكفاءة في الترقية ، ورفع كل القيود عن حركة الاختصاصيين السوريين واقامته على قاعدة الانتاجية وتعديل انظمة خدمة العلم فيما يتعلق بالاختصاصيين واتخاذ التدابير لترغيب الاختصاصيين السوريين المقيمين في الخارج بالعودة الى البلاد .

---

(٦٤) تقرير اللجنة الفنية عن هجرة الكفايات . عمان ، آب/اغسطس ، ١٩٧٧ .

(٦٥) القطر العربي السوري وهجرة العقول ، مجلة المهندس العربي ، العدد ٣٧ ، ايلول/سبتمبر ـ تشرين الاول/اوكتوبر ١٩٧١ . ص ١٥ ـ ٢٥ .

وقد طلعت دراسات اخرى بتوصيات مشابهة عن مشكلة هجرة الكفايات . ويفرق السيد بغواتي[٦٦] بين ثلاثة اقتراحات تتعلق بالسياسة العامة : الاقتراحات التي تتطلب العمل من جانب البلدان الاقل نموا ، والاقتراحات التي تتطلب العمل من جانب البلدان المتقدمة ، والاقتراحات التي تتطلب عملا تعاونيا مشتركا . كما يفرق بين اقتراحات تتعلق بالسياسة التقييدية واقتراحات تتعلق بالسياسة التشجيعية . ووردت توصيات مماثلة في دراسات اخرى تناولت هجرة الكفايات من البلدان النامية عموما ، ومن بعض الاقطار العربية المشرقية بشكل خاص[٦٧] .

وفيما يلي تلخيص للتوصيات المقترحة للبلدان النامية التي تعاني من مشكلة هجرة الكفايات[٦٨] : الحاجة ، من جملة الاشياء ، لاعطاء الأولوية لتحسين الظروف التي يتوقع ان يعمل الاشخاص ذوو التدريب العالي في ظلها ، وتلبية الاحتياجات الاولية كالحد الادنى من مستلزمات الرواتب ، وافساح المجال امام العمالة المتفرغة والاستقرار المهني ، والاعتراف بالمهارة والقدرات الشخصية ، توفير فرص الترقي عن طريق الامتهان ، وزيادة حركة انتقال القوى العاملة ، والمساعدة في اقامة الاتصالات وتطويرها مع الزملاء الاختصاصيين في الخارج ، واتاحة الوصول الى المطبوعات المتخصصة . ومن الاهمية بمكان ايضا الظروف غير الاقتصادية ، ولا سيما تلك المتصلة بظروف العمل ، كدعم الابحاث عن طريق اعتماد مخصصات في الميزانية والهيكلية الهرمية التقليدية في المؤسسات الاكاديمية والحكومية ، التي يمكن ان تغفل الفرص المناسبة من امام الشباب القادرين ، والحاجة لتوفير المرافق الثقافية والاجتماعية ، خصوصا في المناطق الريفية . وهناك ايضا حاجة لتحسين خدمات الارشاد للطلاب الاجانب قبل وبعد وصولهم الى بلد الدراسة واتخاذ التدابير التأسيسية الفعالة لتسهيل عودة الطلاب من الخارج .

وعليه ، فان ما يلزم القيام به على المستوى الوطني ، هو معالجة عوامل « الدفع » بكل ابعادها . وبالاضافة الى ذلك ، فان ملخص التوصيات الآنف الذكر ينطبق على مجمل الاقطار العربية التي تعاني مشكلة هجرة الكفايات ، سيما وان لبنان كان احد البلدان النامية الخمسة التي شملتها دراسة معهد الامم المتحدة للتدريب والبحث . ويفيد ملخص التوصيات ايضا في تمكين هذه الدراسة من التركيز على مقترحات محددة وعدم تكرار مجموعة كاملة من التوصيات التي يمكن ان تتناول الهيكليات التربوية وغيرها من هيكليات بلدان المنطقة.

وفيما يلي اهم التوصيات التي اقترحت على المستوى الوطني والتي من شأنها ان تساعد في الحدّ من مشكلة هجرة الكفايات :

١ ـ **رفع سلّم الرواتب** : هناك حاجة واضحة في الاقطار العربية التي تعاني من مشكلة هجرة

---

(٦٦) ج . ن بغواتي ، « هجرة الكفايات » . **تقرير منظمة العمل الدولية بشأن المؤتمر العالمي الثلاثي للعمالة وتوزيع الدخل والتقدم الاجتماعي والتوزيع الدولي للقوى العاملة** . جنيف ، حزيران/يونيو ١٩٧٦ ، ص ١٢٩ ـ ١٦٠ .

(٦٧) أنظر مثلا . معهد الامم المتحدة للتدريب والبحث . **هجرة الكفايات من خمسة بلدان نامية** . نيويورك ، ١٩٧١ ، ص ١٢٦ ـ ١٣٨ وت . أ . زعرور . **العوامل التي تؤثر على هجرة الاشخاص ذوي التعليم العالي من الاردن الى الولايات المتحدة** . اطروحة دكتوراه . جامعة ولاية فلوريدا ، آب/اغسطس ١٩٧٦ ، ص ١١٦ ـ ١٢١ .

(٦٨) معهد الامم المتحدة للتدريب والبحث . **نفس المرجع السابق** . ص ١٣٦ .

الكفايات لرفع سلم الرواتب ولا سيما بالنسبة الى الاختصاصيين من مواطنيها(٦٩) . وينطبق ذلك على اليمن الديمقراطية واليمن والجمهورية العربية السورية ولبنان والعراق والاردن . ويتراوح دخل المهندس العامل مع الحكومة (بما فيه المعاش والعلاوات الاخرى) في اي من هذه البلدان بين نصف وثلث دخل المهندس في البلدان العربية المصدرة للنفط او اقل من ذلك في البلدان المتقدمة . وتزداد الفروقات مثلا بالنسبة للاقتصادي او للمحاسب . ومع تزايد الضغوط التضخمية في كل البلدان العربية ، بما في ذلك تلك التي تعاني مشكلة هجرة الكفايات ، يغدو امرا صعبا للغاية ترغيب الاختصاصيين الوطنيين في مواصلة العمل في البلاد ، لا سيما الخريجون الجدد ، ما لم يرفع سلّم الأجور بمقدار كبير . الا انه في ضوء الموارد المادية المحدودة للبلدان غير المصدرة للنفط لا تستطيع التنافس فقط على أساس الدخل مع البلدان المصدرة للنفط . ولكن بعض الزيادة في الدخل من شأنها أن تساعد خصوصا اذا اقترنت باغراءات أخرى تتصل بظروف العمل . وفي الواقع ، اعتمدت بعض البلدان العربية ، كالأردن والعراق والجمهورية العربية السورية ، نظاما للعلاوات في صالح اختصاصييها ، الأمر الذي يشكل احد الحوافز لابقائهم يعملون في بلدانهم . غير أن هذه العلاوات تعتبر غير كافية لعكس هجرة الكفايات ولا لوقف التدفق الى البلدان المصدرة للنفط .

ب : **تنسيق ظروف العمالة المحلية** : من الملاحظ انه في كل من البلدان العربية ، خصوصا في البلدان غير المصدرة للنفط ، يوجد عدد كبير من سلالم الرواتب ينتج عنها تنافس غير ضروري ومكلف بين مختلف الوكالات على اجتذاب غالبية الاختصاصيين الاكثر كفاية من الوكالات الاخرى في ذات البلد . وفي معظم الحالات يخسر الجهاز الحكومي افضل اختصاصييه ، خصوصا لحساب القطاع الخاص . ويلاحظ ذات الشيء ايضا في البلدان العربية المصدرة للنفط ، حيث ان المسؤولين في المملكة العربية السعودية والكويت اعربوا عن قلقهم ازاء هذا التطور . ويحتمل ان تكون الرغبة في مواجهة هذا التنافس من جانب القطاع الخاص قد حملت الحكومة السعودية على رفع معاشات القطاع العام بنسبة ٥٠٪ في ١٩٧٧ . وحتى داخل الجهاز الحكومي ، يحتمل الا يتقاضى الاختصاصيون من مستوى كفاية واحد ذات الاجر بالنظر الى اختلاف سلالم الرواتب المطبقة في مختلف المؤسسات . ومن الاهمية بمكان ان تقوم الاقطار العربية بتنسيق سلالم الرواتب وظروف العمالة على المستوى الوطني ، وبتقليل الفروقات بين سلالم الرواتب وترشيدها لا سيما في القطاع العام .

ج : **تنظيم تدفق الاختصاصيين الى الخارج** : كما سبق وذكرنا ، لا توصي هذه الدراسة الاقطار العربية باعتماد نهج تقييدي ، اي مختلف التدابير التي تطبقها الحكومات للاشراف على تدفق اختصاصييها الى الخارج والحد منه اداريا . وبما ان عددا كبيرا من الطلاب الجامعيين العرب ملتحقون بجامعات في الولايات المتحدة وغيرها من البلدان المتقدمة ، فان اي تقييد لتدفق مواطنيها الى الخارج سيشجع بعض طلابها على مواصلة العيش في الخارج . كما ان من شأن القيود التي تفرض على تدفق الاختصاصيين الى الخارج ان تتجلى في انخفاض انتاجيتهم في البلاد .

وتوصي هذه الدراسة بنهج أكثر فعالية يتناول التدابير التالية: كل التدابير المتصلة بتحسين ظروف عمل الاختصاصيين وتوفير الحوافز لهم (وتتناول هذه التدابير تعيينهم وترقيتهم وتوفر الجهاز

---

(٦٩) لقد رفع سلّم الرواتب الحكومية في لبنان سنة ١٩٧٧ وفي سورية سنة ١٩٧٨ وتدفع علاوات جوهرية عديدة بالاضافة الى أساس المعاش لبعض فئات الاختصاصيين في العراق والاردن وسوريا

المساند من الموظفين ، وامكانية الحصول على المطبوعات الحديثة وتوفر المختبرات ، وحرية التعبير ، قدر اقل من التعاطي في الشؤون الادارية المحضة وغيرها ، حصـر الدراسة في الخارج قدر الامكان ، بدراسات التخصص العالي ، تنظيم تدفق الاختصاصيين الوطنيين الى الخارج عن طريق الاتفاقات الثنائية ، لا سيما فيما بين الاقطار العربية وتعتبر اعارة الموظفين الحكوميين للعمل لفترة محددة في بلدان عربية اخرى نهجا مناسبا في تنظيم تدفق الاختصاصيين الى الخارج ، وضـع بعض القيود اذا لزم الامر على هجرة اصحاب مهن معينة ذات صلة بالمشاريع البالغة الاهمية كالمهندسين العاملين في مصافي النفط ومعامل الاسمنت .

د . انشاء وتوسيع مؤسسات البحث والتطوير : تتوقف قدرة البلدان العربية على استيعاب الاختصاصيين العرب على مجمل الطلب الناشيء عن : توسيـع الخدمات العامة الاجتماعية والاقتصادية ، كالتعليم والصحة والمواصلات وغيرها ، توسيـع نطاق نشاط المؤسسات الخاصة في مجالي التجارة والمال وغيرها ، تنفيـذ مشاريع التنمية العربية . الا ان قدرة البلدان العربية على استيعاب الاختصاصيين الاكثر كفاية تتوقف الى حد كبير على وجود مؤسسات ابحاث وتطوير ، بما في ذلك مؤسسات العلم والتكنولوجيا والجامعات الوطنية . وفي العادة يكون جوّ العمل في هذه المؤسسات بالاضافة الى سلالم الرواتب وامكانية قيام الاختصاصيين بتطوير كفاياتهم ، اكثر ملاءمة من الوكالات الاخرى . لذلك ، ينبغي ان يقوم كل بلد عربي بوضع سياسته الخاصة بالعلم والتكنولوجيا وان ينظم الهيكلية المؤسسية للعلم والتكنولوجيا لديه وان يقيم ما ينقصها من روابط في هيكليتها . وعن طريق هذا التدبير ، تستطيع البلاد العربية تعزيز قدرتها على استخدام الاختصاصيين العرب وابقائهم لديها .

هـ ـ اعتماد تدابير خاصة تهدف الى عكس هجرة الكفايات العربية : بالنظر لخطط التنمية الطموحة في الوطن العربي ، لا سيما في البلدان المصدرة للنفط ، والطلب الكبير على القوى البشرية المتخصصة ، فانه ينبغي ان تعتمد على الصعيد الوطني سياسة مدروسة لترغيب الاختصاصيين العرب المقيمين في الخارج بالعودة . وقد اعطت تجربة العراق في اعتماد تدابير ترغيبية لاجتذاب الاختصاصيين العراقيين (وبعض الاختصاصيين العرب الاخرين) المقيمين في الخارج نتائج مشجعة . وبالطبع فان ترغيب الاختصاصيين في العودة هو خطوة رئيسية ولكنه الخطوة الاولى التي ينبغي ان تليها وتدعمها تدابير اخرى تؤدي الى الابقاء على الاختصاصيين في مواقع منتجة مناسبة . ويفترض في اية سياسة من هذا القبيل ان تتحاشى التمييز ازاء الاختصاصيين المقيمين من قبل في الاقطار العربية المعنية. وقد حاولت اقطار عربية اخرى الاتصال بالاختصاصيين العرب المقيمين في الخارج عن طريق الاتصال المباشر او بواسطة الاعلان . وايا كانت نتائج هذا النهج ، يفترض في كل قطر ان ينظر جديا في اتخاذ بعض التدابير لاجتذاب الاختصاصيين العرب وترغيبهم في العودة .

و ـ تحسين قاعدة البيانات عن الاختصاصيين العرب : تناول القسم الاول من هذه الدراسة بالتفصيل عدم ملاءمة قاعدة البيانات عن هجرة الكفايات العربية . وينبغي ان يبذل كل قطر عربي محاولة لتحسين المعلومات المتوفرة لديه عن اختصاصييه ، لا سيما اولئك الذين يعانون من هجرة الكفايات . وينبغي وضع جدول وطني بالقوى البشرية العالية الكفاية .

٢) على المستوى الاقليمي :

يمكن متابعة معظم التوصيات السابقة على صعيد اقليمي بطريقة اكثر تنسيقا وفعالية . وعليه ،

تستطيع الاقطار العربية اعتماد سياسة مشتركة لترغيب الاختصاصيين العرب في العودة والاقامة في المنطقة . وينبغي ان تتعاون هذه البلدان لتلبية احتياجاتها من القوى البشرية العالية الكفاية باللجوء الى الاختصاصيين عند بعضها بعضا بطريقة منظمة . ويفترض فيها ايضا ان تنسق بين سياسات الاستخدام لديها ، بما في ذلك سلالم الرواتب ، للتقليل من انعدام الاستقرار في سوق العمل ، وان تتعاون ايضا في جمع المعلومات المناسبة بشأن القوى العاملة العربية العالية الكفاية .

وبالاضافة الى هذه المجموعة من التدابير ، هناك توصيات خاصة يفترض في الاقطار العربية ان تعتمدها للحد من هجرة الكفايات العربية ولتنظيم تدفق الاختصاصيين العرب في المنطقة . واهم التوصيات هي التالية :

ا . **انشاء مراكز ابحاث اقليمية**: كما سبق واشرنا ، فان مراكز البحث تتجه الى اجتذاب القوى العاملة ذات الكفاية العالية بتوفيرها جوّ عمل مناسب. بالاضافة الى ذلك ، تدعو الحاجة اليها لتدريب الاختصاصيين الشباب وتنمية قدراتهم . ويفترض في الاقطار العربية المنتجة للنفط ان تسهم اسهاما مباشرا في انشاء مراكز ومؤسسات اقليمية متخصصة للبحث والتدريب . وعلى سبيل المثال ، تقدم الاردن باقتراح الى المؤتمر الرابع لوزراء التربية والمسؤولين عن التخطيط الاقتصادي في الدول العربية ، الذي عقد في ابو ظبي بين ٧ و١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٧ ، لانشاء معهد اقليمي عربي للتدريب الفني على الحسابات الالكترونية والاتصالات السلكية واللاسلكية . وهناك مثل آخر على ذلك هو المركز الاقليمي لنقل التكنولوجيا وتطويرها في البلدان العربية الذي يجري البحث في انشائه حاليا . وقد اقترح سمو الامير حسن ولي عهد الاردن مؤخرا انشاء « مركز عربي – اوروبي للتكنولوجية الملائمة » . وسيجتذب هذا المركز ، بالاضافة الى وظائف رئيسية اخرى ، نخبة من الاختصاصيين العرب اصحاب الكفايات العالية للعمل على مشاكل نقل التكنولوجيا وتطويرها في البلدان العربية(٧٠) .

ب . **توسيع نطاق مرافق التدريب لتشمل منطقة اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا** : ينبغي توسيع نطاق التعليم والتدريب المهني والفني من اجل الحصول على العدد اللازم من القوى البشرية العالية الكفاية ولحصر الدراسة في الخارج بمستوى الدراسات الجامعية العالية . كما ينبغي ايضا اصلاح انظمة التعليم لكي تتلاءم بشكل انسب مع مستلزمات التنمية الاقتصادية والاجتماعية العربية . وقد بذلت جهود عربية مشكورة في هذا السبيل . والنقطة التي يجري التركيز عليها في هذا المجال هي ضرورة الاعتراف بان تنمية القوى البشرية ، خصوصا على اعلى المستويات ، هي مسؤولية اقليمية من ناحية التمويل والتنسيق والتحفيز. وسيتعزز تنفيذ خطط التنمية في المنطقة باسرها من خلال توسيع نطاق مرافق تنمية القوى البشرية وتدريبها . ويمكن ان تنشأ هذه المرافق ، لا بل ينبغي ان تنشأ في البلدان التي تعاني هجرة الكفايات بالتمويل المشترك من قبل البلدان العربية المصدرة للنفط .

ج . **عقد اتفاق ينظم تدفق الاختصاصيين العرب بين البلدان العربية** : ينبغي عقد اتفاق رسمي بين البلدان العربية بشأن تدفق الاختصاصيين العرب . وتستطيع منظمة العمل العربية متابعة هذه المسألة بالتعاون مع الوكالات الاقليمية والدولية الاخرى . وفي الوقت الراهن ، ترك تدفق الاختصاصيين العرب في المنطقة الى الاتفاقات الثنائية ، او في معظم الحالات ، الى سوق القوى العاملة

---

(٧٠) كلمة ألقيت أمام الندوة العربية – الاوروبية لارباب التجارة . مونترو . سويسرا . ٢٩ أيار مايو ١٩٧٨ .

ذاتها . وبالنظر الى الضغوط الشديدة للطلب على هذه الفئة من القوى البشرية في الوطن العربي ، والى الدور الحيوي الذي يلعبه الاختصاصيون في تنمية المنطقة ، ينبغي ان ينظم تدفقهم بصورة رسمية على المستوى الاقليمي . ويمكن عقد الاتفاق المقترح اما على اساس ثنائي او على شكل اتفاق متعدد الاطراف لتحركات القوى البشرية تعده منظمة العمل العربية .

٣) على المستوى الدولي :

أ ـ **البحث عن تعويض عن هجرة الكفايات** : ينبغي على بلدان اللجنة التي تعاني من هجرة الكفايات ، لا سيما لبنان والاردن والجمهورية العربية السورية والعراق واليمن الديمقراطية ان تنضم الى بلدان نامية اخرى في المطالبة بالتعويض عن اختصاصييها المقيمين في الخارج . وقد اقترح ولي عهد الاردن اثناء مؤتمر منظمة العمل الدولية في ١٩٧٧ ان يتم انشاء خدمات تعويض دولية عن القوى العاملة ، بحيث يمكن التعويض عن البلدان النامية التي تعاني مشكلة هجرة الكفايات .

ومع ان المهاجرين يقومون بتحويل الاموال الى بلدانهم الام ، فان هذه التحويلات هي ادنى بكثير من الخسارة الاجتماعية التي يسببونها لبلدانهم . وبالاضافة الى ذلك ، فان هذه التحويلات تشكل جزءا من مدخراتهم الخاصة وهي تتجه الى الانخفاض مع مرور الزمن ومع استقرار الاختصاصي شيئاً فشيئاً في البلد المتقدم . ويمكن الشروع بتطبيق خدمات التعويض الدولية عن القوى العاملة في اطار اقليمي كمنطقة اللجنة ، حيث تلعب تدفقات الاختصاصيين داخل الاقليم دورا متزايدا في تلبية الطلب عليهم في البلدان المصدرة للنفط .

ب . **مساعدة مؤسسات التدريب والبحث الوطنية والاقليمية** : تستطيع البلدان المتقدمة والمنظمات الدولية ان تلعب دورا هاما في تقرير مؤسسات التدريب والبحث اللازمة في المنطقة وانشائها . كما تستطيع ايضا ان تسهم في تقوية المؤسسات القائمة وفي انشاء مؤسسات جديدة . ويمكن لهذه المساهمة ان تأخذ الشكل المألوف في تقديم الخبرة والتجهيز والتدريب . وتعتبر الولايات المتحدة الاميركية ، والاسرة الاقتصادية الاوروبية ومنظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ومنظمة العمل الدولية من بين الاطراف المعنيين بالدرجة الاولى بهذه الوظيفة .

ج : **ترغيب الاختصاصيين العرب في العودة** : تستطيع البلدان المتقدمة ، خصوصا الولايات المتحدة ، ان تساعد كثيرا في اي جهد يهدف الى الحد من هجرة الكفايات العربية . ويمكن لقوانين الهجرة التي ترغّب الاختصاصيين الاجانب في الاقامة في البلدان المتقدمة ان تساعد اذا عدّلت في تخفيض حدة مشكلة هجرة الكفايات . ويحسن عدم تشجيع الطلاب العرب في الولايات المتحدة على الاقامة فيها خصوصا اصحاب الزمالات الدراسية الممنوحة من قبل حكوماتهم .

د . **توفير البيانات المتاحة الى البلدان العربية** : بالنظر لعدم قيام البلدان العربية حتى الان بجمع معلومات كافية وموثوقة عن نطاق هجرة الكفايات لديها وخصائصها ، تستطيع البلدان المتقدمة والمنظمات الدولية ان تساعد في تزويدها بالمعلومات المتاحة والمستكملة عن هجرة الكفايات العربية .

نظرة اولية على هجرة الادمغة العربية

د. سلمان رشيد سلمان

استاذ العلوم في كلية العلوم في جامعة بغداد ، المدير السابق لمركز الدراسات الفلسطينية في جامعة بغداد

نوقشت قضية هجرة الادمغة في العديد من الندوات ونشر العديد من الدراسات التي تناقش هذه القضية المهمة . ولقد تميزت بعض هذه الدراسات باحصائيات مفصلة حول الهجرة . الا ان معظم هذه الدراسات قد تناولت مشكلة الهجرة من جانب واحد دون النظر اليها بشكل شامل . اما بالنسبة للوطن العربي فرغم تسرب الكثير من كوادره العلمية عن طريق الهجرة لم تصدر احصائيات شاملة ومفصلة تمكن الباحث من القيام بدراسات معمقة للوصول الى استنتاجات تفيد متخذي القرار في الوطن العربي .

يمكن ان تعتبر هجرة الادمغة احد المؤشرات المهمة لوجود خلل في بنية الدول النامية ، وفي العلاقات القائمة ما بينها وبين الدول المتقدمة ومن هنا فانه من الضروري ان ينظر الى هذه المشكلة والى حلها على ضوء المحاولات الجارية لايجاد واحلال نظام اقتصادي عالمي جديد . لقد بينت الكثير من الدراسات الحديثة بان التفاوت الكبير والمتزايد ما بين الدول النامية والمتقدمة لا يمكن فصله عن الوضع الاقتصادي الدولي ، حيث تخصصت الدول النامية بانتاج المواد الاولية وتصديرها باسعار زهيدة ، وقيام الدول المتقدمة بتصنيع هذه المواد وحصولها على فوائد اقتصادية كبيرة نتيجة عمليتي التجارة والتصنيع معا . ولقد نتج عن ذلك انقسام العالم الى دول غنية واخرى فقيرة .

فالدول الصناعية والتي يبلغ سكانها ٦٨٢مليون نسمة اى ما يعادل ١٧,٢٪ من مجموع سكان العالم . تنتج ما يعادل ٦٢,٣٪ من مجموع الناتج القومي الاجمالي العالمي خلال العام ١٩٧٥ . وتوفر دخلا سنويا لكل واحد من مواطنيها يبلغ ٥٥٢١ دولارا في حين يبلغ عدد سكان الدول النامية ٢٠٦٩ مليون نسمة وتنتج ٢٦,٢٪ من مجوع الناتج القومي الاجمالي ، وتوفر لمواطنيها دخلا سنويا يبلغ ٤٧٨ دولارا[١]لقد اسفر هذا الوضع في استحواذ الدول المتقدمة على ٩٥٪من التكنولوجيا[٢]وينتج العالم المتقدم ٩٤,٨٪ من الانتاج العلمي العالمي[٣] . اما فيما يتعلق ببراءات الاختراع فقد ساهمت جميع

(١) د. فائق عبد الرسول . **النظام الاقتصادي الدولي الجديد . منشورات النفط والتنمية ١٩٧٩** .

(٢) د. جعفر عبد الغني . حول نقل التكنولوجيا . ندوة نقل التكنولوجيا . بغداد ١٩٧٦ .

(٣) سلمان رشيد . **افاق عربية** . اذار ١٩٧٩ .

الدول النامية بمقدار ١٪ فقط من مجموع البراءات العالمية المسجلة[٤] . وقد اسفر هذا الوضع في تبعية الدول النامية للدول المتقدمة في امر مهم بالنسبة لتحقيق تنمية سريعة وهو موضوع نقل التكنولوجيا واصبحت الدول النامية تدفع مبالغ طائلة للتكنولوجيا الغربية مما يزيد في فقرها لان عليها ان تدفع سعر هذه التكنولوجيا بالعملة النادرة .

لقد كانت الكلفة المباشرة لنقل التكنولوجيا الى الدول النامية في نهاية الستينات ١٥٠٠ مليون دولار[٥] . وقدرت الكلفة عام ١٩٧٨ ما بين ١٠ ـ ٢٠ بليون دولار . ويقدر بأنها ستبلغ عام ٢٠٠٠ في حدود ١٥٠ ـ ٢٥٠ بليون دولار [٦] وهو مبلغ لن تستطيع الدول النامية دفعه مستقبلا .

لقد اوضحت مجموعة من المفكرين الوضع الحالي للعالم بالكلمات التالية « لقد تبين لنا خلال السنوات الاخيرة ، ان الطريق الذى سرنا فيه يبدو ، بالرغم من المنجزات الضخمة التي تحققت في بعض المجالات ، مفضيا الى الكوارث واليأس[٧]» . وسنحاول في هذه الورقة ان ننظر لموضوع هجرة الادمغة من خلال هذه النظرة الشمولية مركزة بصورة اساسية على نقاط الخلل في الدول النامية والتي قادت الى هجرة الادمغة ، وهذه الدراسة هي محاولة اولية في هذا المجال .

بعض الاحصائيات المهمة

١) بلغت الهجرة الكلية من الدول النامية الى الدول المتقدمة للفترة ١٩٦٢ـ ١٩٦٧ في حدود ١٨,٦٤ مليون شخص منهم حوالي ١٨١ الفا من ذوي الكفايات . اى بنسبة ٩,٧ ٪ ، موزعين كما يلي بالنسبة للاختصاصات : ٤٥,٢٪ مهندسين ، ١٧,٤٪ علوم طبيعية و ٣٤,٣٪ من ذوي المهن الطبية و٣٪ علوم انسانية واجتماعية[٨] .

٢) بالنسبة لهجرة ذوي الكفايات منذ العام ١٩٦١ ـ ١٩٧٢ بلغ مجموعهم ٢٣٠ الفا منهم حوالي ١٢٠ الفا هاجروا الى امريكا وكندا موزعين بالشكل التالي [٩] من اسيا (عدا المنطقة العربية) ٨٤٠٨١ شخصا، ٦٩و٧٠٪ ، من المنطقة العربية ١٠٤٠٤ اشخاص ، ٧٥و٨٪ ، من افريقيا ٦٨٩٢ شخصا ، ٥,٧٩٪، من امريكا اللاتينية ١٧٥٧٢ ٧٧و١٤٪ .

اما توزيع الاختصاصات بالنسبة للاقطار العربية لهذه الفترة فقد كانت ٦٧و٤٦٪ مهندسين و١٥,٢٪ علوم طبيعية و٣٤,٣٥٪ علوم طبية و٣,٧٪ علوم انسانية .

٣) خلال المدة ١٩٦٢ ـ ١٩٧٢ بلغت مساهمة الدول النامية من اطباء كل من الولايات المتحدة وكندا بحدود ٥٨٪ للاطباء و٤٢٪ من العلماء والمهندسين ، وساهمت الدول النامية ب ٥١٪ من الاطباء في الولايات المتحدة للعام ١٩٧١ ـ ١٩٧٢و٤٠٪ بالنسبة لبريطانيا[١٠] .

---

(٤) E/ECWA/50 March 1977 ....

(٥) UNCTAD, TD/B/AC. 11/10/ Rev 1. ....

(٦) UNCTAD /TT/ 9, 1978. ....

(٧) د. اسماعيل صبري عبد الله ، **نحو نظام اقتصادي عالمي جديد** . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ .

(٨) **Science Today**, March 1969. India ....

(٩) UNCTAD, TD/B/C. 6/7 13 Oct 1975. ....

(١٠) UNCTAD, TD/B/C.6/Ac. 4/8Feb. 78. ....

٤) ان اعداد المهاجرين تبلغ نسبة كبيرة من رصيد الدول النامية من المهندسين والعلماء والاطباء . فعلى سبيل المثال ، قدر عدد المهاجرين من المهندسين من الهند للعام ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ بحوالي ٢٥٪ من مجموع الخريجين في العلوم و٣٠٪ من الاطباء [١١] . اما بالنسبة للفلبيين فان هجرة الاطباء للعام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ بلغت ٢١٪ من الخريجين . اما نسبة المهندسين والعلماء فكانت ١١٪[١٢] . اما بالنسبة لسيرلانكا فقد ازدادت نسبة المهاجرين من الاطباء من ٩٪ من خريجي كل سنة في بداية الستينات لتبلغ ١٦٪ في اواسط السبعينات[١٣] .

٥) بالنسبة للاقطار العربية فان الاحصائيات التي نشرت قد اعتمدت على مصادر مختلفة . لذلك فان الارقام المذكورة لا يمكن ان تكون دقيقة الا انها يمكن ان تستعمل كمؤشرات لغرض هذه الدراسة . وفي هذا المجال فان نسبة هجرة الكفايات العربية الى مجموع الكفايات في الدول النامية ، الى الولايات المتحدة قد ارتفعت من ٤,٥٪ للفترة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٧[١٤] لتبلغ ٩٪ للفترة ٦١ ـ ١٩٧٢[١٥]

لقد بينت الدراسة التالية والتي شملت الفترة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٩ نسبة الهجرة مقسمة لبعض الاقطار العربية الى الولايات المتحدة لوحدها [١٦] .

مصر ٩٣١٥ شخصا ، ٢٤,٦٦٪ ، لبنان ٨١٩١ شخصا ، ٢١,٦٨٪ ، الاردن ٩٥٤٨ شخصا ، ٢٥,٤٪ ، العراق ٤١٩٢ شخصا ، ١١,١٥٪ ، سورية ٢٤٧٣ شخصا ، ٦,٥٨٪ ، المغرب ٢٤٠٦شخصا ، ٦,٤٪ ، تونس ٤٩٧ شخصا ، ١,٣٣٪ ، الجزائر ٩٨١ شخصا ، ٢,٦٪ ،

اما نسبة المهاجرين السنوية من عدد المتخرجين في الاقطار العربية الى كل من الولايات المتحدة وكندا للفترة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٦ فتبينها الارقام التالية مقسمة حسب الاختصاصات : سورية : ٥٦,٥ مهندسون ، ١١,٧طبيعة ، ٩,٣اطباء ، ٨و٠ علماء اجتماع ،

لبنان : ٣٥,٥ مهندسون ، ١٠,٥ طبيعة ، ٢٤,٩ اطباء ٠,٥ علماء اجتماع ،

العراق : ٩,٢ مهندسون ، ٤,٩ اطباء ٠,١ علماء اجتماع . ويتبين من هذه الارقام كذلك ان معظم المهاجرين هم من المهندسين ثم الاطباء ثم علماء الطبيعة .

٦) ان الدول النامية قد خسرت كثيرا من جراء هجرة الادمغة فقد قدر رأس المال الداخل الى الولايات المتحدة للفترة ١٩٦١ ـ ١٩٧٢ من جراء الهجرة ب ٣٠ مليون دولار . وكان الدخل في حالة تزايد فقد بلغ للسنة ١٩٧٠ حوالي ٣,٧ بليون دولار و٧,٦ بليون دولار للعام ١٩٧١ وحوالي ٧,٤ بليون دولار للعام ١٩٧٢ . في حين قد ربح كندا للفترة ١٩٦٣ ـ ١٩٧٢ بحوالي ١٠بلايين دولار ولبريطانيا للفترة ١٩٦٤ ـ ١٩٧٢ بحوالي ٣,٥ بليون دولار[١٧] . ولقد بلغت القيمة الاستثمارية المقدرة للادمغة المهاجرة من الدول النامية الى الدول المتقدمة الثلاث انفة الذكر بحوالي ٥٠ بليون دولار [١٨] هذا عدا

---

(١١) UNCTAD, TD B C. 6 Ac 4 6. Dec 1977.

(١٢) UNCTAD• TD B C. 6 AC. 4 5 Dec. 1977.

(١٣) UNCTAD, TD B C. 6 AC. 4 4 Dec 1977.

(١٤) UNCTAD, TD/B /C. 6/ 7 13 Oct 1975.

(١٥) نفس المصدر السابق .

(١٦)د. الياس زين ، **هجرة الادمغة العربية** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٧٢ .

(١٧) UNCTAD, TD B C. 6 7 October 1975.

(١٨) E 4820 June 1970

الضرائب التي تستحصلها هذه الدول الثلاث من المهاجرين والتي بلغت في الولايات المتحدة الامريكية للعام ١٩٧٢ بحدود ٩٥٠ مليون دولار . في حين بلغت المساعدات التي قدمتها الدول الثلاث الى الدول النامية للفترة ١٩٦١ ـ ١٩٧٢ حوالي ٤٦ بليون دولار (١٩) .

٧) ان الخسائر الناتجة عن الهجرة بالنسبة لبعض الدول النامية كانت كبيرة ، فعلى سبيل المثال بلغت بالنسبة لكولومبيا عام ١٩٦٧ حوالي ٤,٤٪ من الدخل القومي[٢٠] .

٨) قدرت خسارة الوطن العربي من جراء الهجرة بمئة مليون دولار (٢١) . وهذا الرقم مشكوك فيه اذ انه لو اخذت الدراسات التي ذكر بعضها وقورنت خسارة الدول العربية لبلغت ٤٠٠مليون دولار سنويا .

٩) ان معظم المهاجرين من الاقطار العربية هم من حملة الدكتوراه والماجستير . فعلى سبيل المثال وجد بان ٧٠٪ من المهاجرين من مصر هم من حملة الدكتوراه و١٧٪ من حملة الماجستير[٢٢] .

١٠) لقد بينت احدى الدراسات [٢٣] بأن الكثير من المهاجرين يرجعون الى اوطانهم بعد فترة من الزمن وان اكبر نسبة للعائدين هي في افريقيا تأتي بعدها اسيا ، عدا الاقطار العربية ، ثم امريكا اللاتينية اما اوطأ نسبة للعائدين فهي للمنطقة العربية اما بالنسبة لمصر فالدراسة تبين بأن معظم المهاجرين لا يرجعون اليها .

اسباب الهجرة :

ان هجرة الادمغة عملية معقدة . ولا يجوز ان ينظر اليها بشكل بسيط وبمعزل عن الكثير من الظروف التي توثر في زيادتها او نقصانها . الا ان من المهم ان نرى بأنه في ظل الاوضاع التي تعيشها الدول النامية وارتباطها الوثيق بالسوق الراسمالية ، فان عملية الهجرة تكون عملية متوازنة بين قوى جذب من قبل الدول المتقدمة لما تتميز به من فوائد بالنسبة للمهاجر ماديا واجتماعيا وثقافيا وعلميا وبين قوى الدفع الموجودة في الدول النامية . ولن تحاول هذه الدراسة الخوض في عناصر الجذب بقدر ما ستحاول ان تدرس عناصر الدفع ومسبباتها الحقيقية الان ومستقبلا ، خاصة بالنسبة للوطن العربي . ومن هنا فان هذه الدراسة ستركز على الدول النامية دون ان يعني ذلك غياب التأثير الكبير للدول المتقدمة على الهجرة . والهدف من كل ذلك هو محاولة تحليل اسباب الهجرة بالنسبة للدول النامية للوصول الى استنتاجات مفيدة في هذا المجال . وسنتحدث عن الاسباب العامة للهجرة من الدول النامية الى المتقدمة بايجاز . علما بأن كل دولة نامية تختلف عن الاخرى في مسببات الهجرة . الا ان من الممكن دراسة العوامل بصورة عامة :

١ ـ **سياسية واقتصادية** :يمكن ان تكون هذه الاسباب ذاتية او موضوعية . وسنحاول ان ندرج اهم النقاط تحت هذا الباب .

---

(١٩) نفس المصدر السابق .

(٢٠) نفس المصدر السابق .

(٢١) مدحت ايوب ، **الشورى** ، يونيه ١٩٧٥ ، ليبيا .

(٢٢) نفس المصدر السابق .

(٢٣) UNITAR, **Research report** No. 22 by William Glaser, **The Brain Drain** , Pergamon Press, 1978.

١) ان معظم الدول النامية قد نالت استقلالها حديثا . اذ كانت مستعمرات للدول المتقدمة التي عملت على ربطها سياسيا وثقافيا واقتصاديا ، وتشويه بنيتها الاقتصادية بشكل لا تزال تعاني منها جميع الدول النامية . ومن هنا فأن الكثير من الدول النامية ترتبط بالدول المتقدمة التي استعمرتها سابقا بوثائق اقتصادية وسياسية قوية ، ومن هنا فان معظم كوادر الكامرون تهاجر الى فرنسا ، في حين تهاجر كوادر ترنيداد والفليبين الى الولايات المتحدة[٢٤] . ومعظم كوادر امريكا اللاتينية (٩٣,٢)٪ تهاجر الى الولايات المتحدة الامريكية . لقد ذكرت احدى الدراسات التي اجريت عن هجرة الادمغة من الفليبين بأن هجرة الكفايات لها علاقة بالمساعدات الاجنبية ، اذ ان اكثر المهاجرين هم من العلماء الذين تدربوا ضمن برامج المعونات في امريكا . ان استعمار الفليبين قد تركها معتمدة ثقافيا واجتماعيا على الولايات المتحدة بحيث ان ذلك قد قولب مختلف الاتجاهات السياسية والثقافية والتعليمية بحيث جعل من مسألة الهجرة قضية مقبولة من قبل المؤسسة الحاكمة[٢٥] .

٢) لقد ذكرت احدى الدراسات بأن احد اهم الاسباب للهجرة من كولومبيا كانت عملية التناقض بين الاهداف المعلنة للمجموعة السياسية الحاكمة وبين الاجيال الجديدة من التقنيين والاداريين ، وان هذا الخلاف ناتج عن اختلاف في الاستراتيجية السياسية لكلا الطرفين . ولقد عملت المؤسسة الحاكمة لتشجيع الهجرة للتخلص و التقليل من هذه المعارضة[٢٦] . ولقد دللت بعض الاحصائيات[٢٧] على ان الاوضاع السياسية غير المستقرة في الدول النامية قد دفعت بأعداد كبيرة للهجرة ولقد قدر عدد المهاجرين من لبنان نتيجة الحرب الاهلية (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) بحدود مليون وثلاثمائة وخمسين الف نسمة[٢٨] .

٣) تلعب العوامل الاقتصادية دورا كبيرا في الهجرة ، وفي هذا المجال فان الدول التي استعمرت الدول النامية قد شوهت البنية الاقتصادية للدول النامية وجعلتها سوقا مفتوحة لتصدير الايدي العاملة والفنيين الى الدول المتقدمة في حين جعلت من الدول النامية سوقا مفتوحة لبضائعها المصنعة . ولنا في تجربة الجزائر خير مثال . فان ظروف التبعية لفرنسا قد جعلت اقتصاد الجزائر يعجز عن تحقيق تنمية اقتصادية ، وأدى ذلك الى انتشار البطالة . ففي القطاع الزراعي مثلا كانت جميع الاراضي الخصبة تحت تصرف الفرنسيين وبعض كبار الملاك الجزائريين . فكانت اقلية من الاوربيين تجني ١٣٪ اما الاغلبية التي تشكل ٩٥٪ من سكان المناطق الزراعية فلا تزيد حصتها عن ٩٪[٢٩] ولقد ادى هذا الوضع الى هجرة الكثير من الجزائريين حتى ان عدد المهاجرين بلغ عام ١٩٥١ بحدود ٤٠٠ الف مهاجر في حين يقدر عددهم الان باكثر من ٧٠٠ الف مهاجر .

٤) ان كثيرا من الدول النامية وبسبب وضعها الاقتصادي لا تحقق نسبة نمو اقتصادي تعادل نسبة نمو السكان . وهذا الوضع يولد بطالة كبيرة في القطاعات الاقتصادية والعلمية . فعلى سبيل المثال فان البطالة في القطاع العلمي عام ١٩٦٩ بلغت ٨,٨٪ في كولومبيا و٢٠٪ لترينداد . وهناك علاقة طردية بين

---

(٢٤) E /4820 June 1970

(٢٥) TD/B/C.6/ AC. 4 / 5Dec.1977

(٢٦) E / 4820 June 70.

(٢٧) UNITAR. The Brain Drain. 1978

(٢٨) **التحضر في الوطن العربي** ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ص ٢٩٧ ، الجزء الاول ١٩٧٨ .

(٢٩) وداد يونس يحيى ، ص ٩٨ ، **النفط والتنمية** ، اذار ١٩٧٩ .

هجرة الكفايات والبطالة [٣٠] . لقد ذكرت بعض الدراسات بأن تحقيق نسبة نمو عال للدخل القومي سيقلل من هجرة الكفايات في حين ذكرت دراسات اخرى[٣١] بأن كثيرا من الدول التي تحقق نموا كبيرا في الدخل القومي تتزايد فيها الهجرة ولا تقل .

٥) ان دخل الكفايات متدن جدا في كثير من الدول النامية في حين ان الدخل جيد بالنسبة لهذه الكوادر في الدول المتقدمة ولقد دفع ذلك ببعض الكفايات للهجرة[٣٢] .

٦) تميزت الدول النامية بوراثتها لاجهزة ادارية متخلفة وجامدة ولا تمتلك اية قدرة على فهم الدور الذي يمكن ان تلعبه الكفايات العلمية في عملية التنمية القومية . ولقد تسبب وجود هذه الاجهزة في اعاقة عمل العلميين [٣٣] مما اجبر بعض هذه الكوادر للهجرة الى الخارج . ولو اخذنا كولومبيا كمثال على تأثير الاجهزة الادارية على الكفايات لرأينا بأن ٤١٪ من الكفايات وجدت عملا بعد شهر من رجوعها و٥٣٪ في حدود ثلاثة اشهر و٦٪ لمدة تزيد عن ذلك [٣٤] .

٢ ـ **اسباب علمية وتعليمية وثقافية** : ١) ان الكثير من الدول النامية قد ارتبطت بعلاقات ثقافية وطيدة مع الدول المتقدمة . وأهم هذه العلاقات ارتباط البنية الثقافية والتعليمية للدول النامية باحدى الدول المتقدمة . وبلعب اللغة دورا مهما في تشجيع الهجرة . فالدول النامية التي تتكلم كوادرها الفرنسية تهاجر كفاياتها الى فرنسا . وكوادر الدول النامية التي كانت تابعة لانكلترا تهاجر الى هذه الدولة[٣٥] .

٢) بالنظر للتبعية التي عانت منها الكثير من الدول النامية ، فقد استمرت هذه الدول بالاعتماد على مؤسساتها التعليمية التي نشأت في عهد الاحتلال لتلبي حاجة الدول المتقدمة . ومن هنا فان أكثر المناهج التدريسية في الثانويات والكليات هي امتداد للنظام التعليمي الذى اوجد في ايام الاحتلال ولا علاقة له بالاحتياجات الاجتماعية والتنموية للدولة[٣٦] .

٣) ان الكثير من الدول النامية لا تمتلك اجهزة تخطيطية او في افضل الاحوال لا تمتلك اجهزة تخطيط مركزية . لذلك فان المخطط التربوي يعمل بمعزل عن المخطط الاقتصادي . ولو اخذنا لبنان على سبيل المثال لرأينا بأن الوظائف التي ستستحدث في لبنان للفترة ١٩٦٤ ـ ١٩٨٠ قدرت ب١٦٠ الفا في حين ان عدد الذين سيتقدمون لهذه الوظائف سيبلغ ٤٥٠ الفا وهذا يعني بأن ١١ الف لبناني سيهاجر سنويا[٣٧] .

٤) بالنسبة لهجرة الكفايات المتخصصة فان احد الاسباب المهمة للهجرة تتلخص في عزلة العالم المتخصص في الدول النامية عن مجرى العلم في الدول المتقدمة ، وعدم وجود اجهزة علمية تمكن

---

(٣٠) E / 4820 June 1970.

(٣١) UNITAR, The Brain Drain, 1978.

(٣٢) نفس المصدر السابق .

(٣٣) سلمان رشيد . **الطليعة** . سبتمبر ١٩٧٣ ، القاهرة .

(٣٤) UNITAR, The Brain Drain, 1978.

(٣٥) نفس المصدر .

(٣٦) E / 4820 June 1970.

(٣٧) نفس المصدر السابق .

الباحث من القيام بعمله ، غياب النسبة الصحيحة ما بين التقنيين والباحثين ، عدم وجود فرص للتدريب اثناء العمل او بعد التخرج ، عدم وجود تسهيلات للبحث العلمي ، غياب الاجهزة الخدمية العلمية الجيدة ، وجود ادارات متخلفة وروتين قاس مما يعيق تحرك العالم للحصول على الاجهزة والكتب والمواد التي يحتاجها لعمله في وقت مناسب ، عدم وجود مكتبات جيدة وخدمات مكتبية كفوءة ، انشغال العالم بالكثير من المحاضرات او الواجبات التي تشغله عن البحث العلمي . ان كل هذه العوامل تنشط حركة هجرة الكفايات[٣٨] . ولقد ذكرت احدى الدراسات [٣٩] بأن الهجرة تزداد في الدول النامية التي تمتلك اجهزة بحث متقدمة وسنأتي الى مناقشة هذه النقطة فيما بعد .

٥) ان معظم الدول النامية تشكو غياب خطة متكاملة للعلم والتكنولوجيا . ولا شك في ان هناك اهمية كبيرة بالنسبة لتخطيط العلم والتكنولوجيا في الدول النامية [٤٠] اذ ان الكثير من الدول النامية تملك موارد طبيعية وبالتالي فمن الممكن ان تتميز خططها القومية لاعطاء اولويات لقطاعات معينة في الاقتصاد القومي . وفي هذا المجال فان التخطيط العلمي يلعب دورا كبيرا في دفع الكوادر العلمية للمساهمة بنشاط في تحقيق الاولويات الاقتصادية التي تنسجم مع استغلال الموارد والامكانات الموجودة في الدول النامية بشكل صحيح .

٣ ـ **العوامل الاجتماعية** : تلعب العوامل الاجتماعية دورا كبيرا في تقليل أو زيادة الهجرة الى الخارج . فالتقاليد الاجتماعية في كثير من الدول النامية تجعل الحاصل على الاختصاص العالي في مركز اجتماعي متقدم كما أن المجتمع ينظر نظرة متميزة الى الاطباء والمهندسين في حين ان الكوادر الوسطية لا تحتل مواقع اجتماعية متميزة ، وهذا يقود اولا الى اندفاع اكثر الكوادر المتعلمة نحو محاولة الوصول الى اعلى السلم الاجتماعي ، وبذلك يزداد عدد المتخصصين في العلوم الطبية والهندسية وبالتالي يزداد الطلب على الوظائف ويقل العرض فتكون النتيجة الحتمية الهجرة . وثانيا فان هذا الوضع سيقود الى قلة الكوادر الوسطية التي هي عماد اي تقدم تكنولوجي في الدول النامية . اما الناحية الاخرى المهمة في التركيب الاجتماعي فهو ان المجتمعات التي تتميز بترابط اجتماعي كبير داخل العائلة ثم داخل المجتمع يتميز افرادها بالشعور بالانتماء الى المجتمع بشكل كبير وفي هذه الحالة فان الكفايات التي تهاجر كثيرا ما تشعر بعد مدة من الزمن بنوع من الغربة والحنين الى الترابط الاجتماعي في الوطن الاول ، وبذلك فان هذا العامل سيعمل لارجاع المهاجر الى وطنه بعد ان يقضي مدة من السنين[٤١] .

نظرة عامة على الوضع في الدول النامية : سنحاول هنا ان نأخذ دولتين واحدة من امريكا اللاتينية والاخرى من اسيا (البرازيل والهند) والسبب في ذلك هو تقدم هاتين الدولتين زمنيا في التنمية الاقتصادية عن الوطن العربي . وسنعود بعد ذلك الى الوطن العربي لنرى الاوضاع السائدة فيه وكيف اثرت وستوثر على هجرة الكفايات .

---

(٣٨) نفس المصدر السابق .

(٣٩) UNITAR, Page 36. **The Brain Drain.**

(٤٠) سلمان رشيد سلمان ومثنى اكرم ، **خطة العلم والتكنولوجيا** . بحث مقدم الى الندوة القطرية حول دور العلم والتكنولوجيا في التنمية القومية ، بغداد ٢٧ ـ ٢٩ حزيران ١٩٧٨ .

(٤١) UNITAR, **Brain Drain** Page 37.

البرازيل : تعتبر البرازيل اول دولة من حيث هجرة الكفايات في امريكا اللاتينية حيث ان هجرة كفاياتها الى كندا للفترة ١٩٦٣ ـ ١٩٧٢ بلغت ٣٨,٦٪ من مجموع الهجرة من امريكا اللاتينية(٤٢) . ولقد اثيرت ضجة كبيرة في العالم حول نجاح التجربة البرازيلية في التنمية وحول دور العلم والتكنولوجيا في انجاح هذه التجربة . ولقد تميزت هذه التجربة بما يلي (٤٣) :

١ ـ اعطاء التصنيع اولوية مطلقة : لان التصنيع قادر على انتشال الدولة من مهاوي التخلف ولقد اقتصر التصنيع في هذه الدولة باتباع سلعة وسيطة تصدر للخارج حيث يتم استخدامها في انتاج السلع الاستهلاكية كتنقية المعادن او تركيزها وغزل القطن وكذلك تشجيع الصناعات التجميعية والتي تقوم على استيراد مواد نصف مصنعة او اجزاء وتركيبها محليا لتتحول الى سلعة استهلاكية . وفي مقدمة ذلك الثلاجات واجهزة صناعة الراديو والسيارات التي اشتهرت بها البرازيل وكذلك مصانع لصناعة الحديد والصلب .

٢ ـ الاعتماد في التصنيع على رأس المال الاجنبي والعمل على تشجيع القطاع الخاص واشراك الشركات المتعددة الجنسية في عمليات التصنيع وخاصة في الصناعات التي تحتاج الى رؤوس اموال كبيرة .

٣ ـ الاعتماد على استيراد التكنولوجيا . خاصة التكنولوجيا المتقدمة التي تعتمد على الكثافة في رأس المال لان هدف التنمية البرازيلية تحقيق نمو متسارع للدخل القومي عن طريق زيادة الصادرات الى السوق الرأسمالية . ومن هنا فان من الضروري ان تكون هذه الصادرات ذات نوعية تضاهي البضائع الاجنبية .

٤ ـ عدم الاهتمام بتوزيع الدخل القومي بصورة عادلة لان ذلك لم يكن ليخدم التنمية التي كانت تقوم على استيراد تكنولوجيا معقدة باهظة التكاليف والتي تحتاج بدورها الى موارد مالية ضخمة ، ولم يكن بالامكان توفير الاستثمارات الا عن طريق تشجيع قيام رأسمالية محلية مرتبطة رأسا بالسوق الاجنبية .لقد حقق النمط البرازيلي معدل نمو قدره ٩ ٪ خلال السنوات العشر الماضية وزاد متوسط دخل الفرد بمعدل مقدار ٥,٦ ٪ رغم تزايد السكان بمعدل ٣,٢ ٪ . الا ان هذه الارقام لا تعبر عن واقع الحال بشكل دقيق والذي تميز بما يلي :

أ ـ التبعية المتزايدة للسوق الرأسمالي : بما ان التنمية قد قامت اصلا على الاعتماد على رأس المال الاجنبي فان كل البنية الاقتصادية والسياسية والثقافية قد وضعت من اجل تشجيع رأس المال الاجنبي على النمو بحجة الاسهام في تحقيق معدلات عالية للنمو ، وهذا قاد بالتالي الى ان تتحول التبعية المالية الى تبعية اقتصادية . وبالتالي فقد سيطرت الشركات متعددة الجنسية على الاستثمار وعلى البنوك الكبرى . واسفر الاعتماد الكامل على التكنولوجيا المعقدة ذات الرأسمال الكثيف في زيادة التبعية التكنولوجية للبرازيل للشركات المتعددة الجنسية .

ب . بما ان الهدف الاساسي الذى كانت تسعى اليه الشركات متعددة الجنسية تحقيق الربح السريع فقد اهملت كل شيء عدا ذلك. ومن هنا فان الصناعات قد تركزت في عدة مدن واعطيت

---

(٤٢) سلمان رشيد ومثنى اكرم ، **خطة العلم والتكنولوجيا** .

(٤٣) د. اسماعيل صبري ، ص ١٦٨ .

الافضلية للصناعات الاستهلاكية ذات الربحية الكبيرة . ولذلك اعتمدت هذه الشركات في جلب التكنولوجيا المتطورة التي لا تحتاج الا الى عدد قليل من العمال . واسفر هذا الوضع في قيام مراكز حضارية متقدمة يرتبط افرادها رأساً بالنمط الاستهلاكي السائد في الدول الراسمالية ، وتتركز حول هذه المراكز التجمعات الكبيرة للعاطلين وشبه العاطلين في حين يعيش الريف بعيدا عن هذا الوضع ولا ينتمي اليه . وبالتالي سميت هذه الحالة بالاقتصاد المزدوج لان الاعتماد على الشركات متعددة الجنسية لن يحقق التنمية المستقلة لان هذه التنمية تتحدد خارجيا بما تمنحه الدول الاجنبية المختلفة للدول النامية .

ان هدف الاستثمارات الاجنبية هو تحقيق الربح ومن هنا رأينا الاستثمارات الجديدة الوافدة على دول العالم الثالث من الخارج عام ١٩٧٣ بلغت ٨ بلايين دولار في حين بلغ حجم الارباح المحولة ١٤ بليون دولار . لقد ادت التنمية البرازيلية واستيراد التكنولوجيا المعقدة في القضاء على الصناعات الصغيرة والحرفية دون ان تتمكن القطاعات الاقتصادية الجديدة من امتصاص الايدي العاملة التي كانت تدير الصناعات الصغيرة والسبب في ذلك هو ان التكنولوجيا المستوردة لا تحتاج الا الى العدد القليل من العمال . لقد اسفر هذا الوضع في امتصاص الصناعة ١٧٪ من مجموع القوى العاملة في حين بقي الريف متخلفا وازدادت البطالة بشكل كبير . لقد وجد القطاع الصناعي في البرازيل نفسه متوجها ومرتبطا بالخارج لانه متكامل تماما مع السوق الرأسمالي وبالتالي فهو غريب عن القطاع التقليدي الذي يضم اكثرية السكان ، بل هو يرى في هذا القطاع مصدرا لليد العاملة الرخيصة التي تزيد ربحيته . لقد تركت التنمية البرازيلية ٥٪ من السكان يحصلون على ٢٨,٨٪ من الدخل القومي في حين يحصل ٥٠٪ من السكان على ١٠,٥ ٪ من الدخل القومي . لقد اسفر هذا الوضع في تباطو نمو الدخل القومي علاوة على التضخم الذي بدأ يصدر الى البرازيل والذي بلغ في حدود ٥٠٪ في حين انه لم يتجاوز ٢٠٪ في اسوأ الاحوال في الدول الرأسمالية الكبرى . كما قاد هذا الوضع الى استقطاب طبقي كبير في المجتمع مما ادى بدوره الى تفاقم الصراع السياسي والاجتماعي وادى ذلك بدوره الى ان ترصد البرازيل مبالغ طائلة لنمو جيشها من اجل الحد من عمليات نمو المعارضة .

الهند : لا تختلف التجربة الهندية في سماتها العامة كثيرا عن التجربة البرازيلية . فقد اعتمدت الهند على عدة خطط قومية للتنمية الخمسية مبتدئة من العام ١٩٥١ . وبذلك فقد قامت بزيادة عدد المعاهد والكليات لتخرج الاعداد الكافية من العلميين والتقنيين الذين ستحتاجهم الخطط الخمسية الثلاث (٥١ ـ ١٩٥٦ ، ٥٦ ـ ١٩٦١ ، ٦١ ـ ١٩٦٧) . وقامت الهند بعملية تحديث كبيرة لقطاعها الصناعي بواسطة اتفاقيات عقدتها مع الشركات الاجنبية متعددة الجنسية بحيث بلغ عدد هذه الاتفاقيات ٤الاف اتفاقية ما بين ١٩٤٨ ـ ١٩٧٢[٤٤] . وتم بموجب هذه الاتفاقيات جلب تكنولوجيا متطورة تعتمد على رأس المال الكثيف . ولقد اسفرت ٢٠ سنة من الاعتماد على رأس المال الاجنبي والتكنولوجيا المتطورة في عملية تزايد الاستقطاب في المجتمع بحيث ان ١٠ ٪ من السكان يحصلون على ٢٥ ٪ من الدخل في حين ان حصة ٦٠٪ من السكان لا تزيد عن ٣٧ ٪ من الدخل . وفي الهند ايضا شجعت الصناعات الاستهلاكية واسفر هذا الوضع في زيادة البطالة كنتيجة لاستيراد التكنولوجيا ذات

(٤٤) .... Amulyn. H. N. Reddy. **Sience Today Journal** page 14, Jan. 1974.

الرأسمال العالي كما تم خلق الاقتصاد المزدوج .

لقد ذكرت كثير من الدراسات بان العلم في الهند في انتعاش . ويبدو لاول وهلة وعند قراءة الارقام بأن هذا القول صحيح . فقد تم زيادة عدد الكوادر العلمية من ١٨٣ الفاً عام ١٩٥٠ الى مليونين عام ١٩٧٥[٤٥] . وارتفع عدد الجامعات من ٢٧ عام ١٩٥٠ الى ١٠٠ عام ١٩٧٥ ويتم بناء ٤٠ مختبراً ومركز بحوث تابعة لمجلس البحث العلمي والصناعي . وبنت المؤسسة العسكرية ٢٧ مختبراً ونما عدد العلماء الى اكثر من ١٠٠ الف . غير ان العلماء لم يجدوا لهم مكانا في ظل التنمية الهندية . فمعظم الصناعات الكبرى تم استيرادها من الخارج ، وهي قائمة على تكنولوجيا متقدمة ، وتجري عملية تطوير هذه التكنولوجيا من قبل مختبرات الشركات متعددة الجنسية الموجودة خارج الهند . كذلك لم تنشىء مختبرات للبحث والتطوير في هذه المصانع . واذا ما انشئت فان العلماء الهنود العاملين فيها كانوا يعملون على تطوير التكنولوجيا الاجنبية لا الهندية وكانت براءات الاختراع لا تسجل باسمهم ولا باسم الهند انما باسم الشركات متعددة الجنسية التي توظفهم . لذلك فقد كانت هجرة الكفايات الى خارج الهند كمؤشر لهذا الوضع الشاذ ، في حين كانت الهجرة الداخلية اخطر . فان الكثير من العلماء الهنود والذين كانوا يعملون في الجامعات ومراكز الابحاث كانوا يرون انفسهم بعيدين عن عملية التنمية الصناعية لان بحوثهم لم تكن مفيدة للصناعة وحتى لو كانت مفيدة فان الصناعة الهندية لم تكن لتعير هؤلاء العلماء اهمية لانها عندما تحتاج الى اي شيء فانها تتقدم الى الخبراء الاجانب من خارج الهند . لقد دفع هذا الوضع العلماء الهنود للقيام بابحاث لا تمت الى عملية التنمية الهندية . وهكذا وجدنا الصناعة الهندية ترتبط بالسوق الرأسمالي في حين ارتبط العلم في الهند بحركة العلم في الدول الرأسمالية .

لقد كان هذا الوضع مشابها للوضع الذي عاشته المؤسسة العلمية في امريكا اللاتينية ، لان معظم الصناعات الكبرى في امريكا اللاتينية كانت تقع ضمن دائرة الشركات متعددة الجنسية . ومن هنا رأينا بأن الدور الذي لعبه العلم في الدول المتقدمة غير ذلك الذي لعبه في الدول النامية . ففي حين يلعب العلم دورا استثماريا في الدول المتقدمة يلعب دورا استهلاكيا في الدول النامية[٤٦] . وتذكر دراسة اخرى ان القطاع الخاص في الدول المتقدمة يساهم بـ ٧٠ ٪ في البحث والتطور في الصناعة في حين ان القطاع الخاص في امريكا اللاتينية يساهم فقط بحدود ٢ ٪[٤٧] .

ان من الواضح بان هنالك انفصالا ما بين القطاع الانتاجي الصناعي المتقدم والقطاع العلمي . وهذا بدوره قد قاد اما الى هجرة الكفايات او الى ان تأخذ هذه الكفايات دورها في اسناد حركة المعارضة المتنامية للانظمة السياسية السائدة في معظم دول امريكا اللاتينية .

ان معظم الاقطار العربية قد استقلت حديثا ، وجميعها كانت محتلة من قبل دول متقدمة . وقد ادى ذلك الى ان ترتبط الاقطار العربية بالسوق الرأسمالية العالمية . وهذا بدوره قد ادى الى تشويه بنية الاقتصاد العربي وجعله احادي الجانب وتابعا للسوق العالمية . فقد غدت البلاد العربية تشتغل

---

(٤٥) TD B C.6 AC. 4 5 Dec 1977.

(٤٦) Charles Coomer, **Science Technology and Development**, Frank Cass, London 1973.

(٤٧) Amilcar Herrera, **Science, Technology and Development**, Frank Cass, London 1973.

بالزراعة والري والصيد والمناجم وتنتج سلعا ومواد اولية معدة للتصدير الى الغرب[٤٨] . كما ان المنطقة العربية تتميز بتفاوت في توزيع القوى المنتجة . اذ ان حوالي ٧٠٪ من الاراضي الزراعية توجد في خمسة اقطار (السودان والمغرب والجزائر وسورية والعراق) . اما الموارد الطبيعية فهي موزعة ايضاً بصورة متفاوتة . ولو اخذنا النفط كمثل لرأينا انه يمثل :٨٠٪ من الناتج المحلي الاجمالي للكويت والامارات ولا يمثل اية نسبة للاردن . ان الاقطار النفطية وعدد سكانها ٤٠ مليوناً يمثلون ٢٨ ٪ من مجموع العرب ، تسيطر على ٧٠ ٪ من الناتج القومي الاجمالي . اما بالنسبة للقوى المنتجة البشرية فقد ارتفع عدد السكان العرب من ١٠٤ ملايين عام ١٩٦٣ حتى بلغ ١٤٢,٨ مليوناً عام ١٩٧٥ وسيبلغ اكثر من ١٨٤ مليوناً عام ١٩٨٥ . ويشكل الريف ٦٥ ٪ من مجموع السكان . وان ثلاثة اقطار عربية وهي مصر والمغرب والعراق تضم ٥١ ٪ من مجموع السكان في حين يوجد ٨,٨ ٪ من جملة السكان في عشرة اقطار عربية . ان هناك تدنيا واضحا في نسبة العاملين بالصناعة اذ ان الزراعة والصيد والتعدين قد ساهمت عام ١٩٧٢ بنسبة ٤٥ ٪ من الناتج المحلي في حين احتلت الخدمات المكانة الاولى في توليد الدخل المحلي الاجمالي عام ١٩٧٥ اذ بلغت ٥٠ ٪ وتليها الزراعة ثم الصناعة[٤٩] . ان الوطن العربي يقدم ٠,٤ ٪ من الانتاج الصناعي العالمي ولا يقدم الا ٦ ٪ من مجمل الانتاج الصناعي للدول النامية . اما الصادرات الصناعية العربية فلم تتجاوز ٠,٠٣ ٪ من اجمالي الصادرات العالمية و ٥,٤ ٪ من اجمالي الصادرات الصناعية في البلدان المتخلفة ويتصف هيكل الصناعة العربية بمساهمة عالية للصناعات الاستهلاكية اذ تبلغ ٦١ ٪ .

ان هذه الارقام لتبين ان معظم الاقطار العربية تعتمد على توفير الانماط الاستهلاكية . ونتيجة عمليات التصنيع التي تمت في تجمعات محددة حول المدن الرئيسية نشأ قطاعان : الاول يمثل سوق السلع التقليدية حيث يتمثل الطلب في مشترى اصحاب دخل منخفض ويتمثل العرض بالنسبة لهم في منتجات الزراعة والحرف . وهناك من جانب آخر سوق السلع الحديثة حيث ينبع الطلب من اصحاب الدخل المرتفع وحيث يشكل العرض من منتجات الصناعة الحديثة او من الواردات المصنوعة . وتبدو السوقان منعزلتين تقريباً[٥٠] .

ان هذه الصورة توضح ان معظم الاقطار تقوم بالتنمية بصورة منفردة . وهذا يعزز ارتباطها وتبعيتها للسوق الرأسمالية العالمية . في حين ان هناك امكانية كاملة لكي تتحرك المنطقة العربية كوحدة واحدة وهذا يعزز من تكاملها الاقتصادي ويقلل ارتباطها بالسوق العالمية . وان على الامة العربية ان تتخذ قرارها باسرع وقت وبدون ذلك فان انماط التنمية في المنطقة العربية ستكون متطابقة مع انماط التنمية في امريكا اللاتينية . ونحن نرى الكثير من هذه المؤشرات والتي ذكرناها عن البرازيل والهند تبدو واضحة في الكثير من الاقطار العربية .

ان الكثير من الاقطار العربية تقوم الآن بعمليات تصنيع كبيرة وفي هذا المجال فان هذه الدول تقوم باستيراد التكنولوجيا الجاهزة والمعقدة في كثير من الاحيان . وكما تدلل الدراسات في هذا المجال فان معظم الشركات الاجنبية العاملة في الاقطار العربية في منطقة المشرق تقوم بتميز التكنولوجيا

---

(٤٨) د. فؤاد حرب ، ازمة التنمية الاقتصادية العربية . ص ١٢ **النفط والتنمية** . ١٩٧٩ .

(٤٩) نفس المصدر ، ص ١٥ .

(٥٠) نفس المصدر ، ص ٢٠ .

المطلوبة وادارة المشاريع الصناعية عدا لبنان وسورية والعراق والاردن[٥١] . كما يتزايد اعتماد الاقطار العربية على التكنولوجيا الغربية . ان نمط الاستهلاك في كثير من الاقطار العربية يشابه نمط الاستهلاك الغربي . وهناك تزايد في استيراد المكائن ومعدات النقل لكل المنطقة العربية حتى انه بلغ لدول المشرق عام ١٩٧٥ في حدود ٨ بلايين دولار[٥٢] .

ان التكنولوجيا المستوردة تأتي بصورة متكاملة . لذلك فلا تجرى اية محاولات لتطوير التكنولوجيا الا في قطاع الزراعة . ومعظم المشاريع الصناعية المقامة تفتقر الى وحدات للبحث والتطوير ، لذلك فانه لا يوجد طلب على مراكز البحث والجامعات حتى انه يجري في كثير من الاحيان الاعتماد على الشركات الاجنبية لحل مسائل هندسية يمكن حلها بسهولة من قبل الكوادر الوطنية داخل الاقطار العربية[٥٣] .

اما بالنسبة للوضع التعليمي والعلمي في الاقطار العربية فان هذه الاقطار قد توارثت الاجهزة التعليمية من ايام الاحتلال ولم تجر الا محاولات قليلة في بعض هذه الاقطار لتغيير المناهج التعليمية بشكل يخدم عملية التنمية في القطر . كما ان هنالك غياباً شبه كامل للتعليم التكنولوجي في المراحل التعليمية الاولية . واذا ما اخذنا نسب التلاميذ حسب الاختصاص في الاقطار العربية لرأينا اغلبية الاختصاصات الانسانية بشكل واضح في الوقت الذي تحتاج فيه هذه الاقطار الى الاختصاصات العلمية .

ان نسبة توزيع الطلبة على الاختصاصات في العام ١٩٧٣ كانت بالشكل التالي[٥٤] : العلوم الاجتماعية والانسانية ٦٤٪ ، العلوم الطبيعية ٧,٥ ، العلوم الهندسية ١٠ ، العلوم الطبية ١٠,٥ ، الزراعية ٨ . ويعكس هذا الوضع تخلف هذه الاقطار في تحقيق الهدف الذي وضعته الخطة العالمية للعمل من اجل تطبيق العلم والتكنولوجيا للتنمية وهو ان يكون هنالك ٢٠٠ عالم / مهندس يعملون بالبحث والتطوير لكل مليون نسمة من السكان نهاية ١٩٨٠[٥٥] . فبلغت في العراق والكويت ومصر ولبنان وتونس اكثر من ١٠٠ في حين بلغت في ليبيا ٢٤ واقل من ٢٠ في الجزائر[٥٦] .
اما نسبة التقنيين لكل عالم ومهندس فقد بلغت في الاقطار العربية ٠,٥ الى ١ في حين ان النسبة في افريقيا هي ١,٣ الى واحد وفي امريكا اللاتينية ٢,٤ الى ١ وفي الدول المتقدمة ١,٨ الى واحد[٥٧] . وهذه

---

(٥١) R. Van Der. Graaf. **Technology Transfer and change in the Arab World**, edited by A. B. Zahlan. Pergamon Press. Oxford. 1978.

(٥٢) نفس المصدر .

(٥٣) نفس المصدر .

(٥٤) Statistics on Scientific and Technological Manpowers and Expenditure for Research and Experimental Development in Arab countries. sc / 76- Castarab I Unesco 1976.

(٥٥) نفس المصدر .

(٥٦) نفس المصدر .

(٥٧) نفس المصدر .

نسبة متدنية جدا اذا علمنا بأن التقنيين هم اساس اية تنمية تكنولوجية وعلمية . لقد سجلت احصائيات الاقطار العربية وجود نسبة كبيرة من العلماء والمهندسين في البحرين و٨٠٪ في الكويت و٥و٧٨٪ في ليبيا و٩٠٪ في قطر . اما نسبة الاجانب من التقنيين فهم ٣٥٪ في البحرين و٨٠٪ في الكويت و٧٦٪ في قطر .

اما نسبة العلماء العاملين في البحث والتطوير من مجموع العلماء في الدول العربية فتبينها الارقام التالية للعلماء والمهندسين اولا وللتقنيين ثانيا(٥٨) : مصر ٢٪ ، والعراق ٣,٦٪ و ١,٥٪ ، الاردن ٣,٥٪ و ٣,٤٪ ، الكويت ١,٥٪ و ٠,٥٪ ، ليبيا ٠,٦٪ و ١,٤٪ ، السودان ١,٨٪ و ٨,٠٪ ، اليمن ٤,٥٪ و ٧,٣٪ .

ان هذه النسبة واطئة ايضا حيث تبلغ في الدول المتقدمة ١٠ ـ ١٥٪ . ان نسبة العلماء والتقنيين العاملين في البحث والتطوير في القطاع الانتاجي تبلغ في حدود ٤٣,٤٪ من العلماء و٤٧٪ من التقنيين عدا السودان حيث تبلغ النسبة ٠,٤٪ ولبنان حيث تبلغ النسبة ١٣,٣٪ . الا ان معظم الابحاث التي تجريها هذه المجموعة من العلماء هي التي لا تستفيد منها الصناعة . اما نسبة العلماء المهندسين العاملين في البحث والتطوير في قطاع التعليم فهي ٣٣,٤٪ وفي الخدمات العامة تبلغ النسبة في حدود ٢٠٪ . لقد حددت الامم المتحدة هدفا للدول النامية بالنسبة للانفاق على البحث والتطوير بحيث تبلغ ٠,٥٪ . واذا ما اضيفت اليها الخدمات العلمية فان النسبة يجب ان تصل الى ١٪ ومن الملاحظ ان دولة واحدة وهي مصر قد اقتربت من هذا الهدف . اما الدول الاخرى فان النسبة المئوية للانفاق في حقل الابحاث والانماء من الدخل القومي فتبلغ : العراق ٠,٢٥٪ ، الاردن ٠,٣١٪ ، الكويت ٠,١٪ ، لبنان ٠,٤٠٪ ، اليمن ٠,٢٥٪ . ان الانفاق في حقل الابحاث والانماء للفرد من السكان في الدول المتقدمة يبلغ ما بين ٢٠ ـ ١٠٠ دولار بينما هو يتراوح في الاقطار المذكورة انفا بين حد اعلى هو ٢,٣ دولار في العراق و٠,٣ في اليمن (٥٩) .

الاستنتاجات

١ ـ ان نسبة هجرة الكفايات العربية الى امريكا وكندا الى نسبة الهجرة العالمية للفترة ١٩٦١ ـ ١٩٧٢ بلغت ٩٪ ، وهذه النسبة تفوق حوالي المرتين مجموع الهجرة الافريقية الكلية الى الدول المتقدمة .

٢ ـ ان معظم الهجرة تتركز في الاختصاصات العلمية التي تحتاج اليها المنطقة في التنمية وهي تبلغ ٩٦,٢٪ للاختصاصات الطبيعية والطبية والهندسية .

٣ ـ ان نسبة كبيرة من خريجي الكليات هم من الاختصاصات الانسانية وتبلغ ٦٠٪ في حين انه في الدول المتقدمة فان النسبة معكوسة .

٤ ـ ان المؤشرات للنسبة العلمية سواء بعدد العلماء او بنسبة العلماء الى التقنيين او نسبة الانفاق على البحث هي واطئة جدا حتى بالمقارنة مع الدول النامية . ولقد انعكس هذا الوضع في قلة البحوث التي تنتج في المنطقة العربية وعدم تسجيل براءات اختراع بالنسبة للكوادر الوطنية الا ما ندر وهذا يعكس نفسه في الاعتماد الكامل على الخبراء الاجانب .

---

(٥٨) نفس المصدر

(٥٩) ECWA 30 March 1977 ....

٥ ـ ان استيراد التكنولوجيا الجاهزة والمعقدة كما هو الحال بالنسبة للكثير من الاقطار العربية لن يترك المجال للكفايات العربية في المشاركة في تطويع وتطوير التكنولوجيا .

٦ ـ ان الاقتصاد العربي هو اقتصاد احادي الجانب يعتمد بالدرجة الاولى والرئيسية على تصدير المواد الاولية او الاستخراجية وان نسبة مساهمة الصناعة العربية كما رأينا الى مجموع الانتاج العالمي والى مجموع انتاج الدول النامية قليل جدا بالرغم من وجود الامكانات العربية الكبيرة والتي لو استغلت بشكل صحيح لتغيرت الصورة بدرجة ملموسة . علاوة على ان التنمية في الاقطار العربية تتم في كثير من الاحيان بالارتباط بالسوق العالمي لا الارتباط بالسوق العربية .

٧ ـ ان معدلات التنمية الكبيرة التي تذكرها بعض الاقطار العربية لا تعبر عن واقع الامر اذ ان التنمية التي تخلق طبقة صغيرة مرفهة على حساب مجموع السكان وتخلق اقتصادا مزدوجا لا يمكن ان تعتبر تنمية صحيحة . ومن هنا رأينا بأن دولا كالبرازيل قد سجلت معدلات تنمية كبيرة غير ان واقعها كان يعبر عن صورة غير صحيحة .

٨ ـ ان معظم الانفاق على الابحاث والتطوير قد انتج ابحاثا غير ان هذه الابحاث لم تساهم في تطوير العمليات الانتاجية .

٩ ـ لقد رأينا بأن الهجرة تعتمد على عوامل دفع وجذب ففي الوقت الذى تزيد فيه العوامل الاقتصادية والسياسية قوة دفع الكفاية للهجرة فان التلازم الاجتماعي القوي في المجتمعات العربية يدفع المهاجر كما ذكرنا للرجوع . الا ان التنمية الحالية قد بدأت تغير من العادات الاجتماعية وبدأت الهجرة وعملية التصنيع تعمل بسرعة لتفكك العائلة والروابط الاجتماعية(٦٠) . وهذا يعني بأن احد عوامل الجذب الرئيسية للعودة للوطن قد اصبح ضعيفا . ومن هنا تأتي المؤشرات المذكورة في دراسات الامم المتحدة لتؤكد بأن كمية العائدين الى البلاد العربية هي اقل من افريقيا وامريكا اللاتينية .

١٠ ـ ان معظم الاقطار العربية تفتقر الى اجهزة للتخطيط للعلم والتكنولوجيا مما يؤدي الى زيادة بعثرة جهود الكفايات العلمية وعدم وضعها في الاماكن المناسبة وضياع التعاون ما بين القطاعات الانتاجية والخدمية في الدولة . بل ان معظم الاقطار العربية لم تجر فيها عملية احصاء الكوادر العلمية والتقنية .

١١ ـ ان معظم الاقطار العربية تقوم بزيادة عدد خريجيها وبصورة غير مدروسة وغير متوازنة مع نمو القطاعات الاخرى ، بحيث ان معظم الاختصاصات هي انسانية واجتماعية وهذا سيؤدي الى نقص في بعض الاختصاصات وزيادة في الاختصاصات الاخرى .

١٢ ـ ان استمرار الحالة التي ذكرت في هذا البحث ستؤدي بلا شك الى زيادة هجرة الكفايات العربية الى خارج المنطقة العربية علاوة على ان هذا الوضع سيؤدي الى تزايد الهجرة الداخلية والتي تعني غياب مساهمة الكفايات العربية في عملية ترشيد التنمية وتوطين التكنولوجيا .

١٣ ـ ان اكثر الدراسات التي جرت في الاقطار العربية قد فسرت اسباب الهجرة بالعوامل المادية الاقتصادية . ومن هنا فان معظم القوانين التي شجعت الكفايات للعودة قد ركزت بصورة رئيسية على البحوث المادية . ورغم اهمية العوامل الاقتصادية الا انها لا تستطيع ان تفسر هجرة الكثير من الكفايات والتي تجري في بعض الدول العربية والنامية رغم ان الدخل المادي للمهاجر في البلد النامي يعادل الدخل في الدولة المتقدمة .

---

(٦٠) التحضير في الوطن العربي .

الجامعات في الوطن العربي وهجرة الأدمغة

د . الياس زين

رئيس قسم اللغة الانكليزية وادابها
في الجامعة اللبنانية (الفرع الثالث) .
باحث له عدد من الدراسات في
التربية والتنمية وهجرة الادمغة .

منذ أوائل عقد الستينات الماضي ، وبشكل أكثر كثافة في أعقاب حرب حزيران/يونيه من العام ١٩٦٧ ، تعرضت ، ولا تزال ، بعض الاقطار العربية لهجرات عديدة . ومن أبرز تلك وأخطرها ، هجرة الكفايات العلمية والفنية والتقنية ، من الوطن العربي الى البلدان المتقدمة في الغرب وخاصة الى اميركا الشمالية . ومن بين أكثر موجات المهاجرين حداثة ، تلك التي شملت غالبية من خريجي الكليات والجامعات . وقدر عدد هؤلاء المهاجرين ، الذين غادروا المنطقة العربية . منذ العام ١٩٥٠ ، بمائة ألف مغترب عربي . ويشكل هؤلاء (١ . ٦) من خريجي الجامعات العربية ، أو (١ . ٣) من العرب الحائزين على شهادات ماجستير علوم ودكتوراه في الطب والفلسفة . واستقر بعض خريجي الجامعات في بلدان أوروبا الغربية[١] . وفي طليعة الأقطار العربية ، التي تعاني من ظاهرة هجرة الأشخاص المؤهلين والمدربين في الكليات والجامعات . لبنان ومصر والاردن وفلسطين والعراق وسوريا . ومن الملاحظ إنها الأقطار الاقل ثروة والاكثر سكانا بصفة عامة في الوطن العربي .

ومن المحتمل ان يستمر تيار الهجرة العلمية والفنية في المستقبل وأن يزداد ، إذا ما بقيت العوامل والاسباب الداخلية الدافعة ، وكذلك العوامل الخارجية الجاذبة ، قائمة ، وإن لم تتخذ تدابير جذرية وثورية ، للحد من عملية الاستنزاف هذه . وبات مؤكدا اليوم ان تطور أي أمة وتقدمها ، وبالتالي قوتها ، يتوقف الى حد بعيد ، على تعليم ثروتها البشرية وتدريبها واستخدامها بشكل فعال في التطوير والانماء . ويعتبر المتعلمون والمثقفون ، وفي مقدمتهم فئة الجامعيين ، القاعدة الاساسية والعمود الفقري لكل عملية تطوير وإنماء وتقدم في المجتمعات الحديثة والمعاصرة .

والغريب في الأمر ان تسرب المواهب المثقفة ، يأتي في الوقت التي يشتد فيه الطلب على الكفايات العلمية والادارية والفنية والتقنية ، في معظم الاقطار العربية ، وفي الاقطار النفطية منها بوجه خاص . وتؤكد الاحصاءات المتوافرة الى ان الأقطار العربية عامة والنفطية خاصة ، تعاني من نقص فادح في

(١) انطوان زحلان ، « تنمية الموارد البشرية كمحور للتكامل العربي » . **مجلة دراسات عربية** (بيروت ، نيسان/إبريل ١٩٧٦) ، ص ٢٨ .

الأطباء والمهندسين والعلماء والخبراء والباحثين والفنيين والمدراء ومن اليهم من المؤهلين والمدربين على المستويات العليا من المهارة العلمية والفنية .

ماذا يعني ذلك ؟ وما هي أبعاد هذه الهجرة ومضاعفاتها ؟ لا ريب في أن هذا النزف ، للموارد البشرية العلمية والفنية . يعتبر ، في الواقع ، خسارة تعليمية وعلمية وانمائية وثقافية وحضارية فادحة ، لا تقدر بثمن ولا يمكن تعويضها بسهولة . لان الذين يهاجرون هم عماد التطوير وعصب التنمية وفرسان التقدم والقوة .

وتعود عوامل الهجرة واسبابها الى **تخلف** الاقطار العربية ، حضاريا وعلميا وتكنولوجيا وتربويا ، فضلا عن عدم الاستقرار السياسي . إلا اننا في هذا البحث سنركز على دراسة عامل واحد فقط ، وهو **قطاع التعليم العالي والجامعي** ، الذي يعتبر كعامل مسؤول جزئيا ، عن هجرة الجامعيين الذين تعلموا في الاقطار العربية وتدربوا فيها . ومن الملاحظ ان الشهادة الجامعية باتت ، لعدد كبير من حامليها ، « تذكرة الدخول » الى حياة أفضل في البلدان المتقدمة ، أو جواز سفر للخارج .

ولكن إيقاف هذا النزيف المميت للامة العربية أمر خطير يجب ان تضعه الاقطار العربية بين أولوياتها المتقدمة فورا . وقد بدأت فعلا بعض الحكومات العربية ، كالعراق وليبيا وسوريا مثلا ، تصدر تشريعات للحد من هجرة العقول ، ولاسترجاع المهاجرة منها ، مستخدمة حوافز مادية وعوامل معنوية . إلا ان الجهود المبذولة حاليا لم تنجح ، كما يجب . بيد ان الحل الوحيد ، في نظرنا ، يكمن في تطوير التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة ، واعتماد خطة إنمائية شاملة ، لبناء مجتمع عربي مثقف ، يستطيع أن يواكب تطورات العصر وتحدياته .

ونحاول في هذا البحث ان نتصدى ، بالدرس والتحليل ، لقضية هجرة خريجي الكليات والجامعات في الوطن العربي ، أي الاشخاص الذين تعلموا وتدربوا وتأهلوا في مؤسسات التعليم العالي والجامعي في الاقطار العربية ، ثم ما لبثوا ان هاجروا الى البلدان المتقدمة وخاصة الى الولايات المتحدة وكندا . ولا يشمل هذا البحث الطلاب الذين يدرسون في البلدان المتقدمة ويرفضون العودة الى أرض الوطن . وعليه ، فسنقوم بعرض لأوضاع الجامعات الراهنة وتحليل أبرز سماتها الايجابية والسلبية معا ، وبالقاء نظرة الى توقعات الهجرة في المستقبل ، وباظهار حاجة العرب الى العقول الجامعية ، وبكشف العوامل والاسباب الكامنة وراء الهجرة . وباظهار آثار الهجرة المدمرة على الأمة العربية ، وأخيرا ، باقتراح خطوات علمية وعملية لمواجهة هذه القضية .

وقبل أن نأتي الى عرض هذه النقاط وبحثها ، يجدر بنا أولا ان نحدد مفهوم هجرة العقول الجامعية .

نقصد بهجرة العقول الجامعية العربية ، حركة /ظاهرة استنزاف حملة الشهادات الجامعية ، الذين تعلموا وتدربوا وتثقفوا في الجامعات بالوطن العربي ، إما في الجامعات والكليات العربية ، الوطنية (الحكومية) ، أو في الجامعات والكليات الاجنبية العاملة في بعض الاقطار العربية ، كالجامعة الاميركية والجامعة اليسوعية في بيروت ، مثلا . ونطلق على هذا النوع من الهجرة ، الهجرة العلمية والتقنية عامة . لانها تركز على الخريجين ، الذين تأهلوا وتدربوا في الميادين العلمية والتقنية ، كالطب والهندسة والزراعة والعلوم الطبيعية على أنواعها .

ونقصد بالمهاجر الجامعي العلمي ، تلك المواطن ، من أي قطر عربي ، ممن يحمل شهادة جامعية ـ من أي جامعة في الوطن العربي ، ويترك موطنه أو بلده لفترة تستمر سنة أو اكثر ، ليستقر في بلد متقدم في الغرب ، بقصد العمل الدائم أو المؤقت ، أو السعي وراء مزيد من الدراسة والعلم والتحصيل العلمي أو التخصص العالي والدقيق . غير ان الخبراء الذين يعملون في الامم المتحدة ووكالاتها لا يدخلون في نطاق المهاجرين[٢] .

ونقصد بالتعليم العالي والجامعي ، تلك المرحلة التي تلي المرحلة الثانوية مباشرة . وتتضمن المعاهد التعليمية أو التدريسية والعلمية والتقنية ، ولا سيما الكليات والجامعات . وأما الشهادات التي تمنحها هذه المرحلة ، فتبدأ بشهادة البكالوريوس ، مرورا بالماجستير ، وتنتهي بشهادة الدكتوراه ، على مختلف أنواعها واختصاصاتها . بيد ان الشخص الذي يحوز على شهادة أو « دبلوم » أقل من مستوى شهادة البكالوريوس ، لا يعتبر جامعيا ، في هذا البحث .

الأوضاع الراهنة للتعليم الجامعي واتجاهاته

نقدم ، فيما يلي ، صورة عامة لاوضاع التعليم العالي والجامعي والاتجاهات السائدة ودراستها ، لنبين حقيقتها الراهنة . ولا ريب في ان الباحث الموضوعي يكشف ، كما لكل شيء ، وجهين لقطعة العملة الواحدة . وجه مشرق يتضمن النواحي والتطورات والانجازات والسمات الايجابية . يقابله وجه قاتم يشمل النواحي والصفات السلبية والثغرات والتشوهات والنواقص والعلل والقضايا والمشكلات وما شابه ذلك .

الجانب المشرق : نمو التعليم الجامعي :

يجدر بنا ، أولا ، ان نبدأ بتقديم صورة موجزة ، لاهم الانجازات التي حققها التعليم العالي والجامعي في الاقطار العربية منذ ربع هذا القرن الاخير . وكان أبرز هذه المنجزات زيادة عدد الجامعات ، زيادة الجامعات الوطنية (العربية) ، زيادة أعداد الطلاب المسجلين ، وتوسع الجامعات القديمة والجديدة .

١ ـ زيادة عدد الجامعات : لعل أبرز ما يظهر ، من الناحية الكمية ، نمو عدد الجامعات العربية في السنوات الاخيرة . ففي مطلع عقد الخمسينات الماضي ، لم يكن عدد الجامعات يتجاوز العشر . بيد ان العدد اليوم بلغ زهاء الخمسين جامعة في الوطن العربي . أي ان العدد ازداد خمس مرات في غضون ربع قرن من الزمن[٣] . ويضاف الى الخمسين جامعة ، إنشاء معاهد إعداد الفنيين والمعاهد التكنولوجية ، التي باتت تنمو باعداد متزايدة ، في عدد من الاقطار العربية ، وبخاصة في سوريا والعراق ومصر[٤] .

٢ ـ زيادة الجامعات الوطنية : هذا وان الجامعات الوطنية العربية الرسمية اخذة في

---

(٢) الياس زين ، « أخطار نزيف الادمغة على الأمة العربية » ، **مجلة المستقبل العربي** (بيروت ، العدد ٢ (١٩٧٨/٩) ، ص ٤٩ .

(٣) إيلي سالم ، حديث في **جريدة النهار** (بيروت ، ١٢/٨/١٩٧٩) .

(٤) **مجلة التربية الجديدة** (بيروت ، العدد ١٠ ، كانون الاول ديسمبر ١٩٧٦) ، ص ٢٨ .

الازدياد . ففي مطلع عقد الخمسينات ، كانت نسبة كبيرة من الجامعات القائمة آنذاك ، إما أجنبية ، بدأت تبشيرية دينية ، كالجامعة الاميركية في بيروت ، والجامعة الاميركية في القاهرة ، والجامعة اليسوعية في بيروت ، وإما جامعة تقليدية ، كجامعة الازهر في القاهرة . إلا ان اليوم ، فان الطابع أو النوع الغالب للجامعات القائمة في الوطن العربي ، هو الوطني والقومي . ولا ريب في أن هذا النوع من الجامعات العربية يمثل ، في الواقع ، تطلعات الشعب العربي وطموحاته الى التعليم العالي والجامعي او الى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وبالتالي الى مستقبل أفضل وأشرف لهذه الأمة العريقة[٥] .

٣ ــ **زيادة اعداد الطلاب** : وكان عدد الطلاب المسجلين في الجامعات بالوطن العربي ، حوالي ١٥٠ ألف طالب وطالبة في العام ١٩٦٠ . ثم ارتفع الى ٤٥٠ ألفا في ١٩٧٠ ، والى ٤٨٩ الفا في العام ١٩٧٤[٦] .

٤ ــ **توسع الجامعات القديمة والجديدة** : وتوسعت الجامعات والكليات في الاقطار العربية ، القديمة منها والجديدة ، على حد سواء ، في كلياتها ومعاهدها ودوائرها وإختصاصاتها . ففي مطلع الخمسينات مثلا ، كانت الجامعة الأميركية في بيروت تضم كليتين فقط ، واحدة للآداب والعلوم ، وأخرى للطب . وبعد ذلك بقليل ، انشئت كلية الزراعة وكلية الهندسة . كما تأسس مؤخرا فرع التربية والبرامج الخاصة ، وكلية علوم الصحة ، وكلية طلال ابو غزالة للدراسات العليا في إدارة الاعمال . وتطورت كلية بيروت للبنات ، فاصبح إسمها كلية بيروت الجامعية في العام ١٩٧٣ .

وفي لبنان أيضا ، لعل اكبر توسع حصل في الجامعة اللبنانية ، الرسمية ، بسبب الاحداث ، كان إنشاء فروع للجامعة المذكورة في المحافظات ، بعد ان كانت مركزة في بيروت وحدها . وبذلك أصبحت الجامعة خمسة فروع ، تحت إدارة مركزية واحدة . كما أصدرت التشريعات اللازمة من مجلس الوزراء لانشاء كلية هندسة بثلاثة فروع . ومن المتوقع ان تبدأ الدروس في هذه الكلية في العام الحالي . هذا وتقام الدراسات والاستطلاعات وتجري الاستعدادات لانشاء كلية للزراعة في منطقة البقاع . وقامت أيضا بعض الكليات وا جامعات في لبنان بانشاء فروع محدودة لها في المحافظات اللبنانية .

وأما في دولة الكويت ، فقد تأسست نواة جامعة الكويت في العام ١٩٦٦ ، وكانت تضم كليتين ــ كلية العلوم والاداب والتربية ، وكلية البنات الجامعية . ثم توسعت الجامعة بحيث أصبحت تضم خمس كليات وهي . كلية الحقوق والشريعة وكلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية (١٩٦٧) ، فصل كلية العلوم عن كلية الآداب والتربية (١٩٧١) ، وكلية الهندسة والبترول (١٩٧٤) . وبدأت الدراسة في كلية الطب في ١٩٧٧/٧٦ . وتمت الموافقة على انشاء كلية الدراسات العليا في سنة ١٩٧٧[٧] .

وما ينطبق على لبنان والكويت ينطبق أيضا على بقية الاقطار العربية ، التي تتجه الى تطوير الجامعات ومعاهد التعليم العالي والى زيادتها وتوسيعها .

---

(٥) قسطنطين زريق . « دور الجامعة في العالم العربي » . **نشرة وجهة نظر** (بيروت ، العدد التاسع ، ١٩٧٥/٤/٢٩) . ص ٦ .

(٦) المرجع ٤ . ص ٢٩ . والمرجع ٥ . ص ٦ .

(٧) جامعة الكويت . **الدليل الدراسى العام ١٩٧٧ ــ ١٩٧٩** ، ص ٨ ــ ٩ .

الجانب القاتم : أزمة تطور الجامعات :

ولكن بجانب هذا الوجه المشرق ، ثمة وجه آخر يقابله ، هو الوجه القاتم . ويتسم هذا الوجه بملامح سلبية ، يمكن ان نطلق عليها . أزمة تطور الجامعات في الوطن العربي . ولعل أبرز ملامح هذا الجانب وسلبياته ، نقاط الضعف الآتية .

١ ــ **هجرة مرتفعة لخريجي الدراسات العلمية :** من الناحية الكمية والنوعية معا ، ان نسبة المهاجرين من خريجي الجامعات في الحقول العلمية والتقنية عالية جدا . كما تؤكد الارقام في الجدول المدرج هنا[٨] .

نسبة المهاجرين السنوية من عدد خريجي
الجامعات في الاقطار العربية الى
الولايات المتحدة وكندا (٦٢ ــ ١٩٦٦)

القطر	مهندسون	اطباء	علماء طبيعة	علماء اجتماع
سوريا	٪٥٦,٤	٪٩,٢	٪١١,٧	٪٠,٨
لبنان	٪٢٥,٥	٪٢٤,٩	١٠,٥	٪٠,٥
العراق	٪٩,٢	٪٤,٩	—	٪ ,١
مصر	٪١,٩	٪٢,٧	٪٤,٦	٪٠,٦
تونس	—	—	٪١٢,٥	٪٥,٠
الاردن	—	٪٢١,٨	—	—

وجاء في تقرير ختامي لمؤتمر وزراء التربية العرب في أبو ظبي (١٩٧٧) ، ان ربع (٢٥٪) الاطباء العرب يهاجرون ، وكذلك خمس (٢٠٪) المهندسين ، و ١٥٪ من الخريجين الحاصلين على شهادات علمية[٩] .

وفي العام ٧٢ ــ ١٩٧٣ بلغ عدد المهاجرين من خمسة أقطار عربية . وهي . مصر والاردن ولبنان وسوريا والعراق ، ٣,١٣٢ مهاجرا من المهنيين والفنيين ، أي ١٧٪ من المجموع العام للمهاجرين الذي بلغ ١٨,٦٢٢ مهاجرا[١٠] ، ولا ريب في ان نسبة كبيرة من المهاجرين المهنيين والفنيين ، قد تعلموا في الكليات والجامعات العربية وتدربوا فيها .

٢ ــ **علاقة التعليم بالتنمية وحاجات المجتمع ضعيفة :** وعلى الرغم من ان الحاجة الاساسية للمجتمع العربي ، في الوقت الحاضر ، هي **التنمية** الوطنية والقومية الشاملة ، إلا أن

---

(٨) الياس زين ، **هجرة الادمغة العربية** (بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢) ، ص ٢٧ .

(٩) Conference of Ministers of Education and those Responsible for Economic Planning in the Arab States. Organized by UNESCO and ALECSO. **New Prospects in Education For Development in the Arab Countries** (Abu-Dhabi, UAE, 7-16 November 1977), p. 33

(١٠) المرجع ٢ ، ص ٥١ .

العلاقة تبدو ضعيفة جدا ، بين التعليم الجامعي وبين حاجات التنمية وقضايا المجتمع العربي المعاصرة . أي ما زالت الجامعات تقدم التعليم للطلاب من أجل التعليم والثقافة لا من أجل الثقافة إجمالا . وعليه فان الجامعات بوضعها الراهن ، لا يمكن ان تخدم قضايا التنمية ، بل تناقضها أحيانا(١١) .

٣ ــ الجامعة مصنع لاعداد حملة الشهادات : وهذه النقطة ترتبط بالسابقة . فما زال مفهوم الجامعة ووظيفتها وأهدافها تقليدية ورجعية ، عفا عنها الزمن وتخطاها ، منذ عشرات السنوات . ويمكن ان نشبه الجامعة بمصنع ، هدفه الاساسي إعداد حملة الشهادات وتدريبهم وتخريجهم ، بدلا من ان تكون مصنعا لتكوين الانسان العربي المنتج .

وفي هذا المجال ، جاء في وثيقة عمل أعدتها اليونسكو لمؤتمر وزراء الدول العربية المسؤولين عن تطبيق العلم والتكنولوجيا على التنمية (الرباط ١٩٧٦) « ان الشباب الذين تكتظ بهم الجامعات العربية يسعون الى الحصول على الشهادات التي تؤهلهم لوظائف غير يدوية ، تكفل لهم حياة مريحة على مستوى أعلى من الوظائف التي تؤهلهم لها الدراسة الثانوية . ويمكن القول بأن الجامعة أصبحت بمثابة « مدرسة ثانوية راقية » ، لتدريب الطلبة ومنحهم شهادات على مستوى أعلى من المدارس الثانوية ... »(١٢) .

٤ ــ العائد الانمائي لخريجي الجامعات ضعيف جدا : ثم ان العائد الانمائي لخريجي الجامعات في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية محدود للغاية ، سواء في قطاع الزراعة او قطاع الصناعة . وحول مدى إسهام خريجي الجامعات في زيادة الانتاج الزراعي وتطويره ، كتب الدكتور حامد عمار ، المستشار الاقليمي لتنمية الموارد البشرية باللجنة الاقتصادية لغرب آسيا ، يقول . « لدينا قرائن تشير ان متوسط إنتاج الفدان أو الدونم ، لم يزد كثيرا خلال عشرات السنوات الماضية . وان إنتاجية الفلاح الفرد كذلك ، لم تزد كثيرا ، بل لدينا قرائن ، في بعض البلاد العربية ، تشير الى ان معدلات الزيادة في الانتاج الزراعي ، إما ثابتة او آخذة في الانحدار خلال السنوات الأخيرة »(١٣) .

واما في قطاع الصناعة ، ذروة القطاع الحديث ، فما هو دور خريجي نظم التعليم العالي والجامعي ؟ يبدو ان أثر الخريجين في الصناعة مثل أثرهم في الزراعة . ولما كان الانتاج الصناعي هو حصيلة لعدة عوامل ، ومن أهمها . رأس المال ، المعدات والتجهيزات والادوات التكنولوجية ، وقوة العمل ، والادارة والتنظيم . فاذا أخذنا المعدات والتجهيزات التكنولوجية ، مثلا ، نجد « ان خريجي المدارس والجامعات ليس لهم فضل يذكر في إختراع التكنولوجيا الصناعية في بلادنا . ومن قبيل تحصيل الحاصل ان نقول ، ان معظمها مستورد من الدول الصناعية في الخارج . وحتى ما يقال عن تطوير التكنولوجيا لملاءمة ظروف الانتاج المحلي . فذلك أمر لا نكاد نجد له إنعكاسا في الجهود التنفيذية ، اللهم إلا في النذر اليسير »(١٤) .

ومن جهة ثانية ، نجد أن حكومات الأقطار العربية مضطرة أن تعتمد في تصميم المصانع

---

(١١) المرجع ٥ ، ص ٧ ــ ٩ .

(١٢) المرجع ٤ ، ص ٨٨ .

(١٣) حامد عمار ، « التربية العربية وعائدها الانمائي » ، **المستقبل العربي** (العدد ٣ ، ١٩٧٨/٩) ، ص ٣٩ .

(١٤) المرجع السابق ، ص ٣٩ ــ ٤٠ .

المطلوبة وتركيبها في كثير من الحالات ، على الخبرات والمهارات الأجنبية المستوردة ، سواء من الشرق أو من الغرب . وتلجأ الحكومات العربية في كل مرة الى الاستعانة بالمهارات الاجنبية ، لتأسيس مصانع الاسمنت والسماد ، مثلا ، في المنطقة العربية التي اصبحت متعددة[١٥] . وهكذا يتضح ان مردود التعليم الجامعي ، ممثلا في الخريجين ، هو مردود أقل بكثير مما ينتظر في تطوير إقتصاد اقطارنا العربية وتنميته .

حاجة العرب الى العقول الجامعية

بعد أن قدمنا صورة موجزة لأوضاع الكليات والجامعات في الاقطار العربية ، وكشفنا أهم نقاط القوة والضعف ، يحسن بنا أن نلقي نظرة سريعة الى الصورة المحتملة أو المتوقعة لهجرة خريجي الجامعات العربية . والسؤال الجوهري الآن . هل الصورة مشرقة أم قاتمة ؟

في الواقع إن إحتمال ما قد يحدث في المستقبل ليس بالامر السهل ، لان سمات الصورة وخصائصها تتوقف الى حد بعيد ، في ايجابياتها أو سلبياتها ، على قدرة الدول العربية نفسها على تطوير الاقتصاد العربي وانمائه لاستيعاب العقول الجامعية . ويبدو ان هجرة الجامعيين قد تستمر ، وربما تزداد ، إذا ما ظلت الحكومات العربية ، في المستقبل عاجزة ، كما في الماضي ، على عدم توظيف الشباب الجامعي ، المؤهل والمدرب ، واستثماره في مجالات البحث والتطوير والانماء . أو إذا بقيت العوامل والاسباب المؤدية للهجرة هي ذاتها ، في المستقبل . هذا يعني ان الهجرة الجامعية ستستمر وتنمو وتتسع ، على الاقل ، في المستقبل ، كما كان الحال في الماضي ، ما دامت العوامل الداخلية والقوى المؤثرة الدافعة للهجرة قائمة ، بالاضافة الى الاغراءات والعوامل الخارجية الجانبة للمتعلمين تعليما عاليا ، لم تتغير أو تتوقف . ومن المعلوم اننا لا نستطيع ان نتحكم في العوامل الخارجية الجاذبة للعقول العربية الجامعية ، بيد اننا نستطيع ان نتحكم في العوامل الداخلية الدافعة للهجرة الجامعية . الجامعية .

ويؤخذ من دراسة للموارد البشرية العربية ، ان هجرة الادمغة العربية ستستمر وستزداد في العشرين سنة القادمة . وتفيد الارقام في الدراسة ان نسبة الهجرة للاطباء العرب سوف تصل الى نسبة قياسية في العام ٢٠٠٠ . أي من المتوقع ان تبلغ ٨٠٪ ، بعد ان كانت ٢٥٪ في العام ١٩٧٢ ، كما يتوقع ان تصل الى ٧٥٪ لحاملي شهادة الدكتوراه ، في العام ٢٠٠٠ . مقابل ٥٠٪ في ١٩٧٢ [١٦] .

عندما يهاجر الأطباء والمهندسون والعلماء ومن شابههم ، من الاقطار العربية الى البلدان المتقدمة ، فهل يعني ذلك ، ان بلادنا النامية لا تحتاج الى علوم ومهارات وخبرات وأفكار هؤلاء ؟ ثم سؤال آخر . هل يعني ذلك ان الولايات المتحدة ، الدولة العظمى الاكثر تقدما ، علميا وتكنولوجيا ، بحاجة الى أطبائنا وعلمائنا ومهندسينا وسواهم من خريجي الجامعات ؟ في الواقع تشير كافة الدلائل الى ان الوطن العربي ككل يحتاج الى كل الطاقات والكوادر الجامعية ـ العلمية والفنية والتقنية والادارية ـ وبأعداد كبيرة جدا لتلبية حاجات النمو الاقتصادي .

---

(١٥) المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(١٦) مؤسسة المشاريع والانماء العربية ، **الوطن العربي : عام ٢٠٠٠** (بيروت ، المؤسسة ١٩٧٥) ، ص ١٧ .

وفي هذه الأيام بالذات ، يبدو ان المشكلة أو القضية الأساسية ، في بعض الاقطار العربية ، ليست في مسألة الفيض في الأعداد من المثقفين من خريجي التعليم العالي والجامعي ، وإنما المشكلة القائمة حاليا على الساحة العربية جملة تتمثل في الحاجة الماسة الى إيجاد أصحاب المواهب من الجامعيين اللازمة لحل قضايا المجتمع العربي والتنمية الوطنية والقومية .

ومما زاد الطلب على فئة المتعلمين ، وخاصة خريجي المعاهد التعليمية العليا والعلمية ، تلك الثورة الانمائية وعمليات البناء والاعمار والتعمير التي تشهدها المنطقة العربية ، وخاصة النفطية منها . ومن يطالع الصحف والمجلات العربية والأجنبية يشاهد ، بين الحين والآخر ، إعلانات من قبل الأقطار العربية وخاصة المنتجة والمصدرة للنفط ، عن حاجاتها للقوى البشرية المؤهلة والمدربة والأيدي العاملة الماهرة على أنواعها ، في كافة القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والتربوية . هذا ويبدو أن الحاجة الماسة الى الاشخاص المتعلمين والمدربين والمؤهلين سيستمر سنوات عديدة قادمة . كما سيشتد الطلب على فئة الفنيين أيضا من الاطر المتوسطة المهارة .

والآن يجدر بنا ان نقدم إحصاءات عن حاجة العرب الى العقول الجامعية . ولعل الارقام أفضل لغة وأصدقها . وتؤكد أحدث الاحصاءات الدولية المتوافرة ان الأقطار العربية التي تصدر أطباء الى الولايات المتحدة وكندا مثلا ، تتدنى فيها نسبة الاطباء لجملة السكان ، بالمقارنة مع تلك في امبركا الشمالية . فهناك طبيب واحد لكل ٢,٤٨٥ نسمة في سوريا ، وطبيب واحد لكل ٢,٥٢٥ نسمة في العراق ، وطبيب واحد لكل ٢,٣٥٩ نسمة في الاردن ، وطبيب واحد لكل ١,٥٣٦ نسمة في مصر ، وطبيب واحد لكل ١,٣٣٠ نسمة في لبنان، يقابل ذلك طبيب واحد لكل ٦٢١نسمة في الولايات المتحدة، وطبيب واحد لكل ٦٣٣ نسمة في كندا وذلك للعام ١٩٧٣[١٧] .

ويحتاج العراق الى أطباء ومهندسين وفنيين وخبراء من كافة الاختصاصات . فقد أوفدت مؤخرا حكومة العراق بعثة الى الهند لاجتذاب أو لاستقطاب أساتذة هنود للتدريس في الجامعات العراقية للعام ١٩٧٩ ــ ١٩٨٠ . ومنذ سنوات قليلة نشرت الجمهورية العراقية إعلانا في الصحف عن حاجتها الى ٢٣٢ استاذا وفنيا من حملة شهادات الدكتوراه والماجستير والبكالوريوس ، للتدريس في الكليات العراقية . وبالتحديد بلغت إحتياجات كلية الطب من الأساتذة والفنيين ٢٠ ، وكلية الهندسة ١١٧ ، وكلية العلوم ١٤٤ ، وكلية الزراعة ٢٥ ، وكلية الادارة والاقتصاد ١٨ ، وكلية الآداب ٢٦ استاذا وفنيا وذلك للعام ٧٥/١٩٧٦ [١٨] .

وجاء في إحصاءات أوردتها منظمة العمل الدولية ، ان الاقطار العربية المنتجة للنفط وحدها بحاجة الى أكثر من مليوني خبير وعامل لتنفيذ خططها الانمائية . وبالتحديد قدرت حاجات المملكة العربية السعودية وحدها ، لتحقيق الخطة الخمسية الراهنة (٧٥ ــ ١٩٨٠) ، بحوالي ٥٠ ألف مهني ، و ٩٧ ألف اداري . كما قدرت حاجات الجزائر الى حوالي ١٠٠ ألف مهندس وخبير أجنبي[١٩] .

---

(١٧) المرجع ٢ ، ص ٦٠ .
(١٨) **جريدة بيروت** (بيروت ، ١٩٧٥/٣/٨) .
(١٩) أ ــ **مجلة المصارف** (بيروت ، آذار/ مارس ١٩٧٥) ، ص ١٥ . ب ــ المرجع ٢ ، ص ٦٠ .

والجدير بالذكر ان العراق وليبيا والجزائر تقوم بحملات لاجتذاب الادمغة العربية المهاجرة اليها .

أخطار نزف الجامعيين على الأمة العربية

لا بد للباحث الموضوعي من ان يعترف بأن للهجرة الجامعية ، كما لكل شيء ، وجهين . وجه إيجابي يقابله وجه سلبي . أي ان للهجرة حسنات وفوائد وثمار ، غير ان لها أيضا مساوىء وأضرار وأخطار . إلا أن الاخطار التي تكمن وراءها ، تفوق بكثير الثمار التي تجنى من جراء ذلك . ولما كانت الفوائد ضئيلة ، لا تذكر ، وخاصة بالنسبة للمجتمع العربي ، سنركز هنا على تحليل أخطارها .

صحيح ان الهجرة تعود على المهاجر ببعض الفوائد المالية والعلمية والثقافية والاجتماعية ، كشخص أو/ ولأفراد عائلته . إلا أن ذلك لا يكفي ، لأن المجتمع لا يستفيد كما يجب منه ، كجامعي . ومما لا جدل فيه ان المجتمع الذي ينفق أموالا على تعليم ابنائه وتدريبهم ، ينتظر منهم أن يردوا هذا الجميل بدورهم وذلك بتوظيف علومهم ومهاراتهم من أجل تطوير هذا المجتمع وإنمائه . وخاصة ان مجتمعهم العربي بأشد الحاجة الى هؤلاء ، لمواجهة التحديات الخطيرة التي تحيط به من كل جانب . وعليه فان خسارة فئة الجامعيين ، عبر الهجرة الدائمة او المؤقتة ، يعتبر خسارة خطيرة للأمة العربية في مجالات التربية والتعليم ، وفي العلم والبحث العلمي ، وفي التنمية الوطنية والقومية الشاملة .

١ ــ **في مجال التربية والتعليم :** ولعل الأخطار التي يتعرض لها الوطن العربي ، بسبب هجرة الجامعيين ، تضع نظم التعليم العالي والجامعي الراهن موضع الشك والتساؤل . وهذا يطرح علامات إستفهام كبرى حول جدوى فوائد التعليم الجامعي وعائده الانمائي. ان هجرة الجامعيين تحرم المجتمع العربي من الطاقة البشرية العالية المستوى ، المتعلمة والمدربة والمؤهلة ، التي هي العمود الفقري لكل نمو إقتصادي وتطور إجتماعي . وبالتالي لكل عملية رقي وتقدم وإزدهار . وبات من الأمور المسلم بها في الوقت الحاضر ، بعد سنوات من الدراسة والبحث والفحص والتحليل ، من قبل رجال التربية والاقتصاد والاجتماع والادارة ، ان **التعليم** عامة عنصر جوهري من عناصر التنمية ، ومفتاحها الرئيسي ، والسر الكامن وراء إزدهار المجتمعات في العصر الحديث . إذ هو شرطها المسبق ومحركها الأول والأهم . ثم ان التعليم العالي والجامعي عملية إستثمار إقتصادي وإنمائي من الدرجة الأولى . لأنه كلما إرتفع المستوى التعليمي للفرد ، إزداد بدوره مستوى الدخل على صعيد الفرد والمجتمع ، وبالتالي إزداد الانتاج والدخل القومي .

ولعل محور النظرة الاقتصادية للتربية يعني ، حساب العائد الانمائي من إستثمار معين . أي انه يمكن النظر الى التعليم كمشروع إنتاجي ، كما هو الشأن في المصنع مثلا . وفي هذا المجال ، غدت الأبحاث متكاثرة ، في الشرق والغرب على حد سواء ، وإن لم تتناول حتى الآن إلا البلدان المتقدمة في الغالب . ففي الولايات المتحدة الأميركية ، وضعت تقديرات لعائد التعليم في مراحله المختلفة . فقدر عائد من الاستثمار في التعليم العالي بحوالي ١٢,٥٪ ما بين العام ١٩٤٠ و ١٩٥٥ . وقدر ان التعليم العالي يعطي زيادة في دخل الفرد تقدر بحوالي ١٠٠ ألف دولار مدى الحياة لهذا الفرد الجامعي . ومن

---

(٢٠) حامد عمار ، **في اقتصاديات التعليم** (سرس الليان ، مصر ١٩٦٤) ، ص ٦٢ .

هنا جاء الشعار « ان التعليم الجامعي يساوي مائة ألف دولار »[٢٠] . ويذكر ان هذا الرقم للعام ١٩٦٠ ، بيد ان قيمة التعليم الجامعي ، بالدولار ، تفوق هذا الرقم بكثير في الوقت الحاضر . هذا وقدر تيودور شولتز ورفاقه ان الدخل المتروك ، بالنسبة للدراسات الجامعية والعالية في الولايات المتحدة ، بحوالي ٥٥٪ من تكلفة الدراسة . وقدر هارمن ملر في العام ١٩٥٨ ، ان متوسط دخل خريج الكلية الجامعية على مدى الحياة ، ٤٢٥ ألف دولار ، مقابل ١٨٢ ألف دولار لمتوسط دخل خريج المدرسة الابتدائية ، و ٢٥٨ ألف دولار لمتوسط دخل خريج المدرسة الثانوية . وهذا الاختلاف يعني ان كل سنة تعليمية زائدة ، تضيف عائدا يقدر بحوالي ٤٠ ألف دولار[٢١] . وهذا العائد اليوم أكبر بكثير .

وهناك دراسات أخرى ، اجريت في أوروبا الغربية والاتحاد السوفياتي واليابان ، وكلها تشير الى الدور الطليعي ، الذي يمثله رأس المال البشري المتعلم والمثقف والمدرب ، في تنمية الثروة القومية وزيادة الانتاج والدخل القومي[٢٢] .

وهكذا فان كانت التربية تلعب دورا بارزا في عملية زيادة دخل الفرد ، وبالتالي الدخل القومي في الولايات المتحدة وغيرها من البلدان المتقدمة ، إلا ان التعليم في أقطارنا العربية ، على العكس من ذلك ، يلعب دورا مضادا للتطوير والتنمية للمجتمع العربي . أي فبدلا من أن يقود خريجو نظم التعليم العالي والجامعي عملية دفع عجلة التنمية الى الامام ، بعلومهم ومهاراتهم ، فانهم يستغلون مؤهلاتهم الجامعية كوسيلة للهجرة الى الخارج . وهذا دليل ساطع على ان التربية الجامعية الراهنة ليست سبيلا الى التطوير والانماء ، وانما هي الطريق المفضي الى الهجرة . وبكلام آخر فان التعليم الجامعي ، كما هو مجسم في هؤلاء الافراد ، وكما يمثلونه ، ليس مدخلا من مدخلات التنمية ، وانما هو الطريق العريض الى الرفاهية الشخصية والاشباع الفردي[٢٣] . وهذا تشويه واضح لوظيفة التعليم الجامعي في العالم المعاصر ، عالم الانماء .

٢ **ـ في مجال المال** : هذا وتعتبر هجرة خريجي الجامعات خسارة كبيرة في الأموال التي تنفق في تعليم هؤلاء وتدريبهم . وهنا تكون الخسارة مزدوجة . أي خسارة في الأموال التي استخدمت لتعليم الذين هاجروا ، ثم في إعداد آخرين وتدريبهم لكي يحلوا محل المهاجرين الجامعيين . وهذا يتطلب أموالا أيضا . فضلا عن الوقت والجهد والتعب التي لا تقدر بثمن مادي . وعلى الرغم من انه لا يمكن تقدير الخسائر المالية ، التي قد تنجم من جراء هجرة الأطباء والعلماء والمهندسين وسواهم ، فان القيمة الحقة تتجاوز كل حساب بالدولار وبالدينار . إلا انه جرت بعض المحاولات لتقدير الخسائر المالية الكامنة وراء الهجرة الجامعية . فقدر التقرير الختامي لمؤتمر وزراء التربية العرب في أبو ظبي (١٩٧٧) ، بأن عملية نزف الادمغة العربية ، يشكل خسارة ملحوظة تقدر بحوالي **بليون** دولار[٢٤] .

---

(٢١) المرجع السابق ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

(٢٢) أ ـ المرجع السابق ، ص ٥٨ ـ ٧٠ . ب ـ عبد الله عبد الدايم ، **التربية في البلاد العربية** (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٤) ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٢٣) مالكولم أديسيشيا ، « هجرة الكفاءات عن العالم العربي » ، **صحيفة التخطيط التربوي في البلاد العربية** (بيروت ، العدد ٢٢ ، كانون الثاني ـ نيسان ١٩٧٠) ، ص ١٤ .

(٢٤) المرجع ٩ ، ص ٣٢ .

وبالتحديد قدرت دراسة ان الاقتصاد العربي السوري خسر ٢,٠١٦ مليون ليرة سورية خلال ٥٦ ـ ١٩٦٩ ، بسبب هجرة ٨,١٨٢ عالما وخبيرا في حقول الطب والهندسة والزراعة والعلوم الاساسية . وفي دراسة أخرى ، قدر الاستاذ برهان الدين الأسطواني ، ان كلفة الطبيب السوري الواحد تبلغ ١١٠ آلاف دولار . وبذلك تكون سوريا قد خسرت ، في حقل الطب وحده ، ١٦٥ مليون دولار ، لأن هناك ما لا يقل عن ١,٥٠٠ طبيب سوري ممن هاجروا الى الولايات المتحدة الاميركية[٢٥] . وأما في مصر ، فان التكلفة الظاهرة لتأهيل طبيب أو مهندس ، إذا تضمنت حسابا شاملا للتعليم والصحة والاعاشة والسكن ، منذ مولده الى موعد تخرجه من الجامعة الى ما لا يقل عن ٢٠ ألف جنيه مصري . ويمثل حامل الدكتوراه تكلفة أعلى من هذا الرقم بكثير[٢٦] . وبذلك تكون الأقطار العربية المصدرة للجامعيين ، وهي بلدان فقيرة حاليا ، قد خسرت خسارة مزدوجة في الأموال والرجال المؤهلين .

٣ ــ **في مجال العلم والبحث العلمي :** ثم إن هجرة العلماء والعلميين والباحثين في الوطن العربي تضع السياسة العلمية والتكنولوجية في الأقطار العربية وحكوماتها موضع التساؤل . لأن هجرة الكفايات العلمية قد تحدث آثارا مدمرة ومخربة في المجتمعات والبيئات العلمية العربية . وإن الكليات والجامعات ومراكز البحوث العلمية هي التي تتحمل وطأة نزف العقول العلمية . ولا حاجة بنا الى التذكير ما للعلم والتكنولوجيا والبحث العلمي ، وبالتالي السياسة العلمية السليمة من فوائد وثمار وعائدات إقتصادية في التنمية الوطنية والقومية العامة أو الشاملة . ومن المؤسف للغاية حقا ، ان نجد هذا الاستنزاف للطاقات العلمية العربية ، في الوقت الذي تحاول الاقطار العربية السعي الى تنظيم البحث العلمي والى تنمية العلوم والتكنولوجية ، في السنوات الماضية . اذ انشأت مراكز للبحوث العلمية ومجالس وطنية وقومية للعلوم ، ووكالات وطنية للبحث العلمي . كما عقدت هذه الاقطار مؤتمرات وملفات وندوات علمية حول دور العلم والتقنية في التطوير والانماء ، وبالتالي في حل قضايا المجتمع العربي .

هذا وتبذل جهود عربية تهدف الى تنمية الجامعات العلمية ، بغية غرس أو إعادة غرس جذور العلوم في الثقافة العربية المعاصرة ، وتطبيق نتائج الدراسات والبحوث من أجل خدمة حاجات الأقطار العربية الصارخة الى التطوير الاجتماعي والانماء الاقتصادي[٢٧] . ولكن العلماء الذين يركن اليهم للقيام بعمليات التطوير والانماء في مجتمعنا، هم الذين يهاجرون الى البلدان المتقدمة، حيث يساهمون هناك ، ما وراء البحار ، في المزيد من تنميتها وتقدمها . في حين تؤخر هجرة هؤلاء ، لعشرات السنين ، تنمية الجامعات العربية ، كمراكز للامتياز العلمي ، ويؤجل أيضا لسنوات ، عملية النهوض بتلك البحوث وملاءمتها للحاجات عن طريق هذه الجامعات وغيرها من معاهد العلوم . ثم إن نزف العلماء والمهندسين والباحثين ، على هذه الصورة ، يعني ان الوطن العربي لن يتمكن من الاستمرار في توثيق تلك الروابط اللازمة بين العلم وبين علماء الغد . وفي ظل هذه الظروف الحرجة ، تواجه السياسة العلمية العربية خطر الاخفاق ، في تحقيق هدفها الثلاثي الخاص ، بدعم التدريس ، وتنمية البحوث ، وإنشاء الروابط الوثيقة بينها وبين الانتاج[٢٨] .

---

(٢٥) المرجع ٢ ، ص ٥٨ .

(٢٦) المرجع ٢ ، ص ٥٨ .

(٢٧) المرجع ٢٢ ، ص ١٤ .

(٢٨) المرجع ٢٢ ، ص ١٤ ـ ١٥ .

وفوق ذلك ، لما كانت الهجرة العلمية تجمد تنمية كافة المعاهد التعليمية الجامعية والعلمية الوطنية في الوطن العربي لسنوات عديدة ، ولما كان العلماء العرب يساهمون في زيادة تنمية العالم المتقدم ، فان الهوة القائمة حاليا ، بين المستويات العلمية والتقنية في الاقطار العربية ونظائرها في البلدان المتقدمة ، ستزداد ، لا محالة ، وتتسع لصالح العالم المتقدم ، فيزيد تقدما . بينما الوطن العربي سيزيد تخلفا .

هذا ولقد أدرك مؤتمر وزراء التربية العرب في أبو ظبي (١٩٧٧) ، ان إستنزاف الادمغة العربية من شأنه أن يزيد الثغرة القائمة بين البلدان النامية ــ ومنها طبعا الاقطار العربية ــ وبين البلدان المتقدمة . وذلك لانها تساعد البلدان المتقدمة على توسيع الاحتكار العلمي والتكنولوجي[٢٩] .

٤ ــ في مجال التنمية الوطنية والقومية : وتدل كذلك هجرة الكفايات العلمية على **فشل التنمية** الوطنية والقومية في الوطن العربي . وتمثل في الواقع هجرة الجامعيين رمزا لحالة التنمية غير المتكافئة وغير المستوية ، التي يمر بها هذا الوطن الكبير . كما ان الهجرة المذكورة تعد إنكارا للمبدأ القائل ومؤداه ان التنمية الحقيقية هي التنمية التي تنبثق من الداخل ، أي باستخدام الطاقات الوطنية والقومية . وليس باستيراد طاقات وخبرات من الخارج . وبكلام آخر ان هجرة المواهب الجامعية والعلمية العربية ، يعني ان تحقيق مشاريع التنمية . لا بد له ان يتم على اكتاف ، لا بل عقول علمية وإدارية وفنية ومشورات أجنبية مستوردة من البلدان المتقدمة[٣٠] . ولا ريب في أن هذا الوضع من شأنه أن يزيد إعتماد الاقطار العربية النامية على البلدان المتقدمة ، واستمرار قبول المعونات العلمية والفنية والتقنية الاجنبية الى ما لا نهاية . وترى منظمة اليونسكو الدولية ، انه لا يمكن ان تحدث تنمية حقيقية ، ما لم تنبع في أرضها وتستمد غذاءها من تربتها . ولكن هجرة العقول العلمية اكثر من مجرد رمز أو كبش فداء لتخلف التنمية أو إنحرافها . فهي تأكيد مفجع ، لأن الفجوة الحالية ، بين مستويات المعيشة في البلدان المتقدمة ونظائرها في الاقطار العربية ، النامية ، لن تضيق . وإنما ستزداد إتساعا وعمقا . وهي تجعل من النظم التعليمية والعلمية ، في أقطار الوطن العربي . معهدا ضخما حقا لتعليم الاختصاصيين وتدريبهم وتأهيلهم . بيد ان هؤلاء لن يساعدوا الوطن العربي على الخروج من وهدة التخلف ، وإنما يسهمون بقوة في زيادة تنمية البلدان المتقدمة ، فتزيدها تطورا وتقدما[٣١] .

وتفقد الامة العربية عامة ، بهجرة الجامعيين ، موردا إنمائيا وإقتصاديا من الدرجة الاولى ، مما يؤدي بالنتيجة ، الى مزيد من التخلف الاقتصادي . لأن الرأسمال البشري المدرب والمؤهل ، المتمثل هنا بالجامعيين ، هم ثروة الثروات ، وأهم بكثير من رأس المال المادي أو الطبيعي ، لتطوير المجتمع العربي وإنمائه وتقدمه . وبذلك يمكن القول إن هجرة الكادرات الجامعية ، يعتبر عاملا مضادا ومعاكسا ، في طبيعته وأهدافه ، لأهداف مشاريع التنمية والثورة الانمائية العربية . هذا ولقد أشار مؤتمر وزراء التربية العرب في مراكش (١٩٧٠) ، الى أبعاد الخسارة الناجمة عن هجرة

---

(٢٩) المرجع ٩ ، ص ٣٢ .
(٣٠) المرجع ٢٣ ، ص ١٥ .
(٣١) المرجع ٢٣ ، ص ١٥ .

العقول . فأعلن في القرار الأول ، أن هجرة الكفايات العلمية يعني « فقدان خبرات إنمائية تحتاج إليها البلاد العربية في عملية البناء والتنمية »[٣٢] .

٥ ــ **في مجال الثقافة والحضارة** : وبالاضافة الى كل ما تقدم ، فان هجرة الجامعيين تعتبر خسارة في المجال الثقافي والحضاري والاجتماعي . لأن هجرة هؤلاء لا تعد مجرد إنتقال أشخاص عاديين من بلد الى آخر ، وإنما إنتقال مواهب مثقفة ، تتمثل في حشد من الأفكار والآراء والمهارات والخبرات والنظريات والقوانين والمبادىء والمواقف والاتجاهات والمثل والقيم والتقاليد والعادات والأحلام والآمال والتطلعات ــ كلها ــ تنتقل مع المهاجر الجامعي . وبذلك تصبح قضية الهجرة والمهاجرين قضية تربوية ، لأن المهاجر ، لا يهاجر بجسده فحسب ، بل بكل تلك القيم والمثل والمفاهيم الثقافية والعلمية والاجتماعية . فمن وجهة النظر التربوية ، هناك هجرة للمعارف والمهارات والخبرات والقيم الاجتماعية والافكار[٣٣] . وهنا تكمن الخسائر التي لا يمكن تقديرها بالدولار ، كما لا يمكن تعويضها بسهولة .

لماذا يترك خريجو الجامعات الوطن العربي ؟

الأسباب والعوامل المؤدية الى الهجرة العلمية متعددة ، وباتت معروفة تماما لدى المطلعين . وهي مزيج بين عوامل داخلية وخارجية في آن واحد . وغالبا ما يشار الى الأسباب الداخلية بعوامل « الدفع » والأسباب الخارجية الى عوامل « الجذب » . ويمكن أن نصنف هذه العوامل والاسباب ، في الاساس ، الى عوامل إقتصادية وإجتماعية وتربوية وعلمية وثقافية وسياسية وادارية وتنظيمية[٣٤] . ولما كنا نركز في هذا البحث على الهجرة العلمية ، في إطار النظم التعليمية الجامعية والعلمية ، فاننا سنقتصر في تحليلنا على العامل التربوي الجامعي والعلمي فقط . هذا لا يعني بالضرورة ان التعليم الجامعي يتحمل كامل المسؤولية في إحداث هجرة الخريجين ، وإنما العامل التربوي بأبعاده يتحمل مسؤولية كبرى . أي ان النظم الجامعية الراهنة ، بطبيعتها وأهدافها ومناهجها وبرامجها ، لا تعد الطلاب لكي يكونوا قادة التطوير والانماء في مجتمعاتهم العربية ، الوطنية والقومية . وبكلام آخر فان التعليم العالي ونظمه ، ليست المسؤولة المباشرة للهجرة العلمية ، لان التعليم بحد ذاته ، ليس سببا للهجرة ، وانما التخلف العام في المجتمع العربي ــ السياسي والاقتصادي والثقافي والحضاري ــ هو المسؤول الأول عن تخلف الكليات والجامعات ومعاهد البحوث وغيرها .

ان الباحث المدقق في شؤون هجرة الكفايات الجامعية يجد ، ان العامل الأساسي والاول المسؤول عن الهجرة العلمية ، يعود الى **التخلف الشامل** في المجتمع العربي ، في المجالات التربوية والثقافية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية والادارية وبالتالي الحضارية . هذا يعني ان التخلف العام يتحمل كامل المسؤولية لهجرة العقول الجامعية . بيد ان نظم التعليم العالي والجامعي المتخلفة بأوضاعها الراهنة ، لأنها جزء من هذا التخلف الكلي ، تعتبر مسؤولة جزئيا عن الهجرة . إذ أن

---

(٣٢) اليونيسكو ، المؤتمر الاقليمي الثالث لوزراء التربية والوزراء المسؤولين عن التخطيط الاقتصادي في الدول العربية ، **التقرير النهائي** (مراكش ، ١٢ ــ ١٩٧٠/١/٢٠) ، ص ٤٥ .

(٣٣) مكتب اليونسكو الاقليمي للتربية في البلاد العربية ، **السكان والتربية والتنمية في البلاد العربية** (بيروت ، مكتب اليونسكو ، ١٩٧٧) ، ص ٢٢٠ .

(٣٤) المرجع ٤ ، ص ٩٤ .

التعليم الجامعي بحد ذاته لا يعد الخريجين للهجرة ، ولكن غياب المؤسسات الرفيعة المستوى ، التي تستطيع ان تستوعب العقول الجامعية ، هو الذي يدفع بهؤلاء للهجرة . ويعود السبب في غياب مؤسسات متقدمة الى المجتمع المتخلف . وعندما يهاجر الجامعيون الى الولايات المتحدة الأميركية مثلا ، فانهم يسافرون إما سعيا وراء مزيد من العلم أو التحصيل العلمي ، أو مزيد من التخصص العالي والدقيق المركز ، أو طلبا للعمل وللرزق . ولما كان المجتمع الاميركي مجتمعا متقدما ، فانه يستطيع ان يستوعب الجامعيين العرب وغيرهم ، نظرا لوجود مؤسسات تربويه وعلمية وتقنية وإقتصادية وإجتماعية رفيعة المستوى أو متقدمة ، تستطيع بدورها أن تستوعب العقليات والمواهب الثمينة .

إن العلاقة وثيقة ولكن عكسية بين الهجرة العلمية والمجتمع المتخلف في الداخل من جهة ، الا انها وثيقة بينها وبين المجتمع المتقدم في الخارج من جهة ثانية . أي ان جامعات المجتمع المتخلف تعد جامعيين وتدربهم ، إلا انها لا تربط التعليم بالتنمية وقضايا المجتمع ، نظرا لغياب التخطيط العلمي ــ الاقتصادي والتربوي ــ ولا تعدهم لكي يقودوا عمليات التطوير والتغيير والانماء في مجتمعهم الذي يحتاج الى علومهم ومهاراتهم وخبراتهم . ويبدو ان المجتمع المتخلف ينطلق ، في تعليم أبنائه ، من المبدأ غير العملي الآتي : علموهم واتركوهم ! وفي الواقع ان لا أثر يذكر للعلماء والمهندسين والاطباء والباحثين وغيرهم من الاختصاصيين في حد ذاتهم ، ما لم يفسح لهم المجال وتتاح لهم الفرص في ان يستعملوا معارفهم ومهاراتهم ، ضمن مؤسسات رفيعة المستوى ، على شكل أكمل وأفضل . والمعلوم ان هؤلاء لن يستطيعوا ان يقوموا بدور تطويري وإنمائي ، إلا في مجتمع **متعلم ومثقف عصري** .

١ ــ **تخلف في التعليم والعلوم والثقافة** : ولعل أبرز مظاهر تخلف المجتمع العربي في الوقت الحاضر ، ذلك التخلف في إنتشار الأمية بين الكبار ، وتدني المستوى الثقافي ، وقلة الابحاث العلمية وقلة الانتاج الفكري . لقد بلغت نسبة الأمية بين الكبار أو البالغين ٧٠٪ في السنة ١٩٧٢ ، كما يتوقع ان تتراوح ما بين ٥٠٪ و ٦٠٪ من مجموع العرب البالغين في العام ٢٠٠٠ . وكذلك بلغت نسبة الأطفال خارج المدارس من فئة العمر ٥ ــ ١٤ سنة ٥٠٪ في العام ١٩٧٠ (٣٥) . وفوق ٨٠٪ من شبابها وشاباتها بين عمر ١٦ ــ ١٨ سنة ، محرومون من التعليم الثانوي بأنواعه المختلفة . بيد ان نسبة من هم في الجامعات والمعاهد العليا لا تتجاوز ٣٪ أو ٤٪ من الشباب ما بين عمر ١٨ و ٢٠ سنة[٣٦] . ثم ان اكثر من ٩٥٪ من طلاب المدارس لا تتوافر لهم مكتبات ، ولا يقومون بتجربة في أي من العلوم ، ويتعلمون في مدارس دون المستوى الصالح . وأما إنتاجية الأبحاث في حقل العلوم والتكنولوجيا ، فلم تنتج جملة الاقطار العربية سوى ٧٧٦ بحثا ، بالمقارنة مع ١,٦٨٥ بحثا لاسرائيل في العام ١٩٧٢ . وعلى صعيد الانتاج الفكري ، فان الانتاج العربي ضئيل جدا ، لم تنشر سوى حوالي ٢٠٠ بحث أصيل سنويا في الوطن العربي في جميع الحقول .. والغريب حقا ان ٩٠٪ من جميع المنشورات العلمية عن الوطن العربي من تأليف غير عرب[٣٧] .

---

(٣٥) المرجع ١٦ ، ص ٢٦ .

(٣٦) سعاد خليل إسماعيل ، « مطالب التنمية على محتوى التربية في الوطن العربي » ، **التربية الجديدة** (العدد ٧ ، كانون الاول/ ديسمبر ١٩٧٥) ، ص ٢١ .

(٣٧) المرجع ٢٦ ، ص ٢٧ ، والمرجع ١٦ ، ص ٢٧ ــ ٢٩ .

٢ ــ **تخلف في مجال الصحة :** وهناك تخلف كبير في مجال الصحة أيضا . ويأتي ذلك في الوقت الذي يهاجر فيه الأطباء العرب الى البلدان المتقدمة طبيا وصحيا . وهذا يدل ، فيما يدل ، إنه عندما يهاجر الاطباء ، من الوطن العربي ، لا يعني بالضرورة إن صحة أبناء هذا الوطن بألف خير وخير ، ولكن يعني ، على العكس من ذلك ، **التخلف الصحي** ، كما تؤكد الارقام . وتفيد أحدث الاحصاءات المتوافرة ان ٨٠٪ من جميع العرب مصابون بمرض أو أكثر ، بالمقارنة مع ٢٠٪ فقط من العرب يمكن ان نعتبرهم سليمين من الاصابة بالامراض المختلفة .

هذا ويقاس مدى تطور الامم وتقدمها بمعدل الأطباء لعدد السكان ، وكذلك الحال بالنسبة للأسرّة في المستشفيات ، ومعدل ما تنفقه الحكومات على الصحة ، ومعدل متوسط العمر المتوقع للمواطنين . وتدل أحدث الاحصاءات المتوافرة ان معدل عدد السكان لكل طبيب خلال ١٩٦٤ ــ ١٩٧١ ، بلغ ٢,٠٠٠ للعرب ، مقابل ٧٥٠ للبلدان المتطورة ، وان معدل عدد السكان لكل سرير في المستشفى بلغ ٥٠٠ للعرب ، مقابل ١٠٠ للبلدان المتطورة خلال ٦٤ ــ ١٩٧١ ، ويبلغ معدل متوسط ما تنفقه الحكومات العربية على الصحة لكل شخص ١٠ دولارات للعرب ، بالمقارنة مع ٦٠ ــ ٩٠ دولارا للدول المتطورة . ويبلغ معدل متوسط العمر المتوسط للعرب ٥٢ سنة ، مقابل ٧٢ سنة للدول المتطورة خلال ١٩٦٠ ــ ١٩٧١ ، ويبلغ معدل وفيات الاطفال لكل ١,٠٠٠ مولود حي ١٢٠طفلاً وطفلة للاقطار العربية ، بالمقارنة مع ١٥ للبلدان المتطورة[٣٨] .

وهكذا يتضح ان هجرة ، لا بل هرب ، الاطباء العرب من وطنهم الام ، لا يعني بالضرورة ان صحة المواطنين العرب بخير ، لا بل قد يعني ان صحتهم متخلفة جدا ، بالنسبة لصحة المواطنين في البلدان المتطورة والمتقدمة .

٣ ــ **في مجال الاقتصاد والطاقة البشرية :** وعلى الرغم من أن الوطن العربي يملك ثروات طبيعية وموارد بشرية وطاقات هائلة ، لم يستغلها حتى الآن الاستغلال المنشود ، فانه ما انفك يعاني من تخلف في القطاع الاقتصادي ، كما سنبين بالارقام . فعلى صعيد الموارد المالية ، أودع العرب في البنوك الغربية (الاجنبية) ٧٥ بليون دولار في العام ١٩٧٤ . كما قامت ، منذ العام ١٩٥٠ ، بأكثرية الدراسات والتصاميم في الوطن العربي . وعلى صعيد خصائص الطاقة البشرية العاملة ، فهناك مليون ونصف المليون من العمال العرب ، يعملون الآن في أوروبا والولايات المتحدة ، أي ما يقارب ٥ في المائة من القوة العاملة العربية البالغ عددها ٢٠ مليون عامل . ثم ان ٦٠٪ من القوى العاملة يعملون في القطاع الزراعي ، مقابل ١١٪ في القطاع الصناعي ، و ١٧٪ في قطاع الخدمات . ويشكل الذكور الغالبية المطلقة (٩٥٪) من القوى العاملة . ويبلغ معدل البطالة والاستخدام الجزئي ٢٠٪ ، منها ٢,٥٪ من خريجي الجامعات وذلك للعام ١٩٧٠ . وهذه الارقام ربما لا تعني شيئا كثيرا ، إلا إذا قارناها بالولايات المتحدة ، في قطاع الزراعة فقط . ففي الولايات المتحدة مثلا ، بلغ مجموع إسهام الزراعة ٣٪ من مجموع الناتج المحلي الاجمالي ، مقابل ٢٠٪ في الوطن العربي ، وبلغت نسبة السكان الذين يعملون في الزراعة من مجموع القوى العاملة ٤٪ ، مقابل ٦٠٪ في الوطن العربي . إلا ان معدل إنتاجية العامل الزراعي الواحد تصل الى ٦,٦٢٨ دولارا ، مقابل ٢٧٧ دولارا . باستثناء أقطار الخليج العربي التي لا تدخل في هذا الحساب ، وكل ذلك خلال ١٩٧١ ــ ١٩٧٢ [٣٩] .

---

(٣٨) المرجع ١٦ ، ص ٢٤ ــ ٢٥ .

(٣٩) المرجع ١٦ ، ص ٦ ــ ٤٠ .

تخلف التعليم الجامعي كعامل للهجرة : وان العوامل التي تجعل من النظم التعليمية الجامعية والعلمية دافعا ، أو أرضا خصبة لاثمار هجرة الكفايات الجامعية من الأقطار العربية عديدة ، أبرزها يمكن ان يتمثل في البنى الجامعية المستوردة أو المقتبسة ، والمناهج الدراسية العتيقة الجامدة المستوردة ، طبيعة التعليم الذي ينمي النزعة الفردية لا المجتمعية ، وغياب التخطيط العلمي والتوجيه المهني والتربوي ، والتقصير الواضح في إرتباط التعليم بالتنمية وقضايا المجتمع وسوق العمل .

١ ــ **بنى جامعية مستوردة أو مقتبسة** : لعل أول ما يلاحظ في النظم الجامعية العربية هو ان البنى الجامعية القائمة حاليا ، إما مستوردة أو مقتبسة من البلدان الغربية ، الأوروبية أو الأميركية . ويعود السبب في ذلك الى انه بعد أن استفاقت البلاد العربية من سباتها العميق ، كغيرها من البلدان النامية ، وجدت أمامها بنى جامعية قائمة في البلدان الاوروبية والاميركية . فما كان من الأقطار العربية إلا ان اقتبست هذه البنى أو قلدتها أو حتى فرضت عليها . ولم يكن نشوء التعليم العالي والجامعي في الأقطار العربية ، قائما على أساس دراسات علمية وميدانية لتلبية حاجات هذه الاقطار تلبية مباشرة ، وانما اقتبس اقتباسا أو قلد تقليدا ، دون إجراء تغيير يذكر لكي يتواءم وحاجات المجتمع العربي .

وهنا لا بد من الاشارة الى أن الاقتباس أو التقليد للنظم الجامعية الأوروبية أو الاميركية ليس عملا غير مستحسن أو غير مرغوب فيه بحد ذاته ، ولكن الشيء غير المرضي حقا هو اننا لم نعدل أو نطور أو نُجْر إصلاحات جذرية في التعليم الجامعي عبر السنين ، كما يجب ان يكون ، في حين نجد ان البلدان الغربية نفسها تختبر ثورات قوية ، وتجري إصلاحات جذرية لتطوير التعليم العالي وتجديده ليواكب العصر . غير ان الأقطار العربية بقيت متمسكة بالبنى الجامعية ، التي اقتبستها أو قلدتها أو استوردتها وتمسكت بها ودافعت عنها ، فاصبح بين الجامعات في البلدان الغربية وبين الجامعات العربية بون شاسع وهوة عميقة . لأن المؤسسة التي لا تتغير ولا تتطور مع الزمن ، تبقى جامدة[٤٠] .

٢ ــ **جامعات وكليات أجنبية** : وبالاضافة الى البنى الجامعية المقتبسة أو المستوردة من البلدان الغربية ، هناك نوع آخر من الجامعات في بعض الأقطار العربية ، وهي كليات وجامعات أجنبية ، تعمل على الأرض العربية . وهذه المعاهد معروفة ، أبرزها الجامعة الاميركية وجامعة القديس يوسف (اليسوعية) ، كلية بيروت الجامعية ، كلية الشرق الاوسط ، كلية هيكازيان وجميعها في مدينة بيروت وضواحيها . ثم هناك الجامعة الاميركية في القاهرة . سأقتصر كلامي على الكليات والجامعات العاملة في لبنان ، لأني قد تعلمت في أحدها ، وإني على إتصال دائم بمعظم جهود هذه المعاهد ونشاطاتها الأكاديمية والعلمية . فان مناهج هذه الكليات والجامعات وبرامجها الظاهرة والمستترة ، وما تتضمنه من معلومات ومعارف واتجاهات ومواقف ، تعد الفرد وتدربه ، بحيث يصبح ، عن قصد أو غير قصد ، أكثر فهما ودراية وتكيفا مع المجتمعات الصناعية الأوروبية والأميركية منه ، من مجتمعه العربي . ومن هنا يصبح متطلعا أبدا الى انتهاز فرصة الهجرة ، بمجرد أن تسنح له ، حيث يجد مجالات خصبة للعمل وتطبيق ما تعلمه وتدرب عليه مثلا ، في الطبيعة والجيولوجيا أو الأبحاث العلمية والصناعة الاوتوماتية ، في الوقت الذي لم تعده دراساته ، لمشكلات الصناعات الصغيرة والمتوسطة والزراعة والبحث عن مصادر المياه الجوفية وقضايا محو الأمية وتعليم

---

(٤٠) المرجع ٥ ، ص ٧ .

الكبار والبالغين وغيرها من قضايا مجتمعه ومشكلاته ، الناجمة عن التخلف والموارد المحدودة[41] .

ثم إن الأجواء والمناخات الفكرية والعلمية والأكاديمية والاجتماعية وغيرها ــ كلها ــ تساعد الطالب ، في هذه المعاهد ، للاغتراب الفكري والثقافي والحضاري ، وبالتالي للابتعاد عن مجتمعه العربي . ففي الكليات والجامعات الناطقة باللغة الانكليزية مثلا ، فانها تستعملها بشكل كلي في تدريس المواد كافة باستثناء مواد اللغة العربية وآدابها ، كما ان اللغة الانكليزية هي لغة غالبية الحلقات الدراسية والمؤتمرات والندوات العلمية والثقافية التي تقع ضمن إطار مناهج هذه المعاهد الرسمية والمقررة . كما تتضمن المكتبات ومراكز التوثيق كتبا ومراجع ومصادر ودوريات ومنشورات ومطبوعات غالبيتها في اللغة الانكليزية . هذا ويخضع الطالب الذي يسعى الى الدخول والالتحاق بالكلية أو بالجامعة إلى إمتحان باللغة الانكليزية ، كي تتأكد إدارة المعهد من قبول طلاب في مستوى لغوي معين . وما يطبق على المعاهد الناطقة باللغة الانكليزية ، يطبق أيضا على المعاهد الناطقة باللغة الفرنسية .

وهكذا يتضح ان الطالب العربي الذي يدرس أو يتخصص في معهد للتعليم الجامعي في قطر عربي ، وخاصة في لبنان ، حيث الحرية التعليمية على أشدها . أو كاملة ، فان هذا الطالب يشعر ، بالنتيجة ، انه في محيط أو بيئة « غريبة » أو « غربية » ــ أميركية أو فرنسية مثلا ــ في قلب مجتمع أو محيط عربي كبير . فالمعهد يقع ويعمل على الأرض العربية ، إلا أن أفكاره وبرامجه وتطلعاته ، سواء عن قصد أو غير قصد ، ترنو إلى الخارج . فهو جسديا أو ماديا هنا ، ولكن فكريا ومعنويا وحضاريا ، وراء البحار أو عبر الحدود .

ولا ريب أن هذه الأجواء والمناخات الفكرية والاجتماعية الغربية ، تقود الطالب تدريجيا الى الانعزال عن مجتمعه والانطواء على نفسه ، فينتج عن ذلك ما يسمى بـ « الصدمة الثقافية » أو « الصدمة الحضارية » . لأن الطالب يعيش في مجتمعين ، في الواقع ، ولكنه لا ينتمي فعلا لأحد منهما . ومما قد يعزز الصدمة الثقافية أو الحضارية المذكورة ويزيدها شراسة ، خروج الطالب الى مجتمعه للعمل بعد التخرج . فيواجه عوائق وصعوبات جمة ، نتيجة طبيعة علومه الجامعية التي لا تعده ولا تؤهله لكي يواجه مشاكل المجتمع العربي وقضاياه . ونتيجة لهذه الأوضاع ، يصبح خريج الجامعة ، لا حول له ولا قوة . فيتجه غربا ، الى أميركا أو غيرها ، إما ليتابع تحصيله العلمي أو لمزيد من التخصص العالي والدقيق .

٣ ــ تعليم ينمي الاتجاه الشخصي أكثر من المجتمعي : ان طبيعة التعليم ومفاهيمه التقليدية والرجعية ، من شأنها أن تنمي بدورها الاتجاه الشخصي في المثقف الجامعي ، بدلا من ان تنمي فيه الاتجاه المجتمعي . وبذلك يركز الجامعي إهتمامه على حاجاته وتطلعاته الفردية ، ويتجاهل التحديات الوطنية والقومية والأهداف الاجتماعية والانسانية . ومن ثم فان قراراته الشخصية والمهنية تتحكم فيها القوى الفردية والقوى المضادة للوطنية والقومية . وبذلك يكون التعليم ، كما هو مجسم في هؤلاء الافراد ، وكما يمثلونه ، ليس مدخلا من مدخلات التنمية ، وانما هو الطريق العريض الى الرفاهية الشخصية والاشباع الفردي[42] . أي ان المصلحة الفردية والمنفعة الخاصة تغلب على

---

(٤١) المرجع ١٣ ، ص ٤١ .

(٤٢) المرجع ٢٣ ، ص ١٤ و ١٧ .

المصلحة العامة ، الوطنية والقومية ، نتيجة لروح اللامبالاة وغير المسؤولية المجتمعية . وهذا الوضع يؤدي بالنتيجة إلى تقوية نزعات الاغتراب فالهجرة[٤٣] .

٤ ـ **افتقار الى الحياة الجامعية والعلمية وبيئة البحوث** : ومن أسباب هجرة الجامعيين الى الخارج ، وخاصة فئة العلماء والباحثين ، ذلك الافتقار الواضح الى جو الدراسة والبحث ، والقرارات الخاطئة بشأن أولويات البحوث ، والبيروقراطية السافرة والتواني في الدوائر العلمية ، والاساس غير الأكاديمي للترقي ، والمركز الاجتماعي الذي يحتله العلماء والباحثون والأساتذة القدامى ، والتقاليد البالية المتبعة ، وأسلوب معاملتهم للعلماء الشباب وغير ذلك . فكل هذه العوامل وما شابهها تجعل من النظم التعليمية الجامعية والعلمية ، دافعا قويا الى هجرة المؤهلين جامعيا . ولا ريب في أن المناخ الفكري والعلمي السائد في الحياة الجامعية والعلمية وبيئة البحوث ، هو من الأهمية بمكان ، بحيث يعادل الأجور والرواتب في اهميته ، ان لم يفقها . وهناك غير دليل يؤكد الى ان المواهب لا تسافر سعيا وراء المال ، ولكن طلبا للاجواء العلمية المناسبة[٤٤] .

٥ ـ **تقصير في الربط بين التعليم الجامعي والتنمية** : ويعود تسرب الكفايات الجامعية الى الخارج ، الى ذلك التقصير الفادح في إرتباط التعليم العالي والجامعي بالاقتصاد العربي وبالتنمية الوطنية والقومية . فما زال مفهوم الجامعة عندنا تقليديا ورجعيا ، أي انها تزود الطالب بالعلم من أجل العلم ذاته والثقافة من أجل الثقافة ذاتها . بيد ان العلم والتربية والبحث يجب أن توجه لخدمة المجتمع وإنهاضه وتطويره وإنمائه . ومن المعلوم ان الفشل في ربط نظام التعليم الجامعي باقتصاد البلد ومشاريع إنمائه ، يؤدي الى كثير من مظاهر بطالة الجامعيين ، كما يؤدي الى إحباط آمال الشباب الجامعي وتطلعاته المستقبلية في كل قطر عربي .

والجدير بالذكر ان بطالة الجامعيين لا تصيب حملة الشهادات العليا في مجالات الدراسات النظرية والادبية والانسانية فحسب ، وانما إمتدت ، في السنوات الأخيرة ، الى الحائزين على الشهادات العليا في الميادين العلمية والفنية والتقنية ، من علماء ومهندسين وعلميين وباحثين وسواهم . وتؤكد الدراسات التي جرت في بعض الأقطار العربية الى حقيقة هذه الظاهرة[٤٥] . ولا ريب في أن السبب في ذلك يعود الى غياب التخطيط والتوجيه التربوي والمهني . فقد تطور التعليم وتوسع ، إلا أن تطوره كان سلبا . أي اتسعت معه ظاهرة بطالة المثقفين ، نظرا للتوسع الاعتباطي في التعليم ، ونتيجة للتقصير في ارتباط ذلك التوسع بحاجات الطاقة العاملة ، وبالتالي الاقتصاد ومشاريع التنمية[٤٦] . بيد أن التخطيط الاقتصادي والتربوي والربط بينهما ، أصبح مسلما بهما في عدد من البلدان الاجنبية ، كما ان التوجيه التربوي والمهني يعتبر حجر الزاوية في الجامعات الأميركية مثلا . في حين قلما نجد التخطيط العلمي إلا في التقارير الرسمية عامة ، وقلما نجد جامعة عربية تقدم خدمات توجيه وإرشاد بالمفهوم الحديث .

---

(٤٣) أ ـ مجلة **الطليعة** (القاهرة ، إبريل ١٩٧٢) ، ص ٢٧ . ب ـ المرجع ١٣ ، ص ٤٢ .

(٤٤) المرجع ٢٣ ، ص ١٦ ـ ١٧ . والمرجع ٤٣ (أ) ص ٢٧ .

(٤٥) المرجع ٢٢ (ب) ص ١٥٨ ـ ١٦٢ .

(٤٦) المرجع السابق ، ص ٦٧ ، والمرجع ٤٢ (أ) ، ص ٢٨ .

خطة لتطوير التعليم الجامعي ضمن استراتيجية للانماء لمواجهة الهجرة :

والآن ، بعد كل ما تقدم من حقائق ومعلومات وأفكار ، يجدر بنا أن نلقي نظرة إلى الأمام . أي الى معالجة قضية هجرة الجامعيين وقضية التخلف العام في المجتمع العربي بطريقة علمية وعملية . وعلى الأقطار العربية ، منفردة ومجتمعة ، أن تضع ذلك بين أولوياتها المتقدمة . ولما كانت قضية الهجرة العلمية قضية تربوية الى حد كبير ، في الأساس ، فان حلها ومعالجتها يكمن في التربية نفسها ، أي بنشر التعليم لبناء مجتمع متعلم ومثقف وتطوير التعليم الجامعي وربطه بالتنمية الوطنية والقومية في البلاد . ولما كان الانسان نفسه غاية التنمية وأداتها ، لا بل صانعها ، فان التنمية الصحيحة في ذاتها تربية وتعليم وتدريب . لان أساس التنمية في أي مجتمع هو تنمية العقول والقيم والمهارات والمواقف والمثل والخبرات ، كبنى تحتية تكون ركيزة التنمية في كل القطاعات[47] . فمن هنا ننطلق . لأن التنمية لا تتحقق إلا بالانسان المتعلم والمثقف والمدرب والمؤهل . المطلوب ، إذن ، إعتماد خطة استراتيجية تربوية شاملة ، تتناول ، بالدرس والبحث والتحليل ، الواقع العربي ، كما هو ، وتخضع هذا الواقع للدراسات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والنفسية ، من قبل رجال العلم والاختصاص . ثم تصبح هذه الخطة التربوية ، عندما تصاغ نهائيا ، جزءا لا يتجزأ من الخطة القومية ، أي خطة التنمية القومية[48] . ولما كان هذا البحث يتناول التعليم الجامعي ، ويركز على هجرة خريجي الجامعات ، فاننا سنقتصر على تطوير التعليم العالي والجامعي للحد من نزف الأدمغة الجامعية . وعليه سنقترح بعض الخطوات العلمية والعملية التي تكون بمثابة عناصر أساسية لخطة تطوير التعليم الجامعي من أجل التنمية العربية ، القومية والوطنية وبالتالي للحد من هجرة خريجي الجامعات الى الخارج .

١ ــ **اعتماد الطريقة العلمية** : ولا ريب في ان إنجاح أي خطة او مشروع أو حل أي قضية ومشكلة ، ينبغي أن يعتمد في الأساس على **الأخذ بالأسلوب العلمي** . ولا يمكن لأي حل أن يكون مرضيا ، إلا باعتماد الطريقة العلمية الحديثة في كافة المجالات . فعلى صعيد دراسة قضية **هجرة الجامعيين** ، ينبغي معالجتها بطريقة علمية شاملة . أي بالقيام بدراسات وأبحاث ميدانية ومكتبية لتجميع إحصاءات وأرقام حول ظاهرة الهجـرة الجامعية واتجاهاتها . ولهذا الغرض يمكن لأي قطر عربي يعاني من الهجرة العلمية ان يتعاون مع أجهزة جامعة الدول العربية المختصة ، وكذلك مع المنظمات الدولية ، مثل اليونسكو ، التي تهتم بهجرة الكفايات من البلدان النامية . وهذا ويفضل ان تحشد بعض الطاقات الجامعية نفسها للمساهمة في إجراء هذه الدراسات وإيجاد الحلول الناجعة والمناسبة لها .

٢ ــ **التقييم العلمي للأوضاع الجامعية** : لا يمكن تطوير التعليم الجامعي ما لم يخضع أولا ، من الداخل والخارج على حد سواء ، لدراسة علمية وموضوعية ، من أجل تشخيص العوامل والقوى الداخلية والخارجية التي تتحكم بتطوره . وذلك لنرى بوضوح كيف يمكن ان نسيطر على هذه العوامل والقوى وتوجيهها نحو صيغ جديدة وأساليب وطرائق جديدة أيضا[49] . وبكلام آخر ان

---

(٤٧) المرجع ٣٦ ، ص ٢٣ .

(٤٨) قسطنطين زريق ، حديث في **مجلة إذاعة لبنان** (بيروت ، آب/ أغسطس ١٩٧٥) ، ص ٧ .

(٤٩) محمد الغنام ، **التربية في البلاد العربية في ضوء مؤتمر مراكش** (١٩٧٠) (بيروت ، المركز الاقليمي ، ١٩٧١) ، ص ٤٩ .

التقييم/ التقويم العلمي للاوضاع الجامعية القائمة حاليا في الوطن العربي ، والتركيز على مدخلاته وعائده في التنمية الوطنية والقومية وقدرته عليه ، يكون بمثابة توطئة لوضع رؤية تعليمية جديدة تنسجم مع الرؤية الاجتماعية للمجتمع العربي ، وتضمن الالتزام بها ، وتكون ذات فاعلية في سد حاجاته ومتطلباته ، وبالتالي تحقيق آماله في التطوير والتنمية والتقدم[٥٠] .

٣ ـ **اعتماد مفاهيم جديدة للتنمية :** لما كان التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة مرتبطين بقوة بالتنمية ، يجدر أن نرسي خطة التنمية على مفاهيم واتجاهات جديدة . ولعل التنمية ، حسب المفهوم الجديد ، تعني أكثر من مجرد نمو إقتصادي ، واكثر من تراكم رأس المال المادي ، وأكثر من زيادة في الدخل القومي ، وأكثر من مجرد ثروة مادية تتضاعف ، أو اكثر من شعب يتكاثر ، ولكن التنمية تعني أكثر من كل ذلك . إنها تعني في الأساس نمو المهارات البناءة والأفكار والآراء الجديدة ، والمواقف والاتجاهات السليمة ، والقيم والمثل الرفيعة والقدرات والطاقات العقلية الخلاقة ، والادارة الحديثة والتنظيم الأفضل ، والارادات الحسنة الكامنة في الثروة البشرية . ثم ان الاكتشافات والاختراعات والابتكارات الجديدة في العلم والتكنولوجيا ، تأتي بواسطة التربية والتعليم والتدريس . وفي إطار ذلك ، تصبح مواقع العمل والانتاج ، مجالات تربوية مهمة[٥١] .

٤ ـ **إرساء فكرة الجامعة وفلسفتها على أسس جديدة :** لعل أول ما ينبغي القيام به في تطوير الجامعة ، هو إرساء خطة إنماء للتعليم العالي على فلسفة وأهداف ووظائف جديدة ، علمية وعملية . فالجامعة الجديدة المنشودة ، هي « منظمة إجتماعية » أو مؤسسة ينشئها المجتمع لسد حاجات ضرورية له ولتحقيق أهداف مهمة لازمة لتطوره وتقدمه . والغاية القصوى من إنشاء الجامعة ، هي أن تقود عملية التطوير والانماء الشاملة والمتكاملة في المجتمع في كافة الميادين العلمية والتربوية والانتاجية والثقافية والانسانية . وتؤدي الجامعة هذه الوظيفة باعداد الاختصاصيين ، المؤهلين والمدربين ، في المهن المختلفة من الأطر العليا من المهارة العلمية والتقنية ، كالأطباء والمهندسين والعلماء والباحثين والمدرسين والمربين وسواهم ، الذين يقودون عملية التطوير في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ثم بالقيام بالدراسة العلمية والتقنية لكافة القضايا والمشكلات التي تعترض عملية التطوير الاجتماعي والانماء الاقتصادي ، لتذليل جميع العقبات التي تقف في طريق التقدم[٥٢] .

وبالتحديد ، فمن أهداف الجامعة الانمائية ورسالتها أيضا ، أن تسعى ، في مناهجها وبرامجها . أن تنمي روح المسؤولية في الطلاب ، وأن تغلب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وأن تدعم الانتماء الوطني والقومي للمجتمع العربي ، وأن ترسخ التفكير النقدي والعلمي والمبدع والخلاق في مواجهة التحديات ، وأن تؤسس المنهج العلمي في التفكير ، وأن ترسي في نفوس الطلاب دعائم الشجاعة الأدبية في القول الحق ، وأن تغرس حب العمل اليدوي واحترامه وتقديره والقيم الوطنية والقومية والانسانية ، وأن تخلق ارادة البناء والتطوير والتغيير في الأجيال الطالعة . وهكذا

---

(٥٠) المرجع ٣٦ ، ص ٤٢ .

(٥١) أ ـ المرجع ٣٦ ، ص ٢١ .

ب ـ ليونارد سيلك ، **ثورة البحوث** ؛ ترجمة عمر القباني (دار الكرنك ، بلا تاريخ) ، ص ١٨١ .

(٥٢) جامعة الكويت ، **جامعة الكويت والمجتمع في العام الجامعي ٧٦/١٩٧٧** ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

يتضح ان الجامعة في تفاعل مستمر مع المجتمع . فهي تتأثر به وتؤثر فيه . لأن حاجات المجتمع تفرض وجودها ، ثم هي تقود عملية تطويره وتقدمه(٥٣) .

٥ ـ ربط تطوير التعليم الجامعي بالخطط الانمائية : ولكي تخدم الجامعات التنمية وقضاياها ، ينبغي ارتباط التعليم الجامعي بالخطط الانمائية الوطنية والقومية . ويمكن ان يتم ذلك بربط محتوى المناهج بواقع المجتمع ، من حيث مشكلاته وحاجاته وامكاناته ومتطلباته ، وبالتالي جعل برامج تطوير البيئة والمجتمع جزءا أساسيا في مناهج الجامعة الدراسية(٥٤) . لهذا يجب الربط والتنسيق بين التخطيط التربوي وبين التخطيط الاقتصادي . لأن من أهداف التخطيط التربوي ، الربط بين **تنمية التربية وبين التنمية الاقتصادية والاجتماعية** . فالتنمية التربوية هي الاداة الرئيسة لأي تنمية إقتصادية وإجتماعية . ولا سبيل الى تحقيق تنمية إقتصادية وإجتماعية في قطر من الاقطار ، دون تنمية الثروة البشرية ورأس المال البشري فيه ، أي دون إعداد وتدريب الأفراد الذين تحتاج اليهم المشروعات المختلفة في التنمية الوطنية والقومية الشاملة(٥٥) .

٦ ـ قومية العمل العربي في معالجة الهجرة والتطوير : إن قضية الحد من هجرة الجامعيين من الأقطار العربية ، وتطوير الجامعات العربية ، تتطلب بالضرورة قيام **تعاون** عربي وثيق ومشترك وتنسيق في جهود الحكومات العربية . ويعود ذلك الى أن معالجة أي قضية عربية مشتركة تكون أفضل وأجدى ، حين يتم في إطار جهود مشتركة وتكامل بين الأقطار العربية ، وليس في إطار جهد قطري ، تقوم به كل دولة عربية على حدة .

ويمكن أن يتم التعاون أيضا ، في مجال إستخدام العقول الجامعية . فبعض الأقطار العربية ، لديها فائض من الجامعيين ، مثل لبنان والاردن ومصر ، بينما الاقطار النفطية تحتاج الى الكفايات الجامعية على أنواعها . ويجدر بالاقطار العربية مجتمعة ان تصدر ميثاقا تعلن فيه ، ان كل عقل جامعي هو رأس مال عربي مشترك ، يجب أن يستثمر ضمن إطار الأمة العربية . لهذا يجب إصدار تشريعات خاصة بضمان حقوق خريجي الجامعات في العمل ، بأي قطر عربي دون قيد أو شرط ينكر وتؤكد تجارب عدد كبير من الجامعيين العرب ، انه من الأسهل ان يسافر ويعمل في بلد أجنبي ، من أن يسافر ويعمل في قطر عربي شقيق . ولا ريب في ان موقف بعض الحكومات العربية هذا يزيد من حالة إغتراب المثقف الجامعي ، فينتهي به الأمر ربما الى الهجرة الدائمة الى بلد أجنبي .

وفي إطار التعاون من أجل تطوير الجامعات العربية ، يمكن أن يتم ذلك بتبادل الأساتذة والباحثين والعلماء والطلاب ، وتبادل الوثائق والمعلومات والدراسات ، وتنظيم المؤتمرات والندوات والحلقات العلمية والفنية ، ورسم الخطط لدفع الحركة العلمية والانمائية العربية ، للافاق التي يتطلع إليها المواطن العربي في كل مكان ، على نمط ما يجري في الولايات المتحدة . كما يجدر بالجامعات

---

(٥٣) أ ـ المرجع ١٢ ، ص ٤٢ ، والمرجع ٥٢ ، ص ١٨٧ .
ب ـ محمد علي حافظ ، **تطوير السياسة التعليمية في المجتمع العربي** (بيروت ، دار الكشاف ، ١٩٦٧) ، ص ٢٩٨ .
جـ ـ المرجع ٤٢ (أ) ص ٢٩ .
(٥٤) المرجع ٣٦ ، ص ٢٧ .
(٥٥) المرجع ٢٢ (ب) ، ص ١١٩ ، والمرجع ٤٢ (أ) ص ٢٩ .

العربية ان تتصل بالجامعات الأجنبية والافادة من تجاربها[٥٦] .

٧ ـ تامين البيئة المناسبة : ولما كان من أسباب هجرة الجامعيين ، عدم توافر الأجواء والمناخات العلمية والاجتماعية والاكاديمية والنفسية المناسبة والمؤاتية للعمل العلمي ، فان محاولة تأمين ذلك يعتبر خطوة أساسية حميدة في الحد من هجرة هؤلاء . وما أصدق ما كتبه ، في هذا المجال ، الدكتور أنطوان زحلان ، عندما قال : « وكي يثمر عقل العالم بالانتاج المفيد ، بل وكي يرضى البقاء في بلده ، يجب آن يؤمن له الاطمئنان (الفكري والسياسي والجسدي) . فقد كان العلماء في القرون الوسطى على إستعداد لأن يستشهدوا لأجل العلم . أما اليوم فلا يوجد أي عالم يشعر بأن عليه مثل هذا الواجب فهو يهاجر عادة الى تلك البلدان التي تقدر قيمة الفرد وتوفر له المناخ والتسهيلات الملائمة للحياة المنتجة »[٥٧] .

٨ ـ دعوة الجامعيين للمساهمة في التنمية : ومن أسباب هجرة الجامعيين العرب الى الخارج ، شعورهم بأنهم لا يدعون للمساهمة في معركة تطوير أقطارهم وانمائها . ويمكن لخريجي الجامعات أن يسهموا في تطوير الوطن العربي بشكل ملموس ، وذلك بتوسيع أبعاده الثقافية وتطويره العلمي وتقدمه الوطني والقومي العام . ومن المعلوم ان أفضل وسيلة لانجاح أي خطة أو مشروع ، أن يساهم من يهمهم الامر ، في وضع الخطة ووسائل تنفيذها . ففي قطر عربي متعلم ، نعرفه جيدا ، يشتكي الجامعيون من أبنائه ، من جراء عدم اشراكهم في خطة تطوير التعليم الجامعي . لأن عملية التطوير تقتصر في الغالب على فريق إداري حكومي ذي نفوذ سياسي ، أو على خبراء أجانب يستدعون خصيصا لهذا الغرض . فقد ذكر لنا استاذ جامعي قديم ، انه مكث في التعليم الجامعي ، في قطره ، أكثر من ربع قرن ، ولم يؤخذ برأيه بأي موضوع . لأن كل التنظيمات والمقررات الجامعية تأتي من « فوق » .

والسؤال الآن . لماذا لا نواجه قضايانا ومشاكلنا بأنفسنا ، دون اللجوء الى خبراء أجانب ، نستوردهم من منظمة اليونسكو أو من بلدان متقدمة ؟ لقد ولى ذلك الزمن الذي كنا « نقدس » الخبراء الأجانب وأعمالهم . ولقد برهن الخبراء العرب ان باستطاعتهم أن يقوموا ، إذا ما سنحت لهم الفرص والأجواء المريحة ، بأعمال بذات المستوى الذي يقوم به الخبراء الأجانب ، لا بل أفضل بكثير . لهذا ندعو الحكومات العربية ان تستثمر الطاقات العربية ، إذا ما توافرت ، في إعادة النظر في نظم التعليم الجامعي والمناهج والبرامج المتبعة ، وتطويرها ، بحيث تصبح هذه ملائمة للتحديات العديدة التي يواجهها المجتمع العربي ككل . وتجدر الاشارة الى حقيقة نتمسك بها وهي . إنه لا يستطيع أحد خارج الجامعة أن يحرص عليها أكثر من الذين في داخلها ، من أساتذة وباحثين . لأن السند الأول للجامعة هم الجامعيون أنفسهم ، الذين يجب ان تتجسد فيهم مهمة الجامعة ومهمة تطويرها[٥٨] .

٩ ـ القضاء على التخلف ببناء مجتمع مثقف : وانطلاقا من قولنا ، ان التخلف العام في المجتمع العربي ، هو علة العلل وآفة الآفات ، بما في ذلك نزف خريجي الجامعات ، فان القضاء على

---

(٥٦) أ ـ المرجع ٥٢ (ب) . ص ٢٩٦ .

ب ـ **التربية الجديدة** (العدد ١١ . نيسان/ ابريل ١٩٧٧) . ص ١٠٥ ـ ١٠٨ .

(٥٧) **مجلة قضايا عربية** (بيروت . العدد الاول . نيسان ١٩٧٤) . ص ٨٢ .

(٥٨) المرجع ٥ . ص ١٠ .

هذا التخلف ، ببناء مجتمع متعلم ومثقف ، أو مجتمع العلم والتكنولوجيا ، بات ضرورة وطنية وقومية وإنمائية ، فضلا عن كونها ضرورة إنسانية .

ومن المؤكد من تجارب الأمم المتقدمة ، انه لا يمكن استثمار المواهب المثقفة والعقول الجامعية ، الا في مجتمع عصري متعلم ، وإعداد إنسان معاصر يعتمد على الذكاء والقدرة على استثمار هذا الذكاء . فالولايات المتحدة مثلا ، التي تجتذب أدمغة البلدان قاطبةً ، تفعل ذلك بفضل مجتمعها المثقف العصري والمتقدم بمؤسساته . لأن المجتمع المتعلم يستطيع أن يستوعب الأطباء والمهندسين والعلماء ومن اليهم . ولا يمكن تحقيق بناء مجتمع متعلم وعصري ، ما لم ننطلق أولا ، **بثورة تربوية شاملة** ، تبدأ بالزام التعليم وتعميمه . فالتعليم هو سلاح للتحرير من التخلف وقوة للتطوير[٥٩] .

١٠ ــ تطوير الجامعات العربية في مجالات أخرى : وبالاضافة الى كل ما تقدم ، ثمة مجالات أخرى عديدة يمكن أن نطور بها الجامعات العربية . يحسن بنا أن نعدد أهمها بايجاز . فعلى الكليات والجامعات العربية الرسمية مثلا ان تنشىء مراكز متقدمة كبرى للبحث العلمي والتطوير وتزودها بالمراجع والدوريات العلمية المتخصصة ، وان تربط التدريس وأساليب التدريب باستخدام تكنولوجيا التربية والتقنيات الجديدة والوسائل التعليمية الحديثة ، وان تجدد نظم الامتحانات التقليدية الجامدة بنظم عصرية مرنة واكثر موضوعية ، وان تزود مكتبة الجامعة بالكتب والمراجع والدوريات والمخطوطات والوثائق والمنشورات على أنواعها ، وان تنشىء أجهزة خاصة للتوجيه التربوي والمهني ، وأن « تعرّب » التعليم العالي والجامعي ، أي أن تجعل التعليم ذات طابع عربي محلي ، قطري وقومي ، وأن توسع المؤسسات الجامعية بايجاد حقول وتخصصات علمية جديدة . ثم لا بد من تطوير المراحل ما قبل التعليم العالي .

١١ ــ المتابعة والتقويم المستمران : واذا ما أردنا حقا ان نطور التعليم الجامعي ، بقصد التعرف على مدى نجاح كل جامعة في تحقيق ما حددته أو حدد لها من الأهداف الكمية والنوعية ، ومدى قيامها بأدوارها ومسؤولياتها ، علينا إعادة دراسة خططنا وسياستنا التربوية ، بين الحين والآخر ، بطريقة علمية وموضوعية ، بغية تطوير الطالب الجامعي والارتفاع بمستوى تعليمه وتدريبه ، لكي يستطيع مواجهة التحديات الانمائية وقضايا المجتمع العربي الكبرى . ولكي نستطيع التجديد والتطوير للتعليم الجامعي ، لا بد من إنشاء أجهزة أو مؤسسات أو مراكز خاصة للقيام بأعمال المتابعة والتقويم/ التقييم بشكل مستمر لكل المراحل والخطوات والأهداف والاجراءات ، وللاستطلاع لحاجات المستقبل المحتملة . فيجب أن يكون هناك جهاز في كل جامعة لتقييم أعمالها ولاستطلاع حاجات المستقبل ، كما يجب ان يكون في كل قطر مؤسسة عامة لهذا الهدف أيضا . وكذلك يجب أن يكون هناك مؤسسات تقييمية إستطلاعية على الصعيد العربي[٦٠] .

---

(٥٩) بيتر ف . دراكر ، **معالم الغد الجديد** ، ترجمة عادل زيتوني (بيروت . منشورات المكتبة الأهلية ، بلا تاريخ) ، ص ١٥٨ ــ ١٦٥ .

(٦٠) أ ــ المرجع ٥٢ (ب) ، ص ٤٠١ ــ ٤٠٢ .

ب ــ المرجع ٥ ، ص ٩ .

جـ ــ **قضايا عربية** (آب/ اغسطس ١٩٧٩) ، ص ٨٩ .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

تقـــدم

اعمال الروائي العربي الكبير عبد الرحمن منيف

- سباق المسافات الطويلة .
- الاشجار واغتيال مرزوق .
- شرق المتوسط
- حين تركنا الجسر
- قصة حب مجوسية

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

صدر حديثاً

١ ـ الاسكندر
٢ ـ هنيبعل
٣ ـ يوليوس قيصر
٤ ـ مارلبورو
٥ ـ فريدريك الكبير
٦ ـ جورج واشنطن

اعداد المقدم بسام العسلي

الطاقة العلمية العربية بين الكفاءة والتبديد

د . حسام مندور

خبير اول التخطيط الصناعي
في معهد التخطيط القومي بالقاهرة

يرفع شعار العلم ، البحث العلمي ، تطبيق الاساليب العلمية ... الخ ، في كثير من بيانات ووثائق الاقطار العربية . وتبنى مراكز البحث العلمي ومعاهد البحوث وتقام الاكاديميات والهيئات الاشرافية لتتولى وضع السياسات العلمية . ويحدث توسيع في الطاقة البحثية وتصرف الملايين على استجلاب المعدات البحثية والخبراء الاجانب . ويتم ارسال البعثات بأعداد كبيرة الى الخارج لتدريب العلماء والفنيين والمتخصصين . وتنظم المؤتمرات وتعد الدراسات عن اوضاع العلم والبحث العلمي في الوطن العربي . ويحاول البعض التنبؤ بأوضاع العلم والتكنولوجيا في الوطن العربي حتى عام ٢٠٠٠ . وغير ذلك الكثير . وكل هذا النشاط محمود ويدل على ادراك لاهمية البحث العلمي في تطوير المجتمع العربي اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا . ولكن كيف يمكن الاستفادة من كل هذه الجهود ؟ وكيف يمكن ربط البحث العلمي بالانتاج وبالتطوير الاقتصادي والاجتماعي لكل قطر عربي حتى لا يضيع هذا المجهود وهذه الموارد والاستثمارات دون ان تساهم بشكل جدي في تطوير المجتمع العربي ؟

والاجابة على هذه التساؤلات تحتم علينا في البداية تحليل ما هو قائم ودراسة المعوقات التي تقف امام الاستفادة من « الكم » الحالي ، وهو ليس بالقليل ، قبل الانغماس في عمليات التوسع التي قد يكون بعضها ـ هنا او هناك ـ مظهريا او حتى دليلا على زيادة درجة التبعية للعالم الخارجي[1] كماسيأتي ذكره .

ولذلك فان هدف هذه الدراسة هو تحديد ودراسة المشكلات التي تقف عائقا امام الاستفادة من نتائج البحث العلمي التي تقوم بها فعلامؤسسات البحث العلمي في الوطن العربي على اختلاف اشكالها ومسمياتها في مجالات الانتاج والخدمات المختلفة . وهي تركز بالتالي على مناقشة تلك المعوقات التي تقابل نقل نتائج البحوث الى حيز التطبيق اي الى القطاعات الانتاجية والخدمية بوجه عام .

(١) قدرت قيمة العقود المبرمة تحت التنفيذ في الوطن العربي عام ١٩٧٧ بحوالي ١٠٠ مليار دولار . كما أن العقود المبرمة سنويا يقدر عددها بين ٢٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ مشروع قيمتها ٣٠ مليار دولار . ويلاحظ أن ٩٠ ـ ١٠٠٪ من هذه المشروعات يتم تصميمها وتنفيذها بواسطة شركات أجنبية بتكلفة تمثل ضعف تصميم وتنفيذ المشروعات المشابهة في الدول الصناعية المتقدمة .

وموضوع الدراسة يستمد اهميته من عدة مسلمات :

اولا : ان الوطن العربي يملك بالفعل طاقة بحثية تتمثل بأعداد لا بأس بها من العلماء والفنيين والباحثين على الاقل في بعض الاقطار العربية والتي بدأت في التكون منذ ثلاثينات هذا القرن والتي نمت بعد ذلك بشكل مضطرد منذ اكثر من عشرين عاما بالاضافة الى وجود مجموعة كبيرة من هيئات ومراكز الابحاث وجامعات تزاول البحث العلمي وفي وجود اطر مؤسسية مسئولة بشكل او اخر عن تنظيم البحث العلمي وتخطيطه متمثلة في وزارات واكاديميات ولجان« مركزية » للبحث العلمي في العديد من الاقطار العربية ، بالاضافة الى نماء ملحوظ في الخبرة في مستوى تخطيط وادارة الوحدات البحثية وتوفر تمويل بقدر لا بأس به اذا قورن بالاوضاع المشابهة في مناطق اخرى في العالم النامي[٢] ، كل ذلك بالاضافة الى توافر عشرات البحوث المنتهية والتي قد يقبل الكثير منها التطبيق سواء بصورتها الحالية او باستكمالها لمراحل ما بعد الدراسة المعملية ، ثم اخيرا ـ وهو ليس اقل اهمية ـ اهتمام واسع في المستوى الحكومي الرسمي في عديد من دول المنطقة بدور البحث العلمي يمكن الاستدلال بما تحتويه الوثائق الرسمية لهذه الدول .

ثانيا :ان الوطن العربي حقق تطورا اقتصاديا ملحوظا في مجال الصناعة الاستخراجية وفي صناعة مواد البناء وبعض فروع الصناعات الاستهلاكية وخاصة النسيج والصناعات الغذائية وصناعات مستلزمات الانتاج مثل الاسمنت والاسمدة والحديد والصلب والبتروكيماويات والالمونيوم ومواد البناء مع توسع كبير في مجال التشييد والبناء وتوسع افقي في مجال الزراعة مع محاولات للتوسع الرأسي في الزراعة والقطاعات المرتبطة به وتوسع سريع في مجال الخدمات وخاصة التعليمية والصحية . وكل ذلك ـ بالرغم من نقائض الهيكلية الشديدة ـ مثل**ويمثل وعاء موضوعيا** في حاجة الى نتائج البحث العلمي سواء لاستكشاف افاق جديدة للتنمية او لرفع كفاءة استغلال الطاقات الحالية او لحل المشكلات الانتاجية القائمة او للمساهمة في مجابهة المشكلات القومية الاساسية القائمة او المحتملة في المستقبل القريب او البعيد .

ثالثا : ان الوطن العربي يجابه في مجموعه مشكلات عديدة بعضها ذو طابع قومي واضح مثل مشكلات التصحر(اذ تمثل الصحاري حوالي ٩٠٪ من مساحة الوطن العربي) وحماية البيئة خاصة البيئة الساحلية ومشكلات الموارد المائية والري ومسح الموارد ومشكلات الغذاء والاسكان والامراض المتوطنة في أجزاء واسعة منه كما يواجه مشكلات ذات طابع قطاعي او محلي . كما ان لبعضها تأثيرات طويلة الاجل وبعضها الاخر متفاقم بالفعل ويحتاج الى حلول سريعة وجذرية . كما ان بعضها قد يمثل تهديدا للكيان القومي في الاجل الطويل . وكل ذلك ـ بخلاف المساهمة المطلوبة من البحث العلمي والتكنولوجي في رفع الكفاية الانتاجية ـ لا يمكن ان يحل دون المساهمة الجادة والفعالة للبحث العلمي

---

(١) راجع في ذلك : Osama El-Kholy «Towards a new Phase in Technology Transfer in the Arab Region» Paper presented before the Arab-Japan Technology Transfer Conference, held in Tokyo, 5-6 April 1978.

(٢) قارن في ذلك UNESCO «Science and Technology in the Development of the Arab: States» Memo 41.
UNESCO «National Science and Technology Policies in the Arab States» memo. 38
mustafa Hafez. survey of Expenditure in Arab States» Unesco 1978

لحل كل او جل هذه المشكلات سواء على المستوى الوطني او القومي .

رابعا : مع توفر قدر او اخر من الطاقات العلمية في الوطن العربي - قد تكون مركزة في بعض اقطاره - تصلح كمنطلقا للمساهمة في مجابهة المشكلات العديدة التي تقابل التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الاقطار العربية ، ومع وجود جهاز انتاجي متنام يمثل وعاء موضوعيا في حاجة الى نتائج البحث والتطوير الا ان هناك احساسا عاما لدى المثقفين العرب والعلماء والمسئولين الحكوميين بأن الارتباط بين البحث العلمي ونتائجه من ناحية ومجالات التطبيق المختلفة من ناحية اخرى لم يتحقق الا بشكل هامشي حتى الان .

خامسا : ان حصر الطاقات البحثية في الوطن العربي من مصروفات وميزانيات وافراد علميين ومؤسسات ... الخ ليس كافيا لتقييم نشاط البحث العلمي . فقد يؤدي البحث الى الوصول الى نتائج لا تستعمل او لا يمكن ان تستعمل [٣] . وبالتالي فان اي موارد اضافية توضع في مجال البحث قد لا يؤدي بالضرورة الى رفع الكفاية الانتاجية للمجتمع ، وبالتالي يصبح الكلام عن العلم وزيادة الطاقة البحثية لا محل لها ، الا اذا ارتبط ذلك بالتقدم الاجتماعي والاقتصادي ككل .

سادسا : وعند التعرض لدراسة مسببات ظاهرة انفصال العلم الوطني المحلي عن مجالات التطبيق وعجزه عن المساهمة في عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، فان البعض - خاصة السياسيين - يعزون ذلك عادة الى ظاهرة انعزال الباحثين والعلماء في « ابراجهم العاجية »[٤] دون الدراسة المتأنية للجوانب المختلفة لهذه الظاهرة . فالمشكلات التي تجابه اندماج العلم الوطني في الاطار الاقتصادي الاجتماعي ونقل نتائج البحوث الى حيز التطبيق بعضها ناشيء عن هيكل وامكانات وسياسات البحث العلمي نفسه ، ولكن وبدرجة اكبر فان بعضها نشأ وينشأ من الطرف الذي يمثل المستفيد المحتمل وهي معوقات تحد سواء بشكل موضوعي او ذاتي من امكانات الاستفادة من نتائج البحوث في قطاعات التطبيق ، ولكن الاهم هو تلك المعوقات التي تنتج عن الاطار الاقتصادي الاجتماعي الثقافي الذي يحيط بكل من طرف التعامل ويؤثر عليها معا وعلى الامكانات الحقيقية والموضوعية للاستفادة من نتائج البحوث في مجالات التطبيق الانتاجية والخدمية المختلفة .

سابعا : تحاول الدراسة ان تلقي الضو على تلك المعوقات التي تقف حائلا دون الاستفادة من نتائج البحوث في المقام الاول . اي انها تحاول الاجابة على السؤال التالي : لماذا لاتستفيد قطاعات الانتاج والخدمات القائمة بشكل واسع من نتائج ومجهودات البحث العلمي في الوطن العربي ؟

---

(٣) تمتعت بعض الاقطار العربية في بعض فروع المعرفة بمستوى مقارب للمستوى الأوربي في ثلاثينات هذا القرن ، ولكنه لم يرتبط بالتكنولوجيا والانتاج . وقد اختلف هذا الوضع بشكل جذري بعد الحرب العالمية الثانية . وتخلفت هذه الفروع بالمقارنة بالمستوى الدولي .

(٤) ان ظاهرة انفصال العلم والعلميين عن مسائل التنمية ومشاكل الممارسات التكنولوجية كانت تميز المدارس العلمية القليلة التي ظهرت في بعض البلاد العربية منذ نصف قرن مضى . وكانت نظرة العلميين الى العاملين في مجال التطبيقات التكنولوجية تتميز بالترفع . وقد اختفت هذه الظاهرةبالتدريجبعد الحرب العالمية الثانية بوجه عام حتى اختلط الأمر حاليا وتبدلت المواقف بشكل قد يؤثر بالسالب على كل من جانب التعامل حاليا . قارن في ذلك : أسامة الخولي « **الوطن العربي بين العلم والتكنولوجيا** » . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

والدراسة بحكم موضوعها لا تتعرض للانجازات العديدة والرائدة لبعض البحوث العربية التي حقق تطبيقها الفعلي نجاحات مرموقة سواء في المجال الزراعي او صناعة الدواء او بعض الصناعات التحويلية او في مجال الخدمات الصحية ... الخ . وبالتالي فالدراسة لا تمثل تقييما لمجهودات البحث العربية ، بل هي تشير الى الضعف الواضح **للعلاقة** بين البحث العلمي والتطبيق وتركز بالتالي على اكتشاف وتقييم **المعوقات** التي تقف امام نقل نتائج البحوث - على قلتها - الى حيز التطبيق .

المعوقات الناشئة عن طبيعة النظام الاقتصادي الاجتماعي

سبق الاشارة الى ان الوطن العربي يحوز بالفعل مجموعة من معاهد البحوث والجامعات كما تم بناء قطاعات صناعية جديدة في السنوات العشر الاخيرة مع تحقيق تنمية افقية رأسية في المجال الزراعي ... الخ ، ومع وجود قطاعات انتاجية وخدمية في احتياج موضوعي للبحث العلمي لاتمام عمليات المواءمة والتعديل وتطوير التكنولوجيا المستوردة والمستعملة في الصناعة والزراعة والتشييد ، لاستنباط مواد بديلة وعمليات صناعية جديدة ولانتاج انواع محسنة من مستلزمات الانتاج الصناعية والزراعية ، وجود جهاز بحثي كان يمكن ان يقوم بجزء من هذه الخدمات ، الا ان اللقاء المنتظر لم يتحقق الابشكل هامشي . والتحليل القادم ينطبق في الاساس على الاقطار العربية الاكثر نموا . وسوف نركز التحليل على مجموعتين من الاقطار العربية : المجموعة الاولى ، وهي الاقطار التي تأخذ بنظام التخطيط المركزي والذي تلعب الدولة فيه دورا اكثر تأثيرا عن طريق ملكيتها للجانب الاكبر من وسائل الانتاج خاصة في الصناعة ، والمجموعة الثانية تمثل الاقطار ذات نظام « السوق الحر » . ويمكن اجمال هذه المعوقات في الاتي :

١ - **ضعف الطلب المحلي على نتائج البحوث** :ويرجع ذلك الى طبيعة النظام الاقتصادي في الاقطار العربية وطرق تخطيطه وادارته وتحديد اولويات التنمية واختياراتها . ففي الدول الرأسمالية المتقدمة تلعب المنافسة دورا كبيرا في دفع المنتجين لتطوير اساليب الانتاج والمنتجات في محاولة للحد من التكلفة وتوفير مستلزمات الانتاج والطاقة وتحسين نوعيات ومواصفات السلع في اطار هدف تحقيق الربح الاقصى - والا تعرضوا للطرد من الاسواق . وهنا يلجأ المشروع سواء اكان صناعيا ام زراعياً الى البحث العلمي الذي يتم اما داخل نطاق المنشأة كما يحدث في الشركات الكبرى بالنسبة للابحاث التطبيقية وابحاث التطور او تستعين المنشأة عن طريق العقود بمؤسسات البحث المتخصصة والجامعات للمساهمة في حل مشكلات البحث والتطوير بها[٥]

اما في الدول الاشتراكية ذات التخطيط المركزي فان الدولة تتولى عن طريق الخطة العامة وخطط البحث العلمي والتكنولوجي والتي تمثل جزءا لا يتجزء منها وضع الحوافز الضرورية التي تدفع المشروعات في اتجاه تطوير اساليب الانتاج والمنتجات عن طريق تحديد مؤشرات الزامية للحد من تكلفة المواد والطاقة بالنسبة للوحدة المنتجة بمعدلات سنوية مدروسة ، كما تحدد معايير لنوعية وجودة السلع

---

(٥) وحتى في ظروف المنافسة الاحتكارية فان الاحتكارات الضخمة تلجأ الى البحث العلمي للحد من التكلفة وتطوير المنتجات - حتى ولو كان تطويرا صوريا - وهي قد لا تميل الى تطبيق المنجزات التي تؤدي الى زيادة الانتاج في فترات الكساد وقد تؤجل أو حتى تعيق تطبيق بعض نتائج البحوث خضوعا لحالة السوق ومعدلات الاحلال والتجديد بها - مما يمثل تبديدا لموارد - ولكنها في النهاية تستمر في تطوير أساليب الانتاج بسرعة كبيرة .

ومؤشرات لرفع الكفاية الانتاجية للعمل ، كما تطبق مجموعة كبيرة من الوسائل غير المباشرة عن طريق تحديد اسعار منخفضة نسبيا مثلا لادوات الانتاج الجديدة لتشجع على الاستثمار في تسهيلات انتاجية اكثر كفاية او تخصص جزءا من ارباح المشروعات لاهداف التطوير التكنولوجي ، كما تقدم مجموعة متكاملة من الحوافز المادية والمعنوية للمجددين مرتبطة بتحقيق تقدم فني في الانتاج على اساس تقييم اقتصادي لنتائج هذه الاعمال ... الخ .

اما في الاقطار العربية ذات « التخطيط المركزي » فان مجموعة الحوافز التي كان يمكن ان يقدمها سوق بلد نام لا يتشابه مع نظيره في الدول الرأسمالية المتقدمة للاستفاده من نتائج البحث العلمي كانت ومازالت شبه معدومة للاسباب الاتية :

ا ـ ان تملك الدولة للجزء الاعظم من القطاع الصناعي الكبير والمنظم وتحكمها في السياسة الزراعية والتجارة الخارجية وملكيتها لشركات التشييد ... الخ مع عدم كفاية العرض من كثير من السلع والخدمات ـ ينطبق ذلك على العراق كما ينطبق على الجزائر وسوريا ومصر قبل عام ١٩٧٣ ـ لحجم الطلب الذي خلقته انماط الاستهلاك التي لم يتغير كثيرا خاصة للطبقات القادرة مع الحد من استيراد هذه السلع من الخارج ادى الى ان يلعب القطاع العام بها دور المحتكر للسوق الداخلي وبالتالي قل الدافع لتطوير المنتجات والحد من التكلفة وهي العناصر التي كانت يمكن ان تساهم في تنمية الطلب على نتائج البحث العلمي . ولذلك يقتصر الطلب عادة على حل مشكلات الانتاج الجارية والتي تؤثر على الكم في الاساس ، وهي مشكلات غالبا ما لاتحتاج الى بحث علمي حقيقي بقدر ما تحتاج الى تدريب فني للعاملين او الى احلال وتجديد للمعدات والالات او الى نوع من الارشاد الفني . وبالرغم من ان الخطط في هذه الدول دون استثناء تقف جامدة امام معالجة مشاكل تداول السلع المختلفة سواء لاغراض الاستهلاك او لاغراض الاستخدام الوسيط وترك امر ذلك كلية لالية جهاز الثمن . فان ذلك لم يدفع في اتجاه تطوير المنتجات او العمليات الانتاجية كما يحدث في الدول الرأسمالية المتقدمة .

ب ـ وفي نفس الوقت لاتسمح طرق تخطيط وادارة قطاع الدولة بتطبيق طرق للحوافز شبيهة بما هو متبع في الدول ذات التخطيط المركزي . فالتخطيط في هذه الدول هو تخطيط للاستثمارات الجديدة ، وهو بالتالي لا يلزم المشروعات القائمة بأي مؤشرات خاصة بتطويرالانتاج وتحسين كفاءة استغلال الطاقات القائمة ـ وظاهرة الطاقات العاطلة الواسعة خاصة في الصناعات الجديدة دليل على ذلك في جميع الاقطار العربية دون استثناء وهي تصل لنسب مزعجة جدا في بعض القطاعات الصناعية الهامة ـ وتتم المحاسبة عادة على اساس الكم مع اهمال كبير للكيف بما في ذلك تطبيق نظم المواصفات القياسية وبالتالي انتفى المصدر الموضوعي للطلب على خدمات البحث العلمي ، كما ان اساليب الادارة المتبعة لاتقدم الحوافز الكافية للعاملين في الارتباط مع تطوير اساليب الانتاج والمنتجات . وتدار الشركات في الغالب على اساس نفس اساليب العمل الذى تتبع في جهاز الدولة بما يمثله ذلك من عائق امام احتمالات التطوير .

ج ـ يؤدي الاعتماد شبه التام على استيراد التكنولوجيا من الخارج وعدم البداية في تطوير التكنولوجيا المحلية واعطائها قيمة كبيرة باعتبارها ذات اثر اسرع على عملية التنمية الى بقاء جهود البحث العلمي المحلي بعيدة عن تيار التنمية . كما يمثل ذلك نوعا من عدم الاهتمام الضمني لجهود تكوين القدرة الذاتية المحلية ويصبح المجهود المحلي في مجال البحث العلمي عملا اكاد يميا صرفا ، كما

يخلق انماطا متضاربة وغير مخططة من التنمية العلمية والاسوء من ذلك ان عمليات نقل التكنولوجيا الافقية هذه تتم في كثير من الاحيان منذ اولى مراحلها وهى مراحل دراسات الجدوى ثم مراحل التصميم ، والمواصفات الهندسية في تنفيذ المشروع وتسيير بأيدي المورد الاجنبي وعن طريق الاستعانة ببيوت الخبرة الاستشارية الاجنبية ، على عكس ما يتم في البلاد المتقدمة ذاتها حيث تكمل الخبرة الاستشارية النقص في الخبرات المحلية في بعض المراحل . وبالرغم من ان النقل الافقي للتكنولوجيا لا يحتوى على مضمون علمي كبير الا ان هذا النشاط يحتاج في مراحل معينة « التصميم الهندسي مثلا » الى اعمال ذات طابع علمي كان الاجدر ان تتولاها الخبرة المحلية متى توفرت وتشجيع تنميتها وخلقها في حالة عدم توفرها حتى تصبح في المستقبل في وضع يسمح لها بتطويع التكنولوجيات المستوردة للظروف المحلية بشكل اكثر تناسبا مع خصائص المواد الاولية المحلية وظروف التشغيل المحلية . ويلاحظ ان مجهودات التطويع التي تمت في الوطن العربي كانت في غالبها نتيجة للممارسة ولم تجىء من الجهد المنظم والهادف للبحث العلمي .

د ـ وفي الاقطار العربية ذات السوق الحر فان الوحدات الانتاجية المحلية تعاني الكثير في سبيل التوافق مع متطلبات المنافسة في الاسواق المحلية ذاتها ـ ولكنها لا تقدر على المنافسة بسهولة وهي لا تلجأ عادة الى خدمات البحث العلمي المحلي ، وهى بحكم حجمها المتواضع في اغلب الاحيان غير قادرة ماليا على تمويل ابحاث قد تكون طويلة الاجل بطبيعتها ، كما ان ضعف نظم الادارة تجعلها غير قادرة على التفرغ لمتطلبات التطوير بقدر ما تنشغل في مقابلة الاحتياجات العاجلة للانتاج ـ صعوبات الاستيراد ونقص الطاقة ومستلزمات الانتاج والعجز في العمالة المدربة ... الخ ـ وهى تلجأ عند الحاجة الى استخدام الخبرات الاجنبية . ويفقد بالتالي الاقتصاد الوطني طابع التكامل الداخلي . اما الشركات التي يشارك او يمتلكها بالتكامل رأس المال الاجنبي فعادة ما تطبق اساليب جديدة مستمدة من مراكز الابحاث في البلد الام ولا تلجأ لخدمات البحوث المحلية الا فيما ندر .

ه ـ ومن ناحية اخرى فان العديد من اجهزة البحث العلمي في الوطن العربي سواء في مجال العلوم الطبيعية ام في مجال البحوث الاجتماعية قد استجابت ايضا لمتطلبات الطلب الخارجي وهي تتعاقد بشكل متنام على تنفيذ مشروعات بحثية [٦] مع عملاء اجانب بموضوعات مختارة من الخارج ونادرا ـ وخاصة في مجال العلوم الطبيعية ـ ما يكون لها تطبيقات محلية . وهذه التعاقدات وان كانت ، تمثل تشغيلالطاقات عاطلة محلية في مجال البحث العلمي الا انها تجلب معها مخاطر الانعزال عن حاجات المجتمع العربي . وهى ان كانت لا تمثل استنزافا لموارد محلية هي اصلا غير مستغلة بسبب الطبيعة الخاصة لهذا القطاع حيث ان استغلاله قد يزيد من قيمته ، اذ ان القيام بالبحوث يمثل تدريبا عمليا للباحثين والعلماء وقد يمثل وسيلة من وسائل تمويل البحوث وتحسين دخول العلماء والفنيين ولكنه مع كل ذلك يعمق الانفصال بين جهات البحث والتطبيق المحلية .

٢ ـ **الارتباط بالعالم الخارجي** :ادت سياسة التنمية في عديد من الاقطار العربية الى تكوين

---

(٦) تعاقدت على سبيل المثال الجامعات والمؤسسات الامريكية مع الاجهزة العلمية المصرية على ٢٥٢ مشروعا بحثيا بخلاف (٧) مشروعات بحثية تعاقدت عليها وزارة الزراعة مع الوكالة الامريكية للتنمية الدولية خصص لها ٩٣ مليون جنيه خلال الاربع سنوات السابقة . قارن في ذلك : المجلس القومي للتعليم والبحث العلمي والتكنولوجيا ، محضر اجتماع شعبة البحث العلمي ، الدورة السابعة، ١٦/٩/١٩٧٩ .

علاقات اقتصادية مع العالم الرأسمالي المتقدم يتميز بتبادل السلع الاولية- زراعية او تجميعية - او السلع ذات « المضمون » التكنولوجي المنخفض مع السلع ذات المضمون التكنولوجي المرتفع وبالتالي انحصر دورها في تقسيم العمل القائم في السوق العالمي في اطار ضيق ابعد القاعدة الانتاجية الموجودة عن القدرة على الانتقال بنتائج البحوث الى حيز « الانتاج » الفعلي للمعدات او الخدمات التي كان يمكن ان تستوعب هذه المنجزات وبالتالي امكانية تسويقها والاستفادة منها ، كما لم يحرز الهدف الاصلي للتنمية المستقلة وهو تحقيق الارتباط بين قطاع انتاج المعرفة العلمية والاساس التكنولوجي للمجتمع في القطاعات الانتاجية الحديثة والتقليدية على أي اختيار واع في الغالبية العظمى من الاقطار العربية .

والمشكلات السابقة مجتمعة - وغيرها - قد عملت على استمرار الفجوة بين جهاز البحث العلمي ونتائجه ومجالات التطبيق المختلفة . وبالرغم من تواجد حاجات اكيدة في كل مجتمع لنتائج البحث العلمي الا ان الطلب على هذه الخدمات يحدده في النهاية وبشكل موضوعي اساليب تخطيط وادارة الاقتصاد القومي وفروعه ومدى التكامل الداخلي بين القطاعات الانتاجية ومدى احتياجها الموضوعي الذي يتحول الى طلب « فعال » لخدمات البحث العلمي وهو ما فشلت الدول العربية في تحقيقه بشكل تلقائي او مخطط وبطريقة مؤثرة حتى الان . وبالرغم من ضعف الاساس الاقتصادي بوجه عام وخاصة القطاعات الانتاجية ، الا ان ما هو متاح من طاقات علمية من ناحية واساس اقتصادي من ناحية اخرى كان يستتبع - اذا توافرت الشروط الاخرى - خلق طلب حقيقي على خدمات العلم والتي كانت بدورها ستساهم في رفع الكفاية الانتاجية للعمل في المجتمع والتي هي اساس ومضمون التقدم .

المعوقات الناتجة عن هيكل وامكانات وسياسات البحث العلمي :

١ - بالرغم من الاستقلال النسبى لجهاز البحث العلمي ، الا ان جزءا منه قد ارتبط في نشأته في الماضي في عديد من الاقطار العربية باحتياجات التنمية الموضوعية خاصة في مجال البحوث الزراعية (في مصر مثلا) وذلك لخدمة اقتصاد مشوه وحيد الجانب ، ولكن الهام انه ارتبط في توازن معين مع بعض الاحتياجات المحلية . وقد سوقت نتائجه غالبا عن طريق الاجهزة التابعة للدولة في شكل بذور محسنة او انواع مستنبطة جديدة من المزروعات ... الخ او عن طريق تقديم خدمة طبية افضل لبعض فئات الشعب . وللاسف فقد افتقد هذا التوازن بعد ذلك وخاصة في الستينات مع نمو حجم الطاقة البحثية وزيادة دفعه التنمية نتيجة لعناصر سبق شرحها في القسم الاول من هذه الدراسة . وقد نما هيكل البحث العلمي في السنوات السابقة دون دراسة حقيقية للاحتياجات المحلية في كل قطر عربي وبعيدا بدرجة او بأخرى عن احتياجات القطاعات الانتاجية الجديدة او المزمع انشاؤها كما وردت في خطط التنمية المتعاقبة في الوطن العربي . كما تأثر هذا الهيكل بالخبرة التاريخية المتراكمة فعلا - وهذا ليس سيئا في حد ذاته - مما ادى الى تكثيف الطاقة البحثية في قطاعات كانت قد وصلت فعلا الى الحد الادنى الضروري لا ستمرارها ونموها دون ان يتحقق الحد الادنى الضروري للعمل في المجالات الجديدة . اى ان الهيكل الحالي يحمل في كثير من الاحيان الهيكل القديم دون ان يتخطاه جذريا ليتوافق مع الاحتياجات المحتملة لعملية التنمية وخاصة التصنيع . وبقيت البحوث الصناعية قليلة في الكم غير مكتملة في النوع لاسباب سنأتي الى شرحها .

٢ - اتجهت وما زالت - بسبب الضعف الواضح في تحديد اهداف التنمية ثم اهداف البحث العلمي واولوياته ضمن سياسة وطنية للبحث والتطوير - في اغلب البلاد العربية كثيرة من مؤسسات

البحوث الى تحديد « اهداف » بحثية خاصة بها مرتبطة باهتمامات الباحثين ومدى خبرتهم التى مثلت في كثير من الاحيان الامتداد الطبيعي لتدريبهم في الخارج . وانغمست مراكز البحوث في عمل البحوث الاساسية ـ وهو واجب الجامعات الاساسي ـ واهملت العمل في مجال تطوير اساليب الانتاج واصبحت الصفة الغالبة للبحوث هى كونها بحوثا ذاتية ليست موجهة لخدمة اغراض محددة ومدروسة سلفا ، بل وقد تخلوا تماما من احتمالات التطبيق الاقتصادي .

٣ ـ والمشكلة الثالثة التى قابلت وتقابل امكانية الاستفادة من نتائج البحوث ارتبطت بسياسة انشاء مؤسسات البحوث نفسها وامكاناتها المعملية . فالمعروف ان الكثير من البحوث التطبيقية تحتاج الى عدة مراحل وسيطة حتى تصبح قابلة للتطبيق وخاصة البحوث الصناعية . وهى مراحل المعالجة الهندسية (المواصفات الاولية) والتصميم وتصنيع الوحدة التجريبية وتجارب التطوير مع دراسة الجدوى الاقتصادية لها حتى يمكن نقلها للانتاج . وتحتاج هذه المراحل عادة الى تمويل يفوق في مقداره كثيرا ما تكلفه البحث في مراحله الاولية وقد تصل هذه التكلفة الى عشرات الاضعاف . ولكن الملاحظ ان هذه التسهيلات العملية الخاصة بمراحل البحث نصف الصناعي مازالت متخلفة جدا ، وهي تحتاج بالضرورة الى استثمارات رأسمالية كبيرة لابد من توفيرها ـ بغرض توفر فرص التطبيق الاقتصادي الفعلية ـ ولو بشكل مخطط وتدريجي في مراكز البحوث الاساسية والتى يتوقع منها ان تحقق عائدا اقتصاديا او اجتماعيا مناسبا في المستقبل ، كما يستتبع ذلك ضرورة الاهتمام بالمهندس المصمم في اطار نظام تعليمي متطور .

٤ ـ واذا تحقق الاستخدام الامثل للموارد الحالية للاعمال المخططة وعلى اساس دراسة التكلفة والعائد منها وفي اطار الاهداف المختارة والمبررة اقتصاديا واجتماعيا والموضوعة على اساس التنبؤ باحتياجات الاقتصاد القومي في المستقبل فقد يظهر عند اذن مقدار الحاجة الى التمويل الاضافي محددا بدقة . وهنا قد تظهر الحاجة الى وضع سياسات ثابتة لتمويل البحث العلمي وخاصة ان المشاريع البحثية تستمر في العادة عدة سنوات وبالتالي يصبح ربط التمويل بالميزانيات السنوية عبئا اداريا يجب التخلص منه .وقديكون من المفيد في المرحلة الحالية في الوطن العربي ان تعامل بعض الهيئات البحثية الحكومية باعتبارها وحدات اقتصادية تستطيع بعد عدد معين من السنوات ان تقوم بتحقيق تمويل ذاتي لابحاثها عن طريق التعاقد في السوق المحلي او القومي العربي . ويمكن البداية في هذا المجال في الهيئات البحثية الحديثة نسبيا على ان يتم دعمها لعدد معين من السنوات وذلك بطبيعة الحال بشرط اعطاء الادارة العلمية في هذه المؤسسات حرية عمل حقيقية واعفائها من العديد من اللوائح البيروقراطية التي تعيق اتخاذ القرارات .

٥ ـ ان اقلمة واستيعاب التكنولوجيا المستوردة لم تحل عن طريق البحث العلمي بالرغم من ان المضمون العلمي لها قليل وذلك لنقص بالغ في مجال انشاء مكاتب تصميم المشروعات او المنتجات . وبالمثل فقد اهملت بشكل واضح في الوطن العربي الخدمات « العلمية » الاخرى الضرورية لحسن سير الانتاج مثل عمليات المعايرة القانونية ووضع المواصفات القياسية ومراقبة تنفيذها . وبذلك ساهم هذا الوضع في توسيع الهوة بين اجهزة البحوث والخدمات العلمية ومجالات التطبيق الانتاجية بالرغم من الحاجة الواضحة لمثل هذه الخدمات .

٦ ـ ثم اخيرا فقد ساهم « الخلط » بين مفهومي العلم والتكنولوجيا في زيادة الفجوة . فبعض

هيئات البحوث وأكاديمياتها اخذت في الفترة الاخيرة ـ وفي اطار الاهتمام العالمي بموضوع النقل الافقي للتكنولوجيا وهو اهتمام مشروع من جانب الدول النامية ـ تهتم بمشكلات نقل التكنولوجيا وهي مشكلات ذات طابع اقتصادي قانوني اجتماعي وان كان مضمونها العلمي قليل . كما اتجه من ناحية أخرى التعليم الفني والتكنولوجي الى التمثل بما يدرس في الجامعات ـ اي اتجه الى العلم واسسه ـ على حساب وظيفته الاساسية لتخريج الكوادر القادرة على تطبيق المنجزات العلمية والاهتمام بالدراسات الخاصة بالتصميم الهندسي ... الخ . وساهم هذا الوضع في زيادة حدة البعد عن المشكلات العلمية الحقيقية وتوجيه الموارد والطاقات النادرة الى امور كان يمكن ان تحل في اطار اخر .

المعوقات القائمة والناشئة عن هيكل واساليب العمل في مجالات التطبيق المحتملة :

١ ـ سبق ان أوضحنا عند التعرض للمعوقات الناشئة عن طبيعة النظام الاقتصادي الاجتماعي والتي تعيق نقل نتائج البحوث الى حيز التطبيق أن ضعف الحافز الاقتصادي لدى المشروعات الانتاجية بسبب عدم الاهتمام بتطوير الانتاج ورفع كفاية استغلال الموارد المتاحة وتحسين جودة المنتجات ، قد أدى الى ضعف الطلب على خدمات البحث العلمي . ومن الواضح بعد ذلك أن ضعف الهيكل الانتاجي نفسه في الاغلبية الكبرى من البلاد العربية يساهم في ذاته في الحد من امكانية استيعاب نتائج البحث العلمي (اذا وجدت) . والمشكلات القائمة والناتجة عن الهيكل الانتاجي في كثير من الدول العربية يمكن اجمالها في الآتي :

● تفتت الملكية في الزراعة قد يؤثر على هيكل الطلب وحجمه المرتبط بانجازات البحوث الزراعية . ويلاحظ ان البحوث الزراعية التي يجري اغلبها في اطار اجهزة الدولة يجد بعضها تطبيقا في الزراعة عن طريق بيع مستلزمات الانتاج المحسنة او عن طريق الارشاد الزراعي ... الخ . الا أن هناك اتجاهات في البحوث الزراعية يصعب تطبيقها في حالات تفتت الملكية مثل الميكنة او التحسين الواسع للانتاج الحيواني وسلالاته او تعميم اساليب التسميد العلمية وغيرها ذلك ان تطبيق البحوث الزراعية تحكمها في النهاية رغبة المستفيد النهائي وهو الفلاح . واذا كانت بعض التطبيقات الزراعية قد حققت نجاحا مشهوداً في دولة مثل مصر في الماضي فقد ارتبط ذلك بسياسة الدولة التي تحكمت في السياسة الزراعية بوسائل ادارية في الغالب وفي اطار أشكال متنوعة للملكية . الا أنه يبقى صحيحا ان بعض المنجزات يصعب تطبيقها في اطار الملكية القزمية التي تمثل نسبة كبيرة من الاراضي المستغلة في بعض الدول العربية .

● يمثل قطاع الانتاج الصغير ـ خارج الزراعة ـ قطاعا واسعا في كثير من الاقطار العربية وهو يشمل الصناعات الصغيرة والحرفيين والصناعات البيئية وأعمال النقل والتجارة وغيرها . وهي قطاعات هامة للاقتصاد القومي وتساهم بنسب كبيرة في الناتج ـ خاصة اذا استبعدنا القطاع الاستخراجي الحديث ـ ومن الواضح ان طبيعة هذا القطاع الاقتصادي والفني والتنظيمي تقف عائقا امام احتمالات التطبيق الاقتصادي لنتائج البحوث المرتبطة بالانتاج السلعي في هذه المجالات .

● بالرغم من النمو الذي تحقق في القطاع التحويلي الا ان هيكله الحالي يعاني على المستوى العربي من ضعف قطاعات انتاج وسائل الانتاج والصغر النسبي للاغلبية العظمى من شركاته وبالتالي فهي في وضع لا يسمح لها بتمويل البحوث او انشاء الوحدات البحثية التابعة لها . وبالرغم من ان عديداً من البلاد العربية ذات التخطيط المركزي تأخذ بنظم المؤسسات « القابضة » في قطاع نوعي معين ، الا ان هذا المستوى الاشرافي الذي من واجبه التخطيط على مستوى القطاع وتطوير اساليب الانتاج به

وتحسين الجودة ... الخ عجز حتى الان عن القيام بشكل مؤثر بهذه الواجبات ، كما ان البحوث الصناعية ـ اذا وجدت ـ فانما تتم بعيدا عن مجالات التطبيق الفعلية وهي بعيدة ايضا مكانيا وتنظيميا عن القطاعات المنتجة الا في احوال نادرة . هذا بالاضافة الى ان المشكلات « اليومية » هي التي تشغل الادارة العليا لهذه المشروعات بسبب القصور في الامداد بالمستلزمات السلعية والطاقة ونقص الكوادر المدربة وبالتالي ظهور الطاقات العاطلة التي لها ـ وهذا من طبيعة الاشياء ـ الاولوية على ما عداها في العلاج .

٢ ـ على ان المعوقات التي تقف امام امكانية تطبيق نتائج البحوث في مجالات التطبيق المختلفة ليست كلها ذات طابع موضوعي . فهناك مجموعة كبيرة من المعوقات ذات طابع ذاتي واضح ظهرت كنتيجة للوضع الثقافي العام في الوطن العربي منها الاتي : ان هناك ما يمكن تسميته « بفجوة التصديق » والتي تتمثل في عدم ثقة رجال الانتاج فيما يمكن ان يجلبه البحث العلمي من منافع ، وحتى اذا توفرت هذ ه الثقة بشكلها المطلق ، فهي اذا ليست ثقة فيما يمكن ان ينجزه **العلم الوطني العربي** ؛ العزوف عن الجديد وسيادة الاعتقاد بأن التطوير العلمي مجال من مجالات المغامرة التي يحسن البعد عنها ، خاصة في القطاع العام في البلاد العربية حيث لم تستقر طرق المحاسبة لافراد الادارة العليا وارتباط كثير من سياسات الانتاج برغبات الوزراء « السياسية » مع عدم الارتباط بسياسات مستقرة طويلة الاجل ذات اهداف محددة وواضحة .

الخلاصة :

١ ـ ان دراسة اوضاع البحث العلمي حاليا في الوطن العربي تستتبع ليس فقط التحديد الكمي لعناصر الطاقة البحثية المتاحة من تمويل وافراد ومؤسسات وامكانات نموها في المستقبل ، وانما تستدعي ايضا دراسة مدى تأثير تواجد هذه الطاقة على التنمية الاقتصادية والاجتماعية . ولو فرض جدلا ان المشكلات الحالية التي تمثل عائقا امام الاستفادة من نتائج البحث العلمي سوف تظل قائمة في المستقبل ، فمعنى ذلك ان هذا الجهد سوف يفقد الكثير من قيمته . اذ ان البحث العلمي سيبقى في هذه الحالة حلية يتحلى بها المجتمع او مشروعا مظهريا يضاف الى المشروعات المظهرية الاخرى التي تجد مثيلا لها في عديد من القطاعات في كثير من الدول العربية .

٢ ـ ان التركيز على زيادة الطاقة البحثية في الوطن العربي دون استيعاب نتائج البحث العلمي يمكن ان تؤدي الى زيادة هجرة العلميين او زيادة البطالة بينهم بالاضافة الى تبديد الموارد بطريقة غير اقتصادية . فالوطن العربي **حاليا** يخصص جزءا من ناتجه القومي الاجمالي للبحث العلمي اكبر مما يخصص في كثير من دول امريكا اللاتينية او بعض دول اسيا او حتى بعض الدول الاوروبية الاكثر تقدما بكثير مثل اسبانيا ولكن ما هو مقدار الاستفادة من كل ذلك ؟ وقد يثار الجدل بأن قطاع البحث العلمي يمكن ـ نظريا على الاقل ـ ان يحافظ على تواجده المستقل باعتباره قطاعا انتاجيا قد يحقق بعض الفوائد عن طريق بيع منتجاته في شكل براءات اختراع وحقوق معرفة مثلا الى العالم الخارجي ، ولكن هذا الوضع محكوم عليه بالفشل في الوطن العربي لضعف الهيكل الانتاجي المادي الذي يمثل القاعدة التجريبية الحقيقية لاي انجاز ذي مغزى .

٣ ـ ويبقى القول ان تحقيق معدلات نمو عالية يمكن ان يتحقق دون علم محلي نام ومؤثر وخاصة في مراحل التوسع الافقي الاولى . ويبدو ان مثل هذه الظواهر تساهم في الاقلال من اهمية البحث

العلمي والتكنولوجي لدى رجال السياسة الاقتصادية في الاقطار العربية . الا ان معدلات النمو هذه لا يمكن توقع استمرارها في المستقبل بدون الاعتماد على عوامل النمو الرأسي والتي ستتمثل في الاستغلال الامثل للطاقات القائمة وتطويرها والتي لا يمكن ان تتحقق في الاجل الطويل دون العلم كما يظهر من تجارب جميع الاقطار المتقدمة في الوطن العربي او في الشرق الاشتراكي . وبناء قاعدة وطنية للعلم والتكنولوجيا هي مهمة طويلة الاجل بطبيعتها ولا بد من البداية الجادة بها حتى لا يكون عدم وجودها سببا من اسباب التدهور في المستقبل ولكن هذا التواجد يشترط توفير المناخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي الملائم لتحقيق الاتصال الموضوعي بين الجهاز الانتاجي والخدمي من ناحية ومنجزات البحث العلمي من ناحية اخرى وتنمية طلب فعال وحقيقي على نتائج البحوث يتوافق مع الحاجات الموضوعية له .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بصدر قريباً

سلسلة الف ليلة وليلة للفتيان والفتيات

١ ـ حكاية شهريار وشهرزاد

٢ ـ احلام ابو الحسن البغدادي

٣ ـ رحلة السندباد الى جزر الخيال

٤ ـ السندباد والملك الازرق

اعداد : محمد المنسي قنديل

رسوم : بهجت عثمان

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

في سلسلة اعلام الفكر العالمي

ابيقورس
بروست
ديكنز
بريتون
بلزاك
غيفارا
هنري ميللر
ماركس
نيتشه
انجلز
اندريه مالرو
ديكارت
مدام كوري
سارتر
بوشكين
بريخت
بيكيت
اراغون
متزيني
ميكافيللي
سقراط
راسين
فرويد

باريتو
كانط
هوغو
غوته
دوستويفسكي
لوركا
لوكاش
غوركي
فيبر
روزا لكسمبورغ
اندرية جيد
جويس
تورغنيف
ماياكوفسكي
فوكنر
غوغول
اورويل
برودون
بودلير
اناتول فرانس
تولستوي
فيخت
داروين

افلاطون
رامبو
أوسكار وايلد
شتاينبك
برنارد شو
غرامشي
أودن
توماس مان
ادغار الان بو
رينان
فورييه
سبينوزا
دوركيم
فلوبير
بيرون
سرفانتس
بيراندللو
سان سيمون
مالارميه
تروتسكي
لورانس
بيلنسكي
ستاندال

هجرة الكفايات العربية

مجموعة من الاوراق القيت ونوقشت في
الندوة التي اقامتها اللجنة الاقتصادية لغربي اسيا
« حول هجرة الكفاءات العربية »
في بيروت (شباط/ فبراير ١٩٨٠)
وقد تولت « قضايا عربية » ترجمة هذه الاوراق ،
واجراء بعض الاختصارات .

---

[١]
مشكلة هجرة الادمغة العربية

د . انطون زحلان

خبير استشاري واستاذ في جامعة
برايتون (بريطانية) وكاتب في
شؤون الطاقة البشرية

ان هجرة الادمغة ، ونقل التكنولوجيا والمعلومات ، والتنمية الاجتماعية ـ الاقتصادية ، جميعها تدور حول التعلم . فهذه العمليات تدل على وجوه معينة للتغيير في المجموعة الكاملة للمعرفة التي يمتلكها مجتمع من المجتمعات . ونحن نهتم هنا بهجرة الادمغة العربية ، لا بوصفها تتعلق بجمهرة من الافراد المجازين اكاديميا ينتقلون عبر الحدود الدولية فحسب ، ولكننا معنيون ايضا بأسبابها فضلا عن تأثيراتها ونتائجها . ووفقا لحسابات تقديرية اجريتها اخيرا ، فان نسبة مئوية لتدفق الاطباء والمهندسين والعلماء العرب الى اوروبا الغربية والولايات المتحدة حتى ١٩٧٦ كان ٥٠ و٢٣ و١٥٪ من المجموع العربي الاجمالي . وبلغت اعدادهم ٢٤ الف طبيب ، ١٧٢ الف مهندس و٧٥٠٠ عالم طبيعي[١] . كما ان تحرك الادمغة العربية داخل الوطن العربي لا يستهان به . ويجد المرء هنا اعدادا كبيرة من معلمي المدارس والموظفين الاداريين بالاضافة الى المهندسين والاطباء . وقد يكون من المفيد النظر الى هذه التحركات في منظور الانظمة السائدة للتعليم العالي العربي .

---

(١) B. ZAHLAN, «The Arab Brain Drain», **Population Bulletin** of UNECWA, June 1979.

في هذه الدراسة عرضت المعلومات المتوافرة حول تدفق الادمغة المهاجرة والبلدان التي هاجروا اليها . وجرى طرح عدد من الافتراضات المحددة الواضحة للتوصل الى الاعداد المذكورة هنا . وتم التوكيد كذلك على المحدوديات والنواقص . وقورن تدفق الادمغة المهاجرة بعدد خريجي الجامعات العربية .

لقد كان عدد وحجم الجامعات العربية ينموان بمعدلات دليلية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . فهناك حوالي ٥٠ جامعة في الوطن العربي اليوم . وبالنظر الى معدل النمو العالي هذا ، فان مدة مضاعفة العدد المتراكم لخريجي الجامعات هو ٥,٣ اعوام ، ومجموع عدد الطلبة الجامعيين يساوي على وجه التقريب مجموع عدد خريجي الجامعات . هذه الحال لا يمكن ان تستمر الى الابد وستبدأ في التغير حالما يتخطى قطاع الشبيبة العربية التي تدخل الجامعات في فئة الاعمار ١٧ ـ ٢٢ نقطة الثلاثين بالمئة . وسيحدث هذا في حوالي نهاية القرن . ويستطيع المرء ان يقدر انه اذا استمرت الاتجاهات الحالية سيكون هناك على وجه التقريب ١٢ مليون خريج من خريجي الجامعات العربية بحلول العام ٢٠٠٠ ، وسيكون هناك عدد موازٍ من الطلبة الجامعيين . وبامكان المرء ان يقدر دلالة هذه الاعداد بسهولة اذا ما قارن النسب المئوية من خريجي الجامعات بين السكان البالغين في ١٩٧٥ (٠.٨٪) بالرقم المتوقع والبالغ ٨٪ .

والقسم الاكبر من التعليم في الجامعات العربية هو على مستوى البكالوريوس (بكالوريوس آداب او بكالوريوس علوم) باستثناء التعليم الطبي (مستوى شهادة الطب) . وأحد المعالم المشتركة للتعليم العالي التمييز بين التعليم في العلوم وفي الانسانيات . وفي ١٩٧٥ ، تلقى ٤٢٪ من جميع خريجي الجامعات في الوطن العربي تعليمهم في العلوم الفيزيائية والطبية والزراعية والهندسة . وهناك اتجاه عام نحو تزايد ، وليس تناقص ، الاقبال على تلقي العلوم التطبيقية ، كما ان عددا متزايدا من الجامعات العربية يصار الى تثبيتها كمؤسسات هندسية محضة .

وتقدم الجامعات المصرية تعليما على مستوى الدكتوراه على نطاق متواضع وكانت عملية تحصيل الدكتوراه العربية تجري في الغالب في اوروبا والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة . وهنا نجد ان الاحصائيات ضعيفة . وانا اقدر ان هناك على وجه التقريب ٢٧ الف عربي اليوم (١٩٨٠) اكتسبوا تعليما على مستوى الدكتوراه وان هذا العدد يتزايد على الارجح بمعدل سنوي يزيد على ١٠٪ . واكتسب ما لا يقل عن ٥٠٪ شهادتهم في العلوم والهندسة . وهاجر نحو ٥٠٪ من جميع العلماء والمهندسين العرب الذين بلغوا مستوى الدكتوراه . والاحصاءات هنا ايضا رديئة جدا ، لان الموضوع لم يجد اهتماما كافيا . اما سجل المؤسسات التربوية العربية في تزويد الادارات الحكومية بأغلبية الطاقة البشرية التقنية فهو سجل مؤثر . وقد عزز هؤلاء الخريجون توسيع كل من النظام التربوي والخدمات الصحية وملأ هؤلاء الخريجون كذلك المراكز في البنى السفلى والزراعة والصناعة .

إلا ان مثل هذه الصورة الاحصائية الواعدة تستضيق نظرا الى الموارد والتسهيلات ومصادر التمويل المتوافرة للجامعات العربية . فهي بوجه عام تشكو من ندرة تسهيلات التعليم والابحاث ، ومعدل عال للطلاب ـ المعلمين (اذ يدنو احيانا من ١ ـ ٤٠٠) ، ونوعية رديئة لكتب الدراسة ، وعدم وجود اموال مخصصة للابحاث العلمية ، ورواتب متدنية تحد بشكل صارم من عدد الاساتذة الذين تمكنهم امكاناتهم من تكريس الوقت للابحاث . ويبدو انه توجد لدى بضع مؤسسات تم انشاؤها في البلدان المنتجة للنفط موازنات كبيرة ، إلا انه لم يحن الوقت بعد للتكهن بما إذا كانت ستستطيع ان تطور جامعات من النوعية العالية . ويتصل غياب نشاط الابحاث في الجامعات العربية بالطبع ، بالاعتبار المتدني الشامل الذي تكنه الحكومات العربية الى الابحاث والانماء[٢] . ويبلغ الانفاق على

(٢) يوجد وصف وتحليل تفصيليان للابحاث العلمية والسياسات العلمية في الوطن العربي في كتاب صدر موخرا للمولف بالعربية (ببيروت) وبالانكليزية (بلندن) .

الابحاث والانماء في الوطن العربي على وجه التقريب دولارين اميركيين في السنة للفرد الواحد . وإذا استثنينا بضع بلدان منتجة للنفط ، فانه من المشكوك فيه ما إذا كان الانفاق على الابحاث والانماء في ١٩٧٩ مساويا لما كان عليه في ١٩٦٥ من حيث القيمة الثابتة للعملة . فليس عجيبا ، اذا ، ان يكون الانتاج العلمي العربي على اساس الفرد (٠,٥)٪ تقريبا من الانتاج العلمي للبلدان المتقدمة ، و ١٪ من الانتاج العلمي الاسرائيلي . وانا اقدر بأن الاوضاع هي من الرداءة بحيث ان متوسط انتاجية الوطن العربي ، اذا ما قيست بالمنشورات العلمية ، اقل من ١٠٪ من متوسط انتاجية نظرائه في اماكن اخرى . ولهذه الاعتبارات معان خطيرة بالنسبة الى السياسات الانمائية للدول العربية وبالنسبة الى اية سياسة تنشد الاعتماد على الذات او تسعى الى اهداف تكنولوجية جدية .

ان النشاطات المعتمدة على الطاقة البشرية العالية المستوى هي على نطاق واسع كما ان عدد المشاريع في التعدين والدفاع والمواصلات والصناعة والاشغال المدنية كان يتزايد بشكل ثابت . مثال ذلك ان التكلفة المقدرة للمشاريع الهندسية التي يجري تنفيذها حاليا تبلغ اربعماية مليار دولار[٣] . غير انني اظهرت في مكان آخر ان اغلبية (٩٠ إلى ١٠٠٪) من هذه المشاريع تقوم بتصورها والتخطيط لها وتصميمها وتشييدها وتجهيزها شركات استشارات ومقاولة وهندسة اجنبية[٤] . وتتم العملية بأسرها بحد ادنى من مشاركة المؤسسات والطاقة البشرية المحلية . والنمط العام هو نمط الصفقات التي لا تحتاج الى طاقات فنية محلية وتهدف الى انشاء مشاريع منتجة تنفذ على اساس المفتاح باليد . وبما ان المقاولين الاساسيين هم على العموم اجانب ، وبما ان الدول العربية لا تنتهج سياسات تكنولوجية ، فانه لا يتم توليد الكثير من الوظائف للمهندسين والعلماء . وهكذا فان النشاط الراهن ينطوي على استخدام اعداد كبيرة من الطاقة البشرية المحترفة ، ومع هذا يتم القيام به بطريقة من شأنها ان تخفض الى الحد الادنى الفرص المحلية لتنمية المؤسسات الاهلية . الا ان الاعتماد على الابحاث والتنمية الاجنبية ، وعلى شركات الهندسة والاستشارات الاجنبية ، هو الاتجاه المسيطر . وبكلام آخر فان نظام التعليم العالي والممارسات الانمائية لا يتكل احدها على الاخر بصورة متبادلة . لقد سبق لنا ان لاحظنا ان كلا من الدعم الوطني للابحاث والانماء ومعدل انتاج الفرد بين الباحثين في المؤسسات العربية متدنيان جدا على الرغم من الطلب على المعرفة الفنية والمهارات كما تثبت ذلك بصورة جلية مشترواتهم من الموردين الاجانب . والى ذلك فان هجرة ادمغة تحدث حاليا في تلك الحقول نفسها التي تقوم فيها الاقطار العربية باستيراد الخبرات الاجنبية على نحو نشيط .

ويمكن إلقاء المزيد من الضوء على مشكلتي الاعتماد وهجرة الادمغة عن طريق القيام ببعض

---

(٣) ان الرقم ٤٠٠ مليار دولار هو تقدير غير دقيق لقيمة عقود الهندسة والمعدات والبناء بين البلدان العربية والمصادر الاجنبية . ويمتد تنفيذ هذه العقود عادة على فترة تتراوح بين اربعة اعوام او خمسة . وتركيز هذه العقود هو في الهيدروكربون والبتروكيميائيات (١٦٠ مليار دولار) ، الاشغال المدنية من طرقات وري وتجفيف وموانىء وسدود واهراء ومضامير السباق ، والجامعات (١٠٠ مليار دولار) ، وشبكات النقل والمعدات والالات من سكك حديدية وسفن وطائرات واساطيل سيارات الشحن واعتدة عسكرية وآلات زراعية (٨٠ مليار دولار) ، ومصانع (غير هيدروكربونات وغير البتروكيميائيات) من حديد وصلب ومستحضرات صيدلية واسمدة فوسفات وبوتاس (٤٠ مليار دولار) ، وشبكات اتصال (١٠ مليارات دولار) ، وغيرها . وفي حال عقود الهندسة المدنية فان جزءا كبيرا من التكلفة ينفق بالعملة المحلية لشراء المواد والخدمات العمالية . ويعرض الرقم ٤٠٠ مليار دولار لمجرد الاشارة الى حجم السوق العربية للخدمات والمنتجات التكنولوجية

(٤) A.B Zahlan. Established patterns of technology acquisition in the Arab World », in A.B. Zahlan (ed.) **Technology Transfer and Change in the Arab World**, Pergamon. (Oxford. 1978). pp. 1-27.

المقارنات الدولية . فان اعداد الطاقة البشرية التقنية العربية على جميع المستويات (من الفني الى حامل الدكتوراه) هي منذ الان كبيرة لا يستهان بها . ويوازي مجموع عدد حملة شهادات الدكتوراه العرب اليوم عدد حملة نفس الشهادات إما في الولايات المتحدة او المانيا او المملكة المتحدة خلال الفترة من ١٩٣٩ الى ١٩٤٥ . وكذلك الامر ، يوجد في الوطن العربي من ٣٠ الف الى ٤٠ الف عامل باحث ، وهو عدد يساوي ثلث ما كان يوجد في العالم من عمال الابحاث والانماء في ١٩٤٠ . ومع هذا فان المستوى الراهن للمكتشفات العلمية والتكنولوجية ، وللتجديد والابتكار والاختراع ، فضلا عن تطبيق العلم والتكنولوجيا ، لا تمكن مقارنته بالانجازات الباهرة للاربعينات . والعوامل العديدة التي تقيد الخلق تسبب هجرة الادمغة العربية الداخلية التي تنعكس بدورها في هجرة الادمغة الخارجية .

تظهر التجارب التاريخية للكثير من الامم انقطاعات ثقافية رئيسية سببها مستوى عال غير اعتيادي للتفاعل مع مصادر المعرفة الاجنبية . ويختلف نوع هذه التبادلات الثقافية ومداها اختلافا كبيرا . وينتهي الانقطاع حينما تحقق الامة المتلقية مساواة مع المراكز الرئيسية في ذلك الحقل المعين من المعرفة . وتتبدل حالة وتنظيم التعليم بوجه عام خلال فترة قصيرة نسبيا من الزمن[٥] . والعوامل المسببة لهذه التحولات هي مجموعات مؤتلفة من الدراسة الاجنبية ، وإقامة مؤسسات جديدة ، واستيراد دارسين وعلماء اجانب . وتتغير الاهمية النسبية لهذه الوسائل المختلفة من بلد الى بلد ، ومع ان الظاهرة مشتركة ، فان معالمها الديناميكية يمكن ان تكون مختلفة . فهناك اختلافات كبيرة في كل من فترة دوام العمليات ، وكثافاتها النسبية ، واعداد الافراد العاملين فيها ، وسرعة التغيير في حالة التعليم ، وطبيعة التحول في نظام التعليم ، ودور السلطة المركزية ، والقابلية والطاقة لنقل المعرفة المكتسبة[٦] .

وادى قيام الطلبة الاميركيين على نطاق واسع بمتابعة تحصيلهم العلمي العالي في اوروبا بين العام ١٨٧٠ والعام ١٩٠٠ الى تحول رئيسي لوضع وتنظيم التعليم في الولايات المتحدة . وخلال هذه الفترة نال حوالي ١٠٠٠ اميركي[٧] تعليمهم للدكتوراه في الخارج (معظمهم في المانيا) . وبفضل تقبلية مجتمعهم ، تمت في الوقت ذاته تقريبا إقامة المؤسسات الضرورية للمحافظة على التعليم الجديد وتنميته . ويمكن تبني المعدل العالي الذي حدث فيه هذا الانتقال من النمو الكبير في عدد كليات مرحلة ما بعد التخرج (من صفر في ١٨٧٠ الى ٥٠ بحلول العام ١٩٠٠) ، والزيادة السريعة في عدد شهادات الدكتوراه المحصلة بصورة شرعية (١٢٥ في ١٨٩٠ ، و٢٥٠ في ١٩٠٠) وبنوع اخص من التشديد

---

(٥) احد الامثلة على ذلك تجربة الولايات المتحدة خلال الفترة ١٨٧٠ ـ ١٩٠٠ . فقد حدث تفاعل مكثف مع اوروبا ، وكنتيجة له طرأت زيادة سريعة على كل من مستوى ونوعية نشاط الابحاث وتعرض نظام التعليم ، الذي كان حتى ذلك الحين معتمدا على دارسين وعلماء هواة ، لتحول رئيسي . انظر .

Edward Shils, « The order of learning in the United States from 1865 to 1920: The ascendancy of the universities, **Minerva, XVI, (1978), pp. 159- 195.**

(٦) ثمة قدر كبير من المعلومات عن وجوه هذه التغييرات الثقافية . الا ان هناك القليل من التحليل المقارن . وتلبي مقارنات المقادير اغراض هذه الدراسة الى حد يفي بالمراد .

(٧) يرتكز هذا الرقم (١٠٠٠) على تصنيف قمت به للطلبة الاميركيين الذين درسوا في جامعات اوروبية خلال هذه الفترة ولا يشمل هذا الرقم طلبة الدكتوراه ولا الاعداد الكبيرة من الاطباء الاميركيين الذين ذهبوا الى اوروبا من اجل التدريب التخصصي هناك . وقد نال احد اعظم العلماء الاميركيين في هذه المرحلة ، ويلارد غيبز شهادة الدكتوراه في جامعة ييل وامضى ٣ اعوام في اوروبا كزميل « لما بعد مرحلة الدكتوراه » . كما ان الاعداد الكبيرة من العلماء والدارسين الاوروبيين الذين هاجروا الى الولايات المتحدة في هذه الفترة عززت التحولات التي نحن بصدد بحثها . الا ان ضم بعض ، او حتى جميع ، هذه الفئات لن يغير بنية التحليل الى حد كبير .

على الهدفين الثنائيين ، وهما النوعية والملاءمة .

وكانت التجربة اليابانية اكثر دراماتيكية وإثارة . فهنا تفاعلت ثقافة غير اوروبية بنجاح مع ثقافة الغرب . وبين العام ١٨٧٢ والعام ١٨٩٨ ، « استهلكت » اليابان نحو ١٩ الف سنة - رجل من المعلمين والمهندسين والكتبة والحرفيين وغيرهم من العناصر الاجنبية لاحداث تحول رئيسي في مؤسساتها التربوية والحكومية والخاصة[٨] .

وفي كل من الولايات المتحدة واليابان اسهم العدد الصغير من الطاقة البشرية الاجنبية العالية المستوى والمواطنين المثقفين في الخارج إسهاما مباشرا في التغييرات الداخلية الهائلة التي نجمت عن ذلك كله . وادى التحويل في حالة وتنظيم التعليم الى توسيع النطاق الضيق نسبيا لمشاركة الطاقة البشرية العالية المستوى الوطنية والاجنبية خلال فترة محدودة من الانماء الوطني . اما النوعية الفكرية للاستجابة المستحدثة وللطاقات الخلاقة التي اطلقت فقد وازتها إقامة انواع جديدة من المؤسسات التي صارت الاساس لجهد وطني جديد . وانطوت التحويلات على وسائل وانماط انتاج وسياسة عامة متصلة بتطبيق التكنولوجيا ، اذ ان معظم الاحداث خلال القرنين الماضيين من الزمن كانت تسيطر عليها العلوم والتكنولوجيا الى حد كبير .

وكانت الطاقة البشرية الوطنية والاجنبية عاملا في تحول رئيسي . ولم يكن افرادها معزولين وضائعين بين ثقافتين[٩] . وكان يسيطر على عمليتي الانتقال الاميركية واليابانية البعد القومي ، اما الافراد الذين شاركوا في العملية فكانت سيطرتهم ثانوية . وكانت العمليتان احداثا محورها الامة ، اما هجرة الادمغة المرتبطة بها فلم تلفت الانتباه[١٠] .

تعكس الكتابات حول هجرة الادمغة مجموعة منوعة من المواقف والاهتمامات . والفرد ، بوجه عام ، هو عند نقطة الارتكاز . وسأصف هذه المقاربة بأنها النموذج المركز على الفرد . وفيها يحسب المرء عدد الذين يهاجرون ويصنف مؤهلاتهم المهنية ، ويقرر قوى الدفع والجذب التي احدثت تحركهم . ويكتب غلازر في دراسته عن هجرة الادمغة[١١] التي اعدها لمعهد الامم المتحدة للتدريب والبحوث حول : دوافع الطلبة الاجانب ، وتنويعات التخصص ، وروابطهم بالوطن الاصلي ، وقرار الدراسة في الخارج ، وتدفقهم . وحتى دراسة التنويعات بين البلدان النامية ينظر اليها بصورة غالبة من منظور الطالب ، فيكون التشديد على المهاجر والبلد المضيف . ويلعب الوطن الاصلي دورا ساكنا الى حد غريب . وفي نموذج غلازر ، تعتبر عوامل الدفع انها حدثت لان البلد النامي لم يقم باصلاحات

---

(٨) كانت اليابان ، على الرغم من سياساتها الانعزالية المتشددة ، حافظت على علاقة قوية بهولندا منذ ١٦٤٠ . وكان يصار الى تعليم اللغة الهولندية على نطاق واسع . الا ان دخول الاميرال بيري في ١٨٥٣ سبب تغيرا حاسما في السياسات اليابانية . وخلال العقدين التاليين من الزمن ارسلت حكومة الشوغون خمس بعثات الى الغرب ٩٠ شخصا الى اوروبا واميركا (١٨٦١) ، ٣٦ شخصا الى اوروبا (١٨٦٢) ، ٣٤ الى فرنسا (١٨٦٣) ، جماعة مماثلة الى روسيا (١٨٦٥) ، ٢١ شخصا الى فرنسا (١٨٦٧) . وفي ١٨٦٢ تم ارسال اول طلبة الى هولندا وتولت حكومة المايجي السلطة في ١٨٦٨ واتخذت اجراءات فعالة لتسريع عملية التحويل .

(٩) ترتبط هذه التحولات دائما بصعوبات وعقبات شخصية . وعلى الرغم من السرعة والسهولة الظاهريتين اللتين جرت بهما هذه الاحداث في بعض البلدان ، فقد واجه بعض المشاركين مشكلات في التكيف وفي تأمين العمل .

(١٠) استنادا الى المعلومات المتوافرة حول مجرى الحياة المهنية للاميركيين الذين درسوا في اوروبا ، فانني اقدر بأن هجرة ادمغتهم كانت تقارب الخمسة الى الستة بالمئة .

(١١) William Glaser, **The Brain Drain: Emigration and Return** , Pergamon, (Oxford, 1978).

معينة . وينقل بغواتي وجهة النظر هذه خطوة الى الامام اذ يربط قوى الدفع بفرص هجرة الادمغة : « باختصار فان امكانية الهجرة الخارجية ، فرصة هجرة الادمغة ، تكبت في الواقع عملية (الانتشار الداخلي) التي تحمل ، وان يكن على مهل ، هذه المهارات المهنية الى حيث ستخلق وقعا اجتماعيا اعظم »[١٢] .

وثمة اتفاق ضمن المدرسة المركزة على الفرد حول البنية الشاملة للمشكلة ، واختلاف حول التشويشات الطولية المختلفة التي يمكن تطبيقها لوضع التدفقات تحت شكل من اشكال السيطرة . وتبدو بلدان العالم الثالث غير قادرة على حماية نفسها من المنافسة التي تفرضها البلدان المتقدمة من اجل خدمات رعاياها . ويتجادل الاقتصاديون ، على اساس مبادىء عامة عادة ، حول ما إذا كان البلد الاصلي قد خسر او ربح في هذه الصفقة . ويسود اختلاف في الرأي حول : الربح او الخسارة بالنسبة لبلدان العالم الثالث ، والاجراءات التي تدعو اليها الحاجة لوقف او عكس العملية ، والتعويضات الممكنة للبلدان الاصلية . والافتراضات الاساسية للباحثين في هذا النموذج هي نفسها ، علما بأن التفسيرات والحلول المقترحة تختلف اختلافا واسعا . وسنوضح هذه النقطة بمثلين . فالعنصر « الغربي » لهذه المدرسة يشدد على عوامل الدفع ويقترح حلين اساسيين : ان تلبي البرامج التربوية للبلدان النامية الطلب المحلي تلبية اوثق ، ونوع «تطبيقات العلوم والتكنولوجيا » المقترحة اخيرا في مؤتمر الامم المتحدة حول العلم والتكنولوجيا (فيينا ١٩٧٩) . ويتبنى فرع « العالم الثالث » « خطة فرض الضرائب على نقل التكنولوجيا العكسية التي اقترحها مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية » بحيث يتوجب فرض ضرائب على المهاجرين وربما على البلدان المضيفة لهم لتعويض البلدان النامية على خسائرها .

وقد اوحت المعالجات المركزة على الفرد بمجموعة منوعة كبيرة من الافعال والسياسات . مثال ذلك ان بعض البلدان قد اسست جامعات ومؤسسات يتمتع فيها الطلبة وهيئات التدريس بامتيازات خاصة[١٣] . ودعا آخرون الى إيجاد قوانين خاصة لاعادة المهاجرين الى اوطانهم بحيث يمنح العائدون امتيازات مالية وتوظيفية معينة . إلا انه لا توجد ادلة كثيرة تشير الى انه كان لهذه الاجراءات اي تأثير مهم على هجرة الادمغة . وهكذا باختزال هجرة الادمغة الى مثل هذه الاطارات الاقتصادية والشخصية ، لا يعود المرء يرى الابعاد الاجتماعية والقومية . وبالمقابل فان المعالجة المركزة على الامة تسعى الى فهم هجرة الادمغة كعامل من عوامل السياسات الثقافية والعلمية والانمائية . إذ ان هذه الاخيرة تدفع الى حد كبير الحكومات والمجتمعات الى رعاية التعليم الوطني والاجنبي . وضمن نطاق مقاربة مركزة على الامة سيكون الاهتمام في الكفاية التي تستخدم بها الطاقة البشرية الماهرة جدا . وسواء هاجر شخص او كان مستخدما استخداما ناقصا ، فان هذه ستصير مشكلة في الجغرافيا البشرية . اما حقيقة ان الادمغة الخارجية قد تفيد او قد لا تفيد بلدا خارجيا ما فانها ذات اهمية تافهة بالنسبة الى البلد النامي . فالقضية ذات الاهمية المركزية هي الى اي حد تسهم هذه المواهب في مجتمعنا . وفي النموذج المركز على الفرد يصار الى تقديم عدم ملاءمة النظام التربوي كعامل دفع . اما

---

(١٢) Jagdish N. Bhagwati, «International migration of the highly skilled: Economics, ethics, and taxes», **Third World Quarterly**, I, 1979, p. 20.

(١٣) Gerald Moore «Le role des universités dans le tiers-monde: Former des elites ou servir la Société?, in **Le Monde Diplomatique**, September (1970).p.10

التحقيق في كيفية قيام النظام التربوي ، وبأية وسيلة قام ، وفي ظل اية اوضاع ، فهو يعتبر في كثير من الاحيان خارج نطاق دراسة هجرة الادمغة . ان البرامج التربوية المرضية هي نتاج عمليات خلاقة وتكرارية بدأها افراد متكاملون ثقافيا . وستنظر المعالجة المركزة على الامة الى هذه العمليات في سلسلة تاريخية متواصلة وستستقصي العوامل والسياسات التي تعوق او تساعد التنمية الخلاقة والتكيفية . فالانظمة التربوية التي بدأها ، على سبيل المثال ، مستشارو محمد علي الفرنسيون ، او المرسلون البروتستانت في سوريا ، او البريطانيون في إفريقيا ، او خبراء الاونيسكو اصبحت مجرد نقاط انطلاق اولية ، ويتم تحويل عيوبها الى حوافز تلهم الافكار والافعال . فالمجتمع المشارك في عملية تعليم يجد تحديات في جعل مؤسساته ملائمة .

وسيحل محل اخلاق ومناقب هجرة الادمغة وعي شديد للاجراءات والممارسات المطلوبة للمجتمع لكي يخرج من التخلف الى الاعتماد على الذات . وهكذا ففي طريق النظر الى هجرة الادمغة الخارجية والداخلية في هذا النطاق ، سيتحول تركيز القيادة القومية بعيدا عن ميلودرامات الافراد العاجزين عن معالجة مشكلاتهم المباشرة ونحو تقويم فعالية الاجراءات القومية لانجاز التحول الثقافي .

اقام محمد علي ، في القرن التاسع عشر ، مؤسسات تربوية كجزء من خططه التحديثية . الا ان عملية إقامة هذه المؤسسات ، كما اظهرت في مكان آخر ، كانت بطيئة وظلت على نطاق ضيق . وكان لها عنصر تعليمي ولكنها افتقرت الى عنصر التعلم ، واخفق الاختبار كله في إظهار اية مخيلة علمية او إجتماعية واسعة[١٤] . مثال ذلك ، ان وجود النفط في منطقتي البحر الاحمر والسويس كان يعلمه مهندسوه حق العلم ، ومع هذا فان امكانية استخدام هذا النفط لم تخطر على بالهم على الرغم من النقص السائد الكبير في الطاقة . وكذلك الامر فان النقص في الطاقة البشرية في البلاد لم يؤد الى اهتمام ، لا في تحسين مستوى التغذية والصحة العامة ولا في زيادة الانتاجية العمالية . ومع انه كان يوجد علماء مؤهلون ، فانهم لم يسهموا في إيجاد تغير مهم في حالة او تنظيم التعليم يتناسب مع متطلبات التكنولوجيات المطلوبة[١٥] . ومع هذا فقد استهلكت مصر عددا من السنوات ـ الرجل من الطاقة البشرية الاجنبية قبل ١٨٤٠ اكبر مما استهلكته اليابان بين العام ١٨٧٠ والعام ١٩٠٠ . ففي خلال الاعوام المئة والستين منذ ان اسس محمد علي اول « كلية طبية حديثة » في المنطقة في ابو زعبل التي صارت فيما بعد مستشفى القصر العيني ، كانت هناك زيادة هائلة في عدد المؤسسات الطبية والطلبة والخريجين . ومع هذا تبقى المنطقة تعتمد على المعرفة المولدة في الخارج لجميع التطورات في العلوم الاحيائية والطبية . وما يزال الخريجون يكسبون تخصصهم في الخارج . وكذلك فان مجموعة المعرفة التي يجري نقلها الى الطلبة في كليات الطب يصار الى استيرادها كليا ، وتبقى الاسهامات المحلية مقتصرة على الحد الخارجي للعلوم الطبية .

وعشية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) اسس الملك فاروق هيئة للابحاث الوطنية في القاهرة . واظهرت اهداف الهيئة بصيرة غير اعتيادية وكانت في الواقع مشابهة لروح « مؤتمر الامم المتحدة حول تطبيق العلوم والتكنولوجيا على الانماء » (١٩٧٩) . وطرحت اعوام الحرب تحديات عظيمة كان يمكن ان تولد تنمية صناعات واساليب زراعية جديدة ، اذ انه ، يقينا ، لم يكن ثمة نقص في الطاقة البشرية

---

(١٤) A.B. Zahlan. - Established patterns of technology acqusition in the Arab world». in A.B. Zahlan (ed). **Technology Transfer and Change in the Arab World,** pp. 1- 27. Pergamon (Oxford, 1978).

(١٥) المصدر السابق

ذات المؤهلات العلمية . ومع هذا فقد ولدت هيئة الابحاث العلمية ميتة . والى ذلك فان المشكلات الفنية المحلية التي ساعدت الحرب في خلقها كانت من الالحاح بحيث اضطرت الولايات المتحدة وبريطانيا الى تأسيس « مركز موارد الشرق الاوسط » في القاهرة لمعالجة تلك المشكلات . ودعت معظم نشاطات « المركز » الى مخيلة ومهارات علمية . وليس الى ابحاث وتنمية[١٦] .

خلال العقود الثلاثة الماضية من الزمن نالت معظم الدول العربية استقلالها الناجز وشرعت في برامج واسعة النطاق لمكافحة التخلف . وقد جمعت هذه الجهود ، على العموم ، بين ثلاث معالجات كلاسيكية : الدراسة الاجنبية ، توسيع المؤسسات التربوية الوطنية ، واستخدام الخبراء الاجانب . وهكذا ، في ١٩٧٨ ، كان هناك اكثر من ٢٥ الف طالب عربي في الولايات المتحدة ، وكانت هناك اعداد اكبر في اوروبا وفي الاتحاد السوفياتي . وفي ١٩٨٠ سيزيد خريجو الجامعات العرب على الارجح على مليون ومئة الف شخص . وفي العربية السعودية وحدها هناك ما ينوف على مئة الف اوروبي واميركي ، ويقينا اكثر من مليون عربي ينتمون الى فئات « المعلمين والمهندسين والكتبة والحرفيين » . وقد يكون من المفيد ان نلاحظ هنا ان عدد السعوديين الذين نالوا شهادة الدكتوراه في الولايات المتحدة بحلول ١٩٧٩ فاق الالف . اي اكثر من عدد المواطنين الاميركيين الذين نالوا هذه الشهادة في القرن التاسع عشر . ولبضعة اعوام خلت ، كان عدد الباحثين في مصر وحدها ١٨ الفا .

ان بيت القصيد الذي احاول توضيحه هو ان الطاقة البشرية الموجودة في جميع الحقول كبيرة بأي مقياس . فخلال الحرب العالمية الثانية ، كان لكل من الدول الحليفة ودول المحور طاقة بشرية تقنية مساوية او حتى اقل ، ومع هذا استطاعت ان تحقق تقدما لامعا في مجال الاختراعات وتوسع صناعاتها بسرعة وبصورة دراماتيكية . ولا استطيع ان اتصور ان الاوضاع في اي من الدول العربية اليوم هي اكثر صعوبة واقسى من تلك التي واجهها المتحاربون خلال حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ او ان المصاعب ـ الاجتماعية منها او الاقتصادية او العلمية او التقنية ـ هي اعظم . وهكذا ، اذا اخذنا بعين الاعتبار الانجازات العربية المؤثرة في توسيع المنشآت التربوية ومستوى السيولة العالي جدا والنشاط الانمائي الواسع ، فاننا نسأل لماذا يستمر الوطن العربي في مواجهة هجرة الادمغة الداخلية والخارجية ؟ ولماذا تبقى المنطقة معتمدة على الغير تربويا وعلميا وتكنولوجيا[١٧] . ان فرادة الحالة العربية هي في غزارة جميع العوامل التي تعتبر عادة ضرورية للانطلاق : الطاقة البشرية والمال والموارد . وقد اخترت هنا للبحث عاملين قد يساعدان في تفسير الظروف الراهنة .

● يتصل العامل الاول بوضع التعليم . لقد سبق لي ان شددت على الوجه الخلاق بصورة

---

(١٦) كان موظفو « مركز موارد الشرق الاوسط » منهمكين في مجموعة كبيرة من النشاطات التي شملت : تحويل القاطرات العربية من استعمال الفحم المستورد الى النفط العربي ، ومكافحة الجراد ، وتدبير الاغذية والامدادات الاخرى على اساس اقليمي . وتنظيم اول مؤتمر اقليمي في الزراعة . فضلا عن اعداد تقارير فنية عديدة وبضعة كتب حول المنطقة .

(١٧) لقد كانت الازمة في التعليم والخلق التي تواجه المجتمعات العربية موضوع تحقيقات عديدة على الصعيدين الوطني والقومي . وثمة اعتراف عام بالتأكيدات الواردة هنا . وحسبي ان اذكر بعض مظاهر هذا الاهتمام الواسع النطاق . ففي ١٩٧٤ نظمت جمعية الخريجين في الكويت ندوة حول ازمة التنمية الثقافية في العالم العربي . وحضر الندوة جمهور غفير وقدمت فيها مجموعة منوعة مهمة من الدراسات . وفي ١٩٧٢ طلب وزراء تربية الدول العربية من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ان تعد استراتيجية لتنمية التعليم العربي . وانجز فريق التربويين العرب البارزين الذي شكلته المنظمة تقاريره ونشرها في العام ١٩٧٦ والعام ١٩٧٧ . وتشدد هذه التقارير على ان الانجازات تقتصر عن بلوغ المطامح القومية ، وعلى ان النقل يتم لكن لا وجود للخلق والابداع . وان ما ينجم عن ذلك كله هو الفهم دون التطبيق .

جوهرية للتحول الثقافي . اذ لا بد من تاسيس البحوث والدراسات لكي يمر اي مجتمع من المجتمعات في عملية التحويل هذه بنجاح . ولقد سبق لي ان لحظت عدد خريجي الجامعات العرب ، والعدد الاحصائي للباحثين وحملة الدكتوراه ، فضلا عن الموارد المالية المحدودة التي رصدت وترصد للبحوث . كما ان وسائل البحوث الرديئة او الضعيفة توجد اعتمادا متواصلا على المؤسسات الاجنبية من اجل الدراسة في مرحلة ما بعد التخرج . ومن المحتم ان يعرض هذا الاعتماد الشبيبة لمشكلات وقيم وانماط تفكير ملائمة بالدرجة الاولى للبلدان المتقدمة . وليست الاولويات والبرامج وابتكارات الابحاث في البلدان المتقدمة - حتى حينما تكون معنية بالعالم الثالث - هي بالضرورة ملائمة لكل او لجميع بلدان العالم الثالث . فقد يكون العلم كونيا شاملا ، الا ان الدارس او العالم من النوع الغربي ليس عنصرا اساسيا شاملا من العناصر المكونة لجميع المجتمعات . كما ان الطلبة العائدين من الدراسة المتقدمة في الخارج يواجهون مشكلات تكيف خطيرة . وكثيرا ما تكون عدم كفاية الوسائل والتسهيلات والموارد هي العقبة الاكثر بروزا . فالدارس او العالم الشاب يحتاج الى بيئة فكرية مثيرة يستكشف ضمنها قدراته ومجتمعه بغية تطوير خط عمل جديد . وان الدراسات والابحاث في مرحلة ما بعد التخرج هي الاليات القياسية التي ينمي من خلالها المجتمع فهما لمشكلاته . فمن خلال الابحاث في بيئة وطنية ، وضمن محيطه الثقافي ، يستبطن المجتمع الافكار والمبادىء والميثودولوجيات التي يستخدمها . وخلال العقدين الماضيين من الزمن ، كان هناك بعض النمو في نطاق الابحاث والتعلم في مرحلة ما بعد التخرج في معظم البلدان العربية . الا ان الاموال المخصصة لهذه الاغراض ، والنتائج المحدودة ، والاعتماد المستمر على الابحاث والتنمية والاداب المستوردة تشير الى ان هذه الجهود لا تتناسب مع الطلب . فالمصدر الرئيسي للاعلام والتحليل المتوافرين ما يزال اجنبيا : ولا يستطيع المجتمع ان يأمل في ان يحول تراثه الثقافي على نحو خلاق الى قواعد سلوك واساليب حياة متصلة اتصالا لا لبس فيه بماضيه ، مستفيدا في الوقت ذاته على اكمل وجه من كل المعرفة المتوافرة . الا عندما يتم استبطان المعرفة . فالدارس او العالم او المهندس المتاصلة جذوره في ثقافته ومؤسساته هو الاداة الطبيعية والوحيدة للقيام بهذا الدور . والامة التي تستورد « الحداثة » تدفع ثمنا باهظا : إنه انتحار ثقافي .

● يتعلق العامل الثاني بسياسات التكنولوجيا المعمول بها فعلا . ففي اية محاولة لتطوير امة من الامم وحفز التغيير التقني ، يكون لجهاز صنع القرارات وادواته لتصميم وتنفيذ السياسات الانمائية اهمية حاسمة . ومع ان الحكومات العربية مكرسة كلها للتحويل المادي بمجتمعاتها ، فان صانعي القرارات يواجهون مجموعة واسعة جدا من المشكلات التي لا يمكن حلها عن طريق استخدام المؤسسات الوطنية في وضعها الراهن . فان سبيل العمل المطلوب في التطبيق الوطني للعلوم والتكنولوجيا يختلف اختلافا بارزا عن سبل العمل الضرورية لبناء طريق او مصنع بواسطة شركة اجنبية . اذ انه لا بد من تنظيم وترتيب الطاقة البشرية العالية المستوى في مؤسسات متخصصة لكي تقوم بتنفيذ مشاريع انمائية . فالتكنولوجيا تكتسب وتنمى وتطبق عن طريق المؤسسات الاستشارية والهندسية والمخصصة للابحاث . وعملية بناء مثل هذه المؤسسات تسهلها بنية العلوم والتكنولوجيا نفسها : ويمكن اكتساب المعرفة والخبرة في خطوات مدروسة كجزء من سياسة منظمة ومتواصلة . بيد ان وجود شركات دولية موطدة تورد هذه الخدمات التكنولوجية انما يزود صانع القرارات بسبيل انتقالي سهل[١٨] .

---

(١٨) خلال الفترة الطويلة للسيطرة العثمانية والغربية على معظم الدول العربية . كان الاجانب يتولون السلطة الكاملة =

ويتألف اعتماد الطريق التي تتخطى الحدود القومية من استخدام خدمات الشركات والمؤسسات الاجنبية لدراسة وتنفيذ المشاريع (الاجتماعية والاقتصادية والفنية) في المجتمع ، بحيث يتخطى المؤسسات القائمة ويقوم بهذه المهمات بطريقة تضر بتأسيس وانماء المؤسسات الوطنية[١٩] . وهكذا فان قطاعي النقل والنفط العربيين الكاملين تم تطورهما كجيبين تكنولوجيين اجنبيين . وان هجرة الادمغة العربية الداخلية والخارجية للطاقة البشرية العلمية والهندسية هي نتيجة لاعتماد الدول العربية المستمر على هذه الانماط الثابتة للصفقات التكنولوجية . اذا ، من الواضح ان انتهاج سياسات تكنولوجية معتمدة على الذات ستكون له فوائد اجتماعية واقتصادية وسياسية جمة ، اضافة الى الفوائد التي نحن بصدد بحثها هنا .

ونتيجة لعزلة المؤسسات الوطنية عن عمليات حل المشكلات وصنع القرارات وتصميم المشاريع وتنفيذها ، فان معظم « الحلول » تشكو من محدوديات بالغة . فالمستشفيات الباهظة التكاليف لا تؤمن الخدمات الصحية الا للاثرياء ، وانماء مدن عواصم يسبب نزوحا ريفيا واسع النطاق ليزيد ازدحام الاحياء الفقيرة الخربة في المدن ، والسدود الجديدة تزيد من ملوحة التربة وتنشر البلهارسيا ، واستيراد الحنطة المعالجة بالزئبق لصيانته من الفطريات يؤدي الى تسمم جماعي ، واخيرا فان شراء اعتدة عسكرية على نطاق كبير لا يؤدي الى النصر .

وبعد ثلاثة عقود من التصميم الانمائي ، نجد ان لدى معظم البلدان العربية عددا اكبر من السكان ، وعددا اكبر من الفقراء والعاطلين عن العمل . ومع ان الانتساب الى النظام التربوي قد ازداد فان الشبيبة لم تزود بالوعي الثقافي والمهارات الضرورية للمشاركة في اقتصاد وطني . اما البلدان التي حاولت القيام ببعض التصنيع ، فتجد نفسها اكثر اعتمادا على البلدان المتقدمة من اجل سلع انتاجها ، وقلة منها بالفعل اكتسبت درجة ما من الاستقلال التكنولوجي . وكذلك ازدادت ثنائية الاقتصاد :

= لصنع القرارات . وصارت كل جماعة فرعية ـ القبيلة ، القرية ، المدينة او المنطقة ـ معتمدة على السياسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي صاغها ونفذها الموظفون العسكريون والمدنيون . وكانت امدادات الاغذية ومصادرة الاراضي وفرض الضرائب والسيطرة على التجارة وتوزيع الثروة وغيرها الكثير معتمدة على هؤلاء الاجانب . وفي بلد مثل مصر فان شعبها ، الذي كان قد اخترع علمي الري والزراعة والتي مارس مزارعوها هذين العملين بنجاح الاف السنين ، وجد فجأة المهندسين والضباط العسكريين البريطانيين يشرفون اشرافا تاما على شبكة الري من ١٨٨٢ الى ١٩٢٥ ! وخلال هذه الفترة لم تزد المنطقة المزروعة الكاملة الا بنسبة ٤٪ وانخفض محصول القطن في القناطير (الفدانات) على نحو رتيب تقريبا من حوالي ٥,٦ (١٨٩٥) الى ٣,٦ (١٩١٩) .

P.M.Tottenham,C.B.E., **The Irrigation Service, its Organization and Administration**, Ministry of Public Works, Egypt, 1927.

(كان توتنهام آخر وكيل وزارة بريطاني للدولة للاشغال العامة في مصر) . وكانت البيروقراطية الجديدة التي اسستها الدول الاستعمارية بصورة رئيسية اجهزة للسيطرة وليس اجهزة مؤسسة لتقديم الخدمات . وكانت قاعدة القوة لصناع القرارات العسكر ووزارة الداخلية ، وليس الدعم والمراقبة العامين . وكثيرا ما كان النظام التربوي يصممه الاجانب ويهدف الى تدريب امداد واف بالمراد من الكتبةوالموظفين الحكوميين لمراكز الدرجات الدنيا . وكانت القوة العاملة تتألف بصورة رئيسية من عمال غير مهرة يعيشون عند حافة الكفاف . وصار السكان وجميع مؤسساته مجرد اشياء يصار الى تحريكها لاغراض معينة لا اهمية لها بالنسبة الى حياتهم ـ كسلامة الطريق الى الهند وتأمين القطن لمصانع مانشيستر او شجار اوروبي ما يخاض في فاشودا .

(١٩) من الواضح ان العلاقة بين البلدان النامية والشركات المتعددة الجنسيات تطورت استجابة لاوضاع البلدان وكذلك لطاقات الشركات وكثيرة هي الفوائد التي تعود الى صانع القرارات في اتباع هذا السبيل . مثال ذلك فانه يفترض بأنه يتحاشى كل المجازفات باستخدامه الشركات المتعددة الجنسيات . ذلك ان الشركة المعنية تستطيع بوجه عام ان تبرز سجلا من الاعمال السابقة . والى ذلك فان البنك الدولي للانشاء والتعمير ، ومؤسسات التمويل الوطنية والدولية تشترط ، لاقراض الاموال ، مشاريع تصممها وتنفذها شركات استشارات ومقاولات موافق عليها .

فالقطاع الحديث يعيل طبقة وسطى محظوظة صغيرة ، والقطاع التقليدي الذي كان يتوقع زواله ازداد عدده بدلا من ذلك .

وقد ادت الصعوبات الجمة التي واجهتها الحكومات العربية في تحقيق اهدافها المختارة وتلبية مطالب مواطنيها ، الى مجموعة منوعة من الجيشانات والاضطرابات المطالبة بالاغذية وارهاب المدن والانقلابات العسكرية والعديد من الحركات السياسية الثورية . بيد ان معظم هذه الثورانات والتفجرات لم تؤد الى شيء . ونجد ان العلماء والدارسين والزعماء والمعلمين متجهمون ومثبطو العزم ويشعرون بالخيبة لانه يبدو لهم ان التحدي لا يمكن تذليله .

ان الوقت المتوافر لانهاء الحالة الطويلة الان للانقطاع الثقافي في الوطن العربي آخذ في النفاد . اما السبب فهو ليس الاحداث السياسية بقدر ما هو المعدل العالي للتغيير في المعرفة . فما من دولة عربية ، حتى هذا التاريخ ، اتقنت حتى العلوم الميكانيكية التي عرفت في اوائل القرن التاسع عشر ، ناهيك بالثورات الكيمائية والبيولوجية للقرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . ومع هذا فان الثورات السبرانية والمورثية والنووية والفضائية في اماكن اخرى من العالم اخذت توجد بيئات علمية وثقافية جديدة كليا . وتدل المناقشات الاجتماعية والفلسفية الحامية الوطيس في الغرب حول الوظيفة الاجتماعية للعلوم على مدى عمق التحولات الثقافية التي تجري هناك[٢٠] .

وهكذا فان الاوضاع المقيدة الكثيرة التي تحد من الانتاجية الخلاقة للطاقة البشرية العربية ، وحالة التعليم في المجتمع العربي ، والاعتماد التكنولوجي العربي الزائد على الدول الاخرى ، تدفع المرء الى الاستنتاج بأن اسباب هجرة الادمغة الخارجية هي اهم بكثير من التدفقات الفعلية الى الخارج . ومع توقع زيادة عشرة اضعاف على العدد الحالي من الطاقة البشرية العالية المهارة ، فانه من المشكوك فيه ما اذا كان الوطن العربي سيصاب بأي نقص في الطاقة البشرية . ووحده التحول عن النموذج المركز على الفرد الى المقاربة المركزة على الامة سيظهر بوضوح تلك الافعال والسياسات التي هي الشرط الضروري للاصالة الثقافية والاعتماد على الذات في الشؤون التكنولوجية .

---

[٢]
الاغتراب الثقافي وهجرة الأدمغة في الوطن العربي

رضا بوقراعة

استاذ في مركز الدراسات الاجتماعية والاقتصادية
في جامعة تونس .

إن موضوع هذه الورقة هو الوجوه النفسية ـ الاجتماعية لظاهرة هجرة الادمغة في الوطن العربي . وتسعى الدراسة الى تحليل تأثيرات العوامل العيانية ـ السوسيولوجية المتأصلة في الصفات

---

(٢٠) في حين ان فنون تصميم وتنفيذ سياسات علمية فعالة في العالم الثالث هي في طفولتها . فان البلدان المتقدمة تهتم اهتماما متزايدا بالتقويم الاجتماعي للعلوم وعلاقات الخبرة العلمية بالجمهور . ومع ان هذه الابعاد هي مركزية بالنسبة الى ظاهرة هجرة الادمغة ، فانه نادراً ما ينظر اليها في هذا النطاق .

الميزة الاجتماعية ـ الاقتصادية للمجتمعات العربية ـ الاسلامية على ديناميكيات هجرة الأدمغة ، أو هرب الكادرات المثقفة الشابة الى البلدان الاكثر تطوراً . ويرتكز التحليل على مفهوم الاغتراب الثقافي : وسنحاول أن نقيس القيمة المساعدة على الكشف لهذا المفهوم في وصف المركز الشخصي للمثقف في الخارج اذ يقع اسيراً بين محاولة إعادة دمج نفسه في البنى الاجتماعية لبلده وقرار مغادرة وطنه والفرضية العاملة هنا هي ان قرار الهجرة له صلة باختبار الاغتراب الثقافي الذي يرافق الدرجات المختلفة لاستبطان نموذج المجتمع الاكثر تطوراً الذي يختبره الكادر الشاب بالنسبة الى اندماجه المهني في المجتمع . كما ان الاغتراب الثقافي هو وظيفة من وظائف الطريقة التي ترتبط بها المجتمعات العربية في الطور الحالي لنموها بجاراتها الاكثر نمواً . وتتسم تلك العلاقة اليوم بطموح الى الاعتماد على النفس مقرون باعتماد ثقافي واقتصادي على الدول الامبريالية . وستتناول الدراسة بعض التأملات حول سبل تغلب الكادرات العربية الشابة على الاغتراب الثقافي ، عن طريق تثبيت الهوية الثقافية وتعزيز الاعتماد الاقتصادي والتكنولوجي على النفس . ان الحجة الاساسية هنا هي ان المقاربة التي تربط هجرة الادمغة بالاغتراب الثقافي انما هي **البديل** عن المقاربة الوظيفية الثقافية ، التي لا بد من تبيان عدم كفايتها فيما يتعلق بمقتضيات المجتمعات العربية المعاصرة .

أ ـ التحليل القومي الثقافي لهجرة الأدمغة لا يفسر العلاقة بين هجرة الأدمغة والامبريالية الثقافية :

بالنسبة الى المقاربة الوظيفية ، المرتكزة على نظرية الدوافع ، فان قرار الهجرة أو بقاء المرء في بلده يؤخذ بنفس الطريقة التي يؤخذ بها فعل اختيار المرء لطبيبه النفسي أو لنوع سيارته . والقاسم المشترك لهذه القرارات المختلفة هو انها أفعال سلوك تتخذ استجابة للمثيرات البيئوية [1] . ومن الواضح ان قرار الهجرة هو اكثر تعقيداً بكثير من اختيار المرء لنوع سيارته . الا ان تعقيد الموضوع ينطوي على درجة موازية من تعقيد التحليل . وكما انه من الضروري البحث عن الدوافع المختلفة التي تقرر اختيار المرء لنوع سيارته والمعايير المختلفة لتلك الدوافع في القرار ، فانه من الضروري ايضاً تعداد جميع الدوافع الممكنة والقابلة للتصور التي تسهم في تقرير قرار الهجرة . وقد تتراوح هذه الدوافع من تفضيل انواع معينة من الطعام ، عبر الحاجة الى الرفقة الاجتماعية ، الى دافع سياسي .

والمطلوب من الباحث هو تغطية المجموعة الكاملة من الاحتمالات النظرية العديدة التي يمكن ان تكون الدافع لقرار الهجرة . ويفترض بالمجموعة المتنوعة من الدوافع ان تعمل معاً ولكن مع تميز كل دافع منها بقوة مختلفة . والمجموعة المتزامنة الفعالة من الدوافع ، وبالتالي العامل المقرر ، تنشأ عن الاختيار المعين للدوافع المحتملة وعن قوة كل منها ويكون الاستبيان المحتوي على القائمة المستفيضة بالدوافع المحتملة وبقوة كل منها بمثابة « اختبار » يكشف عن دوافع كانت قبل ذلك مخبأة بالنسبة لموضوع الدراسة نفسه وللعامل الباحث في آن معاً . ويجب ان تحتوي الاستبيانات ، شأنها شأن

---

(١) « ان التحليل الاحصائي للأسباب التي يرتكز عليها اتخاذ قرار ما والتي اختيرت في مسح قائم على اساس العينة كان منذ امد بعيد من اختصاص مكتب الابحاث الاجتماعية التطبيقية ، وقد استخدمنا (تحليل الاسباب) في مسح حول اختيارات سلع الاستهلاك ، واختيارات برامج الراديو وشراء السندات ، والتصويت للمرشحين السياسيين واختيار المهنة ، ونقل السكن ، وزيارة عيادة الطبيب النفساني . وفضلا عن ذلك ، استخدمنا (تحليل الاسباب) في مسح لهجرة الاسرائيليين الى الولايات المتحدة ، وقد امتحن المشروع الاسرائيلي جدوى تحليل الاسباب لموضوع هجرة الادمغة ، وكان ذلك بمثابة خلفية قيمة عندما صممنا مشروع معهد الامم المتحدة للتدريب والابحاث . »
RHPIW, Glazer, **A Proposal for Further Analysis of Data**, August 1972, pp. 10-11.

الاختبارات ، على اسئلة مثيرة تكشف اكثر مما توحي دون ان تشترك بأية طريقة من الطرق ذاتية العامل الباحث . ويجب ان تكون قائمة الدوافع المحتملة رسمية وعامة بشكل يكفي لتطبيقها على مجموعة من الاشخاص المختلفين موضوع الدراسة ينتمون ، ان امكن ، الى جنسيات مختلفة . وينبغي ان تلبي القائمة الشروط التي تحدد اختباراً ما : اي الشمولية ، والتطبيق العام والموضوعية .

اذاً ، فان قرار الهجرة هو استجابة سلوكية لمثير بيئوي . ويمكن تمييز نوعين من المعطيات : النوع الاول هو المعطيات على الصعيد التجريبي والذي تمكن ملاحظته . وبالنتيجة ، تتمثل البيئة هنا بالصفات المميزة للانظمة الاجتماعية التي تقرر البلد المضيف وبلد المنشأ . وفي المقاربة الوظيفية يصار الى تحديد الصفات المميزة بعدد من المؤشرات التي يمكن قياسها بسهولة : دخل الفرد ، الانتاج الداخلي الاجمالي ، ومعالم النظام التربوي الخ ... ويمكن ان تضاف الى هذه المتغيرات العيانية ـ السوسيولوجية على صعيد آخر ، معطيات المتغيرات النفسية ـ السوسيولوجية : التأثير الاجتماعي لبيئة الاسرة وبيئة الجامعة من ناحية ولنظام الدوافع التي سيكشف عنها التحليل الاحصائي من الناحية الاخرى . وبكلام آخر فان المعطيات التي ممكن ملاحظتها تجريبياً تتألف من الصفات المميزة العيانية ـ السوسيولوجية وتأثيرات البيئة وقرار الهجرة . والمتغير الذي يجهله كل من الشخص موضوع الدراسة والعامل الباحث هو نظام الدوافع . وذلك ان الدوافع وحدتها هي دوماً متعددة ومتنوعة . وبالتالي فان العلاقات المتبادلة يمكن ان توجد بين الدافع المتغير المعتمد (السلبي أو الايجابي) والمتغيرات المعتمدة التي تمثلها المعالم الاجتماعية ـ الاقتصادية أو الاجتماعية ـ الثقافية للانظمة الاجتماعية ويمكن ، على سبيل المثال ، صياغة الفرضية التالية : كلما كان بلد من البلدان اكثر تغرباً قلت ظروف هجرة الادمغة منه .

اما المقاربة الوظيفية فان تطبيقها على مشكلة هجرة الادمغة يصطدم بعدد من الصعوبات التي يمكن تلخيصها بما يلي : ان نقل طريقة « تحليل الاسباب » من حقل تحليل سلوك المستهلكين الى حقل هو في مثل حساسية تحليل الهجرة لا يمكن تحقيقه بمثل هذه السهولة . كما لا يمكن تطبيقها دون المجازفة بخلق سوء فهم . وهذا في الواقع هو مثل كلاسيكي على مشكلة نقل التكنولوجيا . ولا يمكن مقاربة قرار يتخذه فرد عربي للهجرة بنفس طريقة مقاربة الكيفية التي يختار بها طبيبه النفساني . وفي الواقع فان الدوافع المعنية ليست محايدة ولا طيعة بقدر ما هي نظيراتها في مجتمع مثبت في آرائه المقولبة ومكشوف لمغريات الدعاية التجارية . فكيف يمكن وضع الدوافع السياسية والمطبخية ، والقومية ، والتقدم في مجال العمل على نفس المستوى ؟ وكيف تستطيع الابحاث ان تكبت المعنى الاضافي السلبي الذي تستحضره عبارة « القومية » في ذهن شخص غربي في نفس الوقت الذي تأخذ بعين الاعتبار التأثير الايجابي الذي تتمتع به العبارة عينها في ذهن العربي ؟ وهل يمكن استخدام عبارة « السياسية » بنفس الطريقة المحايدة التي يمكن بها استخدام مفهوم علمي ؟ وهل يمكن اجراء مقابلة مع مهاجر من المعارضة السياسية بنفس الطريقة التي تجري بها المقابلة مع زبون مستقبلي محتمل لاحدى شركات السجائر ؟

ان وضع مجموعة متنوعة من الدوافع على نفس المستوى تقريباً انما يقلل من شأن محتوى دلالات الألفاظ المستخدمة في البحث ، والتي تضحي صحتها من ثم مشكوكاً بها الى حد كبير . وباختزال فعل الهجرة الى سلوك يستجيب الى المثيرات المختلفة ، تفقد المقاربة الوظيفية الدلالة الاعمق للفعل . صحيح ان الاتصال بمهاجر شاب او بكادر مقيم قد يشبع غروره وبالتالي يكسب تعاونه . ولكن

هل يمكن ضمان انه سيجيب عن كل الاسئلة التي ستجعل الاستطلاع ذا معنى ؟ وهل اللاإجابات المتعلقة بالمواقف الزوجية وتلك المتعلقة بالانتسابات السياسية تحمل نفس المعنى ؟ وفي الواقع فان اللاإجابات في هذا المجال هي اكثر دلالة من الاجابات ، وتبعاً لذلك يصاب التحليل بالتلف . وينبغي ان يوجه التحليل ، بالاحرى ، نحو ما لا يقال . والاستبيانات بالنسبة الى المهاجر او طالب الهجرة هي اشبه ما تكون باستجواب محاكم التفتيش في القرون الوسطى . فالاسئلة هنا تتخذ شكل المراقبة البوليسية وتذكر المرء باجراءات البروقراطية الإرهابية .

ومن الواضح ان المقاربة الوظيفية تقدم عدداً من الفوائد ، ولو لمجرد انها توجه الملاحظة نحو التجريبي والحسي . اما في ما يتعلق بالصفات المميزة العيانية ـ السوسيولوجية الشاملة للمجتمعات العربية . فان المشكلة هي كيفية وضع التمايز الثقافي والتاريخي لهذه المجتمعات في بعده الصحيح .

كيف يمكن جمع ظروف المجتمعات العربية مع ظروف مجتمعات اميركا اللاتينية ، مثلا ، علماً بان مشكلة الهوية الثقافية اوثق صلة بالاولى منها بالثانية ؟

لقد عالجت الدراسات الاولى التي اجريت على هجرة الأدمغة مشكلة تكيف الطلبة الأجانب في الجامعات الاميركية . وان طرح المشكلة في نطاق التكيف مع الأنظمة الاجتماعية الغربية والاغتراب عن الأنظمة الاجتماعية العربية انما يعني ضمناً تفضيلاً تقويمياً للشكل الغربي للتحديث وتقويماً سلبياً للثقافة العربية في كل من شكلها الحالي وفرصها المستقبلية . وهذا التفضيل التقويمي الضمني للنموذج الغربي الذي هو جوهري بالنسبة الى النموذج الوظيفي لا يحسب حساباً للامكانات المستقبلية للمجتمعات العربية وطاقتها على التجديد .

وباختزال المعالم العيانية ـ السوسيولوجية الى مؤشرات كمية ، تخفي المقاربة الوظيفية علاقة الاعتماد على الامبريالية التي تميز المجتمعات العربية . ولا تسمح بعرض هجرة الأدمغة كتعبير عن علاقة تسلط ناجمة عن عملية تاريخية قابلة لأن تعكس . وباختصار ، فهي تدعي انها حيادية وموضوعية ، الا ان ايجابيتها التجريبية تجعلها شريكة في تثبيت الوضع القائم ولا تساعد بطريقة من الطرق في كشف النقاب عن طبيعتها الحقيقية بحيث يصير من الممكن القيام بالتغييرات الضرورية .

ب) ان مفهوم الاغتراب الثقافي يسمح بعرض ظاهرة هجرة الادمغة بوصفها تعبيرا عن الامبريالية الثقافية

تتألف الامبريالية الثقافية من تركيز للمعرفة والإعلام في مناطق من العالم متمتعة بالامتيازات ولها حدود مشتركة مع حدود التوزيع الدولي للعمل .[٢] والى ذلك فان نماذج التنظيم والانتاج والاستهلاك يصار الى نشرها في جميع انحاء العالم بوصفها القاعدة الاساسية الوحيدة التي ينبغي تطبيقها واتباعها . واحدى النتائج المترتبة على ذلك امتثال باسلوب الحياة على جميع صعد الحياة اليومية . وهكذا فان الثقافة المسيطرة تصير القاعدة الثقافية التي يصار الى تقويم الثقافات المحيطية استنادا اليها .

وترتكز الامبريالية الثقافية على احتكار للمعرفة والاساليب وعلى السيطرة على النماذج الثقافية

(٢) Sarnela Matti. «What is Cultural Imperialism?». in **Transactions of the finnish Anthropological Society**, No. 2.

التي تولّدها فيما هي توجه العملية التي يجري استبطانها بموجبها . وتفضي الامبريالية الثقافية الى استقطاب للعالم الى بنى لمركز مسيطر ومحيط خاضع للسيطرة . ويؤدي هذا التنظيم للعالم الى تجزئة هوية الثقافات الوطنية ، وتفككها وانخفاضها التدريجي . وهذه الثنائية الثقافية المرتكزة على ثنائية اقتصادية نشأت عن علاقة السيطرة ، هي التي تولّد التغريب الثقافي في المجتمعات الخاضعة للسيطرة (٣) .

ونحن نسلم بان الاغتراب الثقافي موجود في جميع الفئات الاجتماعية في الوطن العربي ، الا انه ابرز ما يكون بين الانتليجنسيا(٤) . وفي الواقع يمكن تحديد رجل الفكر بأنه من استبطن معرفة تتميز بدرجة التطور ، وبالاحتياجات والنماذج الثقافية للمجتمع الذي انتجها . والمفكر العربي الذي استبطن مثل هذه المعرفة انما يضع نفسه على مسافة بعيدة عن مجتمعه العربي الذي ينتج اللامعرفة ـ مسافة هي في آن معا ثقافية واقتصادية وتقنية وتطابق ، في الواقع ، الفترة التاريخية الفاصلة بين المجتمع العربي والعالم المتطور . وفي هذه الحالة ، لا تستطيع معرفته وكفاءته الا ان تسببا الاغتراب ـ أي ، ازمة (٥) .

وان اغتراب المفكر العربي هو ان يجد ان ثقافته قد جعلته **غريبا** في مجتمعه هو . وبالنتيجة فان عملية الاستبطان لا يمكن عزلها عن القواعد والمطامح الثقافية السائدة ، وبخاصة الطموح الى التفوق المهني الضروري للنمو الكامل للشخصية . ولسوء الحظ ، بالنظر الى التخلف التارخي للوطن العربي ، لا يستطيع المفكر العربي الا ان يحقق الانجاز المهني الوسيلي على حساب القيمة (المؤثرة) للانجاز الثقافي .

وعند هذه النقطة تدخل الامبريالية الثقافية لتوحد مقاييس المعرفة ، فتحولها الى سلعة وتحول العالم الى سوق دولي . وهكذا فان الفرد العربي المثقف مجبر على التحول الى بدوي مثقف . وبالفعل يمكن وصف هجرة الادمغة بأنها بداوة جديدة فكرية في خدمة الامبريالية المستقرة في المدن .

ويغطي مفهوم الاغتراب الثقافي كلا من المهاجر العربي الفعلي والمحتمل . والبعد المركزي هنا هو **اغتراب** المفكر العربي الناجم عن استبطان مجموعة من المعرفة لم يتم انتاجها ضمن بنى مجتمعه العربي الخاص . وهذا الاغتراب يقحمه في وضع اعتماد وسيطرة ، يصير ممكنا نتيجة للاحوال الموضوعية التي خلقتها الامبريالية الاقتصادية والاجتماعية . والنتيجة العملية لهذه الحالة بالنسبة الى الكادرات المعنية هي العجز ، عدم القدرة **على الفعل** ، وهو مؤشر رئيسي للاغتراب(٦) . وينبغي النظر الى هذا الوضع في السياق السياسي والثقافي المعني للمجتمع العربي ، الذي يتميز بمسألة الهوية الثقافية والقومية . وبالفعل ، لا يمكن فصل الاغتراب الثقافي عن ازمة الهوية وتعيين الهوية التي تشمل العالم بأسره .

---

(٣) Menachem Posner, «Alienation, Fetishisme et Anomie», in **La Revue D'homme et la Societé**, No. 11, January, February, March 1969, p. 81.

(٤) حليم بركات ، سلمى الخضراء الجيوسي وفيصل دراج ، « اغتراب المثقف العربي » ، في مجلة « **المستقبل العربي** » ، العدد ٢ ، تموز (يوليو) ١٩٧٨ ، بيروت .

(٥) Ridha Boukraa, «Les Mutation des Attitude des Cadres de la Nouvel Industrie Tunisienne», **Cahiers du C. E. R. E. S.**, Septembre, ?.

(٦) «Les Mutation de la Profession Médicale en Tunisie», in **Sociologie des Mutations, Anthropos, Paris, 1970.**
A. Laroui; **La Crise des Intellectuels Arabes**, Maspero.

وان استبطان المعرفة ، والتكنولوجيا والثقافة المتجسمتين فيها ، انما يعني ربط المرء نفسه بالامبريالية المسيطرة ووضع المرء على مسافة بعيدة عن مجتمعه هو ، وبالتالي عن نفسه . واذا ادى هذا الموقف الى فعل الهجرة ، فلا يمكن العيش خلالها الا في شكل اغتراب وتبكيت ضمير . وقد تكون القومية بديلا ، بوصفها ارادة السيطرة على التكنولوجيا والمحافظة على هوية المرء الخاصة . الا ان الخطر هو ان القومية قد تتحول الى موقف هروبي على حساب العقلانية التكنولوجية . والمفكر العربي أسير بين العجز اذا اختار القومية او التكامل الثقافي ، وتبكيت الضمير اذا اختار ان يهاجر .

الا ان ثمة بديلا ثالثا يأتي بنظرة واضحة الى التاريخ وتوازن القوى التي تسيطر على العالم . ويدل فعل الهجرة هنا على مراوحة خطى تكتيكية ـ طاقة يصار الى حفظها بانتظار النهضة المنتظرة . وهذا يخدم مصالح الامم المسيطرة في المدى القصير ، الا انه ، في المدى البعيد ، يمكن ربطه بمشروع اعادة اصلاح قومي شامل . وقد يكون دور المفكرين المهاجرين حاسما في استراتيجيات انماء المجتمعات العربية . غير انه لا يمكن تحقيق ذلك الا اذا بذلت جهود لازالة الظروف الموضوعية المسببة للتغريب الثقافي لدى رجل الفكر العربي . وتتجسد هذه الظروف الموضوعية بصورة اساسية في حالة الاعتماد التي تميز العلاقة بين المجتمعات العربية والامبريالية . وللتغلب على الاعتماد ، من الضروري تشجيع وتعزيز نوع من الانماء يتمحور على الموارد الاقتصادية والثقافية الخاصة بالمجتمع[٧] . ويعني هذا ، ضمنا ، الطعن بالهيمنة الثقافية للغرب ، الذي يواجه حاليا ازمة ، واضفاء محتوى ديناميكي وذي توجيه تاريخي على الهوية الثقافية العربية .

ولا يمكن فصل مشكلة هجرة الادمغة في الوطن العربي عن عملية ايقاظ هذا الوطن مجددا في ثلاثة ابعاد على الاقل : البعد السياسي (حكم تقدمي وديموقراطي) ، والبعد الاقتصادي (تنمية متكاملة ومكتفية ذاتيا) ، والبعد الثقافي (تكيف التراث الثقافي لاحتياجات التحديث والتقدم) .

التصنيع والكادرات الصناعية والاغتراب الصناعي ـ حالة تونس :

ان الفرضية الاساسية الموجهة لهذه الدراسة هي الآتية : ان الصناعة كشكل من اشكال الانتاج لا تنطوي على ادوات التكنولوجيا فحسب . بل هي تنطوي ايضا على صيغة ثقافية ومجموعة المعتقدات والمواقف والسلوك والمطامح التي تميز ما يسمى « المجتمع الصناعي » . وهكذا لا يمكن فصل التجديد التكنولوجي عن البنية الاجتماعية ـ الثقافية ـ كما ان نشره في النظام الاجتماعي كثيرا ما يكفيه مستوى تقبلية البنية الاجتماعية ـ الثقافية . وتوجد التكنولوجيا ، في الواقع ، عند نقطة التقاء الاجتماعي والثقافي والتاريخي .

ونعتزم ان نحلل بطريقة واقعية تأثير زرع تكنولوجيا ما ، وبالتالي احد اشكال الانتاج ، في نظام اجتماعي لم يقررهما تاريخيا . والى ذلك سيصار الى تحليل هذا الزرع على صعيد فريق اجتماعي قد يكون الاكثر حساسية للتناقضات الكامنة في نقل تكنولوجيا ما في مجتمع لم ينجبها . ويمكن التأكيد بان كادرات الدرجات العليا قد استبطنوا احتياجات المجتمع الصناعي اكثر من غيرهم ، نظرا الى ثقافتهم الاعلى وخبرتهم الاوسع . وهم في مركز استراتيجي للغاية لملاحظة التوترات التي يثيرها تصادم المجتمع الصناعي والمجتمع ما قبل الصناعي[٨] .

---

(٧) Samir Amin, La Nation Arabe, Maspero.

(٨) ومن الواضح ان هذه المشكلة ليست وثيقة الصلة بالموضوع الا الى الدرجة التي تعطي بها الكادرات قيمة الى النماذج التي ترشد ادارة المجتمع الصناعي .

والافتراض هو ان كل كادر يمثل حلبة للتوترات المتعددة : التوتر بين مكان عمله والبيئة المحيطة به ، والتوتر بين صورته هو للصناعة وحقائق خبرته اليومية ، والتوتر بين المجتمع التقليدي الذي نشأ فيه والمجتمع الحديث الذي يطمح اليه . اما افراد الكادرات الذين نحن بصدد دراساتهم فهم في بداية حياتهم المهنية . ذلك ان موقف الكادر يكون اكثر جلاء ووضوحا في مستهل حياته المهنية . وبالنتيجة يتوجب على الكادر ، وهو يواجه عددا معينا من التناقضات اما ان يتغلب عليها ويختبر ، في البداية ، **تحولا** حقيقيا بغية تكييف عدد من احتياجاته للحالة الجديدة ، او الاحتماء في **موقف تراجع** ، على افتراض ان لا خيار له غير البقاء في بلاده . ولا حاجة الى القول بان ردة فعل الكادر لاوضاعه الحياتية والعملية لن تكون متماثلة . فهي تعتمد في الواقع على عدة متغيرات ، ومنها مؤهلات الكادر (الادارية او التقنية) ، وموقع الشركة التي يعمل فيها (في الريف او في المدينة) ، ونوع العمل (سواء كان خاصا شبه خاص او عاما) ، وسن الكادر وحالته الزوجية وأصله الاجتماعي الخ .

ومن الصعب السيطرة على تفاعل هذه المتغيرات دون اللجوء الى استقصاء مستفيض سيكون بالضرورة طويلا وباهظ التكاليف . الا آننا سنقوم بمحاولة الجمع بين المقاربة الكمية (وتشمل ٣٧ حالة) [٩] والمقاربة النوعية (وتشمل مقابلات مكثفة مع اربع حالات) . والامر المهم هو ان نقدر على ان نصف موقف الفاعل ـ وهو هنا الكادر ـ والطريقة التي يقحم بها نفسه في نظام اجتماعي ـ المجتمع ما قبل الصناعي . ونحن نعتزم ان نتناول عددا من الحالات وقع عليها الاختيار من عدد من الشركات الصناعية المختلفة وان نعيد فيها بناء الموقف النظري للكادرات الصناعية في احد بلدان العالم الثالث . والمقابلات المكثفة « مؤشرات » تميل الى المبالغة في التشديد على الحالة الشمولية لانها اجريت في شركة صناعية قائمة في محيط ريفي [١٠] . الا ان هذه المبالغة في التوكيد يجب ان تبرز الى حد اكبر التناقضات العاملة ضمن الكون الكامل للمشاريع الصناعية التي تأسست منذ الاستقلال [١١]

١) **الصفات المميزة الشاملة للكادرات تمثل بحد ذاتها عوامل سوء التوافق** : ان اربع معالم مهمة لهذه الدراسة تجعلها ذات فائدة للتحليلات المقبلة : (أ) ان الكادرات الذين هم موضع الدراسة صغار السن : فان ٤٥٪ على الاقل هم دون التاسعة والعشرين وان ٤٧٪ ينتمون الى فئة الاعمار ٣٠ ـ ٣٩ . اذا ، فان نسبة لا يستهان بها من الكادرات الذين هم موضع الدراسة ما يزالون في مستهل حياتهم المهنية ، وبمعنى من المعاني في بداية حياتهم . (ب) يكشف توزيعهم وفقا للاقليم الذي نشأوا فيه عن رجحان ثلاثة اقاليم تكثر فيها المدن : تونس وسوسة (وكل منهما ٢٠٪) وصفاقص (٢٠٪) . (ج) تكشف الحالة الزوجية عن نسبه عالية من العازبين (٤٣٪) . (د) ان نسبة ٥١٪ فقط من الكادرات الذين اجريت مقابلات معهم قد تابعوا تعليمهم العالي .

ومما لا ريب فيه ان التسعة والاربعين بالمئة الذين قالوا انهم لم يتابعوا تعليمهم العالي هم كادرات حققوا الترقية لانفسهم عبر الصفوف . والمعالم المختلفة التي تميز المجتمع ما قبل الصناعي نشيطة في

---

(٩) تبين ان إستبيانين اثنين من اصل ٣٧ استبيانا كانا غير قابلين للاستعمال بالنسبة الى بعض الاسئلة . ولا حاجة الى القول بان نتائج بحثنا لا تدعي الدقة الاحصائية المطلقة . الا انها قد تفيد من حيث انها تجمع معا عددا من الفرضيات من اجل اختبارها على عينة اوسع .

(١٠) انظر للمؤلف :

«L'entreprise industrielle en millieu rural.» in **Etude de Sociologie Tunisieme**, vol. I, 1969.

(١١) هذه المحاولة صحيحة ميثودولوجيا طالما ان نتائج الابحاث التي تم التوصل اليها لا تدعي التعميم . وهكذا فان نقاط النسبة المئوية تظهر للعيان الملاحظات كما ان سير الحياة توضح بشكل واقعي الظواهر الملاحظة .

الاسس التي تم استخدام هذه الكادرات استنادا اليها : القرابة او النسب ، التضامنات الاقليمية والسياسية الخ [١٢] .

وبالاضافة الى عدم تجانس السن ومكان الولادة والحالة الزوجية والمستوى الثقافي ، هناك عدم تجانس حاسم اكثر : المكان الذي تلقى فيه الكادر تعليمه . فان أغلبية كادرات القطاع التقني درست في فرنسا (٢ ، ٤٢٪) ، ٧،٢ ٪ في تونس ، و ٤ ، ٢١٪ في بلدان اخرى . ويطرح هذا ، كما سنرى ، عددا من المشكلات المتصلة بحالة كل كادر والطريقة التي يصار فيها الى ادراك الكادر في المجتمع ككل . وتبدو الظاهرة نفسها في ما يتعلق بكادرات القطاع الادراي . فمن هؤلاء ، يقول ١ ، ٢٦٪ انهم تابعوا دراساتهم العليا في تونس مقابل ٤ ، ١٧٪ في فرنسا ، اما نسبة الكادرات الذين يقولون انهم لم يتابعوا دراساتهم العليا فهي اعلى في القطاع الاداري منها في القطاع التقني . ومما لا ريب فيه ان هذا سيثير توترات بين كادرات القطاع نفسه ضمن نفس الشركة .

٢) اسلوب امتصاص الكادر في العائلة ، الشركة والمجتمع يمثلان عاملا ثانيا لسوء التوافق : ان ظاهرة التحركية الاجتماعية التي تميز كادرات العالم الثالث تؤكدها نتائج الدراسة المسحية. ويبدو ان ٢٦،١٪ من الكادرات الادارية و٢٥٪ من الكادرات التقنية يوجدون في اسر ينتمي ربها الى الفئة الاجتماعية ـ المهنية لكادرات المستوى المتوسط . والى ذلك ، يوجد لدى نسبه عالية من الكادرات (٦ ، ٦٨٪) آباء لم يحصلوا الا على تعليم ابتدائي . ونتيجة لذلك ، فان كادرا واحدا من اثنين مجبر على ارسال حوالات مالية شهرية الى عائلته . وفي الواقع ، يقوم نحو ٢ ، ٥٧٪ من الكادرات بارسال حوالات مالية شهرية بقيمة تتراوح بين ١٠ دنانير و ٣٠ دينارا الى عائلاتهم [١٣] . وهذه الظواهر هي ذات دلالة من الناحية السوسيولوجية من حيث أنها تنبىء باعادة تنظيم المجتمع التونسي . كما انها جديرة بالتحليل من وجهة نظر نفسية ـ اجتماعية : العلاقة بين الكادر والأسرة عندما يعود فينضم اليها بعد سنين من الدراسة في الخارج ، درجة تعلقه بقيم التضامن النموذجية في المجتمع التقليدي ، الطريقة التي يحمل بها اقتلاعه من الجذور في مجتمع تتغلب فيه قيم الاستقرار على قيم التغيير ، الخ . الا اننا سنعامل الاسرة ، للوقت الحاضر ، كعامل من عوامل سوء التوافق الذي ينبغي على الكادر التغلب عليه [١٤] .

ومن الصعب معرفة أي دافع على وجه الدقة يجعل المرء حقا يفضل ، في لحظة معينة من لحظات حياته ، احدى المهن على مهنة اخرى . والى ذلك ، فمن الراهن ان عدة ترتيبات من الدوافع التي كثيرا ما يعمل كل منها بقوة مختلفة ، هي نشـطة في تقرير هذا الاختيار . بيد انه يبقى من المهم والممتع ان نكتشف كيف يسوّغ الكادرات اختيار مهنهم بعد اختيارها . ومن الواضح ان درجة تكيف الكادر ، وبالتالي درجة رضاه ستكون مختلفة تبعا لما اذا كان التوكيد موضوعا على الدوافع الشخصية او على قيم الانماء الوطني [١٥] .

وفيما يلي عينة من الاجابات التي تم الحصول عليها من عدد من الكادرات التقنيين :

● « لقد اخترت هذه المهنة لأنني احبها وبخاصة لكي استطيع القيام بأبحاث . حسنا ، ها أنذا معزول عن المهندسين في

---

(١٢) هذه العناصر موجودة في المجتمع الصناعي ، الا ان الاهتمام بمربحية الراسمال توازنها .
(١٣) دون احتساب الكادرات الذين يعيلون اسرة ـ وهم ليسوا نادرين .
(١٤) حتى ان التغلب على هذه العقبة يزداد صعوبة لان الكادر هو في حالة تحركية اجتماعية .
(١٥) G. Benguigui, «La professionnalistion des cadres dans l'industrie», in **Sociologie du Travail**, April-June, 1967.

المصانع التونسية الاخرى وفي بلدان اخرى . توجد دوائر مناسبة في مصانع الا انني لم أقدر قط ان اقيم اتصالا مع المسؤولين عنها . حسنا ، هذا سيء للغاية : فعلى المرء ان يسافر مرة في السنة على الاقل ليبقى على اتصال مع نتائج الابحاث الجديدة . ونحن في تونس لا نواكب آخر ما توصل اليه العلم . ان الرجل المهني حقا يقوم ببعض التفكير الخلاق ، ويخلق انظمة جديدة . ولا نستطيع ان نبلغ ذلك المستوى هنا » .

- « لقد اخترت هذه المهنة لأنني أفضل العمل في الصناعة على العمل في مكتب » .

- « لقد اخترت هذه المهنة لأن حقل التخصص جديد في هذا البلد » .

- « لقد اخترت هذا العمل لأنه يتلاءم مع خلفية تعليمي . لم اكن ادري ان المصنع موجود عندما مررت بقسم الورق الهيدروليكي . واخترت هذا الفرع لأن الناحية الهندسية تهمني » .

ان الانطباع الذي تتركه هذه الاجابات هي ان دافع « تصنيع البلاد » لا يبدو انه كان عاملا مقررا نشيطا في اختيار المهنة: فان ٥٪ من الكادرات الذين اجريت معهم مقابلات قالوا انهم اختاروا منهم تلبية لاحتياجات البلاد . ويحل « الميل الشخصي » في المقام الاول (٢٨،٣٪) ، وتتبعه « الفرصة والظروف » (٢٠٪) ، و « الراتب العالي » (١٧،٢٪) و « الاهتمام المهني » (١١،٤٪) . وبكلام آخر ، لا يبدو ان القيم المتصلة بالمجتمع ككل قد قررت مواقف الكادرات . وسنظهر لاحقا ان النموذج الدائم للاسناد هو المجتمع الصناعي . الا أنه يبقى من الضروري معرفة ما اذا كان المصنع القائم وسط بيئة سابقة للطور الصناعي يعطي الكادرات فرصة كافية للتحقيق الذاتي المهني الكامل . ومن هنا السؤال : هل يشعر الكادر أنه يفيد من معرفته على أتم وجه ؟ .

يظهر المسح ان ما يزيد على ثلث الكادرات الاداريين والتقنيين يجيبون بالنفي . وهذا الشعور أقوى لدى الكادر التقني (٣٥،٤٪) منه لدى الكادر الاداري ٣١.٨٪ وثمة اسباب عدة لهذا : فاما التدريب او التعليم اللذين حصلهما الكادر لا ينسجمان مع احتياجات المصنع ، او ان المقتضيات العملية للعمل هي دون الطاقة الكاملة التي يسرتها التحصيلات العلمية المدرسية والجامعية للكادر . ويترجم هذا نفسه الى شعور حاد بالخيبة كثيرا ما يكون السبب الاساسي للصعوبات في العلائق بين الكادرات التقنية والادارية .

غير ان هذا الشعور بالخيبة لا يفسر بحد ذاته حقيقة ان ٥٤٪ من الكادرات التقنية يقولون انهم يواجهون مصاعب في علاقاتهم مع الكادرات الادارية . كما انه لا يعني ضمنا ان كل شي هو على ما يرام بين الكادرات الادارية . فان نسبة صغيرة فقط من هؤلاء (١٣،٦٪) أجابوا على السؤال بالايجاب ، لكن هذه الاقلية تكشف مرة اخرى عن الطبيعة المتغايرة العناصر للموظفين الاداريين .

ولا بد من الاشارة الى ان الوظائف الخاصة بكل من الكادرات التقنية والادارية لا تتجاوب مع الآليات نفسها في النظام الاجتماعي ، وكثيرا ما تجد الكادرات التقنية انفسها تحت سلطة كادر اداري عين في مركزه على أساس انتسابه العائلي والسياسي وليس على أساس كفاءته المهنية. ثانيا، وهو أمر اكثر دلالة ، في حين ان الكادرات التقنية يسعون الى تطبيق قواعد العقلانية على عملهم ، فان الكادرات الادارية ، نظرا الى تأصلهم في المجتمع ما قبل الصناعي ، يميلون الى اخضاع قواعد العقلانية الصناعية الى مقتضيات المجتمع ما قبل الصناعي ، التي هي ليست ثقافية فحسب ، ولكنها سياسية ايضا [١٦] . وقد يكون سوء التفاهم بين نوعي الكادرات خطيرا ، كما يشير الجواب التالي : « في هذا

---

(١٦) من الواضح ان هذه المشكلة لا تقتصر على البدان الآخذة بالتصنيع بل هي تظهر ايضا في المجتمعات الصناعية

المصنع وصلنا الى الحالة حيث يسيطر الكادرات الاداريون على الكادرات التقنيين ، وكثيرا ما يتغاضون عني ويعطون التعليمات الفنية للعمال . مثال ذلك ان خدمة المراقبة الادارية تعتقد ان الكادرات التقنيين ليسوا بحاجة الى سيارات ... وهناك رقابة حتى على البريد : وهكذا فان بريدي يمر عبر عدة ايدي ليصل الي بعد ١٥ يوما . » .

والى جانب التكنولوجيا توجد لدى الشركات الصناعية مجموعة من القوانين والادوار التي تنظم العلاقات بين الكادرات والعمال . وكثيرا ما تكون هذه القوانين والادوار غير محددة تحديدا واضحا في عقل الفاعلين : لقد رأينا احد الامثلة في العلاقات بين الكادرات الادارية والتقنية . وفي العلاقة بين الكادرات التقنية والعمال ، هناك بالاضافة الى مشكلة السلطة ، مشكلة التعليم والكفاءة المهنية . وفيما يلي بعض الامثلة :

« والى ذلك فالانتاجية متدنية جدا لقد مضت اربعة اعوام الان ولم يكتسب العمال المعرفة الفنية الاساسية الضرورية لتشغيل المصنع وانا نفسي اعطي ساعتين من التدريب في الاسبوع لموظفي قسمي .. » .

الا ان احد الامور الممتعة هو الطريقة التي ينظر بها الكادرات الذين حلوا مكان نظراء اجانب الى انفسهم في دور السلطة . ونورد كمثل على ذلك الجواب التالي :

« ... لا أجد اية صعوبة في ممارسة السلطة ضمن المصنع . ويشعر العمال براحة معينة الان وقد صار هناك كادرات تونسيون في المصنع . وصرت معروفا بالطبع بأنني قوي وصارم . لقد اعتاد عمالنا على العمل مع كادرات اجانب لا مبالين كانوا يعطون العمال يوما كاملا للقيام بعمل يستغرق ساعتين وتركوا العمال انفسهم ينحطون . وأنا أعتقد بان على المرء ان يكون شديدا وصارما وان يجعل العمال يعتادون على القيام بالاعمال الشاقة » .

وهكذا يبدو ان الكادرات الاداريين اكثر تحفظا من الكادرات التقنيين في الموقف الذي يعتقدون انهم يجب ان يتبنوه نحو عمالهم : فان ٥ . ٣٦٪ من الكادرات الاداريين يقولون انهم يجب ان يكونوا رسميين مع عمالهم ، مقابل ٣ . ١٥٪ من الكادرات التقنيين . ويعتقد ١ . ٤٦٪ انهم يجب ان يكونوا وديين مع عمالهم .

وفي اية حال فمن المهم ان نلاحظ ان الكادرات لا يظهرون نمطا من التجانس والتماسك المحكم في سلوكهم . والامر الاهم من سلوك الكادرات ازاء العمال هو مسألة أراء الكادرات فيما يتعلق بمشاركة العمال في ادارة المصنع . وعند هذا المستوى بالذات يمكن الكشف عن موقف الكادرات الاعمق غورا نحو العمال . وبالنتيجة فان ٥٠٪ من الكادرات الاداريين و ٨ . ٥٣٪ من الكادرات التقنيين يجيبون بالايجاب على السؤال التالي : « هل تعتقد ان العمال يجب ان يشاركوا في ادارة المصنع ؟ » . وربما استنتج المرء ان الخلفية المتواضعة لمعظم الكادرات لا تجعلهم في الواقع يميلون الى ان يكونوا اقرب الى العمال . واذا صح هذا ، واذا كان الكادرات حقا يعتبرون انفسهم **مختلفين** عن العمال **ومتفوقين** عليهم ويربطون انفسهم ذهنياً بالكادرات الاجانب الذين سبقوهم في اعمالهم ، افلا يشكل ذلك عقبة اخرى في طريق دمج الكادرات في الشركات الصناعية المحلية ؟ .

لقد اختير عنصران لغرض تعيين موقع الكادر في المجتمع التونسي : (١) راتبه الى الدرجة التي

المتقدمة حيث الجنسية التقنية كثيرا ما توضع في خدمة مصالح طبقة مسيطرة وكون الكادرات الوطنية يرون الامور على هذا النحو انما يشهد على تغريبهم . ذلك انه ينتحلون ويتبنون صورة المجتمع ما قبل الصناعي الواقع تحت السيطرة كما ترسمها الثقافة الصناعية المسيطرة .

يعطيه قوة شرائية معينة ، (٢) موقفه من الاتحادات الوطنية (الاحزاب والنقابات) ، بقدر ما يكشف عن درجة اندماجه في النظام الاجتماعي .

١) **الراتب** : بالمقارنة مع الادارة المدنية ، نجد ان الرواتب في القطاع الصناعي هي اعلى بكثير : فالنسبة يمكن ان تكون ضعف او ثلاثة أضعاف ويبدأ سلم الرواتب بمئة دينار . فهل الكادرات راضون بهذا ؟ فيما يلي بعض اجوبة الكادرات التقنيين :

● «ان راتبي الشهري ١٢٠ ديناراً مع ١٥ دينارا اضافيافي الشهر كعلاوة انتاج وعشرين دينارا في الشهر للمصاريف الادارية . ولا اعتقد ان هذا كاف . في الولايات المتحدة يمثل الايجار ٨٪ من راتب المرء والمصاريف اليومية ١٥٪ ، وتترك البقية للراحة ، اما في تونس فان المسكن اللائق يأخذ ٢٥٪ من الراتب الصافي للمرء ، والمصاريف الجارية ٥٠٪ . ويأخذ الايجار والغذاء ٧٥٪ من راتب المرء ـ مع استثناء الملابس . ولذلك لا استطيع ان اقتني سيارة او برادا او تدفئة مركزية او هاتفا ..... » .

● «أنا عازب وشأني شأن زملائي اتقاضى راتبا اجماليا ـ بما فيها العلاوة والمصاريف الادارية ـ يبلغ ١٥٥ دينارا . وكان هذا سيكون جيدا لو انني اقيم في مسقط رأسي . ولكن اذا اخذنا بعين الاعتبار النفقات اللازمة لعائلتي والنقليات .. لوجدنا ان الفائض اختفى بسرعة . انني لم استقر استقرارا كاملا بعد . فليس لدي براد ولا هاتف ولا تدفئة مركزية » .

هذان الجوابان لهما دلالة بالغة من حيث انهما يظهران مرة اخرى كيف يشير الكادرات الى نموذج المجتمع الصناعي اي المجتمع الاستهلاكي ولا ينحصر الامر في اعتبار الراتب غير كاف لارضاء احتياجات معينة تعتبر ضرورية ، بل ان السوق الوطنية احيانا لا تحمل المنتجات التي يرغب بها الكادرات الميسورون اكثر والذين يتمتعون بقوة شرائية اكبر . وتذمر احد الكادرات التقنيين قائلا : « ماذا يستطيع المرء ان يشتري في تونس ؟ فحتى الجوارب اللائقة غير موجودة » . ولكنه ينبغي علينا ان نتذكر ان الرواتب العالية التي يتقاضاها الكادرات في مجتمع فقير لا تبدو ، لاسباب مختلفة (النفقات العائلية، موقع العمل ، نخبة محدودة من سلع الاستهلاك) ، انها تلبي التوقعات في نطاق التعويض الكافي عن العقبات والمصاعب المحللة في مكان آخر (١٧) .

٢) **الاتحادات الوطنية (نقابات وجمعيات الموظفين)** ان احدى المشكلات الاساسية التي يواجهها الكادرات هي مشكلة تعيين الهويات : فعلى الكادر ان يحدد ، لا الطريقة التي ينتسب بها الى مرؤوسيه (العمال والمراقبين الخ) بل ايضا الطريقة التي ينتسب بها الى بلده . والمسألة الثانية ، اذن ، هي تقرير الى اي مدى يدرك الكادرات الصناعية انفسهم على انهم ينتمون الى جماعة تضامن . بكلام آخر ، هوية الـ « نحن » الذين هم جزء منها .

ولدى الجماعة التي اجريت المقابلات معها ، بدت المشاركة في نشاط نقابة الموظفين اعظم بين الكادرات التقنيين (٢ ، ٤٦٪) منها بين الكادرات الاداريين . وتقترح هذه الحقيقة الفرضية القائلة بأن الكادرات التقنيين يختبرون حاجة الى التضامن اعظم من حاجة الكادرات الاداريين اليه . ولقد سبق ان لوحظ شعور بالعزلة فيما يتعلق بالكادرات التقنيين . وتؤكد هذا الأمر الاجابات عن السؤال : « هل تشعر ان ثمة حاجة الى نقابة مستقلة للدفاع عن مصالح الكادرات الصناعيين ؟ » وأجاب بالايجاب ٨ ، ٥٣٪ من الكادرات التقنيين و ٢ ، ١٨٪ فقط من الكادرات الاداريين .

---

(١٧) ان وقت الفراغ هو مشكلة خطيرة خصوصا بالنسبة الى الكادرات العاملين في منشآت تقع في مناطق ريفية . وان غياب نشاطات اوقات الفراغ المنظمة تحمل احيانا الكادرات ، ولا سيما العازبين منهم ، على الكثير من الإنفاق في عطل نهاية الاسبوع ، وبذلك يرهقون ميزانيتهم الى حد كبير .

هل يمكن تأويل هذا ! كميل نحو التضامن بين أبناء الشركة الواحدة وبعيدا عن المجتمع ككل ؟ تلخص المشكلة على النحو التالي : الصناعات تزدهر في نطاق الحقل الاجتماعي ـ الثقافي الذي يدعمها . وعندما تنقل الى حقل اجتماعي ـ ثقافي مختلف ، تبرز مشكلات التكيف ومشكلات تكيف الثقافة للتكنولوجيا الجديدة . ولا يمكن ان يتم هذا دون توتر ونزاع : ولا يتم التغلب دائما على التناقضات .

وقد اظهر تحليل مواقف وسلوك الكادرات ان التناقضات بين البنى التكنولوجية والثقافية والاجتماعية ـ السياسية ـ الاقتصادية ، على مستوى هذه الطبقة الاجتماعية ذات الامتيازات التي ، بوصفها السباقة الى التحديث يفترض بها ان تكون المحرضة على تطوير النظام الاجتماعي التقليدي ، تعبر عن نفسها في نطاق سوء التوافق وقلق معين . وقد حاولت هذه الدراسة ان تحلل العوامل المختلفة التي تسهم في هذه الحال . ويمكن تلخيص هذه العوامل على النحو التالي : (١) ان نسبة كبيرة من الكادرات هم في مستهل حياتهم المهنية . وهم بالتالي معرضون لنفس العقبات التي يضعها النظام الاجتماعي امام جميع ابناء الجيل الجديد . (٢) وتزداد هذه العقبات نتيجة لانتماء الكادرات الى مجتمع فقير متدني الاستهلاك في حين ان توقعاتهم واحتياجاتهم هي توقعات واحتياجات كادرات مجتمع استهلاكي . وقد رؤي ان حتى رواتبهم العالية نسبيا لا ترضي كادراتنا لان نموذج اسنادهم يبقى المجتمع الصناعي . (٣) ان الخلفية المتواضعة لمعظم الكادرات وما يرافقهم من مصاريف عائلية وصعوبات اتصال ثقافي تترك الكادر في حالة تجعله غريبا عن كل خلفيته المتواضعة والفئات الاجتماعية الاكثر ازدهارا التي لا تقبل به الا على مضض (١٨) . والى ذلك فان الطريقة التي يربط نفسه بها ذهنيا ازاء العمال في مصنعه وازاء التنظيمات الوطنية تبقى غامضة ، ان لم تكن عدائية ، نظرا لوقوعه اسيرا في تناقضات النظام الاجتماعي . وفي الواقع فان القرارات والمبادرات تصنع في مكان آخر غير المصنع . (٤) ان مشكلة تعيين جماعة الكادر ـ الـ « نحن » التي ينتمي اليها ـ تصير وثيقة الصلة بالموضوع . فهو موجود في مجتمع ريفي في الأساس حيث تبقى الصناعة ، رغم اعتبارها ، مصدر خسارة اكثر منها مصدر أرباح (وما يزال عدد كبير من المصانع القائمة واقعا تحت العجز) .

ومن الناحية الاخرى فان هذا التبرم ليس عاما بوجه الاجمال . فان عددا معينا ينتهي به الامر الى التكيف حسب الحالة والى استمداد الرضا من ذلك الوضع .

كيف يتغلب الكادرات على جميع الخيبات التي تثيرها العقبات المذكورة آنفا ؟ احدى الطرق هي باحراز مركز مسؤولية ـ منصب تنفيذي . هنا يشعر الكادر بأنه معني اكثر وبالتالي يتكيف ويجد رضا معينا في ممارسة السلطة . ومن الواضح ان متطلباته التعويضية هي ايضا يتم ارضاءها بهذه الطريقة . واحدى الصيغ الاخرى هي ان يتزوج الكادر ويستثمر ماله في بيت خاص به . ومن ثم يغرق الكادر في الحياة العائلية ويقطع نفسه عن بقية المجتمع . والا فان الكادر يدمج نفسه في الحياة السياسية في البلد ويشارك في صنع القرارات على الصعيد الوطني . ولا حاجة الى القول بان هذه الصيغ الثلاث لا تستثني بعضها بعضاً بصورة متبادلة ، ويمكن لشخص واحد ان يستخدمها .

وعندما تخفق هذه الصيغ أو لا تثمر ، عند هذه النقطة بالذات يضحي الكادر مرشحا للهجرة .

---

(١٨) وفي الواقع تظهر الخبرة ان هذا التحفظ لا يدوم طويلا . فالامر ينتهي بالبورجوازية التقليدية الى الترحيب بهذه الكادرات الشابة المقتلعة من جذورها والتي تضحي بعد ذلك حليفات لها .

[٣]

أستيراد وتوزيع الطاقة البشرية عالية المستوى في الوطن العربي

د. دومنيك شيفالييه

استاذ في جامعة السوربون .

مختص بالتاريخ الاجتماعي للمدن العربية

وبالشؤون اللبنانية .

كيف يمكن للمرء ان يشارك في العالم الحديث مع بقائه هو نفسه ؟ كيف يمكن الانسجام مع الواقع بوسائل اخترعها آخرون ؟ ان طرح هذين السؤالين لا يعني تحضير المسرح من اجل نقاش حامي الوطيس فحسب بل يعني ايضا طرح اوضاع عمل فردي او جماعي . سواء عند الدرجات العليا للسلطة او في نطاق الشعوب والمدنيات . فمع ان هجرة الادمغة قد تكون نتيجة لسلسلة من القرارات الفردية ، فانه لا يمكن تحديدها الا ضمن اطر تنطوي على تضمينات جماعية واضحة وفي حالات تقتضي فيها القوى والمصالح المتعارضة اختيارات معينة . هل يمكن تحويل هذه التعارضات الى جهد مشترك يفسح المجال في آن معا للمحافظة على هوية جماعية وللتقدم الفردي في العصر الحديث ؟

منذ القرن التاسع عشر ـ وهو عصر تميز بالتفاوت بين الذين اخترعوا « التقدم » والذين كانوا يخضعون للتاثيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية لتوسيعه ـ اخذت النخبة العربية الاكثر تأثرا بهذه الحداثة تتساءل كيف تستطيع استخدام وسائل ونماذج المدنية الغربية لتعزيز هويتها الخاصة وفي الوقت نفسه تصون استقلالها . وأثير السؤال ، بالطبع ، حول اية « هوية » ينبغي المحافظة عليها ومراجعتها في ما استمر الغرب في ادخال معرفته ، ونماذج تنظيمه وادوات مؤسساته واقتصاده الى ارضها . وكانت هناك عدة اجوبة على هذا السؤال ، وقد اختلفت وفقا للخلفية الاجتماعية ولدرجة الوعي القومي او الديني لدى الفرد العربي .

هل ادى الاقتحام الاخير للدول العربية كعوامل في المعادلة الاقتصادية والسياسية العالمية الى محو الفجوة بين المجتمعات الخلاقة وتلك التي تستعمل منتجات الخلق ؟ اذ كيف يمكن مصالحة المواقف الفردية والجماعية مع فرصة المشاركة في تنمية تكنولوجيا متقدمة ، من ناحية ، ومع الحاجة الى الدفاع عن هوية مهددة بالخطر ، من الناحية الاخرى ؟ كيف يمكن المحافظة على هوية المرء عندما يطلب منه ان ينتج بوسائل المجتمعات « الخلاقة » المسيطرة ، اي مجتمعات الدول الصناعية الكبيرة بتكنولوجيتها المتقدمة ؟ هل المشاركة في هذا النوع من الخلق تعني بصورة محتمة « التغريب » ـ نسبة الى الغرب ـ (حتى عندما يتم هذا بمعونة سوفياتية) . ام انه سيقدم فرصة حقيقية لعودة المرء الى خاصته ، عودة يمكن النظر اليها واختبارها كتطور وانماء لهوية المرء ؟

ان اسئلة كهذه تدور بالضرورة حول التباسات الاوضاع التاريخية التي سبق اختبارها كما تدور حول الشكوك الناشئة حول اية برامج ينبغي وضعها وتنفيذها وبالتالي « اختبارها » . ومع هذا يستطيع المرء استخلاص استنتاج واحد على الاقل من التطورات الماضية والحاضرة : ان الذي جعل الاستعمار ممكنا والذي يستمر في جعله ممكنا هو الوسائل الموجودة لدى المستعمر (بكسر الميم)

لاختراع العالم الحديث ، لاختراع العالم الآخر في التغير ، ولاختراع العالم المقبل . واذا شاءت دولة من الدول الا تطيل اعتمادها على دولة او عدة دول صناعية ، مهما كان نظامها ، فعليها ان تكسب لنفسها وسائل الخلق . ولكنها يجب ان تفعل ذلك بطريقة تستخدم بها طاقتها البشرية الكامنة وتؤمن لشعبها الفرصة لتطور ثقافي ووطني غني . كيف يكون هذا ممكنا ؟ ذلك انه على صعيد الفرد الذي يواجه قرارا نجد ان المركز الادنى لبلاده ـ من حيث التسهيلات الجامعية والمستوى الصناعي ـ قد ادى ايضا الى هجرة الطاقة البشرية العالية المستوى الى بلدان الغرب المتقدم التي تستطيع ان تقدم للفرد الكفؤ مهنة علمية واوضاع عمل ومركزا مهنيا اكثر جاذبية على العموم مما يستطيع ان يجد في بلده العربي . ومنذ ازمة السويس في ١٩٥٦ بنوع خاص ، اظهر عدد من البلدان العربية تصميما واضحا على تعزيز استقلالها السياسي ببناء اقتصاد حديث ومستقل . وارتكزت السياسة القومية العربية الى هذا التصميم من اجل افكارها وتوجيهاتها وبرامجها ومشاريعها ، خصوصا في مصر وسوريا والعراق ، حتى نهاية الستينات . ثم ظهرت ، منذ السبعينات ، انماط استثمار جديدة حين تولت الدول العربية المنتجة للنفط السيطرة على الانتاج الوطني واخذت ترفع الاسعار . وكانت النتيجة موجة جديدة من التنمية التكنولوجية والتصنيع اللذين اخذا مناطق جغرافية جديدة ـ خصوصا في الخليج وفي العربية السعودية ـ واللذين اوجدا طلبا على الاساليب الجديدة والمهارات والطاقة البشرية . والى ذلك فانهما طرحا مجددا مشكلة الطاقة البشرية وتوزيعها ـ داخليا وبين البلدان العربية ـ في حين انهما وكذا على التباينات الاقليمية فضلا عن التفاوتات الاجتماعية والثقافية .

اذاً ، ما هي الانماط التي اظهرتها هجرة الادمغة ؟ على وجه التقريب يمكن تبني ثلاثة اتجاهات ، هي :

(١) استمر المعلمون والمهندسون والاطباء والمدراء الماليون في « الهرب » ـ او انه تم « افراغهم » (لاحظ التناقض بين العبارتين) ـ الى البلدان المصنعة المتمتعة بمستويات جامعية وصناعية عالية ، اي الى تلك البلدان التي يدينون اليها ، مباشرة او مداورة ، بتدريبهم او ثقافتهم . وفي حين انه من الصحيح القول بان الازمة الاقتصادية التي اطلقت في ١٩٧٣ كان لها فعل الفرامل من حيث امتصاص هذه الطاقة البشرية في اسواق العمل في الغرب (حتى في حال المرشحين الاكثر اهلية) ، فان حاجة العرب الى التصنيع امنت تدفقا قويا من الطلبة والمهنيين والمدنيين واعضاء المؤسسات العسكرية الى الجامعات الاميركية والاوروبية لاكمال تدريبهم . واية دراسة مستفيضة لهذا الاتجاه يجب ان تأخذ في الحسبان ايضا حقيقة ان سياسات التدريب والادخال الى الجامعات تتراوح بصورة بارزة من جامعة غربية الى جامعة اخرى ، وانها خلال الاعوام القليلة الماضية خضعت اكثر من اي وقت مضى لتقلبات الاقتصاد فضلا عن التطورات السياسية .

(٢) لقد عززت الاوضاع السياسية السائدة في المشرق العربي خلال العقد الماضي انماطا معينة من الحركة ضمن المنطقة التي تشمل المدنية العربية/الاسلامية . وكان الاكثر تأثرا بهذا الاتجاه هؤلاء الذين دعت الحاجة الى استخدام مهاراتهم من اجل تدريب الطاقة البشرية ومن اجل ان يؤدي الاقتصاد الحديث وظيفته على نحو صحيح . وهكذا تم « افراغهم » واستخدامهم في تلك البلدان التي كسبت ما يكفي من اموال النفط لتعزيز خطة الانماء والتصنيع (حتى الى درجة التصنيع الزائد) وصارت قادرة أن تكافىء الذين تستعين بخبرتهم الفنية الجيدة بسخاء ، وهكذا تحافظ على اعتبارها وقوتها ونفوذها . وفي حين ان هذا الاتجاه لا يعني خروج الطاقة البشرية العالية المستوى من المشرق

العربي ، فانها مع هذا تميل الى افراغ الجامعات والقطاعات الاقتصادية من افضل عناصرها لمصلحة تلك الاقطار ذات الايرادات الضخمة . فهل تعمل اعادة توزيع الثروة ، التي تفيد اشخاصا مؤهلين معينين كانوا يتقاضون اجورا ادنى في بلدانهم الاصلية ، على اعادة تثبيت التوازن ام ان كل ما تفعله ، هو انها توسع التباينات بين الاقطار العربية ؟ وهنا ايضا يجب الا نقارن المصالح الفردية والجماعية فحسب بل ايضا المنظورات السياسية ونوع التنظيم السائد في كل من هذه الاقطار . وفي اية حال فاننا هنا معنيون بمشكلة داخلية خطيرة جدا لها معان عميقة تضاف الى قضية توزيع الطاقة البشرية المؤهلة .

(٣) لقد اكتسب المشرق العربي خلال الاعوام الخمسة عشر الماضية تكنولوجيا اكثر تقدما من اي وقت مضى في تاريخه ، وذلك نتيجة لسياسة تنمية تهدف الى اعطاء البلدان العربية استقلالا اقتصاديا ومبادرة اقتصادية في السوق الدولية . وقد سمح هذا باستخدام الطاقة البشرية العربية عالية المستوى ، وكان من الضروري في الوقت ذاته ايضا القيام بعملية استيراد ضخمة للمعدات التقنية والشبكات التنظيمية اللازمة للانماء ، فضلا عن استيراد خبراء مدربين تدريبا عاليا وقادرين على تأمين عمليات التكنولوجيا المتقدمة . وكان هؤلاء الخبراء بصورة رئيسية اميركيين واوروبيين وسوفيات ويابانيين . ومع انهم يأتون بصورة مؤقته ، فانهم يفدون الى اماكن توجد فيها هجرة ادمغة مستمرة الى الغرب . وقد نشأت جميع هذه التطورات المتناقضة ظاهريا عن الفرق بين الاختراع والاستعمال ، بين « الموقع » الثقافي للاختراع و « الموقع » الثقافي للاستعمال . وكل ما تفعله هو انها تديم وتزيد من حدة اللاتوازنات الاقليمية والاجتماعية والثقافية القائمة . وكما اثبتت الاحداث الاخيرة بوضوح ، فانه لا يمكن المبالغة في التوكيد على هذه الحقائق . لا سيما وان ما يجري تداوله ليس الطاقة الدماغية فحسب بل العضلات ايضا . فان تحركات واسعة النطاق تجري في هذا الحقل ايضا ، سواء في شكل هجرات داخلية او عن طريق تدفق الايدي العاملة من الخارج . ومع ان تأثيرات هذه التحركات على السكان ككل في البلدان المختلفة لم تفهم فهما صحيحا ووافيا بالغرض بعد ، فان لها اهمية حاسمة .

ان التصنيع ضروري ، على نحو يعمل على التوفيق بين استخدام تقنيي المستوى العالي ، وهم نخبة تبررها الحاجة الى بناء المستقبل ، واستخدام العمال اليدويين ، وهم كتلة من الجماهير تستمد ثقافتها على افضل نحو تستطيع من خضم الجيشانات المميزة والتغيير السريع . ومن الواضح ان مثل هذا التوفيق يجب ان يسعى الى اقامة الانجازات على اسس متينة للهوية القومية . ومع هذا فان الجهود الرامية الى تكييف الاحتياجات وفقا للامكانات ـ مهما كانت الصيغة حكيمة ـ عجزت حتى الان عن تجنب التغييرات الديموغرافية ونمو المدن بقدر ما عجزت عن مقاومة سراب النماذج الاجنبية للتكنولوجيا العالية والخوف من عدم مواكبة احدث ما تم تحقيقه من تقدم تقني يعتبر امتلاكه عاملا ضروريا من عوامل الاستقلال . ويزداد الامر وضوحا في الاقطار العربية الغنية بالنفط بأن نمط التصنيع المرتكز على اساليب نادرة وباهظة التكاليف هو في الواقع الاصعب استيعابه بشريا واجتماعيا وثقافيا ، في حين ان لانماط التنظيم التي تتطلبها هذه الاساليب تأثيرا غير حيادي على المجتمع المحلي وبنية السلطة . وان عنف الاضطرابات التي وقعت اخيرا في المدن انما يذكرنا بان المرء لا يستطيع ببساطة اغفال حقائق معينة تفرض نفسها فرضا .

وأود ان اشدد من جديد على الدور الحاسم للعلوم الانسانية وللتحليلات التي تقدمها هذه العلوم لفهم عالم اليوم والتكيفات الحتمية التي يتطلبها .

[٤]
الوافدون العرب والتطور الاجتماعي والسياسي في اقطار الخليج

د. ابراهيم ابراهيم

حاليا استاذ في مركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورجتاون (الاميركية) . وكان سابقا استاذا في الجامعة الاميركية في بيروت ومستشارا لوزارة الخارجية في دولة الامارات العربية المتحدة .

منذ اكتشاف النفط واقطار الخليج العربي [١] تجتذب عددا كبيرا من الوافدين والمهاجرين غير العرب . وهدف هذه الدراسة هو تقويم تأثير الوافدين العرب على التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لاقطار الخليج العربي. وفي اساس الفرضية التي ترتكز عليها هذه الدراسة تكمن الفكرة بأن دور الوافدين العرب هو بالضرورة دور متواضع ، ان لم يكن اقل من ذلك . ويعود هذا الدور اولا الى الثقافة السياسية السائدة في منطقة الخليج،وثانيا الى الوضع الديموغرافي والى طبيعة المدن ــ الدول . اما العوامل الرئيسية المركزية لفهم الحياة الاجتماعية والسياسية الراهنة في اقطار الخليج العربي فهي : (١) الثقافة السياسية وشدة الاحترام للتقاليد ، (٢) النفط وايرادات النفط ، (٣) الديموغرافيا والمدينة ــ الدولة ، (٤) التخلف .

ان الصفة الملاحظة على اوسع نطاق التي تميز البيئة الاجتماعية والسياسية لمنطقة الخليج هي القبلية . ويكتب عالم له اطلاع وخبرة مباشران في شؤون الخليج : « ما يزال التنظيم الاجتماعي والقيم والولاءات السياسية ــ حتى في مجتمع عالي التعقيد حسب المقاييس العربية كالكويت ــ تنم عن الآثار الكامنة الواضحة للتقليدية والقبلية » [٢] . فالناس موجهون توجها اوثق نحو اسرهم الممتدة ومجموعاتهم القبلية مما هم نحو اية بنية اجتماعية وسياسية اخرى . وفوق كل شيء ، فان واجب المرء نحو انسبائه ، بصرف النظر عن الولاءات السياسية ، يأتي في المقام الاول .وبكلام آخر ، ما يزال الخليج في مرحلة المشترك او المتحد COMMUNITY ولم يبلغ بعد مرحلة المجتمع . وهو مجموعة اسر اكثر منه جماعة من الافراد يتساوون في الحقوق والمسؤوليات[٣] . وما يزال الاصل الاجتماعي والنسب القبلي المعيارين للمنزلة والشرف . وما يزال نظام الحكم ابويا بطريقة اسرية مميزة . وتحكمه بنى قروسطية . والقيم التي تضفي الصفة الشرعية متاصلة بصورة جوهرية في النسب والعادة .

---

(١) تتناول هذه الدراسة اقطار الخليج الاربعة : الكويت ، البحرين ، قطر والامارات العربية المتحدة .

(٢) Y. SAYIGH, «PROBLEMS AND PROSPECTS OF DEVELOPMENT IN THE ARABIAN PENINSULA,» IN D. HOPWOOD (ED.)**THE ARABIAN PENINSULA: SOCIETY AND POLITICS,**London, 1972, p. 287.

(٣) يمكنك ان تجد الفوارق البنيوية بين المتحد او المشترك والمجتمع في FERDINAND TONNIES, **SOCIETY AND COMMUNITY,** (الترجمة الانكليزية ، ١٩٥٦) .

فالحاكم ليس رب عائلته فحسب ولكنه ايضا ابو الاسرة الاجتماعية او المتحد . وفي الواقع يشار اليه في وسائل الاعلام التي تسيطر عليها الحكومات بأنه « الوالد » وفي المتحد بأنه « الاسرة » . انه رب الاسرة القديم(٤) .

وقبل تطور النفط ، كانت العائلة الحاكمة تحكم بالشورى مع العائلات الارستقراطية الاخرى مثل تجار المدينة . وكان باستطاعة عائلات التجار احيانا ان تتحدى سيطرة العائلةالحاكمة، كما حدث في الكويت في ١٩٣٧ وفي دبي في ١٩٣٨ . ولكن منذ دخول النفط ، الذي يقع خارج نطاق الاعراف ، تغيرت منزلة الحاكم من كونه الاول بين المتساوين الى حاكم مطلق . وهكذا صار النفط وايرادات النفط تعزز قوة العائلة الحاكمة خارجيا وداخليا كذلك الامر . ومع هذا التطور الجديد اخذ الوزن السياسي لاسر التجار يقل وصارت « الدولة » الآخذة بالبروز تدريجيا بجهازها الاداري تظهر وتعزز النظام المطلق الجديد(٥) . ولا تستطيع القبلية ، على الرغم من المثالية التي يعزوها اليها الغربيون ، ان تتلاءم مع المدنية الحديثة . وهي في الواقع تعوق التطور والتقدم ، وفي افضل الاحوال يمكن وصفها كنظام رعاية وزبانة . فهي تنفي مفهوم الدولة الحديثة ، التي ترتكز على القانون المجرد من الاهواء الشخصية . وهي في الواقع نقيض البروقراطية كما تحددها العلوم الاجتماعية اليوم(٦) .

ولا يمكن ان يكون الوافدون مرغوبا بهم الا في المجتمعات المفتوحة ، التي يكون فيها معيار الادوار والتخصص في الوظيفة هي مبادىء الادارة والنشاط الاقتصادي . اما في المجتمعات القبلية ، حيث لمفاهيم المنزلة والشرف اصول متينة في الدم والنسب ، فلا يستطيع الوافدون ان يتفوقوا . وبكلام آخر فان البيئة القبلية لا تساعد على الامتياز والانتاجية .

ولا يقل اضراراً بعملية التطور ، الحجم الصغير لكل من السكان ومساحة اراضي الدولة . فقبل النفط ، كان السكان في دول الخليج يتألفون بشكل استثنائي من جماعة اهلية صغيرة ذات استشراف ونظام اجتماعيين متجانسين نسبيا . وأدى الدخول المفاجىء للثروة مقرونا ، بتطور اقتصادي سريع وبعدد محدود من الرأسمالالبشريالى استيراد اعداد كبيرة من العمال الاجانب ، الامر الذي خلق وضعا لم يسبق له مثيل في التاريخ الحديث ، بحيث ان الجماعة الاهلية الاصلية صارت في اقل من عقد من الزمن اقلية ضمن اغلبية دائمة التزايد من الاجانب . فالمغتربون يمثلون اكثر من نصف السكان في الكويت ، و ٧٠٪ من السكان في الامارات العربية المتحدة . وهم يؤمنون نحو ثلاثة ارباع القوة العاملة في اقطار الخليج الاربعة : الكويت ، قطر ، البحرين والامارات العربية المتحدة . وفي السبعينات كان ابناء الخليج الاصليون يقومون بعمل واحد من كل ثلاثة اعمال . وبعد ذلك بخمسة اعوام كان هذا الرقم يدنو من واحد من كل اربعة اعمال(٧) .

---

(٤) SEE M. HUDSON, **ARAB POLITICS: THE SEARCH FOR LEGITIMACY,** Yale UNIVERSITY PRESS, 1977. PP. 165-166.

(٥) F. Stoakes, «Social and Political Change in The Third World: Some Peculiarities of oil- producing Principalitiesof The Persian Gulf», in D. Hopwood, **op. cit.,** p.196.

(٦) See Max Weber, **WIRTSCHAFT AND GESELLSCHAFT,** Part III, ch. 6, pp. 650-678.

(٧) SeeJ. A Sinclair and g. s. Birks. «Intern ational migration in the middle East with Selected Reference to the four Arab Gulf states of Kuwait, Bahrain, Quatar and the United Arab Emirates». **THE ARAB GULF,**Center for Arab Gulf Studies, University of Basrah, VOL. II, no. 2. 1979, pp 18-19.

وكما هي الحال مع القبلية ، فان توافق أو تشابك الادوار هو احد الصفات المميزة البارزة للحجم الصغير ، بحيث يرتبط الافراد كل واحد منهم مع الاخر بطرق عدة . وهذا يجعل المحافظة على التجرد او علاقات الادوار المجردة من الاهواء الشخصية صعبة جدا . فان الكثير جدا من صلات القرابة او الصداقة او الرعاية تربط معا رب العمل والموظف ، صاحب المتجر والزبون ، الموظف الحكومي وأحد افراد الشعب . وتصير هوية الفرد ، وليس الطريقة التي يؤدي بها عمله ، معيارا رئيسيا في الحقل الاقتصادي والسياسي[٨] . ولكن ربما كان المعوق الاكبر لصغر الحجم يكمن في حقل العلاقات البشرية . فعملية تأليف مجتمع شمولي تصطدم بعقبات مميزة في مساحات الاراضي الصغيرة التي لا يوجد فيها غير مجموعة محدودة من الطاقة البشرية ، وخصوصا الطاقة البشرية المثقفة . وتتشابك الادوار الخاصة للنسب والواجب مع ادوار الوظيفة العامة . وحتى لو جرى توسيع النخبة عن طريق تعليم ابناء البلد الاصليين ، فانها ستبقى على الارجح نخبة يعرف فيها كل شخص ذي شأن الشخص الاخر معرفة حميمة .

وتتميز اقطار الخليج اجتماعيا ، شأنها شأن معظم بلدان العالم الثالث ، بعلاقات ادوار خصوصية . الا ان توجيه القيم الخصوصية يميل الى السيطرة اكثر في متحد صغير . والسؤال الذي ينبغي ان يطرح هنا هو : هل علاقات الادوار الشمولية ضرورية من اجل الانماء الاقتصادي ؟ يمكن العثور على الجواب في دراسة صدرت عن احدى الوكالات المتخصصة التابعة للامم المتحدة في ١٩٥٤ : « في مشروع صناعي فعال ، يجب ان تكون المعايير الاساسية لاختيار الموظفين واسناد المهمات هي القدرة على القيام بالعمل المطلوب وشعور بالمسؤولية في اداء العمل . وقد يعني إدخال الاستثناءات الفرق بين النجاح والاخفاق . ومن هنا فان الروح الخصوصية التي تسيطر على شرائح من المجتمع ما قبل الصناعي ، في النشاطات الاقتصادية والحياة العامة على السواء ، وهو المجتمع الذي يميل الى وضع الولاءات الشخصية والواجبات نحو الانسباء والاصدقاء فوق الاعتبارات الاخرى ، ... قد تصطدم بسهولة بمتطلبات الصناعة . وقد تشجع على الممارسات المتطرفة للمحسوبية ... التي قد يكون لها تأثير يشل مشروعا صناعيا صغيرا ويخفض بصورة خطيرة فعالية حتى المشاريع الكبيرة[٩] » .

ومن المحتم ان يؤدي تدفق مئات الالوف من الاجانب غير العرب الى تشويش الصفة الحميمة للحياة في مدن ـ دول صغيرة كهذه . ويجب الا نغفل ان الوافدين العرب ـ بالاضافة الى الحجج القبلية والديموغرافية ـ يأتون من بلدان اكثر « تقدما » ويمثلون ـ في نظر المجتمع المضيف ـ نوعا من التفوق . فهم قد دعوا الى المجيء في الواقع نظرا الى معرفتهم وخبرتهم . ومن المحتم ان يؤدي هذا الى توليد الاستياء والمعارضة من « الاقلية » الاصلية .

والدولة انعكاس للواقع الاجتماعي . والحاكم هو نتاج بيئته . ومع انه منشىء الدولة وصانع القرارات الاخير ، فهو مع هذا يتقاسم العادات الاجتماعية والنظرة الثقافية المتحدة . وقد ارغمه

---

(٨) See D. P. J. Wood, «The Smaller Territories: Some Political Considerations», **Problems of Smaller Territories**, ed. by B. Benedict, London, 1967, pp. 23-35.

(٩) United Nations. **Processes and Problems of Industrialization in Under developed Countries**, New York, 1955, cited in B. Benedict, «Sociological Aspects of Smallness», in B. Benedict, **op. cit., p. 54.**

التطور الاقتصادي السريع والمعين المحدود من الرأسمال البشري على تشجيع استيراد العمال المهاجرين . الا ان الحاكم (الدولة) يتقاسم مع المتحد الاهلي امتعاضه من الاجانب واحيانا يشجع ويدعم الانقسام بين شعبه والوافدين. وبوصفه ابا للاسرة ، فهو يرغب رغبة شديدة في ابقاء القيم الاجتماعية والاعراف نقية دون ان تفسدها قيم القادمين حديثا ، الا انه يفعل ذلك ايضا لاسباب تتعلق بالمصلحة السياسية وبالحكم . وفي اوقات الازمات يستطيع ان يناشد تضامن المجتمع الاصلي ضد الدخلاء . وهذا النوع من التضامن هو استثمار للمستقبل . وبالامكان دائما استعمال الاجانب ككبش فداء تحول عليهم المظالم ضد الحاكم ويمكن شق المعارضة للحكومة باللجوء اليهم .

تحتاج الدول الى رموز وطقوس كوسيلة لتعيين هويتها الذاتية . وفي منطقة الخليج ، نظرا الى حجم السكان الاصليين ازاء الاغلبية الاجنبية ، اضحى زي الدشداشة الرمز الوطني الى جانب الراية . وهو علامة تميز ابن البلاد الاصلي عن الاجنبي وتعبير عن الوطنية والولاء لثقافة المرء الاهلية (١٠) . ويعزز التضامن والصفة الحميمة ما احب ان اسميه « الرعاية » (وما يفضل آخرون ان يسموه نظام الرفاه) . وقد استطاع الحكام في الخليج ان يزودوا السكان الاصليين بالاحتياجات الاساسية والمهمة جدا : العمل ، التعليم المجاني ، الخدمات الصحية وفي بعض الحالات حتى اجرة السفر الجوي المجانية والعطل المجانية . الا انه يجب عدم الخلط بين هذه الرعاية ودولة الرفاه التي هي حصيلة ثانية لتطورات اجتماعية - اقتصادية معينة والتي يبدأها ويسيطر عليها في الوقت ذاته المجتمع نفسه كحق من حقوقه وليس كهبة . فـ « الرفاه » في حالة الخليج هو هبة ويعكس ، في الواقع ، ضربا من استمرار التقليدية مقنعة بقناع الحداثة . انه التقليد الذي ينص على ان الامراء والملوك (آباء الاسر) مسؤولون عن رعاياهم وان عليهم دائما ان يدفعوا اعانات لاتباعهم (شيوخ القبائل واعيان المدن) بغية كسب ولائهم واخلاصهم والمحافظة عليهم . وقد نجح حكام اقطار الخليج في هذا المجال . فباستخدامهم قسما من اموالهم النقدية ونظرا الى صغر حجم سكانهم الاصليين ، استطاعوا ان يلبوا احتياجات متحداتهم (والكويت هي السباقة في هذا الحقل) تلبية تامة . وهكذا اغلقوا الباب في وجه المعارضة من ناحية ، وعززوا مظهر التضامن بين الحاكم والمحكوم من ناحية اخرى .

وقد كتب السير روبرت هاي ، وهو مقيم سياسي بريطاني سابق في الخليج ، يقول : « مع ان العرب في المراكز الاكثر تقدمية (في الخليج) يظهرون قدرا لا يستهان به من العطف على اخوتهم في اجزاء اخرى من العالم العربي وصور الرئيس جمال عبد الناصر معروضة في الاسواق ، فان الشعور الاقليمي عادة يفوق الشعور القومي اهمية ويرجح عليه . كما ان الازدهار السائد المستمد من نشاطات شركات النفط يسهم الى حد كبير في انعدام الاهتياج ضد الشكل الحالي للحكم . والناس على وجه العموم ، من فرط انشغالهم وشبعهم ، لا يتعبون انفسهم كثيرا بالسياسة ... »(١١) .

ويختلف الوافدون العرب في الخليج عن الاجانب غير العرب من حيث انهم يتقاسمون مع السكان الاصليين اللغة والثقافة ، وفوق كل شيء « العروبة » ، اي الانتماء لنفس الامة العربية ، وبالتالي يتوقعون ان يكونوا موضع الثقة وان يلعبوا دورا مهما في عملية التنمية . الا ان هذا افتراض خاطىء

---

(١٠) يقال ان الشيخ زايد ، رئيس دولة الامارات العربية المتحدة ، استاء كثيراً لان وزير الدولة للشؤون الخارجية الراحل ، سيف غباش ، كان يرفض ان يلبس الدشداشة .

(١١) R. Hay, The Persian Gulf States, Washingon, D. C., 1959, p. 29.

لانه يخلط بين تخيل الرغبات والوقائع السياسية . ولا يمكن نكران ان الامة العربية كأمة ثقافية KULTURNATION موجودة بالفعل . الا ان الكيـان السياسـي الموحـد مـا يـزال في طور التكوين . والوحدة العربية موجودة كإمكانية ، ولكنها غير قائمة في الواقع . ولذلك فان اقطار الخليج ، شأنها شأن الاقطار العربية الاخرى ، هي كيانات متمتعة بالسيادة . انها كيانات اقليمية لها حقوق الدول الوطنية ذات السيادة في الحكم والتشريع ، ولها ، بوصفها دولا ، مصالحها المحددة الخاصة ومبرر وجود خاص بها[١٢] .

ويأتي الوافدون العرب من عدة ممالك وجمهوريات عربية ذات سيادة وذات ايديولوجيات ونظرات سياسية مختلفة . وهم ليسوا ، ولا يمكن اعتبارهم ، فئة واحدة : هي فئة الوافدين العرب . ويوحدهم عامل واحد فقط هو كونهم وافدين . غير انهم كجماعة ينقسمون وفقا لاسس اقليمية ودينية وايديولوجية . انهم سودانيون ومصريون وفلسطينيون وعراقيون وسوريون ولبنانيون ويمنيون وعمانيون . والانقسام الثاني هو على اسس طبقية ومهنية ـ اصحاب مهن من الطبقة الوسطى امثال اساتذة الجامعات والمهندسين والاطباء والمقاولين والطبقة العاملة . والانقسام الثالث ثقافي ـ ايديولوجي : ذوو النظرة العلمانية والحديثة الى المجتمع والثقافة وذوو التوجيه الاسلامي . وهكذا فانهم لا يستطيعون ان يعرضوا انفسهم كجسم جماعي لانهم ليسوا كذلك ويرفض البلد المضيف ، او لا يستطيع ، ان يعتبرهم جسما جماعيا . بيد انهم ، خلافا للجماعات المهاجرة في مجتمعات مصنعة مفتوحة (كالولايات المتحدة مثلا) ، يوجد لديهم قاسم مشترك ـ الشعور بأنهم ضيوف قصيرو الاقامة . فهم لن يبقوا هناك بصورة دائمة . ان ثمة حاجة اليهم للقيام بخدمات معينة الا انه يمكن الاستغناء عنهم في اية لحظة . ولذلك يعتبرون اقامتهم وسيلة مؤقته لجمع المال ، ولإعالة عائلاتهم في مساقط رؤوسهم بالحوالات المالية .

الا ان اقطار الخليج تعتمد الى حد كبير على الوافدين العرب ، فهم العمود الفقري للحكم في حقل التعليم ، وفي الادارة المدنية وفي الاشغال العامة ، كما في القطاع الخاص وفي حقل الاعمال . ومع انهم موجودون خارج النظام السياسي والاجتماعي ، فهم في الواقع القوة المنتجة والانتاجية في الدولة وقد نسب الى احد رسميي الامارات العربية المتحدة في وزارة التخطيط قوله : « لو صرف المصريون من الخدمة لاضطر الكثير من الانظمة المدرسية الى التوقف عن العمل ، ولو اجبر الفلسطينيون على الرحيل لتوقفت وسائل الاعلام عن العمل ، ولو طرد الجنود البريطانيون والاردنيون والباكستانيـون والبالوشيون لانهارت شبكـة الدفاع والامن الداخلي ، ولو ارغم الايرانيون والبالوشيون والباتان الذين يشكلون معظم القوة العاملة على العودة الى اوطانهم لتوقف فجأة العمل في جميع المشاريع الحيوية التي هي قيد التنفيذ كبناء الطرقات والمرافىء ومشاريع الري ومشاريع السكن والمدارس والمستوصفات الطبية »[١٣] .

ولكن على الرغم من اهمية الوافدين العرب بالنسبة الى عملية التنمية فانهم ، شأنهم شأن

---

(١٢) See W. Khalidi, «Towards an Adjustment of Political Perceptions in Arab Society», in M. Pennar (ed.), AAUG, North Partmouth, MASS., Information papers, no. 7, October, 1973, pp. 11-18 and also his «Thinking The Unthinkable: A Sovereign Palestinian State», **Foreign Affairs,** 56/4 july 1978, pp. 695-713.

(١٣) CITED IN J. D. ANTHONY, « The Impact of Oil on Political and Socio- economic Change in The United Arab Emirates», J. D. ANTHONY (ed.), **The Middle East: Oil, Polities and Development,** Washington, D. C., 1975, p. 94.

الاقنان في بلاد الاغريق الكلاسيكية ، يتوقع منهم البقاء ضمن حدود مركزهم المعين ، ولكونهم محرومين من حقوقهم المدنية فانهم مهددون على الدوام بالابعاد على البلاد اذا شاركوا في اية حركة سياسية من اي نوع ، وهكذا يميلون الى الكدح بصمت لئلا يطردون(١٤) . وليس لهم اي حق على الدولة التي يخدمون بل على العكس ، فانهم مدينون للدولة بامتياز الاقامة ، التي ينهيها الحاكم متى شاء ولاي سبب اراد(١٥) .

والى جانب كون الوافدين العرب الاغلبية ، فانهم يشعرون بانهم هم القوة الانتاجية الى حد كبير . الا انه امر يضر بالبلد المضيف وبالوافدين على السواء ان يصار الى ابقائهم بمعزل عن مؤسسة الحكم . فذلك ، من ناحية ، يضعف الحوافز الاقتصادية والمواقف من العمل ، في حين انه ، من الناحية الاخرى ، يجعل الوافدين العرب في حالة دائمة من عدم الاطمئنان والشعور بانهم في منزلة المرتزقة . ولن يكون امامهم في هذه الحال سوى سبيلين : اما اللجوء الى السلوك العدواني المكشوف كعلامة على التحدي ، او الانسحاب بغية اجتناب النزاع وبالتالي الاستسلام الى اللا مبالاة والسخرية والعدمية . ولا يساعد اي من هذه البدائل على اقامة مجتمع آمن ومعافى .

وما تزال اقطار الخليج ، على الرغم من رأسمالها النقدي ، في مرحلة الانماء الاولى . ويعود هذا الوضع الى عوامل كثيرة . احدها هو عدم وجود مؤسسة صناعية ، ويعود بصورة رئيسية الى الحجم الصغير للسكان . والعامل الثاني هو صغر مساحة البلد . وكانت المدن ـ الدول طوال التاريخ تعاني من الاسواق الداخلية الشديدة الصغر التي ارغمتها على الاعتماد على الواردات الى حد كبير . العامل الثالث هو النزاعات الخصوصية والبنية الاجتماعية والسياسية المضرة بعملية التنمية . والعامل الرابع هو اللاتوازن البنيوي الملازم للاقتصاد النفطي . فالاقتصاد النفطي ذو بعد واحد من حيث ان الايرادات مستمدة بصورة استثنائية من سلعة قابلة للنفاد ، اي النفط . وتجارة النفط ، وليس الجهد الانتاجي للعملاء الاقتصاديين كالمزارعين والشركات والمقاولين والعمال ورجال الصناعة ، هي التي تدر الثروات الاولى . وهكذا اذا كانت ايرادات النفط ليست مكافأة العمل الانتاجي ، فان « نظام الرفاه » ليس نتاج مجتمع متقدم ومتكامل . وكلا هذين الشرطين يضران بالتصنيع . وسبب هذا هو ان الحكومة ، المتلقي الوحيد لاموال النفط ، قد اضحت الهيئة النشيطة الوحيدة في بدء مشاريع اقتصادية واضطلعت بدور المقاولين الذين هم بين المسببين الرئيسيين للتغيير في المجتمعات الحديثة . ولان الحكومة هي المتلقي الوحيد لاموال النفط ، فان الناس يتوقعون ان يأتي دخلهم من الدولة ، التي توزعه بالفعل في شكل حسنات مكشوفة او مقنعة (نظام الرفاه) . وهذا ابعد ما يكون عن المثالي من وجهة نظر الحوافز الاقتصادية ، والمواقف من العمل والتنمية الاقتصادية(١٦) .

وستستمر اقطار الخليج في الاعتماد الى حد كبير على الوافدين العرب والمغتربين غير العرب (وحتى بلد كالبحرين ، التي يوجد فيها ادنى نسبة مئوية من الاجانب ، فان المجال ضيق لتوسيع الطاقة البشرية الوطنية الخاصة بذلك البلد) . وعلى الحكومات في الخليج ان تواجه المشكلات

(١٤) See F. HALLIDAY, **Arabia Without Sultans: A Survey of Political Instability in The Arab World**, New York, 1975, ch. 13.

(١٥) F. Stoakes, **op. cit.**, p. 198.

(١٦) See R. Ma[illegible]o, «Oil Revenues and the Cost of Social and Economic Development», paper given at The First Arab Energy Conference, 4-8 March, 1979, Abu Dhabi, U. A. E.

الصناعية والنفسية والاخلاقية والسياسية ، الجوهرية الناجمة عن وجود متحدين « مميزين » ضمن حدودها : احدهما اقلية لها القاب وحقوق ، والآخر اغلبية ليس لها غير امتياز واحدة هو الاقامة .

وفي الوقت الحاضر تواجه اقطار الخليج مهمة الانماء ومشكلة التحديث . غير ان التحديث هو عملية ، وهو كلٌ عضويٌ وشامل ، وبالتالي لا يستطيع ان يكون اختياريا . فالاختيارية تعطي نتائج عكسية من حيث انها تخلق تناقضات تؤدي الى اختلال النظام وعدم الاستقرار . وفي الوقت الحاضر فان الوضع في الخليج هو وضع مفعم بالتناقضات . ولكن يؤمل ان يفضي هذا الوضع المليء بالتناقضات الى ديناميكيات التغيير ، وخلال هذه العملية قديصبح الدمج ـ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ـ ضرورة لا يمكن تجنبها ترتفع الى اعلى جدول الاعمال ، لا في منطقة الخليج فحسب بل في جميع البلدان العربية ايضا .

---

[٥]
هجرة الأدمغة والطاقة البشرية العربية

د . اوجين مخلوف

مسؤول برنامج تقييم الطاقة البشرية الفلسطينية العالمية . وممثل فلسطين في الكثير من المؤتمرات والنشاطات العلمية .

سأحاول في هذه الورقةأن أقوّم مشكلة هجرة الادمغة والطاقة البشرية العربية. وتبدو الحالة، لسوء الحظ ، مثبطة للعزم وما لم نواجه المشكلات على الفور ونعالجها بحكمة ستزداد تفاقما وتؤدي الى تصعيد هجرة الأدمغة ونزوح الأيدي العاملة الماهرة النادرة . ولا تعكس هذه الحالة مشكلاتنا الفردية فحسب بل إنها تنذر بعواقب وخيمة في المستقبل على الصعيد القومي بلا إستثناء . وقبل الغوص الى قلب الموضوع أجدني مضطرا إلى الوقوف عند الخلفية من أجل فهم شامل للمشكلات . وإنني أرى أن ثمة حربا منظمة تنظيما حسنا ولكنها غير معلنة على وجود رجال الفكر العرب. وبخاصة هؤلاء الذين يعملون في الحقول التقنية والعلمية . إنها حرب من أجل ما يوجد تحت التراب العربي من ثروات طبيعية وما فوقه من طاقات وامكانات عربية .

ونحن جميعا ندرك أن الانتداب والإدارات الاستعمارية في جميع أنحاء الوطن العربي ، عندما وضعت سياساتها البعيدة المدى في السنوات الأولى من هذا القرن ، إنما كانت تعتزم البقاء الى ما لا نهاية . وادراكا منها لبدايات الو عي القومي العربي ولخطر قيام أمة عربية موحدة ومستنيرة ، فضلا عن خطر تحرير الوطن العربي بالنسبة الى خطوط تموينها والفوائد الجمة التي تجنيها من المستعمرات ، فقد عمدت الى تقسيم المنطقة الى دول ومن ثم الى دويلات تتنازعها أحقاد وخلافات وشكوك عميقة الجذور ، وزرعت اسرائيل وأثارت المتاعب والنزاعات . ونتيجة لذلك ازدادت العلاقات بين البلدان العربية سوءا ، وتوالت الانقلابات العسكرية ، وشنت اسرائيل حروبا عدوانية ضد العرب

فضلا عن « حروبها الوقائية » ، والاقتتال الطائفي في لبنان وغيره الخ . وكان هذا العامل الطائفي سببا لهجرة الادمغة في كثير من البلدان العربية . وكان أحد العوامل الأخرى هو الزيجات المختلطة التي تتناول إما أشخاصا ينتمون إلى طوائف أو مذاهب دينية مختلفة ، أو إلى جنسيات مختلفة . ولهذا السبب فان علمنة الدولة ، كخطوة للقضاء على الوجه الطائفي في المؤسسات ، لا بالمعنى المعادي للدين ، هي مطلب أساسي .

كان لكل ما سبق ذكره هدف واحد : إضعاف الطاقة والامكانات العربية عن طريق شق وتقسيم البلدان العربية للتسبب في هجرة الادمغة العربية ـ وهي أدمغة كل ما تحتاج إليه هو الأمان والسلام لتبدع ، لأن الطاقة المادية التي هي المال ، موجودة . ان تفكك الوطن العربي لا تصنعه بالضرورة خطوط يرسمها على الخرائط أشخاص أمثال سايكس وبيكو بل يصنعه أيضا تقسيم المجتمع العربي بواسطة الخلافات الدينية أو الثقافية . ويتم تحقيق التفكك أيضا بوسائل القرن الحادي والعشرين ، وهي استنزاف طاقة بلد من البلدان بافراغه من طاقته البشرية بحيث لا يعود ثمة مجال لإحراز المزيد من الانتصارات المشابهة لانتصار حرب تشرين الأول (اكتوبر) .

وإننا نجد ، من ناحية ، أن تسهيلات كثيرة تمنح لتشجيع الأدمغة العربية على الهجرة الى الغرب ، في حين أن السياسة في الوطن العربي كانت ، من الناحية الاخرى ، تعمل على تصدير خريجي الجامعات . ونعلم بالطبع أن التربية والمدنية تسيران يدا بيد في تطور بلد من البلدان ، خصوصا في العالم النامي حيث تزداد ظاهرة الانقسام الاجتماعي بروزا نتيجة للفوارق الهائلة في المقاربة وفي الذهنية بين المواطن المثقف ثقافة جامعية وبيئية . وكيف يعقل ألا تكون لدينا هجرة أدمغة في الوقت الذي يعرف مفكرونا عن أمريكا وفرنسا وانكلترا ، وتواريخها ، أكثر مما يعرفون عن بلادهم ؟ كما أنهم يتجاوبون مع السلوك الغربي أكثر مما يتجاوبون مع سلوك بلدانهم ؟ ولهذا أرى أن المفكر وخريج الجامعة هو نبتة ترى غصونها النور تحت سماء بلادنا بينما جذورها مغروزة في تربة أجنبية . وسواء كان النظام التربوي على المستوى الابتدائي أو الجامعي ، فان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار تقاليد البلد وثقافته ، مكيفا نفسه وفقاً لاحتياجات الانماء والتطور ، لكي لا تكون حضارتنا نسخة طبق الاصل عن حضارات لا تنسجم من أهدافنا وتطلعاتنا وتتخطى امكاناتنا الفعلية التي ستؤدي الى الهجرة نظرا الى انعدام الفرص . وفي الواقع إن ما تدعو إليه الحاجة فورا هو إيجاد إتجاه جديد نحو تنشئة خريجي جامعات يتمتعون بصفات القيادة ، ليصبحوا النواة التي تدور حولها الطاقات الكامنة . ولسنا بحاجة الى خريجين نتحمل مسؤولية وعبء العثور على أعمال لهم . فخريجو الجامعات يجب أن يكونوا قادرين على خلق أعمال ومنظورات جديدة .

والواقع اننا ، رغم ثرائنا ، ما نزال بلدا فقيرا ، أو بالأحرى بلدا ثريا ينتمي الى العالم الثالث . ونحن بحاجة لأن نقوّم خريجي جامعاتنا وفنيينا وعمالنا المهرة . ويجب أن يكون التقويم شاملا بطريقة علمية مدروسة لاحتياجات شعبنا ، ولتطوره الديموغرافي ، ولاتجاه حياته ، ولحاجة الأمة الى نوع وكمية الخريجين ورجال الفكر . فان مثل هذا التقويم ، على سبيل المثال ، يمكن أن يساعد خريجي الجامعات الفلسطينيين على إقامة علاقات بينهم وبين « المركز الأم » ، ومن ثم بين الخريجين أنفسهم بغية خلق حاسة انتماء طالما أن التراب الوطني والسلطة الوطنية غير متوافرين .

غير أن الفوضى المسيطرة على التعليم الجامعي تكشف عن عدم وجود التخطيط لأجيال

المستقبل . ويتكيف خريجو الجامعات الاخصائيون هؤلاء وفقا للمفاهيم الغربية التي يمكن أن تخدم احتياجات المجتمع الاستهلاكي . فقد نال معظم الخريجين شهاداتهم في موضوع أو آخر لا لأن ثمة طلبا على ذلك الموضوع بل لأن المنزلة العائلية أو القبلية أو الناحية المالية كانت الدافع الموجه ، أو نظرا لعدم وجود بدائل أخرى . ويمكن أن تختفي ذات يوم جميع الموارد الطبيعية في ما عدا الماء والبشر . فهذان الموردان الأخيران هما الثابتان الوحيدان . ولا يتألف البلد من المناجم والماء فحسب ، بل هناك أيضا الانسان وعمله وهما يؤلفان الطاقة البشرية الكامنة . وهناك في الكثير من البلدان موارد طبيعية بحاجة الى استغلال أكثر مما يستطيع البشر الإفادة منها ، في حين يخيل إلي أن في الوطن العربي ، (باستثناء بضعة بلدان) عددا من الرجال ذوي المستوى العالي من التعليم يفيض عما تستطيع الموارد أن تستوعبه . ولهذا السبب يجب أن يؤخذ التخطيط بعين الاعتبار وأن نكيفه ، لا وفقا لما نريد أن نحققه ، بل وفقا لما تسمح به إمكاناتنا ولما تدعونا الحاجة الى تحقيقه .

كما يجب إنماء البنية السفلى ارتكازا الى الطاقة البشرية الحقيقة . لهذا تأخذ المعادلة الأساسية الشكل التالي : ما هو تصورنا للمجتمع الفلسطيني ؟ كم عدد الخبراء والعمال المهرة والتقنيين الموجودين لدينا ؟ ما هي احتياجاتنا فيما يتعلق بأمثال هؤلاء الخريجين ؟ وتكتمل معادلتنا بهذه الأسئلة الأساسية الثلاثة . وندرك جميعا أن التقويم والدراسات المسحية الاحصائية هي المفتاح الذي تفهم الأمم بواسطته احتياجاتها وإمكاناتها وطاقتها فهما علميا سليما . وتتوقف قوة أية أمة وطاقتها على النمو على ما تملكه من طاقة بشرية عالية المستوى ، وعلى نوعيتها وتوزيعها ، وعلى طريقة تنظيمها واستخدامها . .

وطالما بقينا نستورد سنستمر في الاعتماد على المصدرين من أجل الصيانة وقطع الغيار . فنحن في أفضل الحالات ما نزال في طور التقليد . وما برح طور الخلق بعيدا عن متناولنا . وطالما بقينا نعتمد على الآخرين من أجل التنمية ، فسوف نستمر في أن نكون شعبا من شعوب العالم الثالث . لنوقف الواردات في ما عدا ما توجد حاجة ماسة اليه من أجل بقائنا . وفي هذه الحال سيصار الى خلق الصناعات من الاحتياجات . ويجب أن لا ننسى أبدا أن الحاجة هي أم الاختراع . وهكذا يحل الابداع مكان التقليد . ويحل التقليد مكان الواردات . وهكذا تتم موازاة وتطبيع علاقة الطاقة البشرية بالموارد والاحتياجات .

ولما كان خريجو الجامعات في الشرق على اتصال بالحداثة والثقافة الغربية ، فقد وجدوا أنه من الأسهل عليهم الاندماج بالعالم الغربي من أن يعودوا الى أوضاع الحياة « المتخلفة » . والأمر الآخر الذي يعزز رفضهم الانتماء الى ماضي متخلف وقديم هو التسهيلات الكثيرة التي تقدم لهم في البلد الجديد ، بما فيها اتاحة الفرصة أمامهم لكي يندمجوا إندماجا تاما في المجتمع عن طريق الزواج من مواطنات (أو مواطني) ذلك البلد . وهؤلاء الأشخاص أنفسهم الذين يغادرون أوطانهم ليدرسوا في الخارج هم على العموم صغار السن الى حد يكفي لامتصاص أوضاع الحياة الجديدة كليا وللتكيف وفقا للبيئة الجديدة . إلا أنهم بعد الهجرة بخمسة أعوام أو عشرة يجدون أنفسهم كالغرباء مقتلعي الجذور من مجتمعهم الأصلي بحيث أنهم يتصرفون كالغرباء حينما يعودون الى وطنهم الأم .

كان الفقير في الماضي هو الذي يسعى الى رزقه تحت سماء أجنبية ، فيها جر الى الأميركيتين وافريقيا بحثا عن العمل . أما الآن فان رجل الفكر والمهندس والطبيب هم الذين ينشدون بلدانا غير بلدهم من أجل العمل . وتغريهم بالهجرة ، فضلا عن الشهادة العلمية المطلوبة ، المرتبات

والتسهيلات الجذابة (مختبرات الأبحاث الخ) والاعتبار الصحيح الذي يواجهون به ، وبالدرجة الأولى ، الشعور بالاطمئنان فيما يتعلق بمستقبلهم ومستقبل عائلاتهم . هذا النوع من الهجرة هو الذي يثير المخاوف لأن هؤلاء الأشخاص لن يعودوا الى بلدانهم . فقد هاجروا بنية عبور نهر اللاعودة . وتعرض عليهم المواطنية ويمنحون نفس الحقوق التي يتمتع بها أي فرد في البلد الجديد .

وكما بات واضحا ، فقد عملت الامبريالية في منطقتنا وفقا لقاعدة « فرق تسد » . ولكي تحقق البلدان الامبريالية أغراضها ، لجأت الى عدة تطبيقات متوازية ، منها : خلق أنظمة تربوية وثقافية مختلفة من شأنها أن تجعل السوري « أجنبيا » بالنسبة الى العراقي أو الأردني بقدر ما هو بالنسبة الى التركي أو الايراني ؛ إعاقة إنتشار التعليم العالي حيثما أمكن ذلك ، مع تشديد خاص على عرقلة التدريب المهني ، خلق قيادات تكون مطية لقمع المواطنين والسيطرة عليهم . وفي اختيارها لمثل هذه القيادات ، كان الجهل والفساد هما أفضل المؤهلات في نهاية المطاف .

وحينما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، ومع النهاية المفاجئة للامبراطوريات الاستعمارية ، فان جميع الأقطار العربية ، باستثناء الجزائر التي خاضت حرب تحرير مريرة ودموية ، منحت استقلالها مع وجود الطبقة السالفة الذكر من القيادات الجاهلة والفاسدة وراء دفة الحكم - وكانت معتمدة وعاجزة وتحت السيطرة التامة لأسيادها . وفي الواقع ، فقد ولدت كدول بوليسية تتخفى بقناع الديموقراطية الزائفة - ويا لها من ديموقراطيات فرانكنشتانية ! . ومن الطبيعي أن مثل هذه القيادات الضعيفة والرديئة التي تولت السلطة في معظم البلدان بعد الاستقلال لم تحقق الشيء الكثير عدا توسيع شقة الخلافات والنزاعات والأحقاد ، لا بين البلدان الشقيقة فحسب ، بل بين مواطنيهم أيضا في البلد الواحد .

صحيح أن بعض الانقلابات العسكرية في بعض الأقطار حملت الى سدة السلطة قيادات نشيطة وغيورة وحسنة النوايا ، لا ريب في أنها زادت من تطور بلدانها ، الا أنها خلقت بدورها مجموعة جديدة من الخلافات الايديولوجية التي صارت تحكم العلاقات بين الأقطار العربية . ولم يكتف البعض منها بتصعيد حدة الخلافات ولكنه تبنى اجراءات حاسمة ضد الأيدي العاملة الوافدة من البلدان الشقيقة ، كالإبعاد الجماعي وغيرها . ومع أنها تبذل قصارى جهدها فانها ستحتاج الى بعض الوقت قبل أن تتمكن من تخليص إداراتها من الفساد وعدم الكفاءة ، والأمر الأهم هو أن تتعلم أن تثق في الأدمغة العربية .

وكما نعلم ، فان الأقطار الغنية بالنفط هي المتعطشة الى الأيدي العاملة من كل نوع ونوعية أكثر من غيرها . والأقل حظا هي البلدان ذات الكثافة السكانية العالية بما لها من احتياطات بشرية غنية وأنظمة أقل اوتوقراطية . إلا أن هذه الأقطار ، نظرا الى حاجتها الشديدة الدائمة بالنفط ، نادرا ما تطالب ببعض الحقوق ، لكي لا نقول الامتيازات ، لرعاياها . وتبقى سفاراتها دائما خانعة فلا تلتمس الحماية لرعاياها .

أفضت هذه الأمور الى مجموعة من المشكلات الخطيرة التي تواجه عودة مفكرينا الى أوطانهم . وفي ما يلي بعض هذه المشكلات :

١) بالنظر الى الخلافات والأحقاد المستديمة ، فان المواطنين العرب ، ولا سيما رجال الفكر ، مشتبه بهم في معظم الأقطار العربية . أفليسوا قادرين على توعية وتنوير إخوتهم العرب فيما يتعلق

بحقوقهم السياسية وعلى توسيع مطامحهم ، ان لم يكن بفضل القاسم المشترك الذي يجمعهم بهم ، فعلى الأقل بفضل عدم وجود حواجز لغوية ؟

٢) أو ليس صحيحا أن القيادات الجاهلة أو مخلفات الماضي الاستعماري لم تتحرر بعد من مركب النقص لديها إزاء المستعمرين الغربيين السابقين وما تزال تنظر الى رعاياهم كأسياد ؟ ولهذا السبب نلاحظ أن بعض الأقطار أكثر استعدادا للقبول بالنظير الغربي من الخريج العربي وان يكن أقل منه تدريبا وخبرة ، كما أنها أكثر استعدادا لأخذ رأيه على محمل الجد ، والى ذلك تخصص له مكافأة مالية تفوق مكافأة العربي أضعافا .

٣) ان جميع الأقطار المتعطشة الى الأيدي العاملة تعمد بصورة متواصلة الى وضع قوانين وأنظمة تهدف الى تشديد السيطرة على الوافدين العرب أو الى منح الحد الأقصى من الحقوق والامتيازات لرعاياها وموظفيها هي ، حتى الى حد التجاوز في معاملتهم لاخوتهم أبناء البلدان العربية الشقيقة . وفي ما يلي أورد بضعة الأمثلة : (أ) فهي جميعها بلا استثناء تفرض قيودا على التدفق الحر للأيدي العاملة . وهي تشترط حصول الوافدين العرب على تأشيرات عمل يكفلها أحد الرعايا المحليين . (ب) لا يسمح لأي صاحب مهنة بأن يمارس عمله إلا إذا كان له شريك محلي ، أو بموجب عقد عمل وهمي . ولذلك فان الشريك المحلي ، دون أي رأس مال أو مؤهلات عدا عن التأشيرة ، ينال حصة كبيرة من الأرباح أو الايرادات الاجمالية مهما كانت الاتفاقية . (ج) في بعض البلدان ، لا يسمح للعامل بأن يغير رب عمله أو كفيله المحلي حتى بموافقة هذا الأخير دون أن يضطر الى مغادرة البلد لفترة طويلة ولذلك فان الفرص الافضل للعمل غير ممكنة. (د) تعين بعض البلدان حدا أقصى لوجود رعايا بعض الأقطار العربية ، وذلك عادة تأثرا منها بتقلب العلاقات بين الحكومات .

٤) بسبب الحواجز اللغوية ، فان الأيدي العاملة المغربية غير مؤهلة للعمل في بلدان النفط المشرقية التي تعتمد الانكليزية لغة ثانية لها .

٥) لا تخصص البلدان العربية أموالا للابحاث . لأن معظمها دول بوليسية أو شبه بوليسية فانها لا تنظر بعين الرضى الى المنشورات الفكرية والمهنية ، والى الاجتماعات والمؤتمرات . ومن الطبيعي أن يخلق هذا مناخا لا يشجع رجال الفكر أو أرباب المهن ذوي التخصص العالي . وبالاضافة الى ذلك ، هناك اعتقاد مركز وعميق بين الزعماء والحكام العرب بان « الأجنبي » هو تقني وعالم أفضل ، في حين نعرف أن الكثيرين من علمائنا منعوا من احتلال مراكز عالية في الوطن العربي ، علما بأنهم يتولون مناصب رئيسية في حقولهم في الولايات المتحدة وغيرها . وقد خلقت جميع الحقائق السالفة الذكر اتجاها مؤسفا لهجرة الأيدي العاملة . ولا سيما رجال الفكر وأرباب المهن ، في اتجاه نصف الكرة الأرضية الغربي حيث الاندماج والأوضاع الحياتية أسهل بكثير . فهناك لا يلقى المهاجرون الترحاب ويعاملون على قدم المساواة مع أبناء البلاد الأصليين فحسب ، بل تقدم لهم أيضا شروط أفضل مما كانوا يتوقعون .

وقد أوجد الارتفاع السريع والفجائي في ايرادات النفط منذ العام ١٩٧٤ معيارا جديدا تماما . فقد صارت التطلعات الى الانماء حقائق واقعة . وشرعت كل دولة في برنامج انمائي طموح من جميع النواحي . وبعض هذه البرامج هو من الرحابة بحيث أن الأمر الوحيد الذي يعوقه ويؤخره هو أن البنية التحتية عاجزة عن القيام بالعبء . وقد أوجد هذا طلبا ضخما لا مثيل له على الأيدي العاملة من كل

مهنة ومهارة . ويوسع المرء أن يفترض أن هذا الطلب الذي لا يمكن إشباعه سيستمر لأجيال عدة . ففي حين أن صناعة البناء ستشهد في نهاية المطاف تراجعا عن الذرى الحالية ، فان حقل الصيانة سيستمر في النمو . وسيحافظ تشييد المدارس والجامعات والمستشفيات والمصانع الجديدة ، فضلا عن المنشآت في كل حقل آخر ، على طلب مواز مستمر على الخبرات والأيدي العاملة المختلفة لتجهيزها والقيام بخدمتها .

كما أن ما تدفق من فيض الموارد المالية الى البلدان العربية الشقيقة الأقل حظا قد خلق حالات ازدهار ولكن بصورة أبطأ ، ويشير الطلب في هذه البلدان عينها الى نمو سريع ومستمر ومشجع . وحتى مصر ، وهي المصدر الرئيسي للايدي العاملة في الوطن العربي تواجه الآن نقصا خطيرا في الكثير من المهارات ، خصوصا في صناعة البناء .

وعلى الرغم من رؤوس الأموال الضخمة التي تنفقها الأقطار الغنية بالنفط على جبهاتها الداخلية والهبات المالية التي تقدمها للبلدان الأخرى ، فانها تجمع الاحتياطات النقدية بسرعة تفوق السرعة التي تستطيع أن تستثمر بها أموالها . وهذه الاحتياطات ، على أساس الفرد ، هي الآن الأعلى التي تم تسجيلها في التاريخ البشري . ويصار باستمرار الى خلق عدد كبير من شركات التثمير . وتملك بعض هذه الشركات كليا وزارات المال ، ويملك البعض الآخر القطاع الخاص ، وثمة نوع ثالث مختلط . وبعضها يتمتع بادارة حسنة ، وبعضها الآخر سيء الادارة بسبب الاهمال أو الجهل . الا أن القسم الأكبر من الأموال العربية يصار الى توجيهه على العموم الى سندات خزينة ومصارف ضمن عدد محدود من بلدان نصف الكرة الأرضية الغربي . ويتم هذا تحت ستار نظرية اعادة تدوير البترو - دولارات لصيانة اقتصاد العالم الحر . وتؤثر في هذا الاتجاه وتعززه المشورات المضللة التي تسديها جحافل ما يسمى بالخبراء والمستشارين الغربيين . على أن هذه الأموال عينها ، أو بالأحرى قسما كبيرا منها ، يستخدم لتقديم الهبات المالية المباشرة والمعونة العسكرية والتمويل لأجل طويل الى اسرائيل - الطفل المدلل للولايات المتحدة والامبريالية . وينبغي على خزانات الأقطار الغنية بالنفط والشركات الخاصة ، بالأحرى ، أن توجه بصورة طوعية جزءا من مواردها المالية الضخمة والمتراكمة بسرعة الى البلدان العربية الأقل حظا وتثمرها في حقول عديدة ، منها الصناعات الخفيفة والمتوسطة ، والسياحة ، والعقارات وغيرها . ويدرك الجميع أن مجالات التثمير هذه تتميز بعائدات وأرباح أعلى من المتوسط ، لا لأن هذه الأقطار عينها هي أسواق مفتوحة تماما ولديها كثافة سكانية فحسب ، بل أيضا لأنها تشكل مستودعات غنية من الأيدي العاملة الذكية والمثقفة وذات الأجور المعقولة ، فضلا عن كونها متيسرة بسهولة ومستعدة للتعلم ومجتهدة في العمل ومنتجة . ويقترن هذا بتكاليف اخرى معقولة بالمقارنة مع التكاليف في الدول المموِلة وغيرها .

ويدرك العالم الغربي ، كما تدرك اسرائيل ، الطاقة الكامنة الهائلة للمواهب العربية والأموال العربية والأسواق العربية . صحيح أن بضعة بلدان أو مؤسسات تبحث عن هذه الطاقات في الوطن العربي لارضاء احتياجاتها ، الا أن هذه الجهود تبقى عرضية . فهل كان ادراك مدى ضخامة الموارد وتأثيراتها الايجابية على مصالحها هو الدافع وراء الحملة الرامية الى إفراغ الوطن العربي من أدمغته وعماله المهرة ؟ أنا أرى أن ثمة حربا منظمة تنظيما حسنا ، وان تكن غير معلنة ، ضد رجال الفكر والثقافة العرب ، وبخاصة هؤلاء الذين يعملون في الحقول التقنية والعلمية في وطنهم . انها حرب تهجير الأدمغة . ولا تقف أهدافها عند حد اعاقة أو تأخير تنمية الامبراطوريات الاقتصادية ، بل تتعداها الى

محاولة إجهاض الولادة . وتتم هذه المحاولة بعدد من الطرق منها : تدمير لبنان كمركز مالي وإلغاء دوره في تنمية المشاريع العربية ؛ تشتيت جميع الأدمغة والعمال المهرة . فالتقديرات التي تتناول الهجرات الدائمة الى كل من كندا واستراليا والولايات المتحدة فقط منذ ١٩٧٥ تتراوح بين ٢٨٠ ألفا ونصف مليون نسمة . وحتى بضع مئات الألوف من النخبة المثقفة والماهرة ، بالنسبة الى بلد يتألف من ثلاثة ملايين نسمة ، هو رقم مذهل ، وسيحتاج لبنان الى عدة أجيال لتعويض الخسارة . كانت هذه هي الحرب غير المعلنة وقد دبرتها باتقان وشنتها اسرائيل والصهيونية ضد الوطن العربي ولا سيما لبنان الذي كادت بنيته السفلى الحيوية تدمر تدميرا كليا .

الا أن الصورة التشاؤمية التي عكستها الحقائق السالفة الذكر والمتصلة بماضينا المباشر يجب الا تجعلنا نيأس . ويجدر بنا أن ننسى ونسامح ، وأن نعقد الأيدي ونبني معا عهدا جديدا في تاريخ العرب وننظر بتفاؤل الى النجاح والى مستقبل عظيم . كما يجب أن نشعر بالاعتزاز لأن جيلنا لم يستسلم بل أثبت أنه يتمتع بالمرونة وبالقدرة على التكيف ، وليسهم كل واحد منا في ولادة النهضة العربية الثانية . ولست أرى مجرد وميض من الأمل ، بل أبصر أفقا واسعا مشرقا ، اذ لا شيء من صنع الانسان يمكنه أن يمنع التطور . وذلك لأن جيلا جديدا من خريجي الجامعات المتنورين والأذكياء والوطنيين والمتصفين بنزاهة هي فوق الشبهات ، والمتحررين تحررا تاما من مخلفات الانقسامات والاحقاد الماضية ، قد اخذوا يعودون بأعداد كبيرة ، خصوصا الى البلدان الغنية بالنفط ، لينضموا الى زملائهم الذين تخرجوا قبلهم ولينتشروا بسرعة في الدوائر الحكومية والمؤسسات العامة والخاصة . وهم ليسوا في مركز السيطرة بعد ، الا أن الدلائل تشير الى أن « الطاقم القديم » من أبناء الجيل القديم الجاهل الذي أساء ادارة الدول المختلفة فضلا عن الشؤون القومية قد ابتدأ يفر مذعورا . وهذا التطور الذي لم يحسب له حساب هو على الأرجح الفرصة الأخيرة ، لا بالنسبة الى الوطن العربي بأسره فحسب ، بل أيضا بالنسبة الى كل واحد منا .

---

[٦]
الطاقة البشرية العلمية العربية في الولايات المتحدة

الان فكتر

من خبراء المؤسسة العلمية الوطنية الاميركية

كانت ظاهرة الهجرة الدولية للطاقة البشرية العالية المستوى خلال العقدين الماضيين من الزمن موضع اهتمام بالنسبة الى كل من البلدان المتقدمة والنامية نظرا الى اثرها في الانماء ونقل التكنولوجيا . وتقلق البلدان النامية بنوع خاص لعواقب خسارات مثل هذه الموارد البشرية العالية المهارة بالنسبة الى كفاية المهارات المتوافرة لدعم وتشجيع النمو الاقتصادي ولتوفير المهارات المطلوبة لحفز هذا النمو عن طريق الأجيال المقبلة .

وتقوم المؤسسة العلمية الوطنية بمسؤولية تقديم وتحليل المعلومات حول اعداد واستخدام

العلماء والمهندسين في الولايات المتحدة . وكانت المؤسسة كجزء من هذه المسؤولية ، تجمع المعطيات حول هجرة العلماء والمهندسين الى الولايات المتحدة . وهذه المعلومات ، التي يتم الحصول عليها من دائرة الهجرة والتجنيس الأميركية ، تصف التدفق السنوي للعلماء والمهندسين ، وأكثر اهتمام المؤسسة بهؤلاء الأشخاص الذين يدخلون الولايات المتحدة كمهاجرين - أي كأشخاص يتمتعون بالحقوق الشخصية للاقامة الدائمة في الولايات المتحدة . كما أن دائرة الهجرة والتجنيس تجمع المعلومات لتصف التدفق السنوي لغير المهاجرين - أي الأفراد الذين يسمح لهم بالدخول للاقامة المؤقتة على اختلاف فئاتها . وتشمل هذه الفئات الزائرين والطلبة القادمين على أساس التبادل الثقافي مع الدول الأخرى والذين يعملون أو يدرسون العلوم والهندسة .

وستلخص هذه الدراسة المعلومات التي جمعت من مهاجرين قادمين من البلدان العربية . ويوضع التشديد على المهاجرين القادمين الى الولايات المتحدة لأن القلق من هجرة الادمغة يعكس القلق حول الهجرة الدائمة (لا المؤقتة) . ومن الواضح أن العلماء والمهندسين العرب الذين يدخلون الولايات المتحدة كمهاجرين أنما يعكسون قرارات دائمة ، علما بأن غير المهاجرين قد يتحولون هم ايضاً في نهاية المطاف الى مهاجرين أو قد يبقون في الولايات المتحدة بصورة غير شرعية بصفة اقامة مؤقتة .

خلال الفترة ١٩٦٦ - ١٩٧٧ ، دخل الولايات المتحدة ، كمهاجرين ، نحو ستة آلاف عالم ومهندس كانوا قد ولدوا في بلدان عربية . وكان العلماء والمهندسون المهاجرون من البلدان العربية يؤلفون على وجه التقريب ٥٪ من جميع العلماء والمهندسين المهاجرين الذين دخلوا الولايات المتحدة خلال هذه الفترة ، كما كانوا يمثلون على وجه التقريب ٥٪ من جميع تأشيرات الهجرة الصادرة عن هذه البلدان . وكان ما ينوف على ثلثي هؤلاء العلماء والمهندسين المهاجرين من المهندسين ، بينما كان ما ينوف على الربع علماء طبيعة وكان الباقون علماء اجتماع . وكانت مصر هي المصدر الرئيسي للعلماء والمهندسين المهاجرين الى الولايات المتحدة من البلدان العربية ، وقد قدمت نحو ثلثي المجموع . وكانت المصادر الرئيسية الأخرى : العراق ولبنان ، فقدم كل منهما أكثر من ١٠٪ من المجموع ، وسوريا والأردن ، وقد قدم كل منهما أكثر من ٥٪ من المجموع ، وفلسطين العربية التي قدمت نحو ٤,٥٪ من المجموع .

أما متوسط عدد العلماء والمهندسين الذين ولدوا في البلدان العربية ودخلوا الولايات المتحدة كمهاجرين فقد بلغ أكثر بعض الشيء من ٤٨٠ سنويا خلال هذه الفترة ، وارتفع عشرة أضعاف من ١٦٢ في ١٩٦٦ الى ١٢١٥ في ١٩٧٠ ، وانخفض بعد ذلك الى ٢٧١ في ١٩٧٤ ، ثم ارتفع من جديد الى أكثر من ٤٠٠ في ١٩٧٧ . وتوجد اتجاهات مماثلة في كل من البلدان العربية التي كانت مصادر رئيسية للعلماء والمهندسين المهاجرين . كما أن الزيادة الحادة في هجرة العلماء والمهندسين العرب الى الولايات المتحدة بين العام ١٩٦٦ و١٩٧٠ عكست جزئيا عوامل كانت تؤثر في الهجرة الاجمالية من البلدان العربية ، التي ارتفعت ثلاثة أضعاف خلال هذه الفترة . وكان أحد الأحداث البارزة التي وقعت خلال هذه الفترة هو سن القانون العام ٤١٤ في السنة ١٩٦٥ وقد حل هذا القانون مكان النظام السابق الذي يخصص تأشيرات الهجرة بحسب البلد - حصص مقننة محددة لها نظام أفضليات اقليمية . ويبدو أن النتيجة النهائية لهذا التغيير كانت اعادة توزيع حصص الهجرة الى الولايات المتحدة من أوروبا ونصف الكرة الأرضية الغربي الى القارتين الاسيوية والافريقية ، مع تقاسم منطقتي الشرق الأوسط وشمال

إفريقيا المكاسب المستمدة من هاتين القارتين .

اذا سلمنا بأن التغيير في نظام توزيع حصص التأشيرات الموجز أعلاه كان مسؤولا عن الزيادة في الهجرة الاجمالية من هذه البلدان العربية ، فبامكان المرء الاستنتاج بان نحو أربعين بالمئة من الزيادة بين العام ١٩٦٦ والعام ١٩٧٠ في العدد السنوي من العلماء والمهندسين العرب المهاجرين الى الولايات المتحدة يمكن عزوها اليه . وتعكس الزيادة الباقية ـ ما ينوف على ٦٠٪ من مجموع الزيادة ـ عوامل خاصة بهؤلاء العلماء والمهندسين . ومما لا ريب فيه أن هذه العوامل تشمل الأوضاع الاقتصادية والسياسية في الولايات المتحدة وفي بلدانهم الاصلية . ومن المحتمل أن أوضاع الطلب الشديد نسبيا التي كانت قائمة بالنسبة الى العلماء والمهندسين في الولايات المتحدة خلال الستينات كانت عاملا تفسيريا مهما يسهم في هذه الزيادة الباقية .

وقد عكس الانخفاض الكبير في هجرة العلماء والمهندسين العرب الى الولايات المتحدة ، الذي طرأ بين العام ١٩٧٠ والعام ١٩٧٤ ، عوامل كانت تؤثر في هجرة العلماء والمهندسين من جميع البلدان ، الأمر الذي جعل الهجرة خلال هذه الفترة تنخفض بنسبة تزيد على ٥٠٪ . وجرى تعديل سياسة الهجرة للعام ١٩٦٥ ، المحددة في القانون العام ٤١٤ ، من جديد في ١٩٧١ . فبدافع من مستويات البطالة الآخذة في الارتفاع ، صار القانون المعدل يتطلب عرضا محددا للعمل أو تأكيدا بأن الهجرة لن تؤثر تأثيرا مناوئا في أصحاب المهن الأميركيين قبل أن يقبل طالب الهجرة الى الولايات المتحدة على أساس النقص الخطير في مهنته . وقد أزيلت مهن العلوم والهندسة من قائمة المهن التي اعتبر أنها تعاني نقصا خطيرا وذلك نتيجة للمعدلات العالية نسبيا من البطالة التي كان يقاسي منها العلماء والمهندسون في الولايات المتحدة في ذلك الحين . وهكذا ، مع انه كان باستطاعة العلماء والمهندسين الهجرة الى الولايات المتحدة على أساس صفات تفضيلية أخرى ، فانه لم يعد بامكانهم استخدام مهنتهم كشروط كافية للدخول . واذا سلمنا بان التغييرات في التفصيلات المهنية وأوضاع السوق الملخصة آنفا كانت مسؤولة عن الانخفاض في هجرة العلماء والمهندسين من جميع البلدان الى الولايات المتحدة خلال الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤ ، امكننا الاستنتاج بان الانخفاض كله لهذه الفترة نفسها في العدد السنوي للعلماء والمهندسين العرب المهاجرين الى الولايات المتحدة يمكن عزوه الى تلك التغييرات عينها . ويعكس الانخفاض الباقي الصغير عوامل خاصة بالدول العربية التي جاء منها هؤلاء العلماء والمهندسون .

ويبدو ان الزيادة البطيئة والثابتة في هجرة العلماء والمهندسين العرب الى الولايات المتحدة التي شهدتها الفترة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٧ تعكس هي أيضا زيادات مماثلة كانت تحدث في عدد العلماء والمهندسين المهاجرين الى الولايات المتحدة من جميع البلدان ـ العربية منها وغير العربية . وازدادت الهجرة الى الولايات المتحدة بنحو ٢٠٪ خلال هذه الفترة بالنسبة الى العلماء والمهندسين من جميع البلدان . أما الزيادة بالنسبة الى العلماء والمهندسين من البلدان العربية فكانت ٥٠٪ . وتعكس الثلاثون بالمئة الاضافية عوامل اقليمية تميل الى زيادة حصة العلماء والمهندسين المهاجرين من البلدان العربية الى الولايات المتحدة .

وكان توزيع العلماء والمهندسين العرب الى الولايات المتحدة بحسب بلد الولادة آخذا في التغير . وكما لاحظنا آنفا فان أكثرية المهاجرين جاءت من ستة بلدان ـ مصر والعراق ولبنان وسوريا والاردن وفلسطين . فهذه البلدان قدمت ما يقارب ٩٥٪ من هجرة العلماء والمهندسين المولودين في البلدان

العربية الى الولايات المتحدة خلال الفترة ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧ . وشهدت الهجرة من مصر تقلبات أكبر نسبيا من تقلبات الهجرة من البلدان العربية الرئيسية الأخرى . فبين العام ١٩٦٦ و١٩٧٠ ، عندما كان عدد العلماء والمهندسين العرب المهاجرين الى الولايات المتحدة يتزايد ، ازدادت حصة المهاجرين من مصر من ٣٥٪ الى نحو ٧٥٪ . وانخفضت هذه الحصة من ١٩٧٠ الى ١٩٧٤ ، فهبطت الى ٤٥٪ في نفس الوقت الذي كان فيه مجموع هجرة العلماء والمهندسين العرب آخذا في الهبوط . وباستثناء ١٩٧٥ ، عندما ارتفعت الحصة المصرية الى أكثر من ٥٠٪ ، بقيت هذه الحصة مستقرة بشكل معقول عند نسبة ٤٥٪ بين العام ١٩٧٤ والعام ١٩٧٧ .

وبما ان مصر تفوق البلدان العربية في شمال افريقيا في عدد العلماء والمهندسين المهاجرين الى الولايات المتحدة ، فلا معنى لبحث نمط الهجرة الذي لوحظ بين هذه البلدان . غير ان أنماط الهجرة التي لوحظت بين البلدان العربية في الشرق الأوسط قد تغيرت بطرق بارزة . وتشير معطيات الهجرة بنوع خاص الى أن العراق ولبنان قد تقاسما دور المصدر الرئيسي للعلماء والمهندسين من هذه المنطقة من العالم الى الولايات المتحدة . فمن ١٩٦٦ الى ١٩٧١ كان العراق المصدر الرئيسي ، مقدما ٢٥٪ من الهجرة السنوية من هذه المنطقة في ١٩٦٦ . ومن ١٩٧١ حتى ١٩٧٧ حل لبنان محل العراق بوصفه المصدر الرئيسي من هذه المنطقة ، مقدما نحو ٢٥٪ من الهجرة السنوية من هذه المنطقة في ١٩٧٧ . وبوسع المرء أن يتكهن بأن الزيادة في الهجرة من لبنان التي طرأت بعد ١٩٧٣ كان الدافع اليها (جزئيا على الأقل) ازدياد الاضطراب واحتدام العنف السياسي على حدود لبنان أو داخله ، علما بأنه من الصعب اثبات ذلك تجريبيا .

وقد نجم معظم (ان لم يكن كل) بروز مصر ولبنان والعراق وسوريا والاردن في معطيات الهجرة الواردة اعلاه عن مجموعات سكانها الكبيرة نسبيا . مثال ذلك ان مصر ، التي ولد فيها نحو ثلاثة أخماس العلماء والمهندسين العرب المهاجرين خلال الفترة ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧ ، لها أكبر مجموع سكان ـ ما ينوف على ٣٨ مليون نسمة . ولكن لدى احتساب الأرقام بالنسبة الى السكان تبين أنه كان للبنان أعلى معدل هجرة الى الولايات المتحدة ـ ٢١٠ لكل مليون نسمة ـ واحتل المرتبة الثانية في عدد العلماء والمهندسين المهاجرين الى الولايات المتحدة خلال الاعوام ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧ من مجموع سكان يقل عن ثلاثة ملايين . ونجد في المقابل أن بلدان شمال افريقيا ، الجزائر والمغرب والسودان ، يفوق مجموع سكان كل منها الستة ملايين نسمة ، قدمت مجتمعة نحو مئة مهاجر ـ أو حوالي ١٥ لكل مليون نسمة .

ومما لا ريب فيه أن عنصرا كبيرا يفسر التنويعات في المهاجرين بالنسبة الى السكان بين البلدان العربية وهو مستوى المهارة لسكانها ، مع تمتع البلدان الأكثر بحبوحة (او تطورا) بوجه عام بالسكان الأعلى ثقافة . ويستمر بعض البلدان المنتجة للنفط ـ حيث الثراء جديد نسبيا ـ في اظهار معدلات متدنية نسبيا من الهجرة بالنسبة الى مجموع السكان . مثال ذلك ان العربية السعودية صدرت علماء ومهندسين بمعدل واحد فقط لكل مليون نسمة . وان تضافر عوامل مختلفة ، ومنها وجود مجموع سكان يتضمن عددا ضئيلا نسبيا من الأعضاء العالي المهارة ، ووجود سوق للعمل تعاني من نقص شديد للمهارات العلمية والهندسية ، تعمل على الأرجح على خفض نسبة هجرة العلماء والمهندسين السعوديين الى الولايات المتحدة .

المنظور الآخر الذي يمكن منه دراسة هذه المعطيات هو منظور وقع هذه الهجرة على أسواق العمل الأميركية بالنسبة الى العلماء والمهندسين . فالمعلومات التي جمعت للسبعينات تكشف عن أن التـأثير ضئيل ، على أساس سنوي ، ويبلغ أقل من واحد بالمئة من الذين يعملون كعلماء ومهندسين في الولايات المتحدة بالنسبة الى العلماء والمهندسين المهاجرين من جميع البلدان . والتأثير أقل بكثير بالنسبة الى العلماء والمهندسين العرب ، وقد بلغ المجموع التراكمي لهجرة العلماء والمهندسين العرب الى الولايات المتحدة خلال الفترة ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧ نسبة (٠,٢) بالمئة من عدد الذين يعملون كعلماء ومهندسين في الولايات المتحدة في ١٩٧٧ .

الصفات المميزة للمهاجرين

من المرجح ان احصاءات الهجرة الملخصة في القسم السابق من هذه الدراسة للسنوات ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧ تصور على نحو أقل مما تقتضيه الحقيقة ، التدفق الدائم النهائي للعلماء والمهندسين العرب الى الولايات المتحدة . وكما جاء في بحثنا ، فان عددا كبيرا من الأشخاص يسمح لهم بدخول الولايات المتحدة بصفة غير صفة المهاجرين . وكان يتم تسجيل أكثر من مئة ألف طالب أجنبي سنويا في الكليات والجامعات الأميركية في السنوات ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧ . وكان ما بين ٤٠٪ و٥٠٪ من هؤلاء الطلبة يدرسون العلوم والهندسة . وبين العام ١٩٦٦ والعام ١٩٧٥ انتقل أكثر من ٢٧ ألفا من طلبة العلوم والهندسة هؤلاء من تأشيرات الطلاب المؤقتة الى صفة المهاجر الدائم ، وكانوا جميعا تقريبا مولودين في آسيا أو افريقيا . . كما أن عددا غير محص من العلماء والمهندسين العرب الموجودين حاليا في الولايات المتحدة بصفة اللامهاجرين يعتزمون إما التحول في نهاية المطاف الى صفة المهاجرين أو البقاء بصورة دائمة دون تغيير صفة اللامهاجرين بأن يصبروا « أجانب غير شرعيين »[1] . والى ذلك ، فان معلومات الهجرة الموجزة آنفا لا تقدم أية تفاصيل عن الصفات المميزة للمهاجرين . واستنادا الى المعطيات ، فاننا نتوقع أن يكون المنتقلون أصغر سنا وأكثر ثقافة من غير المنتقلين . وفضلا عن ذلك ، يتوقع المرء عددا أكبر من المنتقلين من مناطق العالم حيث امكانات الكسب المادي منخفضة نسبيا بالمقارنة عما هي عليه في الولايات المتحدة . ومن الناحية المثالية ، يجب أن يسعى المرء الى تثبيت هاتين الفرضيتين تجريبيا عن طريق مقارنة المهاجرين وغير المهاجرين ضمن بلد من البلدان وعن طريق مقارنة نسب الهجرة بين البلدان التي لها أوضاع استخدام وكسب مختلفة . إلا أن مصادر المعلومات الموجودة ، لسوء الحظ ، ليست غنية كفاية للسماح بالقيام بمثل هذا التحليل انطلاقا من المعطيات المنشورة ، كما أن الموارد المتوافرة لا تسمح بالقيام بتحليل مصادر المعطيات غير المنشورة لتقرير جدوى مثل هذا التحليل . ولذلك يجب أن تقتصر هذه الدراسة على تفحص العلماء والمهندسين المهاجرين في الولايات المتحدة في ١٩٧٠ .

يرتكز التحليل على دراسة قامت بها المؤسسة العلمية الوطنية استجابة للزيادة الدراماتيكية التي طرأت على هجرة العلماء والمهندسين الى الولايات المتحدة بين العام ١٩٦٦ والعام ١٩٧٠[2] .

---

(١) يقدر انطون زحلان ان مجموع عدد المهنيين العرب المهاجرين الى الولايات المتحدة قد يكون أكبر بثلاث مرات على الأقل مما تشير اليه معلومات الهجرة .

A. B. ZAHLAN, « The Arab Brain Drain,» UNESCO, ECWA, MARCH 12, 1979.

(٢) National Science Foundation **Imigrant Scientists and Engineers in the United States,** Survey of Science Resources Series, NSF 73 - 302, February, 1973.

ولسوء الحظ ، ونظرا الى تغييرات فرضها حجم العينة ، فان نتائج هذه الدراسة تعطى لمصر و« افريقيا الأخرى » ولـ « الشرق الأدنى والأوسط » . ويتألف قسم كبير من عينة بلدان « الشرق الأدنى والأوسط » من مهاجرين من بلدان غير عربية لم تكن جزءا من التحليل الموجز أعلاه . ولذلك ينبغي أن يركز التحليل المعروض حاليا على مصر وحدها .

لقد أشار نحو ثلاثة أخماس المهاجرين من جميع البلدان الى مستوى معيشة أعلى كعامل مهم في قرار هجرتهم ، وأشار نحو ثلاثة أرباع العلماء والمهندسين المولودين في مصر الى ذلك السبب عينه . ومع أنه من الصعب التوصل الى استدلالات قوية من هذه المعلومات ، فانه يبدو من الواضح أن الحوافز المالية كانت عاملا نسبيا في حالة المصريين .

وكانت ثلاثة أخماس جميع العلماء والمهندسين في العينة قد دخلت الولايات المتحدة في الأصل كلا مهاجـريـن . وكانت هذه النسبة أدنى بالنسبة الى المصريين (أقل من النصف) . وفي حيـن أن معطيات الهجرة في نهاية المطاف تأخذ في الحسبان معظم هؤلاء اللامهاجرين في ما هم يتحولون الى وضع المهاجرين ، فانها لا تأخذ في حسابها بعضا منهم ، الأمر الذي يسهم في انحياز منحدر في استخدام معطيات الهجرة كمؤشر الى تحركية دائمة . وكان معظم المهاجرين الذين غيروا وضعهم من لا مهاجرين الى مهاجرين ، طلبة من خارج برنامج التبادل الثقافي والتربوي حينما دخلوا الولايات المتحدة ـ نحو نصف تغييرات الوضع من جميع البلدان وثلث تغييرات الوضع من مصر . وكان ثلاثة أخماس العلماء والمهندسين المهاجرين في العينة مهندسين ـ لكل من جميع المهاجرين ولهؤلاء المولودين في مصر . وبين العلماء المهاجرين من مصر ، كان قرابة ٦٠٪ كيميائيين ـ أكبر حقل منفرد معين ـ وأكثر من ٢٥٪ علماء حياة ـ ثاني أكبر حقل معين .

وتلقى نحو خمسي المهاجرين من جميع البلدان ومن مصر بعض تدريبهم بعد التخرج على الأقل في الولايات المتحدة . وتلقت نسبة أصغر بكثير من كلا العينتين (نحو العشر) بعض تدريبهم في مرحلة ما قبل التخرج على الأقل في الولايات المتحدة . ومن الذين تلقوا تدريب ما بعد التخرج في الولايات المتحدة ، تلقى ٥٪ فقط دعما من منظمات (حكومات ، صناعة خاصة أو مؤسسات أخرى) أجنبية (غير أميركية) . وتلقى نحو ١٠٪ من المصريين مثل هذا الدعم . أما الفئة الصغيرة نسبيا التي تلقت عونا لدراساتها من مصادر خارجية فيمكن اعتبارها دليلا على أن ما استثمرته هذه المصادر في التعليم العالي المكتسب عن طريق التدريب في الولايات المتحدة لا تعينه بالضرورة الخسارة النهائية لهؤلاء الطلبة المدربين الذين اختاروا الارتباط بالأعمال الأميركية[٣] .

كان التحصيل العلمي للعلماء والمهندسين المهاجرين من جميع البلدان أعلى من التحصيل العلمي للعلماء والمهندسين الذين ولدوا في مصر . فقد كان لدى مصر نحو ثلاثة أخماس الفئة الاولى درجات علمية لمرحلة ما بعد التخرج ، في حين أن ٤٥٪ فقط من الفئة الثانية كان لديها مثل هذه الدرجات العلمية . ويمكن تفسير هذا الفرق كله بالفوارق بين هاتين الجماعتين من العلماء والمهندسين

شملت الدراسة عينة من العلماء والمهندسين المهاجرين الذين سمح لهم بدخول الولايات المتحدة بين شباط (فبراير) ١٩٦٤ وكانون الثاني (يناير) ١٩٦٩ ، والذين زودوا ادارة الهجرة والتجنيس الاميركية بتقارير تعين عناوينهم السنوية .

(٣) يقدر زحلان ان ثلث العرب الحائزين على شهادات دكتوراه والمتعلمين في الخارج يبقون في الخارج بصورة دائمة .
A. B. ZAHLAN, «The ARAB BRAIN DRAIN», p. 34.

المهاجرين في اختلاطاتهم المهنية . أما توزيع المهندسين حسب مستوى الدرجة التي نالوها فهو أكثر تماثلا بكثير بين الجماعتين . فنحو خمسي المهاجرين من جميع البلدان لديهم درجات علمية لمرحلة ما بعد التخرج وثلث المهندسين المهاجرين المولودين في مصر نالوا مثل هذه الدرجة العلمية .

خلاصة نتائج الدراسة

لقد تفحصت هذه الدراسة أنماط هجرة العلماء والمهندسين من البلدان العربية الى الولايات المتحدة والصفات المميزة للعلماء والمهندسين المولودين في مصر الذين كانوا مقيمين دائمين في الولايات المتحدة في ١٩٧٠ . وهذه الهجرة ، التي بلغت متوسطا يقل بعض الشيء عن ٥٠٠ في السنة خلال الفترة ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧ ، كادت ترتفع عشرة أضعاف ما بين العام ١٩٦٦ والعام ١٩٧٠ ، وانخفضت بنحو ٨٠٪ بين العام ١٩٧٠ والعام ١٩٧٤ ، ثم عادت وارتفعت تدريجيا بعد ذلك حتى العام ١٩٧٧ . وتعكس هذه التنويعات الزمنية في أنماط هجرة العلماء والمهندسين العرب الى الولايات المتحدة مزيجا من العوامل القانونية والادارية التي عملت على خفض هجرة العلماء والمهندسين من جميع البلدان الى الولايات المتحدة بين العام ١٩٧٠ والعام ١٩٧٤ ، وعلى زيادة مجموع الهجرة من البلدان العربية بين العام ١٩٦٦ والعام ١٩٧٠ .

وقد فاقت مصر جميع البلدان العربية كمصدر للمهاجرين خلال هذه الفترة ، اذ أنها قدمت ما يقارب ثلاثة أخماس مجموع المهاجرين من الدول العربية . وازدادت حصة العلماء والمهندسين العرب المهاجرين من لبنان بصورة ملحوظة بعد ١٩٧١ ، ولعلها كانت تعكس الزيادة الملحوظة في الاضطرابات والعنف السياسيين التي شهدها ذلك البلد خلال تلك الفترة . كما أن الاختلافات بين البلدان في مستويات السكان أسهمت في تنويع الهجرة الذي لوحظ بين هذه البلدان .

واذا نظر المرء الى الهجرة العربية من منظور الولايات المتحدة لوجد أنه لم يكن لها تأثير كبير على سوق عملها للعلماء والمهندسين . أما الهجرة التراكمية من البلدان العربية خلال الفترة ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧ فلم تبلغ في مجموعها إلا (٠,٢٪) من العلماء والمهندسين العاملين في الولايات المتحدة في ١٩٧٧ .

* وأشار معظم العلماء والمهندسين المهاجرين من مصر الذين استطلعت آراؤهم في ١٩٧٠ الى مستوى المعيشة الأعلى كعامل مهم في قرارهم الهجرة . والى ذلك فان معظم المهاجرين المصريين دخلوا الولايات المتحدة في الأصل كمقيمين مؤقتين . وكانت ثلاثة أخماس المهاجرين المصريين من المهندسين . وكان نحو ٨٥٪ من المهاجرين الباقين كيميائيين وعلماء حياة .

ومع أن نحو خمسي المهاجرين المصريين الحائزين على درجات علمية بعد التخرج وعشرة بالمئة من المهاجرين الذين يحملون شهادات البكالوريوس قد تلقوا بعض التدريب على الأقل في الولايات المتحدة ، فان نسبة صغيرة جدا من هؤلاء قد مولت دراساتهم منظمات أجنبية .

وكان لدى أقل من نصف العلماء والمهندسين المصريين الذين استطلعت آراؤهم في ١٩٧٠ شهادات تخرج الأمر الذي يعكس جزئيا المزيج المهني للمهاجرين المصريين الذين كان ثلاثة أخماسهم من المهندسين .

[٧]
المهنيون الاميركيون العرب وهجرة الأدمغة

د . سميح فرسون

استاذ علم الاجتماع في الجامعة الاميركية في واشنطن .

الغرض من هذه الدراسة تحليل دور منظمة أو منظمات المهنيين العرب المهاجرين في الولايات المتحدة بالنسبة الى العملية الكاملة « لهجرة الأدمغة العربية». ومنظمات المهنيين العرب المهاجرين ـ خصوصا جمعية خريجي الجامعات الأميركية العرب ـ في الولايات المتحدة هي فريدة من نوعها . إذ لا توجد منظمة كهذه للطاقة البشرية العالية المستوى من المهاجرين العرب في أي بلد غربي مضيف آخر ، سواء في أوروبا أو في العالم الجديد . ولم يكن لأية منظمة كهذه في أي بلد غربي آخر الدور الاجتماعي والمهني ولا السياسي بالنسبة الى الطاقة البشرية العالية المستوى للمهاجرين العرب ، لدى بلدانهم الأصلية ، وفيما يتعلق بالبلد المضيف نفسه (أي الولايات المتحدة) . وهكذا فان هذه الدراسة ستشدد على دور جمعية الخريجين[1] بوصفها أكبر منظمة من نوعها . كما أن جمعية الخريجين تشمل في عضويتها وبين مسؤوليها الفاعلين في الماضي والحاضر عربا هاجروا الى الولايات المتحدة من جميع بلدان الوطن العربي تقريبا . وهي احدى أقدم ، ان لم يكن أقدم منظمة للاميركيين العرب في الولايات المتحدة . والى ذلك فانها ليست عالية التخصص ، بل تضم بين أعضائها مهنيين ، من جميع الاختصاصات ـ من رجال الأعمال والقانون الى الأطباء وأساتذة الجامعات في معظم حقول المعرفة . مثال ذلك أن الرئيس السابق لها (١٩٧٩) هو أستاذ لعلم الاجتماع ، في حين أن الرئيس الحالي (١٩٨٠) هو أستاذ للهندسة النووية . وفوق ذلك كله ، كانت هذه المنظمة نشيطة جدا وبالتالي فرضت الاعتراف بها وأوجدت لنفسها مركزا معتبرا في الولايات المتحدة وفي الوطن العربي وخصوصا بين أساتذة الجامعات في جميع أنحاء العالم .

تنقسم الهجرة العربية الى الولايات المتحدة الى موجتين طويلتين مختلفتين نوعيا : تمت الموجة الأولى والأكبر في العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين . وجاء المهاجرون العرب في تلك الفترة بصورة رئيسية من البلاد السورية ، بما فيها المنطقة التي ضمت فيما بعد الى لبنان . وجاءت اعداد أصغر من فلسطين ، ومن المنطقة المحيطة بالقدس خاصة . وجاء المهاجرون الأوائل من المناطق الريفية أو القرى ، وكان معظمهم فلاحين وبصورة رئيسية مسيحيين . وبالمقارنة مع المهاجرين الى الولايات المتحدة من أمم أخرى ، كان المهاجرون المسيحيون العرب قليلي العدد واندمجوا بسرعة في المجتمع الأميركي من الناحيتين الثقافية والاجتماعية . وبدأت الموجة الرئيسية الثانية من الهجرة العربية الى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية وكانت مختلفة نوعيا عن الموجة الأولى . ويبدو أن هذه الموجة مستمرة بمعدل ثانوي متزايد . وتجمع موجة المهاجرين العرب

---

(١) من المنظمات الاخرى : « علماء اميركا المسلمون » و« جمعية العلماء والمهندسين المصريين » .

الثانية هذه الى الولايات المتحدة الفلاحين الريفيين الى عرب المدن ، وبينهم نسبة مئوية لا بأس بها من المهنيين المثقفين ثقافة عالية .

وتظهر الاحصاءات أن النسبة المئوية من الطاقة البشرية العربية العالية المهاجرة من البلدان العربية المصدرة الرئيسية ـ وهي العراق والأردن وفلسطين ولبنان وسوريا ومصر والمغرب ـ كانت تتراوح بين أكثر من ٦٪ للاردن وأكثر من متوسط ٣٠٪ لمصر . ولا تشير هذه الأرقام إلا الى مهنة رب الأسرة . واذا أضفنا اليها عائلات المهاجرين ، فان أسر الطاقة البشرية العربية العالية المستوى يكون لها حصة من مجموع المهاجرين أكبر من نوع المهاجرين الآخر الذين يدخلون الولايات المتحدة أحيانا كثيرة كرجال عازبين . وتدل الاحصاءات أيضا على أن أعداد الطاقة البشرية العربية العالية المستوى والمهاجرة الى الولايات المتحدة من البلدان العربية الأخرى هي صغيرة تماما بوجه الاجمال . بيد أن النسبة المئوية من العمال المهنيين والتقنيين وما شابه هي عالية الى حد مدهش (باستثناء اليمن الشمالية والجنوبية) . وفي اعتقادي أن هذا أمر خطير . فمع أن المعلومات غير متوافرة لدي ، إلا أنني أظن بأن مجموع إنتاج الطاقة البشرية العالية المستوى ، في عمان على سبيل المثال ، هو صغير جدا في أية حال . ويخيل الي أن خسارة متوسط خمسة مثقفين سنويا الى الولايات المتحدة هو أمر خطير ، وهكذا يوجد نزف ثابت ومتزايد من الطاقة البشرية العربية العالية المستوى الى الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية .

وباختصار فان التغيير النوعي في نوع المهاجرين العرب الى الولايات المتحدة هو تغيير دراماتيكي : من الفلاحين الى الطاقة البشرية العالية المستوى . والى ذلك فان منشأ الهجرة العربية الجديدة ليس مقصورا على البلاد السورية ، بل هي تأتي من كل دولة من دول الجامعة العربية تقريبا ، بما فيها موريتانيا والصومال . وهكذا انضم العرب المسلمون الى العرب المسيحيين بأعداد متزايدة كمهاجرين . وتبقى سوريا الطبيعية (سوريا ولبنان وفلسطين) ، مع هذا ، مصدرا رئيسيا ، الا أن مصر والعراق انضمتا اليها الان . وتقدم هذه الدول العربية الخمس النواة ، حصة الأسد من المهاجرين العرب الى الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية ، خصوصا منذ الستينات . ومصر هي بصورة مميزة مصدرة كبيرة للطاقة البشرية .

بيد أن ثمة نوعين رئيسيين من الطاقة البشرية العربية العالية المستوى المهاجرة الى الولايات المتحدة : الذين دخلوا الولايات المتحدة كمهاجرين والذين جاؤا للدراسة فحسب (ربما دون أن تكون لديهم أية نية للهجرة) ولكنهم مكثوا هناك كمقيمين عن طريق تغيير وضعهم القانوني خلال إقامتهم المؤقتة . وهناك شيء من الاختلاف في العوامل السوسيولوجية والنفسية ـ الاجتماعية المسؤولة عن هجرتهم ، وبالتالي عن هجرة الأدمغة العربية هذه[٢] . ووفقا لدراسة مسحية على أساس العينة قام بها ابراهيم أبو لغد حول هجرة الأدمغة العربية الى الولايات المتحدة ، فان ٧٣٪ من الطاقة البشرية العربية العالية المستوى المهاجرة دخلت الولايات المتحدة كطلبة في الدرجة الأولى في حين أن حوالي ٢٦٪ دخلت الولايات المتحدة كمهاجرين شرعيين في بادىء الأمر[٣] . وتشمل نسبة الـ ٧٣٪ المذكورة آنفا

---

(٢) انظر دراسة غير منشورة لابراهيم ابو لغد بعنوان :
«The Arab Professional in North America: Will he return to the Homeland?!! MS. Feb. 9, 1976.

(٣) ثمة ما يشير الى ان هذه النسبة المئوية من الطاقة البشرية العربية العالية المستوى المهاجرة الى الولايات المتحدة التي تدخل كمهاجرين بالدرجة الاولى آخذة بالازدياد في الواقع . ومع هذا فان الطلبة الذين يبقون حاليا هم أكبر المساهمين في هجرة الأدمغة .

خريجين عربا من جامعات أميركية عادوا الى الوطن العربي لفترة قصيرة من الزمن (سنتان الى أربع سنوات) وبعدها فقط هاجروا الى الولايات المتحدة . وكانت أكبر حصة من مهاجري الطاقة البشرية العربية العالية المستوى طلابا أنجزوا تعلمهم وبقوا أو عادوا الى الولايات المتحدة . وبالنظر الى العدد الكبير والمتزايد من طلبة الجامعات العرب في الولايات المتحدة خلال العقدين الماضيين من الزمن ، يجب أن نتوقع خسارة ثابتة ومتزايدة من الطاقة البشرية العربية العالية المستوى في العقد التالي من الزمن الى الولايات المتحدة . وكذلك بالنظر الى المعدل المتزايد للهجرة العربية الى الولايات المتحدة ، فانه ينبغي علينا أن نتوقع هجرة متزايدة من الطاقة البشرية العربية العالية المستوى المدربة في كل من الوطن العربي وأوروبا الى الولايات المتحدة .

ومن الصعب تحديد مجموع عدد الطاقة البشرية العربية العالية المستوى المهاجرة ، والمقيمة حاليا في الولايات المتحدة . ويقدر أبو لغد العدد الإجمالي بنحو ١٠٠ ألف[٤] . وليس هذا بالرقم غير الواقعي . انه رقم كبير نوعا ما لهجرة الأدمغة العربية . ومع أن الطاقة البشرية العربية العالية المستوى المهاجرة كبيرة من وجهة نظر البلدان العربية ، فانها جزء صغير من مجموع المهنيين الاميركيين . وهم موزعون توزيعا واسعا ومتباعدا في جميع أنحاء الولايات المتحدة . وليست ثمة كتل مركزة منهم في منطقة جغرافية أو مدينة في الولايات المتحدة . وبالفعل ، تكاد الطاقة البشرية العربية العالية المستوى توجد في كل ولاية من الولايات . ويختلف هذا عن التوزيع المركز للجالية العربية ـ الاميركية في الولايات المتحدة . فالمهاجرون العرب مركزين في بضعة أماكن في الولايات المتحدة ، وهي : ميشيغان في الدرجة الأولى ، ثم كاليفورنيا ونيويورك ونيوإنغلاند وتكساس واوهايو . وفي هذه الأماكن نجد أن أحياء وجاليات المهاجرين العرب نشيطة وحيوية[٥] . أما طبيعة العلاقة بين جالية المهاجرين العرب بوجه عام والطاقة البشرية العربية العالية المستوى المهاجرة ، فهي ليست معروفة في الواقع . فليست هناك دراسات تتناول هذه العلاقة بصورة مباشرة . ويستطيع المرء أن يستمد بعض الانطباعات غير الدقيقة استنادا الى تعليقات عرضية من دراسات حول الجاليات العربية في الولايات المتحدة .

ولا توجد في الواقع أية دراسات حول المئة ألف عربي مهاجر من الطاقات البشرية العالية المستوى المقدر وجودهم في الولايات المتحدة . وترتكز الصورة التالية على مسح أبو لغد المبني على العينة التي هي عينة غير عشوائية بالضرورة للمهنيين الأميركيين ـ العرب . ولذا لا يمكن اعتبار هذه الصورة دقيقة ، بل هي بالأحرى تصوير تقريبي . واستنادا الى هذا المسح ، نجد أن ٢٠٪ من الطاقات البشرية العالية المستوى الذين أجابوا عن أسئلة الاستطلاع ولدوا في عقد الاربعينات ، ٥١٪ في عقد الثلاثينات و٢٥٪ في عقد العشرينات . وكان ٦٪ فقط من المجيبين نساء بينما كان ٩٤٪ من الرجال . وكذلك كان ٤٦,٨٪ من المسلمين و٣٩,٦٪ من المسيحيين العرب . وتدل الأرقام بشكل واضح على أن حملة

---

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

B. Aswad, **Arabic Speaking Communities in Americain Cities**, N.Y. : Center for Migration Studies, 1974. Also N.Y. Abraham, «National and Local Politics: A Study of Political Conflict in the Yemeni Immigrant Community of Detroit, Michigan», Unpublished Ph. D. Dissertation, University of Michigan, 1978. See also A. El-Kholy, **The Arab Moslems in the United States**, New Haven: College and University Press 1966. One of the best studies is edited by E. Hagopian and A. Paden, eds., **The Arab Americans: Studies in Assimilation**, Wilmette: Medina Press, 1969.

الدكتوراه يؤلفون أعلى نسبة مئوية . فهم مع الأطباء يشكلون ثلاثة أرباع جميع المجيبين .

واذا كانت هذه الصورة التي تبرز من العينة غير العشوائية تعكس على نحو صحيح ودقيق النمط في مجموع الطاقة البشرية العربية العالية المستوى المقيمة في الولايات المتحدة ، فانها تعني ان هجرة الأدمغة العربيــة هي خطيرة بالفعل . فهي تعني أن حوالي خمسين ألفا من حملة الدكتوراه قد غادروا الوطن العربي الى الولايات المتحدة وحدها منذ الحرب العالمية الثانية . وحتى لو بلغ هامش الخطأ في هذه النسبة المئوية ١٠ ـ ١٥٪ ، فانها تبقى هجرة خطيرة جدا للطاقة البشرية العربية العالية المستوى . واذا أضفنا الى هذه النسبة الأطباء جاز لنا أن نتحدث عن نزف في الطاقة البشرية العربية العالية المستوى الى الولايات المتحدة .

أما فيما يتعلق بأنواع التخصص فاننا نجد أن الحقلين التقنيين العاليين ، الطب والهندسة ، يؤلفان أعلى نسبة مئوية . ولكن الطاقة البشرية العربية العالية المستوى المهاجرة تتألف من اختصاصيين في كل حقل تقريبا . وليست لدينا معلومات حول كيفية عملهم أو مع من يعملون . إلا أنه يمكننا القول على نحو مؤكد بأن معظم الأطباء هم ممارسون خاصون لمهنتهم في حين أن الأساتذة في الحقول المختلفة يعملون في الجامعات . وقد يكون الآخرون موظفين في شركات خاصة ، أو في الحكومة أو في كلا القطاعين . ويشير المسح الآنف الذكر والمبني على العينة الى توزيع دخل الطاقة البشرية العربية العالية المستوى ، وهذا الدخل على الأرجح لا يختلف كثيرا عن توزيع الدخل لمجموع الطاقة البشرية العربية العالية المستوى المهاجرة ، كما أنه لا يختلف كثيرا عن الطبقة المهنية الأميركية بوجه عام . وكما هي الحال مع الطبقة المهنية الأميركية فان الطاقة البشرية العالية المستوى بين المهاجرين العرب تتمتع بمركز مالي حسن نسبيا : فمعظمهم في العشرة بالمئة العليا من طبقة الدخل الأميركية . واذا أضفنا هذا الى أسباب الراحة والمتعة العامة المختلفة في الولايات المتحدة ، أمكننا القول بأن الطاقات البشرية العالية المستوى بين المهاجرين العرب تحيا حياة مرفهة . وربما كان هذا الى جانب أوضاع العمل الحسنة والحريات المدنية والممارسة المهنية من العوامل الحاسمة في ابقاء هؤلاء المثقفين العرب المهاجرين في الولايات المتحدة . ومن الناحية الأخرى ، قد تكون أسباب الهجرة أكثر تعقيدا ولا تنطوي على عوامل الجذب في البلد المضيف ، الولايات المتحدة ، وحسب ، بل أيضا على عوامل الدفع المختلفة من البلد الأم . وتشير التحليلات في الكثير من الكتابات الى أن طبيعة العوامل هي بنيوية وأسرية ونفسية ـ اجتماعية[٦] . وسأبحث أدناه بعض الأوجه فيما يتصل بقضايا عودة الطاقة البشرية الأميركية ـ العربية العالية المستوى .

وهنا يجب أن أبحث عاملا واحدا فقط ، هو الوضع الأسري . فهذا العامل يكمل الصورة الاجتماعية ـ الاقتصادية للمثقفين العرب المهاجرين في الولايات المتحدة . فاستنادا الى مسح أبو لغد المبني على العينة والمشار اليه آنفا ، نجد أن ٨٣٪ من المجيبين هم متزوجون ، و٤٪ مطلقون والبقية عازبون . ويشير هذا الى معدل عال نوعا ما من الاستقرار الأسري وبالتالي الاجتماعي . وهذا يتميز أيضا عن المعدلات العالية للطلاق (٤٠٪) بين الشعب الأميركي بوجه عام . وهو على الأرجح أدنى كذلك من معدلات الطلاق بين المهنيين الأميركيين . ومن المفيد الإشارة الى أن ٥٩٪ من المجيبين

---

(٦) See the general study A. B. Zahlan, **The Brain Drain: Lebanon and Middle Eastern Countries,** N. Y. : 1969
See also M. W. Suleiman, «The Repatriation of Arab Elites,» **Middle East Forum,** vol. XL VII, No 3 and 4 (Winter, 1971).

متزوجون من غير العرب بينما ٥٣٪ ينتمون الى نفس المذهب الديني الذي ينتمي اليه شريك حياتهم . والى ذلك فان الأغلبية العظمى من هؤلاء المتزوجين من زوجات ينتمون الى مذهب ديني مختلف هم رجال مسلمون متزوجون من نساء مسيحيات . وكان لدى المجيبين متوسط ولدين في الأسرة . ولا يختلف هذا عن الأنماط العامة للأسرة الأميركية . وباختصار فان أسر الطاقات البشرية العالية المستوى بين المهاجرين العرب مستقرة على الرغم من الاختلافات الثقافية أو الدينية مع الزوجات (أو الأزواج) . وكما يلاحظ أبو لغد ، فان التسامح الثقافي والديني في الولايات المتحدة وكندا هو أحد العوامل المهمة وراء كل من هجرة الطاقة البشرية العربية العالية المستوى الى هذين البلدين واستمرار اقامتهم هناك .

وخلاصة القول هي أن جالية المهنيين العرب المهاجرين في الولايات المتحدة يعود أصلها الى خمس دول نواة في المشرق العربي ، وهي عالية التدريب والمهارة جدا ، وموزعة توزيعا واسعا ومتباعدا ، وتتمتع بأوضاع عمل ممتازة ، ولها حياة اجتماعية مستقرة مع رفاه اقتصادي عال نسبيا حتى بالمقاييس الأميركية . كما أنها مندمجة اندماجا كبيرا في المجتمع الاميركي ، ثقافيا واجتماعيا ومهنيا . أما صلاتها ببقية الجالية الاميركية العربية الاصل فليست واضحة ، وتبقى على الأرجح عند الحد الأدنى . ومع هذا فانها تتقاسم مع بقية الاميركيين ــ العرب صلات قومية مهمة بالوطن العربي . وربما كانت هذه الصلات القومية عوامل مهمة في تعزيز اقامة الطاقات البشرية العالية المستوى بين المهاجرين العرب في الولايات المتحدة .

في كتاب وصفي ومصور قصير ، يحدد أياد القزاز[٧] أهم صلات الاميركيين العرب بالوطن العربي . وتشمل هذه الصلات النسب ووسائل الاعلام والصلات التنظيمية والرسمية والعملية . وسنبحث هنا جميع هذه الصلات باستثناء الصلة التنظيمية التي سنعالجها بمزيد من التفصيل أدناه : وبالنظر الى وسائل الاتصال الدولي الميسر ـ سواء كان البريد او الهاتف او وسائل الاعلام او السفر ـ فان اتصالات الطاقة البشرية العربية العالية المستوى مع أقربائها في الولايات المتحدة أو الوطن العربي هي سهلة ودورية . ولا توجد لدي أية أرقام حول تردد ونوعية هذا الاتصال ، ولكن التردد عال بالاستناد الى الكثيرين من أعضاء جمعية خريجي الجامعات الاميركية العرب . ويشمل هذا الاتصال الرسائل والمخابرات الهاتفية والزيارات المتبادلة الخ . ولما كانت تكاليف السفر بالطائرات النفاثة في متناول المهنيين الاميركيين العرب ، فانه يبدو ان الزيارات الى الوطن هي مرة في السنة على الأقل . وبين النشيطين على الصعيدين الاجتماعي ـ السياسي والمهني ، نجد ان الاتصالات التي تتم وجها لوجه هي أكثر من مرة في السنة . وبالطبع هذه نسبة مئوية صغيرة جدا من المجموع . ومن الناحية النوعية فان طبيعة صلات النسب لا تختلف عن تلك التي تمارس في انظمة الأسر المتينة الترابط والدمج في الوطن العربي . وهي تشمل تبادلات من جميع الانواع على صعيدي الاقتصاد والخدمة . وكثيرا ما يتم ترتيب الزواج من خلال هذه الصلات القومية .

وصلات وسائل الاعلام هي أيضا مهمة . ذلك ان قيام وسائل الاعلام الاميركية بتغطية فورية للانباء يبقي الطاقات البشرية العالية المستوى بين المهاجرين العرب على اطلاع حسن حول التطورات المهمة . كما ان المجلات ، وحتى الصحف الناطقة بالعربية ، فضلا عن المجلات الناطقة بالانكليزية

---

(٧) A. Al-Qazzaz, **Transnational Links Between The Arab Community in the U.S. and the Arab World**, Sacramento, Cal. : Cal Central Press, 1979.

والمتخصصة في شؤون الشرق الأوسط ـ وهي متيسرة في المدن الرئيسية ـ تساعد في المحافظة على الصلة بثقافة الوطن الأم وسياسته ومجتمعه . وكذلك تحمل المجلات والصحف الناطقة باللغتين العربية والانكليزية والتي تصدر محليا اخباراً او معلومات عن الوطن الام . وهناك حوالي ٥٠ صحيفة ومجلة ونشرة يصدرها اميركيون عرب في المدن الاميركية الكبيرة . ويقدر توزيعها بنحو ١٢٠ ألف نسخة في جميع أنحاء الولايات المتحدة . وهناك أيضا عدة برامج في محطات الاذاعة باللغة العربية موجهة الى الجالية الاميركية ـ العربية في الولايات المتحدة . هذا النوع من صلة وسائل الاعلام سيف ذو حدين بالنسبة الى الاميركي ـ العربي وكذلك الى المهني العربي المهاجر . فهي تساعد في المحافظة على الهوية العربية ولكنها تساعد أيضا في تخفيف الدافع للعودة الى الوطن الام اذ أن قطع الصلات الثقافية ـ الاجتماعية ليس تاما . وتساعد وسائل الاعلام هذه في خلق ثقافة فرعية عربية عرقية مزروعة في الولايات المتحدة . ويشارك الكثيرون من المهنيين الاميركيين العرب في هذه الثقافة الفرعية بصورة متباينة . وبالطبع تقل مشاركتهم في هذه الصلات ويزداد امتصاصهم في الولايات المتحدة كلما كانوا أكثر عزلة من الناحيتين الاجتماعية والجغرافية .

وأخيرا هناك الصلات الرسمية التي اقامتها الحكومات العربية بصورة منفردة مع العرب بمن فيهم المهنيين العرب في الولايات المتحدة . فان كلا من مصر والعراق والاردن ولبنان وسوريا قد أقامت شكلا ما من أشكال الارتباط بمغتربيهم المهاجرين ، ولا سيما المهنيين منهم . ولمنظمة التحرير الفلسطينية من الناحيتين الرسمية وغير الرسمية صلات كهذه ايضا مع المهنيين الفلسطينيين المغتربين . وتتخذ هذه الصلات الرسمية اشكالا كثيرة تتراوح بين الدعوات الشخصية الرسمية للمهنيين الافراد او لممثلي المنظمات الاميركية ـ العربية لزيادرة البلدان العربية ، الى زيارات يقوم بها مسؤولون حكوميون عرب الى الجاليات والمنظمات العربية في الولايات المتحدة . وحتى المسؤولين الحزبيين العرب اظهروا نشاطا في الآونة الأخيرة . ويشمل هذا كلا من الجناح اليميني والحركة الوطنية اللبنانية في لبنان ، وحزبي البعث العراقي والسوري وغيرهم .

وتتبرع الحكومات العربية بأموال للمنظمات الاميركية العربية من أجل مشاريع مثل تأسيس مراكز ثقافية ومراكز اسلامية ومدارس لتعليم العربية . وأصدرت بعض الحكومات العربية منشورات دورية خاصة موجهة لجاليتها المغتربة . ونظمت بعض الحكومات العربية مؤتمرات خاصة لمغتربيها في الولايات المتحدة . مثال ذلك ان اليمن الشمالية عقدت مؤتمرا كهذا في ١٩٧٦ تم فيه اتخاذ سلسلة من الخطوات الفعلية بقصد تعزيز الروابط باليمن والمساعدة على اشراك المهنيين المغتربين بنوع خاص في انماء بلدهم الاصلي . ولدى بعض البلدان ، مثل ليبيا ، ممثل خاص في بعثتها في العاصمة واشنطن مهمته هي الاتصال بالمهنيين الاميركيين العرب وتجنيدهم للعمل في ليبيا . كما ان العراق سن مؤخرا قانونا خاصا لاجتذاب الطاقة البشرية العالية المستوى المغتربة الى ارضه . ولكن نتائج هذه المحاولات العربية الرسمية كانت متواضعة . فان قلة فقط من الاميركيين العرب قد عادت فعلا . كذلك دعت حكومات عربية كثيرة المهنيين الاميركيين العرب الى مؤتمرات خاصة اقامتها في الحقول التقنية والعلمية والاكاديمية . وهذه المؤتمرات تزداد عددا وتنوعا .

واخيرا فان جامعة الدول العربية التي لها مكاتب اعلام في خمس مدن اميركية كبيرة قد اقامت هي ايضا صلات مع الاميركيين العرب ، وخصوصا المهنيين الاميركيين ـ العرب والمنظمات الاميركية ـ العربية . وقد استخدمت مكاتب الاعلام المهنيين الاميركيين العرب بطرق مختلفة ـ كالقيام

بالابحاث والكتابة والقاء المحاضرات الخ ـ في وظيفتها الرامية الى اعلام الشعب الاميركي حول القضية العربية ـ الاسرائيلية وغيرها من القضايا . ومع انتقال الجامعة العربية الى تونس وبروز قيادتها الجديدة ، فان تردد ونوعية الاتصالات الاستشارية والتعاونية مع المنظمات الاميركية العربية قد ازدادت زيادة دراماتيكية . وهذه تعد بان تكون علاقة منتجة اكثر في الجهود الرامية الى نشر وجهة النظر العربية في أميركا والى تطوير التبادلات الثقافية بين شعوب الولايات المتحدة والوطن العربي .

وفي الختام فان هذه الصلات القومية بين الافراد والمنظمات والجالية الاميركية ـ العربية في الولايات المتحدة والوكالات والمنظمات التابعة للدول العربية قد عززت الروابط بين العرب المغتربين واخوتهم في الوطن الام ، كما انها عبأت وأطلقت طاقات الاميركيين ـ العرب في خدمة القضايا والبلدان العربية في الوطن وفي الخارج . ومما لا ريب فيه ان مثل هذه الصلات والمشاركات قد عززت الرباط الاجتماعي ولكنها في الوقت نفسه شجعت المهني المغترب على البقاء في الخارج . فقد وجد هو (أو وجدت هي) دورا ليخدم كلا من نفسه وقضيته أو بلده . وبالنسبة للمهني العربي المغترب في الولايات المتحدة ، فانه ما من اختبار او مشاركة اخرى تثبت هذا على نحو أفضل من الدور الذي صارت تلعبه جمعية خريجي الجامعات الاميركية العرب من هذه الناحية ـ وهي افضل مثل على المشاركة والصلات التنظيمية التي تؤدي وظائف متعددة ـ بالنسبة الى الفرد ومهنته وقضيته او قضاياه ووطنه العربي .

أسس جمعية خريجي الجامعات الاميركية العرب جماعة من الاساتذة الاميركيين العرب في ١٩٦٧ . ذلك ان حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ صدمت الاميركيين العرب وأيقظتهم وحثتهم على القيام بنشاط فعال . فالتحزب الاميركي العام والخاص لاسرائيل ، والابتهاج الاميركي بالانتصار الاسرائيلي وتجاهل آلام الضحايا العرب والفلسطينيين ، وانتشار العنصرية المناهضة للعرب جميعها دفعت الاميركيين ـ العرب الى التضامن معا في نطاق عالم اميركي معاد . وكما قال أول رئيس لجمعة الخريجين هذه :

« لقد ولدت جمعيتنا في وقت كانت الامة العربية تختبر فيه أحلك ساعاتها وفي وقت وصلت فيه العلاقات العربية ـ الاميركية الى حضيض النوايا الحسنة والى أدنى مستوى من الاتصال والفهم . ولم يسبق للاميركيين من أصل عربي ان اختبروها في صيف ١٩٦٧ ... ولم تكن الأزمة ببساطة نتيجة انتصار عسكري ... بل كانت بالاحرى نتيجة وعي مفاجيء بان فجوة خطيرة قد وقعت بالفعل في النظرة السياسية والايديولوجية والاخلاقية لهذه الامة (الاميركية) ... فعندما تخرج أغلبية شعب في أمة عظيمة كالولايات المتحدة بأسرها تقريبا للاحتفال بالابادة الاجرامية لشعبنا في العالم العربي ، متجاهلين تجاهلا تاما تقريبا أبسط مبادىء العدالة الانسانية والشرف ، عندما يحدث شيء خاطىء على نحو جذري وصاعق كهذا ، فان هؤلاء المعنيين حقا بمصائر ومصالح بلدانهم الاصلية وبعلاقات هذه البلدان بالولايات المتحدة لا يعود بامكانهم بعد ذلك ان يبقوا صامتين ويراقبوا باستكانة مسرحية التقهقر ... كان هناك اعتراف عام بان الانتليجنسيا الاميركية ـ العربية كانت مقصرة في لعب دور قيادة فعالة متكافئة مع مسؤوليتها وطاقاتها ، ولكن لم يعد من الممكن التهرب من هذه المسؤوليات ... وبان الواجب يدعونا ، كاميركيين من اصل عربي ، الى تسريع وزيادة المعرفة حول المجتمع والثقافة العربيين ، فنكون هكذا بمثابة جسر للتفاهم بين شعوب الشرق الاوسط والشعوب في الولايات المتحدة »[8] .

وقربت حرب حزيران ما بين المغتربين العرب الأوائل والمهاجرين الجدد . وكان اثنان من رؤساء جمعية الخريجين الاثني عشر السابقين اميركيين عربيين من الجيلين الثالث والرابع . وتجندت الجالية الاميركية العربية للعمل ولكن بصورة رئيسية على صعيد محلي . وصارت جمعية الخريجين اول جمعية منظمة على نطاق الولايات المتحدة كلها . ووضع مؤسسو الجمعية اهدافها على النحو التالي : لاقامة

---

(٨) AAUG, **The First Decade 1967-1977**, Detroit, Mich. : 1977

الصلات بين المهنيين الاميركيين العرب وتعزيز التعاون بينهم في مهنهم المختلفة ، ولاستخدام الخبرة الفنية المحترفة للاميركيين العرب في خدمة جالياتهم ، ولانتاج ونشر معلومات علمية وثقافية وتربوية دقيقة حول العالم العربي ، وللمساعدة في إنماء العالم العربي عن طريق تقديم الخدمات المهنية والخبرة الفنية لاعضائها . ونمت الجمعية من حفنة من اساتذة الجامعات الاميركيين العرب الذين كانوا من منظميها الاوائل الى جمعية تضم الوف المهنيين الاميركيين العرب من جميع الاختصاصات ، كما تضم اعضاء اميركيين مشاركين وأعضاء طلبة مشاركين .

بنية الجمعية من ثلاث طبقات . ففيها بنية على نطاق الولايات المتحدة كلها وينتمي اليها جميع الاعضاء ، ولكن لها أيضا فروعا محلية حيث توجد تجمعات كبيرة من الأعضاء . وهناك حاليا ١٢ فرعا محليا في المدن الاميركية الرئيسية في جميع انحاء الولايات المتحدة . وبالاضافة الى ذلك فان لدى الجمعية اقساما مهنية تعمل ضمن انظمتها الداخلية ولكنها تنضم الى أعضاء معينين في نشاطات متخصصة . فقد كان هناك قسم طبي قائم منذ أمد بعيد في حين أن قسما هندسيا هو قيد التكوين . وتقوم الجمعية باعمالها بواسطة لجان معنية بالاوجه الرئيسية لنشاطاتها .

وتتصل نشاطات جمعية الخريجين بثلاثة حقول رئيسية : اعضاؤها والجالية الاميركية العربية ، المسرح الاميركي ، والمسرح العربي . وسنبحث كلا من هذه الحقول على حدة . وفي ما يتعلق بالمهنيين الاميركيين العرب ، ساعدت جمعية الخريجين في تعيين والتعريف بمختلف المهنيين الاميركيين العرب ، وبمواهبهم واوضاعهم . وجمعت معا عددا لا بأس به وأنواعا مختلفة من المواهب وعبأتهم للنشاط الفكري والاجتماعي ـ السياسي في الولايات المتحدة وفي الوطن العربي . كما جمعت معا أشخاصا ما كانوا ليعرفوا بعضهم بعضا ويتعاونوا مع بعضهم بعضا نتيجة للعزلة الجغرافية والاجتماعية في الولايات المتحدة . وكانت جمعية الخريجين بمثابة مكان للتفاعل بين المواهب ووجهات النظر المختلفة التي جمعتها معا . وخلقت مجالا لنشر نتاجهم الفكري الذي ما كان ليرى النور بسبب اشكال خفية وغير خفية من الرقابة والمراقبة في الولايات المتحدة . وهذا النتاج ، بالطبع ، هو بصورة رئيسية في العلوم الاجتماعية والانسانيات . ومكنت جمعية الخريجين الكثيرين من رجال الفكر ، الشبان منهم والذين ثبتوا اقدامهم ، من إنجاز اهداف علمية وفنية ومن نشرها في الولايات المتحدة . وسهلت جمعية الخريجين أمام الكثيرين من الأشخاص أمر تنظيم اختبار في النشاطات المهنية والسياسية والتنظيمية وغيرها .

كما ان عقد مؤتمرات ينظمها أشخاص متطوعون ومكرسون وملتزمون ويتكلم فيها نحو ٥٠ شخصا ويحضرها من ١٠٠٠ الى ١٢٠٠ شخص هو ليس بالانجاز القليل . وفي هذه النشاطات ، وفرت الجمعية للمهني الاميركي العربي الذي يعيش عيشة منعزلة نسبيا في إطار اجتماعي معاد وعنصري شعورا بالانتماء ودعما معنويا ونفسيا ضروريا عن طريق الاجتماع باشخاص مماثلين ومقاسمتهم قيما واختبارات مشتركة . وعلى الصعيد العملي الواقعي ، اقامت جمعية الخريجين آليات للدفاع عن الحريات المدنية لأعضائها ولغيرهم من الاميركيين العرب الذين يتعرضون لمضايقات الحكومة الاميركية الاتحادية والحكومات المحلية ، او للتمييز في أوضاع عملهم او حرياتهم الاكاديمية . مثال ذلك دافعت جمعية الخريجين عن أعضائها في الهجوم الذي شنته الوكالات الاتحادية الاميركية ، كمكتب التحقيقات الاتحادي ، (الاف بي اي) خلال تنفيذ عملية شهيرة قامت بها الحكومة الاميركية لمضايقة وترهيب وإسكات ، وفي بعض الحالات طرد طلبة عرب واميركيين ـ عربا في الولايات المتحدة

كانوا قد ابدوا نشاطا في مقاومة السياسات الاميركية ازاء الوطن العربي وفلسطين . وفي الآونة الأخيرة ، صارت الجمعية تدافع عن المهني الاميركي العربي الذي يقاسي من التمييز العرقي المخالف لقوانين الحكومة الاتحادية . كما ان جمعية الخريجين ساعدت اخيرا في الدفاع عن الطلبة الفلسطينيين الذين طالبت اسرائيل الولايات المتحدة بتسليمهم لها . وباختصار لعبت الجمعية دورا رئيسيا في دعم الحقوق المدنية والانسانية للاميركيين العرب ، ولكنها انضمت ايضا الى منظمات اخرى في معارك قانونية - سياسية لدعم مثل هذه الحقوق بالنسبة الى الجميع . ويتطلع اليها جميع الاميركيين العرب بوصفها المؤسسة القادرة على الدفاع عن هذه الحريات المشكوك فيها في بلد يميل الى العنصرية .

وفي حين أن هذه النشاطات معنية بحالات محددة لطلبة عرب أو أميركيين عرب ، فان الوظيفة المهمة الاخرى التي قامت بها الجمعية هي مكافحة الصور العامة العنصرية عن العرب والإسلام . وباتت هذه المهمة أكثر إلحاحا الآن مع الهستيريا المناهضة للاسلام التي اجتاحت الولايات المتحدة في أعقاب كل من ثورة ايران وازمة الرهائن الاميركية في طهران . وقد ولد هذان التطوران مجتمعين ، مع ارتباط العرب بالاسلام في أذهان الاميركيين ، موجة جديدة واسعة الانتشار من المشاعر المعادية للاسلام والعروبة في الولايات المتحدة . والى ذلك ، لا يميز معظم الاميركيين بين العربي والايراني على أية حال . وقد انهمكت الجمعية في مكافحة الصور المغلوطة والعنصرية عن العرب والاسلام والفلسطينيين طيلة العقد الماضي من الزمن تقريبا . وتتراوح هذه النشاطات من الضغط العام على وسائل الاعلام الاميركية - التي تنتج مثل هذه الصور وتنشرها - الى عقد اجتماعات مع مجالس ادارة المدارس المحلية في ما يتصل بالمحتويات العنصرية المعادية للعرب في الكتب ضمن مناهجها الدراسية بغية حذفها أو تغيير الكتب من أساسها . وفوق ذلك ، دعمت جمعية الخريجين الابحاث ونشرت نتائج دراسات حول صورة العرب والمسلمين في الكتب المدرسية المختلفة . وهذه الأنواع من الاهتمامات وسعت نشاطات الجمعية بحيث صارت تشمل تنظيم حلقات دراسية وندوات عملية لمعلمي المدارس الثانوية لاطلاعهم على تاريخ العرب وثقافتهم ومجتمعهم المعاصر . وقد عقدت حلقات دراسية كهذه للمعلمين في ولايات عدة ، بينها كاليفورنيا وميشيغان وولايات نيوإنغلاند والعاصمة واشنطن .

وفي النطاق الاميركي ، خلقت جمعية الخريجين منبرا للتعبير عن المنظورات العربية حول النزاع العربي - الاسرائيلي والمسألة الفلسطينية والمدنية العربية - الاسلامية . وكان هذا يتم في وقت كان فيه معظم النتاج الفكري والاكاديمي الاميركي معاديا لمصالح الشعب العربي ويخدم مصالح اسرائيل والصهيونية والامبريالية الاميركية . وأسست جمعية الخريجين لجنة للنشر تشرف على إنتاج مواد تبدأ بالبحوث والكتابة وتنتهي بالطباعة والتوزيع . وأصدرت الجمعية نحو ٥٠ منشورة في سبع سلاسل مختلفة . وهناك سلسلة دراسات بينها كتب حول الاميركيين العرب ، وحول الانماء التكنولوجي في الوطن العربي ، ورواية حول المهاجرين العرب الى الولايات المتحدة ، وحول أوجه متنوعة من النزاع العربي - الاسرائيلي . وكان أحد المنشورات الناجحة جدا دليلا للعالم العربي . والى ذلك ، فان سلسلة سمعية - بصرية انتجت شريطين سينمائيين حول فلسطين ، في حين ان سلسلة البيبليوغرافيا اشتملت على بيبليوغرافيا مزودة بحواش حول النساء في الوطن العربي . ولعل العمل النشري الذي حقق أكبر قدر من النجاح هو سلسلة الدراسات الاعلامية التي اشتملت على كتيبات او دراسات مختصرة حول جميع الوجوه المثيرة للاهتمام في الوطن العربي . وأخيرا هناك سلسلة دراسات تصدر من حين لآخر ، وسلسلة تقارير خاصة وغيرها من المنشورات . وقد وصلت هذه المنشورات الى مكتبات

الجامعات والمدارس الثانوية والمكتبات العامة ، كما استخدمت كأدلة في جلسات التحقيق التي يعقدها الكونغرس الاميركي . وحتى مكتبات الوطن العربي وطلابه وأساتذته الجامعيين ومفكريه صاروا يعتمدون عليها كمراجع جدية تتعلق خصوصا بالنزاع العربي ـ الاسرائيلي والسياسة الاميركية تجاه الوطن العربي وفلسطين . وهذه المنشورات وتوافرها في البيوت والمكتبات العامة وفي مؤسسات الأبحاث في الولايات المتحدة مهمة لأنها المنشورات الوحيدة التي تزود القارىء بوجهةالنظرالعربية . وكان هذا قرارا واعيا من الجمعية ، وأعني به بناء مجموعة من المؤلفات لمكافحة المواد المتحيزة للمساعدة في وضع الأساس من أجل التأثير البعيد المدى والأساسي على المجتمع الاميركي .

وربما كان النشاط الاكثر شهرة وانخراطا على الصعيد الشخصي هو المؤتمر السنوي لجمعية الخريجين . فهذا المؤتمر يجمع معا علماء ومشاركين من جميع أنحاء العالم . وقد شارك في هذا الاجتماع السنوي علماء عرب ، وعلماء أوروبيون ، وممثلون عن مؤسسات اكاديمية ومنظمات ومراكز عربية . ومؤتمرات جمعية الخريجين التي كانت تضم من ٨٠٠ الى ١٢٠٠ أميركي عربي ومهني عربي هي أكبر تجمع لرجال الفكر العرب يعقد في أي مكان خارج الوطن العربي . ولعله أكبر من معظم اجتماعات المفكرين العرب في الوطن العربي نفسه . ولهذا المؤتمر السنوي وظائف متعددة في الاطار الاميركي ، اذ انه يخدم اغراضا نفسية واجتماعية ومهنية وسياسية في الوقت نفسه . وقد كان منبرا للتعبير عن الآراء العربية في الولايات المتحدة ، والى ذلك فان نطاق المؤتمر والقضايا المهنية والتعاون وتجديد الخبرات والنشاطات الاخرى ، يقوم المشاركون باستطلاعها فيما بينهم .

وقد نظمت الجمعية وطورت مؤتمرا إقليميا وحلقات دراسية من حين الى آخر ، أدت جميعها وظائف مماثلة . وفي حقل آخر أقامت الجمعية « مكتبا للمحاضرين والخطباء » يزود من يشاء بمتكلمين خبراء في جميع أنحاء الوطن العربي تقريبا ، بما فيها الناحية التكنولوجية ، والعلائق العربية ـ الاميركية . وظهر المحاضرون أمام مجموعة منوعة كبيرة من الجماهير التي تتراوح من الاكاديمية الخالصة الى رعية الكنائس والجماعات السوداء والعمالية والفعاليات المختلفة وغيرها . وظهر متكلمو الجمعية في برامج التلفزيون وبرامج الراديو وطلبت منهم تعليقات للصحف والمجلات حول القضايا العربية والعربية ـ الاميركية . كما طلب منهم كتابة مقالات للمجلات الرائجة من كل الأنواع . وبالفعل نشرت الجمعية اعلانات في الصحف الرئيسية في نيويورك وواشنطن ولوس انجلوس لاطلاع الشعب الاميركي على وجهة النظر العربية . وهذه الصحف الرئيسية نفسها طلبت من الأعضاء النشيطين في جمعية الخريجين أن يكتبوا مقالات لصفحة الرأي حول قضايا بارزة . وعن طريق الجهود الجماعية والفردية حققت الجمعية أو أعضاؤها انجازات متواضعة في وسائل الاعلام الاميركية المعادية .

كذلك كانت الجمعية ناشطة في التبادل الثقافي . فقد رعت جمعية الخريجين في مؤتمراتها السنوية عدة معارض فنية . ونظمت ايضا معارض فنية جوالة وكان آخرها معرضا للفن العراقي الحديث جال في عشر مدن اميركية كبرى في ١٩٧٩ . وكان هذا جهدا باهظ التكاليف ولكنه قيم وفعال . وهذا الجهد ، بالطبع ، هو جزء من محاولة عامة لتعريف الشعب الاميركي على الإنجازات الثقافية وتراث المدنيتين العربية والإسلامية .

وفي الحقلين العام والتربوي ، كانت الجمعية ناشطة في تقديم الشهادات أمام الكونغرس الاميركي حول الفلسطينيين ، وأمام الجماعات الضاغطة المنظمة الرئيسية كمجلس الكنائس الوطني ، وطائفة الاصدقاء (الكويكرز) والكثير غيرهم . وحافظت منذ عهد بعيد على علاقات مع جماعات

سوداء واميركية لاتينية وعمالية منظمة . وفيما يتعلق بالنجاح الذي حققته الحركة الفلسطينية مع السود الاميركيين ، فان جمعية الخريجين كانت قد مهدت لها الطريق بواسطة نشاطاتها . مثال ذلك ان الجمعية نظمت بعثات لتقصي الحقائق للسود وغيرهم الى الشرق الأوسط . وهذا النجاح المتواضع يبرر الاستراتيجية التي تبنتها جمعية الخريجين : وهي العمل على الصعيد الشعبي عن طريق اقامة الاتصالات مع الجماهير أو القطاعات المختلفة ، لاقامة علاقة متبادلة ، وتفهم ودعم متبادلين . وبالروح نفسها شنت جمعية الخريجين حملة في أنحاء الولايات المتحدة دفاعا عن حقوق الانسان الفلسطينية في فلسطين المحتلة . وهذه الحملة التي ابتدأت كمشروع صغير من مشاريع جمعية الخريجين ، منحت استقلالها ونمت وتحولت اخيرا الى منظمة اميركية ـ هي « حملة حقوق الانسان الفلسطينية » ـ لها فروع ناشطة عدة وعشرات من الأعضاء المكرسين للدفاع عن السجناء السياسيين الفلسطينيين والحقوق السياسية الفلسطينية . الا ان جمعية الخريجين لم تؤسس وتطلق حملة حقوق الانسان الفلسطينية فحسب ، ولكنها انشأت أيضا مؤسسة جديدة هي معهد الدراسات العربية الذي سيكون مركزه في بوسطن وسيشرع في برنامج أبحاث وتأليف ونشر عما قريب . والمعهد معني بجميع وجوه قضايا الوطن العربي ، ولا سيما الانماء ، وسيتقاسم هذا المعهد مع جمعية الخريجين شؤون المجلة الاكاديمية والفكرية التي كانت الجمعية تصدرها بعنوان « الدراسات العربية الفصلية » . وهي الآن في عامها الثاني ، وهي المجلة الوحيدة التي تعالج شؤون الوطن العربي بلغة غير عربية وتسيطر عليها الاتجاهات العربية سيطرة تامة وتكرس نفسها لمصالح واهتمامات الشعب العربي . كما أنها ليست ناطقة بلسان الحكومة الاميركية ولا تدافع عن المصالح الصهيونية أو الغربية في المنطقة . وهي آخذة في التحول تدريجيا الى مجلة عادية حول الوطن العربي يمكن مطالعتها في معظم مكتبات الجامعات العربية .

لقد فصلت آنفا نشاطات ووظائف جمعية خريجي الجامعات الاميركية العرب في ما يتعلق بالمهني الاميركي العربي الفرد وجماعيا في المجتمع الاميركي . ويبقى ان نفصل طبيعة صلاتها بالوطن العربي . هذه الصلات عديدة الا انها أخف من صلاتها ضمن المجتمع الاميركي . ذلك ان الجمعية ، في جمعها معا المهنيين العرب المقيمين في الولايات المتحدة ، قد وفرت للمؤسسات والحكومات العربية قناة اتصال جاهزة للوصول الى الأشخاص المهرة من أجل تجنيدهم للخدمة ولاستشارتهم وطلب النصائح منهم . وبالفعل ، فان الجامعات العربية ، وبخاصة جامعات شبه الجزيرة العربية والخليج العربي وليبيا والضفة الغربية تنشر بصورة منتظمة تقريبا اعلانات في نشرة Newsletter وغيرها من وسائل اعلام جمعية الخريجين طلبا للمرشحين . وكذلك حضر ممثلو الحكومات والجامعات والمؤسسات والشركات العربية مؤتمرات الجمعية واستخدموا شبكات غير رسمية لتجنيد ذوي الخبرات والمؤهلات على أساس دائم أو مؤقت أو لاشراكهم في نشاطات مهنية أو استشارية . وحققت هذه الجهود نجاحا متواضعا ووضعت المهنيين الاميركيين العرب في خدمة الوطن العربي . وفي هذا المجال ساعدت جمعية الخريجين على نحو متواضع ، خصوصا منذ ١٩٧٣ ، في عودة الأدمغة العربية المهاجرة . وهنا يمكنني القول بثقة أن الجمعية وأعضاءها الافراد مستعدون الآن لتنمية وتوسيع نطاق مثل هذه النشاطات .

وقد تعاونت جمعية الخريجين مع مؤسسات عربية لعقد مؤتمرات في الوطن العربي . وكان المؤتمر الأول مؤتمرا كبيرا حول « تنمية الموارد البشرية في العالم العربي » ، وقد عقد في الكويت في ١٩٧٥ بالاشتراك مع المجلس الاعلى للثقافة والفنون والآداب . وحضره نحو ٥٠٠ موفد جاء نصفهم

على الأقل من الولايات المتحدة . وكان مؤتمرا ناجحا انتج في النهاية مجلدا مهما بالعربية يضم جميع محاضر وأعمال المؤتمر . وفي الآونة الأخيرة عقدت في بيروت ، في ١٩٧٩ ، ندوة أصغر حجما حول « السياسة الخارجية الاميركية نحو العالم العربي » ، وقد رعتها جمعية الخريجين بصورة مشتركة مع مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية . ونشرت أعمال هذه الندوة أيضا في مجلة « شؤون فلسطينية » . لقد كانت هذه المؤتمرات ناجحة ، وأثارت الاهتمام ، وجددت الاتصالات بين مهنيي الوطن العربي والمغتربين العرب ، وأفسحت في المجال لتبادل وتفاعل الأفكار والآراء . ودعيت جمعية الخريجين ، وأرسلت ممثلين ليشاركوا في اجتماعات للمهنيين العرب . وتشمل هذه اجتماعات المؤرخين العرب في ليبيا ، وجمعية الادارة العامة العربية في العربية السعودية وغيرهما . وفي الآونة الأخيرة شاركت جمعية الخريجين في ندوة جامعة الدول العربية حول « الإعلام العربي » في تونس . وقد اعترفت القيادة الجديدة للجامعة العربية بجدوى نصائح واستشارات جمعية الخريجين واستعانت بها . وباختصار ، صارت جمعية الخريجين أداة ناجحة للافادة من المهنيين العرب المغتربين ، افراديا وجماعيا ، لتشجيع وتعزيز المشاركة الاكاديمية والمهنية والاستشارية في وطنهم . وما يزال اختبار جمعية الخريجين في بدايته ، الا ان الجهود والنوايا الحسنة كفيلة بزيادة المشاركة والفوائد للوطن العربي .

بمعنى من المعاني ، قد تكون جمعية الخريجين ، بوصفها منظمة للمهنيين العرب المغتربين ، عززت هجرة الأدمغة العربية بمنحها المهني العربي الفرد المغترب دورا يلعبه في الولايات المتحدة في ما يتعلق بوطنه . بيد أنها خرجت الى الوجود استجابة لاحتياجات اجتماعية ـ سياسية لدى هؤلاء المهنيين في إطار بيئة معادية اجتماعيا في الولايات المتحدة . ومع هذا ، فقد جمعت جمعية الخريجين معا جماعة من المهنيين المغتربين الموهوبين ، وعبأتهم وشجعت اتصالاتهم واهتماماتهم في وطنهم الأم . وبالفعل فان الوطن العربي ، ومنظماته ومؤسساته فضلا عن الجامعة العربية ، قد تكون كسبت بعض المواهب الفريدة المطلعة على شؤون الغرب والولايات المتحدة وأنظمتها ومؤسساتها ولها اتصالات ضمن المجتمع الاميركي . وكانت جمعية الخريجين هي الاداة التي جعلت كل هذه - الأمور ممكنة ، أو على الأقل سهلت مشاركة المهنيين في الاهتمامات العربية والاميركية ـ العربية . وبهذا المعنى ، فان جمعية الخريجين ، إفراديا وجماعيا ، قد ساعدت في عكس طاقة الأدمغة ـ المواهب التي يمكن بالفعل وضعها في خدمة الوطن العربي . ولعل الأمر الذي تدعو اليه الحاجة في هذه المرحلة هي العثور على سبل ووسائل أفضل وأكثر فعالية لزيادة إشراك المهني العربي المغترب في إنماء الوطن العربي على الرغم من بعد مسافة الإقامة . وجمعية الخريجين هي قناة وصل ممتازة .

E . Said , **Orientalism** ,
(Pantheon Books , New york , 1978) .
B.Turner, **Marxism and the End of Orientalism** ,
(Allen and Unwin , London , 1978) .

روز ماري صايغ

باحثة في الشؤون الاجتماعية العربية عموما والفلسطينية خصوصا . عملت سابقا مراسلة لمجلة الاكونومست البريطانية ورئيسة لتحرير مجلة « المدل ايست فورم » في بيروت .

ولد الاستشراق في القرن الرابع عشر كجزء من النشاط التبشيري للكنيسة المسيحية ، وقد استمر ينمو ويتكاثر حتى يومنا هذا ، اصبح الان يتلقى دعما قويا في بيئته الاميركية من شركات النفط وحكومات النفط (من ضمن جهات اخرى). ولو كان الاستشراق مجرد ظاهرة فكرية، فانه لن يستعيد نشاطه ابدا بعد الانتقادات التي وجهها اليه كاتبان صدر كتاباهما في ١٩٧٨ : ادوارد سعيد وبريان ترنر . ولا يعني هذا انه لم يسبق هذين الكاتبين احد الى القيام بهذه المهمة الضرورية : فان كلا من نورمان دانيال وانور عبد الملك وطلال اسعد وعبدالله العروي وكتاب مجلة دراسات الشرق الاوسط قد كتبوا انتقادات بارزة . الا ان هاتين الدراستين تتميزان برونق والمعية ونضج تجعل من عام صدورهما سنة لا تمحى من الذاكرة بالنسبة لجميع المعنيين بالشرق الاوسط .

ويختلف الكاتبان ويتباعدان : فهما يأتيان من فرعين مختلفين من فروع المعرفة والدراسة - فادوارد سعيد استاذ للادب المقارن في جامعة كولومبيا ، وترنر استاذ لعلم الاجتماع في جامعة ابردين في اسكتلندا . كما انهما يكتبان لغرضين وجمهورين مختلفين - فكتاب ترنر هو السابع في سلسلة حول « مناظرات في علم الاجتماع » ، موجه للاخصائيين وعلماء الإجتماع في المنطقة ، وكتاب سعيد بيع منه حتى الان من النسخ ما يفوق بكثير ما يحلم به معظم اساتذة الجامعات ، نظرا لجاذبياته المتميزة بمزيج غير عادي من الفكر النير والخيال المتقن ومراعاة قراء ربما لم يقرأوا شيئاً آخر حول الشرق الاوسط . وبوصفهما كاتبين محترفين فانهما يتقنان استخدام ادوات مهنتهما من كلمات وافكار ومفاهيم :وهي في حال ترنر مفاهيم التحليل الاجتماعي والتاريخي الماركسي الذي يستخدمه بوضوح غير اعتيادي . ولدى سعيد اسلوب خاص يتميز به ، ضمن التقليد الانساني الواسع الذي يعبر جميع خطوط حدود التخصص . ولكن على الرغم من اختلاف هذين الكاتبين في كثير من النواحي ، فان دراستيهما النقديتين تلتقيان مثل اشعة الليزر على نفس الهدف : الاستشراق .

مما لا ريب فيه ان الصفات التي تجعل من كتاب ادوارد سعيد ظاهرة فريدة في عالم النشر لم تكتسب ضمن الكليات التي تقدم دراسات حول منطقة الشرق الاوسط . فالمرء يحس ، تحت القوة الكلامية التي تتخطى مجرد الفصاحة ، وتحت الاندفاع الحاد عبر غابة الاستشراق (الذي يشبه الحيوانات التاريخية من حيث ان حجمه اكبر بكثير من دماغه) ، بغضب شديد نادرا ما يصمد امام التدريب الاكاديمي . ومع هذا فكتاب « الاستشراق » ليس مجرد هجوم عنيف على هذه النزعة . فان سعيد يكتب من مركز ثابت ضمن تقليد النقد الادبي ، بما يتميز به من تفحص منضبط للنصوص . ومدى الإسناد لديه هائل ومذهل ، وكونه يستطيع الإفادة بحكمة من مفكرين امثال غرامشي وفوكو وبارت و آ . ا . رتشاردز وريموند وليمز إنما يساعده على تقليص حجم الاستشراق الى مقاييسه الصحيحة .

في مقدمة نيرة وصافية التفكير ، يقدم سعيد ملخص ما سوف يكوّن نظرته الى الاستشراق ، والطريقة التي سيتناوله بها . كبداية . يستحق هذا الفصل الاول ان

يقرأ تكرارا عدة مرات ، اولا لانه يثير اسئلة جوهرية حول العلاقة بين عالم الثقافة والمعرفة ، وعالم السياسة والقوة ، وثانيا لانه يقدم نسخة بارعة الايجاز لكل ما سيقوله سعيد فيما بعد حول الاستشراق ، وثالثا لانه يعالج بطريقة يقتدى بها مشكلة ينبغي على جميع الكتاب ان يواجهوها ، ولكن معظمهم يهملها او يتجاهلها ، وهي تأثر الكاتب شخصيا بموضوعه . ومن هذه الناحية ، يكتب سعيد من مركز مطلع من الداخل غريب من الخارج قد يعتبر مؤلماً ومحظوظاً في آن معا. فهو من حيث المولد والشعور فلسطيني عربي ، « شرقي » ، واحد من الكائنات البشرية التي افترض انها عاجزة عن الإفصاح عن ارائها ومشاعرها فبرز الاستشراق الى حيز الوجود ليحددها ويعرف بها ويصفها . ومع هذا فانه شرقي من نوع خاص ، شرقي اتاح له إنجازه الفكري ان ينال المكافأة الجذابة والمنفرة في آن معا (التي اجاد فانون في وصفها في كتابه « بشرة سوداء ، اقنعة بيضاء » وهي ان يعتبر « واحدا منا » .

ولد سعيد في فلسطين ايام الانتداب البريطاني ، وانتسب الى مدرسة في مصر يسيطر عليها البريطانيون ، وعاش الحقيقة بأنه لا يوجد اي فصل حقيقي بين المعرفة والسلطة . ومع هذا فهو لا ينظر الى ظواهر الثقافة على انها يمكن اختزالها ببساطة وإيجازها بحقائق السلطة (وبالطبع تبقى هذه العلاقة معقدة ومثيرة للجدل ضمن الثقافة الماركسية) . وعوضا عن ذلك يضع نفسه عند نقطة حاسمة بين تقليدي الحركة الإنسانية والماركسية ، مهاجما التيار السائد للنقد الادبي الانكلو - اميركي لرفضه رؤية العناصر السياسية في النصوص الادبية والعلمية ، فيما هو يؤنب الماركسيين على اساليبهم النقدية التي تتصف بعدم التعقيد العالي نسبيا . وهكذا فان طريقته ستكون استخدام اسلوب مصقول ودقيق في تحليل النصوص لاظهار الاستشراق بوصفه ، في الاساس والجوهر ، « نظام مزاعم بروقراطي » « هيئة السلطة » وبوصفه : « المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق - التعامل معه عن طريق الإدلاء بتصريحات حوله ، وإقرار اراء فيه ، ووصفه ، وتعليمه ، وحكمه ، وباختصار ، الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق ، واعادة تنظيمه والتسلط عليه » . وهكذا ينظر الى الاستشراق على انه يبرز من القوة الاوروبية ، على انه « وعي غربي مستقل » . ولا تشكل الحقائق « الشرقية » تطوره اللاحق ، بل تصوغ هذا التطور « مجموعة من الرغبات والكوابح والتثميرات والإسقاطات » في اوروبا . ورسمت التوسعية الاوروبية النامية ، والموروثة عن روما ، في المتسع الجغرافي خارج نفسها عبارة عالمية وغير مميزة هي « الشرق » ، فأقامت حوله صورة اساسية عن فراغ وصمت واستكانة وغموض ، شجعت الإختراق الاوروبي وسوغته . « كان مثل هذا الشرق صامتا ، وفي متناول اوروبا من اجل تحقيق مشاريع اشركت السكان الوطنيين ولكنها لم تكن ابدا مسؤولة بصورة مباشرة تجاههم ، كما كان عاجزا عن مقاومة المشاريع او الصور او مجرد الاوصاف التي ابتكرت له . وتم تشريق الشرق .... لانه كان من **الممكن تصييره** شرقيا ، اي استسلم لان **يُصيرّ** شرقيا » .

من هنا فإن بين المهمات الاولى لمفكري العالم الثالث هي ان يواجهوا بجرأة ، وان ينتقدوا ويبطلوا المقدمات المنطقية الاساسية للاستشراق ، الذي يستمر في ان يكون له تأثير كبير خارج الحلقات الاكاديمية الغربية ، بين السياسيين ووسائل الإعلام . ويجب ان يكون هذا هو شكل نضالهم ، بوصفهم رجال فكر .

وفي نهاية المطاف - وهنا لا بد ان نميّز سعيد عن معظم نقاد الاستشراق الاخرين ، بمن فيهم ترنر - نجد ان اساس حجته ليس ان « الشرق » (او الإسلام ، او الشرق الاوسط) يملك واقعا **يشوه الاستشراق حقائقه** (علما بانه يفعل هذا باستمرار) ، بل بالاحرى ان جميع النصوص ، او التصاريح ، او المقالات هي في الاساس مزاعم . ولا بد من النظر اليها على انها دنيوية ، وعلى ان لها مركزا في البنى العامة للسلطة، وهدفا ورمزية، ولا يجوز اعتبارها ابدا افكارا مباشرة حول الحقيقة الموضوعية . وكما يعبر سعيد : « ان كل ما اقصده حول (الاستشراق) هو ليس انه تشويه لجوهر شرقي ما لا اؤمن به انا على الاطلاق - بل انه يعمل كما تعمل المزاعم عادة ، من اجل غرض ما ، وفقا لنزعة ما ، في وضع تاريخي فكري ، وحتى اقتصادي معين » . ولذلك فانه ليس لقوة وتماسك الاستشراق بوصفه مؤسسة ثقافية - قدرته على ان ينتج نفسه تكرارا عبر الزمن - سوى علاقة مباشرة بموضوع دراسته المفترض ، « الشرق » . وكان دائما يفترض الوجود الحقيقي لموضوع دراسته ، ومع هذا ، كما يشير سعيد المرة تلو المرة ، بقي على الدوام بمنأى عن ذلك الواقع ، وغير متأثر به . والاصل الاساسي لهذا الابتعاد يكمن في تحديد « الشرق » بوصفه « الاخر » ، في التقسيم الاولي للعالم الى « نحن » و « هم » . ومع وجود هذا التقسيم كنقطة إنطلاق ، وبالتالي كمبدأ منظّم اساسي ، لم يستطع الاستشراق ان يصل الى ادراك اوثق لـ « الثقافات والامم الواقعة في الشرق ، والتي يوجد لحيواتها وتواريخها

وعاداتها واقع فظ من الواضح انه اعظم من اي شيء يمكن قوله حولها في الغرب » .

هذا الإبعاد لـ « الشرق » عن طريق التحديد الاولي له عزته العلمية (اي العلم الساذج) التي تبناها الاستشراق الاكاديمي في مرحلة مبكرة : المنهج الموسوعي ، جمع المعلومات النظامي ، والفيلولوجيا الخ . فهنا كانت توجد ادلة ملموسة على « الفرق » بين اوروبا و « الشرق » . فدون العلم الغربي ، ما كان بإمكان « الشرق » ان يعرف نفسه – ومن هنا النظريات البدائية حول لا عقلانية « العقل الشرقي » . ومع هذا لم يصبح الاستشراق ابدا علميا بصورة كافية ليسأل نفسه ما اذا كان « الشرق » موجودا حقا . وان إنعدام اساس اونتولوجي (اي متعلق بعلم الوجود) متين هو الذي يجعل الاستشراق عقيما الى هذا الحد من الناحية النظرية ، على الرغم من تنميقه وتماسكه الداخلي . فالتفكير كان سيعني ادراك انه لا يوجد اي اساس موضوعي حقيقي كحقل دراسة . وهكذا اضطر الى ان يبقى غير واع ذاته نظريا لكي يستمر كمؤسسة ويحقق اغراضه المتعددة .

ولذلك فان التغييرات ضمن الاستشراق لم يكن لها اية صلة بـ « الشرق » . بل كانت على صلة وثيقة باوروبا . فقد عكست « افكارا قوية » في التاريخ الاوروبي . العنصرية ، الرومنطيقية ، الداروينية والفرويدية . واستجابت للازمات الاوروبية ، المادية منها والمعنوية . واتخذت اشكالا مختلفة ضمن بيئات قومية مختلفة (فرنسية ، بريطانية ، المانية الخ) . الا انها لم تنجب قط اية نظرية رئيسية مهمة ، او اي منظور نظري . حتى انها لم تنجح في هدفها الاكثر محدودية . تقديم وصف تفسيري دقيق عن « الشرق » . ولا يعلق سعيد اهمية كبيرة على هذا الاخفاق بسبب نظرته الى العلاقة المعقدة بين « الواقع » و « المزاعم » . ولكنه يرد بصورة ضمنية في الكثير مما يكتبه ، خصوصا حول دارسي الشؤون الاسلامية ، وفي الواقع فان انتقاد بريان ترنر يوجه هجومه الرئيسي الى هذه الناحية بالذات .

ان الطبيعة الخيالية والابرازية التي يتميز بها الاستشراق في الاساس قد اعطت نتاجاته تماسكا داخليا ووضوحا عظيمين . وفي الوقت ذاته بدت وكأنها تحلها من ضرورة اثبات صحتها – فعدم الوعي الذاتي فيما يتعلق بموضوع البحث . والقبول غير المنتقد بما سماه الفين غولدنر « افتراضات حول حقل الدراسة » . قد اديا بصورة محتمة الى عدم الوعي الذاتي حول اساليب البحث . وعوضا عن ربط نتائج دراساتهم بوجه ما من وجوه « الواقع » « هناك » في « الشرق » . فقد اعلنوا شرعيتها بواسطة « تتبع الاصل » ، اي عن طريق تبني وتكييف منظور احد الاسلاف البارزين الذي اصبح بالتالي ، كما في السياسة القبلية ، سلفا مهمته إضفاء الشرعية . وضاع الإلتزام بإظهار صدق المواقف الاستشراقية في خضمّ ضحامة المؤسسة وسلطتها . وبما انها تتألف من حلقة مغلقة من الممارسين ، فان احدا لم يدعُها الى تقديم حساب .

ويصف سعيد الروابط السلالية بين النصوص الاستشراقية على النحو التالي : « ان كل كاتب حول الشرق (ويصح هذا القول حتى على (هوميروس) يفترض وجود سابقة شرقية ما ، معرفة سابقة ما بالشرق ، يشير اليها ويتكل عليها . وبالاضافة الى ذلك فان كل دراسة حول الشرق تربط نفسها بدراسات اخرى ، وبجماهير ، وبمؤسسات وبالشرق نفسه . » .

ومع انه لا يمكن نكران وجود صلة ما للإستشراق بالشرق الحقيقي ، فان هذه هي اضعف صلاته واقلها اهمية ، لان اقوى صلاته هي مع نفسه . ويتخذ سعيد من ابطال رواية فلوبير العظيمة وغير الكاملة ، **Bouvard Et PéCUCHET** ، استعارة للإستشراق : فبعدما يبدأون بمشروع علمي عظيم ، ينتهي بهم الامر الى مجرد نسخ لنصوصهم المفضلة .

وليس من الصعب رؤية صلة مباشرة بين علاقة الاستشراق الضعيفة بموضوع دراسته (الشرق) ، وتزايد تيسر هذا (الشرق) من اجل الاغراض السياسية . ولعل التوسعية الاوروبية جعلت هذا الاستغلال محتما ، والحالة النموذجية هي غزو نابليون لمصر – ولكننا لم نسمع عن مقاومة الكثيرين من المستشرقين لهذه النزعة . بل ابدى معظمهم إستعدادا بالغا للمساعدة ، للتوجيه ، وللتسويغ . وقد حمل كتابان صدرا اخيرا حول ت . إ . لورنس ادلة جديدة على الدور السياسي الذي لعبه الكثيرون من العلماء البريطانيين ، وقد نبّهنا تشومسكي ، في دراسته **NEW MANDARINS** ، للمهمات التي انيطت بعلماء الاجتماع والسياسة في الولايات المتحدة . غير ان سعيد غير معني بفضح العملاء والجواسيس . فمشروعه اكثر طموحا : اظهار ان الاستشراق كان على الدوام وبصورة لا مناص منها جزءا ، وان يكن بطرق معقدة ، من التوسعية الاوروبية ، مؤسسة إمبريالية .

في مواجهة الكتلة الضخمة من كتابات الاستشراق : اقسامها الفرعية المعقدة : (الدراسات الاسلامية ، الدراسات السامية الخ ، واطوارها ، ولحظاتها ، ومداها (من الفيلولوجيا الى الاداب الخلاعية) ، ومدارسها القومية ، يتوجب على الناقد ان يختار ، وان يثبت صحة اختياره . وان قلة من الناس لن تقبل بصحة اختيار سعيد للإستشراق الانكلو ـ فرنسي ـ اميركي او بقصر تركيزه على ذلك الجزء من الإستشراق الذي عني بالاسلام والعالم العربي . فهذه هي حالات « قوية » في النطاقين السياسي والحضاري على السواء ، ومهاجمتها انما تعني التسديد نحو الوسط وليس نحو الحد الخارجي .

واحدى المشكلات المتصلة بالموضوع هي كيفية القيام بالبحث ، وعند اي مستوى من العرض : اي ، كيفية تبين « المجموعة العامة من الافكار التي تتجاوز معظم المواد » . وسيكون من السهل على المرء ، عن طريق المغالاة في التعميم ، ان يقع في الدوغماتية او الجدل الذي لا طائل تحته . ومع هذا فان محاولة القيام بتغطية تفصيلية مغالية ستعني المجازفة بالوقوع في شرك البحث الموسوعي ، غير التحليلي ، و « المرتب ترتيبا زمنيا غبيا » (ويثبت اقتباس قتال من « تأريخ كمبردج للاسلام » مدى سهولة وقوع المستشرقين في شرك هذا المرض) . ويتحسس سعيد متطلبات جمهوره الجمالية والفكرية ، فيظهر بواسطة الاقتباس والإشارة الضمنية التنويعات الفنية ضمن الإستشراق بين المارسين الافراد ، بين المدارس القومية ، والحقبات التاريخية . وتبرز كمية معينة من الصفات الشخصية المميزة : شاتوبريان يتعامل مع الشرق الاوسط خلال تجواله وكأنه مجرد ديكور ، لين المبتعد بحذر وتحفظ عن المصريين الذين كان يدرسهم ، نيرفال وهو يبحث عن المرأة الشرقية ، فلوبير وهو يسلي اصدقاءه الباريسيين بقصص فاحشة بعيدة الإحتمال من القاهرة . وفيما يشرف سعيد على إدارة هذا العرض المذهل للتفاصيل والعلم ، فانه يتابع بحث مواضيعه المركزية : اقتناع كل عالم اوروبي تقريبا بأن عرقه هو اسمى الاعراق ، والاستشراق بوصفه استيلاء وإزاحة ، وحتى الوظيفة الضمنية للمستشرقين (في حال اشخاص غريبي الاطوار امثال برتون) كمؤلفين امبرياليين ، يسيطرون بواسطة المعرفة .

على الصعيد الإنساني والشخصي ، يثير سعيد كذلك الظاهرة المحيرة : تزامن الانجذاب والإشمئزاز في علاقة معظم المستشرقين بحقلهم ، وقد تجلى هذا في البقاء بمنأى عن الشرق واهله ، والشعور بخيبة امل ازاءهما ، والانتقاص من قدرهما ، وحتى الشعور بعداء نحوهما . لماذا ، اذاً ، كرسوا حيواتهم لموضوع يبدو ان قلة منهم فقط شعرت بحماس حقيقي له ؟ لقد كان عدة اشخاص منهم ، وأحدهم رينان على سبيل المثال ، لاساميين وعنصريين ، وكان هذا الاتجاه ملحوظا وبارزا بنوع خاص لدى فيلولوجيي القرن التاسع عشر الذين اهتموا بأصول الحضارة الاوروبية وكان دارسو الشؤون الاسلامية ميالين الى هذه النزعة على الدوام . ولكن لعلها بلغت اوجها لدى المستشرقين المعاصرين ، او الخبراء في شؤون منطقة الشرق الاوسط ، كما صار الناس يميلون الى تسميتهم . ومع ان سعيد لم يسهب في الحديث عن شخصيات القرن العشرين (في ما عدا ما سينيون وغيب اللذين يبين من خلالهما الفرق بين الاستشراق الفرنسي والبريطاني) ، فانه يقدم بالفعل بعض الاقتباسات الموضحة للامور الخفية من برنارد لويس وفون غرونباوم وبرغر وباتاي وغيرهم . (ان بريان ترنر ، الذي سأتناول كتابه بعد قليل ، يركز بصورة رئيسية على الاخصائيين المعاصرين في شؤون منطقة الشرق الاوسط) . وتستمر ظاهرة المستشرقين المعادين للعرب في ان تكونّ لنفسها تأثيرات واسعة خارج الحلقات الاكاديمية . ومن الطبيعي ان يكون سعيد ، بوصفه فلسطينيا عربيا ، ذا حساسية لامثال هؤلاء ، وهو يكرس عدة صفحات لبحث الصلات بين الإستشراق المعاصر والصور والاراء المقولبة في وسائل الاعلام .

لقد فسّر بعض المفكرين العرب النزعة المناهضة للعروبة لدى هذه الجماعة من العلماء بالقول بأن عددا كبيراً منهم يهود . ولا يبدو هذا تفسيرا وافيا بالغرض ، بالنظر الى قدم النزعة الاوروبية المناهضة للعرب ، التي كانت بارزة ، على سبيل المثال ، حتى عند دانتي الذي وضع النبي محمد في قصيدته « الجحيم » عند ادنى حلقات الجحيم تقريبا وهي الحلقة المخصصة للهراطقة والمارقين . وتقترح دراسة سعيد نظرة اوسع ، وهي ان الازمة المعاصرة الاخذة في التفاقم بين الغرب والشرق الاوسط قد زادت من حدة عداء سبق ان كان كامنا في الاستشراق ، وخلق سوقا للتصريحات المتطرفة ضد العرب .

وكما ان استشراق القرن التاسع عشر استوعب اتجاهات شبنغلرية او دار وينية، فان استشراق القرن اتجاهات يظهر فرويدية مشوهة . مثال ذلك ان برغر يلاحظ ان الرجال العرب يعلقون اهمية كبيرة على « براعتهم الجنسية الفائقة » (وكأن هذه هي ظاهرة

فريدة مقتصرة عليهم !) وفي مواجهة دينامية وتعقيدات العالم العربي المعاصر ، ينكفىء مستشرقون (امثال باتاي وفاتيكيوتيس) الى سيكولوجية زائفة لتغطية الإفلاس التام لمفاهيمهم ونظراتهم واساليبهم . وفي هذا الشكل المشوه ، يستحيل تمييز كتاباتهم عن صور وسائل الإعلام ، التي تحافظ على قوة تأثيرها على الرغم مما تتصف به من تناقضات داخلية . فهم يرون الشرق العربي على انه في آن معا مستكين / مهدد بالخطر / فارغ / يعج بالبشر / غير خلاق / كثير التناسل / غير منتج / هائج . وبواسطة صور كهذه ، يتم تمهيد الطريق لكي يستعمل « الغرب المتمدن » بربريته المنظمة الخاصة لسحق الشرق .

انه لامر مدهش حقا ان نلاحظ العدد الكبير من النقاط التي تتقاطع فيها طريقا الكاتبين سعيد وترنر ، خصوصا اذا نظرنا الى منظوراتهما وغاياتهما المختلفة جدا . فكلاهما يسددان هجومهما نحو الاساس الاونتولوجي المتزعزع للاستشراق ، ونحو تقسيمه العالم تقسيما خاطئاً الى جزئين ، واستخدامه للانواع المثالية والتصميمات الجارفة ، وحججه الدائرية وغير المباشرة . ومثاليته الهيغلية ، واخفاقه التام في التجاوب مع التغييرات الحقيقية في الشرق الحقيقي . غير ان نقطة انطلاق ترنر هي الحالة (المتخلفة) للنظرية والمنهج في دراسات الشرق الاوسط المعاصرة . وفي حين ان كتاب سعيد بانوراما تاريخية وثقافية ، عرض فائق البراعة للسيطرة على مواضيع كبيرة وتفاصيل نصوصية . فان دراسة ترنر النقدية تتحرك في مجاز اضيق يعينه اهتمامه ، كعالم اجتماعي ، بتنمية ادوات تحليلية لتفسير واقع الشرق الاوسط ، التاريخي والمعاصر على السواء . وهذا لا يجعل مشروعه اقل اهمية : وهو ان يدل على طرق للخروج من المأزق الذي تكمن فيه دراسات الشرق الاوسط . انه بالفعل كتاب غير اعتيادي ، واول كتاب في هذا الحقل ينتقل بصورة نظامية من النقد الى بناء ادوات تحليلية . ومع ان اساس إسناده ماركسي ، فان هذا يجب الا ينفر احدا ، اذ ان اللغة والحجج هي دوما واضحة وصافية التفكير ، وان تكن مكثفة .

ويرى ترنر ان « التخلف » المفاهيمي لا يسيطر على المقاربات الاكاديمية التقليدية للشرق الاوسط فحسب ، بل على المقاربات الماركسية ايضا . وهو يعزو هذه الحقيقة الى كون الافتراضات الاستشراقية والتاريخية الهيغلية تتخلل هذين النوعين من المقاربات . وفضلا عن التقليد السوسيولوجي الاهلي غير المطور في علم الاجتماع الشرق اوسطي (لم ينجز ابن خلدون عمله ابدا) ، فان هذا العلم انتج حتى الآن شكلين رئيسين : نوعا دوركيميا استورده الاستعمار الغربي كوسيلة تساعد على السيطرة . ونوعا ماركسيا جاء كردة فعل . الا ان المقاربات الماركسية للشرق الاوسط ما تزال تسودها المشكلات النظرية الصعبة التي تبقى بلا حل ضمن الدراسات الماركسية (مثال ذلك صحة مفهوم نمط الانتاج الاسيوي ، او عدم وجود نظرية وافية بالغرض للقومية . او العلاقة بين الصراع القومي والطبقي) . وهكذا فان هجوم ترنر لا يقتصر على انتقاد اسلوب خضوري ـ لويس ـ فاتيكيوتيس ، في دراسة الشرق الاوسط ـ علما بانه يفعل ذلك بنجاح بالغ ـ بل انه يواصل طريقه ليرى ما يمكن فعله بمفاهيم التحليل الماركسي لجعلها اكثر قدرة على شرح وتوضيح مجتمع الشرق الاوسط . وتنشأ الصعوبة الجمة التي تواجهها هذه المهمة ، من ناحية ، عن المشكلات النظرية غير المحلولة المذكورة آنفا . ومن الناحية الاخرى عن الوضع البدائي للمعرفة حول التشكيلات الاجتماعية الماضية والحاضرة للشرق الاوسط . ومع هذا ففي كل من المناطق المحددة الصعبة الحل التي يركز ترنر جهده عليها ، يخرج بمزيد من المفاهيم العلمية التي يحلل بها واقع الشرق الاوسط .

المشكلة الاولى التي يعالجها هي نظرية ماركس حول نمط الانتاج الاسيوي . وموقفه العام من مسألة نفاذ الرأسمالية الى العالم السابق للرأسمالية . كان قد سبق لترنر ان عمل على هذا الموضوع في دراسته النقدية لكتاب افينيري « كارل ماركس حول الاستعمار والتحديث » (١٩٦٨) . ففي هذا الكتاب كان افينيري قد جادل بانه نظرا الى ان ماركس اعتبر التشكيلات الاجتماعية الاسيوية جامدة راكدة وعاجزة عن التغيير ، يتوجب على الماركسيين ان يقبلوا باسرائيل بوصفها قوة تقدمية وتحديثية في الشرق الاوسط ، وتؤدي ، على نحو افضل ، المهمة التي اخفق في تأديتها الاستعمار الفرنسي والبريطاني ، عن طريق دعمه للطبقات الحاكمة التقليدية . وفي هذه النظرة « تتعاظم امكانية التغيير الجذري في آسيا والشرق الاوسط كلما ازداد الاستعمار الرأسمالي قوة » ـ اي ان الامبريالية ضرورية بوصفها القابلة للاشتراكية الكونية . ويستخدم ترنر الكثير من المواد من دراسته النقدية السابقة ، فيدحض حجة افينيري مستندا الى اسس نظرية وتجريبية على السواء ، مظهرا ان الفلسطينيين العرب لم يتم « تحديثهم » ولكنهم بالاحرى حولوا الى « لاجئين ريفيين » ، الى احتياطي ايد عاملة للاقتصاد الاسرائيلي . فالوضع الذي

احاطه افينيري بالغموض عندما استخدم عبارة « التحديث » ينبغي النظر اليه على انه حالة متطرفة من حالات الاعتماد والتخلف ، اوجدها الاستعمار الرأسمالي الاسرائيلي . الا ان ترنر ليس معنيا بدحض نظرية افينيري بقدر ما هو معني بوضعها في بحث أوسع للنظرية الماركسية ، يمتد من نمط الانتاج الاسيوي ، الى العلاقة بين انماط الانتاج بوصفها منشآت نظرية وتشكيلات اجتماعية محددة ، الى المفاهيم اللازمة لتحليل مجتمعات الشرق الاوسط الفعلية .

يتركز جزء من هذا النقاش على ان اراء ماركس نشأت بين الكتابات الصحفية الاولى التي ركز افينيري عليها موقفه وتفكير ماركس اللاحق في كتاب « رأس المال »،حيث توسع في بحث انماط الانتاج السابقة للارأسمالية . والى ذلك ، في حين ان بعض المقاطع لدى ماركس تكشف عن ادراك للتأثيرات الهدامة والمشوهة التي تتركها الرأسمالية على المجتمعات السابقة للرأسمالية ، فان مقاطع اخرى تعتبر هذا التأثير ضروريا وتقدميا . مثال ذلك : « على انكلترا ان تحقق مهمة مزدوجة في الهند . إحداهما هدامة ، والاخرى مجددة - إفناء المجتمع الاسيوي ، ووضع الاسس المادية للمجتمع الغربي في آسيا » .

إن هذه النظرة الاخيرة هي التي يعتبرها ترنر النظرة السائدة ، في حين انه يرفض اعتبار كتابات ماركس الصحفية كمصدر جدي . وان نمط الانتاج الاسيوي هو في الواقع مفهوم شبه استشراقي ، يقارن شرقا مستكينا مع غرب،ديناميكي تقدمي .

كان التقليد الاستشراقي دائما يصور المجتمع الشرق الاوسطي على انه لا طبقي ولا تاريخ له في آن معا، وعلى انه فسيفساء من الجماعات متغايرة العناصر - قبائل وقرى وطوائف - يجمعها معا الاسلام وحاكم مطلق . وكان ينظر الى مثل هذه البنية على انها في آن معا مختلفة عن التشكيلات الاجتماعية الاوروبية ، وتتضمن خللا جوهريا : « نظرا الى التنوع الداخلي للنظام الاجتماعي كان صعبا بالضرورة تنظيم معارضة متجانسة ومتماسكة للحكم السلطوي الذي تمارسه الاسرة الامبريالية . ولذلك فان نظرية المجتمع الفسيفسائي تساعد نظرية الاستبداد الشرقي » .

وقد ادى تشديد ويبر على الاخلاق الاسلامية وغياب طبقة وسطى باعتبارهما يفسران عدم ظهور الرأسمالية في الشرق الاوسط ، الى تعزيز الصورة الاستشراقية ، والى تقديم دعم موثوق ، الى علماء معاصرين مثل فاتيكيوتيس الذي يركز على اخر كتاب صدر له عرضه الكامل لتاريخ الشرق الاوسط على افتقاره الى « ثقافة معارضة » . ومع ان كتاب ويبر حول الشكل المحدد الذي اتخذته الاقطاعية في المجتمعات الاسيوية كان تطويرا جيدا للمفهوم الماركسي غير المميز للاقطاعية الكونية ، فان هذا العمل لم يتابعه لا ويبر ولا علماء آخرون لاكتشاف العلاقات الطبقية ضمن شكلها غير الوراثي . وهكذا فان البحث عن الطبقة الوسطى سبق التحليل واحتل مكانه .

لا مجال هنا لبحث الحجة التي يظهر ترنر من خلالها مواطن ضعف مفهوم نمط الانتاج الاسيوي اذ انها حجة فنية جدا . الا ان الامر الاكثر اثارة لاهتمام القراء غير الماركسيين هو الطريقة التي يأخذ بها حالتين معينتين حيث توجد معطيات تجريبية ،ويستخدمهمالاظهار وجود الطبقات والتناقضات الطبقية . فالامبراطورية العثمانية خلال القرن السادس عشر شهدت « اخضاع » التنظيم « غير الوراثي » التقليدي « للنظام الاقطاعي » ، فيما استجاب ملاكو الاراضي الزراعيون المستقلون لطلبات السوق العالمي على الحبوب بزيادة استغلالهم للفلاحين وواضح ان لا صيغة ويبر حول هذا الشكل من الاقطاع ولا مفهوم نمط الانتاج الاسيوي يسلمان بامكانية حدوث مثل هذا التطور .

وتشير الدراسات الراهنة حول البدو الرعويين الى وجود بنية طبقية داخلية والى نمط انتاج يتميز عن كل من الاقطاعية والكوميونية . وانطلاقا من هذه الحالات يجادل ترنر بأنه كانت هناك على الاقل ثلاثة انماط مختلفة للانتاج في المجتمع الشرق اوسطي السابق للرأسمالية :

الاقطاع غير الوراثي ، والاقطاع التقليدي ، والبدوي ، والى ذلك يقدم كل نمط مجموعة مختلفة من الطبقات المسيطرة والتابعة (السيد الاقطاعي/ القن او عبد الارض ، والسيد غير الوراثي/الفلاح المستقل ،/ والشيخ/ شبه العبد)، مع وجود رتبة من الطبقات المتوسطة الواقعة بين المجموعتين السابقتين : « ان من شأن هذه المقاربة ان تسمح لنا من حيث المبدأ بأن نتصور عقليا نزاعات بين الطبقات ضمن كتلة القوة المسيطرة ، وأزمات ضمن انماط الانتاج السابقة للرأسمالية وتحول الانماط . وباختصار فان هذه المقاربة الى الشرق الاوسط ، يمكنها ان تتجنب الصعوبات الايديولوجية والنظرية لمفهوم (نمط الانتاج الاسيوي) التقليدي الذي افترض عدم وجود اي تاريخ حقيقي ، واية تناقضات وطبقات حقيقة » .

ان قيمة كتاب ترنر الفائقة تكمن في الشوط الكبير الذي يقطعه في اقتراح بدائل من المقاربات الاستشراقية الى الشرق الاوسط نظير مقاربات ليرنر وفياتيكيوتيس . وهو لا يفعل ذلك في بحثه لافينيري ونمط الانتاج الاسيوي فحسب ، بل ايضا في موضوع « الانماء المشترك وغير المتكافىء » . ففي حين اعتبر ماركس الرأسمالية نمط انتاج من شأنه ان يقوض بصورة محتمة الانماط السابقة للرأسمالية ، فانه تكهن ايضا بأن تأثيراتها ستكون موسعة للرأسمال وليس معمقة له . وهكذا فان الماركسية لم تكن مستعدة لقيام « ثنائية دائمة » في الاقتصاد الدولي بين قطاع اجور عالية مكثف للرأسمال وقطاع اجور متدنية ذي انتاجية متدنية ، ولا لظاهرة « الراسمالية » . كما انه لم يتنبأ بأن « توسيع العلاقات الجديدة للانتاج بحيث تدخل المناطق غير الرأسمالية سابقا إنما يقوي فعلا وينتج من جديد اشكالا (متخلفة) من الاستغلال (الاستعباد والقنانة) » .

ويظهر ترنر مفهوم « الانماء المشترك وغير المتكافىء » عن طريق تفحصات مقتضبة للبنان ومصر والجزائر ، وجميعها امثلة على التأثيرات المشوهة للتغلغل الرأسمالي على اقتصادات ومجتمعات شرق اوسطية محددة : تحطيم اقتصاد الكفاف ، الاعتماد على محصول واحد للتصدير (الحرير ، القطن ، النبيذ) ، اكتظاظ سكاني ريفي وضعف طبقة الحرفيين وبطالة مدنية وتحضير البدو والرعويين ـ الصورة النموذجية لمجتمع متخلف : « في حين يبدأ قطاع الصناعة بالتوسع فعلا على رغم فعالية تثمير آخذة في التدني ، فان الزراعة التقليدية تصاب بالركود .. ويرتبط توسع الرأسمال بأشكال عتيقة من التنظيم والاستغلال العماليين . وترتبط الاحتياجات العسكرية والامنية والتجارية المتزايدة بتفجر مبكر النشوء لقطاع الخدمات في تشكيل اجتماعي حيث يتم تنسيق الطبقات الاهلية والكومبرادورية المختلفة في جهاز دولة ضخم لاحق للاستعمار » . ولا يسعنا ان نشك بأن تحليلا كهذا هو اقرب بكثير الى الحقيقة والواقع من تعابير مثل « مجتمع انتقالي » ، « تحديث » او « تصنيع » .

ان فصول كتاب ترنر حول القومية والثورة هي التي ستثير على الارجح اهتمام القراء العرب اكثر من غيرها ، اذ انه ينتقد فيها علماء غربيين امثال خضوري وفاتيكيوتيس اظهروا اكبر قدر من العداء للعالم العربي . وهو ، مثل ادوارد سعيد ، يتعقب « انزعاجهم من القومية العربية وغضبهم عليها الى افتراضاتهم الاستشراقية : « ان أحد الاهداف الأساسية للاستشراق رسم حدود واضحة بين جوهر الحضارة والتاريخ الاوروبيين وجوهر المجتمعات الشرق اوسطية الاسلامية ... وبينما كانت الاقطاعية تحتوي ضمن بناها على بذور الرأسمالية ، فان الاستبداد الشرقي لم يولد غير ركوده هو . الا ان فسيفساء الاسلام التقليدي قد حطمته القوى المتضافرة للاستعمار الغربي والتصنيع والقومية » . بكلام آخر ، ان كل تغيير ، وكل تقدم ، وكل تطوير يأتي من الخارج فالقومية العربية هي في طبيعتها وبصورة لا مناص منها مقلدة ، مزيفة ، لا عقلانية وناقصة : « متجمدة في انتقالها من عالم ديني الى عالم علماني » . ويتم إخضاع خضوري ، بوصفه الد اعداء القومية العربية ، لتفحص مفصل. الا ان الاتجاه الرئيسي لحجة ترنر ، هنا ايضا، هو دفع العلم الماركسي لانتاج نظرية وافية بالمراد اكثر حول الامة .

ومعروف ان ماركس لم يحاول في اي مكان ان يفسح مجالا للامة في إطاره النظري . ولم يعلق لا هو ولا انجلز اية اهمية سياسية على الثورات الوطنية ـ فقد وصف ماركس المونتينيغريين بأنهم « لصوص القلعة » ، ويصرف انجلز النظر عن ثورة عبد القادر بوصفها « النضال اليائس .. لحالة مجتمع بربرية » . وقد نسب ريجي دوبريه هذا الموقف الى مثالية جعلت ماركس قادرا على ان « يؤقلم التاريخ ويلغي عامليه المقررين الاساسيين ... العائلة والامة » . ولكن مهما كانت الاسباب ، فقد ترك هذا الغياب العلماء الماركسيين الحديثين غير مجهزين تجهيزا كافيا لمقاربة نضالات تحرير العالم الثالث ، او لتقرير العلاقة بين الصراع الوطني والطبقي .

وفي حين يعترف ترنر بان صعوبات عديدة تكتنف محاولة تطوير النظرية الماركسية بحيث تشمل الامة ـ وبنوع خاص الجدل المستمر حول العلاقة بين القاعدة والبنية الفوقية ـ فان ترنر يقترح بداية طريق للخروج من هذه المعضلة ، بالنظر الى القومية العربية « بوصفها البنى المتطورة لمجتمع سابق للرأسمالية محدد اخضع بالقوة لنظام سوق عالمي » ، وبوصفها تحالفا مركبا للطبقات الاجتماعية ضمن مجتمع معتمد . ويرى ترنر انه لا يمكن في الوقت الحاضر حل مشكلة ما اذا كان الصراع القومي قد « كبت » الصراع الطبقي نتيجة للتشويهات الاستعمارية .

وبموازاة صورة المستشرقين للقومية العربية على انها « ناقصة » ، نجد تصويرهم للثورات العربية على انها ليست ثورات « حقيقية » ، ولكنها بالاحرى انقلابات

عسكرية . يطرح هذا الرأي بقوة كل من خضوري (١٩٥٢) ، فاتيكيوتيس (١٩٧٢) ولويس (١٩٧٢) ، الذين يعزون هذا الاخفاق الى عدم وجود « ثقافة معارضة » ، وتفضيل الحكم العسكري او غياب مفهوم وطني للثورة . وهم يتفحصون الثورة العربية تلو الاخرى ويصرفونها من اذهانهم باعتبارها غير ذات اهمية . وبما ان ايا من هؤلاء الكتاب لا يطرح نظرية للثورة ، فان حججهم مغلقة كليا وترتكز على الافتراضات الاستشراقية المعتادة حول المجتمع الشرق اوسطي ، وعلى نظرة مثالية وغير تاريخية للتاريخ الاوروبي . ومع هذا فان الماركسية مرة اخرى لا تكاد تقدم اي بديل ، اذ ان مفهوم نمط الانتاج الاسيوي كان بحد ذاته نظرية « لا ثورة » . ومن جديد نجد ان جدلا نظريا لم يحل بعد ضمن الماركسية ـ بين نظريتي الثورة الطوعية والتقريرية ـ لا يترك العلماء الماركسيين في وضع لبحث الثورات العربية افضل من الوضع الذي كانوا فيه لبحث القومية العربية . وهنا ايضا يواصل ترنر عزمه على تحويل المفاهيم « شبه العلمية » الى مفاهيم علمية اكثر . ويعود الى فكرة التشويهات التي ادخلها النفاذ الرأسمالي الى المجتمعات السابقة للرأسمالية ، فيرشد الى صيغة « الدولة المفرطة التطور » ، المقدمة من الادارة الاستعمارية التي سبقتها بجهاز عسكري/بروقراطي قمعي مضخم : « لايمكن تفسير الازمات السياسية والانقلابات العسكرية للتشكيلات الاجتماعية اللاحقة للاستعمار في الشرق الاوسط وشمال إفريقيا عن طريق الاشارة الى الفوارق الجوهرية بين (الغرب) و (المجتمع الاسلامي) ... انها نتائج العلاقات الطبقية المعقدة بين الطبقات السائدة والحاكمة وصراعها للسيطرة على جهاز الدولة » .

وقد استخدم عدد من الماركسيين العرب نشوء البورجوازية الصغيرة كأساس لشرح الوضع السياسي الراهن . ويقدم ترنر تمييزا بين الطبقات « الحاكمة » و « المسيطرة » (البورجوازية الصغيرة وبورجوازية ملاكي الاراضي الصناعيين/التجار التي ما تزال قوية) . ويساعد هذا التمييز في تفسير الكثير من الامور التي تبدو متناقضة في سياسات الانظمة العربية الراهنة . ويقدم النظر الى الصراع بين هذه الطبقات ، والطريقة التي تستعمل بها كل من القوى العسكرية الدولية ، اداة تحليلية اكثر فائدة من ميل عربي غير مفسر الى « الانظمة القوية » . والمفهوم التفسيري الاساسي هو مفهوم النمط الاستعماري للانتاج مع انواعه المحددة للتشويه الاقتصادي والاجتماعي . وهذا وحده يمثل تمثيلا كافيا التغير الجذري في تطور المجتمعات السابقة للرأسمالية الذي سببه الاستعمار ، وهو تغير تطمسه او تخفيه صورة المستشرقين عن مجتمع اسلامي لا يتغير ، او ثالوث التحديثيين : المجتمعات « التقليدية » ، « الانتقالية » و « الحديثة » .

وفي فصل اخير يلخص محتويات الكتاب ، يعود ترنر الى الحجة التي استهل بها دراسته : ان الماركسيين الحديثين قد قاموا بعمل تهديم للاستشراق مفيد ، ولكنهم بفعلهم ذلك انما كشفوا عن مشكلات نظرية غير محلولة وبقايا هيغلية للمثالية والتاريخية ضمن التقليد الماركسي . وما تزال الحاجة تدعو الى الكثير من العمل لتحويل المفاهيم شبه العلمية التي يستخدمها العلماء حتى الان حول الشرق الاوسط الى ادوات تحليل مفيدة اكثر ويعرض التوسر وباليبار في كتابهما READING CAPITAL (١٩٧٠) اساسا لمثل هذا العمل . وبالطبع انه امر جوهري بالنسبة الى نهج ترنر ان العمل النظري والتجريبي يمكن ان يغذي بعضه بعضا ، وبكلام اخر انه لا توجد قطيعة معرفية تامة بين الماركسية والسوسيولوجيا . ومما لا ريب فيه ان إسهامه في الدراسات الشرق اوسطية إسهام قيم ، وسيكون من الممتع ان نرى اي تأثير سيتركه على العلماء العرب .

● مناقشات

تعليقات على هامش « الندوة النسائية »

روز غريب

استاذة الادب في كلية بيروت الجامعية

في مجلة « قضايا عربية » عدد تشرين الاول ١٩٧٩ ، تطلق الدكتورة نوال السعداوي ، المعروفة بمؤلفاتها الهادفة الى تحرير المرأة العربية ، دعوة الى تأليف اتحاد نسائي عربي موحد ، غايته جعل النساء العربيات « قوة سياسية وثقافية واجتماعية قادرة على اتخاذ القرار والمشاركة في القرارات الكبرى الوطنية والدفاع عن حقوق النساء ومصالحهن » .

ميزات هذا الاتحاد ، اولا . انه حركة شعبية نابعة من جميع الفئات لا من طبقة واحدة . ثانيا . انه حركة ديمقراطية لها استقلالها وحريتها ، لا ترتبط بدولة ولا بالاحزاب التقدمية التي فشلت في ادراك اهمية المرأة في النضال الثوري . ثالثا . انه يقوم على تخطيط وتحليل علمي تضطلع به الحركة النسائية نفسها كما تقوم بصياغة نظريتها وفلسفتها .

اهداف الاتحاد ، اولا . الاهداف الانتقالية او القريبة ، وهي السعي لحل مشاكل المرأة الخاضعة لقوانين وتقاليد جائرة ، المرهقة بعمل مزدوج ، المكبلة بقيود الامية والجهل . ثانيا . الاهداف البعيدة وهي القضاء على الاسباب الاساسية للقهر والاستغلال وانواع الاستعمار الجديدة والقديمة ، وبكلمة موجزة ، القضاء على النظام الابوي . وهنا تستدرك الدكتورة سعداوي بقولها ان الحركة المنشودة لا تستهدف تدمير الاسرة بل تدمير الاستغلال داخل الاسرة وخارجها ، ليحل فيها الحب والتعاون والمشاعر الدافئة مكان الاستغلال والقهر والاهداف الانانية .

في الاقطار العربية مئات من الجمعيات النسائية ، يجمع بينها الاتحاد النسائي العربي بواسطة مندوبات يمثلن تلك الجمعيات في جلساته ومؤتمراته ومقرراته الرسمية . لكن هذا الاتحاد ، كما ترى الدكتورة سعداوي ، لم يكن له نشاط سياسي بارز لعدم ادراكه البعد السياسي والاقتصادي لمشاكل المرأة ، ولأنه في غالب الاحيان لعب دور المساند للسلطة الحكومية او لبعض الاحزاب القائمة ، ولم يقم بنشاط حر مستقل .

على هذا ، يمكن اعتبار اقتراح الدكتورة سعداوي خطوة جريئة وجديدة في هذا الميدان ، سوى انه من صنف النظريات الصعبة التحقيق لصعوبة التواصل بين النساء في مختلف الاقطار والفئات والقطاعات . ذلك لأن المرأة العربية لم تقم حتى الآن بنشاط مثمر فعال الا على صعيد فردي او محلي . نجحت بعض الجمعيات النسائية المحلية في لبنان وسواه من اقطار عربية في تأدية خدمات قيمة على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي ، نذكر منها « مؤسسة احياء الحرف اللبنانية » ، « جمعيات رعاية الطفل » ، « جمعية انعاش القرية » ، « لجنة مهرجانات بعلبك » ، « جمعيات الصليب والهلال الاحمر » الخ .

وقد اشارت الى هذه الصعوبة السيدة منى القادري في ردها على مقال الدكتورة سعداوي (« المستقبل العربي » عدد ٢/ ١٩٨٠ ، ص ١٥٩) . لكن يؤخذ على هذا الرد أن صاحبته تربط قضية المرأة بحزب معين حيث تقول : « ان كل الايديولوجيا السياسية هي في الاساس تعبير عن مصالح طبقية محددة ، ولكل ايديولوجيا انصارها الطبقيون الذين يناضلون لاجلها ... والاساس الطبقي للحزب الاشتراكي الثوري يتحدد حصرا بالطبقات المسحوقة في المجتمع والمتجسدة اكثر من خلال طبقتي العمال والفلاحين ... فكيف توجه الدكتورة نوال دعوتها الى النساء من كل الطبقات ؟ » .

ردا على هذا نجيب بأن المرأة المسحوقة لا تنحصر في طبقات الفلاحين والعمال بل نجدها كذلك في القصور والهيئات البورجوازية . ومن واجب النساء التكتل او التعاون لتحصيل حقوقهن ومقاومة الظلم والطغيان لا على اساس طبقي بل على اساس وعي شامل واحساس مشترك بمواطن الظلم وعوامله ، والرغبة المشتركة في

مكافحته ، لان في الاتحاد قوة كما تقول الدكتورة سعداوي ، ولأن كل امرأة مسحوقة ، ناقمة على وضعها ، ينتظر منها ان تمد يدها الى مثيلتها في هذا الوضع مهما كانت طبقتها او جنسيتها او انتماؤها .

في الاقطار الغربية منظمات نسائية عالمية غير حكومية تقوم بنشاطات تعاونية وتؤلف شبكات واسعة الانتشار في مختلف الاقطار . لكن اكثرها لا ترتبط باي حزب او ايديولوجية سياسية . أدرجت منها اليز بولدنغ في كتابها « النساء في عالم القرن العشرين »* نحوا من خمسين وصنفتها الى خمس دينية ، مهنية ، تربوية ، رياضية ، سياسية . ويلاحظ ان الاتجاه السياسي يشمل فقط نحو عشرين في المئة من هذه المنظمات وان اكثرها تعمل لاقرار التفاهم والسلم العالمي . منها « الرابطة النسائية الدولية للسلم والحرية » التي تأسست سنة ١٩١٥ وضمت نساء من البيض والزنجيات ، ومن مختلف الشعوب والفئات .

ومع اننا لا ننكر أهمية الوعي السياسي لدى المرأة كما لدى الرجل ، نرى ان التركيز عليه واهمال النواحي العلمية والفنية والاقتصادية والتربوية وغيرها يؤلف نقصا فادحا ويؤذن بانحلال كل مسعى سياسي لا يرتكز على الوعي الشامل لحاجات البلاد ومظاهر تخلفها . لان ما نسميه بالديمقراطية والحرية والوحدة ونحو ذلك من مفاهيم تتحقق بها العدالة الاجتماعية لا يمكن ان تنمو وتزدهر في بيئة جهل وتخلف بل تصبح آنذاك لونا جديدا من الوان الاستبداد والارهاب ، لا سيما اذا استأثرت بالقيادة فئات وزعامات تشكو هي نفسها الجهل والتخلف والتبعية وتتخذ السياسة بابا لتحقيق أطماعها واشباع شهواتها .

ان المنظمات النسائية الدولية المشار اليها لم تؤد الى عزل المرأة عن الرجل وفصل نضالها عن نضاله ، بل ان بعض هذه المنظمات اشترك في تأسيسها رجال وقامت على التعاون بين الجنسين ، رغم كونها ذات قيادات نسائية واهداف تدعم نضال المرأة وتحريرها بوجه عام .

اما الندوة التي عقدتها ست من نسائنا المناضلات ، (اللواتي سأذكرهن مع حفظ الالقاب) ، بدعوة من مجلة « **قضايا عربية** » ، وباشراف ليلى الحر ، ونشر محتواها في عدد شباط ١٩٨٠ ، فقد نجحت في تقديم عدد غير قليل من الآراء والملاحظات الصائبة المبنية على الدرس والتجربة . اشارت بعضهن الى ان المرأة الغربية رغم نضالها الطويل الامد ما زالت تشكو من الاستعباد وتكافح للتحرر . كما ان المرأة العربية في العصور الماضية ، خلافا لما يزعم بعض الباحثين ، عاشت في ظل العبودية ، مع العلم بأن الحضارتين العربية والغربية أنجبتا عددا من النساء المتفوقات اللواتي انحصر تفوقهن في تقليد الرجال ، في حين ان أخواتهن عشن في ظلام دامس .

أكدت نوال سعداوي على ضرورة درس تاريخ المرأة في ضوء البحث العلمي لعل فيه ما يهدينا الى عوامل انحطاطها ووسائل ترقيتها . وأعلنت أهمية التحرر الاقتصادي للمرأة حين قالت ان الفتاة التي تتزوج لتجد من يعيلها هي سلعة تباع وتشرى وتظل مرهونة برسن اللقمة .

كان موقف الدين من المرأة احد الموضوعات الحساسة التي جابهتها الندوة باسلوب يتراوح بين الحذر والجرأة ، مما دعا ديزي الامير الى المطالبة بالعلمنة والزواج المدني اذ تلمح فيهما باب الخلاص . وقالت قمر حيدر ان « الحجاب سقط في الوطن العربي وما زالت بقعة صغيرة تتمسك به لاسباب سلطوية لا دخل فيها للدين » . والواقع الذي نلحظه ان الحجاب يتجدد على نطاق واسع . في بيروت ومناطق اخرى من لبنان . بصورة « التشادور » الذي يميز المرأة المسلمة في ايران كما في اقطار اخرى اسلامية . هذه الظاهرة الرجعية المتمثلة في بعث الحجاب وما يماثله من تقاليد كانت في طريقها الى الزوال ، لا تدل على ان الحركة التقدمية الحزبية سجلت اي نجاح او خطت اي خطوة في طريق تحرير المرأة . وقد ذكرت سونيا بيروتي ان اكثر الرجال تعصبا ورجعية وممارسة للارهاب ضد النساء هم الحزبيون الذين يرون في مساواتهم بالنساء عارا وشائنة

اما انفياع المرأة الى العلم والعمل فقد يكون ظاهرة استعبادية اذا ارغمها على القيام بعمل مزدوج والاسهام في نفقات الاسرة من غير ان تحظى بأي تغيير يخدم مصلحتها في مجال الاحوال الشخصية والقيادات الاجتماعية والسياسية . « العلم والعمل كلاهما للمرأة عبء جديد » ، كما تقول الهام كلاب . ما دامت مكبلة بالقاعدة المزدوجة التي تجعل نصيبها من الارث نصف نصيب الرجل ، ومن المحاسبة على الذنب ضعفي نصيب الرجل ، ومن المراكز السياسية والاجتماعية ما يقارب الصفر او اللاشيء . وقد أحسنت الهام تحديد أمراض التربية العائلية التي نخضع لها والتي تعد في اساس تخلفنا لان الاسرة « هي اللبنة الاولى في هرم مجتمعاتنا والاساس الذي تجب معالجته قبل معالجة الرأس » . واذا نحن رغبنا في استمرار الاسرة والمحافظة عليها لا بد لنا من بذل الجهد لاصلاحها وتطويرها بحيث نقضي على شكلها الرجعي الذي يجعلها اداة لنقل الموروث الجامد وترسيخ الاقطاعية والامتيازات والوان التعدي والاستغلال . ان استمرار الاسرة منوط باخضاعها لمبادىء العدالة والديمقراطية والاحترام المتبادل لحقوق اعضائها .

في موضوع الدين عند الغربيين ترى الهام كلاب ان « انحسار المسيحية في الاماكن الغربية المتبقية لها خير دليل على ازمة الحوار بين احكامها الفارقة في المثالية

(*) ELISE BOULDING. « Women In The Twentieth Century World, New york. 1977

وأحكام العصر المادية ، ثم تحذر من ان يلقى الدين الاسلامي قريبا نفس المصير اذا تشدد زعماؤه في تجميده ومنع تطوره .

ان التطور الذي طرأ على موقف الغربيين من الدين موضوع يحتاج الى درس مطول لا محل له هنا . لكن في وسعنا ان نشير الى مبدأ العلمنة او فصل الدين عن الدولة الذي كان اول علامات هذا التطور وكان الغرض منه اولا الحد من تنفذ رجال الدين . ثانيا توحيد قوانين البلاد بمنأى عن خلافات الاديان والطوائف التي كانت حجر عثرة في سبيل هذا التوحيد . اما انحسار المسيحية فلم ينجم عن المثل الاعلى الذي قدمته للبشر بل الارجح ان هناك اسبابا اخرى نشأت من اطراد التقدم العلمي وسيطرة العلوم التقنية التي هدمت كثيرا من العقائد . ويبقى المثل الاعلى رغم صعوبة تحقيقه ضرورة حياتية ، بدليل ان الفلسفات التي تحاول الحلول محل الدين ، مثلا الوجودية بشطريها المؤمن والملحد ، والشخصانية ، والفلسفة الاشتراكية بصيغتها المثالية ، لا كما يجري تطبيقها في الدول الاستعمارية الجديدة ، هذه الفلسفات اخذت عن المسيحية وربما عن اديان اخرى ، جوهرها او ميزاتها الانسانية المثالية . المبدأ الديمقراطي ، التعاون والاخاء العالمي ، تحرير الذات من خلال تحرير الآخرين . جميعها مبادىء مثالية لم يتم تطبيقها في اي دولة لكنها تظل هدفا يهتدون به في قوانينهم ويتجهون نحوه . كذلك شرعة حقوق الانسان ومبادىء المثالية التي تعتنقها الاديان الكبرى والمذاهب الصوفية العالمية ، القديم منها والحديث .

يبدو ان الاتجاه المعاصر عند المفكرين والفلاسفة المتدينين هو الحد من استعمال الشعائر والطقوس والمظاهر الخارجية كبناء المعابد واقامة الاعياد ، والدعوة الى التقارب والتفاهم بين الاديان والطوائف ، (الحركة المسكونية)، تمهيدا للوحدة والسلام العالمي اللذين نشدهما الانبياء والقديسون والمتصوفون منذ القديم . ميزة الكنائس المتطورة في الوقت الحاضر هي الطابع الاجتماعي الذي يجعل من رجال الدين رسل سلام ورعاية اجتماعية تهدف الى تخفيف الالم والبؤس في العالم .

اما الدين الذي يسعى اصحابه الى تجديده بتجديد الطقوس والتقاليد والشعائر والقشور التي تؤلف العلامات الفارقة بينه وبين الاديان الاخرى وتقيم الحواجز التي تعزله عنها ، وتفقده صفة العالمية ، هذا الدين لن يتاح له الثبات في وجه التطورات الحديثة التي تدفع الشعوب الى التحرر والتقارب والتعاون . رغم الموجات المضادة التي ترفع لواء الاستبداد وتقضي على الحريات .

في خاتمة المطاف ، تدعو نوال سعداوي الى ضرب النظامين الطبقي والابوي . وفي موقفها هذا تلتقي زميلات لها غربيات ، معاصرات ، منهن سيمون دو بوفوار واليز بولدينغ ،واندريه ميشيل التي نشرت مؤخرا تاريخا للمرأة عنوانه . الفمينيزم «Le-Feminisme» تضمنه دعوة الى التعاون بين نساء الشرق والغرب اولا باستخدام الدراسات المؤدية الى وعي الشرقيات لمشاكلهن . ثانيا بالتصدي للنظامين الشيوعي والرأسمالي اللذين يستخدمان القوة العسكرية ويستزلمان زعماء السياسة في العالم الثالث لاقرار سيطرتهما على العالم أجمع. ثالثا بتنبيه النساء الى الاضرار التي تلحقها بهن الانظمة الاقتصادية التي تجعلهن آلات دعاية للشركات الاحتكارية ووسائل مسخرة لتصريف منتوجاتها واستهلاك بضائعها .

اما أليز بولدنغ في كتابها . « النساء في عالم القرن العشرين » فتدعو الى ضرب المركزية السياسية والاقتصادية في العالم ومقاومة التسلح ، مرض العصر الحالي . وتنوه بشرعة حقوق الانسان التي تكرس مساواة الجنسين في الحقوق ومساواة البشر جميعا بمعزل عن اللون والعنصر والجنس والانتماء . من هذه الوثيقة تفرعت سنة المرأة وخطة العمل الدولية سنة ١٩٧٥ ، وهي التي يجب ان تؤلف للنساء نقطة انطلاق في سعيهن الى التحرر .

ان النساء في عصرنا ، بوفرة عددهن وبحكم الظروف والتطورات التي تجبرهن على العمل – ظروف مادية ، اجتماعية وتقنية – يستطعن تأليف قوة عظيمة اذا اتحدن في وجه الاطماع الدولية والطغيان والتسلح الذي يهدد العالم بالجوع والفناء ، لان ثلاثة ارباع ميزانيات الدول تنفق على الاسلحة ، خصوصا في العالم الثالث .

ولكن كيف تستطيع النساء التكتل والكفاح والتحرر ما دمن مستعبدات للامية ولتقاليد التربية التي تستعبدهن ؟ ليس في وسع المرأة في الظروف الحالية تأليف اتحاد او تجمع شامل يضم النساء على تباعد اقطارهن وأحوالهن . كل مشروع يبدأ نواتيا ، صغيرا ثم يتسع اما المشروع الذي يبدأ ضخما فلا يلبث ان يتفتت . لذلك يترتب على المرأة العربية ان تنهج خطة تنظيم واقعي يستهدف القيام بنشاطات عديدة ، منوعة ، نامية ، متفقة على اهداف تحررية معينة . نذكر منها .

اولا قيام صحافة نسائية تعتمد على مركز دراسات منهجية خاصة بموضوع المرأة العربية واحوالها ، تقابل تيار المجلات النسائية التي تتركز على مشاكل المرأة المترفة من ناحية الحب والجنس والازياء والمساحيق وادوات التجميل والابراج . ويكون هدف هذه الصحافة الجديدة تعزيز الحركة النسائية وتوجيهها وترسيخها على أسس علمية مدروسة .

ثانيا القيام بحملة منظمة وواسعة النطاق لمحو الامية بين النساء تشترك فيها الحكومات والمنظمات الخاصة في كل قطر عربي . ولا تحجم عن ضم جهودها الى جهود الجنس الآخر في سبيل القضاء على الامية بين الجنسين .

ثالثا اعداد حملة نسائية غرضها اشراك النساء في التخطيط التربوي الذي لا ينحصر في الادب والتكنولوجيا بل يدعو الى تجديد الاساليب التربوية بتحرير الاسرة من القيود التي تجعلها اداة جمود واستغلال ، والقضاء على القاعدة المزدوجة المفروضة على المرأة في البيت والمدرسة

والمجتمع ، وتغيير الشخصية التقليدية التي تنتجهـا الاسرة والمدرسة .

وبما ان المراة تكاد تحتكر وظيفة التربية في مراحلها الاولى التأسيسية ، فتجنيد المعلمات لمهمة الاصلاح التربوي لا سيما في مراحله الاولى امر ممكن ومنطقي ، شرط ربطه بقيادات نسائية واعية ، خبيرة ، مثقفة ، مكرسة لخدمة المجتمع وتقديم مصالحه العليـا على الانانيات والنعرات الطائفية والدينية والسياسية وما يتصل بها .

هذه ملاحظات موجزة اسوقها مع علمي بانها تحتاج الى توسيع وتحليل وتوثيق بشكل لا يتسع له هذا المقال .

THIRD WORLD CENTER FOR RESEARCH
AND PUBLISHING
117 Piccadilly London WI

النشرة الاستراتيجية

نشرة نصف شهرية تصدر عن مركز العالم الثالث للدراسات والنشر في لندن تعالج القضايا الاستراتيجية العربية والعالمية وشؤون الصراع العربي الاسرائيلي .

الاشتراك . ٥٢٠ دولارا أميركيا .

توزع النشرة على المشتركين فقط

صدر حديثاً عن :

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الجزء الثاني

من

الموسوعة العسكرية

رئيس التحرير
المقدم الهيثم الايوبي

شارك في اعداد هذا الجزء ٦٢ باحثا عربيا
من المختصين بالعلوم العسكرية ،
أو العلوم الملامسة لعلم الحرب بمعناه الشمولي .

وهو يضم الموضوعات
التي تبدأ اسماؤها من حرف (خ) حتى حرف (ر) .

عدد الصفحات . ٨٤٨ . عدد الصور . ٤٩٤ .
عدد الخرائط . ١٢٦ . عدد المخططات التوضيحية ٩٩ .

يصدر قريباً : **الجزء الثالث**



بيروت كمبيوتر برس ـ ٣١٣٥٣٠

حرية الثقافة العربية هجرة الكفاءات العربية

تتناول هذه السلسلة عدة محاور فكرية لعبت وما تزال تلعب دوراً كبيراً في بلورة الوعي السياسي العربي المعاصر والاتجاهات العامة في الثقافة العربية. وقد ساهم فيها نخبة من كبار مثقفي ومفكري هذه الأمة في وضع تصوراتهم وأفكارهم ورؤاهم.

وفي هذا الكتاب، ساهم الكتّاب الواردة أسماؤهم أدناه في موضوعات تصب في هذا المحور وحددوا مواقفهم من هذا الموضوع بأسلوب علمي رصين وبالتزام وطني واضح.

- د. محمد عمارة
- د. تيسير عبد الجابر
- د. فيصل دراج
- د. الياس زين
- سجاد الغازي
- رضا بو قراعة
- د. صبيح ترسون
- انطون القاسي
- د. حسام شلهوب
- د. سليمان رشيد سلمان
- د. انطون زحلان
- فؤاد اليم
- رمز غريب
- ماجيلة موريس
- منح الصلح
- د. عفيف دمشقية
- د. زهير حطب
- د. ابراهيم ابراهيم
- احمد محمد عطية
- د. أوجين غلوف
- دومنيك شيفاليه
- رمز ماري صابغ
- الآن فكر

RU2 7ZU



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
LE/DIRKAY